رواية

# النصري

ماريو بجين لوثينا

ترجمه وقدم له

د. محمد عبدالسلام المرابط

# النصري

ماريو بجين لوثينا

نقل النص إلى العربية وقدّم له ووضع معجمه: د. محمد عبد السلام المرابط

عنوان الكتاب باللغة الأصلية:

*Nazarí*

ترجمة عنوان الكتاب باللغة الإنكليزية:

*Nasrid*

***By Mario Villén Lucena***

***Translated by Dr. Mohammad Abdl Salam Almorabet***

الطبعة الأولى: نوفمبر ـ تشرين الثاني، 2023 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب النصري بالاتفاق مع دار هيسبانو أميركانا، برشلونة/ اسبانيا.

**This book *Nazarí* by Mario Villén, was translated & published under agreement with EDITORA Y DISTRIBUIDORA HISPANO AMERICANA, S.A (EDHASA) BARCELONA, SPAIN.**

**Copyrights@Mario Villén, 2021.**

**Arabic Translation Copyrights@Dar Al _ Rafidain 2023**

(C) جميع حقوق الطبع محفوظة/ **All Rights Reserved**

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافة نابضة بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com

info@daralrafidain.com

daralrafidain@yahoo.com

Dar AlRafidain دار الرافدين

daralrafidain

dar.alrafidain

dar_alrafidain

daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

# تقديم المترجم

تعد رواية «النصري Nazarí» للكاتب الإسباني «Mario Villén Lucena ماريو بجين لوثينا» من الإصدارات التي لقيت رواجا بين القراء، واهتماما من قبل النقاد، بإسبانيا في سنة 2021. وكانت الرواية قد رشحت لنيل جائزة Los Cerros de Úbeda «روابي أُبَّدَة» ووصلت إلى القائمة النهائية مع روايتين أخريين.

وينتمي هذا النص الطويل إلى جنس الرواية التاريخية التقليدية التي تجعل من السرد الروائي، عبر خط زمني متتابع، أساسا لها. وتجري حوادثها بين سنتي 1195م، وهي السنة التي وقعت فيها معركة حصن الأرك، و1246م، حينما اعترفت قشتالة بالإمارة النصرية التي أسسها محمد بن الأحمر النصري وجعل عاصمتها غرناطة. وهي مسافة زمنية تفوق النصف قرن عرفت حوادث جمة.

لعل أهم حدث شهدته هذه الفترة اندحار الإسلام في شبه الجزيرة بسبب انهيار الإمبراطورية الموحدية حامية الأندلس والغرب الإسلامي على إثر معركة العقاب. وكان الموحدون قد انهزموا في الأندلس أمام التحالف الصليبي بقيادة البابا إينوسان الثالث، وهو ما نتج عنه صعود قشتالة، والممالك النصرانية بالجزيرة، وتكالب الجميع ضد الأندلس الإسلامية، «اليتيمة»، كما سماها المنصور الموحدي، وهو على فراش الموت يوصي أبناءه ورجال دولته بمتابعة الجهاد في الأندلس. غير أن هذا الاندحار لم يكن ليصل

إلى ما وصل إليه، لولا سقوط الأمراء الموحدين ذاتهم، والزعماء الأندلسيين في صراعات داخلية، واستنجادهم بالنصارى ضد إخوانهم (استنجاد المأمون بالقوات القشتالية في حصار الخليفة الفتى يحيى بمراكش، استنصار أمير المسلمين ابن هود المتوكل بفرناندو الثالث «القديس» ضد باقي الزعامات المحلية في الأندلس...)، بل الأدهى خيانة أمراء لبني جلدتهم، وفتح الحدود الأندلسية أمام الجحافل القشتالية لضم الحواضر الأندلسية تباعا: بياسة، جيان، قرطبة، إشبيلية... (نموذج البياسي وغيره)، مع ما رافق ذلك من اقتتال بين الزعماء المحليين، وخيانة بعضهم لبعض (مقتل ابن هود على يد مضيفه ابن الرميمي حاكم ألمرية...)، وتنكر حتى للدين وللقيم الإسلامية التي قام عليها المشروع الحضاري الأندلسي (اعتناق السيد أبي زيد للنصرانية...).

كل ذلك قابله في الجهة الأخرى صعود ملوك عظام إلى عرش الممالك النصرانية جعلوا ديدنهم الانقضاض على ما تبقى من الأندلس الإسلامية، فأفادوا من هذا الانهيار، وحكموا السيف في رقاب مسلمي الأندلس، فقتلوا وشردوا ونهبوا يحميهم تفوق عسكري شهدته جل أرجاء أوروبا في هذه الفترة، ومظلة كنسية تبرر قتل الكفار (المسلمين) وسفك دمائهم، ورهبانيات فرسان لا تقتات سوى على تعصب ديني بغيض ضد الآخر. وإذا بقتل الأبرياء والنساء والأطفال حق مشروع، وملوك سفاكي الدماء يتحولون بفتاوى البابا إلى ملائكة... يكفي أن نمثل ببطل الرواية

الحقيقي الملك فرناندو الثالث «القديس» الذي وقع تكرسيه قديسا يعبد ويداه ملطختان بدماء الأبرياء.

ولعل أول ما سيلفت نظر القارئ العربي لهذه الترجمة لرواية النصري هو وفاء الكاتب «بجين» للوقائع التاريخية من منظور إسباني بحت، يسعى بكل السبل إلى تمجيد الذات في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ الأندلس الإسلامية كما أشرنا. غير أن هذا الوفاء لـ «الحقيقة» التاريخية لم يُنْسِ «بجين» هويته الأصلية، وهو أنه كاتب روائي يزاحم مؤرخ الأندلس الموضوعي في دراسته للإنسان والحدث، بما يملكه، أعني «بجين»، من قدرات على التخييل وملء الفراغات التاريخية بالتصورات الذاتية والتخمينات الخاصة عن الأحداث الماضية والمواقف التاريخية التي شهدتها هذه الفترة بشكل فني درامي مشوق. فإذا كان المؤرخ الموضوعي يدرس السياق الاجتماعي والتاريخي للإنسان الذي يصنع الحدث مجردا من جانبه الوجداني، فإن «بجين» يتفاعل مع أبطاله تفاعل الروائي مع شخصيات روايته، فمرة يخلع أشياء من ذاته عليهم، وأخرى يقوم بإسقاطات معاصرة لقيم غريبة على المجتمع الأندلسي برمته... وإذا بالأب المسلم يدعو أبناءه إلى مشاركته في العب من الخمرة، وإذا بالعلاقات الجنسية المحرمة يقول بها حتى الزهاد والطرقيين في الأندلس، وإذا بالناس تصلي من أجل الآخرين، وليس تدعو لهم، في مصليات تحمل أسماء مسيحية مثل «مصلى الخلاص»... ولعل

القارئ قد يرى ذلك من صميم الحرية التي يتمتع بها المبدع وهو مستغرق في تخيلاته ويبني عوالمه، غير أن وراء ذلك أسبابا أخرى إيديولوجية أهمها الرؤية السائدة اليوم في مدارس استعرابية من كون المجتمع الأندلسي لم يكن سوى مجتمع إسباني ناطق بالعربية، وأن الحضارة والثقافة العربيتين الإسلاميتين في الأندلس من صميم العبقرية الإسبانية، وأن الخطر الدائم الذي كان يتهدد الأندلس على الدوام هو خطر المغرب، أو كما يسميه الإسبان أفريقيا حيث يسكن أناس ألوانهم كالحة، وطبعوا على الشر والقتل...

يكرر «بجين» في حواراته دوما أنه عاشق للتاريخ، وملتزم بـ «الحقيقة» التاريخية، ومع ذلك، ومع هذا الالتزام، فإنه تمكن من الإفلات من السرد التاريخي «الصلب»، في روايته «النصري»، ونجح في نقل، عوض ذلك، تصوره للمادة التاريخية، وهو تصور الأديب الذي يحتوي التاريخ، ويتفاعل معه، وليس العكس، وذلك لتحقيق أغراض أعمق من مجرد السرد كما أشرنا.

يبدو السرد في رواية «بجين» «النصري» «لا يقتصر على كونه لونا أدبيا غرضه الحكاية» وتحقيق المتعة، وإنما، أيضا، وسيلة لإعادة «تدوين» الماضي من منظور فني يحتفي بالوجدان والدراما، ويصر على تمجيد «الذات» (القشتالية، النصرانية، الإسبانية...)، وما تتميز به من طهرانية وشجاعة وشهامة (الملك القديس فرناندو، شهامة الفرسان القشتاليين، عفة النصرانيات، الوفاء واحترام العهود...)،

والاحتفاء بكل ذلك على حساب الآخر (المسلم، الأندلسي، المغربي...) الذي انحطت قيمه، وسقطت أخلاقه (الصراع على السلطة، الاقتتال الداخلي، الجبن [ابن هود لم ينجد حاضرة الأندلس قرطبة وهو على بعد مسافة قصيرة منها وعلى رأس جيش قوامه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل]، قبول الضيم، الخيانة القومية والزوجية...).

ولعل هذا الانشغال بالذات المبالغ فيه أحيانا منع عن رواية النصري تلك المسحة الإنسانية المتسامحة التي تميز عادة الأعمال الروائية التاريخية الخالدة، حينما تتجاوز المحلية لتحلق عاليا في سماء القيم الإنسانية المشتركة. ذلك أنه بالرغم من تلك النظرة المتطورة نسبيا التي أبان عنها «بجين» في روايته، تجاه بعض أبطاله المسلمين، فإن الروائي الإسباني الشاب لم تسعفه قيمه الغربية الكاثوليكية على الانعتاق من النظرة الماضوية المحملة بالكليشهات تجاه «المورو»، فما زالت الصورة هي نفسها: مجتمع مسلم جاهل قاس لا عهد له ولا وفاء... مقابل مجتمع نصراني طهراني متقدم وصاحب رسالة...

حقا، كانت الفترة حرجة بالنسبة للمسلمين في الغرب الإسلامي عموما، وليس في الأندلس فقط، وعادة ما تسقط القيم في مثل هذه الظروف الدقيقة، والأزمات السياسية الكبرى، لكن مع ذلك لا تنعدم في الناس جميعا القيم الإنسانية الرفيعة التي لا تضيع أبدا وإن ضاع الإنسان في دواليب الأزمات والفترات التاريخية العصيبة...

وبالرغم من هذا التمحور حول الذات تمكن الروائي الشاب بما يتوفر عليه من قدرات فنية من تقديم رواية رائعة ذات حبكة قصصية معقدة مليئة بلوحات عن الحرب، والحب، والسياسة، والدبلوماسية، ومجالس الشراب، والجنس... وإن قلّت مشاهدُ التعايش والسلام... تجري وقائعها في فضاءات عربية إسلامية ذات طابع يذكر بأجواء ألف ليلة وليلة... كما تضمنت الروايةُ مشاهد من الانتصارات المتتالية لقشتالة وهي تستولي على الحواضر الأندلسية الواحدة تلو الأخرى بعد أن فقدت الأندلس درعها الموحدي إثر هزيمة العقاب، وسيطرة النصارى على الممرات الجبلية عبر جبال الشارات المؤدية إلى الأندلس بواسطة خيانة البياسي، وصراع الزعامات المحلية الأندلسية فيما بينها...

وبذلك جاءت الرواية لوحة فنية، مختلفة الألوان، كثيرة الأحداث، متعددة الشخوص، تنتقل بالقارئ من لوحة إلى أخرى عبر مئات الصفحات دون أن يشعر القارئ بالملل وهو يتتبع تأزم الأحداث وتعقدها، ويتطلع لمعرفة الحلول ويتشوف للنهايات.

وإذا كنتُ قد وجدتُ متعة وأنا أترجم هذا العالم المعقد والمشبك إلى العربية، فإني، مع ذلك، عانيت كثيرا في عملية النقل، وفك ما يرتبط بموضوع الرواية من أحداث تاريخية - يلتزم بها الكاتب حسب الرواية الإسبانية التزاما يكاد يكون تاما - خاصة وأن الشخوص العربية الإسلامية التي تتحرك في هذا العالم التاريخي - الخيالي

والفضاءات المكانية التي ينشط فيها أبطال الرواية تعرضت أسماؤها لكثير من التحريف على اللسان الإسباني، غدا معها إعادتها إلى أصولها العربية عملا مضنيا أقرب إلى عملية فك الألغاز، وهو ما يتطلب الكثير من الصبر والأناة، وقل مثل ذلك بالنسبة لأسماء البلدات، والقلاع، والقبائل (نمثل لذلك بـ «حصن الحنش» **Alange**، برج الحمام (الحمة) **Burgalimar**، قيجاطة **Quesada**، القبذاق **Alcaudete**...). غير أنني وفقت، بفضل من الله، في تخريج جل تلك الأسماء والأعلام والطبونيميات، وأرجعتها إلى أصولها العربية.

والكاتب ماريو بجين لوثينا من مواليد غرناطة سنة **1978**، درس العلوم السياسية والسوسيولوجيا بجامعة غرناطة ذاتها، وهو يعمل الآن موظفا بالإدارة العمومية بمالقة. وكان قد بدأ مسيرته الأدبية بكتابة القصة القصيرة، وحصل على ما يفوق عشر جوائز في هذا الجنس السردي بجانب كُتاب من طينة بلاس مالو، وكارولينا مولينا، قبل أن يعمل منسقا للأيام الخاصة بالرواية التاريخية التي تعقد سنويا بغرناطة، ويكتب أول عمل روائي طويل بعنوان «شعار غرناطة» سنة **2012**» أتبعه بـ بروايته الثانية «أربعون يوما من النار» التي تحكي عن غزو الفيكينج الشماليين لإشبيلية في القرن التاسع الميلادي...

وأنوه إلى أن القارئ العربي ينبغي عليه، وهو يقرأ الرواية، أن يستحضر أن المؤلف إسباني، وخلفيته الثقافية، كما أشرنا، مختلفة

وغير مؤسسة على قيمنا، وربما ستكون بعض المشاهد واللوحات في الرواية صادمة من منظور قيمنا الشرقية... من جهة أخرى لا يمكن أن ننتظر من طوائف من جيراننا الإسبان، حينما يكتبون عن ماضينا المشترك في الأندلس، أن ينسوا ولو لفترة قصيرة تمجيد الذات، كما لاحظنا على المؤلف، وإن كانوا في قرارة أنفسهم واعين بالتفوق الثقافي والحضاري للأندلس على ممالك قشتالة أو ليون أو أرغون... وهذا واقع كان يدفع بهؤلاء الكتاب إلى القيام بإسقاطات ثقافية، كما قلنا أعلاه، من صميم المجتمع الإسباني المعاصر على المجتمع الأندلسي الإسلامي القروسطي. وما ذلك إلا لتبرير دعوى أن حضارة الأندلس هي جزء من المجد الإسباني الخالد وليس للأمة العربية التي ينتمي إليها المشروع الأندلسي دينا ولغة وقيما وثقافة سوى اللغة العربية. كما نشير مرة أخرى إلى أن المؤلف متح من الصور النمطية التي ما زالت متحكمة إلى اليوم بالمخيال الإسباني بخصوص اعتبار المغربي، الذي حمل هم الأندلس منذ طارق بن زياد، بالخصم الأبدي (حتى لا أقول لفظة أخرى) والأخرق المتعصب والمتسلط على الأندلس الذي لم يحمل إليها على الدوام سوى الدمار والخراب، حسب هذه النظرة المتعصبة (نظريات أقطاب المدرسة الكاثوليكية المحدثة في الاستعراب الإسباني: خوليان ريبيرا، إميليو غرثيا غومث، المؤرخ سانتث ألبورنوس...) والحال أنه لولا هذا المغرب، الذي هو امتداد طبيعي للأندلس، لما كانت هناك حضارة أندلسية بشبه الجزيرة الإيبيرية... ويكفي

أن الكاتب يستنكف حتى عن استخدام الاسم العربي للضفة الجنوبية للمضيق وهو المغرب، ويصر على تسميته بأفريقيا، والمغاربة بالأفارقة المرتزقة، كأنهم أمة تائهة في قارة تمثل ربع العالم، لا وطن لهم، ولا رسالة حضارية، سائرا في ذلك على نهج المطران دي رادا، والمطران ثيسنيروس، والملكين الكاثوليكيين... وإن كان اسم العاصمة الموحدية مراكش الذي يطل في الرواية بين الفينة والأخرى، والحركة العلمية الفلسفية في عهد بني عبد المومن التي أثمرت شرح ابن رشد لأرسطو بدعوة من الخليفة المنصور ورغبة منه، والمنشآت العظيمة التي خلفها الموحدون بشبه الجزيرة والمغرب من قلاع ومآذن عظيمة (لاخيرالدا في إشبيلية، والكتبية بمراكش، وحسان بالرباط) وأبراج (برج الذهب بإشبيلية)... تفضح هذا التعامل الفج الذي لا يليق بآفاق القرن الواحد والعشرين، ويبين بالملوس أن الجغرافية والتاريخ لا يمكن طمسهما كما في حالة المغرب، أو سرقتهما كما وقع مع التراث الأندلسي العظيم.

ومع ذلك، يبقى هذا العمل نصا روائيا مشوقا محكم البناء، متعدد الأبعاد، يقدم لنا تصورا إسبانيا عن أنفسنا بعد مرور قرون على سقوط الأندلس... نحن الذين لا نزال حاضرين إلى اليوم نؤثر ونتأثر بالرغم من كل محاولات محونا من التاريخ.

إلى داريو

لأن هذه الرواية ليست سوى قطعة خبز تحت ذراعه الصغيرة...(1)

***

«كان هذا الرجل آية من آيات الله في السذاجة والسلامة والجَوْهَرِيَّةِ، جُنديا ثغْرِيا شهْما، أيِّدا، عظيمَ التجلد، رافضا للدعة والراحة، مُؤْثِرا للقَشْفِ، والاجْتِزاءِ باليسير، مُتَبَلِّغاً بالقليل، بعيدا عن التصِنُّع، جافيَ السَّلاح، شديدَ العزم، مرهوب الإقْدام، عظيمَ التشمير، محتقرا للعظيمة، مصطنعا لأهل بيته، فضا في طلب حقه، حاميا لقرابته وأقرانه وجيرانه، مباشرا للحروب بنفسه، تتغالى الحكايات في سلاحه وزينة ديابوزه، يخصِفُ النَّعلَ ويلبس الخشِن، ويُؤْثِرُ التَّبَدِّي، ويستشعر الجد في أموره».

من «إحاطة» ذي الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب الغرناطي

(ق. الرابع عشر الميلادي)

# مدخل تاريخي

تجري وقائع هذه الرواية خلال حقبة من تاريخ شبه الجزيرة اكتنفها التعقيد، وتقاذفتها أحداث خطيرة بعيدة الأثر. فقد كانت قشتالة تحيا فترة مشحونة بالاضطرابات وعدم الاستقرار، وتعاني الأمَرّين بسبب صراعها المتواصل ضد مملكة «ليون». في حين كانت الأندلس تحت سيطرة الإمبراطورية الموحدية. وكانت حركة الموحدين قد ظهرت في جبال الأطلس بالمغرب، إبان العقد الثالث من القرن الثاني عشر الميلادي، على يد طائفة من القبائل البربرية الملتفة حول ابن تومرت. وقد قام مذهب هذا الزعيم على فكرة استعادة الإسلام لروحه الأصلي عبر العودة إلى مصدريه الأساسيين وهما: القرآن والسنة النبوية. وكان ابن تومرت يرى أن الإسلام قد تسربت إليه بعضٌ من الأفكار الملوثة بفعل مرور الزمن، ودخول شعوب جديدة في هذا الدين، بحيث إن المؤمنين الخُلَّص، الذين لم يمسَّهم هذا التلوث، بات الناس ينظرون إليهم نظرتهم للغرباء.

كانت دعوة الزعيم الموحدي قائمة على الرجوع إلى صفاء الإيمان الحقيقي، عبر الأخذ بقوة بأصول الدين، ورفض كل تأويل أو تكييف. ولا يخفى أن هذه الرؤية تعكس موقفا متشددا يُعاقب بقسوة أبسطَ أَمارات الانحرافِ في المعتقد.

وحينما أعلن الموحدون العصيان ضد المرابطين، وكان الملثمون وقتها يسيطرون على المغرب والأندلس، تمكنت الحركة الجديدة من استمالة

عدد كبير من الأنصار، فقاوم أتباعها، من جبالهم وبشراسة، الحملاتِ التي شنها عليهم أعداؤهم المرابطون.

وغداة وفاة ابن تومرت، استطاع خَلَفُه عبدُ المومن من بسط سيطرة الموحدين على مراكش سنة 1147. وما لبث هؤلاء، وقد تملكوا المغرب، من الجواز إلى عدوة الأندلس، فأخضعوها لنفوذهم في فترة كان الناس قد ضاقوا ذَرْعا بحكم الملثمين. وسرعان ما فرضت الدولة الجديدة على الأندلسيين مذهبها، وهو تأويل عقدي يتعارض مع أرثوذوكسية المذهب المالكي الذي كان سائدا بشبه الجزيرة [والمغرب]. غير أن أتباع ابن تومرت، تجاوُزاً لهذا التعارض، وَعدُوا الناس بحماية الحدود والذود عنهم ضد النصارى.

فلما استتب الأمر للموحدين عسكريا وسياسيا، خطوا خطوتهم الأخيرة في سبيل التمكين لدولتهم، وهي التنصل من بيعة الخليفة العباسي في بغداد، فقطعوا آخر خيط كان يربطهم به، وأعلنوا عن خلافتهم الموحدية الخاصة بهم. وبهذا الإجراء أحدث هؤلاء المصامدة صدعا في جدار الوحدة التقليدية التي عرفت عن المسلمين. كان المسلمون قبل ذلك يدينون بالبيعة لزعيم ديني واحد، بغض النظر عن ولاء كل طائفة منهم لأمير الوقت الذي يتولى حكمها. وقد استشاط الأندلسيون غضبا على أتباع ابن تومرت لهذا الفعل، غير أن نقص التنظيم بين أهل الأندلس، وافتقارهم للجيش، فرض عليهم الخضوع للأمر الواقع، والاكتفاء بالحماية التي كان

يوفرها لهم هؤلاء الأفارقة. وبذلك بات الدفاع عن شبه الجزيرة الحجة الرئيسة للإقرار بشرعية الدولة الجديدة، والحفاظ على نظامها.

وقد نظر الأندلسيون إلى الموحدين باعتبارهم من أهل البدع. لأنهم بالرغم من كونهم يدينون بالإسلام مثل الأندلسيين، فإنهم كانوا يفرضون تصورا مختلفا عن هذا الدين، ينطوي على فهم خاص للعدالة، وللطقوسية الدينية. وبذلك كان مسلمو الأندلس يميزون بين الكفار، وهم غير المسلمين، وبين المبتدعة، وهم المسلمون الذين ينشقون عن المذهب الرسمي للدولة.

وقد حاولت في هذه الرواية أن أُبَسِّطَ عرض الوقائع التاريخية حتى لا يتحول التاريخ إلى حمولة زائدة عن الحد. فاستخدمت من الأسماء الشائعةَ والبسيطةَ دون المركبة، ليسهل على القارئ تمثل الشخوص والأحداث، والدخول في عالم الرواية. وسأمثل لذلك بالمعركة التي جرت أطوارها سنة 1212، فإني حينما أحيل عليها أستخدم اسم «لاس ناباس دي طولوسا» «Las Navas de Tolosa» بالرغم من أن المسلمين في هذه الحقبة كانوا يطلقون عليها «معركة العِقاب» «Batalla de la Cuesta»، ويسميها المسيحيون «معركة أُبَّدَة» «Batalla de Úbeda».

وأما عن بطل هذه الرواية فهو دون شك «محمد بن الأحمر»، أي «محمد» بن «الروخو» «el Rojo»، واللفظة في الإسبانية تعني الأحمر، وهو لون جعله ابن الأحمر حكرا عليه.

# ولادة أمير

الأَرَك Alarcos. يوليوز 1195

ضرب «أشقيلولة» براحته مصفقا على عنق حصانه الضخم، علامة على أصالة الحيوان، ثم شرع يداعب بأصابعه هُلْبَه الممشوطَ بعناية.

ـ قُدني إلى النصر ـ همس في أذن الجواد، وهو ينحني بأعلى جسمه نحو الأمام.

تلفت الفارس ونظر حوله... كانت الشمس قد أخذت تطل في خجل من أعلى السلسلة الجبلية المجاورة، وشرع النصارى في مغادرة «حصن الأرك». كانوا يأخذون مواقعهم متكدسين على منحدر الهضبة. بعد هُنَيْهَةٍ، بدأ القائد يؤدي صلاته في صمت، يلتمس من ربه العون والسند، على التو طفِق رجاله يقلدونه هم أيضا. كان نميمُ أصواتهم يغطي على أصوات خشخشة السلاح، وصهيل الخيل.

أنهى «أشقيلولة» صلاته، ثم تطلع، متفحصا، إلى الفرسان المائتين الذين وُضعوا تحت إمرته. كانوا ضمن سرية غير نظامية: لفت نظرَه أحدُهم لابسا درعا سابغة من حديد، في حين كان أغلب المقاتلين يحمون أنفسهم بزَرَد الجلد. كانت الوجوه تشي بحال الذعر، بينما سرت في أجسام بعض الرجال رعدةٌ جعلت دروعهم تهتز بشكل لا إرادي.

«حتى أنا كنت أرتعش في المرة الأولى» ـ مر بخاطره ـ «حينما نشرع في التقدم لن يحسوا وقتها سوى بوقع أقدام خيولهم» فكر

مرة أخرى. كان «أشقيلولة» قد صنع لنفسه شهرة المقاتل العنيد، وكسب احترام الرجال إثر مشاركاته العديدة في الدفاع عن الثغور. كان يعرف بعض هؤلاء الرجال معرفة جيدة، لأنه هو من قام بتدريبهم على فنون الحرب بقلعة «أرجونة» **Arjona**، فجعل منهم مقاتلين متمرسين، على دراية بأساليب القتال، وحسن التصرف في الميدان، أما آخرون... فلم يكونوا أكثر من فتيان لم تنبت لحاهم بعد، بالكاد يستطيعون حمل الرماح والمزاريق ورفعها إلى أعلى.

رويدا رويدا، بدأت تُسمع، من بين جَلَبة الحشود، الأوامرُ العسكرية، والخطبُ الحماسية. كان يلقيها في صرامة الشيوخ والقواد. من بعيد، بدتْ لامعةً أَدْرُعُ النصارى الحديديةُ وجلابيبُهم، فبدت الجموع على أكمل استعداد لخوض المعركة التي هيأ لها الجميع، مسلمين ونصارى، منذ شهور.

كان النقيب ورجاله قد نودي عليهم، في بداية الصيف، للالتحاق بـ «قرطبة»، والانضمام إلى الجيش العرمرم الذي جاز به الخليفةُ «الزُّقاق». وكان المنصور قد دعا للجهاد ضد النصارى تحدوه رغبة شديدة في الأخذ بالثأر لأبيه منذ أن قتل البرتغاليون، الذين كانوا يدافعون عن «شنترين» **Santarém**، والده، حدث ذلك منذ أكثر من عشر سنوات خلت. ولَكَمْ كان صدرُ الخليفة يَغلي من أجل الانتقام لوالده، إلا أن مواجهتَه لبؤر التمرد التي كانت تندلع هنا وهناك بِبَرِّ العُدوة كانت تحول دون ذلك. بدورهم استغل النصارى انشغالَ الخليفة بقمع تلك الثورات، فشددوا من غاراتهم

على أراضي الأندلس. فلما قضى «المنصور» على رؤوس الفتن، وصفا له الجو، أحس أن الوقت قد حان لتحقيق رغبته في الأخذ بالثأر. فجمع معظم قواته قريبا من «إشبيلية»، بمكان يعرف بـ «حصن الفرج» **Aznalfarache**، ثم انطلق من هناك باتجاه «قرطبة». فلم يلبث أن قطعت قواته الضخمة، في محفل رائع مهيب يميز عادة مواكب الملوك، ممر «موردال» **Muradel**، فاقتربت من «شَلْبَطَرَّة» **Salvatierra**، ثم عرج على **Congosto** «كونجوستو»، ووصل أخيرا إلى أحواز حصن «الأرَك»، وأشغال البناء به لم تنته بعد.

وقتها كان ملك «قشتالة» «ألفونسو الثامن» **Alfonso VIII** مقيما بالحصن، ينتظر وصول الإمدادات، لكن قوات المحمديين وصلت قبل المتوقع.

ولم يكن ليفوت الملكَ القشتاليَّ الوعيُ بخطورة الرهان، وإدراكُ ما يمكن أن يسفر عنه اللقاء العسكري المرتقب من عواقب وخيمة على الحدود، التي يمثلها «وادي يانة **Guadiana**»، بين الأندلس والممالك النصرانية. ومع ذلك أصر على النزال.

صباح أمس كان «ألفونسو الثامن» قد أمر قواته بالاصطفاف خارج الحصن في تحد للخليفة. غير أن الزعيم الموحدي، وهو القائد العسكري المحنك، قرر الإحجام عن خوض اللقاء، فضّل أن يفسح لرجاله في يوم راحة بعد تعب المسيرة الصعبة.

غير أن المسلمين فاجأوا «ألفونسو الثامن» في فجر اليوم التالي، بَدَوْا صفوفا مُتراصَّةً في غاية

النظام على سطح رابية تقابل «حصن الأرك». وكانوا قد أخذوا في الانتشار على الهضبة وأخذ مواقعهم بها ليلا، حتى إذا فَصُح الفجر، برزوا لعدوهم على تمام الهيئة لخوض المعركة. كانت أعلامهم منتصبة، متحدية، فلم يشك ملك «قشتالة» بأن المنتصر في الأرك سيُعرف قبل أن يُرخِي الليل بأسداله.

***

تواجهت القوات، ووقف كل فريق يراقب الآخر، وينتظر أوامر القادة العسكريين. مال «أشقيلولة» جانبا وهو فوق سرجه، ثم وضع يده على كتف أحد الفرسان الفتيان، كانت ساقه تقطر بولا، وخاطبه قائلا:

- يا بني، إن الله معنا. - كان القائد يريد أن يخفف على الفتى، ويرفع من عزمه.

كانت الوحدة التي يقودها «أشقيلولة» ضمن الوحدات الأندلسية التي ضمها الجناح الأيمن للجيش الإسلامي. في حين اصطف في الجناح الأيسر الزناتيون والمصامدة و[عرب المغرب من بني هلال، وبني سليم، ورباح، وسفيان..]، إضافة إلى قبائل بربرية أقل شأنا. أما في المقدمة فقد تجمعت فرق المتطوعة، يصاحبها خيالة الأغزاز المخيفين، وهم الرماة والنشابة الأتراك، ثم يتبعهم بعد ذلك في الترتيب الرماة المشاة. في حين احتل الوزير «أبو يحيى» القلب مع قومه [من قبيلة هنتاتة]. وكان المنصور قد عينه قائدا للجيش، وحاملا للوائه، وأما الخليفة [أبو يعقوب يوسف المنصور] فبقي متخفيا وراء الربوة محاطا

بحرسه الشخصي، وعدد ضخم من قوات الإمداد [ليحمي ظهور المسلمين إن أسفر الصدام عن هزيمتهم، ويسارع إلى نصرتهم. كانت الخطة محكمة، شارك في وضعها جميع قواده الكبار، منهم من المغاربة الشيخ «أبو يحيى الهنتاتي»، و«ابن رياح» قائد عرب المغرب... ومن الأندلسيين «ابن صناديد» قائد عساكر الأندلس وغيرهم].

***

وقف الفريقان متقابلين، غير أنه لم يبادر أيٌّ منهما بالتحرك. في حين راح الرجال يتبادلون النظرات، في محاولات لبثِّ الحماس...

- إنهم يتحركون! - صاح بغتة أحد الأندلسيين وهو يشير بإصبعه إلى الأمام.

نظر النقيب في اتجاه «حصن الأرك»، كان أول ما لمحت عيناه الغبار المتصاعد على إثر تحرك الخيالة الثقيلة القشتالية، وتقدمها نحو خطوط المسلمين. كانت الدروع الحديدية للفرسان المسيحيين وخيولهم تلمع تحت شمس حارقة ملتهبة، بينما كان بريق السلاح يتلألأ وَمضَاتٍ وسط سحابة كَدِرة عريضة بدت وكأنها تنزل من القلعة.

- أيها الرماة! استعدوا!

سمع «أشقيلولة» صدور الأمر العسكري بعيدا، من قلب الجيش، ثم وَصل سمعَه على الفور دويُّ طبول الموحدين وهي تثير الرهبة، فلم يلبث أن غطى هديرُها المرعب جنبات الوادي الضيق.

لم يكن أمام الرماة المسلمين متسعٌ من الوقت

سوى لرمي رشقتين من السهام، إذ في الحال تحولت حركة الفرسان المسيحيين إلى ركض كاسح يهدد الجيش الإسلامي بالفَناء.

ـ قاوموا! وثبتوا رماحكم!

ـ الزموا مواقعكم!

ـ اسحقوهم!

ترددت التعليمات العسكرية سريعا هنا وهناك لكبح جماح الهجوم القشتالي. فاختلطت أصداء الأصوات البشرية التي كانت تصل من جنبات الوادي بأصوات الطبول البعيدة، وهي تهدر كالرعود، ثم ما لبث أن غطى صياح القواد والرؤساء على الجلبة بهتاف «الله أكبر!»، أعادها بعدهم الرجال في الحال بصوت واحد ونغمة واحدة.

ـ الله أكبر! ـ ردد «أشقيلولة» هو أيضا، وقد حمل رمحه. على التو، فعل الأمر نفسَه رجالُه.

اقتحم سلاح الخيالة المسيحي عبر موجات متتالية مواقع المقدمة الإسلامية، فاكتسح في طريقه وحدات المتطوعة والرماة المتموقعين في الصفوف الأولى، ومزقهم شر ممزق. وما لبثت الساحة أن امتلأت بقتلى المسلمين، إذ لم يكن يتوفر هؤلاء الأشقياء على الوسائل المجدية لمجابهة الفرسان النصارى المدربين، والمجهزين خير تجهيز. وبذلك سقطت الصفوف الأولى في المقدمة الإسلامية جميعها، وتمكنت خيالة القشتاليين، على إثر ذلك، من فتح ثُلمة في الصفوف الثانية، حيث صمد الوزير «أبو يحيى»

محاطا بثقاة رجاله من بربر هنتاتة.

احتدم القتال واضطرمت المعركة، واستحر القتل في المسلمين، وأبيدت قوات المنصور الأمامية، ورغم ذلك لم يقم جناحا الجيش الإسلامي بأي ردة فعل، فقط، كانت فرق الفرسان الخفيفة تنتظر في هدوء تعليمات القواد... في تلك اللحظة كان الرجال في سَرِية «أشقيلولة» يحدقون في راية «أبي يحيى» بتركيز، لا يزيحون أنظارهم صوبها قيد أنملة. بغتة، بعد مرور لحظات على الصدام، شاهدوا الراية تتحرك، ثم تنحني، وأخيرا تنطلق في عنف وشدة، قبل أن تتعالى الهتافات بحياة الوزير الذي بدا وكأنه استعاد السيطرة على الوضع.

كان النقيب يراقب الوضع من موقعه هادئا ملتزما الصمت.

- استشهد - قال النقيب فجأة، وهو يتأمل المشهد بعيني المجرب.

- ماذا تقول؟ - سأل حامل الراية.

- أقول استشهد قائدنا... واستولى الملاعين على لوائه. - لا بد من فعل شيء - فكر سريعا، ثم تحول نحو حامل الراية، وخاطبه بحزم:

- الزم مكانك، وحافظ على نظام الرجال في وضعية قتال.

أدار «أشقيلولة» فرسه جانبَ ساقة الجيش الإسلامي، وغادر على وجه السرعة، وهناك التقى بقائد الفرسان الأندلسيين.

ـ استشهد «أبو يحيى» ـ قال «أشقيلولة» للقائد بنبرة دلت على خطورة الوضع، قبل أن يستطرد ـ ودمرت قوات القلب، علينا أن نتدخل حالا... قطعا، والحالة هذه، لن تصلنا أيُّ أوامر.

كان قائد الخيالة يصغي بتركيز، وإن ظهر عليه أنه غير مصدق.

ـ رجاءً، تمعّن في راية أبي يحيى. ـ طلب النقيب من قائده.

استجاب القائد، وتحول ببصره ناحيتها. كانت علامات القلق قد ارتسمت على ملامحه.

ـ ماذا تقترح؟

سأل حينها القائدُ النقيبَ وهو لا يزيح بنظره عن مشهد الراية.

ـ ما دام خيالة العدو قد اخترقت صفوفنا، فبإمكاننا أن نطوقها ثم ننقض عليها، وهو عمل نتقنه: نطعن بالرماح ونرمي بالسهام، ثم إن خيولَهم ثقيلةٌ بطيئةٌ بما تحمله من حديد، يتعذر عليها الاستجابة السريعة لهجومنا.

أطرق القائد، وأعطى لنفسه مهلة تفكير، ثم بعد هنيهة رفع هامته، ومد راحته صوب «أشقيلولة». على الإثر بادله هذا تحية بتحية، ثم شد كلا الرجلين على عضد الآخر وهما يتبادلان نظرتين ثابتتين طُبعتا بحُمَيا روح القتال.

ـ ابعث بأحد رجالك إلى الرابية الأخرى ليعلم قائد الجناح هناك بما عزمنا عليه.

ـ أمرك. ـ رد النقيب على الفور.

غادر «أشقيلولة» في اتجاه سريته، وسرعان ما هَدَرَ بالأمر العسكري عند وصوله، فتفشى في الحال بين الفرسان. كانت وحدته أول وحدة تتحرك نحو القشتاليين، وكان على النقيب أن يناور بسَرِيَّتِه ليسد المنافذ على النصارى. وما لبث أن تقدم إلى الأمام، وتموقع على رأس الرجال ليُحْكِمَ تقدمَهم، ويضبط تموضعهم.

كان إيقاع التقدم خفيفا، والفرسان يسيرون في انتظام، الفرس وراء الآخر، فأخذ التقدم شكل ذراع تنطلق من قاعدة الرابية، ثم تُعَرِّجُ إلى قلب الجيش الموحدي، حيث تركز الهجوم القشتالي. في الواجهة الأخرى من التل قام الأفارقة الزناتيون والمصامدة باتباع خطة الأندلسيين ليتم إحكام الطوق على النصارى. وما إن تنبه هؤلاء إلى الخطة حتى توزعوا إلى وحدات صغيرة اندفعت في اتجاه فرقة الأندلسيين الخفيفة، لكن المسلمين استجابوا سريعا للمناورة القشتالية.

تشبث «أشقيلولة» بموقعه، ضابطا أمر سريته، وهو يراقب تحرك النصارى، كانوا يقتربون في بطء من مواقعه، فلما عاين أن الاقتراب أصبح تهديدا، أمسك بإحدى حرابه، ورمى بها في اتجاه المتقدمين، لتوها استقرت في صدر أحد الفرسان القشتاليين، انغرزت بين أضلاعه وسرعان ما فارت دما انتثر سيلانه على جلباب المقاتل. على الإثر قام الرجال بالعمل ذاته ضد نصارى آخرين، ثم انسحبوا سريعا إلى موقع آمن.

سقط من المسيحيين العشرات بسبب تبادل الرمي، ومن أَفْلَتَ منهم من القتل، وتاق إلى

مطاردة المنسحبين من الأندلسيين، فشل في اللحاق بهم. كان هجوم النصارى على وحدة الخيالة الأندلسية قد خفف الضغط على فرقة المشاة في مقدمة الجيش الموحدي. سريعا استغل الخليفة «المنصور» الفرصة، وأمر بإطلاق فرق المدد من مواقعها ناحية القشتاليين، وقتها كان الأغزاز يعودون إلى مواقعهم الأولى دون تأخير، وهم يضيقون على مؤخرة الجيش النصرانى بنبالهم. أمام هذه المستجدات وجد النصارى أنفسهم محاصرين مرة أخرى، فحاولوا التجمع من جديد، والعودة إلى «حصن الأرك» في لحظة كانت السهام والحراب تنهال عليهم من كل جانب، كأنها عاصفة هوجاء من الحديد. كانت إبادتهم تتم رويدا رويدا، وإذا بالأرض تمتلئ بالقتلى مرة أخرى، إلا أن الدماء التي روت، هذه المرة، الأرض اليابسة والمتشققة كانت دماء مسيحية.

دفع النقيب «أشقيلولة» برجاله جهة النصارى وهم يحاولون النجاة بأنفسهم، لكن دون أمل. كانت جياد الأندلسيين تتحرك بمهل بين الجثث المنتثرة هنا وهناك. أوقف النقيب جواده ثم ترجل. كانت آهات الجرحى والمشوهين الذين بترت أعضاؤهم تنبعث من كل الجهات في تقابل مأساوي مع هدير الطبول المنبعث من المحلة الموحدية.

ـ إلى الأمام! ـ صاح القائد الأندلسي.

في الحال انقض الفرسان على ما تبقى من عدوهم بالسيوف، والمِقْمَعات، والحراب المسننة.

في تلك الآونة، تمكنت طائفة من المسيحيين

من الفرار، على الإثر سارت وراءهم وحدات من الأندلسيين بهدف أسرهم، بينما تَخَلَّفت من القشتاليين جماعة أخرى تهيأ أفرادها للدفاع عن أنفسهم. وقتها انتقى «أشقيلولة» بنظره الحاد أحد المقاتلين النصارى وقصده. كان الرجل قد رُسم على جلبابه صليب ضخم أسود، وينتمي لرهبانية فرسان «قلعة رباح»، والظاهر أنه فقد فرسه خلال معمعة النبال التي كان الأغزاز يرمون بها أعداءهم.

- استسلم! - صاح به النقيب، ورمحه مسدد نحوه بإحكام.

بحركة غاية في الخفة نَحَّى القشتالي بسيفه السلاح الموجه إليه، غير أن النقيب، تراجع في لمح البصر خطوة إلى الوراء، وهو يضع مقبض الرمح تحت ذراعه ليحكم قبضته عليه، ثم انقض على النصراني في حركة خفيفة رشيقة لم تترك للآخر أي فرصة لردة الفعل، لحظتها أحس القائد الأندلسي بطعنة الرمح تخترق وجه غريمه من الجنب حتى وصلت إلى عظمة الجمجمة، وكيف أن أُذَيْنَةَ الخوذة التصقت بوجنة القشتالي بفعل اختراق الطعنة، فدفعت بالزرَد الذي كان تحت الخوذة إلى القذال، قبل أن تصدر من الرَّباحي صرخةٌ حادة أضيفت إلى المئات التي كانت تسمع في جنبات التلال المحيطة.

سقط السيف من يد النصراني الجريح، ثم تهاوى على ركبتيه. على التو أخرج «أشقيلولة» سيفه من غِمْده، وضرب رأس المسيحي. فانقطعت في الحال الصرخات.

في تلك اللحظة اقترب من النقيب ثلاثة من القشتاليين، وقد أزمعوا على إراقة دمه. أسرع القائد إلى فرسه ليأخذ التُّرْس، وكان معلقا بالسرج، أمسك به في لمح البصر، ثم وقف متأهبا للدفاع عن نفسه.

- إلَيّ! - صرخ «أشقيلولة» وهو ينقض على المسيحي الذي تموضع على يساره. حاول هذا أن يحمي نفسه بالسيف، لكن ضربة من النقيب اهتزت لها ذراع القشتالي فلم يكن ليتحمل قوة الصدمة، فسقط منه سيفه وأصبح مجردا من السلاح، فكانت الضربة الثانية التي وجهها الأندلسي لغريمه كافية لجرحه جرحا قاتلا في عنقه. في تلك اللحظة رن زَرَدُ دِرْعِ القائد الأندلسي، وأحس النقيب بألم شديد في فخذه اليمنى.

- آه، أيها الكافر اللعين! - صرخ «أشقيلولة»، وقد أسرع أحد الرجال لنجدته.

سمع «أشقيلولة» طقطقة، ثم لمح للحال أن الزرد اللصيق الذي كان يحمي فَخِذَه قد اصطبغ باللون الأحمر.

استدار النقيب يريد التطلع إلى غريمه الجديد، كان هذا يستعيد توازنه ليحمل عليه مرة أخرى، غير أن المسلم شد على السيف من صفحته بيديه المحميتين بقفازتي الدرع، وضرب بكلتيهما على خوذة القشتالي بالمقبض، ثم غرز عارضة السيف في رأسه.

رمى «أشقيلولة» بالسيف، وقد أصيب بالدوار

قبل أن يسقط، هو أيضا، أرضا.

أجهز مقاتل سعى لنجدة النقيب على المسيحي الثالث، ثم خف إلى مساعدة رئيسه. نادى على زملاء آخرين من ذات الوحدة، وتمكن مع أربعة منهم من حمل القائد الجريح، ووضعه فوق سرجه، ليسحبوه من ساحة القتال.

- اتركوني! - طلب منهم حينما وضعوه على متن الجواد - أستطيع السير وحدي. - كان الجرح يختلج، والدم يفور منه غزيرا، والقائد الأندلسي يقاوم الآلام الحادة، ويعاين، في آن، كيف كان رجاله يقضون على من تبقى من النصارى، ثم رفع بصره نحو منحدر «حصن الأرك»، ولمح قوات الموحدين وهي تُضيّق على المشاة المسيحيين بالحصار والقنص وهم يتداعسون للدخول إلى الحصن طلبا للنجاة. وما هي إلا فترة حتى شاهد لواء القائد يعود مرة أخرى إلى حوزة المسلمين، وهم يلوحون به عند قاعدة السور، ويستوحي منه الرجال المحيطون روح الشجاعة والإقدام.

كانت بوادر الأصيل قد بدت تلوح في الأفق شفقا أحمر، تنبئ لُوَيْناتُه بانتهاء المعركة، وانتصار المسلمين.

لحظتها توجه النقيب بالخطاب إلى حامل رايته، التي بقيت عالية طوال القتال، قائلا:

- قُدِ الرجال نيابة عني، واحرصوا على أن تُصيبوا من الأسرى ما يكفي لضمان الغنيمة، واقتلوا من يقاوم.

وافق الرجل على كلام رئيسه، ثم انسحب مع

المنسحبين.

توجه النقيب بجواده إلى المعسكر، وهو يقاسي من آلامه التي تزداد حدتها تباعا حتى ظن بعد برهة أنه سيفقد وعيه. وحينما اقترب من الرابية التي كانت خلفها مضارب رجال المنصور، وصلته أصداء الفرح المخيمة في المعسكر: قهقهات، وتكبيرات، واحتفاء بالنصر. وبالرغم من المعاناة، ابتسم «أشقيلولة»، ومر بخاطره أن هذه المعركة سيتردد ذكرها لسنوات... حقا، لم يكن يرتاح للأفارقة، لكن ربما يعود الفضل لهم في عدم سقوط الأندلس.

أغمض «أشقيلولة» عينيه، وهو يشكر ربه على نعمة بقائه حيا، ليتذوق متعة هذا النصر.

***

كان الخليفة قد أمر بنقل المحلة إلى الجهة الأخرى من الرابية، قريبا من خاصرة «حصن الأرك»، بغرض تشديد الحصار على النصارى. كان الليل قد أرخى بظلامه على النواحي، وعمت عتمته الفضاء. على امتداد المعسكر اشتعلت الكوانين والمواقد يُهيأ عليها عشاء خاص لهؤلاء الرجال الذين تمكنوا من الانتصار على الملك القشتالي. وكان «ألفونسو الثامن» قد فر من موقع المعركة تاركا جيشه تحت رحمة المنتصرين.

***

اختلطت التهاليل والهتافات بآهات الجرحى وتأوهاتهم، ولم يكن الأطباء يتوقفون عن معالجة هؤلاء المصابين: يخيطون جراحهم،

ويبترون أعضاءهم، ويرجعون عظامهم إلى أماكنها من الجسد. في حين كُلف فريق من الجنود بجمع الجثث ونقلها إلى نواحي المعسكر: في جهة كانت تُكدس جثثُ المسيحيين صفوفا كئيبة في أجران الموت في انتظار أن تنهشها الغربان والنسور، وفي جهة أخرى كان المسلمون يدفنون في حفائر كبيرة بطقوس خفيفة سريعة كما يملي عليهم دينهم.

استند «أشقيلولة» إلى سرجه يريد أن يأخذ قسطا من الراحة، وبجانبه فرسه الذي يلازمه. قبل ذلك كان قد فحص جرحه طبيب شاب ارتأى أن يؤخر علاجه لعدم خطورة إصابته. فقط قدموا له بطانية وكأسا من منقوع بعض الأعشاب ليسكنوا من آلامه، حتى إذا جاء دوره في العلاج، اقترب منه طبيب أكبر سنا من السابق.

- «أشقيلولة»؟

- نعم... هو أنا - أجاب وهو يضيق من عينيه ليتحقق من زائره.

- «زهير»! - هتف أخيرا. كم تسعدني رؤيتك!

- وأنا كذلك يا بَلدِيّ. - كان «زهير» من «أرجونة» أيضا، وأحد معارف «أشقيلولة» القدماء. كان من جملة الأطباء الأندلسيين الذين اعتمدهم «المنصور» لعلاج جنده.

- دعنا نفحص ذلك الجرح قبل كل شيء. - نظر الطبيب نظرة سريعة إلى موضع الإصابة، ثم مال برأسه وهو يقول:

- لا بد أنك قاسيت من الآلام كثيرا... أن يكون

هذا منغرزا في موضع الجرح طوال ساعات...

- بوسعي أن أقول لك لا، لكنني حينها سأكون كاذبا... لم يخفف عني سوى نداوة الليل. الآن لم أعد أحس شيئا.

جَفَلَ الطبيب، وأسرع إلى اختبار حساسية الأطراف لدى النقيب. كان كل شيء على ما يرام، كان الجرح متورما فحسب. بعد هنيهة بادر الحكيم إلى مساعدة الجريح على نزع دِرعه القصير. لم يكن ذلك سهلا لأن الحركة أحيت لدى «أشقيلولة» الشعور بالألم.

- من الجيد أن تحس بالألم، كنتُ قد خفت عليك.

- فلتطمئن، إنه يؤلمني، ويؤلمني كثيرا.

لحظتها أنزل الطبيب الجوارب، وراح يفحص القائد بتُؤَدَة، وهو يقرب مصباحه الزيتي بين الفينة والأخرى.

- لقد أنقذ الزرَدُ ساقَك، وحياتَك، كانت الضربة قوية شديدة، مزقت عددا من العضلات. - قال الحكيم دون أن يُنَحِّيَ بصره عن موضع الإصابة. - كما سببت لك قَطْعا في الفخذ - واصل قائلا، ثم أمسك بالساق، وراح يحركها بلطف. كان «أشقيلولة» يتأوه من الألم. - إن عَظْم الساق مكسور. - أردف الطبيب.

- طيب، فلنشرع في العمل.

وضع «زهير» فانوسه الزيتي على الأرض، ثم فتح علبة الجَرَّاح التي يحملها معه:

- سنبدأ بخياطة القطْع - تنهد النقيب. -

بالمناسبة ـ تابع الجراح في شبه شرود ـ هنيئا.

ـ كلنا، نهنأ اليوم، ونحيا نشوة النصر، يا صديقي.

ـ بل أعني حفيدك.

على الإثر أشرق وجه «أشقيلولة».

ـ هل وُلد أخيرا؟

ـ أجل، ازداد قبل مغادرتي «أرجونة» بثلاثة أيام. كنت بدار صِهْرِك، وابنتُك على أحسن حال، إنها ما زالت شابةً في مُقْتَبَل العُمر، ولكم كانت عزيمتها قوية وهي تتحمل آلام الوضع.

ـ قلتَ إنه صبي؟ ـ أومأ الحكيم برأسه موافقا.

ـ أيَّ الأسماء اختاروا له؟

ـ «محمد».

ـ «محمد بن الأحمر»... اسم مجيد فاخر له رنين في السمع... أليس كذلك؟

ـ أجل، يبدو جيدا... ـ أجاب الطبيب وهو يهيئ أدواته. ـ يتمتع الوليد بصحة جيدة، وبنيته قوية... ولا غرو، شبيه بجده... أحسبك في هذه اللحظة أصغر جد في كل «أرجونة».

ـ صحيح يا «زهير»، إذ إني لم أكمل بعدُ الأربعين، سيكون ابني «إبراهيم» أكبر من حفيدي بثلاث سنوات، أما «عبد الله» فبأقل من سنة ـ أشرق وجه «أشيقلولة» وهو يذكر ابنيه الذكرين من زوجته الثانية. كان قد اقترن بهذه بعد وفاة زوجته الأولى.

ـ أكيد سيكونان زميلين لـ «محمد» في اللعب. ـ

تابع كلامه وقد أغرق في الضحك.

كان لهذا الخبر وقع سار على الرجل، وهو ما أنساه آلامه للحظات.

- استرخِ قليلا وأزح ببصرك، سأشرع في الخياطة.

مال النقيب إلى الوراء، ثم أطبق جفنيه. أحس لأول وهلة بمنطقة الجرح تغسل بالماء، ثم شعر بعد ذلك بوخز الإبرة المُحمَّاة وهي تخترق جلده.

- «محمد» بن الأحمر المولود عامَ معركة «الأرك» Alarcos - تلفظ الجد بصوت خافت هادئ، كما لو أنه يزجر بالغيب، ويتفاءل بما يخبؤه المستقبل لحفيده.

***

قلعة أرجونة Arjona. ربيع 1204

كانت تباشير الفجر تلوح في الأفق الشرقي غبشا حينما شرعت الفرقة الصغيرة في أشغالها. كانت الزمرة مكونة من ثلاثة أطفال، لم تتجاوز أعمارهم التاسعة، يقودهم الطفل «محمد». ولكم كان رب الأسرة يلح على «محمد» في أن يتعرف على أسرار فلح الأرض وزراعتها، «لأنها دعامة رزق الأسرة» كما يقول. كان يكرر على أسماع أولاده في صرامة، كلما بدت على أحدهم علامات تراخٍ أو وهنٍ، أن الرجل هو من يعتمد على نفسه في كسب رزقه. فإذا ملك الأرض، وجب عليه أن يتقن طرق حرثها، واستنبات زرعها وبقولها.

في هذا اليوم كان رب الأسرة غائبا يعمل على حفر بئر ببستان يملكه قريبا من أرجونة.

فقام «محمد» مقام والده في توجيه الأشغال وتوزيعها بين الأطفال الثلاثة. طلب من أخيه «إسماعيل» أن يعمل في المنطقة المستوية من الأرض، في حين لجأ هو وصديقه حسن إلى الجانب الأعلى من الحقل. بعد فترة وقد لمح الطفلان علامات الفجر، تركا مِعزَقَيهما جانبا، وطرحا على الأرض ثوبا نظيفا أديا عليه صلاة الفجر. بعد ذلك عادا لتوهما للعمل، وراحا يشقان الأرض بفأسيهما، يميزان بين الأعشاب، ويقتلعان الطفيلية منها.

ـ حسن، لا تنس فرز الأعشاب عن بعضها. ـ توجه «محمد» بالكلام إلى صديقه وهو يقترب منه ـ انظر، تركت هذه النباتات ملتفة على بعضها، وهو ما قد يسبب لها الاختناق.

ـ آسف، «محمد»، أنسى أن أنتقي النبات الجيد من الضار.

ـ لا بأس، أصلح ذلك. ـ أردف، وهو يشير إلى النبات.

ـ هل ستذهب اليوم إلى المدرسة؟ ـ سأل حسن.

ـ بعد الظهر، سأركب الخيل مع خَالَيَّ وجدي. أعلمني والدي أني قريبا سأكون قادرا على الركوب بالسرج.

لم يبالِ حسن بكلام «محمد»... ثم سأله:

ـ إذا لم تذهب إلى المدرسة، كيف ستقرأ القرآن؟

شد «محمد» على فأسه بقوة وضرب بها الأرض الصلبة ثلاث مرات ليقتلع جذور شجرة ضارة.

ـ اسمع يا حسن، إني سأخدم ربي بوسيلة أخرى أكثر نفعا. ـ أجاب.

بعد قليل، أخذ الطفلان سبيلين مختلفين. سار حسن في اتجاه، في حين سلك «محمد» وُجهة الطريق المؤدي إلى الرباط. كان المرابطون حينها يغادرون متجهين إلى أشغالهم في الأراضي الفلاحية المجاورة. بعيدا، انتصب برج كان يحمي المُجمَّع، وُيستخدم أحيانا مئذنة لرفع الأذان، وقف البناء منتصبا متحديا في طوله باقي البنايات الأخرى، كأنه منار في بحر من التراب.

شمر «محمد» قميصَه وهو يتصبب عرقا. ثم رفع فأسه ونزل به على الأرض، على الإثر سمع رنة ارتطام الفأس بشيء معدني. وضع الأداة جانبا، وقد داخله الفضول، وطفِق ينبش الأرض بيده، بعد برهة، اكتشف أنه يمسك بقطعة نقدية، ربما عملة رومانية من صنف النقد الذي كان جده «أشقيلولة» يحدثه عنه مرارا. بصق على القطعة، ثم مسح عليها بثوبه ليزيل عنها التراب. كان أحد وجهي القطعة يحمل صورة ثور يجر محراثا وفوق الجميع هلال، وفي الوجه الآخر نقشت صورة جندي يعتمر خوذة، ويقابل وجهه رمح.

ـ حرث وحرب. ـ قال لنفسه وهو يبتسم متسليا، كأن القطعة مرآة تعكس طبيعة شخصه ومثله في الحياة.

كان «محمد» مستغرقا في أحلامه حول الوحدة

النقدية الرومانية، لما وصلته أصداء أصوات خففت من وقعها نسائم الصباح المهيمنة. لمح أن اضطرابا عم المكان، وأن المرابطين كانوا يركضون في اتجاه بناية الرباط، يدخلونها ثم سرعان ما يخرجون منها. بعضهم مسلحون بالرماح، وآخرون يحملون السيوف، وطائفة أخرى اكتفت بحمل المجارف والمناجل.

- «محمد»! - صاح «إسماعيل» وهو يجري نحو أخيه وحسن في أعقابه. - النصارى، انظر يا «محمد» - كان يصرخ وهو يشير إلى نقطة في الوادي. كان الوادي ينفتح على الرباط في تقابل معه.

رفع «محمد» بصره، وبدا له رهط من النصارى يهاجمون المكان.

- هيا بنا... أسرع يا «محمد»!

وصل الصَّبيان حيث وقف «محمد». كان الإعياء قد أخذ من «إسماعيل» كل مأخذ، فتقطع نَفَسُه من اللهاث، في حين شَمَّرَ حسن قميصَه إلى أعلى حتى انكشفت ساقاه.

ثَبَتَ «محمد بن الأحمر» في مكانه، وهو يمعن النظر في ناحية الميدان الذي سيشهد القتال وشيكا.

- انصَرِفا... غادرا المكان، سألحق بكما في الطريق، أخبرا الناس بالخطر الداهم إن وصلتم إلى قلعة أرجونة قبلي.

- هل أنت مجنون؟ - باغته صديقه بالجواب.

أمسك «إسماعيل» بحسن وهو يحثه على مغادرة المكان سريعا. كان يعرف عنادَ أخيه، وإصرارَه على رأيه، وصعوبةَ إقناعه بالتراجع عن أفكاره.

ـ «محمد»، ـ نادى «إسماعيل» أخاه وكأنه ينتظر جوابا منه ـ أخي! ـ هذه المرة أدار «محمد» رأسه نحو شقيقه، ثم نظر في عينيه. ـ سنغادر يا «محمد»، أرجوك، لا ترتكب الحماقات، وعد حالا.

ـ غادِرا مطمئنَّين، سألحق بكما حالا.

على التو، انصرف الصِّبيان وهما يركضان عبر العقبات المؤدية إلى الرباط، في اللحظة ذاتها بدأ هجوم المسيحيين على المرابطين.

تسمر الفتى في مكانه لا تصدر عنه أيُّ حركة، لحظة رأى الفرسان النصارى وهم يطعنون حماة الرباط برماحهم. لم يكن بوسع الطفل أن يميّز تفاصيل القتال، لكنه لمح كيف أن المدافعين كانوا يسْقُطون الواحدَ تلو الآخر، وهم لابسون قَشاشِب، وجلابيب بسيطة من الكتان، ويحملون أسلحة بدائية في مواجهة فرسان محميين خير حماية. كان عدد هؤلاء الفرسان قرابة العشرين، مصاحبين بآخرين في مثل عددهم، غير أنهم كانوا يركبون البغال، ولا يبالون بالقتال، وإنما ترجلوا من دوابهم، ثم شرعوا في نسف الزروع، وإتلاف أشجار الفاكهة، قبل أن يحمل أفراد منهم مشاعل النيران، ويرموا بها في مخزن الحبوب داخل الرباط.

كان الطفل يرقب كل ذلك بحنق وغضب شديدين، أنفاسه مضطربة، وقبضتا يديه مشدودتين، وهو في حال من الكَمَد الأليم. كان يسمع بين الفينة

والأخرى طقطقة السلاح المتصادم، والزعقات الصادرة من هنا أو هناك. بعد برهة رأى أعمدة من الدخان تتصاعد في السماء، أعقبتها نارٌ متأججة تجتاح أرجاء المكان، وتحوله إلى كتلة من الفحم المتناثر.

- سُحْقا! - انفجر الفتى صارخا بصوت غضب تردد صداه في جنبات الوادي، وقد عجز عن كبح البغض الذي تمكن من قلبه.

وجه الفرسان نظراتهم نحو مصدر الصرخة، على الإثر انطلق أحدهم ناحيةَ الطفل وهو يسدد رمحه في اتجاهه، كان «محمد» يبكي من الغيظ. لم يكن ذكيا حينما صرخ صرخته المدوية، غير أنه كان يشعر بأن النار التي التهمت نطاق الرباط التهمت أيضا مهجته. نظر إلى العقبة التي تؤدي إلى قلعة أرجونة، وأيقن أن الفرار بات مستحيلا. لحظتها كان المسيحي قد اقترب من ابن الأحمر ليكتشف أنه أمام طفل.

تأمل الفتى الفارس مليا وهو يجفف دمعه، كان القشتالي يحمل إضافة إلى الرمح تُرسا، ويشد على وسطه سيفا في غمده، كان جسمه محميا بدِرع حديدي يغطي جزءا منه جلبابٌ نقشت عليه صورة ضخمة لصليب أسود ينتهي في أطرافه بصور الزنابق. «فرسان شَلْبَطَرَّة... فرسان قلعة رباح في القديم» مر بخاطر الصبي. كان «محمد» يتمتع بذاكرة جيدة، ذكر حديث جده عن هذه الرهبانية التي كانت أكبر خاسر في يوم الأرك، المعركة المجيدة التي وُلد يوم وقوعها. بهذا الظفر استطاع المسلمون دفع حدودهم نحو

الشمال، [ووصلت طلائعهم إلى أسوار العاصمة طليطلة. غير أن الخليفة المنصور اضطر إلى التراجع، ولم يحسن استغلال الظرف، وهو ما اعتبره المؤرخون هفوة استراتيجية جسيمة]. وكان من جملة ما استرجعه المسلمون أراضي تدخل ضمن نفوذ فرسان «قلعة رباح» ومركز رهبانيتهم. [وقد أسست رهبانية «قلعة رباح» Calatrava سنة 1158 للدفاع عن القلعة المذكورة باعتبارها النقطة الاستراتيجية للدفاع عن طليلطة قلب النصرانية في شبه الجزيرة].. غير أن هؤلاء المقاتلين الرهبان تمكنوا بعد سنوات قليلة من مداهمة حصن شَلْبَطَرَّة Salvatierra واستولوا عليه، ثم نقلوا إليه مقرهم. ومنذ هذا التاريخ اتخذوا لأنفسهم اسم هذه القلعة التي غدت جزيرة في قلب بلاد الإسلام، وحولوها إلى نقطة انطلاق لغاراتهم، ورأسِ حربةٍ في حملاتهم ضد المسلمين. ولكم كانوا يتوقون إلى الانتقام، ويرغبون في استرجاع ما كان ملكا لهم. وكان والد «محمد» وجده قد شرحا له أن قشتالة والموحدين كانوا في هذه الأثناء في حالة صلح، غير أن الفريقين لم يتوقفا عن شن الغارات، بالرغم من عقد الهدنة بينهما، وذلك بنية إضعاف كل طرف لغريمه.

أوقف الفارس جواده على بعد خطوات من الطفل. ثم وجه رمحه نحوه وخاطبه باللغة الرومانثية:

- أيها الفتى، اذهب إلى قلعة أرجونة، وقل لأهلها إننا سنعود لنسترجع ما هو ملك لنا،

سنسترد ما ضاع منا، وسنأخذ المزيد: هذه الأراضي، وما يليها في الجنوب.

اكتفى «محمد» بالنظر إلى الفارس، دون أن يتلفظ ولو بكلمة، بالرغم من أنه كان يفهم لغة الرومانثي [كحال نسبة من مسلمي الأندلس] .

ـ هل فهمت كلامي؟ ـ رد «محمد» ابن الأحمر بالإيجاب، وقد تسمرت عيناه في سنان الرمح.

ـ إذن، انطلق!

وكذلك فعل. انطلق لا يلوي على شيء، ولم يتوقف إلا عند أول صَفْح في الطريق الصاعد، توقف الطفل ليسترد أنفاسَه، ويَطْمَئِنَّ رَوْعُه. استدار، وطفِق يتأمل ألسنة النيران وهي تلتهم نطاق الرباط.

كان النصارى وقتها ينسحبون راضين عن أنفسهم.

استعاد الطفلُ نفسه، ونظر إلى قبضتي يديه المشدودتين، فذكر حينئذ القطعة النقدية الرومانية، فأرخى أصابعه، ولمح أن راحتيه قد احمرتا من شدة ضغط الأصابع عليهما. كانت صورة الجندي الروماني المنقوشة على وجه القطعة قد انطبعت أيضا على إحدى راحتيه، كما لو أنها إشعار مبكر بما يخبؤه له القدر، وبالسبيل الذي سيسلكه في حياته.

عاد إلى الشد على قبضتي يديه، وتابع سباقه في اتجاه أعلى المنحدر. في ذلك اليوم اتخذ قرارا تغيّر به مجرى حياته إلى الأبد.

«يوما ما سأصبح ثغريا(2)[جنديا مرابطا في الثغور] عظيما، وسأدافع عن هذه الأرض المقدسة».

***

مزرعة الماء الحلو Cortijo de Agua Dulce (جنوب قشتالة). صيف 1204

ـ هيا، يا صغيرتي، ادخلي. ـ رحبت الخالة بماريا، فاجتازت القادمة عتبة الباب في صمت.

كان يخيم على البيت ظلام دامس، فأسرعت المرأة إلى فتح النوافذ.

ـ فليسطع علينا غفرانك يا رب. ـ قالت المرأة بعد أن غمر النور المكان، في حين ابتسمت ماريا باحتشام.

ـ هذه الدار ستصبح منذ الآن دارك.

كان الصيف في نهاياته، أصائله تعبق بنسائم باردة منعشة، بينما كان الطريق الذي سلكته ماريا وخالتها للوصول إلى البيت طويلا مرهقا.

أخذت المرأة بيد القادمة الجديدة، وسارت بها إلى المطبخ. كان المكان ملتهبا يكاد يشتعل سعيرا... اقتربت ماريا من النار، وجعلت تنظر إليها مأخوذة بألسنة اللهب المتراقصة كما لو أنها تلعق الهواء طلبا للأكسجين.

وضعت الخالة يدها على كتفي ماريا وقالت:

ـ ابنتي، كم عمرك؟

توقفت الطفلة برهة لتفكر .

- سأكمل ثماني سنوات في هذا الخريف.

- حسنا، امرأة صغيرة، لك من العمر ما يكفي لتفهمي الأمور. - ظلت الطفلة ساكنة لا تحول نظرها عن النار. - أحيانا يأخذ الرب أبناءه قبل الموعد الذي نريد - استطردت المرأة - يفعل ذلك ليجعلهم بجانبه، قريبين منه. وفي مرات أخرى يقرر إبقاءهم هنا ليخدموه بشكل جيد. تفهمين ما أريد قوله؟

أومأت ماريا برأسها موافقة. ذكرتها تلك الكلمات بكلمات أخرى كان يتفوه بها القس الذي أشرف على جنازة والديها. وهو رجل الدين نفسه الذي راسل المرأة يطلب حضورها حينما أتت النار على بيت أسرة ماريا.

- مع الزمن ستفهمين كلامي جيدا. - واصلت الخالة - أختي... أمك... - لم تتمكن المرأة من حبس دموعها، ففضلت الصمت حتى لا تحيي جمرات من الألم تسكن قلبيهما. - تريدين ماء؟ لدينا عينٌ قريبة ماؤها عذبٌ زُلال.

في تلك اللحظة سُمعت أصوات الرجال وهم يعودون من الحقول، حيث قضوا نهارهم يفلحون الأرض. كانوا قد أزمعوا على الحرث مبكرا ذلك العام حتى لا تدركهم الأمطار على حين غرة وهم غير مهيئين.

- ها قد وصل خالك.

وصل الرجل وابتسامة مرسومة على محياه، غير أنه ما إن رأى زوجته بصحبة الطفلة حتى تغيرت ملامح وجهه وأصبحت صارمة.

ـ هذه هي الصبية؟ ـ أومأت المرأة بالإيجاب. ـ تنهد الرجل، ثم توجه بالخطاب إلى الطفلة ـ حسنا، دعيني أشرح لك: أنا رامون، خالك. ستبقين هنا معنا... ـ نظر سريعا إلى زوجته ثم أردف ـ أبناء أعمامك لديهم الآن أسرهم الخاصة بهم. أنا وخالتك نعيش وحيدَين، والعمر يتقدم بنا، ومن الجيد لنا أن تنضاف يدان أخريان إلينا للمساعدة. ـ تلفظ بهذا الكلام وهو يحدق في الطفلة التي ردت عليه بالإيجاب. ـ ستساعدين خالتك في شؤون البيت والزريبة. وحينما تكبرين، ويصبح جسمك أصلب، ستشاركين في أعمال الحقل. يبدو لك الأمر جيدا؟

كانت ماريا توافق بشكل آلي على كل الأمور.

ـ وحينما يأتي الوقت المناسب، سننتقي لك زوجا فاضلا. ـ أردفت الخالة وهي تداعب شعر الطفلة ـ ولن يكون الأمر صعبا، لأنك جميلة جدا يا ماريا.

قَبَّلَت المرأة الصبية في جبينها، ثم نظرت إلى زوجها بعينين مِلْؤُهُما الشكر والامتنان.

ـ هذا أمر ينبغي أن تشكريني عليه. ـ همس الرجل في أذن المرأة، ثم غادر إلى الصحن، يطلب الدن لينظف نفسه. على الإثر أطلقت المرأة ضحكة كتومة.

ـ حسنا، يا ماريا، هيا نرى ما لدينا في خزانة المؤونة. هذا وقت تهييئ طعام العشاء.

في وداعة، تبعت الطفلة خالتها، وبدا كأن صوت الأواني أيقظها من أحلامها.

***

طورو، مملكة «ليون» **Toro, reino de León**.
**صيف 1204**

فتح أحد الحراس الباب، وخرج «ألفونسو التاسع» إلى الفِناء المبلط. كانت «برنگيلا» جالسة على دكة من حجر تستظل بشجرة، وهي تقرأ في كتاب عن سيرة القديسين، في حين كان أبناؤها الكبار يلعبون مع المربيتين المسؤولتين عن تربيتهما. في جهة أخرى كانت حاضنةٌ تُرضع «برنگيلا» الصغيرة التي ازدادت منذ أسابيع قليلة.

اقترب الملك من زوجته، ومد لها وثيقة مطوية. أخذت المرأة الوثيقة بهدوء، غير أنها بمقدار ما كانت تتقدم في قراءتها كان نَفَسُها يتسارع، وعيناها تزدادان لمعانا. بدأت يدها ترتعش، ثم عجزت عن مواصلة قراءة السطور الأخيرة.

كانت الرسالة من البابا ردا على الالتماس الذي رفعه «ألفونسو التاسع» ملك «ليون» إلى البابا «إينوسان الثالث» لينظر في مسألة زواجه من «برنگيلا»، وهي إحدى قريباته. وكان الزوجان قد أقدما على الزواج دون استشارة الحبر الأعظم [لأسباب سياسية] رغم علاقة الدم التي تربطهما [وهي علاقة مانعة للزواج حسب القانون الكنسي، إلا بإذن من البابا].(3) فكان أن أعلن الحبر الأعظم في تشدد أن هذا الزواج لاغ، فعل ذلك منذ حوالي سنة، ولم يتراجع عن فتواه رغم توسط ملك «قشتالة» «ألفونسو الثامن»، والد «برنگيلا»، وابن عم ملك «ليون». [ولعل ما يفسر

هذا التصلب أن «ألفونسو التاسع» كان يربطه حلف مع الموحدين قصد مؤازرته في الدفاع عن مملكته ضد مملكتي «قشتالة» و«أراجون»، وهو ما لم تغفره الكنيسة لهذا الملك]. على كل حال، كان هذا الالتماس آخر محاولة من جانب الزوج لإنقاذ زيجته، غير أن الجواب الواضح والقاطع من قبل أعلى سلطة في الكنيسة أجهض كل أمل. فقد ذَكَّر «إينوسان الثالث» في رسالته أنه كان قد أصدر فتوى تقضي بضرورة الافتراق، وأنه في حال عدم الامتثال فورا للبراءة البابوية، فإن الزوجين سيكونان عرضة للحرمان الكنسي.

أجهشت «برنگيلا» بالبكاء، وسقطت بعض دموعها على الوثيقة البابوية. أمسك الملك من جديد بالوثيقة، ثم وضع يده على كتف المرأة.

- سأراك الليلة، ينبغي أن تستعدي للمغادرة.
- خاطب «ألفونسو» «بريجيلا» وهو يتظاهر بالصرامة.

في الحقيقة، كان زواجه بالأميرة القشتالية خطة سياسية من قبل الملك لحل خلاف قديم بين مملكتي «ليون»

وقشتالة حول أراضي حدودية تعود ملكيتها لـ «الإنْفَنْطاتْگو» [وهي الأراضي الحدودية التي كان الملوك النصارى يسلمون إدارتها لبناتهم العزباوات]. وكان «ألفونسو الثامن» قد عزل سياسيا مملكة «ليون» عبر عقد عدد من اتفاقات الهدنة والتحالفات المعقدة. أمام هذا الوضع، وجد «ألفونسو التاسع» نفسه مرغما على طلب الصلح من الملك القشتالي، وإرساء هذا السلام

بالزواج من «برنگيلا» ابنة «ألفونسو الثامن»، على أن يكون صداقها جميع الأراضي التي وقع عليها الخلاف. والآن، وقد فصل البابا بينه وبين زوجته، تخوف ملك «ليون» من عودة المنازعات بينه وبين قشتالة من جديد. وإن أحس، أيضا، ببعض الأسف لكونه سيفقد بسبب هذه الفتوى البابوية مستشارة حكيمة، وزوجة ولود، وعشيقة فاتنة، بالرغم من أن زواجه من القشتالية كان أصلا زواجا سياسيا.

بقيت «برنگيلا» بمفردها، وقد غمرها حزن عميق. لحظة، أخذت كتاب سيرة القديسين الذي كان بين يديها ورمت به في قوة على الأرض المبلطة بالحجر. لمح فرناندو، أكبر أولادها، ما فعلته أمه، فتخلى عن اللعب، واقترب منها.

- ما بك، يا أمي؟

مسحت المرأة دموعها، ووضعت بين يديها وجنتي ابنها اللطيفتين، كان الطفل ذو الثلاث سنوات قد أحس بكآبة والدته رغم حداثة سنه.

- لا شيء يا بني، اشتقت لوالدي فحسب، جدك ألفونسو. هل تَذْكُرُه؟ - لم يجب الطفل - إنه يحبك كثيرا. - هل تريد أن نذهب لزيارته؟

- نعم. - أجاب الطفل وقد تهلل وجهه.

- حسنا، إذن فلنذهب غدا إلى قشتالة.

- نعم! كرر الصبي بصوت عال أثار انتباه أخويه ألفونسو وكُنسْطانْزا، نظر الطفلان ناحية الأم وولدها لفترة وجيزة، ثم عادا إلى لعبهما.

التقط فرناندو كتاب سيرة القديسين من الأرض، وأعاده إلى أمه. ثم آب إلى ساحة اللعب، وهو يترنم بأغنية أطفال، وسرعان ما عاود اللعب مع باقي الصبية.

***

«قلعة أرجونة»، Arjona. 1205

ـ يا أهل الدار؟

دخل «أشقيلولة» إلى صحن البيت مصحوبا بولديه، وهو يَظْلَعُ قليلا بساقه اليمنى. لم تتأخر ابنته في الخروج لاستقباله وهي تحمل بين يديها صبيا.

ـ والدي، أخوي، كم يسرني أن أراكم.

تلألأ وجه الشابة فرحا بالقادمين، وقد برز بطنها جميلا من أثر الحمل.

ـ ابنتي، أرى أن ما تحميلنه هناك هو صبي آخر.
ـ خاطب «أشقيلولة» ابنته وهو يشير إلى بطنها
ـ إني واثق مما اقول. إن الله تعالى أكرمك بمنة ولادة الرجال، والإتيان بالمقاتلين للذود عن راية الإسلام.

في تلك اللحظة، دخل «محمد» و«إسماعيل» مبتهجين صحن المنزل وهما يركضان. كانا يريدان استصحاب خاليهما إلى الحارة.

ـ خذا الحذر! ـ صاحت أمهما وهما يمران بالدهليز.

استيقظ على صوت صياحها الصبي الذي كانت تحضنه، وشرع في البكاء. راحت تهدهده حتى

سكن روعه.

ـ فَرَج لا يتوقف عن البكاء... أنا مُجْهَدَةٌ يا أبي.

ـ إيِّ، يظهر ذلك على ملامح، لكن خففي عن نفسك، لا ضير، بضعة أعوام من التعب، ثم ستجدين الجميع متزوجين ـ ضحك الأب والابنة معا ـ يبدو أن التفاهم بين هؤلاء الأربعة قائم باستمرار. ـ أردف الوالد.

ـ هم متشابهون، ويقضون الساعات الطوال سوية. من الأحسن أن تكون تربيتهم كذلك.

ـ أولادي وأولادك يلعبون معا... ـ علق «أشقيلولة» وهو يضحك.

تزوجت فاطمة وهي في الخامسة عشرة من عمرها؛ اقترنت برجل يكبرها بحوالي عشر سنوات. أما أبوها فتزوج قبل ابنته بأربع سنوات؛ كان قد تزوج للمرة الثانية، بعد أن ماتت زوجته الأولى. ومن الثانية أعقب ولديه الذكرين.

ـ ليحمل أحد كوبا من الليمون لهذا الرجل، وإلا فإنه سيقضي الأسبوع كله ينتقدني! ـ كان «يوسف بن نصر بن الأحمر»، صاحب الدار، قد دخل لتوه، في ذات اللحظة التي كان الوالد وابنته يتحدثان. اقترب من زوجته وراح يمسح على بطنها. ـ هل رأيت يا صِهْري؟ إنه ذكر آخر... أكيد، لأنه يتحرك بقوة.

أومأ «أشقيلولة» بغمزة من إحدى عينيه لابنته.

ـ سأغادر، في انتظاري الكثير من الأشغال، دون شك، لن تعدما رزقا إن اشتغلتما بالتنجيم. ـ

انسحبت «فاطمة» في اتجاه وسط الدار، وجلس الرجلان في الرواق المطل على الصحن، ولم تلبث أن حملت لهما إحدى الخادمات ماء بالليمون.

ـ شاهدتُ وَلَدَيّ يلعبان مع ولديك بالحارة ـ استطرد «يوسف» ـ أشكرك على تدريبك إياهما معا. إنهما مسروران، ويحلمان أن يكونا يوما ما مثل جدهما.

ـ والدهما أيضا كانت له مشاركات في الحرب. ـ رد «أشقيلولة» وهو يشرب من كأسه ـ عليك بالعودة إلى الجيش… ما زلت شابا.

ـ عسى أن أعود يوما… لكن، من جهتي، ولى زمن ذلك… كما ترى، مرت علينا السنوات الأخيرة عجافا، وأولادي أصغر من أن يضطلعوا بخدمة الأرض ـ أجاب بنبرة حزينة.

كان «يوسف» منتسبا فيما مضى إلى الحرس الموحدي، وشارك في العشرات من الغارات، وغنم خلال ذلك الغنائم الوفيرة. غير أن أسرته زادت عددا، وأعماله القديمة لم تعد مدرة للربح. فتراجعت ثروته ومعها أهمية الأسرة النصرية.

ـ كما تعلم، صهري، يمكنك أن تلجأ إلينا متى دعت الضرورة ـ عَقَّبَ «أشقيلولة»، وكان سيستمر في الكلام، لكن النصري قاطعه لتوه رافعا يده.

ـ شكرا، يمكن أن أرتب أموري. ـ قال يوسف وقد برقت عيناه كرامة وعزة نفس.

ـ أحترمُ اختياراتك ـ قال «أشقيلولة» ـ كنت، فقط، أسعى إلى أن أعود بك إلى حظيرة الجيش. إنها أزمنة عصيبة على الأندلس، والحاجة إلى

المقاتلين المدربين تتعاظم كل يوم. ـ تطلع «أشقيلولة» بتركيز إلى صهره، ثم استطرد:

ـ ولداك يا «يوسف» ما زالا صغيرين، بيد أنهما إذا اختارا يوما ما الالتحاق بالجندية، هل ستسمح بذلك؟

ـ باعتبارهما مسلمَيْن مفروض عليهما أن يقاتلا من أجل الدفاع عن هذه الأرض. على كل، الأمر متروك لهما، ذات يوم سيختاران سبيلهما في الحياة. أنا واع بذلك.

ـ حسنا، لكن يؤسفني أن تفقد «قلعة أرجونة» خدمة مدافعين ممتازين. إن الولدين، حقيقة، يحسنان ركوب الخيل وقتال الالتحام. وإذا استمرا على نفس المنوال لن يتأخرا عن التدرب بالسلاح. ـ توقف «أشقيلولة» عن الكلام وجعل يتأمل في بركة الفِناء ثم استطرد ـ سأصارحك بأمر: ولداك سيكونان خيرا من ولدَيَّ قدرة على القتال. يمكنك أن تتصور كم يؤلمني أن أعترف بذلك. «إبراهيم» ورث طبع أسرة زوجتي، وهو مزاج يغلب عليه، كما تعلم، الهدوء والسكينة. أرجو ـ أردف وهو يتنهد ـ أن يُقَوَّم بالتدريب والمران. أما «عبد الله» فيشبهني. يكفي النظر إليه لتعرف أنه «أشقيلولة» أصيل، باستثناء شعره الأجعد، وأنفه الشبيه بأنف الصقر الذي ورثه عن أمه.

فطن «يوسف» إلى أن والد زوجته يصانعه، فاستلقى متكئا على جنبه.

ـ هل هناك أخبار عن حاكم القلعة الجديد؟ ـ غير «يوسف» مجرى الحديث.

زم «أشقيلولة» شفتيه، ثم شد بيديه على ركبتيه.

ـ سيصل بعد أيام... بربري. لا يريد الخليفة الجديد حكاما وقوادا على القلاع والحصون إلا من المنتمين لعشيرته.

كان «المنصور»، الخليفة الذي انتصر على النصارى في معركة الأَرَك قد التحق بربه منذ ست سنوات، وخلفه ابنه الناصر. ومن وقتها، أخذ الخليفة الجديد يستبدل قادة الحصون وحكام القلاع في الأندلس بآخرين من مقربيه.

ـ لا أستغرب ـ علق «يوسف» وهو يخفض صوته قبل أن يواصل. ـ هؤلاء المبتدعة يعرفون أننا معشر الأندلسيين نبغضهم.

كانت حركة الموحدين قد انطلقت في العقد الثالث من القرن الماضي من جبال الأطلس بأفريقيا. وقد قام مذهبهم على فكرة استرجاع روح الإسلام الأصلي، وهو توجه صارم ومتشدد يعاقب بقساوة كل أمارة انحراف في الدين. فلما استتب الأمر لهم أعلنوا عن خلافتهم الموحدية الخاصة بهم في تنافس مع الخلافة العباسية ببغداد. وقد أثار هذا الإجراء غضب العديد من الأندلسيين، غير أن نقص التنظيم بين أهل الأندلس، وافتقارهم لجيش قوي، فرض عليهم الخضوع للأمر الواقع، والإكتفاء بالحماية التي كان يوفرها لهم هؤلاء الأفارقة. وبذلك بات الدفاع عن شبه الجزيرة الحجة الرئيسة للإقرار بشرعية الموحدين، والحفاظ على نظامهم.

ـ إنهم يعرفون ذلك، يعرفون أننا لا نرتاح لهم. ـ صادق «أشقيلولة» على كلام محدثه ـ حقا، كان عملهم جيدا في الأرك، لكن مضى على ذلك وقت طويل. إننا نمقت مذهبهم ـ نطق العبارة وهو يخفض من صوته ـ ولا نريد قوادهم.

ـ والحدود؟ ما زالت هادئة؟

ـ أجل، والقشتاليون يحترمون اتفاقات الهدنة، وقد دار كلام عن حدوث بعض الغارات قريبا من «جَيّان». كانت من فعل الطرفين غير أنها لم تَتَعدَّ حوادث من مثل سرقة المواشي، أو نهب بعض الأماكن... ومع ذلك، بعد تدمير الرباط، وما استتبع ذلك من شكاية الخليفة للملك القشتالي، لم تتطور الأمور إلى الأسوأ.

ـ كانوا في متناولنا، والعيب فينا، نحن، الذين سمحنا لهم باستعادة الأنفاس. يا له من خطأ وقع فيه «المنصور»! عقد الهدنات مباشرة بعد انتصار «الأرك»، وبعد قطع الفيافي والجبال والوصول إلى أسوار «طليطلة»؛ كل ذلك بذريعة التكفل بالشؤون الإفريقية... ـ علق يوسف مستنكرا.

ـ ليكن في علمك أن الخليفة لا يكترث لحالنا. فلسنا أكثر من ملحقة يجد نفسه أحيانا مجبرا على الإتيان إليها. هذا كل ما في الأمر. لكن قد يأتي يوم يندم فيه، لأنه استهان بأمرنا. ـ توقف «أشقيلولة» عن الكلام، ومكث يفكر برهة. بعد هنيهة، وقف ونحى معطفه الأخضر إلى جانب، ورفع جلبابه إلى الحزام، ثم أنزل جواربه إلى الأسفل حتى ترك نصف ساقه مكشوفا. بدا

جرح الأرك ملتئما بينما بقي الجلد يحمل آثار ضربة السيف الوحشية التي تلقاها القائد في المعركة.

ـ لقد خرجت من الحرب بشاهد، ـ استطرد ـ وبِعَرَج سيلازمني مدى الحياة، غير أنني كنت على استعداد لأن أقدم بكل سرور كل ساقي لو كان بوسعي أن أعرف أننا سنهزم المسيحيين بصفة نهائية. إنهم متعجرفون ويعيشون للحرب. وأعرف جيدا أنهم منذ التوقيع على عقد الهدنة أعادوا بناء أنفسهم، وازدادوا قوة، ولن يتأخروا عن مهاجمتنا من جديد. تذكر ما سأقوله لك يا يوسف: ستكون هناك معركة أخرى لا محالة، وإنهم يتهيؤون لها... لأنهم لم يهضموا الهزيمة، ويريدون الإنتقام. والزمن كفيل بإظهار صدق كلامي.

ـ إذا وقعت الحرب أرجو أن نحقق النتيجة ذاتها التي حققناها في الأرك. ـ عقب «يوسف».

من الدهليز وصلت أصوات أقدام متسرعة مختلطة بقهقهات.

ـ أرى «فاطمة» متعبة ـ قال «أشقيلولة» ـ من الأفضل أن انصرف. توجه الرجل نحو الدهليز ونادى على ولديه ثم انصرف برفقتهما. وقتها دخل إلى الفناء «محمد» و«إسماعيل». كان العمل والتدريب قد قويا من بنيتيهما، فبديا متيني العود، عريضي الأكتاف.

ـ سيكونان، دون شك، مقاتلين شديدين. حدث «يوسف» نفسه في سرور.

***

«قلعة أرجونة» Arjona. صيف 1207

كان الوقت عصرا، والشمس قد رَنَّقت ومالت نحو الأفق الغربي، حينما امتطى الشبان الأربعة جيادهم وساروا وراء «أشقيلولة» عبر فج «أرجونة». كان معلمُهم يجبرهم على القيام بجولات طويلة على صهوات الخيول حتى تتعود أجسامهم على الثبات على سروجهم؛ يسيرون مصطفين الواحد تلو الآخر، ومرتبين حسب أعمارهم، وكل منهم ممسك بذراعه اليمنى عودا طويلا من الخشب، يقوم مقام الرمح. كان «عبد الله» الابن الأصغر لـ «أشقيلولة» لا يتوقف عن النظر وراءه، والاستخفاف بـ «محمد» الذي يتبعه على بعد خطوات. ومع ذلك كان «النصري» يملك نفسه، ولا يرد على تحديات خاله.

ـ سيروا في البداية خببا، ثم اركضوا بعد ذلك ركضا متدرجا إلى غاية البيدر.

زاد الفرسان الشبان من وتيرة سيرهم، دون أن يخلوا بنظامهم، إلى أن تحول خبب جيادهم عدوا سريعا، وقتها لم يستطع الشبان أن يملكوا أنفسهم، وراحوا يصرخون بعد أن أثارهم السباق. همز «محمد» فرسه إلى أن حاذى تقريبا «عبد الله»، لحظتها ضرب متن الفارس بطرف عوده منتقما منه ومن مُزاحه.

ـ لو كان العود رمحا لكنت قد أسقطتك! ـ صرخ في «عبد الله» وهو عارف أن جده لن يسمعه.

ولما وصلوا إلى البيدر الذي كانوا في العادة يتدربون به، توقف الجميع وأمر «أشقيلولة»

بالترجل. ثم بسط على الأرض رزمة كبيرة، ونشر أمام الفتيان ما كان بها من أسلحة. في صمت، سلم سيفا ذا حدين إلى كل من ابنيه، ثم قدم لحفيده «إسماعيل» فأسا حربية، في حين خص «محمدا» بمِقْمعة.

ارتجف «إسماعيل»، وكان طفلا في عامه العاشر، حينما تسلم الفأس، في حين أمسك «محمد» بكل قوة مقبض المقمعة الطويل، وراح يهدهده ليعرف مقدار وزنه.

ـ حسبت أنه يزن أكثر. علق «إبراهيم» وهو يحرك الحسام.

ـ ينبغي أن يكون كذلك، خفيفا باترا. ـ أجاب «أشقيلولة» بابتسامة سرعان ما اختفت من محياه. ـ ها قد حان الوقت ـ خاطب «أشقيلولة» الشباب بوقار ـ ستتخلون منذ اليوم عن السلاح الخشبي، وستشرعون في المران على استخدام السلاح الحقيقي.

رفع «إبراهيم»، ذو الخمس عشرة سنة، حسامه، ثم ضحك ضحكة عصبية وهو يشهر سيفه.

ـ ها نحن أولاء أصبحنا رجالا. ـ قال ببراءة، بالرغم من أنه أكبر الأولاد سنا.

ـ ما زال الطريق طويلا إلى ذلك الحين ـ علق «أشقيلولة» ـ حسنا، لنبدأ.

***

**قريبا من «أرجونية» Arjonilla. 1209**

وضع «هادي» المجرفة جانبا، وأخذ يمسح العرق

من جبينه. ثم حل أزرار القسم العلوي من جلبابه، وأسقطه على منطقة الحزام، فكشف عن صدره، وحرر يديه. كان شابا في حوالي الثامنة عشرة من عمره، عضلاته قد تشكلت قسماتها، وقوته أصبحت أكثر قدرة على تحمل قساوة العمل اليومي في السد دون تشك أو ضجر. حوالي منتصف اليوم، قدر أنه قام بعمله على الوجه المطلوب. غسل يديه في الجدول، ثم جلس على ثوب الرزمة ليتناول غداءه قبل أن يعود أدراجه. في هذه المرة كانت قريبة والده قد هيأت له شيئا من الفواكه، وقطعة من الخبز المصنوع من الذرة البيضاء. لم يهتم لخشونة مذاقه، بيد أنه تذكر الرغيف الأبيض الذي كانت أمه تعده من القمح في زمن الصفاء والهدوء. كانت تقول له دوما «سيأتي يوم ستذكر فيه الوجبات التي كنت أعدها لك» ولكم كان كلامها صائبا. والآن، وقد فرق بينهما النوى، عظم اشتياقه إلى خبزها، وأيضا، إلى عطفها. كانت أسرته في «جيان» قد مرت بأوقات عصيبة: سنتين متتابعتين من محصول ضعيف، ثم عدوى قاتلة أتت على ما تملكه الأسرة من مواشٍ، وتركت أبويه في وضع يائس قانط. كان إخوته صغار السن، في حين كان هو في عمر يسمح له بكسب قوت يومه خارج بيت الأسرة. وحدث أنه خرج ذات يوم مع قافلة من التجار، ووجد نفسه في «أرجونيلا» حيث كان يملك بعضُ أقارب والده موقع صلصال لصناعة الفخار. فتكفلوا به، وعلموه الحرفة. ولم يكن ليتطلع إلى أحسن من ذلك.

ومع ذلك، كان هادي فتى متيقظا، وذا فضول، يدرك جيدا في قرارة نفسه أنه سيذوي في هذا المكان إن استمر به طويلا. كان يحلم بحياة أخرى، وبمصير آخر مليء بالمغامرات، لم يكن يتجرأ بالحديث عن ذلك لأحد. فقد اعتبر هذا الأمر سره، والحلم الذي كانت تبرق به عيناه، ويجعله يتحمل الحياة التي قدرها الله له في أزمنة الريبة والشك تلك.

انتهى هادي من عرض شريط ذكرياته. فأخذ في جمع أدوات عمله، ووضعها في العربة، ثم شرع في العودة إلى الورشة. صعد في الربوة الأولى، وفي أعلاها لمح من بعيد عمود دخان رفيع يتراقص. «الأفرنة»، فكر، وتابع طريقه بمحاذاة جدول «أرجونيلا». غير أنه وهو على بعد حوالي مائة خطوة من ورشة الفخار، ظهر له أن أمرا ما ليس على ما يرام، وأن الدخان لم يكن صاعدا من ناحية الأفرنة، وأن سقوف بنايات الورشة سقطت جميعها. في الحين تخلى عن العربة، وأسرع في اتجاه المكان.

ـ خالتي، خالي! ـ صرخ في جزع.

بالباب لمح أحد الفخارين ممددا على الأرض وتحيط به بركة من الدم. أدار جثمان الميت، وإذا بجرح غائر من طعنة رمح ينكشف له. أمام هول الصدمة كتم صرخة في صدره. كان الرَّدْم المُتكوِّم قد سد المدخل الرئيس للورشة. حدق في الجمرات وهي تنفث دخانا رقيقا، فدار بخَلَده أن عوارض البناء قد احترقت منذ فترة ليست بالقصيرة. ثم أخذ يجول بالورشة في حيطة وحذر

وهو في حالة ذهول من هول الصدمة، فبدا المكان كما لو أنه خال من أهله. بعد برهة، عثر بالفراني مذبوحا مستلقيا على ظهره بجانب الجدول. قفز فوق سور الجهة الخلفية، ومنه وصل إلى الفناء الرئيس حيث كانوا يخزنون الصلصال ويُرَوِّقُونَ الطين. هناك عثر بأعمامه وبغلامي الخدمة جثثا هامدة.

أجهش هادي بالبكاء مكلوما حزينا، لم يعرف ما حصل، انطلق يبكي بكاء مرا ليخفف عن نفسه هول المُصاب. فجأة سمع صوت حوافر الخيل فوق شظايا الأنقاض. فسكت لحينه، وأخذ حذره. من فوق السور رأى ثلاثة فرسان من البربر يقتربون من طريق «أرجونيلا».

- مروا من هنا في وقت مبكر. - قال أحدهم.

برز الشاب للطارئين وهو يسأل:

- ماذا حصل؟ - كان مَحْجِرا عينيه متورمتين من شدة البكاء.

- أنت محظوظ لبقائك حيا. حماك الله. - أجاب من بدا أنه رئيسهم. - كنتَ هنا لما جاؤوا إلى هذا المكان؟ - لا، بل كنت في متراس الصلصال. ومن جاء؟ - ومن سيكون أيها الفتى؟ - أجاب آخر .. إن النصارى قاموا بغارة على المسلمين... وهذه هي الثالثة.

سمع «هادي» كلام الفارس وهو يومئ برأسه، لكن لم تسعفه قواه على أن يدلي بأي تعليق.

- هل الضحايا من عائلتك؟

ـ أعمامي، وأبناء عم الوالد. أجاب، وهو يحس بألم في الخاصرة ذكره بالهم المنغرس في أعماق روحه.

ـ أبواك ما زالا على قيد الحياة؟

ـ أجل، يسكنان قريبا من «جيان».

ـ حقا حماك الرحمن الرحيم... التحق بأهلك حالا، أيها الشاب.

فكر هادي في كلام الفرسان، واستصوب رأيهم، وبدا له أن المخرج الوحيد لمن هو في مثل ظرفه هو العودة إلى «جيان»، ليكون مرة أخرى حملا ثقيلا على أسرته. فقرر وهو ما زال في ذهول، أن يأخذ طريق قلعة «أرجونة»، ويبتعد عن المكان.

ـ وماذا حل بهؤلاء النصارى؟ ـ سأل الفرسانَ الثلاثةَ قبل أن يبدأ المسير.

ـ علمنا بأمرهم متأخرين، فخرجنا نتعقبهم، غير أننا لم نلحق بهم. هؤلاء الكفرة مجازفون. دون شك من رهبانية شَلْبَطَرَّة، من حاملي شارة الصليب الأسود الذين لم ينسوا بعد هزيمة «الأرك». لم يعودوا يهتمون بالهدنات المنعقدة بيننا وبينهم، إنه أمر لا يبشر بالخير.

لم يفه «هادي» بكلمة، واتجه نحو البغلة، وسرعان ما حل عقدة الحبل الذي كان يربطها بالعربة، ثم امتطى متنها. حتى إذا ابتعد عن الفاخورة ما يكفي، عاوده البكاءُ على أعمامه. وهو يرى أن بعض المقاصد الربانية لا يوجد لها تفسير.

«ما ينقص الأندلس ليس الفخارون، بل المحاربون» قال لنفسه.

وصل إلى أحواز قلعة «أرجونة» قبل الأصيل. كانت القرية محاطة بحقول الحبوب والزيتون؛ زراعة دون ري. في حين أحاطت بالبلدة الصغيرة أسوار منيعة تحميها من المهاجمين، وفي ناحية من السور انتصب زوج من الأبراج يحرسان الباب الوحيد الذي كان يتبدى لناظريه. على حافة الطريق التقى هادي بثلاثة رجال يخوضون في حوار.

ـ... كان عليكم أن تحسوا بالخجل. ـ كان ذلك أول ما وصل إلى سمعه. ـ ألِمِثْل هذا تتعاطون حينما يغيب الرقيب؛ إلى سرقتي؟ كان الشخص، الذي يظهر أنه صاحب الأراضي، في حالة غضب شديد، كان يلوح بيده، ويصاحب كلماته بِرَجٍّ قضيب من الخيزران.

ـ اتركوا السلال، وغادروا أراضيي حالا! ولا تعودوا أبدا!

وضع العمال الثلاثة السلال المملوءة بالتين على الأرض، ثم مضوا وهم يسرعون الخطو. بعدها عاد المالك إلى الطريق، كان يغمز قليلا بإحدى رجليه.

ـ ما خَطبُك يا فتى؟ ـ خاطب الرجل «هادي» حينما تنبه إلى وجوده.

ـ لا شيء. ـ أجاب الشاب ـ جئت من «أرجونيلا»، لقد تعرضت لغارة، وأنا الآن بصدد البحث عن مكان أقضي فيه ليلتي.

ـ قلتَ أغاروا على أرجونيلا؟

ـ أجل، داهموا أراضيها، وحطموا فاخور أعمامي.

ـ الكفرة الملاعين، لم ينته أجل الهدنة بعد، وها هم شرعوا في غاراتهم. ـ نظر إلى الشاب، ثم إلى سلال التين. ـ قد أوفر لك زريبة للنوم إن ساعدتني في حمل هذا. وافق هادي وهو يشكر الرجل.

كان الرجل يرقب الشاب بإمعان، فلم يفته وجهه المدنف، وعيناه المتورمتان.

ـ يوم بائس، أليس كذلك؟

أشار «هادي» موافقا بإيماءة.

ـ وأنا أيضا لدي ما يشبهه. ـ عقب الرجل ثم أردف: ـ إذا كنت ترغب في العمل بالحقول، لدي وظيفتا عامل زراعي شغرتا اليوم.

على التو غمرت موجة من الانفراج الشاب الجياني.

ـ شكرا سيدي. لن أخيب آمالك. أنا شخص أمين ولا أسرق.

ـ حسنا، حسنا، سأعلم باقي العمال ليمروا فجرا لاصطحابك. ستستطيع كراء غرفة بما ستكسبه من أجر... ما اسمك؟

ـ «هادي».

ـ أنا اسمي «أبو الحسن علي بن أشقيلولة»، لكن الجميع ينادوني بـ «أشقيلولة».

***

**«قلعة أرجونة» Arjona. 1209**

ـ أيها الأحمر! نادى «إسحق» «يوسف». بهذه التسمية كان يهتف به كثير من جيرانه، لعادته في صبغ شعره بالحناء. وقد شاع الاسم في قلعة «أرجونة» إلى حد أن ابن يوسف البكر «محمد» كان معروفا بين الناس بـ «ابن الأحمر».

دنا «اسحاق» من نصر مرفوقا بابنه أحمد، وهو شاب في العشرين من عمره، ومتزعم لبعض أقرانه في البلدة.

ـ ما وراءك يا «اسحاق»؟

كان «يوسف» يعمل في بستانه السقوي، بجنب البئر التي حفرها بنفسه. وكانت البقوليات التي ينبتها حقله شهيرة بين الناس، ويقبلون عليها في السوق.

ـ ماذا حصل في قطعة الأرض «الصخور السوداء»؟ بدت لي كأنها زادت مساحة في الأيام الأخيرة.

وضع يوسف القدر على الأرض، وتوجه بنظرة حادة إلى «اسحاق».

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أني كنت مع ابني هناك، وبدا لنا أنك غيرت الحد.

ـ ما زالت الصُّوَّات في أماكنها منذ أن وضعها آباؤنا. ـ رد «يوسف» وهو يسعى جاهدا إلى الحفاظ على رزانته.

ـ هل أنت متأكد؟ يظهر لي أنها حُركت من أماكنها. أحذرك، فأنا متابع للأمر.

ـ تتهمني يا «اسحاق» بالكذب، وتهددني؟ رد «يوسف» صارما وهو يقبض خفية على مقبض المجرفة.

ـ حاليا أحذرك فحسب. ـ أجاب وهو يخطو خطوة إلى الوراء .. ـ لم يعد «بنو نصر» يقرضون الناس المال لشراء البذور. ولم يعد لكم زبائن. ولبد أن ذلك يؤلم ويحزن، لكني لست مسؤولا عن ذلك. اترك أرضي كما كانت.

رفع «يوسف بن الأحمر» المجرفة، وتظاهر بأنه سيغادر. في تلك اللحظة كان «محمد» عائدا من أراضي البور بصحبة أخيه «إسماعيل» وصديقه الملازم له «حسن»، وسرعان ما أدرك الموقف.

ـ أبتِ! ـ صاح الفتى بصوت غاية في الوقار بالنسبة إلى سنه.

وقف «يوسف»، وقبل أن يدنو ولداه وصديقهما منه خاطب «اسحاق» مهددا:

ـ قتلت بيدي نصارى أضخم منك هيئة، وإذا كنت تريد أن تحافظ على حياتك، فانصرف حالا، ولا تبادلني الحديث ما حييت.

أدار «اسحاق» ظهره، وجعل يمشي وهو يغمغم بعبارات لوم. في حين ظل ابنه «أحمد» واقفا هنيهة بمكانه في هدوء، حتى لمح وصول ولدي «يوسف» وصديقهما إلى البستان. تطلع «محمد» إليه طويلا، غير أن «أحمد» تبسم بخيلاء ثم أعرض عنه، وتبع والده. كان أحمد يكبر «محمدا» بست سنوات، غير أن «ابن الأحمر» كان باستطاعته أن يرديه أرضا بسرور ومتعة.

ـ لماذا يتصرفان هكذا؟ سأل «حسن» ببراءة.

ـ الحسد. ـ أجاب «محمد»، وكان عارفا بالخصومة بين الأسرتين.

ـ انصَرِفا إلى البَيت. ـ قال «يوسف» دون أن يفقد رباطة جأشه ـ وقولا لأمكما إني سأصل متأخرا قليلا. ثم لا تنسوا الصلاة، سيحين وقتها بعد قليل.

***

ولج الثلاثة البلدة من باب «مَرْتُشْ»

ـ «إسماعيل»، قل للوالدة إني سأعود بعد حين ـ طلب «محمد» من أخيه.

ـ لا يا «محمد»، رجاء، اتركه. ـ رجا «إسماعيل» مقطب الحاجبين أخاه. لكن الأوان كان قد فات.

ـ اعلمها بذلك ـ أكد «محمد» على أخيه، وهو يبتعد عبر طريق منحرف.

سار «محمد» بخطى سريعة عبر شوارع أفضت به إلى زقاق مسدود. ثم وقف في مقابل إحدى الدور.

ـ أحمد! ـ صرخ في إلحاح ـ اخرج إلى الدرب!

فتحت بعض النوافذ، وتزاحم بعض المارة في مدخل الزقاق. «إنه ولد الأحمر» قال بعضهم.

كان الفتى يرتجف من الغضب، وهو يشد على قبضة يده. ـ لا أخاف منك، هأنذا، اُخْرُجْ، ولنُصف هذا الحساب، أنا وأنت، دون حضور الوالدين.

خيم الصمت على الزقاق. كان «ابن الأحمر»

يرغب في أن يجد الشاب أمامه ليفرج عن نفسه، ويخفف من غضبه المكتوم. سمع وقع خطوات داخل البيت، ثم فتح الباب أخيرا.

ـ هل أنت مجنون؟ ماذا تريد من ابني؟ ـ قالت لـ «محمد» امرأة مهيبة، تستر وجهها بخمار. كانت المرأة تطل برأسها من وراء الباب.

ـ بيننا حساب أريد أن أسويه. أعرف أنه هناك. ـ أجاب «ابن الأحمر» وهو يتطلع إلى ستارة نافذة. ـ تُرسل أمَّك؟ هكذا تُسوي أمورَك؟

ـ انصرف، انصرف، حَسْبُك صخبا وضجيجا! ـ كانت الأم المسكينة تتحدث وهِي تُحركُ ذراعَها.

أدرك «محمد»، أخيرا، أن «أحمد» لن يخرج.

ـ نحن، بنو نصر، لا نبحث عن المشاكل، لكن إن بحثَتْ هي عنا، تَجدْنا دائما مُستعدِّين لتَذْلِيلها. ـ رد «ابن الأحمر»، ثم رفع قبضة يده في الهواء، وتركها برهة كذلك قبل أن يعود أدراجَه، ويغادرَ الزُّقاق في اتجاه القصبة. سار في طريقه تصاحبُه غمغماتُ الناس، كُلما مرَّ قريبا منهم، وتعليقاتهم المهموسة. ولَكَمْ كان سَيُسَلِّيه حقا أن يجدَ أمامهُ أحمدَ في لحظة غضبه الشديد تلك، حينما أخذ فيها الحَنَقُ منه كُلَّ مَأخَذ.

***

مر يوسف بباب مَرْتُشْ Martos وهو يحمل مجرفته على كتفه. كان الليل قد أظلم، واكتنف سواده أرجاء البلدة. وبينما الرجل على بعد خطوات من المدخل داهمه أحد الفقهاء المعروفين بالبلدة. وبادره قائلا:

ـ سيرة ابنك الأكبر تقلقني، فقد ضلَّ سبيلَه، واتَّبَعَ الطريقَ الأسوأ. ـ قطَّب يوسف النصري بين حاجبيه، وهو مستغرب. كان يعرف ابنَه، ولم يَلحَظْ في سلوكِه ما يؤشر على ذلك. ـ قبل قليل ـ واصل الفقيه ـ رأيتُه يصرخُ قبالةَ منزل اسحاق، وهو يتوَعَّد ابنَه. ـ حرك الفقيه رأسه بالنفي ثم استرسل ـ لا أرتاح إلى ذلك. على المسلمين أن يمتنعوا عن الشجار والمخاصمة فيما بينهم. لكنَّ العيبَ فيك، لأنك لم تأْخُذ بيده إلى الكُتّاب، وتحفظه القرآن، والآن انظر...

ـ لعل هذا الشجار بحثَ عنه آخرون. ـ علق «النصري» وهو يعاين تَغيرَ ملامحِ الشيْخ، فصحح للتو حتى لا يسيء إلى مخاطبه ـ لِتهدَأْ أيُّها الشَّيخ. ما قام به ابني عيب، ولا شك... أُدْرِكُ ذلك، وسأحدِّثُه في الأمر، وسترى كيف سيتفادى مستقبلا مثلَ هذا السلوك السيئ، وانقل اعتذاراتي إلى أسرة «اسحاق». ـ ثم تطلع سريعا إلى السماء وأردف ـ قد هبط الليل؛ ينبغي أن أعود إلى البيت.

بدا الشيخُ وكأنه سُر لكلام «النصري». بينما واصل هذا مسيره. كان قد أزمع على مفاتحة ولده بهذا الشأن، لِيُنبهَهُ إلى ضرورة التحكم في غضبه، لكن «يوسف» مع ذلك، لم يتمكن من تفادي ابتسامة رُسمت على محياه. داهمته ذكريات من زمن الشباب، وفَطِن لحقيقة ما حصل... «إنه نصري، يجري في عروقه دم حار مثل والده». خاطب يوسف نفسه.

***

**«قلعة أرجونة» Arjona. خريف 1210**

دخل «أشقيلولة» الحمامَ مصحوبا بولَدَيْه. في فِناء الحمَّام التقى بـ «يوسف» الذي كان قد خرج لتوه من القاعة الباردة، في حين كان ولداه ما زالا يستحمان بالداخل. مباشرةً سارع «إبراهيم» و«عبد اللّٰه» إلى تغيير ملابسهما ليلتحقا بقريبيهما. كان اليومُ يومَ جُمعة، والحمامُّ غاصٌّ بالأرجونيين. كانوا يغتسلون تأهُّباً للذهاب إلى المسجد وحضورِ صلاةِ الجمعة.

ـ هل تذكر، يا «يوسف»، الحديث الذي دار بيننا بِبِيْتِك، منذ سنوات خلت، حول القشتاليين؟ تطلع إليه «النصري» في استغراب، دون أن يفهم قصدَه. ـ كنا تحدثنا عن الأرَك، والهدنةِ التي أعْقبت المعركة... ـ سعى «أشقيلولة» إلى توضيح كلامه أكثر، ليساعد «يوسف» على استحضار المناسبة ـ كنتُ قد حدَّثتُك عن أن الزمن كفيلٌ بأن يُثبتَ صِدقَ كلامي، وها هو يفعل ذلك. ـ نظر «ابن الأحمر» إلى صهره وهو ينتظر المزيد من التوضيح. واصل «أشقيلولة» قائلا:

ـ أعني الغارةَ الأخيرة التي قام بها ملك «قشتالة» «ألفونسو الثامن» ـ قال النقيبُ بنبرة المنتصر. ـ ولا أعتقد أن الخليفة الناصر سيترك الأمر يمر دون ردة فعل.

وكان «ألفونسو الثامن» وقتها قد سير حملة إلى ديار «جَيَّانْ»؛ قادها بنفسه، ولم يُحجِم أثناءَها عن القيام بأعمال النهب والسلب والتخريب. وهو ما أشَّر على أن هذا الفعلَ لم يكنْ مجرَّدَ غزوةٍ

على الحدود، بل هو رسالةُ تَحَدٍّ مفتوحة من العاهل القشتالي موجهة للموحدين.

ـ وكيف تعلم ما سيقوم به الخليفة؟ سأل «يوسف».

ـ لديَّ عُيون في بَرِّ العُدوة [المغرب]، وآذانٌ في القصبة. ـ قال «أشقيلولة» قولَه وهو يضحك. ـ قيل لي إن الناصر بدأ يدعو الناس في أفريقيا [المغرب] للجهاد، وقريبا سيدعو إلى الأمر ذاته هنا بـ «الأندلس». إنه يَتأهَّب، دون شك، للقيام برد فعل خطير، سترى ذلك.

ـ أتمنى أن تكونَ محقا فيما تقول، وأن يحققَ اللّٰه النصرَ للمسلمين، وتتكررَ ملحمة حصن الأرَك.

ـ إن شاء اللّٰه. ـ أنهى «أشقيلولة» كلامَه، ثم أغمض عينيه للحظة.

كان «يوسفُ» قد انتهى من ارتداءِ ملابسه، بينما كان صهره قد اتّزَرَ بالفُوطَة استعداداً لدخولِ الغرفة الأولى.

ـ ما حال هؤلاء؟ سأل «النصري» بغتة، وهو يشير إلى داخل الحمام.

ـ الأربعة جيدون، ويتقدمون في المران باستمرار. يمكنك أن تفتخر بولديك، إنهما مواظبان، ويبذلان جهدهم للتعلم، ـ استطرد «أشقيلولة» وقد افتر ثغره عن ابتسامة ـ قريبا سيكون لدينا أربعة من «الثغريين» الجيدين، ممن يُحسنون نهبَ الحدود وسلبها.

***

**«قلعة أرجونة» Arjona. سبتمبر 1211**

توسطتِ الشمسُ متوهجةً كبِدَ السماء، واجتمعت عُصبةٌ من العمال في ظل شجرة تين، تفصل بين حقلي قمح. أخذ الرجال يتناولون غَداءَهم، ويسترجعون قواهم لمواصلة العمل بعد حين.

ـ «هادي»، ها قد حان الوقت لتُجيد حرثَ الأرض بالمحراث، وتتخلى عن خدْش الأرض، لعل عضلاتِك تزداد قوة وصلابة.

خاطب أحد الرجال «هادي» مازحا، وهو يغمز باقي زملائه من العمال.

ـ دع عنك الفتى، فإنه يحسن عمله ـ تدخل آخر بنبرة ودية ـ لا تبال بقوله يا «هادي»، إنه صاحب نكتة، كثير الهزل. يكفيك أنك ما زلت عاملا مبتدئا، ومع ذلك ليس عملك سيئا.

شكر الفتى الرجل بابتسامة.

كان قد مرت على «هادي» سنتان بـ «أرجونة»، ارتاح فيها لزمرة العمال الذين يشتغل معهم. حقا كان العمل قاسيا، خاصة في تلك الفترة من السنة، غير أنه كان يشعر بامتنان نحو رب عمله.

في تلك اللحظة، برز للقوم آخرُهم في الوصول. وكان يشتغل بمكان قصي من الحقل الشاسع. كان الرجل يسير الهوينى فوق الكتل الطينية في اتجاه مجلس الجماعة.

ـ هل أخبركم بما سمعت؟ ـ حَوَّلَ الجميع هاماتهم نحو القادم ـ أَخْبرني ابني، حينما حمل

إلي الماء، بأن «شَلْبَطَرَّة» Salavatierra قد سقطت. وأضاف بأن حمامة وصلت من «أَنْدُوجَر» Andújar حملت رسالة بهذا النبأ. وأن الناس في «قلعة أرجونة» على علم بهذا النبأ السار.

على التو سمعت الهتافات والتهاليل تعبيرا عن الفرح.

وكان الخليفة الناصر الموحدي قد عزم، إزاء تواصل غارات النصارى على أراضي المسلمين، على التصدي لاعتداءاتهم. فعبر، قبل الصيف، البوغاز، ونزل بعُدوة الأندلس على رأس جيش عَرَمْرم لم تشهدْ مثلَه الجزيرةُ قط. وبذلك اعتبرت اتفاقات الهدنة بين قشتالة والموحدين لاغية. فقطعت القوات المغربية، وقد انضمت إليها القوات الأندلسية، سلاسل الجبال، إلى أن وصلت شَلْبَطَرَّة، وهي نقطة مزعجة في خريطة الأندلس كان يشار إليها بصليب، وحوصرت القلعة على التو. ولم تكن لتصمد أمام القوة الموحدية، بما في ذلك التحصينات الواقعة بضواحي الحصن، فسقطت في أيدي المسلمين، بعد أن قاومت الحامية النصرانية في استماتة آلات الحصار الإسلامية قرابة شهرين.

ـ لقد حان وقت ذلك... إن رهبانَ شَلْبَطَرَّة هؤلاء حقا لأشداء. ـ علق أحد الرجال.

أنهى «هادي» تناول طعامه في صمت، ثم قام للتبول في الجهة الأخرى من جذع شجرة التين. كان النبأ قد أيقظ في ذهنه مزيجا من أحاسيس الألم والغضب. وتمنى لو أنه تمكن من المشاركة في الحملة، ليثأر لأهله المغدورين. بعد برهة عاد

وهو في غاية الهم والشجن.

ـ لقد لقناهم درسا. أيها الفتى ـ قال أحدهم.

ـ هل قتلوا جميعا؟ ـ سأل الجياني.

ـ لا، بل استسلموا.

ـ حينما نبيدهم سنكون وقتها قد أعطيناهم الدرس الذي يستحقونه. ـ أردف دون إضافة.

بعد صمت قصير انفجرت القهقهات.

ـ يا له من وحش هذا المختفي بيننا! عقب رئيس المياومين بصوت مسموع.

بعد لحظة، سمح «هادي» لنفسه بأن يجاري الآخرين في ضحكهم.

***

«برغش» Burgos. سبتمبر 1211

مشت «برنگيلا» بمحاذاة نهر «ألارثون» مصحوبة بأبنائها، ومربياتهم، وخمسة من رجال الحرس المسلحين. كان الصبح قد أسفر عن يوم مشمس جميل، أغرى الأميرة بأن تغادرَ محَل إقامتها، وتخرجَ للفسحة في الطبيعة.

دعت الأميرة ولدَها المفضل «فرناندو»، وهو طفل في العاشرة، كانت «برنگيلا» تُعنى بتربيته غاية الاعتناء، وتخصه بالعناية الكاملة، بالرغم من أنها كانت تخفي ذلك. أمسكت الأم ابنها من يده ثم خاطبته:

ـ أما زلتَ تذكرُ حديثي معكَ عن شجاعة فُرسان شَلْبَطَرَّة؟

رد «فرناندو» بالإيجاب، وعيناه تبرقان.

ـ أجل، تعنين حماةَ النصرانية المطوقين بالـ «موروس» من كل الجهات، أولئك الذين يقاومون من حِصْنهم... ـ رفع الطفل قبضته تفخيما لكلامه.

ـ اليوم، وصلت الأخبار بهزيمتهم، وبسقوط حصنهم.

شعر «فرناندو»، وهو في غاية التأثر، أن شيئا بداخله يتمزق.

ـ وماذا سيفعل جدي؟

ـ «ألفونسو الثامن» ملك قشتالة. ـ صححت الوالدة بلطف ـ إنه يهيئ لإغارة عقابية على الحدود. غير أن الأمر لن يقف عند هذا الحد، لأنه لا يعقل أن نبقى مكتوفي الأيدي، مكتفين بالإغارات المعزولة؛ لا بد من أن نخطط لمعركة... ولْتَكُنْ معركةً كبيرة.

ـ هل يمكنني أن أشارك فيها؟ ـ سأل الطفل ببراءة.

ـ لا يا «فرناندو»، ما زلت صغيرا. سيكون لك الوقت الكافي لخوض معاركك الشخصية في المستقبل. هذا ما أتمناه، تمجيدا لسيدنا المسيح. ـ بدت على عيني الطفل مسحةٌ من الحزن. كان خبرُ سقوط «شَلْبطرة» قد كدَّر صفوَه، وعكَّرَ مزاجَه. ـ ولدي ـ واصلت برنكيلا ـ علينا نحن، المسيحيين، أن نكون أقوياء. إن الرب يختبُرنا، ويَخْتبِرنا، أحيانا، بقساوة. ـ تقطع صوتها من الانفعال. كانت الأميرة مشغولة البال، أيضا، بمرض أخيها «فرناندو»، ولي عهد قشتالة. فقد

وصلتها الأنباء، منذ أيام، من مدريد، تُتحدَّث عن الحمى الراجعة التي كان يعاني منها الشاب، وهو ما أفنى جسمَه، وأضْوى عودَه، وصار كَمَنْ تُنزع منه الحياةُ شيئاً فشيئا.

بعد صمت استطردت «برنگيلا» قائلة:

ـ غير أنه ينبغي أن يكون إيماننا قويا، حتى نسترد قوتنا وعافيتنا. إن هزيمة الفرسان لم تكن دون جدوى؛ إنها المبرر الذي سيوحد جميع الممالك المسيحية بشكل نهائي. إن جَدَّك؛ مَلِكَنا، وعد ملكَ أراغون خيرا، وهو الآن بصدد محادثات مع «ناڤار»، و«ليون»، و«البرتغال»، لتوحيد كلمة المسيحيين ضد الكافر.

كان الطفل «فرناندو» يصغي في انتباه. ولم يفت أمَّه أنها كانت تقدم له سيلا من المعلومات، بيد أنها كانت تريد أن يتعوَّد منذ الآن على تلك المصطلحات.

ـ هل تفهم ما أحكيه لك؟

ـ أجل يا أماه، تقولين إن النصارى ينبغي أن يكونوا متحدين ضد المسلمين.

ـ حسنا، ذاك ما أعنيه. فقد ذهب أسقف طليطلة [الراهب والمؤرخ Rodrigo Jiménez de Rada المكلف بالعلاقة مع البابا]، وأسقف شَقُوبِية [«جرهارد»] إلى «روما» ليَضمَنا مساندةَ الحَبْرِ الأعظم [«إنوسان الثالث» لمسيحيي الجزيرة ضد المسلمين]، وإذا كرز البابا بالحرب الصليبية [وهو الذي يضطرم بروح صليبة عميقة، خاصة بعد هزيمة النصرانية في معركة حطين على يد

صلاح الدين (1487م)، وفي معركة الأَرَك على يد المنصور الموحدي (1195م)، وأخيرا سقوط شَلْبَطَرَّة في يد الناصر الموحدي]، فإن المقاتلين النصارى سيتقاطرون علينا لمساعدتنا [من جميع أنحاء أوروبا]. ـ وهنا توقفت «برنگيلا» عن الكلام، وفق خطة اتبعتها في حديثها مع ابنها، قبل أن تستطرد:

ـ لتطمئن يا «فرناندو»، فإذا كان فرساننا قد انهزموا في «شلبَطرَّة»، فإننا سنعيد إليهم أراضيهم في القريب العاجل.

ـ وإذا استمر «الموروس» في حملتهم، يا أمي، ماذا سيقع؟ ـ سأل الطفل.

كان السؤال ذكيا، ما جعل الأميرة تتطلع إلى ابنها في سرور.

ـ إن الصيف أوشك على الانتهاء، وبدأت الأمطار الأولى تنزل في الجنوب، وهو ما سيجبر هؤلاء «الموروس» على التخلي عن مواصلة القتال. وسيكون لزاما عليهم أن يُؤجلوا الحملةَ إلى العام القادم. هل أدْرَكْتَ ما أريد قولَه؟ لو لم يكن فرسان «شلْبَطرة» قد تحمَّلوا الحصار لمدة شهرين لكان المحمديون قد واصلوا زحفهم نحو الشمال. حتى في الهزيمة كان فرسانُنا أقوياء وشجعانا، فلا تنس أن المقاومة التي شهدتها قلعةُ «شَلبطرَّة» هي التي أنقذتنا.

ابتهج «فرناندو» لهذا التفسير الذي قدم الهزيمة بمظهر النصر.

ـ وهل سيشارك ملك «ليون» في المعركة؟

ـ سنرى، إن العلاقة بين «ليون» و«قشتالة» في هذا الأوان، كما تعلم، ليست على ما يرام. ـ أجابت الأميرة وهي تتنهد. ـ فمنذ انفصال «قشتالة» عن مملكة «ليون» عادت الأحقاد والضغائن إلى الظهور من جديد بين المملكتين.

ـ هل سألتقي به قريبا؟ ـ سأل «فرناندو».

ـ هذا ما أتمناه، ـ تنهدت «برنگيلا» من جديد.

وكان «ألفونسو التاسع» ملك «ليون» قد زار ابنه في مناسبات عدة. غير أنه مرت، الآن، سنتان على آخر زيارة رأى فيها الملكُ ابنَه. وكانت الأميرة «برنگيلا» تعلم أن «تريسا» البرتغالية، الزوجة الأولى للملك، تقيم في تلك الآونة بالقصر مع أبنائها «فرناندو»، و«سانتا»، و«دولثي». وكان هذا الزواج الأول لألفونسو التاسع بالأميرة البرتغالية قد ألغاه البابا، أيضا، بسبب القرابة. وقد كانت إقامة «تريسا» مع أبنائها بـ «ليون» تمثل تهديدا لتطلعات «برنگيلا» في أن يتولى ابنها «فرناندو» الحكم بعد وفاة والده.

ـ حان وقت العودة. ألا ترى ذلك؟ ـ قالت الأميرة لابنها.

كانت ذكرى زوجها قد عكرت صفوها، فغمرتها مسحة من الشجى.

ـ عد مع مربيتك. أسرع...

مكثت الأميرة وحيدة تتقاذفها الأفكار.

وكان قد وقر في نفس «ألفونسو الثامن» بعد هزيمة فرسان «شلبطرة»، وسقوط القلعة

المركزية لرهبانيتهم بيد المسلمين، أن الوسيلة القمينة بصد الموحدين، وإيقافهم عند حدهم، ليس بِناءَ الأبراجِ والقلاع، وإنما السعي لمواجهة عسكرية مباشرة ضدهم، عبر التخطيط لمعركة ضارية، تكون نتائجها حاسمة. وكان قد أمر، تحقيقا لهذا الهدف، أن تُخصَّصَ جميعُ الاعتمادات المالية التي كانت تُعَيَّنُ لبناء التحصينات، لإنتاج الأسلحة، وتخزين الأقوات، وتوفير المؤن للجيش. فكان عليه أن يضْرب العملةَ، ويوفر الخيلَ لأَخَوِيَّات السلاح، ورَهْبانيات الفُرسان الذين كانوا يعملون تحت إمرته. كما أنه خطط لعمل دبلوماسي مكثف [تكلف به الراهب دي رادا] حتى يضمن المساندة الخارجية للقضية. وكانت «برنكيلا» تعلم أن البابا سيعلن الحرب الصليبة، لأن أحداثا خطيرة جدت في الساحة تهدد النصرانية. فمنذ ربع قرن مضى كانت أورشليم قد سقطت بيد صلاح الدين الأيوبي، ثم بعد ذلك بسنوات، وفي الطرف القصي الآخر من البحر المتوسط حلت بالنصارى نكبة حصن الأرك [على يد المنصور الموحدي]، وبذلك تمكن المسلمون في الأندلس من توسيع حدودهم نحو الشمال، إلى غاية «وادي تاجه» el Tajo. ومما زاد الطين بلة، ظهورُ عقيدة الكاثاريين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في قلب الممالك المسيحية: [في مملكة أراغون، وجنوب فرنسا، وبعض المناطق بشمال إيطاليا]؛ وانتشارها السريع بين الناس، [حينما روجت لتأويل مسيحي جديد يقوم على فكرة ازدواجية الألوهية، واعتبار الأسرة النواة الأساسية في المجتمع، ودعت إلى العفة والتعدد] وهو [ما اعتبرته الكنيسة هرطقة

ينبغي محاربتها والقضاء عليها] وهو ما أجبر الحَبْر الأعظم على إعلان الحرب الصليبية ضد هؤلاء المبتدعة.

لقد كانت المسيحية مهددة في أكثر من جبهة، ومن ثمة باتت الحرب التي دعا إليها «ألفونسو الثامن» ضد الموحدين الفرصة المناسبة لتلقين الإسلام، وأهل البدع الدروس المناسبة. ولكم كان ذلك مبهجا للبابا «إنوسان» الثالث.

استدار موكب الأميرة «برنكيلا» عند بداية مروج «لَاسْ وِيلْكَاسْ» ليعود أدراجه. من بعيد كان يبدو للناظرين برج الدَّيْر الضخم الذي قرر الملكان بناءه بالمكان. كان البرج مرتفعا في السماء، مطاولا أعنانها. ألقت الأميرة، وهي ما زالت مستغرقة في حساباتها، نظرة سريعة عليه قبل أن تلج النطاق المسور لمدينة «برغش»، وتستمر في تفكيرها. مر بخاطرها أن تجتمع بالملك، والدِها، «ألفونسو الثامن»، وتطرح عليه بعض القضايا المستعجلة التي ارتأت أنه في حاجة إلى معالجتها حتى تنجح مساعيه ضد مسلمي الجزيرة. وكان «ألفونسو الثامن» كثيرا ما ينفرد مع ابنته، ويصغي إلى نصائحها، ويسمع لكلامها. ولطالما كان يقول لها «كان عليك أن تولدي رجلا، يا «برنكيلا»» أو يكرر لها قوله «يا له من مَلكٍ عظيم أضاعتْه قشتالة!»

***

ضيعة الماء الحلو Cortijo de Agua Dulce. (جنوب قشتالة). خريف 1211

حدقت «ماريا» بإمعان في الثوب المصنوع من الكتان الخشن الذي كان يغطي جسد خالتها المسجى. كانت تُخَمِّنُ تفاصيل هذا الجسد النحيل وهو تحت الغطاء. وتَسْتَعْبِرُ مما أصاب أطراف المتوفاة من هزال، وكيف أتى عليها المرض في ظرف ثلاثة أشهر، كانت كافية لتذهب إلى الجنة.

أنهى القس قراءة الفرض الكنسي، ووقف بجانب الصندوق البسيط المصنوع من خشب الصنوبر. على الإثر وضع الأرملُ الغطاءَ فوق الصندوق، ثم شرع يدق المسمار تلو المسمار. كانت كل ضربة ترِن طنيناً في رأس «مارية»، وهي ذاهلة لائذة بصمت حزين.

كان القدر قاسيا مع الفتاة؛ أولا تيتمت وفقدت والديها، ثم بعد ذلك بسنوات ها هي الآن تفقدُ خالتها؛ المرأة اللطيفة التي عاملتها معاملة الأم.

تكفل أربعة رجال بنقل الرفات إلى المقبرة، ثم استعانوا بحبلين غليظين لوضع المتوفاة في قبرها. حينها قام الأرمل، وأخذ المجرفة، وملأها ترابا، ثم رمى به على القبر. مباشرة قام الآخرون بتقليده، وراحوا يهيلون التراب على مثوى المرأة الأخير، في حين جعلت النساء يصلين بصوت عال. أما «مارية»، التي فقدت القدرة في التحكم في نفسها، فقد جثت على ركبتهيا وهي تجهش بالبكاء، دون أن يتمكن أحدٌ من الحاضرين التخفيفَ عنها أو ملاطفَتها، حتى مرت فترة ليست بالقصيرة، كانت الحفرة خلالها قد امتلأت بالتراب، ثم وضعوا صليبا من الخشب على القبر، قبل أن

يعتذر القس، ويغادر للاستمرار في أعمال الكُدية.

بعد ذلك بقليل بقي الخال والحفيدة وحيدين.

- هيا يا «مارية»، فما زالت أمامنا مسافة طويلة حتى نصل إلى الضيعة.

وشرعا على التو في المسير والابتعاد عن الدَّيْر.

- إن الحياة غير عادلة يا خالي، فقد فقدت أمي الثانية.

- صلي يا «مارية»، واطلبي من الرب ألا يسلط عليك ما لا تستطيعين تحمله، فما زلت صغيرة، ولم يتجاوز سنك الخامسة عشرة. أما أنا فقد فقدت زوجة وعاملة جيدة.

- سأساعدك في كل ما أستطيع فعله.

تطلع إليها الرجل من أعلى إلى أسفل ثم أومأ بالموافقة.

- نعم، سأحتاجك. قد أصبحت امرأة، ستكونين خير عوض لخالتك.

عادت «ماريا» إلى البكاء، لكن هذه المرة بوداعة ودون تشنج. واسترسلت كذلك، متأوهة، متوجعة، طوال طريق العودة إلى «ضيعة الماء الحلو».

***

«قلعة أرجونة» **Arjona**. خريف **1211**

بدت بوادر الأصيل تلوح في السماء، وتوقف العاملان عن العمل. اغتسلا بماء الخابية التي وضعها صاحب «المصرية» في الجزء السفلي من الدرج، ثم صعدا بعد ذلك إلى مكان إقامتهما. كانا

في غاية التعب، جراء مشقة العمل بالحقل طوال اليوم. وكانت زوجة صاحب «المصرية» قد خرجت لاستقبالهما فقدمت لـ «هادي» إناء من فخار يحتوي طبيخا من الخضر.

بعد قليل، غمر صوت المؤذن الشوارع والأزقة المحيطة، فقام المياومان بتأدية صلاة المغرب. قبل أن يجلسا لتناول الطعام وقد اقتعدا فراشا من قش.

ـ يبدو أن استعدادات جارية لأمر هام. ـ بادر أجير «أرجونة» بالكلام وهو في حالة شرود.

ـ هل تقصد المعركة؟ سأله «هادي».

ـ أجل، يقال إن القشتالي تعاقد مع الحدادين للعمل بالقِطْعَة لصنع آلات الحرب.

ـ ونحن؟

ـ إن الخليفة يملك جيشا ضخما، غير أنه، حسب ما يتردد، يواصل تجنيد المتطوعة. لا شك أننا سنرى أثناء فصل الربيع حركة... ـ توقف الأجير عن الكلام وقد انشغل بتناول اللُّقْمة.

ترك «هادي» قصعته جانبا في صمت، ثم دخل في تفكير طويل.

ـ ما بك؟

ـ لا شيء. ـ أجاب الجياني ـ لكم يسرني أن ألتحق بهذا الجيش.

ـ إذن حَدِّث «أشقيلولة» بالأمر. ـ اقترح عليه زميله.

ـ رب العمل؟ ـ قطب هادي حاجبيه مستغربا.

- يبدو أنك لست من هنا؛«أشقيلولة» كان نقيبا في الأرَك. ألم تخمن من أين جاءه العرج؟ لقد اشتغل الرجل بالجندية على الدوام.

تنور وجه «هادي»، وأشرقت نظرته. فكر أن ذلك ربما سيسهل عليه تحقيق حلمه. كان في سن العشرين، وهي سن كافية للمشاركة في القتال، والإسلام في حاجة إلى شبان مثله.

تابع الرجلان حديثهما، وخاضا في مواضيع أخرى، في انتظار أن يهبط الليل، ويغلبهما النعاس. غير أن «هادي» بدا مفعما بالنشاط. كانت لديه خطة، عساه يحققها في الساعات القليلة المقبلة.

***

لم يكن الفجر قد فصح بعد حينما غادر الجياني الغرفة. كانت الدروب والأزقة ما زالت خالية من الناس، وبرد ما قبل الصباح يقرص الأجسام. تدثر الشاب بمعطفه طلبا للدفء، وتابع سيره. جاز الباب الرئيس للقصبة، ثم توجه إلى المسجد الجامع.

قصد لتوه الفناء بنية الوضوء، في تلك اللحظة كان بعض الرجال يغادرون منازلهم القريبة من المسجد، ويلجون البناية الدينية. وقتها كان نور السحر يتسلل إلى حقول الزيتون، والسهول المغروسة حبًّا. عشرات من الطيور بدأت تتغنى في احتشام بإطلالة الفجر، تغطي أحيانا على زقزقاتها رجرجاتٌ من صياح الدِّيَكة. كان صوت المؤذن يُحَيّي اليوم الجديد، ويوقظ النُّوَّمَ المتأخرين في مضاجعهم.

خرج «أشقيلولة»، كعادته كل فجر، من بيته الكبير برفقة ولديه، فوجد «هادي» ينتظره في مدخل فناء الوضوء.

- صباح الخير يا فتى. ماذا تفعل هنا؟

- السلام عليكم، أريد أن أحدثك في أمر. - أشار «أشقيلولة» على أولاده بالدخول. ثم واصل «هادي» - بلغ إلى علمي أن استعدادات تجري لخوض معركة، ويسرني أن أشارك فيها. وإذا لم يكن لديك مانع، أرغب في أن ألتحق بجند الخليفة.

أمسك «أشقيلولة» الفتى من ذراعه، وسار بصحبته في تؤدة.

- «هادي»، عهدتك عاملا جيدا وخَدُوما. وكنت قد منحتك فرصة وأبنت عن جدارتك.

خاطب «أشقيلولة» الفتى وهو يحدق في عينيه، ويدقق النظر في ملامحه. فلم يفت النقيبَ، وهو المقاتل المجرب الذي خبر مئات النظرات، صدقُ الاشتياق إلى المغامرة في نظرة «هادي».

- حقا، - واصل «أشقيلولة» - تجري الآن استعدادات لخوض معركة، ستحدد، لا محالة، مستقبل الأندلس. أفخر بكونك تريد المشاركة في القتال، وإن كنت سأفتقد ذراعَيْك بين زمرة العمال. فإذا كنت في حاجة إلى بركتي وتزكيتي، فهأنذا أقدمهما لك. ولا غرو، فالإسلام في حاجة إلى رجال مثلك، مستعدين للجهاد.

- شكرا سيدي.

ـ سأحدث الحاكم بالأمر. وعليك بالبدء في المران العسكري، إذ لم يعد هناك متسع من الوقت ـ نظر الفتى إلى «أشقيلولة» راضيا بما سمعه. في الوقت ذاته تطلع النقيب إلى المؤمنين وهم يدخلون المسجد لتأدية الصلاة، وقال:

ـ هيا بنا، بعد قليل ستقام الصلاة.

توضأ «أشقيلولة» بحركات خفيفة آلية، ثم سارع بالدخول إلى قاعة الصلاة. سار هادي خلفه، ولكن على بعد خطوات منه. ثم وقف على حصير من الحلفاء. خيم صمت على المكان المقدس قبل بداية الصلاة، ثم بعد برهة انطلق الإمام بصوت خافت مبتهلا إلى ربه متضرعا إليه.

ـ أيها الخالق الذي لا يغيب عن علمه شيء، اللهم انصر جيشك، واهزم الكفرة، وأذلهم، واجعلنا ممن يشهد ذلك، ويرى معجزتك فيهم.

***

ـ الأطفال يا يوسف! قل لهم أن يدعوا اللباس!

كان «محمد» و«إسماعيل» يسمعان، من فناء الدار، بكاء الصغير «يوسف»، وقد اختلط بهذيان أمهما وهي تعاني من الحمى. كان المرض قد نال منها، ومن صغيرها الذي أصيب بالداء ذاته. أما «فرج» فقد تمكن من النوم في غرفة أخويه.

ـ ننادي على الجد؟ ـ سأل «إسماعيل» وعلامات القلق بادية على محياه.

ـ لننتظر حتى طلوع النهار. البارحة تحسنت أحوالهما في تلك الساعة.

- كانت تلك الليلة الثانية لمرضهما. وقد التزم والد النصريين البقاء بجانب زوجته وابنها. زارهما في الصباح أحد الأطباء، ووصف لهما بعض الأدوية البسيطة لخفض الحرارة. لم يكن بالإمكان فعل شيء أكثر من ذلك.

- هل سيتحسن حالهما؟ سأل «إسماعيل»، وهو يرجو سماع بعض الأمل في إجابة أخيه.

- أكيد. غدا ستكون حالتهما أحسن.

تظاهر «محمد» بالابتسام، في حين سدَّ «إسماعيل» أذنيه وقد آلمه أن يسمع توجعات المريضين. بعد لحظات توقفت صرخات فاطمة، وسُمع على الإثر صوتُ زوجها يناديها بنبرات يائسة متفجعة، في حين زاد صراخُ الصغير «يوسف» حدة.

أطل الوالد من الغرفة وتوجه بالكلام لـ «محمد»:

- «محمد»! تعال حالا! - كان صوت الأب يحمل مسحة من الجزع لم ينجح في مداراتها.

نظر «ابن الأحمر» صوب أخيه بعينين مبللتين، ثم نهض ليستجيب إلى مناداة والده. كان الفتى يرتجف، في حين انخرط «إسماعيل» في البكاء وهو يحذَر الأسوأ.

***

«قلعة أرجونة» **Arjona**. شتاء **1212**

دفع «عبد الله» بالرمح إلى أخيه، فوضعه هذا تحت إبطه الأيمن، ثم صوبه إلى الأمام، مسددا إياه نحو الجبين. بيده الأخرى كان يحمل تُرْساً

مُدَوَّراً من الخشب.

ـ ليكن لصيقا أكثر بالجسم، يا «إبراهيم»! ينبغي أن يكون في وضع يسمح بتقبل ضربات الخصم ـ صاح «أشقيلولة» ـ حسنا، الآن تَتَحَكَّمُ في وضعية السلاح! خذ حذرك دائما! ـ تقدم النقيب نحو عمود التدريب، ووضع على إحدى لوحاته حلقة من المعدن ثم صاح:

ـ هيا الآن يا «إبراهيم»!

بدأ «إبراهيم» بالتقدم، وجعل الفرسَ يسير سير خَبَب متوسط. كان أطولَ الشبانِ الأربعة، وأمتنَهم بنية. اقترب من العمود، ثم أدخل الحربة في الحلقة، قبل أن يعود لتوه إلى جانب زملائه متهللا جَذِلا.

ـ تحرك يا «إسماعيل» جاء دورك ـ خاطب «أشقيلولة» حفيده.

ترجل «إبراهيم»، وتخلى عن الفرس لابن أخته «إسماعيل». كان «النصري» أقلَّ سنا من خاله بخمس سنوات، غير أنه على صغر سنه، وكونه في الرابعة عشرة من عمره، كان يستخدم الأسلحة بمهارة.

عاد «أشقيلولة» إلى وضع الحلقة المعدنية من جديد على العمود، ثم انتحى زاوية وهو يتابع التدريب. اهتبل «محمد» الفرصة واقترب من جده.

ـ هل يمكنني المشاركة في المعركة؟ ـ سأل جَدَّه على حين غرة، ودون مقدمات.

لم يكن السؤال ليفاجئ النقيب. حدق

«أشقيلولة» في عيني حفيده الحزينتين، وشعر بتعاطف عميق تجاه الفتى. كان «محمد» حديثَ العهد بوفاة والدته «فاطمة» وصغيرها «يوسف»؛ والنفوس في الأسرة ما زالت تضطرم بحزن الفراق، وحُرقة الموت؛ فلم يغب عن الجد، الذي فقد هو، أيضا، ابنةً وحفيدا، إن هذه الخسارة كانت أكثر ألما على «محمد» و«إسماعيل». ومن ثمة، فقد أفرغ هؤلاء الشباب حزنهم في تمارين السلاح، والمران على القتال.

ـ كنت أنتظر منك هذا السؤال. بيد أنك ما زلت فتى لا يسمح سنك بالمشاركة في القتال في معركة من هذا النوع.

ـ غير أنه بإمكاني التحكم في السلاح. ـ ألح «محمد».

تنهد «أشقيلولة»، وهو يصوب بصره نحو «إسماعيل» الذي كان ينتظر إشارة الانطلاق.

ـ ستكون هناك معارك أخرى. وينبغي عليك أن تصل إليها حيا. كل شيء له مجراه. حقا أنا منخرط في تهيئتك للقتال، غير أن الوقت لم يحن بعد لذلك.

ودون منحه فرصة الإجابة، أشار النقيب على «إسماعيل» بالانطلاق نحو العمود ثم أرْدَفَ: لنترك، الآن، الأفارقة يشنون الحروب، لأنه الأمر الوحيد الذي يمكننا شكرهم عليه.

وصل «إسماعيل» إلى وسط البيدر وهو يعدو بفرسه عدو خَبَب طويل، وأخذ الطوق المعدني. ودون أن يوقف الدابة، عاد أدراجه إلى نقطة

الانطلاق.

ـ أحسنت يا «إسماعيل»، خذ الجواد إلى الاصطبل. حَسْبُكُم اليوم.

توجه الشاب إلى المُنْيَة التي كان يملكها جده قريبا من البيدر. وكانت تقيم بها أسرة عريف العمال العاملين في ممتلكات آل «أشقيلولة». بينما أخذ الآخرون طريق العودة إلى «أرجونة». كان «عبد الله» و«إبراهيم» يتحدثان عن نجاحهما في تداريب اليوم، أما «محمد بن الأحمر»، فصعد عقبة القصبة صامتا، وقد غطت ملامحَ وجهه تكشيرةٌ من الضيق والانزعاج.

ـ تَمْلك مواهبَ فذة لتصبح مقاتلا ماهرا يا «ابن الأحمر». ـ أشاد «أشقيلولة» بـ «محمد»، وهو الذي لا يُثني على أعمال تلاميذه، ثم استطرد ـ أنت منضبط، ومطيع، وماهر في استخدام السلاح، وركوب الخيل، فلا أريدك أن تبدد حياتك، وتكون شِلْوَ معركة. اترك هذا المصير للآخرين. أنتم قدرُكم أن تقوموا مجتمعين بأشياء أخرى أعظم من تلك.

بدا على الشاب أنه لا يوافق على حديث جده، غير أنه لم يجرؤ على الجواب. كان عليه أن ينتظر حتى يتمكن من القيام بواجبه كمسلم.

***

آذنت الشمس بالمغيب، وأخذ الفلاحون يعودون إلى «أرجونة» حاملين أدوات العمل على أكتافهم. افترق «محمد» عن الجماعة، وقصد مصلى صغيرا يعرف بـ «مصلى الخلاص» كان يتردد عليه كلما

أحس الحاجة إلى الخلوة لينظم أفكاره، ويقيم صلواته. في الباب التقى بـ «عمر» الملقب بـ «الحَشُّون»، وهو أحد أولياء البلدة المعروفين بالتقشف والزهد.

ـ السلام عليكم. ـ حَيًّا الشاب الولي.

كان «محمد» يعرف الولي معرفة حسنة منذ زمن. وكثيرا ما كان يزوره ليسمع أحاديثه الهادئة المُطَمْئنة.

ـ وعليكم السلام ـ أجاب الرجل بابتسامة.

دخلا معا إلى المصلى الصغير، وجلسا على حصيرين في ضوء فانوس وحيد كان ينير المكان.

ـ كيف حال الوالد؟

ـ ما زال كما عهدته، مهتما بحقوله وزراعته. نعمل بجد دون توقف، غير أن عائدات عملنا بالكاد توفر مصاريف الأسرة.

ألقى الولي نظرة سريعة على لباس الفتى المتواضعة. ثم علق:

ـ قليل من الغنى، قليل من الإغراءات. ـ ضحكا معا ـ وفقدان الوالدة، كيف تتحملونه؟

كانت فاجعة وفاة الأم قد أدخلت جميع أفراد العائلة في نوبة من الحزن الشديد، وكاد رب الأسرة أن يغرق بسبب ذلك في اكتئاب حاد.

ـ أحْسَن الآن. ـ أجاب الفتى ومسحةٌ من الشجَن تَغشى عينيه، وهو ما لم يَفُت الولي.

ـ والتداريب؟

ـ أواظب عليها يوميا. ـ عاد الإشراق إلى عيني «محمد» ـ جدي يسمح لنا باستعمال أسلحته، وركوب جياده. إنه يعاملنا بإحسان.

ـ يفعل حسنا، عمله يدخل في باب الحسنات... ضروري أن يفرض الدين الحق هيبته على الكفار؛ وأيضا على «أهل البدع».

كلاهما كان يعرف أن المقصود بـ «أهل البدع» هم الموحدون. فقد كان هؤلاء الأفارقة لا ينظرون بعين الرضا للتصوف وأهله. وما قبلوا بالولي «عمر» إلا لأنه لم يكن يهاجمهم علانية.

ـ رجائي في الله أن يحقق مرادي، فأشارك قريبا في المعركة.

ـ قريبا ستتحقق أمنيتك. اسمع لكلام «أشيقلولة» وأطعه، والتزم بالصبر.

لزم «ابن الأحمر» الصمت للحظات. كان يفكر في أحس السبل لطرح قضيته.

ـ «عمر»، هناك أمر يَشْغَلُ بالي، أريد أن أفاتحك في شأنه. ـ أغمض الحكيم عينيه وهو يصيخ السمع. ـ تقريبا لم أذهب إلى المدرسة، وأقرأ بصعوبة، ولم أحفظ كتاب الله. منذ مدة وأنا أفكر في هذا الأمر...

حسون تنفس ثلاث مرات قبل أن يتحدث.

ـ هناك وسائل كثيرة لخدمته تعالى، يا فتى. هل تعرف تعاليم ديننا الحنيف؟ ـ أجاب الفتى بالإيجاب مشددا على ذلك. ـ إذن تعرف ما يكفيك، أنت لست في حاجة إلى واسطة لتتواصل مع

الخالق، إنه في كل شيء، وفي جميع النفوس. انظر إلى نفسك من الداخل وستجده حاضرا. كن متواضعا، والبس دون تباه، وكل باعتدال، واعمل جيدا، وحينما يأتي الموعد دافع عن أرض أجدادك.

ـ هكذا سأفعل، لست راغبا في شيء آخر أكثر مما ذكرت.

على التو نطقت أسارير «عمر» بابتسامته الصافية الخالية من الشوائب التي تميزه عن سواه.

ـ أنت مسلم جيد يا «محمد». ـ ختم الولي، ليزيل عن الفتى الشكوك.

في الحال، قام «عمر»، وغادر المصلى، ليترك الفرصة للشاب في أن يستغرق في وحدته وأفكاره.

أغمض «محمد بن الأحمر» عينيه، وحلق بعيدا في رحلة تفكير طويل. حاصرته ذكرياته عن أمه وأخيه الصغير وهو يحاول جاهدا أن يتغلب على آلام الذكرى وأحزانها. «اترك نوائب الدهر تنساب كما لو أنها أوراق جافة تطفو على مياه الغدير» كان «عمر» قد نصح «محمدا» حينما توفيت «فاطمة» و«يوسف». غير أن الهموم حينما تأخذ أحيانا بمجامع قلبه، تصبح جميع مجاري المياه عاجزة عن الدفع بها وتصريفها.

***

**«مائدة الملك» Mesa del rey. يوليو 1212**

مع تباشير الصباح الأولى، وبعد صلاة الفجر،

انتقل أمر «الخليفة الناصر» بالتأهب للمواجهة سريعا من «محلة» إلى أخرى، حتى أصبح الجيش الموحدي جميعه على علم بالأمر. على الإثر اصطف الجند المسلمون بنظام تام مقابل الجند النصارى. كان الجميع على أهبة الاستعداد للدخول في المعركة، والرايات مرفوعة خفاقة في الجانبين، في انتظار أي حركة تصدر من أحد الغريمن لتتحرك إلى الأمام.

- هل سيدخلون في المعركة؟ - سأل «هادي» أحد زملائه من «ألمرية» في الأربعينيات من عمره، التحق بجيش الخليفة يحذوه الأمل في الحصول على غنيمة سمينة.

- سنرى ذلك بعد قليل. ها قد تحرك الأغزاز.

في الحال همزت فرقة الرماة الأتراك الجياد وحملوا على النصارى؛ أخذوا يرمونهم بالنبال بمهارة فائقة وبتتابع. كانت أقواسهم المركبة التي تلائم الفرسان الرماة تسمح لهم بالهجوم من مواقع مختلفة وآمنة، بعيدا عن مرمى سهام المسيحيين.

- إنهم لا يتحركون، - علق «هادي» وهو يمسح العرق من جبينه. كانت الشمس قد بدأت تحرق ما تحتها، لكن المسيحيين التزموا مواقعهم بعزم ورباطة جأش وهم تحت ثقل معداتهم القتالية، بينما كان الأغزاز يحاولون استفزاز العدو.

- إنهم خائفون.

- ليس الأمر بسيطا أيها الفتى. - قال المِرَوي دون أن يشيح ببصره عن مسرح المناوشات. لقد

حضرت معركة حصن الأرَك حينما انتصرنا على ملك «قشتالة». هناك، كانوا هم من نظّموا صُفوفَهم أولا قبل أن يحين الوقت، وكان الخليفة [المنصور] هو من رفض القتال. كان يعرف أن الرجال في حاجة إلى راحة بعد المسيرة الطويلة، ومن ثمة ترك النصارى يُشْوَوْنَ تحت الشمس الحارقة، حتى يُنهِكَهمُ التعب. ـ نظر المِرَوي إلى «هادي»، والعرق يتصبب من جبينه مرة أخرى، وأردف ـ كما هو حالنا نحن الآن.

لم يتحرك أحد من الجانب المسيحي. وبعد فترة، ورد الأمر بتفريق الصفوف، والعودة إلى المعسكر.

كان «هادي» يَقْتَسمُ الخيمةَ مع المِروي وثلاثةٍ آخرين من الأندلسيين. وكان المتطوعون يعانون نقصا في التجهيز والمعدات. وقد اقتصرت أسلحتهم على ما زودهم به الموحدون. فكان الجَيّاني «هادي» مسلحا بحربة رأسها على شكل مسمار، بينما كان الأفارقة يمشون بين باقي الجند متباهين بدروعهم المنسوجة بالزرود.

ـ هؤلاء يعتقدون أنهم أفضل منا. ـ قال المروي لـ «هادي» بصوت خافت. ـ لَكَمْ أطلب من الله أن أحيا حتى ترى عيني كيف سنرمي بهؤلاء خارج أرضنا. ـ ابتسم «هادي»، ولكنه لم يجب. كان يصعب عليه أن يتصور كيف ستكون حال الأندلس لولا هؤلاء الجند الأفارقة الذين كانوا يعبرون المضيق لحماية الثغور الأندلسية.

ـ هل سمعت بخبر «قلعة رياح»؟

ـ أجل، لقد ضاعت منا. ـ أجاب «هادي». ـ كان خبر سقوط حصني «مَلْجون» و«قلعة رباح» قد شاع في المعسكر خلال الأيام الأخيرة.

ـ بل أعني مقتل «ابن قادس».

حدق «هادي» في مخاطبه مصدوما. كان «ابن قادس»، قائد «قلعة رياح»، من أشجع القواد الأندلسيين، ومن القادة الذين حنكتهم حرب الحدود، ويتمتع بصيت جيد بين قادة الثغور.

ـ يُحاول الخليفة أن يُعَتِّمَ على خبر مقتل القائد الهمام، غير أن النبأ شاع بين الناس.

نفى المِروي برأسِه وهو يخفض من صوته أكثر، ثم تابع حديثه عن الموضوع، بالرغم من منع الخليفة الخوض في هذه المسألة ـ قال المروي مستطردا:

ـ قاوم [أبو الحجاج يوسف بن قادس] الحصار الذي ضرب عليه بشجاعة، كما هي عادته... بل كما «كانت» عادته، رحمه الله، وأسكنه فسيح جناته. ثم لما طفح الكيل، كتب إلى الوزير [أبي سعيد بن جامع] يطلب المساعدة، غير أن هذا أخفى على الخليفة الرسائل التي وصلته من «ابن قادس»، فوجد القائد الأندلسي نفسه مضطرا إلى تسليم القلعة. وحينما غادرها [متنازلا عن سلاحه للنصارى] حسب اتفاق التسليم، ووصل إلى المعسكر الإسلامي، أوغر الوزيرُ قلبَ الخليفة عليه. فأمر [محمد الناصر لدين الله] بإعدامه جزاء استسلامه، فقُتِل، رحمه الله، غَدْراً بطعنة حَرْبة، طعنه بها رجال الخليفة.

ـ لكن إذا قتلوا أحسن المقاتلين، ماذا سيَحُل بالأندلس؟ ـ سأل «هادي» وهو في حالة من الذهول.

ـ هذا ما أراه. والمعروف عن هذا الوزير أنه حسود، وكان يحقد على «ابن قادس» لشهامته وشجاعته. ـ هنا توقف المِرَوِيُّ عن الكلام ووضع يده فوق كتف الشاب ثم أضاف. ـ صديقي، لقد بدأ الإفريقي يخسر وفائي له، وإخلاص كثير من الأندلسيين لدولته.

لم يجب «هادي»، ولاذ بالصمت وهو مستغرق في التفكير. ظهر له أن المؤامرات والانقسامات التي تمزق المسلمين، تفسد عليهم تحقيق الهدف المشترك. وكذلك قضى يومه متأثرا بالنبأ.

***

اجتمع الرجال حلقات حلقات، عقدوها في الفراغات بين الخيام المنصوبة. كان العديد من التجار يمرون بينهم يعلنون عن بضاعتهم. أثناء ذلك كانت آخر عربات الأقوات والمؤن تصل تباعا محروسة من قبل زمرة من الجند. بعد حين وزعت مهام الحراسة، وانتهى اليوم في هدوء. بعد تناول العشاء أشعلت النيران وتحلق حولها الرجال.

ـ لا طاقة لهم بنا؛ يعرفون ذلك جيدا ـ أكد أحد الشباب من غرناطة. ـ عددنا يتجاوز أعدادهم بالضعف.

ـ أبقاك الله وأصلح بالك ـ علق المروي وهو يحدق في اللهب ـ ليس العدد هو الأهم في المعركة. هناك أيضا روح الجيش المعنوية،

والتجهيز، والوفاء... وهي كلها عناصر لا ينبغي التقليل من شأنها.

ـ سنعصف بهم، ونخلي المكان منهم ـ تدخل ثالث؛ متطوع بربري، وهو يحدق في المِرَوي بتحد.

ـ أجل، سنسحقهم، كما فعلنا في الأرك. وافق المروي على كلام المتدخل متفاديا الدخول في نقاش عقيم عن الخطط العسكرية.

واستمرت السهرة، تناول خلالها الساهرون الحديث عن سقوط «شَلْبَطَرَّة» وبطولات أخرى حديثة الوقوع. حتى إذا انتصف الليل اقترب منهم المنادي وأمرهم بإطفاء النار وفض الحلقات. تخلف «هادي» قليلا، كانت الليلة صافية تفسح المجال لرؤية شعلات النار في المعسكر المسيحي. أمام هذا المشهد أخذت «هادي» رِعْدَةٌ، وتسارعت دقات قلبه، حينما ذكر أنه في ذلك الفضاء الذي أمامه ستصطدم الكتلتان إن آجلا أم عاجلا على وقع أصوات الحديد، وحفيف النبال وهو ما سيرفع من دول وسيهوي بأخرى.

« اللهم هبني القوة والقدرة لخدمتك» ضَرَعَ «هادي» إلى الله قبل أن يدخل الخيمة. في الداخل كان زملاؤه يتدافعون بحثا عن فراغ للنوم، بينما كان أحدهم جالسا على ركبتيه يصلي بخشوع، يطلب من الله أن يحفظ حياته، وينجيه.

***

انفلق الصبح في الأفق البعيد خيوطا محمرة، سرعان ما بدأ ضياؤها يغطي على عتمة آخر الليل، وبعد حين وقد توضحت الرؤية لاحظ الحرس

في المعسكر الإسلامي تحرك النصارى بانتظام داخل معسكراتهم، وشروعهم في حشد الجند استعدادا لخوض المعركة. ورغم البعد، كانت الأصوات الخرساء لآلاف الأقدام المتزاحمة وهي تتقدم في اتجاه المسلمين، تصل الأسماع في المعسكر الإسلامي.

أعلم «الناصر» في الحال بحركة النصارى، فأعطى الأمر باصطفاف قواته، واستعدادها للمواجهة. في حين بقي هو داخل الحاجز الذي طوق البقعة التي ضربت بها قبة الخليفة الحمراء. كان يشعر بالأمان والحماية داخل نطاقه وقد أحاط به حراسه المدججون بالسلاح. كانوا من السود والرماة والمقلاعيين، وجميعهم على استعداد للموت فداءه.

بعد حين طلب تُرسا وأمر بوضعه في أعلى نقطة من السياج ثم جلس عليه، بينما كان رجاله يحتشدون على سفح الرابية. بعد ذلك أمر بإحضار نسخته من القرآن، وكان يقوم بين الفينة والأخرى للصلاة مناجيا ربه في صدق نية ليحقق حلمه: تحقيق نصر يغطي على الذي حققه والده بـ «الأرك».

بدأت طبول الموحدين تدق، وبات هديرها يتردد صداه المفزع في أرجاء المكان، حينها اصطفت قوات النظام حتى أصبحت غاية في التنظيم. في حين ظل «هادي» في المقدمة مع باقي المتطوعة، وهم رجال شجعان، لكن تنقصهم التجربة والعُدة. بجانب هؤلاء تموضع القواسون، وبعض وحدات الفرسان الخفيفة. أما الجناحان فقد

غطتهما فرق الخيالة الخفيفة، بينما تعزز القلب، بمشاة متمرسين على القتال، وفرسان ذوي عدة جيدة. في حين حمل راية الخليفة الوزير «أبو سعيد».

ـ أيها الفتى، كن شجاعا مقداما، والله أكبر. ـ همس المروي في أذن «هادي» ـ لكن لا تكن مغفلا، ولا تضحِ بنفسك من أجلهم ـ قال ذلك وهو يشير بإبهامه إلى الوراء.

كان النصارى حينها قد توقفوا في أسفل الهضبة.

ـ اهدأ أيها الصديق. وشكرا على النصيحة.

أسند «هادي» عمود رمحه إلى الأرض وهو يتمسك به في قوة. كان المتطوعة ينظمون أنفسهم صفوفا متراصة في استغلال للفراغات المتاحة. أحس الشاب بمعدته تنقبض، وبالعرق يتفصد من جسمه غزيرا.

في تلك اللحظة أخذت طلائع الجيش النصراني تصعد الهضبة تسندها مليشيات البلديات، وفرسان الرهبانيات. للتو اهتزت الأرض بحركة الخيل والدروع، وتعالت صياحات القادة وهم يحثون الرجال على القتال. انطلقت الموجة الأولى من الفرسان المدرعين، كانوا أشبه بالسيل، وسرعان ما تخلف المشاة النصارى وراء هذا الموج الصاخب من الخيل. تسلقت فرق الخيالة الثقيلة سفح الهضبة، وحملت على الصف الأول من المتطوعة المسلمين، وسرعان ما بدا أن مقدمة الجيش الإسلامي ستسحق لا محالة.

وضع هادي الحربة تحت ذراعه وشد عليها بكل ما أوتي من قوة وهو يسددها إلى الأمام.

ـ الله أكبر! ـ صرخ المسلمون قبل أن يتلقوا الضربة الأولى.

نزلت فرق الفرسان الثقيلة على المدافعين كأنها البرق الصاعق في عاصفة هوجاء. رأى «هادي» العشرات من زملائه يتساقطون ويبادون. على الإثر انتقى «الجياني» هدفا وسدد نحوه حربته. كان قد اختار فارسا يشق طريقه بضربات متتالية من سيفه بعد أن غرز رمحه في صدر أحد البرابرة. في تلك اللحظة كان يسمع من أعلى الرابية الدوي الرهيب للطبول الموحدية، غير أن الجياد كانت مستمرة في تقدمها دون وجل.

ـ اللهم هبني القوة! ـ صاح الشاب «الجياني» وهو ما زال ممسكا برمحه في ثبات، وقد أحاط به الموت من كل الجهات.

كان النصراني مشغولا بأحد المتطوعة حاول إسقاطه من الفرس، وهو في غفلته لم يفطن للرمح الذي كان يسير في اتجاهه. وسرعان ما اصطدم سِنانُ الرمح بدِرع الفارس، وبدا لأول وهلة أن الطعنة لم تتجاوز الدرع، غير أن صوتا حادا صدر من النصراني كشف أن الطعنة فعلت فعلها. في الحال فقد الفارس توازنه، وسقط من الدابة، فبقيت إحدى ساقيه معلقة بركابه، فأصيب الفارس بالذهول، فاهتبلها «هادي» فرصة، وصَوَّبَ نحوه ضربة من مِقمعته. انغرزت أسنان السلاح في جمجمة الفارس، وتدفق الدم فوارا، حتى انتثر على جلباب «هادي» الأبيض. على التو،

غمر إحساس عميق من الغبطة الأندلسي، اهتزت له نفسه من فمه إلى غاية معدته.

- الموت! - صرخ، وقد أخذت منه روح الحرب مأخذا.

ثلاثة من الفرسان مروا بمُحَاذَاتِهِ في سباق محموم لبسط الهيمنة على الأرض. في حين كان عدد القتلى في صفوف المتطوعة يزداد تباعا ودون توقف. بعد قليل زرعت الأرض بالجثث التي تعوق الحركة. آلاف الأصوات وتتابع قعقعة السلاح كانت تضل الشاب وتوقعه في الاضطراب. فارس آخر تقدم نحوه عَدْوا وحربته موجهة نحوه، مهيأة لتجاوز جسده. مال «هادي» إلى ناحية، فعثر بأحد القتلى، وسقط على بطنه. لم يتوقف النصراني. كان الهدف هو الصعود إلى أعلى الربوة، وتحطيم مقدمة العدو مهما كلف الأمر. من موقعه استطاع «هادي» أن يرى كيف أن آخر فرسان سادة قشتالة أخذوا يصعدون من الوسط هذه المرة في اتجاه المحلة الموحدية، ويقسمون في طريقهم المتطوعة المسلمين إلى قسمين. كان هؤلاء قد ارتدوا إلى الصفوف العليا فاستحر فيهم القتل. وبذلك حقق الهجوم النصراني مبتغاه ونجح النجاح التام.(4)

ثم نظر الجياني إلى أسفل. فرأى مئات من الرجال يسرعون إلى ميدان المعركة، يريدون مساندة الفرسان. كانوا من المليشيات التابعة للبلدات. حينها قرر «هادي» الصعود إلى قمة المرتفع، والانضمام إلى قوة الموحدين الضاربة. من بين القتلى لمح الجلباب الأبيض والأزرق

الذي كان يلبسه المِرَوي وهو مخضب بالدم والتراب. قريبا منه وجد سيفا متخلى عنه، وعددا من التروس الخشبية المغلفة بالجلد، مما كان يستعمله المشاة لحماية أنفسهم. غَيَّر في الحال المِقْمَعة بالسيف، والتقط أحد التروس وحمله معه. بعد لحظة أدرك أن مقبضَ السيف صغير الحجم، وأن صَفْحَته كانت بها ثُلْماتٌ كثيرة، إلا أن الحسام، مع ذلك، كان خفيفا ومتوازنا.

لم يلبث «هادي» أن أخذ يركض في ذات الوقت الذي كان فيه سلاح الفرسان النصراني يحاول اختراق الجند الموحدين من الوسط. غير أن الفرسان المسيحيين كانوا يلقون مقاومة شرسة من الموحدين لأول مرة. وبدا كأن التعادل حصل بين القوتين. وقتها شرعت مفارز من متطوعة الأندلس تخرج من المعركة؛ كان رجالها يفرون عبر الجناحين، وهم لا يلوون على شيء.

وصل «هادي» إلى الجبهة عبر المنطقة الأقل تضررا. اقترب من أحد الفرسان القشتاليين من الخلف ووجه له ضربة من سيفه على ساقه، غير أن الدرع حمى النصراني من الضربة، وإن صرخ، وتوجه بنظره إلى الجياني. في الحين انتهز رَمَّاحٌ مُسلم الفرصة في النصراني لإسقاطه، وهو ما مكن «هادي» من الإفْلَاتِ واسْتعادةِ النَّفَسِ. كانت السهام تتطاير فوق هامته في طريقها إلى الفرسان المتخلفين. من كل الجهات كان الرجال يقاتلون. ومن جديد اجتاح «الجياني» شعور الغبطة، وغمرته حميا الحرب، فانطلق إلى الصف الأول، وتُرسُه مُوَجه نحو الأمام. في تلك

اللحظة صدمتْ حَربةُ أحدِ مقاتلي المليشيات ترسَ الجياني، واخترقته إلى جانب. في الحال اتجه سيف «هادي» كأنه الطير الكاسر إلى عنق غريمه، ولم يكن محميا، فأصابته في مقتل. ومن جديد فورانُ الدم، وتقَبُّضُ وجهِ الغريم جراء الألم والتوجع، ثم أخيرا، سماع حشرجات الموت.

كان المسلمون في هذا الطور من المعركة يستردون الميدان، ويتقدمون عبر المنحدر، وهم يدفعون في تقدمهم فرق الخيالة القشتاليين. كان القتال سجالا، لكن، بدا وكأن النصارى أخذوا في الارتداد، والكفة ترجح لصالح الموحدين. وقتها كانت ساحة المعركة قد غصت بالجثث، والرجال يقاتلون، بين القتلى، في استماتة للحفاظ على التوازن.

كانت الشمس في كبد السماء، حينما أعطى ملك قشتالة الأمر بتقدم الصف الثاني من القوات المسيحية، وكان مكونا من «فرسان المعبد»، و«الأُسْبِتَارية» [فرسان القديس يوحنا]، و«فرسان سانتياغو» [شَنْت يَاقُب]، و«فرسان قلعة رباح» مسنودين من قبل مليشيات الجماعات والبلدات. في الحال حمل فرسان الجماعات الدينية النصرانية هؤلاء بقوة على الموحدين، فتمكنوا من إحداث ثلمة في صف المسلمين، غير أن الرجالة [المشاة] الموحدين المُدَرَّعين سرعان ما أعادوا اللحمة إلى الصفوف. وقتها دبت حركة في الجيشين؛ كان الفريقان يستبدلان المقاتلين الذين استبد بهم الإعياء بآخرين من فرق الإمداد.

كان التعب قد أخذ من «هادي» كل مأخذ، فغادر

الميدان، وصعد في عقاب الرابية بخُطى وئيدة ليحمي نفسه، ويتمكن من أخذ قسط من الراحة. كانت الحرارة خانِقةً بفعل شمس منتصف النهار، والرجالُ يقطرون عرقا، وأغلب المتطوعة قد قتلوا أو فروا. حدق «هادي» في أثواب القتلى الملطخة بالدماء، وأدرك أن العناية الربانية كانت بجانبه.

كان القتال على أشده، وكل فريق يقتُلُ ويتلقى الموتَ في آن فوق العقبة المخضبة بالدماء. فجأة تحركت الرايات في قمة الهضبة، وعلى الجناحين بدأت فرقة الخيالة العرب تتحرك نحو الأسفل بشكل طولي لتطويق النصارى. كان الفرسان يصاحبون تقدمهم برَمْيات نِبالٍ مسددةٍ بإحكام تسقط على العدو سريعا وتصرع منه العشرات.

لاحت بوادر العَشِيّ، وبدت على المسيحيين علامات الانهيار. وظهر كما لو أن خطة «معركة الأرك» ستعاد من جديد وستعطي ذات النتائج التي عرفتها المعركة السابقة. كان «هادي» يتابع أطوار القتال من موقعه المرتفع. وبدا أن النهاية على وشك الوقوع.

تحت، في أسفل المنحدر شرعت ثلاث فرق نصرانية في الصعود سريعا. ثم طوقوا الجناحين الإسلاميين على حين غرة، قبل أن تتم حركة التطويق التي كانت تقوم بها الخيالة العربية بالكامل. في الحال حصل الالتحام بين الطرفين في معركة شرسة للسيطرة على قمة الربوة. كان على رأس الفرق الثلاث النصرانية ملوك

«قشتالة» و«أراغون» و«ناڤار». وكانوا قد عزموا على ولوج الميدان؛ كُلٌّ في قواته، المتكونة من جند الساقة، وكان هؤلاء في كامل قواهم، وفي غاية الاستعداد بسبب لهفتهم إلى دخول المضمار، وخوض الحرب، وأيضا لتأثرهم بحَمِية مُلوكهم. وقف «هادي» وشاهد كيف أطبق الجيش النصراني على الخيالة الموحدين الخفاف، ثم تدفقت وحداته كالطوفان نحو معظم جيش الناصر. وقف «هادي»، فتمكن من رؤية الفرسان النصارى يسحقون الخيالة الموحدين، ويشقون عبرهم الطريق نحو الكتلة الكبرى في الجيش الخليفي، وما هي إلا لحظة، حتى شرعت خطوط المسلمين تسقط تباعا، وبغتة، وفي هذا الخضم، شاهد الشاب مذهولا، كيف أن قواد الأندلسيين بدأوا ينسحبون من الميدان، ويفرون، وفي أعقابهم وحداتُهم من الفرسان والرجالة.

- ليس هذا وقت ذلك. - صاح «الجياني». ذكر حادثة «ابن قادس»، بطل «قلعة رباح» الأمجد، الذي قتله طعنا بالرماح رجال الناصر. ومر بخاطره أن هذا الهروب الذي قام به الأندلسيون هو أبشع انتقام للبطل في حق الخليفة. فلو خسر الموحدون المعركة، فالخسارة ستنسحب عليهم هم أيضا. أحس «هادي» بآلام في العضلات، وبتشنجات فظيعة تختلج ذراعيه المتعبتين، غير أنه تغلب على آلامه، وأمسك بتُرسه وسيفه، ثم انطلق من جديد للقتال.

- إليهم! صاح بأعلى صوته، مستنفرا من كان مثله يستريح في المؤخرة من وهن القتال،

ويستعيد أنفاسه.

على يساره، لمح جماعة كثيفة من الفرسان النصارى وهي تصل إلى أعلى نقطة في الرابية، عبر التسرب من صدع أصاب الصفوف الموحدية. كان هؤلاء فرسان ملك «نابار» «سانشو السابع»، تُعضدهم وحداتٌ من «الأراغونيين» و«القشتاليين»؛ استغلوا قوة الاحتدام، وما أعقبه من اختلال في صفوف الموحدين فانسابوا كعباب البحر من الشق. في لحظة كان ما تبقى من سلاح الفرسان الإسلامي مشغولا بالقتال في الجبهة. فلم يفطن المسلمون للتسلل المسيحي حتى كان الأوان قد فات، في لحظة كانت علامات الانهيار قد بدت جلية في الجيش الإسلامي. حتى إذا قام الملوك الثلاثة بهجومهم الموحد العنيف على جناحي الجيش الإسلامي، كانت قدرة القوات الموحدية على المناورة عبر الجناحين قد غدت مستحيلة، وهو ما بدا معه واضحا أن جيش الخليفة على شفا الانهيار.

وقبل أن يصل «هادي» إلى الخط الأمامي، شاهد المئات من الرجال وهم يصعدون مدبرين نحو سطح الهضبة وفي أعقابهم المشاة المسيحيون. كان التشتت شاملا، والفرار عاما، فذهل الشاب، وشعر بوخزة في الصدر، وتيقن أن المعركة خاسرة، وأن الوقت ليس وقت بطولات. وسرعان ما بدا له أن الأسلم هو أن يفر بجلده من الجناح الأيمن، في لحظة كانت وحدات من الفرسان انصرفت لمطاردة المهزومين، لتمنع عنهم أيَّ سعي للتجمع من جديد. كانت مهمتهم

قتل أكبر عدد من الكفار المسلمين، دون أسرهم؛ ودعم الطلائع النصرانية التي وصلت إلى النطاق المضروب على الخليفة.

كان «الجياني» في غاية التعب، لكنه كان يعرف أن حياته معلقة على مدى قدرته على الابتعاد سريعا عن تلك العقبة اللعينة.

ـ لماذا خسرنا المعركة؟ ـ كان يتساءل.

فجأة تناهى إلى سمعه صوت حوافر الخيل. «النهاية» فكر. توقف عن السير، ثم استدار لمواجهة المطاردين. وسرعان ما واجه جوادين فرا من المعركة بعد أن فقدا فارسيهما. شرع الجوادان في كبح سرعتهما إلى أن توقفا بجانبه.

جثا هادي، ثم رفع رأسه إلى السماء.

ـ شكرا يا إلهي ـ تلفظ بالعبارة وهو يتطلع إلى السماء.

كان أحد الفرسين خلاف الفرس الثاني محميا بشبكة مغطاة بتِجفاف رسمت عليه صورة صليب تنتهي أطرافه برسوم السوسن، وكان معلقا بالسرج سيفٌ وتُرْس [من النوع المعروف بـ «المذنب»، وكان شائعا حينها بين الفرسان النصارى]. أخذ «هادي» السلاحين، غير أنه فضل ركوب الحصان الآخر. وكان جوادا خفيفا مطهما، مما يركبه البربر، وزينته غاية في الدقة.

إلى عين المكان، حيث يوجد «هادي»، كانت تصل صرخات الهاربين وهم يتساقطون بالمئات. امتطى الناجي الجواد في الحال، وابتعد عن هذا المكان المشؤوم ركضا لا يلوي على شيء في اتجاه

الجنوب.

لم يقلل «هادي» من سرعة عَدْوه حتى أحس بالأمان. لم يصدق أنه تمكن من النجاة في هذا اليوم النكد على الإسلام، إنها «الهزيمة العظمى» التي سوف يذكرها الناس جيلا بعد جيل.

ومع إطلالة المساء أخذ الهارب يسترجع بعض قواه. كان أول ما لفت نظره هو الجراح الصغيرة، والكدمات، التي انتشرت على كل جسمه. فحمد ربه على سلامته، وعلى نعمة بقائه حيا، وكونه نجا من رغبة الانتقام العاتي لدى النصارى. لكنه بالرغم من تلك الراحة التي أحس بها وهو يرى نفسه من جملة المحظوظين الذين نجوا من هذا التوق النصراني الجارف إلى القتل، إلا أنه لم يَشُكَّ في أن القادم سيكون أسوأ...

في تلك اللحظات، قريبا من الرابية، كانت تجري وقائع مجزرة رهيبة، ستطول إلى غاية منتصف الليل.

***

**«قلعة أرجونة». يوليو 1212**

كان «أشقيلولة» يتمشى بالبيدر شارد الذهن، وهو ممسك حسامه. بينما وقف في ناحية تلاميذه الأربعة وهم ينظرون إليه باهتمام. فجأة، توقف عند قطعة من الخشب، وأمسك السيف من مقبضه بكلتا يديه، وغرز بقوة سنَّه في الخشب. عدَّل النقيب من استقامة الحسام حتى تأكد من أنه لن يسقط على أحد جانبيه، ثم داس بإحدى

قدميه الحَطَبة، ودفع بثومة السيف، فجَعَلَتْ صفحته تنوس يمينا وشمالا.

ـ الصلابة والمرونة. ـ لفظ أخيرا الكلمتين مكسرا الصمت. ـ كل مقاتل عليه أن يعرف سلاحه حق المعرفة لأن نجاته متعلق به. وإن سيفا صلبا مثل هذا، ليس بقاطع بتار، لكنه جيد فعال في مهاجمة الرجال المدرعين. ـ في تلك اللحظة سمع رنين. كان «إسماعيل» وهو يهزل قد ضرب بحد سيفه البرشمة المعدنية في ترس «إبراهيم» فأحدثت ذلك الصوت.

ـ هدوء! ـ في الحال عادت السكينة واستطرد «أشقيلولة» ـ أنصحكم بهذه السيوف الصلبة. لأن العدو عادة ما يكون مدرعا. ـ سكت قليلا ثم أردف ـ ومع ذلك ينبغي أن يكون السيف مرنا. لأنه إن كان صلبا أكثر من اللازم انكسر، وإن كانت مرونته زائدة يَفَلُّ سريعا ويَتثَلّم حدُّه. ـ ثم جثا على الأرض بركبة واحدة وطلب من الفتيان أن يقتربوا منه ـ انظروا إلى هذه الحُدة، بها يخفف من وزن السيف، لأنه ينبغي في السيف أن يكون خفيفا، فالمعركة الواحدة قد تدوم ساعات والذراع تهن. انظروا إلى سن السيف إنها أقل سمكا لتسمح بالحصول على توازن أفضل... إنها مطواع وسهلة الاستعمال. ـ ثم أمسك بعارضتي السيف وكلتاهما تنتهي بمنخاس ـ انظروا، حتى العارضة ومِنْخاساها يستخدمان للهجوم. يمكنكم توجيهها إلى العنق أو الوجه. وإذا استخدمتم القفاز الحديدي فبإمكانكم الإمساك بالصفحة، والضرب حينها بالسيف كالمطرقة. إن المنخاس

فعال ضد الخُوَذِ الحديدية، وشبكات الزرد. أذكر أني غرزت سن عارضة في رأس أحد المقاتلين النصارى في الأرك. ـ نظر «محمد» إلى جده بإعجاب. ـ إن سيفا جيدا لا يصنع المقاتل الجيد غير أنه يساعده ليكون فعالا. ـ إن سيوف التداريب التي تستعملونها ليست مثل هذه. يوما ما ستشهرون سلاحا مثل هذا حينما ستقاتلون في الحدود، كما يفعل أجدادكم منذ عشرات السنين. ـ ختم بنبرة أسطورية.

حدق «محمد بن الأحمر» في سيفه، لم يكن حده قاطعا مسنونا، حداه كثيرا الثلمات، وسِنًّا عارضتيه كليلتان، ورمانته من خشب.

وضع «أشقيلولة» السيف جانبا، ثم أخذ من الأرض رمحا، وقال:

ـ علمتكم استخدام الرمح، الآن سأحدثكم عن سلاح آخر أساسي. ـ تقدم بضع خطوات إلى وسط البيدر حيث كان مربوطا باب خشبي مهترئ إلى عمود التدريب. رفع ذراعه اليمنى، وبحركة سريعة قوية قذف بالرمح؛ كل جسمه رافق القذيفة وهي تنطلق، على التو، سمعت قضقضة انغراز الحديد في الباب. ـ تأملوا، قَتَلْتُ رجلا، وأنا في مكاني آمن. ستتعلمون قذف الرمح وأنتم على صهوة الفرس، بما في ذلك حساب المسافة؛ لكن قبل ذلك، ينبغي التدرب على القذف وأنتم مترجلون.

شرح «أشقيلولة» للفتيان آلية الاستخدام، ورَمَوا بالرمح خلال ثلاثة أشواط بشكل سيئ للغاية.

ـ عليكم بالصبر، كل شيء قابل للتعلم. ـ علق ـ حسبنا اليوم ما تعلمناه نظرية وتطبيقا. هيا بنا الآن إلى تدريب الجسم. فإنه القاعدة المتينة التي يقف عليها كل ثَغري. ـ نفخ الفتيان بقوة، كانوا يعرفون ما يعنيه ذلك. سباقات حول البيدر، وتمارين الأرجل والأذرعة. ـ هيا اركضوا!

نصف ساعة بعد ذلك وصل حسن، صديق «محمد بن الأحمر» في حالة اضطراب إلى البيدر.

ـ أخبار! ـ صاح الفتى ـ وصل في الحال رجال من المعركة.

ـ وصل «هادي» معهم؟ ـ سأل «أشقيلولة».

ـ أجل، إنه في القصبة مع آخرين. عاد أربعة.

« عودة مبكرة... وصلوا قبل وصول الأنباء» فكر النقيب.

ـ هزيمة؟ ـ سأل «أشقيلولة» على الفور ـ أجاب حسن موافقا في حزن. ـ حَسْبُنا اليوم ـ احتفظوا بالأسلحة في الزريبة، وعودوا إلى «أرجونة».

لم يضيع وقته. ترك الفتيان وحالهم، ومضى في اتجاه القصبة.

***

ـ ماذا سيحدث الآن؟ ـ سأل «إسماعيل» وهو في حالة ذهول. لم يكن أحد في الأندلس يتوقع أن تلك المعركة سيخسرها المسلمون. فقد كان الجيش الذي حشده الناصر مثارَ إعجاب الناس في الغرب الإسلامي.

ـ الآن، سينتهز النصارى الفرصة فينا. ـ أجاب

«محمد» وهو يَلْقُطُ السيوف. ـ وسيستولون على بعض القلاع.

ـ كما فعلنا نحن بعد الأرك. ـ علق «عبد الله».

حمل الفتيان الأسلحة إلى مُنْيَة «أشقيلولة»، ثم غادروا نحو «أرجونة». دخلوا من «باب جيان»، ثم اندسوا بين الجموع التي خرجت للشوارع، وملأت الدروب والأزقة. هنا وهناك كان العديد من النساء يبكين أبناءهن، وأزواجهن وهن يحَسَبْنَهم من الهالكين.

ـ ستتحرك الحدود باتجاه الجنوب. ـ قال «إبراهيم» مخمنا. كان الشاب في العشرين من عمره، وإن بدا مظهره أكثر من ذلك ـ ما دام أنهم حققوا النصر على الناصر، فهذا يعني أنهم يملكون جيشا ضخما. ودون شك، ستأتي على الأندلس أيام عصيبة حزينة.

ـ على الأقل سيكونون أقرب إلينا للإغارة عليهم. ـ أردف «محمد» وعيناه تشعان نارا. كان عمره يقل ثلاث سنوات عن خاله، غير أنه كان يبدي عزما وإرادة من صخر. ـ سنوقفهم يا «إبراهيم». ـ أردف وهو يربت على منكب خاله.

ـ أقدم حياتي فدى لإنقاذ بلدي. ـ وضع «إبراهيم» يده اليمنى على صدره وهو يتطلع إلى أخيه «عبد الله» الذي وافق بحرارة.

ظل «حسن» لا يبدي رأيا بجانب «إسماعيل» الصامت بدوره. كان سنه خمسة عشر عاما. وهو ما كان يجعله يحس بالفارق العمري بينه وبين الباقي، فيفضل الصمت.

خرج الفتيان من البلدة التي استبدت بها خيبة الأمل، وسكنها الحزن. وقرروا النزول إلى «عين الأنبوبين» للتملي بطلعات الفتيات وهن يستقين الماء. كانت العين في أسفل البرج المنفرد الذي كان يحمي الجزء الشمالي من سور البلدة. وكان سرب من الصبايا قد جلسن على أريكة من حجر ينتظرن دورَهن في وُرُودِ الماء. غير أن الفتيان ما لبثوا أن جلسوا قبالة الفتيات.

ـ «إسماعيل» أليست تلك التي أعجبت بها؟ ـ سأل «عبدالله» بصوت عال ليتمَكَّنَ الفتيات من سمع كلامه. لم يكن في الحقيقة يعني أي واحدة بعينها، فقط كان يريد أن يحرج زميله.

احمرت وجنتا «إسماعيل» ولم يجد كلمات يجيب بها. ضحكت الفتيات وتهامسن، ووجوههن مخفية وراء الحجاب.

ـ أخي، بادلها الحديث ـ تدخل «محمد» إغراقا في الدعابة.

جعل «إسماعيل» يتفصد عرقا، ثم وكز أخاه، وكان مستغرقا في الضحك، بمِرْفَقِه، قبل أن يمسكه من عنقه ويقربه إليه في عناق.

ـ آه، عاشق ولهان؟ لا عليك، حسبك احمرارا وخجلا.

ضحك الجميع، وبدوا كأنهم نَسُوا خبر الهزيمة المشؤوم.

من بعيد لاحت «فرح» وهي تحمل جرتين، وتسير سريعا في اتجاه العين. كانت الفتاة حفيدة لـ«أشقيلولة»؛ ابنة ابنته «نوار» من الزوجة الأولى،

ومن ثم فهي ابنة خالة «محمد» و«إسماعيل».

ـ رجاء صديقاتي، أمي تُعد طعاما، وهي في حاجة إلى الماء، هل تسمحن لي؟ ـ رفعت الجرتين وهي تنظر إليهن نظرة رجاء.

أعطت الفتيات الإذن لـ «فرح». فنهض «محمد» وأخذ إحدى الجرتين من ابنة خالته دون استئذان. وحينما وصلهما الدور، وقف كل منهما بجنب أحد الأنبوبين، فملآ الجرتين في الآن ذاته. سلم «ابن الأحمر» جرته إلى الفتاة وهو يحدق في عينيها. كانت «فرح» تَلُوثُ على محياها وشعرها منديلا قِرْمِزِيَّ اللون، غير أن الخمار كان قد انزاح حتى سمح برؤية فمها. على الفور أعادت عيناها السوداوان النظرة إلى الفتى.

ـ خذي، هكذا كان أسرع. ـ هذا كل ما قاله «محمد».

ـ شكرا ابن خالتي ـ أجابت، ثم مضت سريعة، كما جاءت، نحو الضيعة.

ظل «محمد» واقفا، يتأملها إلى أن غابت عن بصره. استدار نحو أصدقائه ليدرك أن الأوان قد فات لردة فعل من جانبه. كان الأربعة يشيرون إليه، وهم يضحكون. أما الفتيات فقد عدن إلى إطلاق ضحكاتهن الخفيتة، وهن يتهامسن.

ـ يبدو أننا أخطأنا، فالعاشق ليس «إسماعيل» ـ علق «إبراهيم» بسخرية أحدثت موجة من القهقهات.

ـ كانت في عجلة، وأر... ـ حاول أن يبرر الموقف، لكنه زاد الجو لهوا وانشراحا.

بغتة، لمح الفتيان بـ «باب البرج» أربعة من الجند البربر ينتمون إلى الحامية؛ كانوا مسلحين بالرماح، ويلبسون دروعا من جلد. أخذ كل واحد منهم اتجاها مختلفا نحو أحياء «أرجونة».

توقفت الضحكات، ووقف الفتيان ليعودوا إلى بيوتهم. «محمد» وصديقه «حسن» توقفا قليلا قبل أن يتوادعا.

ـ وإذا عادوا؟ ـ سأل «حسن» وذكرى حادث الرباط ما زال عالقا بذهنه.

أدرك «محمد» مقصد «حسن»، وسرعان ما عادت مشاهد مجزرة المرابطين إلى ذهنه، كأنها سهم حاد يحتدم في ضميره، وينكأ جراحه.

ـ إذا عادوا سيجدوننا مستعدين.

***

عند باب الجامع، حيث يجلس، في العادة، في سِماطهم العدولُ والكَتَبَة، كان الناس يمطرون الناجين بسيل من الأسئلة حول المعركة.

ـ... صعدوا في العقبة إلى قبة الخليفة. اقتحموها، ودمروا كل شيء، فأتوا على الأخضر واليابس. ثم بعد ذلك بدأت المجزرة. فأطلق المسيحيون كل غيظهم الموتور ضدنا. ـ كان يحكي أحدهم.

ـ مكثت هناك إلى النهاية، حتى أُجبر الخليفة حفظه الله على الفرار ـ حكى نقيب آخر، وهو يعمد إلى تعظيم دوره، وإبراز شجاعته.

في جانب، جلس «هادي» في هدوء وصمت،

وهو يقبض بيده على عنان فرسه. كان يحدق في النقيب، ويصغي إلى مبالغاته، وهو يعلم أنه كان من أوائل الهائمين على وجوههم، والفارين من الميدان قبل الوقت، مثلما فعل أغلب الأندلسيين.

شق «أشقيلولة» طريقه بين الزحام حتى اقترب من الناجين. هناك، بقي يسمع حكاياتهم المؤلمة اليائسة. كانت نظراته تزداد كمدا وسوادا كلما زاد إدراكا بأن جيش «الناصر» لم يهزم فحسب، بل أبيد عن آخره.

بعد برهة، فتح باب القصر، وخرج منه عشرة من الجند البربر، وما لبثوا أن اقتحموا على الناس جموعهم تسبقهم أسنة الرماح، وأخذوا ينحونهم عن طريقهم.

ـ الناصر لدين الله ابن المنصور، أمير المؤمنين حفظه الله وأيده ـ هتف أحد الجنود حينما توسط الجموع ـ يريد أن ينهي إلى علم الأمة ما يلي.

بجلال ووقار بسط الجندي مطويا، وشرع في قراءة الرسالة التي وصلت مساء ذلك اليوم من ديوان الخليفة. كان الناصر قد أسرع إلى تقديم روايته الرسمية عما حدث، ونشرها في مختلف نواحي إمبراطوريته، قبل أن تبدأ الإشاعات والأقاويل في الانتشار.

ـ لم يفقد الموحدون ولو جنديا واحدا، ولم يصب منهم لا قليل ولا كثير... كان البربري مستمرا في قراءته في حين كان الأرجونيون العائدون يتبادلون النظرات في اندهاش واستغراب.

بعد نهاية قراءة المنشور أدرك الجميع هول

الكارثة؛ فقد بدا للناس أن كبرياء الخليفة قد مُرِّغَ في التراب إلى حد أنه قدم تفسيراته عن الحدث.

على إثر اطلاع الناس على رسالة الخليفة توجه أحد الحراس إلى الجنود الأربعة الناجين.

ـ إن الحاكم يريد استقبالكم غدا بعد صلاة الفجر. فإلى الغد، إذن، وكونوا عقلاء رصينين.

في الحال شرع بربريان في تفرقة المجتمعين. أما الثمانية الآخرون فقد انقسموا إلى قسمين، وخرج الجميع من بابين مختلفين من أبواب القصبة لينقلوا بيان الخليفة إلى باقي سكان البلدة.

في تلك اللحظة اقترب «أشقيلولة» بنوع من المخادعة من «هادي»، وأمسك به من ذراعه ليصحبه إلى بيته. لم يفت «أشقيلولة» ملاحظةُ التعبِ الظاهر على وجه «هادي»، وفتورِ عينيه الذابلتين. «إن نظرة الرجل الذي يشارك في حرب كبيرة لا تعود أبدا إلى سابق حالها» ـ مر بباله، وهو يلمحُ، أيضا، جِلبابَ العائدِ الملوثَ بالأحمر، والمغسولَ بشكل سيئ بأحد الأنهار التي مر بها «هادي» في الطريق.

ـ هيا بنا أيها الفتى، أدعوك إلى بيتي ومشاركتي في مأكلي.

كانت دار «أشقيلولة» تقع بجنب المسجد. قريبة جدا من البئر الذي حفره الموحدون بالقصبة. وقد كان هذا البيت في أول عهده متواضعا. غير أنه مع مرور الزمن، وتزايد نفوذ آل «أشقيلولة»، توسع بإضافة مباني جديدة إليه، وإلحاق الأراضي المحيطة به. وصل الرجلان الدارَ ودخلاها من جهة

الحظائر. استقبلهما أحد الخدم، وعلى التو تكفل الخادم بفرس «هادي». غير أن «أشقيلولة» ما لبث أن استرعى انتباهه جمال الحصان، فأخذ يتفحصه، ويمعن النظر في صدره الضافي العريض، وهو يمسح على هُلبه، وشعر ناصيته الرطب الملمس. ثم صفق براحته على عنق الدابة الطويل إعجابا بها وبما تتوفر عليه من مواصفات خيول السباق.

ـ إنه أنموذج رائع. كيف حصلت عليه؟

ـ مع هروبي، وجدته متخلى عنه.

ـ جواد جيد. ـ أردف، قبل أن يستمر في تمعن عدته وطقمه. ـ هل تنوي بيعه؟ ـ سأل النقيب الناجي وهو يرفع السيف الذي كان معلقا بالسرج. كان يختبر وزنه، قبل أن يفعل الأمر نفسه مع الترس.

ـ لم أفكر في ذلك بعد.

ـ قال رسول الله: «إن الشيطان لا يدخل دارا فيها فرس عتيق». تلفظ «أشقيلولة» بالحديث وهو شارد الفكر. ـ ثم استطرد ـ سأقدم لك عرضا ماليا مغريا مقابل الفرس والسيف. بإمكانك أن تعيش جيدا بهذا المال لفترة... حقا حصلت على غنيمة حسنة! هيا بنا إلى الداخل.

دلف الرجلان عبر باب من دفتين إلى صحن فسيح. امتدت بوسطه بركة جميلة حُفت بها أُصُصٌ مختلفة الأزهار والورود. وكان في استقبالهما خادمة ما لبث صاحب الدار أن أعطاها تعليمات لتقدم لهما الطعام بالمَجْلِس. كان الوقت أصيلا وبدأ النور في الخفوت، غير أن المكان كان منيرا

بمصباحين زيتيين. جلس النقيب وضيفه على وسادتين وضعتا فوق أرضية من الخشب، ثم بعد برهة وضعت الخادمة على الطاولة قصعةً من التَّمْر، وكأسين من الحليب.

ـ احك لي، يا «هادي»، هنا لا يسمعنا أحد. ـ طلب «أشقيلولة» من الشاب.

شرع «الجياني» الناجي يسرد الوقائع. بدأ بمقدمات المعركة، وتحريك «الناصر» لجيشه إلى أن وصل به إلى التل الذي شهد الصدام. ثم كيف تجنب النصارى الممرات المعروفة، وفاجأوا المحلة الموحدية. وبينما الشاب مستغرق في حكايته عن الأحداث الأولى التي سبقت المعركة، دخلت الخادمة ثانية، تحمل هذه المرة طبق دجاج مطهو في البخار. ثم واصل الشاب سرد روايته وهو يتناول من الطبق طعامه، لا يقاطعه سامعه الأريب إلا لماما، حينما يطرح عليه بعض الأسئلة المقتضبة.

ـ كم كان عددهم؟ نصف عددنا وربما أقل.

ودون الدخول في التفاصيل الدقيقة حكى «هادي» كل شيء: كيف أن خيالة العدو الثقيلة هاجمت وهي صاعدة في العقبة، أولا المتطوعة، وبعد ذلك قلب الجيش الموحدي، وكيف أن البربر ثبتوا أول الأمر، وضيقوا على الفرسان النصارى بالسهام والحراب، قبل أن يعزموا على القيام بمناورة تطويق القوات المسيحية، وكيف أن الملوك النصارى حينئذ هاجموا جميعا في وقت واحد، فقاتلوا قتال اليائس، واحتدمت بين الفريقين معركة هائلة عامة تمكن خلالها

النصارى من اقتحام سلاح الفرسان الموحدي سريعا فبدأ المسلمون في الارتداد ثم الفرار.

ـ كان الأندلسيون أول من ارتد، وفر من الميدان، فكانوا سبب الكارثة. ـ علق «هادي» ونبرة من اللوم في صوته.

ـ فعل مقتل «ابن قادس» مفعولَه... ـ كان الخبر حينها قد وصل «أرجونة».

ـ سيدي، لو سمحت، أعتقد أنه في تلك العقبة كان علينا أن نظل متحدين. لأن نتائج المعركة هي أكثر فظاعة علينا، نحن الأندلسيين، دون غيرنا.

تطلع «أشقيلولة» إلى الشاب في إعجاب.

ـ كلامك في غاية الصواب! لأن «الناصر» يمكن أن ينسحب إلى «مراكش». وهو ما سيقوم به دون تأخير. لكننا سنظل هنا. ـ داعب لحيته قبل أن يواصل. ـ إن هذا الهروب ستكون له عواقب.

حل وقت الصلاة وصليا معا. كان «هادي» يرقب مضيفه ويلاحظ تصرفاته، كان رجلا ناضجا قد تقدم به السن؛ في حوالي الخمسين من عمره. غير أن عضلاته كانت قوية محافظة على شكلها. ولولا إصابته في الساق لاستمر يحارب في الصفوف الأولى. كانت لحيته المصففة بعناية ودون صبغ تصل إلى صدره؛ أما ملامحه فكانت قاسية مُعَلمة بخطوط عميقة تعطي صاحبها مظهر الرزانة والرصانة، في حين لم يكن شعره أثيثا، ورغم ذلك، كان يتركه طويلا مسترسلا. وأما «هادي» فكان مختلفا: شعرة الكستنائي كث غزير أميل إلى التموج، وكان يحلق لحيته لأنها لم تكن كثيفة

بعد، وأطرافه متينة قوية بفعل العمل، أما يداه فكانتا ثفنتين تعكسان القوة والصلابة.

عند الانتهاء من الصلاة وقف «أشقيلولة» وفعل الأمر ذاته «هادي».

ـ أيها الشاب هل قتلت كثيرين؟

ـ ربما أحدهم ـ أجاب الشاب.

ـ حسنا، حسنا. اقض ليلتك هذه في بيتي. غدا يوم آخر.

كانت تلك الليلة الثانية التي ينام فيها «هادي» تحت سقف هذه العائلة الكبيرة. المرة الأولى كانت في الحظيرة، لكن في هذه المناسبة هيأوا له فراشا وثيرا، وإناء من الماء، لتنظيف نفسه.

كان «أشقيلولة» مخططا ماهرا، يهيء للأمور بذكاء وروية، وكان وقتها يُحَضِّرُ لعمل رأى أن هذا الشاب سيكون قطعة أساسية فيه.

***

وضعت «كريمة» القدر في وسط الطاولة، ووزعت الصحون الطينية على الجالسين. قدمت الطعام مع نصف رغيف من القمح، ثم أشعلت مصباحا زيتيا.

ـ سأخلُد إلى النوم، يا يوسف، فقد هبط الليل. ـ قالت المرأة.

ـ هل تعشيت؟ أتريدين أن تتعشي معنا؟ ـ كان رب الأسرة يطرح دائما السؤال ذاته، والمرأة تجيبه دوما نفس الإجابة:

ـ لقد تناولت عَشائي في المطبخ. شكرا.

انسحبت المرأة وهي تجر خطواتها جرا من التعب والوهن، تاركة الرجال وحدهم في المجلس. كانت هي المرأة الوحيدة في الدار، وكثيرا ما كانت تجد نفسها غارقة في أشغال البيت أكثر من طاقتها. ولم يحل بينها وبين مغادرتها الأسرة سوى حبها لأصحاب هذا البيت.

قسم «يوسف» الخبز إلى أربعة أقسام متساوية، ثم وزعها على الجالسين. «محمد» أعطى نصيبه للصغير «فرج».

ـ شكرا للمولى هناك خبز كاف للجميع، يا «محمد»، ـ علق رب الأسرة ـ لسنا فقراء. وأخوك يتناول غذاء جيدا، اهتم بنفسك أنت أيضا.

ـ أنا بحال جيدة، أتناول من الطعام ما يكفيني. ـ أجاب محمد.

ـ هز الوالد رأسه غير متفق. كان يعرف أن ابنَه يكثر من زيارة «عُمر الحَسّون»، صديق طفولته القديم الذي تحول اليوم إلى وَلِيٍّ مُتصوف؛ أحد أولئك الذين بالكاد يتناولون الطعام، ويقضون سحابة يومهم في الصلاة، ووعظ الناس. كان «يوسف» يُعْجَبُ بصفاء الإيمان عند «محمد»، وتقشفه، ومداومته على تداريب الحرب والقتال، لكنه، أيضا، كان يريد أن يرى ابنَه قادرا على تَحمُّل العمل الشاق في الحقول، إضافة إلى الاستمرار في حضور أماسي التدريب على السلاح، ولن يتأتى ذلك لـ«محمد» سوى بالتغذية الجيدة. «سيكون ثغريا صالحا مقداما» فكر يوسف مع ذلك، أما «إسماعيل» فكان يساير ركب العائلة

من «المؤخرة»، ويقلد أخاه في كل شيء، «ربما سيعود بهما بهاء بني نصر ووجاهة جدهم».

- تعرفون أننا خسرنا المعركة. بدأ «يوسف» الحديث.

- ماذا سيفعل الخليفة؟ - سأل «إسماعيل» مباشرة.

سيعود «الناصر» إلى بر العدوة [المغرب]، وسيتمادى النصارى في السلب والنهب على هواهم، أو إلى أن يحل الخريف. نسأل الله أن لا يسرفوا في ذلك.

- لا أرى الدعاء كافيا. - أردف «محمد» سريعا، وعيناه تشعان كالنار.

أومأ يوسف إيماءة موافقة، وهو يزم شفتيه، ويَجدُّ في إتمام ما بقصعته من طعام. حتى إذا أنهى تناول وجبته استلقى على السرير ليسترسل في كلامه. كان «يوسف» مع بلوغه ما فوق الأربعين مازال محافظا على شبابه، ودائم الاعتناء بهندامه الأنيق. داعب لحيته المخضبة بالحناء، ثم تأهب لمواصلة الحديث.

- تنتمون إلى عائلة عريقة، يعود نسبها إلى الأنصار، أنصار النبي بالمدينة. - نطق «يوسف» العبارة في جلال قبل أن يصادق أولاده الثلاثة على كلامه بإيماءة. وكانوا قد سمعوا تلك الحكاية في أكثر من مناسبة.

استمر «يوسف»:

- إلى عهد قريب كانت أسرة «آل نصر» أكثر

الأسر نفوذا في «أرجونة». يتزاحم الناس كل صباح على أبواب هذا البيت لقضاء حاجاتهم. وكانت ممتلكات العشيرة تضم من الأراضي ثلاثة أضعاف ما تشمله اليوم. في حين كانت غنائم الإغارات تملأ مخازننا. كنت وقتها طفلا، وجدكم، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، ما زال محتفظا بجزء من ذلك الثراء ونصيب من ذلك النفوذ.. ـ كان الأولاد يحدقون في والدهم بإمعان دلالة على الاحترام وحسن الإصغاء ـ ولكم هي المرات الكثيرة ـ واصل يوسف ـ التي طرق فيها بنو «أشقيلولة» ذلك الباب يطلبون المساعدة... هل تعلمون أساسَ رِفعتنا والقاعدةَ التي بنينا عليها سُؤددنا؟ ـ أعقب السؤال لحظة صمت. ـ الحرب... أجل، بالحرب شَيَّدْنا صَرْحَ مجدِنا، وأثلنا لاسمنا عاليا؛ نحن، بني نصر، كنا دائما الثغريين والنقباء، بل والقواد في جيوش الأمراء. ـ توقف من جديد حتى تجد كلماته الصدى المطلوب في ضمائر أولاده. ـ لا تَنْسَوْا أبدا أن دم القادة يجري في دمائكم، وأنكم تنتمون إلى أعرق دوحة، وأنبل أسرة، وبأيديكم اليوم أن تعيدوا مجدها القديم إلى أصله.

كان حديثه عن إعادة العائلة إلى عزها قد أهاج نفسه، وأثار خواطره، فبدت عليه علامات الانفعال وهو يتنفس في سرعة.

ـ أبتاه ـ علق «محمد» ـ أعاهدك، سأقاتل إلى أن تخور قواي من أجل أن يستعيد النصريون عزهم.

تبادل الأب وابنه النظرات للحظة قبل أن يضيف «إسماعيل»:

ـ أنا أيضا أعاهدك يا أبتي بأن أسير على الدرب. ..

ـ وأنا؛ أنا أيضا، أعدكم بذلك. ـ أردف سريعا الصغير «فرج» فابتسم الجميع.

أكمل الفتيان تناول عَشائهم في صمت. كانت أصداءُ تلك الوعود مازالت تتردد على جدران الغرفة حينما حضر «أشقيلولة» إلى البيت. كان «يوسف» ينتظر زيارته. نظر إلى أبنائه إيذانا بأن ينصرفوا.

ـ تحدثت مع «هادي». عاد غانما سالما. إنه في بيتي هذه الليلة. حكى لي بعضَ تفاصيل المعركة. كانت البداية في عقبة إحدى الروابي... ـ حكى «أشقيلولة» باقتضاب لـ «يوسف» مجرى الحوادث كما حكاها له «هادي» قبل لحظات. ـ يبدو أن ضيق الميدان منع الجناحين من التحرك بطلاقة لتطويق العدو. ـ أبدى «أشقيلولة» رأيه في سبب الهزيمة ـ والأمَرُّ أن النصارى لم يكفهم النصر، بل تعدوا ذلك إلى تدمير بقايا جيشنا... كانت هناك مطاردة للفلول، و«هادي» تمكن من الفرار بأعجوبة.

ـ كانوا يؤَمِّنون لقابل الأيام، ويسدون منافذ المفاجآت مستقبلا ـ علق «يوسف» مفترضا.

أومأ «أشقيلولة» بسبَّابته موافقا.

ـ لن يكتفوا بما ضاع منهم في «الأرك». لابد وأن يكون «فرسان قلعة رباح» يلحسون شِفاهَهم.

كان الفرسان الرباحيون الذين تحول اسمهم مؤقتا إلى «فرسان شَلْبَطَرَّة» قد أضاعوا المركزين اللذين ينسبون إليهما أي «قلعة رباح» و«شلبطرة»؛ حيث سقطتا بيد المسلمين. غير

أنه قبل معركة العقاب، والجيش الإسلامي في طريقه إلى مسرح المعركة، استولى النصارى من جديد على «قلعة رباح».

ـ دون شك سيكونون أكثر الطوائف انتفاعا من هزيمة المسلمين.

***

في حماية ظلال البيت وحافيين حتى لا يحدثا أصواتا، وبعد أن تركا «فرجا» نائما، عاد «إسماعيل» و«محمد» إلى الغرفة الكبيرة، وانزويا في ناحية قريبة من المدخل، ثم أصاخا السمع لحديث الرجلين.

ـ من كان يعتقد أننا سَنُهزم؟ ـ تساءل «يوسف» وهو لم يهضم الهزيمة بعد.

ـ كنا أكثر عددا، ولكن أقل تحمسا للقتال. ـ شمر «أشقيلولة» كمي قميصه الحريري وهو يجيب ـ إن النصارى منذ أن يولدوا يعملون لهدف واحد: وهو تحريك الحدود نحو الجنوب. إنهم يعيشون للحرب تحقيقا لهذه الرغبة. نحن غير ذلك؛ إن شعبنا غني وناجح، يُنتج ويُتاجر. لكن الحرب؟ إن الشباب في الأندلس يَنْفِرُون منها... يحبون العمل، ويرغبون في أن يصبحوا أثرياء، في حين يتركون أمر الدفاع للأفارقة. غير أن هؤلاء أنفسهم لا يتوفرون على العدد الكافي من الرجال المدربين. ـ كان «يوسف» يومئ برأسه علامة على المصادقة.

ـ نحن لا نملك جيشا حقيقيا؛ فقط لدينا صناع، وفلاحون، وتجار. هذا هو أصل القضية، وما نعانيه من سوء. ـ كان الخوض في مثل هذا الحديث

قد أثار «أشقيلولة»، فاضطرمت مهجته، واحمر وجهه، ـ ستتواصل الغارات، وتعود الغزوات، وينبغي أن نكون على استعداد. ختم كما لو أنه أصدر حكما نهائيا.

ـ أجل كنت أريد مفاتحتك في هذا الموضوع. فقد آن الأوان لمضاعفة الجهود. ولَدَيَّ يتمتعان بالقوة والشجاعة، وكذلك ولديك، وأريد أن يكونوا جميعا مؤهلين لخوض غمار الحرب.

ـ أنا، أيضا، فكرت في الأمر ذاته. سأكثف من التمرينات. الأربعة أظهروا استعدادا حسنا يا «يوسف». سيعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم حينما يحين الأجل.

ـ إن «بستان البئر»، منبع المسرات، يدر علي أرباحا جيدة. ومنذ فترة وأنا أوفر لأقتني لهم جيادا لائقة.

ـ ولتكن الدواب فتية، لتتربى في حضنهم، أنا أقدم الحظيرة، ألستُ جدهما؟ ـ كان توفير الحظيرة يعني أن «أشقيلولة» سيقوم بمصاريف الدواب.

شعر «محمد» و«إسماعيل» بدقات قلبيهما وهي تتسارع، وخمنا أن تدشين القتال بات أمرا قريبا. كانا يجهلان كل شيء عن مآسي الحروب. فقط كانا يسمعان عن حكايات الأبطال وشجاعتهم، ويتوقان إلى أن يكونا كذلك.

ـ مساعدتك غالية، شكرا يا صهري العزيز. ـ أردف «يوسف» وقد أحس عند النطق بالكلمات الأخيرة بوخزة في صدره لَكَأَنَّ جُرحه الذي لم يندمل بعد.

ـ هل أنت على ما يرام؟ ـ سأل «أشقيلولة» مخاطبه وقد لمح تغير حاله.

ـ أجل... هو الشجن فحسب، أذكرهما وأتشوق إليهما. ـ لم يتمكن من حبس دموعه. وفي سَوْرة من الانفعال قام وتوجه إلى إحدى زوايا الأرضية الخشبية، ثم رفع غطاء طاولة وأخرج منها زقا قديما.

ـ عادة لا أشرب، ولكني أحتفظ بها لمثل هذه المناسبات. ـ ثم تطلع إلى صهره ينتظر قبول الدعوة.

ـ هات، لنرى إن كانت جيدة.

منذ مجيء الأفارقة قل استهلاك الخمرة في الأندلس بشكل كبير. وأصبح صعبا أن تتوفر أغلب الأسر على قُبْو لحفظ الخمور، ورغم ذلك، احتفظت بعضُها سِرًّا ببعض المخازن لذلك. وقد كان الموحدون يلاحقون المتساهلين في التقاليد والعادات مما كان منتشرا بين كثير من مسلمي الأندلس.

كان الأخوان النصريان يرقبان ما يجري في الغرفة بدهشة. «إسماعيل» تأثر بالموقف، فلم يتمالك، وقد ذكر أمه، أن أجهش بالبكاء، في حين أمسك «محمد»، وقد حافظ على ثباته، أخاه من ذراعه، وسار به إلى غرفة النوم.

ـ أمي... ـ أراد «إسماعيل» أن يبرر ما صدر منه.

ـ اخرس. ـ أمر «محمد» أخاه في لهجة جد قاطعة. ـ كفى نشيجا. بكينا خلال أسابيع، ولنتوقف الآن عن البكاء. كفانا ضعفا، ولنكن

أقوياء من أجل والدنا ومن أجل «فرج». ـ كانت وجنتا «إسماعيل» مبللتين بالدمع. ـ هل تفهمني؟ ـ أجاب «إسماعيل» موافقا، وفي الحال أرسله «محمد» إلى سريره. ـ ارقد واسترح. سأعود بعد قليل.

أطاع «إسماعيل». وقد خمن أين ذهب أخوه.

في البهو، عب «أشقيلولة» من الزق عبوة طويلة، ثم مرره لصاحب البيت.

ـ كانت ابنتي استثنائية. امرأة مثالية ممن يندُر وجودهن. ـ علق «النقيب» بينما «يوسف» يحسو من الزق وقد بدت عيناه خاملتين. ـ يعلم اللّه وحده لماذا أرادها أن ترحل هي وحفيدي... لقد عشت التجربة ذاتها حينما فقدت زوجتي. أقدر حالك وأتفهمها. ـ أغمض «أشقيلولة» عينيه هنيهة قبل أن يواصل ـ غير أني استطعت أن أعيد بناء نفسي، وتزوجت ثانية.

رفع «يوسف» يده بلطف مشيرا على «أشقيلولة» أن يتوقف عن السير في هذا الطريق. كان آخرون قد عرضوا عليه أن يتزوج ثانية، لكنه رفض.

ـ امرأة استثنائية. ـ كرر «النصري» همسا.

ـ ومن عائلة شريفة. أضاف «أشقيلولة» في محاولة منه لتلطيف الجو. فتمكن من نزع ابتسامة من «يوسف».

ـ لولا رب الأسرة، لكانت عائلتها من أشرف العائلات. ـ أجاب «يوسف» على العرض.

ابتسم الرجلان، وربت الصهر على كتف «النصري»، ثم غير الموضوع.

ـ لقد تعدى «محمد» السابعة عشرة. ألا فكرت في تأهيله.

ـ مازال الوقت مبكرا.

ـ لا تترك الأمر يخرج عن وصايتك... ليس أحسن من اختيار ابنة من الأسرة.

فتح «يوسف» عينيه نصف فتحة وفكر في ابنة أخيه.

ـ ربما.

ـ «فرح» ـ أردف «أشقيلولة» ـ ابنة بنتي نوار. إنها فتاة جميلة.

سمح «يوسف» لنفسه بهنيهة من الصمت ليفكر في العرض. كان صهره القديم [أي أشقيلولة] يعرض عليه يد حفيدته ليتزوجها ابنه البكر. ولم يكن العرض ليرفض بسهولة. فقد يسبب الرفض إساءة لـ «أشقيلولة». بالكاد كان «محمد» يعرف الفتاة، غير أن ذلك لم يكن مهما. فقد كان الزواج مثل فتح بطيخة؛ قد تفاجئك بطعمها الخشن القريب من طعم الخيار، أو بحلاوتها الشبيهة بحلاوة العسل. كان الأهم بالنسبة إلى «يوسف» أن تكون الفتاة قد تربت على الأخلاق الحسنة في وسط عائلة محترمة.

ـ أكيد ستكون نعم الزوجة لابني ـ قال أخيرا. حينما يحل الوقت. ـ أضاف ـ ثم عمت الابتسامات من جديد، كانت هذه المرة لإقرار الصفقة. ـ وهل

والدها متفق؟ ـ سأل «يوسف».

تطلع «أشقيلولة» إلى «يوسف» ثم أمعن في الضحك. ولم يشأ أن يجيب عن السؤال. كانت سطوة «أشقيلولة» تهيمن، دون شك، حتى على بيت زوج ابنته.

استنفد الرجلان ما بالزق حتى الثمالة. وبدا واضحا أن نقص التعود جعل المدام تُشَعْشِعُ فيهما سريعا، وحينما أذن المؤذن لصلاة العِشاء كان الرجلان قد غرقا في نوم عميق على سريريهما الوثيرين.

***

عرج «محمد» على الدهليز وخرج من النافذة. كان ضوء الهلال الخافت بالكاد ينير الأزقة والدروب، فسهل عليه التسرب بينها دون أن يشعر بمروره الحراس الليليون الذين كانوا يقومون بدورياتهم حول القصبة. وحينما وصل إلى الجزء الشمالي من السور، حيث يبتدئ المنجم القديم الذي استخدمه مرارا للخروج من النطاق، فتح الباب الصغير، ونزل عبر الدرج الحجري. بدأ يتحسس المكان في العتمة إلى أن عثر على الرافدة الأولى، حيث كان المفتاح معلقا، ثم تقدم خطوات في الممر الطويل إلى أن ابتلعه ظلام الليل. بعد فترة أشعره ضياء خافت بنهاية الممر إلى اقترابه من المخرج. وأخيرا وجد الفتى نفسه، بغتة، أمام حاجز مشبك مغطى ببعض الدغل والأحراش. دفع بالحاجز، ونفذ منه سريعا خارج الأسوار. ابتعد لا يلوي على شيء إلى أن وصل إلى «منية» جده. هناك دخل إلى الحظيرة، واقترب من حيوانه المفضل. كان الفرس

كستنائي اللون، ذا عُرف وذيل أسودين، على ساقه الأمامية اليمنى حلقة، وعلى عينه اليسرى ارتسمت غرة بيضاء زادته جمالا. كان «ابن الأحمر» يعشق ركوبَ الخيل، وامتطاءَ صهواتها، فلم يكن إحساسه بالحرية وهو على متن الجياد يضاهيه أي إحساس آخر.

ـ أيها الفرس! ـ همس «محمد» في أذن الجواد وهو يداعب هُلبه.

أَكْدَفَ الحصان، كأنه تعرف صوت «محمد»، فعم باقي الجياد نوع من الاضطراب والحركة.

ـ مَنْ هُناك؟

سمع صوت الخادم الذي كانت غرفته بمحاذاة الحظيرة.

ـ «محمد بن الأحمر».

بعد ذلك عمت السكينة المكان من جديد. كان الخادم قد تعود على زيارات الفتى، بعد أن أعطاه «أشقيلولة» الأمر بترك محمد يركب الفرس «فوريا» متى شاء.

أخرج الشاب الحيوان إلى الصحن، وهناك في ضياء الهلال الباهت، ضبط السرج والعنان على الحصان، ثم غادر المُنْيَةَ بمهل سالكا الطريق الرابط بينها وبين ممتلكات الأسرة. هب نسيم لطيف، وبدا كأن حرارة الليل الصيفي قد خفت قليلا. كانت الصراصير تغني على أطراف الطريق، وبين الفينة والأخرى كان يسمع من بعيد نباح الكلاب وهي تشق سكينة الليل. بعد لحظة سار «محمد» بمحاذاة حقول الزيتون الأولى، ثم حقول

القمح؛ بعضُها انتهت بها عملية الحصاد، في حين بقيت أخرى في انتظار دورها تنوء سنابلها المتمايلة بما تحمل. بعد قليل نفذ إلى حقول والده، فبدأت الذكريات تحاصره؛ اشتاق إلى أمه وإلى أخيه بالرغم من أن غيابهما زاد من صلابة قلبه في تلقي الآلام.

أطلق «محمد» العنان لفرسه، وأفسح له في أن يعدو حسب هواه، بعد فترة جاز الحصان آخر أراضي «بني نصر»، ثم نزل عبر المنحدر السهل المؤدي إلى الرباط. كان الحيوان النبيل قد تعود على سلوك هذا الطريق، فلطالما سار به إلى هناك «ابن الأحمر». لحظة قلل الفرس من سرعته، ثم وقف أخيرا قريبا من البرج المهشم.

ترجل «محمد» وسار بين الأطلال، تأخذ به الذكرى إلى لقاء مع الأشباح. كانت أصوات المرابطين، وشدة قعقعة السلاح، وضحكات الكبرياء التي تصدر عن فرسان «قلعة رباح»؛ كل ذلك جميعا كانت أصداؤه ما زالت تتردد على مسامعه. ولكم كان ألم الذكري يتحول إلى غضب وإلى اضطرام نفسي... ولم يلبث وهو تحت تأثير الماضي، أن أخرج من كيس جلدي القطعة النقدية الرومانية التي كان قد عثر عليها منذ سنوات خلت، فأدارها في يده ليرى صورة الجندي الروماني المرسوم على وجهها، وسرعان ما ذكر صورة الفارس القشتالي الذي اقترب منه، حينما وقف وحيدا، وهو ما زال طفلا صغيرا، يبكي ما تبقى من الرباط...

- سيكون لقاؤنا هذه المرة مختلفا - قال في

صوت عال، وكأنه يُشهد الأطلال على عزمه الأكيد في الانتقام.

***

بعد صلاة الفجر، ونور الشمس مازال صبغا أحمر وراء الجبال، اجتمع «أشقيلولة» و«هادي» في الحظيرة ليتحادثا في أمر إمضاء بيع الحصان والسيف. كان «أشقيلولة» يعرف أن «هادي» لن يدخل معه في مساومة أو مماحكة، ولذلك قدم له عرضا أوليا معقولا، قبله «هادي» في الحال دون تردد.

ـ بإمكاني أن أحتفظ بمالك وأعطيك منه متى كنت في حاجة إليه. ـ عرض «أشقيلولة» على «هادي».

تطلع «أشقيلولة» من جديد إلى جلباب الجياني الملوث بالدم، وقرر أن يصحبه معه إلى القائد بتلك الحال. أخذ الحسام الذي ابتاعه من الشاب، وخرجا سويا إلى القصر. هناك، بالصحن التقيا بباقي الرجال الذين عادوا من المعركة. كان القائد قد أنهى المقابلة مع هؤلاء العائدين، وبدأوا يغادرون مرفوقين ببعض الجند. كان أحدهم قد اقتيد وحده إلى زاوية وهو مكبل اليدين. كان ذلك كل ما استطاع الرجلان أن يرياه.

استقبل الموحدي الرجلين في برج القصر وهو جالس على كرسي مقص، في حين أبقى مدعويه واقفين.

ـ السلام عليكم. ـ ألقى «أشقيلولة» بالتحية على القائد الحاكم وهو يداري ازدراءه للرجل.

«هادي» أيضا حيا القائد، لكن رد هذا كان باردا.

كان الموحدي يعتمر عمامته في فخر، ويلبس سروالا، وقميصا طويلا أزرق اللون. وكان الرجل منذ أن أسندت إليه وظيفته قد اتخذ موقف الاقصاء من الأندلسيين. وكان خلال الشهور الأخيرة قد ضغط على القاضي، وهو أيضا موحدي، أن يُؤْثِرَ بعطفه البربر على حساب الأندلسيين عند إصدار الأحكام. ولكم كان هذا السلوك يغيظ الأرجونين.

ـ حدثنا عما وقع، ودورك في المعركة. ـ طلب الحاكم من «هادي». أسرع الشاب إلى سرد ما شهده، والحاكم يصغي إليه باهتمام وهو ينظر بين الفينة والأخرى شزْرا، وفي إعراض، إلى «أشقيلولة»، دون أن يعرف سبب اصطحاب النقيب للمتطوع. بعد لحظة طرح الموحدي سؤاله الأول على الشاب.

ـ في أي لحظة بالضبط فررت من ساحة المعركة؟

ـ حينما بدأ التشتت والتفرق، وليس قبل ذلك.

أمعن الحاكم النظر في «هادي» وهو يفكر، وقتها انتهز «أشقيلولة» الفرصة ليتدخل.

ـ سيدي، «هادي» رجل ورع وتقي، وعامل جيد. ـ استهل «أشقيلولة» مرافعته ـ لا أشك في حكايته ـ وضع «النقيب» يده على كتف الشاب ـ وقد قاوم إلى آخر لحظة، وبفضل شجاعته تمكن من العودة بغنيمة. خرج من «أرجونة» راجلا لا يحمل سوى حربته، وعاد راكبا فرسا، ومسلحا

بسيف، وبجلباب ملوث بدم النصارى ـ نطق العبارة الأخيرة وهو يشير إلى ثوب «هادي». ـ وكما هو مقرر، فإن الشاب يريد أن يقتسم غنيمته مع الخليفة الأمجد الناصر، حفظه الله من كل سوء؛ يريد أن يهدي هذا السيف إلى مولانا الخليفة، وإنه سيف فارس نصراني.

مد «أشقيلولة» ذراعه إلى الحاكم ليسلمه الحسام، على الإثر أمسك الموحدي السلاح معجبا بجماله. حقا كان قطعة فنية ذات قيمة كبيرة؛ كان الغمد موشى بالفضة وخيوط الحرير المعقوصة.

نظر «هادي» إلى رب عمله باستغراب.

ـ قطعة ممتازة. ـ علق البربري دون إضافة. لكن بريق عينيه كشف عن امتنانه وشكره.

ـ هذا الفتى مقاتل جيد ـ استطرد «النقيب» ـ أمين ووفي لخليفتنا، يلتمس منكم أن ينخرط في حامية «أرجونة» ليخدمكم فيما ترونه مناسبا، أخذا بعين الاعتبار مؤهلاته المجربة.

تدبر الحاكم الأمر في صمت: «هادي» أثبت جدارته خلال التداريب، ثم إنه عاد بشرف من المعركة... ثم ربما يساهم قبوله في الخدمة في طمأنة الأندلسيين. فمقتل «ابن قادس» بطل «قلعة رباح» غير القلوب تجاه الموحدين. أخذ السيف من جديد وراح يرجحه في يده، كأنه يزنه، قبل أن يجيب.

ـ هل أنت مستعد لخدمتي في كل ما أقرره؟ ـ أجاب «هادي» موافقا. ـ هل تفهمت جيدا خطاب

سيدنا المنصور بالله؟ ـ أومأ الشاب مرة أخرى بالموافقة، معلما بذلك أنه سيلتزم بحفظ الأسرار.

ـ حسنا، سنعتبرك، منذ الآن من خدامنا. ـ ختم الحاكم.

شكر «هادي» الحاكم ممتنا ثم غادر الرجلان. في صحن القصبة أراد الشاب أن يشكر «أشقيلولة»، غير أن هذا أومأ إليه بإشارة من يده ليعدل عن ذلك.

ـ لا تشكرني، ذلك أقل ما تستحقه، فقد تصرفت كأحسن ما يكون المؤمن.. ـ كان «أشقيلولة» يتحدث وابتسامة عريضة تعلو محياه ـ كان قد حقق ما أراده. أصبح له رجل ثقة في الحصن، وهذا الرجل مدين له بفضل كبير.

***

كان الجند قد أنهوا صلاة الفجر حينما وضعوا وسط صحن القلعة قُرْمَةً وجاؤوا بالمتهم قريبا منها. كان القائد يحمل في يده اليمنى الوثيقة التي تحمل الحكم. كانت الرسالة التي وصلت منذ ثلاثة أيام تتضمن الحكم بإعدام الأندلسي وكل القادة الأندلسيين الذين فروا من المعركة قبل نهايتها. كان المتهم قد صدر في حقه الحكم بالإعدام، بعد أن عجز دفاعه عن إقناع المحكمة ببراءته. وقد صدرت الأوامر بألا يكون تنفيذ الحكم علنيا، فقط سيحضر عملية الإعدام خمسة من الرجال.

كان «هادي» واقفا ينتظر الأوامر، وبيده فأس قاطعة. كان تنفيذ ما سيطلب منه أول عربون

على وفائه لأوامر الحاكم. بجانبه وقف المتهم المسكين وهو يرتعد، ويستغفر ربه في خفوت.

ـ توجه المتهم إلى «هادي» قائلا:

ـ لقد كنتَ هناك يا فتى، فقل لهم الحقيقة، ألم أصبر للقتال إلى آخر لحظة. ـ رجا المتهم «هادي» في محاولة يائسة لتبرئته.

غير أن الفتى التزم الصمت. كانت أحاسيسه موزعة، كان من جهة معاتبا رفاقه في السلاح على ما بدر منهم في المعركة، ومن جهة أخرى لم يكن موافقا على عملية الإعدام. فقط كانت رغبته الملحة في أن يظل منتسبا للكتائب الموحدية هي التي جعلته يثبت على موقفه.

وضعوا المتهم على ركبتيه، ثم حطوا رأسه على القُرمة. نظر «هادي» في اتجاه القائد، فأومأ هذا ببدء التنفيذ. رفع الشاب الفأس إلى أعلى ثم نزل بها على عنق المتهم. انتفض جسم المعدوم، وفصلت هامته عن جسده، فسمع لسقوط الرأس على البلاطة صوت تردد صداه في جنبات الصحن. في حين شرعت الدماء تتجمع حول قدمي «هادي». بعد ذلك عم صمت رهيب لم يقطعه سوى غناء الطيور وهي جذلة بمجيء الصباح.

أسند «هادي» إحدى ساقيه إلى القُرمة، ثم جذب إليه بكلتا يديه الفأس لينتزعه منها. كانت الضربة صافية سريعة أودت بالمعدوم حالا، وهو ما خفف على الشاب حاله الشديدة الاضطراب.

ـ نظفوا كل هذا ـ أمر الحاكم وهو ينسحب من المكان.

لم تكن الرأس لتصلب على باب القصبة كالمعتاد.

انتحى «هادي» جانبا، ووقف عند أسفل السور، ثم جعل يتقيأ إلى أن استفرغ كل ما في أحشائه، في حين كان الرجال يتهامسون وهم يضحكون.

طليطلة Toledo. شتاء 1213

سار الأمير الصغير «فرناندو» مصحوبا بأمه «برنگيلا» في الممر الممتد عبر صفين من الأعمدة. كان الصغير يتفحص بإمعان التيجان التي تعلو هذه الأعمدة، والأقواس التي تصل بينها، بما في ذلك ثريات البرونز المتدلية من السقف، والمعلقة بسلاسل طويلة. وكانت «برنگيلا» وابنها قد خرجا للتو من القداس الذي أمرت بإقامته ترحما على أخيها «فرناندو» الذي كان مرشحا لوراثة عرش «قشتالة». وهو أمر كانت الأميرة قد دأبت عليه باستمرار، فتصلي بإيمان وورع من أجل روح الفقيد رغم مرور سنة على وفاته.

خرج الاثنان من الباب الجانبي الذي يؤدي إلى صحن البرتقال. وهناك انتقيا مكانا مضاء بأشعة الشمس للجلوس. في الوسط كانت نافورة تحيط بها بركة كبيرة تتصدر الفضاء.

- إنها كنيسة غريبة يا أماه. - علق الصبي.

ظلت «برنگيلا» مغمضة العينين، وهي تتدفأ بأشعة الشمس في ذلك الصباح الشتوي البارد.

- هل تعرف لماذا؟ - أومأ الصبي بحركة من رأسه نافيا- لأنها كانت مسجدا يصلي به «الموروس»، كان المسجد الرئيس في طليطلة. من هناك، - أشارت إلى برج الأجراس في زاوية من الصحن -

كان المؤذن يؤذن ليقيم المحمديون الصلاة.

عادت الذاكرة بالطفل إلى أيام طليطلة لما كانت إسلامية.

- أماه، أرى كثيرا من اليهود و«الموروس» هنا، أليس كذلك؟

كانت المدن الرئيسة في قشتالة تتوفر على أحياء لليهود وأخرى «للموروس». غير أن عدد المؤمنين بديانات أخرى في طليطلة كان أكثر بكثير.

- أجل يا بني... سأشرح لك. كان «ألفونسو السادس» قد حاصر طليطلة مدة طويلة، حينها اضطر الملك «المورو» [يحيى بن ذي النون سنة 478 هـ/الأحد 25 ماي 1085] إلى تسليم المدينة دون حرب. غير أنه في المقابل طلب من «ألفونسو» أن يحترم أهل المدينه، وأن يسمح لهم بمزاولة شعائرهم الدينية. لهذا السبب تجد هنا إلى حد اليوم كثيرا من اليهود والمحمديين.

بدا الطفل مقتنعا بكلام أمه، ومسرورا بما سمعه منها.

- يوسف يهودي، أليس كذلك؟ - كان يوسف أحد المعلمين الذين يشاركون في تربية «فرناندو»، وكان من جملة من صاحب الأميرة وابنها في سفرهما. وقد سمحت له «برنگيلا» ذلك الصباح بأن يلتقي بإخوانه في الدين.

- أجل يا «فرناندو» - أجابت دون أن تضيف شيئا. ثم واصلت وقد غيّرت الموضوعَ - لمحتك مشغولا بأمور أخرى خلال القداس. كنت تتمعن في الرايات

ـ أشار الصبي بالموافقة وقد خامره بعض الخجل.
ـ جميلة، أليس كذلك؟ إنها الرايات التي غنمها جدك في معركة « ناباس دي طولوسا» [العِقاب].
ـ على الإثر لمعت عينا الصبي.

كان الفتى مولعا بأخبار هذه المعركة، وكُلُّ ما له علاقة بها كان يوقظ لديه قوة الاستطلاع، ويثير فضوله. فلكم قضي أصائل كاملة وهو يلعب متقمصا شخصية أحد الفرسان الأماجد الذين حملوا على الموحدين وهم يصعدون العقبة. كان يتخيل النصارى وقد تمكنوا من تغيير القدر، حينما انتصروا على المسلمين في معركة كان الجميع يراهن على أنها خاسرة. ومن ثَمَّ حافظ على الخرائط التي أهداها إليه جده الملك كأنها الكنز. لا سيما وأن بها علاماتٍ تؤشِّر على الطرق التي مر منها الجيش النصراني من طليطلة إلى «ملقون»، و«قلعة رباح»، و«فِرَّال»، وبِلْتِشْ، و«برج الحمة»، وتولوشة، إضافة إلى مدينتي «بياسة و«أُبَّدَة».

ـ نعود إلى الداخل؟ ـ اقترح الولد على أمه.

ـ اصبر حتى أحس بالدفء. الشمس منعشة هنا.
ـ نظرت «برنكيلا» إلى ابنها، وخمنت أنه الوقت المناسب لتحدثه عن بعض الأمور المهمة. ـ ثم واصلت ـ حقا، كانت معركة عظيمة للنصارى. ولولا الوباء الذي اجتاح الناس لكان العلم القشتالي يرفرف اليوم على قصبة جَيَّان. ـ لكن من يعرف؟ ـ تركت السؤال معلقا هنيهات ثم استطردت ـ لقد خرجت «قشتالة» قوية من هذه الحملة. لا تنس أبدا أن «قشتالة» هي التي كانت وراء تنظيم

الجيش، وهي التي حققت هذا النصر الباهر وهذا المجد لصالح النصرانية جميعها. ـ استقام الفتى في مجلسه، كان يعرف أمه جيدا، وأنها تحمل في جعبتها كلاما كثيرا تريد أن تحدثه به. ـ استطردت «برنگيلا». هل تعلم أن أعزاءنا فرسان «قلعة رباح» يوجدون الآن، من جديد، في الحدود؟ ـ نسي الفتى للحظات اهتمامَه بزخارف الرايات «المورية»، وأبدى رغبةً شديدةً لسماع ما تحكيه والدته ـ لقد استعدنا قلعة رباح ـ واصلت الأم بإعجاب ـ غير أنهم رفضوا البقاء هناك، وتحركوا نحو الجنوب. حيث تموضعوا قبالة شَلْبطرَّة في هضبة يوجد بها حصن صغير. هناك شرعوا الآن في بناء قلعة ستكون مقرا جديدا لهم وكنيسة أخرى للعبادة. الجميل في الأمر أنهم يستخدمون عددا كبيرا من الأسرى «الموروس». هل تتخيل الأمر؟ ـ سألت «برنگيلا» وهي تتنهد بعمق ـ ستكون هناك «قلعة رباح» أخرى جديدة للدفاع عن الأرض التي غنمناها والاستمرار في القتال لتحقيق السيطرة على أراضٍ أخرى.

ـ في يوم ما سأكون فارسا تابعا لرهبانية القلعة. ـ تخيل فرناندو نفسه.

ـ ستكون أكثر من ذلك بكثير. ـ لفظت الأميرة العبارة وقد غمرت عينيها مسحةٌ من كمد وهي تتذكر الأخبار الأخيرة التي وصلتها من «ليون». فقد اعترف «ألفونسو التاسع» ملك «ليون» بابنه «فرناندو» من زوجته الأولى «تريسا» البرتغالية باعتباره بكرَ أولاده، وهو ما يعني تنحية «فرناندو» الآخر، ابن «برنگيلا»، عن ولاية العهد. وبذلك خرق

اتفاقات «كابريروس» التي اعترف فيها، كما فعل أيضا جميع النبلاء، بأحقية الأمير القشتالي في العرش.

ـ لا تنس أبدا ـ استطردت الأميرة ـ أنك ابن ملك «ليون». ـ أومأ الفتى بالإيجاب ـ ستكون أكثر بكثير من مجرد فارس.

وقفت برنگيلا، وأخذت الطفل من يده وعادت به إلى كاتدرائية «طليطلة». هناك شرعا من جديد ينظران بإعجاب إلى الرايات الموحدية الموشية، والمعلقة على جدران الكنيسة الضخمة، باعتبارها تذكاراتٍ للمعركة الخالدة «ناباس دي طولوسا»، التي ستبقى حيةً في الذاكرة التاريخية إلى نهاية العالم.

***

«أرجونة» Arjona. ربيع 1213

ولج «محمد» و«إسماعيل» يتبعهما «حسن» القاعةَ الساخنة. كان «حمام الديك» مزدحما بالأرجونيين الذين كانوا يغتسلون استعدادا للاحتفاء بعيد الأضحى. كان أربعة من الحلاقين يعملون دون توقف في القاعة المعتدلة الحرارة. في حين كان الخادم المكلف بتحمية القاعات يطلب الإذن بين الفينة والأخرى من المستحمين ليهرق ما في القدور من ماء على البلاط الساخن. كان على الثلاثة أن ينتظروا وقتا ليس بالقصير إلى أن انتهى أحد الفتيان من زبون ليتكفل بصَوْبَنَتِهم قبل أن يتكلّف آخر بسكب الماء الفاتر عليهم وتنظيفهم من الصابون. بعد قليل تدثّر

الفتيان في مُوَطٍ ما إن التصقت بأجسامهم حتى اكتنفهم إحساسٌ غامرٌ بالنظافة والسعادة. غير أنهم سرعان ما أحسوا بأجسامهم تتصبب عرقا فغادروا إلى القاعة الباردة حيث عادة ما تنتهي حصة الاستحمام هناك.

غطس الفتيان في البركة، حيث كان رجلان يتحدثان عن عواقب معركة العقاب. لحظة، دخلت زمرة من الشباب من جهة بيوت الخلاء بينهم أحمد بن إسحق الذي كان قد تحدى منذ سنوات «محمدا» ببستان أبيه. كان الشاب محاطا بأصدقائه، فاستجمع شجاعته، وتوجه بالكلام للنصري في تحدٍ:

- هل تجرؤ على مجاراتي في سباق على الخيل؟ - سأل أحمد بابتسامة سخرية.

وافق «محمد» دون تردد، وهو مندهش من هذا التحدي دون مقدمات.

- هذا المساء في البطحاء. - أجاب الآخر.

- أظن أنكم لا تملكون المال الكافي لاقتناء الجياد. يمكن لوالدي أن يحضر لك فرسا.

ودون أن ينتظر إجابةَ «محمد» دلف إلى القاعة المعتدلة، وهو يتطلع إلى أصدقائه بنظرات شزراء خفية ليتأكد من أنهم يسيرون وراءه.

كان الوضع على الحدود قد زاد تعقيدا، وارتأت السلطات المحلية أن تنظِّم مبارياتٍ ومبارزاتٍ بمناسبة عيد الأضحى. في عصر ذلك اليوم بعد الغداء تقرر الاحتفال بسباق الخيل، وأنشطة أخرى، بهدف تحفيز رجال «أرجونة» على الفروسية

والرياضة استعدادا للحرب. كان الموحدي على بينة من الوضع الصعب. فبعد الهزيمة سد «الناصر» أبواب القصر عليه وتعاطى لملذاته، يعب من الخمرة ما وسعه ذلك، ويرتمي في أحضان أجمل الجواري والقيان. كان يريد بذلك أن ينسى مذلة الهزيمة. وحصل أن أحد التجار البربر مرَّ بـ «أرجونة»، وتحدث بأن الخليفة كان يريد التنازل عن العرش لابنه الذي لم يبلغ العاشرة من عمره. وهو ما أدرك معه الناس أن حال الأسرة الحاكمة باتت غير مستقرة، ودفع بالحاكم إلى أن يعتمد على نفسه في تدبير الأمور، والحفاظ على المأمن والنظام داخل منطقة نفوذه.

ـ أراك ابتلعت لسانك، ولم تردَّ عليه بشيء. ـ توجه «إسماعيل» بالكلام إلى أخيه.

سأترك لحوافر فرسي مهمةَ القيام بذلك.

***

تزاحم الناس في فضاء مصلى العيد، وخلال صلاة الجماعة لم يعد يسمع سوى نميم المصلين الصادر من مئات الأفواه وهي تتلو السور في وقت واحد. حتى إذا انتُهِيَ من الصلاة اعتلى الإمام، وكان بربريا يجمع بين مهمتي الإمامة والخطابه، المِنْبرَ المتنقل، فوقف خطيبا في الناس باسم الخليفة وشرع في وعظهم.(5)

.....[رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ، لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ](6).

قرأ الخطيبُ الآياتِ ثم أتبعها بآيةٍ أخرى عن الجهاد والدفاع عن الدين وحماية الأوطان... أخذ الرجال يتبادلون النظراتِ في قلق، وهم يخمّنون أن الآتي سيكون أفظع مما فات.

أنهى الخطيب خطبته وعاد الناس إلى «أرجونة». عند أبواب البلدة كانت أجواء العيد مهيمنة تغمر الجو فرحا وبهجة. خرجت النساء بعفوية وهن يحملن سلالا مليئة ببتلات الورود، وفاكهة البرتقال، وحبات الليمون، كانت المئات منهن يرمين بها الحاضرين وسط جو يسوده المرح والضحك. بعد قليل، انتقلت البهجة إلى الرجال، فجعلوا هم أيضا يشاركون في اللعب. كانت «أرجونة» جميعها قد سمحت لنفسها باللهو والفرح والعربدة. بعد لحظات انطلق الموسيقيون يعزفون على آلاتهم، ولم تلبث بعض النسوة أن شرعن في الرقص على نغمات الموسيقى. كان قد مضى زمن طويل على غياب تلك الملذات البسيطة من الأندلس، استأصلها تعصب الموحدين. غير أنه في ذلك اليوم تمكن الناس من معاودة عاداتهم القديمة ولو لبعض الساعات. لقد كان الغزاة في تقهقر، أقصتهم الهزيمة ورمت بهم إلى الحدود، وأخذ الأندلسيون في استشعار الثورة تجري في عروقهم.

لجأ الفقهاء إلى منازلهم وهم يشعرون بالخزي تجاه ما يجري في الشارع. أما القائد فقد أشاح بنظره نحو الجهة الأخرى، تاركا الشعب يمرح

ويسعد بسماع الموسيقى كما كان عهده بذلك فيما مضى. «أحيانا ـ مر بخاطره ـ ينبغي أن نكون متساهلين ونمنح الرخص للناس».

وحين حل وقت الغداء، واستوت لحوم الأضاحي التي قام بذبحها أرباب الأسر، تصدق الناس بالقسط المخصص للفقراء، ثم انغمر الجميع في جو الاحتفالات والمآدب. كانوا يعربون بذبحهم الأضاحي عن ارتباطهم بذكرى الوفاء والتضحية التي تمثلت في «إبراهيم» حينما أقبل على ذبح ابنه ابتغاء مرضاة ربه، لولا أن أمره اللّٰه بأن يفتدي ابنه بِذِبْحٍ عظيم.

تناول آل نصر وآل «أشقيلولة» طعام العيد معا بباحة القصبة. كان الأطفال قد اجتمعوا بالقرب من الجامع وانغمسوا في ألعابهم. في حين استقبلت الفتيات إخوتهم وأبناء عمومتهم بماء الزهر. اقتربت «فرح» من «محمد» وصبت على رأسه كأسا من ماء الزهر. كان وجهها مغطى بلثام، غير أن ابن الأحمر سرعان ما تعرّف عليها، فاستقبل ذلك المطر السعيد الذي انهمر عليه برائحة العطر والرياحين كأنه بركة. بعد فترة كان الشباب والشابات كلهم مبللين بالماء المعطر، يتضاحكون من أعماقهم ويطارد الواحد منهم الآخر.

ومع نفحات المساء الأولى انتقل الأرجونيون إلى بطحاء البلدة، وهي التي كانت قد حولت في الصباح إلى مصلى. وسرعان ما توزّع الرجال والنساء من كل الأعمار حول حلبة السباق.

كان ولدا «أشقيلولة» قد قصدا الحلبة ممتطيين

صهوات جيادهم، في حين جاء ابنا أختهما النصريان راكبين «فييرا»، الحصان المفضل لـ «محمد». أما «أشقيلولة» فقد التحق بالجميع ممتطيا فرسه، وعلى ذراعه صقر نِبْلي. كان «أشقيلولة» مثل أغلب ملاكي الأراضي في الأندلس مروِّضا رائعا للطيور الجارحة، خاصة البُزاة منها. وقد حضر الحاكم أيضا مزهوا بصقره، وكان من نوع القواطع التي تذهب من مكان إلى آخر، تغطي رأسه قلنسوة مزينة بهُداب. وكان الحاكم و«أشقيلولة» قد اتفقا على سباق بين البازين عند نهاية التباري.

بدأ السباق، وشرع الفرسان في الركض من جهة إلى أخرى عبر الميدان. كانوا يَغْدُون بجيادهم نحو عود وضع عليه منديل، حتى إذا وصلوا إلى الهدف، تعين عليهم نزعُ المنديل من العمود الخشبي، والعودةُ به إلى نقطة الانطلاق... وكان الحاكم قد أوصى بعد انتهاء السباقات الأولى بفتح دورة التباري بالتحدي بين الفرسان. وقد خصصت للفائزين جوائز رمزية، كما جرت العادة، كانت عبارة عن تيجان مصنوعة من الغار والياسمين. وبدأ المتبارون في التنافس، وسرعان ما طغت على الحضور مسحة من الجدية عوضت جو اللعب والفرح الذي كان سائدا قبل قليل.

وصل «أحمد بن إسحاق» إلى المضمار مترجلا وهو يشد بيده على عنان حصانه. كان يسحبه من ورائه في خيلاء. وكان الجواد حسن المظهر، من نوع الأحصنة الشقراء، كان والده قد أهداه إليه ليشرع في التدرب على الفروسية استعدادا

للمشاركة في غارات الثغور. وكان هذا التصرف من العائلة إبرازا لوضعها الاجتماعي الجديد.

اقترب «أحمد» من الأخوين «نصر» وتوجه إليهما بالخطاب:

ـ سنتسابق؟ ـ سأل أحمد «محمدا» في ازدراء.

ـ سنكون المواليين. أجاب النصري.

تموضع الشابان في نقطة الانطلاق، تأهبا للسباق. بغتة رفع أحمد يده اليمنى وهو يمسك بكيس صغير من جلد.

ـ أضع دينارا ذهبيا كرهينة. ـ أشْعَرَ الحاضرين بصوت عالٍ وواضح.

نظر «محمد» مستغربا ناحية والده، ينتظر ردة فعله، وسرعان ما شق يوسف طريقه بين الناس وهو في حالة غضب إلى أن وصل بمحاذاة ابنه.

ـ خذ يا بني، لم نصل بعد إلى حال الإفلاس. ـ أخرج الوالد من جيبه دينارا، وسلمه لابنه. حدق الشاب في القطعة النقدية بلوعة واضطراب. ـ هوِّن عليك، واعْدُ كما تعرف، وفز بذكاء. ـ ثم صفق على متن الفرس وعاد أدراجه.

كان الدينار قد حول الدورة إلى أكثر من سباق شرف بسيط.

رفع ابن الأحمر الرهان وقلبه يخفق بشدة، ولم يكد ينهي التحدي بتحد مثله حتى اقترب الحاكم من الشابين:

ـ لن أسمح بالقمار. ـ صاح الموحدي في صرامة، وهو في حالة من الغضب.

ـ فليشارك في السباق فرس ثالث. ـ اقترح «محمد».

فكرة مشاركة فارس ثالث له حظوظ في الفوز دون مجازفة مالية، تنفي عن السباق صفةَ القمار، وتصبح المراهنة حلالا. على الإثر التفت القائدُ جهةَ الحاضرين، ثم انتقى فارسا في حوالي الأربعين، من الذين حجوا إلى السباق على متن فرس عربي أحوى في غاية الجمال، ورشحه للمشاركة في التباري. تطلع القائد إلى «محمد» وأحمد كأنه يطلب رأيهما. في الحال تبادل الشابان النظرات ووافقا بإيماءة سريعة.

ـ ثلاث دورات. ـ اقترح «محمد».

قبِل «أحمد» على التو، حينها تناول حاكم «أرجونة» في سرعة الرهانين.

ـ دع عنك الألاعيب والغش. واحصل على الدينارين. ـ توجه الموحدي بالخطاب إلى الفارس الثالث.

في الحال ركض أحد الجند إلى الجانب الآخر من المضمار ليضع على العمود المناديل التسعة. في خط الانطلاق تكلف رجلان بالإمساك بطرفي الخيط الذي يعلم على نقطة الانطلاق.

ـ لنر إن كانت دروس الأعرج قد أفادتك في شيء. ـ أسرَّ أحمد إلى خصمه.

... وما إن أعطى القائد إشارة الانطلاقة، حتى سقط الحبل على الأرض، واندفعت الجياد الثلاثة تنهب الأرض نهبا. في اللحظات الأولى من العدو بَرَزَ حصان «أحمد»، وظل الفرسان الآخران الأحوى

والكستنائي متخلفين بالتساوي.

ـ هيا يا «فيبيرا»! ـ صرخ ابن الأحمر وهو يَهْمِزُ جواده.

تمكن «محمد» من تجاوز الفارس الثالث، على الإثر تفاعل هذا مع التحدي وزاد من سرعة فرسه ليلحق بالنصري. لحظتها كان «أحمد» أول من وصل إلى العمود، غير أنه كان عليه أن يُكْبِحَ جواده حتى لا يصطدم بالعمود. في حين جذب «محمد» والفارس الثالث لجامي جواديهما على مهل، وأخذا منديليهما، ثم جعلا يركضان من جديد، ويزيدان من سرعتيهما بالتدريج إلى أن عادا إلى نقطة الانطلاق. في تلك اللحظة كان الفرس الأشقر قد أخذ يجري الدورة الثانية.

ـ إلى أن يتحقق الجلال والبهاء! ـ سمع الفارسان «أحمد» وهو يرفع عقيرته بهذه الكلمات.

شرع الفارسان في جري الدورة الثانية في وقت كان غريمهما ينتزع المنديل الثاني من العمود، غير أنه عند تقاطع الأحصنة رمق «محمد» بمؤخر عينيه الفرس الأشقر وهو يتفصد عرقا، ولم يفته أيضا أن وتيرة عدوه بدأت في التراجع وَهَناً.

ـ هيا، لا تتمهل الآن! ـ صاح «أحمد».

أخذ «محمد» بزمام العنان، ولمز فرسه. كانت الدابة مهيأة للمجهود الذي ينتظر منها. وحينها كان الفرس الأحوى لصيقا بـ «فيبيرا» لا يبتعد عنها قيد أنملة، ـ «سيكون غريما شديد المراس يصعب دحره» فكر النصري. في لمح البصر أمسك

الفارسان بالمنديلين الثانيين ورجعا إلى نقطة الانطلاق. من جديد أكمل النصري والفارس الثالث الدورة متكافئين. وقتها كان الحصان الأشقر يفتح فمه، ويتنفس بصعوبة.

ـ مبتدئ ـ قال «محمد» مخاطبا نفسه ـ عند العودة سألحق بك وأتجاوزك.

وكذلك كان، إذ قبل أن يمسك أحمد بالمنديل الثالث، كان قد أصبح آخر الثلاثة، في حين كان الفارسان الآخران يعدوان وهما واقفان على الركاب. ولا غرو، ففن الفروسية لا يمكن إتقانه خلال أسابيع معدودة. كان «محمد» أعرف الناس بذلك، لأن الفرس يحتاج إلى عناية متواصلة، وتداريب خاصة قبل أي سباق. ففي الأسابيع السابقة على خوض السباق، كان النصري يخرج «فيبيرا» ليتمشى، ويعدو، حتى تتعود أعضاء الدابة على المشي والعدو. ثم إنه أنقص من كمية الغذاء التي كان يقدمها لحصانه حتى يحرق الشحوم الزائدة فيه، كما كان يدثره بالبطانيات خلال أيام لتتقوى عضلاته.

خطف الفارس الثالث منديله هنيهة قبل «محمد»، ثم نخس فرسه ليقطع الجزء النهائي من المسافة المتبقية من السباق. وقف الجمهور وأخذ يصيح تشجيعا للحصان المرجح فوزه. كان «أحمد» يتبع «محمدا» وغريمَه وقد يئس من الفوز، ويتلفظ قاموسا من اللعنات.

ـ الآن يا «محمد»... الآن، حانت لحظة الطيران. ـ همس «يوسف النصري» دون أن يزيح نظره عن ابنه.

أجهد «محمد» «فيبرا» بعض الشيء، ليستعيد المسافة التي ضاعت منه، ثم تقدم كالبرق نحو نقطة الوصول في تكافؤ مع الفرس الأحوى.

ـ طر يا «فيبرا»ـ صرخ النصري بكل قواه.

حافظ الفرس على وتيرة عدوه الشديد، وفي لمح البصر رمق «محمد» كيف أن غريمه بقي وراءه مقدار نصف خطوة. وللتو فسح الناس للجوادَين، وابتعدوا عن خط الوصول حيث مر الفرسان كسهمين فوق الخيط، أولا ابن الأحمر، ووراءه على بعد أقل من خطوة الفارس الثالث. ثوانٍ بعد ذلك وصل أحمد وفرسه الأشقر.

ترجل «محمد» يحف به الفوز. بعد لحظات تسلم من القائد الرهانين، في مشهد لم يداج فيه الموحدي حتى يخفي ضجره.

ـ حيوان غبي! ـ كان «أحمد» يصيح صياحا شديدا في فرسه وهو يضربه بعصا.

في خطى ثابتة توجه «محمد» نحو «أحمد»، وقبل أن يضرب هذا متن الحصان من جديد، أمسك «محمد» بذراعه، وفي حركة سريعة خطف منه العصا، حينها استدار أحمد، لتستقبله صفعةٌ قوية من النصري سقط على إثرها أحمد أرضا.

ـ أنت هو الحيوان الغبي! ما ذنْبُ فرسِك في أن تكون كومة لعينة من الزِّبْل. ـ أنهى «محمد» شتيمته وهو يوجه ضربة عصا إلى إلية أحمد، على إثرها سمعت طقطقة، ثم أَنَّةُ توجُّع.

ـ اترك ابني، أيها النصري المتكبر؟ ـ كان

«إسحاق» يقترب من مسرح الحدث، وهو يمشي بخطوات واسعة.

حدثت بلبلة واضطراب، وتحلق حول المتخاصِمين حشْدٌ من الناس. في الوقت ذاته شق «يوسف» لنفسه بصعوبة سبيلا بين المتجمهرين. بعد لحظة، وجد نفسه واقفا قبالة «إسحاق» وقد تمكنت منه سورة غضب شديد، احتقنت لها عيناه بالدم، عينا الزمن الماضي، زمنِ الخدمة في مليشيا الخليفة.

ـ مِسَّ من ابني شعرةً واحدةً، وسترى نفسَك قد مُزِّقْت إلى أشلاء في الحال، وبيدي. ـ هدد، وقد انقبضت عضلاتُه، وارتعد جسمُه بفعل الغضب.

قرأ «اسحق» سريعا في نظرة «يوسف» رغبة عارمة في القتال، فتراجع من فوره غيرَ آمن على نفسه، مستغلا محاولة القائد التوَسُّطَ بينهما.

ـ كفى! كان سباقا عادلا. ولينصرف كل واحد منكم إلى وجهته. وأنت، إياك وأن تعود إلى ضرب جواد بحضوري وإلا كنت أنا من سيضربك بالعصا.

استدار الجميع منصرفين.

ـ «محمد»، كان عَلَيَّ أن أمنحكَ مزيدا من الوقت لاستخدام العصا مرتين. ـ قال «أشقيلولة» لحفيده، وهو على متن حصانه.

ضحك الرجلان. حينها ذكر «ابن الأحمر» الدينارين فسلمهما لوالده. أخذ «يوسفُ» الرِّهانين، وضم ابنَه إلى صدره.

ـ أنت بركة من الله تعالى يا بني ـ همس

٢٧ ٦٨٤٤٤٦٧

يوسف في أذن ولده.

***

بعد انتهاء السباقات جاء دور «لعبة الخاتم»، وكانت هذه اللعبة من أفضل الألعاب التي يقبل عليها الأندلسيون. ومن ثم كان طلب المشاركة فيها كبيرا من قبل «الأرجونيين». كان على الفرسان طوال جولات عديدة من اللعب أن يُسَدِّدُوا برماحهم الخشبية حلقاتٍ معدنيةً كانت تعرض في طريقهم. ولكم كانت متعتهم كبيرة وهم يمارسون هذه اللعبة.

كان الفوز هذه المرة من نصيب «عبد الله» فحصل على إكليل الغار والياسمين. ولكم أشرق وجهه فخرا وهو يعرض الجائزة على أخيه وآل نصر.

بعد الانتهاء من «لعبة الحلقة» أعطى الحاكم الأمر ببداية سباق العصي: توزع الجند إلى مجموعات، ثم شرعوا في المبارزة. كانوا يتصنعون القتال بالرماح، وفي هذا الصنف من القتال كان الأفارقة حقيقة معلمين مهرة. كان الرجال يتسلحون بتُرُسٍ مستديرة من الخشب، وحراب من خشب السوْحَر تنتهي بأسنة من خشب غير حادة، في حين يوضع في أسفل الرمح زُجٌّ من حديد ليحافظ على توازن الحربة. وقبل بداية تمثيل النزال كان يحدد النطاق الذي سيجري ضمن حدوده القتالُ المصطنع، وذلك عبر رسم خط لا يجوز تجاوزه بأي حال من الأحوال. وفي هذه المرة كان القائد قد حدد جائزة من ثلاثة دنانير للفائز النهائي في المباراة.

شارك «هادي» غير أنه سقط في الجولة الأولى. ثم تبعت هذه الجولةَ جولاتٌ أخرى إلى أن صمد أربعة من المتبارين. وكان «محمد» و«إسماعيل» يتابعان أطوار المبارزة باهتمام العارف، إذ إن «أشقيلولة» كان قد دربهما على هذا النوع التقليدي من القتال خلال شهور عدة.

- هل بالإمكان أن نشارك هؤلاء في هذه المبارزة؟ - سأل «ابن الأحمر» كأنه يخاطب نفسه ودون أن يزيح نظره عن المتبارين. سمع «إسماعيل» سؤال أخيه دون أن يهتم بالبحث عن الجواب.

في الجولة النهائية فاز البربري الذي كان الجمهور يشجّعه باعتباره الأفضلَ. وكان «إسماعيل» قد وقف ليهتف للفائز ويحييه حينما تنبّه إلى أن أخاه كان قد دخل الحلبة، وهو يسحب وراءه من العنان «فوريا»، في الحال امتطى «محمد» الفرس بقفزة وتوجه إلى القائد.

- هل بالإمكان أن أجرِّب؟ ألتمس إذنكم.

نظر إليه حاكم «أرجونة» غير مصدق. حقا كان مظهر «محمد» لا يعكس سنه الحقيقي، فقد كان طويل القامة، متين البنية، قوي الأعضاء بفعل التدريبات والعمل، غير أنه لم يكن ليبدو أكثر من شاب في الثامنة عشرة من عمره يتطلع ليصبح ثغريا.

انطبعت على شِدْقِ الحاكم ابتسامةٌ ثم أجاب:

- طبعا، خذ تُرسا وحربة.

وما إن تسلّح الشاب حتى اقترب إلى حلبة المبارزة، حينها أشار القائد إلى البربري بالموافقة، وأصبحت المبارزة مصادقا عليها، فساد بين الحاضرين نميم أصم.

أخذ «محمد» الحربة وراح يرجحها بذراعه ليقف على نقطة التوازن بها. بعد ذلك تموضع وهو مائل إلى جنبه، يعرض على غريمه جانبه الأيسر المحمي بالترس. وهو ما فعله البربري أيضا. شد «محمد» عضلاته وظل ساكنا لا يتحرك، لكن في حذر وتيقظ. كان يريد أن يبادر الآخر بالهجوم. تقهقر الجندي بفرسه إلى الخلف خطوتين ثم أعقبهما بخطوة إلى الأمام في ذات اللحظة التي كان يُدير خصره ويرمي الرمح بكل قواه. طارت الحربة في سرعة البرق نحو رأس «محمد»، غير أن النصري سرعان ما حرك تُرسه نحو الأعلى، فانحرفت الحربة فوق «محمد»، وسمعت طقطقة قوية نتيجة اصطدام رأس الحربة بأحد برشامات الترس. وعلى الفور، وبرشاقة تشبه رشاقة القط، رفع الشاب ذراعه التي كانت ممسكة بالحربة، ودفع بها نحو غريمه بقوة زادها شدةً اندفاعُ جسمه بالكامل مع الرمية. وما هي إلا ثوانٍ حتى وقع السنان الخشبي للرمح على ظهر البربري وهو ما زال يتقدّم بعض الخطوات.

خيّم الصمت لفترة قصيرة. فقد حصلت كل هذه الحركات والمناورات في هنيهات. وفي الحال سمعت الأصوات الأولى وما يصاحبها من صفير. شرع الناس يصيحون ويهتفون باسم الفتى الذي تمكّن من الانتصار على بطل الموحدين في

«أرجونة».

غشت وجهَ القائد مسحةٌ من الغضب. غير أنه التزم بتسليم إكليلين، أما جائزة الدنانير الثلاثة، فقد ذهبت إلى جندي الحامية الذي انتصر قانونيا.

عاد «محمد» إلى أهله وعصبته وهو يعرض عليهم جائزته. كان الجميع يريد التقربَ منه وتهنئته.

ـ هنيئا، لقد أعطيت درسا لأصحاب القصر. ـ قال «إبراهيم بن أشقيلولة»، بينما كان أخوه «عبد الله» صامتا، كان يحدق في إكليل «محمد» وهو يشد على إكليله بقوة.

توجه «أشقيلولة» بنظرة سريعة إلى «يوسف»، أومأ على إثرها والد الفتى بالإيجاب وأنه فهم المقصود.

***

ولوضع نهاية ليوم العيد جاء الجند بقفص ملئ بحمام الوَرشان ووضعوه بالميدان. كان هذا الحمام سيستخدم كطرائد في الحلقة التالية من الألعاب، وهي حلقة القنص بالصقور. وقف القائد و«أشقيلولة» وسط الحَلْبَةِ على ذراع كل منهما صَقْرُهُ ثم أزال كل منهما غطاء الرأس عن طائره الجارح. حينها حرر الجند من القفص حمامة ورشان واحدة انطلقت في الهواء وهي ترتفع سريعا في الفضاء، حيث حلقت بعيدا. مباشرة رفع البَيْزاران ذراعيهما وأخذا يحثان الطائرين على الطيران. خفق الجارحان الجناحين، وهو ما سُمع له رفرفة، ثم على الإثر انطلقا محلقين نحو السماء

وهما يقومان بدورات عبر الهواء تمكنا بعدها من التحليق عاليا. كانت الحمامة تحلق شرقا وهو ما فطن له باز القائد، وهو المعروف بنوع «المتنقل» وأخذ نفس الاتجاه وراء الحمامة. أما باز «أشقيلولة» وهو من النوع النبيل المعروف بـ النِّبْلِيّ فقد قام بطيران غير مباشر ليتموضع فوق الحمامة. وحينما بدا له أن المسافة مناسبة انقض على طائر الورشان من أعلى وأصابه بمخلبه الحاد. في الحال بدأت الحمامة في النزول وهي ترفرف. فلم يتبق للصقر «المتنقل» وقد رأى النِّبلي قد سبقه إلى الهجوم سوى التخلى عن متابعة الفريسة، وترك منافسه في الطريدة ينهي عمله، حيث قبض النبلي على الحمامة بقوة، وجعل ينقر قاعدة رأسها إلى أن قتلها. فهبط الصقر إلى الأرض دون أن يُطلقها من بين براثينه، ولم يكن على صاحبه إلا أن يتركه ليلهو بها.

فلم يجد القائد، وقد احمرت وجنتاه من الغضب والخجل، سوى أن ينادي على طائره، ويعلن عن نهاية ألعاب عيد الأضحى. فكانت فرحة «الأرجونيين» مزدوجة، لأن الموحدين هزموا مرتين: مرة على يد «محمد»، وأخرى على يد جده. فشرع كثير منهم يصيحون «نبلي» «نبلي» حتى تحولت الكلمة إلى شعار لفرحهم. وبذلك تمكن «أشقيلولة» من أن يحرز على لقب بين بلدييه وهو «النبلي».

في هذا الخضم، بدأت بعض الأصوات تسمع هنا وهناك، في أول الأمر كانت خجولة ثم أصبحت بعد ذلك قوية، كانت هذه الأصوات المجهولة ترفع

شعارات تحمل اعتزازا بالهوية الأندلسية والفخر بها.

- أندلسي أنا! كان الناس يتصايحون، بينما كان الموحدون ينسحبون إلى القصر.

***

مالت الشمس نحو الأفق الغربي قرصا أحمر إيذانا بالغروب حينما أخذ الأرجونيون طريق العودة إلى بيوتهم. في حين ظل «محمد» وحيدا متخلفا وهو يمتطي «فوريا»، فعرج على مقبرة البرج. وكانت المقبرة تمتد على منحدر بسيط كان يبتدئ من قاعدة سور أرجونة. وكان يحيط بنطاق المقبرة سياج من حجر له ثلاثة أبواب من حديد عادة ما تكون مفتوحة. مر «ابن الأحمر» عبر الممرات البسيطة التي تتخلل المقبرة، متجنبا المرور على القبور والأحراش العطرة، إلى أن وصل إلى البرج الطيني الذي تسمت المقبرة به. بجانب البرج كان هناك ضريح الولي الصالح وصوفي «إلبيرة» «عبد الرحيم الإلبيري». وكان هذا الصوفي قد مر في إحدى سياحاته بـ «أرجونة»، فقرر الإقامة بها، وقضاء آخر أيامه بين جنباتها. ولما وافاه أجله شَيَّدَ له الأرجونيون ضريحا يقصده الزوار للتبرك. ولما هدم النصارى قبر الصوفي، نُقلت رفاتُه إلى مقبرة البرج حيث بني له ضريح آخر أكثر فخامة من الرخام والمرمر. وقد استطاع «يوسف» والد «محمد» أن يجد مكانا لدفن زوجته وابنه بجوار الولي الصالح.

ترجّل «محمد» واقترب من شاهد قبر والدته. ثم وضع عليه إكليل الغار والياسمين الذي أحرز عليه

في مسابقات اليوم. تصور أن أمه تبتسم له، وخمّن أنه سمعها تقول له، وقد حفت بالمكان نسائم الأصيل: «أراك قد أصبحت رجلا». انتعش «محمد» بزيارة قبر والدته، وجدد العهد مع ذكراها، فلما هم بالمغادرة سمع صوتا يناديه عن قرب:

ـ أندلسي ـ سمع ابن الأحمر، بغتة، بالقرب منه. من بين القبور كان عمر الحسون يخطو نحو الفتى بخطوات سريعة. ـ لقد تعقبتك من «أرجونة» ـ قال «الحسون» حينما أصبح بجانب «محمد»، وقبل أن يعانقه بحرارة. ثم أردف ـ كم أنا فخور بك، فقد أعدت للناس كبرياءهم.

ـ لقد غلبت في لعبة ليس غير. ـ قال الشاب بتواضع صادق.

ـ أندلسي، أندلسي ـ ردد عمر وهو يقلد أصوات الجمهور تنطق بذلك. ألم تسمع الناس يرددون ذلك؟ لقد اكتشف الناس أنهم قادرون على القتال وقادرون على النصر. حقا، جعلتني أنفعل حينما كنت في الميدان. إنك تتوفر، يا محمد، على موهبة تحريك القلوب. أتمنى أن تعرف كيف تستغل فيك هذه العطية. فأنت مسؤول عليها، إن كل موهبة تُحَمِّلُ صاحبها دائما مسؤولية حسن استغلالها.

أومأ الشاب بالموافقة على كلام «الحسون». كان قد أدرك ما يرومه الولي بكلامه. حدق «عمر» في البرنس الصوفي البسيط الذي كان يلبسه «محمد»، والجزمة الخشنة التي كان ينتعلها ثم قال:

ـ أدعو لك دائما في صلواتي، ولكم تحضرني صورتك في تأملاتي، وكلما بدوت لي في رؤاي إلا وكان النصر حليفك. ـ غير أن نظرة الولي قد خبت فجأة وغشيتها مسحة من الكدر. ـ لكن احترز أيها الصديق، وانتبه لنفسك! إن التميز والتفوق عادة ما يسببان الحسد والغيرة. أحسبك مدركا ما أريدُ قولَه. ـ أشار الفتى بالإيجاب مرة أخرى. ـ سِرْ بحَذَر، فعديد من السيقان ستكون مهيأة لتجعلك تعثر وتسقط.

ـ تحدثني كأنني أمير.

ـ لا تتسرع يا «محمد». إن قدرك مكتوب، ووحده الله يعلم ما في الكتاب. أما أنا... فأستطيع فقط أن ألمح بعض الأمارات، وأترصّد بعضَ ما في السطور.

***

ترك ابن الأحمر «فوريا» في الحظيرة ودخل «أرجونة». كانت النجوم الأولى قد بدأت تشع في السماء. فلما وصل إلى البيت أزال جزمته من قدميه بالبهو. كان حينها المؤذن يؤذن للصلاة. كان اليوم حافلا، وجسمه في حاجة إلى الراحة. سمع بعض الأصوات الخافتة تنبعث من الفِناء، فأطل خلْسَةً من الباب الموارب، كان أبوه جالسا على مقعد، ورجلاه ممدودتان نحو الأمام. في حين جثت بجانبه «كريمة» وهي تغسل رجليه بالماء المعطر.

ـ هذا الثفن الذي في قدميك ينبغي أن يداويه ممرض.

لم يجب «يوسف»، وترك المرأة تقوم بعملها في صمت وقد ارتسمت على محياه علامة رضا وارتياح. وقف «محمد» يتأمل المشهد برهة من الزمن ثم ولج الصحن حينما غادرت المرأة وهي تحمل الجفنة. تبادل الأب والابن النظرات.

ـ يا بُني لقد أهديت اليوم لكل «أرجونة» فرجة ممتعة. ستكون موضوع حديث لشهور. لقد أصبحت رجلا.

ـ شكرا أبتاه.

انسحب «محمد» ليتوضأ ويؤدي صلاته. لم تكن المرة الأولى التي يسمع فيها مثل هذا الكلام. لقد بدأ يبلغ مبلغ الرجال. غمره شعور عذب. فقد ترك وراءه نهائيا مرحلة من حياته. قريبا سيكون قادرا على القيام بواجبه المقدس.

***

رمى «عبد الله» الإكليل أرضا، ثم توجه إلى المجلس بخطى ثابتة. تبعه أخوه «إبراهيم» ووالده. التقط «أشقيلولة» الجائزة من الأرض في ذات الوقت الذي كانت زوجته تطل برأسها من المطبخ بالجانب الآخر من الصحن. طمأنها بحركة من يده.

دخلوا إلى غرفة الجلوس، فبدا لهم الفتى جالسا على حافة أرضية الخشب.

ـ ما بك؟ هل سَكَنَك جِنِّي؟

ـ ما الجدوى في أن تفوز؟ ـ أجاب وهو يشير إلى التاج. ـ الكل يهتم فقط بآل نصر.

رمى الأب بالجائزة عبر الهواء نحو «عبد الله» فالتقطها في الحين.

ـ النصري هو ولد أختك رحمها الله، وهو أيضا عضو من أعضاء هذه الأسرة. ـ رد «أشقيلولة» على ابنه في قوة ولهجة حاسمة. ـ هل تعنيني أنا؟ أتعتقد حقا أني أعزه أكثر مما أعزكما؟ هو حفيدي، في حين أنتما وَلَدَايَّ اللذان سترثانني. لا أريد أن أسمع من جديد مثل هذا الكلام، نحن أسرة واحدة.

ـ أبتِ، نحن نعلم ذلك، لكن أخي «عبد الله» يعني أنك تعجب أحيانا بـ «محمد» أكثر منا ـ تدخل إبراهيم ـ أنا أيضا لاحظت ذلك.

ـ أنا مزهو بكم جميعا. يسرني أن أراكم، أنتم الأربعة، مواظبين وتتقدمون باستمرار في تداريبكم. مجتمعين قد تأتون بأمور مذهلة. لكن لا تَنْسَوا ما سأقوله لكم ـ اتكأ جانبا وقد ظهر عليه بعض الضيق، وبدا كما لو أنه يبحث عن كلماته ـ لن تكونا أبدا أقل من الآخَرين. ـ تحدث وهو ينظر إلى عيني «إبراهيم» مرة، وأخرى إلى عيني «عبد الله» ـ «محمد» يمكن أن يكون أفضل الفرسان، لكن بالرغم، من ذلك فإن أفضل المقاتلين يعملون عادة تحت سلطة القوي ذي الحَوْل والطَوْل. أما أنتما... أنتما فتملكان السلطة والقوة.

***

«أرجونة Arjona». يناير 1214

نزلت درجة الحرارة خلال الأيام الأخيرة، بغتة. وكانت الريح التي تهب في ذلك الصباح تزيد من

قوة الإحساس بالبرد. كان «هادي» ضمن الحراس الذين رافقوا «جابي المكوس». وكان القائد قد قام بجباية الخراج وتحصيل الأعشار قبل ذلك حينما قدر منذ نهاية ربيع السنة الماضية مقدار الغَلّة السنوية وما سيحصله من مال الضرائب والزكوات، ولما حل الصيف شرع في تحصيل العشر من القدر الذي كان واجبا على كل فلاح. علما أن السنة كانت قليلة الأمطار، والمال المَجْبِي لم يكن ليفي بمصاريف البلدة. إزاء هذه الصعوبات وبعد دراسة جميع الاختيارات أمام السلطة المحلية تقرر وضع ضريبة واحدة على الجميع حتى يمكن التغلب على قلة الموارد المسجلة إلى غاية السنة المقبلة. لم تكن هذه الضريبة شرعية وتناقض ما ورد في القرآن غير أن الظروف كانت تفرض جهدا إضافيا.

انتقل موكب الجابي، وكان أفراده يركبون الخيول، من شارع إلى آخر في «أرجونة» حتى وصلوا إلى مقربة «باب قرطبة». هناك، وفي البطحاء، التي تجاور الباب، كانت خيام السوق قد ضربت، وعدد النساء اللائي قَصَدْنَه للتبضع لم يكن قليلا. كان «هادي» يفسح الطريق للموكب، وهو في كامل عدته العسكرية بما في ذلك الدِّرْعُ، والخوذةُ العسكرية، وتُرْسٌ مُدور، وحَربة بعُروَتين. إضافة إلى سيف مثبت في الحزام العسكري الأخضر.

ولج الموكب الباب، ثم أخذ الطريق المؤدي إلى إحدى القرى. بعد فترة قطع خلالها الركب مسافة طويلة لحق بالموكب أحد الفرسان. كان أفريقيا غير لابس للدرع، وهو يعتمر عمامة لونها أزرق.

ـ عليكم بالعودة إلى القصر، هذا أمر من القائد.

ـ أعلم الفارسُ الجابيَ بصوت متقطع بفعل ما بذله من جهد للحاق بالموكب.

ـ ماذا حصل؟ ـ سأل الجابي.

ـ وصل حمام زاجل. توفي الخليفة بمراكش، رحمه الله وجعل مثواه الجنة. ـ نطق بالخبر دون أي انفعال أو موجدة. يريد القائد من جند الحامية أن يظلوا جميعا بـ «أرجونة».

كما كان ينتظر الجميع توفي «الناصر». وأخيرا سقط المهزوم في معركة العقاب، دون أن تعرف تفاصيل أخرى. كان لا بد من مرور بضعة أيام حتى يطلع الناس على أن أحد وزراء «الناصر» قد اغتاله بالسم، وخلفه في الحكم ولي عهده أبو يعقوب، الذي لم يكن قد أكمل بعدُ الخامسة عشرة من عمره.

عاد الجميع على عجل إلى القصبة. وعادة ما كانت فترات تغير الحكومات متشنجة مضطربة، وهو ما كان يفرض التأهب لمواجهة كل طارئ.

***

ضيعة الماء الحلو Cortijo del Agua Dulce (جنوب قشتالة). شتاء 1214

كانت شمس الأصيل قد رنقت حينما عادت «مارية» من العين وهي تحمل جرتين. تفقدت الحظائر، ثم بادرت إلى ملء مشارب الدجاج، قبل أن تتأهب لإعداد طعام العَشاء. كان خالها جالسا حول المائدة، ينظر إلى النار المنبعثة من المدفأة بعينين خابيتين، وهو يرتشف بين الفينة والأخرى

رشفات من كأس خمرة. كان الرجل قد عاد مرة أخرى إلى معاقرة المدام منذ أن توفيت زوجته، يفعل ذلك بعد أن ينهي عمله اليومي. وكان يسوء «مارية» أن تراه على هذه الحال، لأنه كان يبدو وقتها شخصا آخر، يسرح بنظراته عبر الفراغ، ويبدو عليه أنه يسافر عبر طرق معتمة. وفي مرات عديدة حينما تشعشع فيه الخمرة، ويَسْعَد بشربها، يشرع في الغناء، وربما كان يرقص أحيانا.

بدا في ذلك المساء هادئا مستكينا. لم تكن الخمرة قد فعلت فعلها بعد في عقله، كان مستغرقا في تفكيره، وهو يدير الكأس الطينية بيده على الطاولة.

- اجلسي. - قال للفتاة في لهجة آمرة، وهو يشير إلى كرسي.

- الوقت متأخر وعلي أن أحضر طعام العَشاء. - أجابت الفتاة.

أشار بيده كأنه يصفع بها في الهواء.

- تَخَلَّيْ عن ذلك، ولنتناول معا أي شيء، أريد أن أقضي وقتا قصيرا في هدوء مع قريبة المرحومة زوجتي.

أخذ الجرة وملأ كأسا ثانية كان قد أحضرها مسبقا، ووضعها بجانب كأسه. كم سنك الآن يا «مارية»؟

- أظن ثمانية عشر عاما.

- لقد أصبحت امرأة كاملة. - علق وهو يقدم لها كأسا من الخمرة. تناولته وهي مترددة وفي

حالة شك. ـ شاركيني ـ طلب منها ذلك وهو يعُب الخمرة في جوفه عبا.

جلست الفتاة وهي تصطنع ابتسامة، ثم احتست من كأسها جرعة صغيرة. غير أن «الخال» ما لبث أن حثها على احتساء المزيد بإشارة من يده، وهو يملأ لها الكأس من جديد. هنيهة رفع الرجل الجرة قبالة الفتاة.

ـ استنفدي، سأملأ لك الكأس.

شربت «مارية»، لكن النبيذ آلمها في حلقها، كان من النوع القوي المعتق، «وخال» الفتاة لم يمزجه بالماء. في الحال سرى مفعول الخمرة في الفتاة لعدم تعودها على تناول الشراب، ولفراغ معدتها، احمرت وجنتاها، وأصابها بعض الذهول، وبدأت تشعر ببعض الخدر يسري في جسمها. في ذات الحين كان الرجل لا يتوقف عن تعبئة الكأسين المرة تلو الأخرى حتى فرغت الجرة.

ـ إن الخمرة تسعد القلوب، وتنسي المغارم والأحزان. ـ تلفظ بالعبارة وهو يرفع كأسه.

على التو، وهي تسمع كلام الرجل ذكرت «ماريا» خالتها، وأبويها، فأحست لأول مرة بنَزْوةٍ للمزيد من شرب الخمر. هبط الليل، غير أن الحاجة إلى إشعال فانوس لم تكن ضرورية، فقد كان وهج النار يشع بضيائه على جميع جنبات المسكن.

أنهت «مارية» كأسها الأخير وهي تشعر بدوار شديد. كان الرجل يحدق فيها بعينيه المحمرتين، وهو يناولها الجرة الفارغة.

ـ مزيدا من المدام، يا «مارية» ـ طلب منها دون

أن يزيح بنظره عنها.

وقفت الفتاة وهي تترنح في غير ثبات، وسرعان ما زلّت بها قدمُها زلّا خفيفا غير أنها تمالكت، ولم تسقط، وتمكنت من الوصول إلى الخابية حيث يحتفظ «عمها» بالخمرة. انحنت وأخذت المغرفة لتملأ الجرة. في الآن ذاته لم تفطن للرجل ينهض من مقعده ويقف وراءها، فقط أحست بأنفاسه القوية والمضطربة لحظات قبل أن يضع إحدى يديه على كتفها. اعتدلت الفتاة، فسقطت المغرفة من يدها وأريقت الخمرة على الأرض. على التو أمسك «رامون» بخَصْرِ «مارية» بيد، ورفع بيده الأخرى رداءها الداخلي. صرخت الشابة، لكن بدا كأن الرجل لا يسمعها. جرها غصبا عنها إلى الطاولة ودفع بالفتاة تجاهها حتى اصطدمت بها منبطحة عليها. ظلت الفتاة مستكينة للحظة ثم انطلقت في نوبة بكاء محزن يثير الشفقة. أنزل الرجل سرواله وتبانه ثم اغتصبها من الوراء، زعقت «مارية» مذعورة... لكن بعد فوات الأوان. ولعل المراعاة الوحيدة التي صدرت عن الرجل تجاه المسكينة هو أنه خرج منها دون أن يصل قمةَ شهوته، فقد كانت ساقاه ترتعدان.

ظلت «مارية» مستلقية على المائدة في حالة سكون تام ولا تبدي أيَّ حركة. لم تعد تبكي، كانت غائبة، في حين كان خيطان رقيقان من الدم ينزلقان على ساقيها.

أخذ الرجل المغرفة من الأرض، وعبأ الجرة شرابا. ثم طفق يجرع الخمرة منها برشفات غليظة طويلة، وكأنه يريد أن يمحو الإثم بالخمر. وحينما

استنفد نصف القارورة، وضعها قريبا من رأس ماريا. ثم انسحب إلى غرفة نومه، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال، دون أن يتلفظ بكلمة.

فقط ظل الصمت مهيمنا. قامت الفتاة وهي ذاهلة بالكاد تدرك ما حولها. كانت تحس بوجع شديد يعصرها من الداخل. حاولت أن تجد تفسيرا لما حصل، لكنها كانت في غاية من الضِّيق والالتِباس. كان الفعل أمرا مضادا لطبيعة إتيان الأمور، ودار في خلدها أنها أصبحت ملعونة، وأن الرب سيتخلى عنها وسيتركها لمصيرها. أمسكت بالقارورة، وارتشفت منها رشفة قوية اختنقت على إثرها، فبصقت نصف ما شربته. وفي سورة من الغضب قذفت بالقنينة إلى الحائط.

- لماذا، رباه؟ لماذا؟ - خاطبت ربها وهي تنتحب في يأس.

ألقت بنفسها على الأرض المتسخة والملوثة بالأحمر، وهناك، وفي حِمَى الدفء المنبعث من الموقد، هزمها دبيب الشراب في عروقها، وتركها تنسى لسويعات عذاب مصابها.

***

أرجونة Arjona. ربيع 1214

وصل هادي إلى بيت «أشقيلولة» وهو متدثر ببرنوس من الصوف، ومعتمر قلنسوة من اللِّبَد. كان الشاب في عطلة، وقرر انتهاز الفرصة للقيام بزيارة لرب عمله القديم. استقبلته خادمة حديثة السن، أخذته إلى مجلس سيدها. كان النبلي، كما أصبح يعرف الآن في كل أرجاء البلدة، يقرأ

القرآن على مِقْرأة من الخشب غاية في التوشية والزخرف.

ـ تفضل أيها الصديق، وشاركني في مجلسي. ـ أشار «أشقيلولة»، الذي كان ينتظر تلك الزيارة منذ أيام، إلى مقعد خشبي قبالته. ماذا تريد تناوله؟

ـ لا شيء، شكرا، سيدي.

نظر إليه «أشقيلولة» نظرة المُؤَمِّل خيرا، وهو يترجى أن يشرع في الحديث.

ـ جاءت أخبار من المغرب. ـ قال أخيرا ـ وصل تاجر من مراكش هذا الأسبوع واجتمع بالقائد. سرت الشائعات بأن الخليفة مات مسموما ـ أعطى هادي لصوته نبرة فخيمة لم تكن معهودة فيه من قبل.

ـ أظن أننا جميعا كنا نخمِّن ذلك.

أحسَّ «هادي» بخيبة أمل على ردة فعل مخاطبه.

ـ الظاهر أن صاحب الفعلة هو أحد وزرائه. والخليفة الجديد ما زال طفلا، والحكام الحقيقيون للإمبراطورية هم أعمامه وشيوخ الموحدين بـ «مراكش». ـ بدت علامات الاهتمام على «أشقيلولة»، وهو ما لم يفت «هادي». ـ ومن ثمة أصبح «أبو يعقوب الثاني» ألعوبةً في أيديهم. ـ قال «هادي» وهو يُنَمْنِمُ كلامَه.

ـ هل لديك أسماؤهم؟ وهل هم يدٌ واحدة على غيرهم؟

ـ نفى «هادي» بحركة من رأسه. ثم استمر في الحديث وقد بدا أكثر نشاطا.

ـ إن الوضعية بالمغرب ليست على ما يرام. وهناك قبائل لا تقبل بالموحدين شرعت في التحرك. ربما هذا وقت مناسب للخروج وإعلان الثورة.

ـ فعلا، إنه الوقت المناسب. ـ صادَقَ النِّبْلِيُّ على كلام «هادي».

ـ يبدو الأمر كذلك. هناك ثلاث قبائل يتطلع إليها الموحدون بحذر: الزيانيون، والحفصيون، والزناتيون المرينيون.

ـ وهل أعلنوا الثورة؟

ـ لا، فقط يتحدث الناس عن أن علاقاتهم بالموحدين ليست على ما يرام.

ـ وهل بينهم مهدي جديد؟

ـ حسب علمي، لا.

ـ أمر جيد، لا أريد أن أسمع عن أنبياء جدد مرة أخرى.

كانت حركتا المرابطين والموحدين قد قامتا على يد زعيمين روحيين أشهر كل منهما رؤية جديدة للإسلام. لكن الثوار الأفارقة الناشئين لم يكونوا يتطلعون إلى تنصيب أنفسهم أئمة جددا على شعوبهم.

ظل «أشقيلولة» فترة مستغرقا في التفكير. بينما عدل «هادي» من مجلسه.

ـ جيد، جيد جدا ـ علّق «النبلي» على كلام «هادي». وكان الشاب منذ أن طلب منه «أشقيلولة» أن يطلعه باستمرار على مستجدات

الأحداث، قد اجتهد في تتبع الأخبار التي كانت تَرِدُ على قصر السلطة المحلية. تبسم النبلي ثم توجه بسؤال غير متوقع لـ «هادي»:

ـ هل فكرت في الزواج؟ ـ كان «النبلي» مسرورا بمُبلِّغِهِ، وارتأى أن الوقت قد حان لإرضائه أكثر.

ـ لم يكن لدي متسع كافٍ من الوقت للتفكير في ذلك.

ـ لو انتظرت أكثر، ربما سيتجاوزك السن.

صفق بيديه مرتين، وفي الحين برزت جاريةٌ لمَّا تَبْلُغِ الْعِشرين. كان النقيب يرقب «هادي» حينما كانت الفتاة تقترب منهما.

ـ ناوليني بعض التمْر والحليب. ـ قال لها «أشقيلولة» قبل أن يشير عليها بالانصراف.

ـ اترك مسألة زفافك بين يدي. بعد قليل سيتزوج ولدَي. كما تعلم إن المسلم الجيد هو من يتزوج، ويعقب أبناء يجعل بهم المسلمين أكثر نفيرا.

لم يجد الشاب كلماتٍ ليجيب «أشقيلولة».

ـ هل راقتك؟ سأل النقيب «هادي» وهو يشير برأسه إلى الباب الذي خرجت منه الفتاة.

كان الجياني قد تطلع إلى الجارية. كان وجهها مكشوفا، واستطاع أن يلمح ملامحها الدقيقة وعينيها الدعجاوين. شعر الشاب بالسعادة والإطراء. فبالرغم من أن الفتاة جارية إلا أنها كانت في ملك السيد «أشقيلولة».

ـ أجل، إنها جميلة.

في تلك اللحظة دخلت الفتاة الغرفة وهي

تحمل صينية.

- إنها لك. - قال «أشقيلولة» - ابنة جليقيين، تربت في الأندلس، وهذبت على الدين الحنيف.

***

كان «إبراهيم» و«إسماعيل» واقفين على جانبي «أشقيلولة»، بينما كان «محمد» و«عبد الله» يتبارزان بسيفين وترسين دائريين. كان كل من المتبارزين يرقب غريمه، وهما يقومان بحركات رشيقة خفيفة، يقدران بها المسافة بينهما، ويقرأ كل منهما تموضع غريمه.

- هيا يا «نصري»، اهجم.

لم يستجب «محمد» للدعوة، فبادر «عبد الله» بالهجوم. اندفع في اتجاهه ووجه ضربة بالسيف نحو معدته. كان ابن الأحمر في كامل تركيزه، فتنحّى برشاقةٍ وخفّةٍ، ودفع للتو بترسه «عبد الله» من المنكب وأسقطه أرضا. وبينما كان يتهيأ للانقضاض على غريمه لانهاء المبارزة، برزت فجأة ابنة عمه «فرح» رُفقة زوج من صويحباتها. لم يملك الفتى نفسه، وظل يحدق هنيهة ذاهلا في الفتاة، وخفقان قلبه يزداد خفة. على الإثر تنبهت الفتيات للأمر، فحجبن أوجهَهن باللثام المعلق على صدورهن، ثم أطلقن سريعا بعض الضحكات.

أحس «محمد» بألم مبرح في جهة كبده، فانحنى منكفئا على ذاته، ثم فقد توازنه وسقط إلى الوراء. كان «عبد الله» قد ركله برفسة من رجله أسقطته أرضا. حينها وقف «أشقيلولة» الصغير، وارتمى على «النصري» وتظاهر بأنه يجهز

عليه.

كانت الفتيات يحملن سلالا وهن في طريقهن إلى المنية لجني الباكور من بستان «أشقيلولة» الشهير بأشجار التين الجيد. أزاح «محمد» عن نفسه السيف، ثم نهض وهو ما زال يتوجع من فعل الضربة.

- لماذا فعلت ذلك؟ كنت قد هزمتك. واجه «محمد» «عبد الله».

أسرعت الفتيات الخطى وهن يرين اقتراب الفتيين الواحد من الآخر، على الإثر جرى النبلي للتفريق بينهما ثم أمسك بـ «محمد» من إحدى كتفيه ولطمه بصفعة قوية.

- لم تهزمه! لأنك لم تجهز عليه! لو كان حدث لك ذلك في الواقع لكنت في عداد القتلى، بينما هو على قيد الحياة. كان يشير إليهما حسب الدور وهو يتحدث. لن أقبل منكما شرودا ولا ذهولا. هنا تتعلمون كيفية الدفاع عن النفس، هذا ليس لعبة.

صبر «ابن الأحمر» على ما تلقاه من توبيخ بجلد ومروءة. بالرغم من أن دمعة لا إرادية انزلقت على وجنته اليسرى المحمرة جراء اللطمة. وقف «عبد الله» بجانب أخيه «إبراهيم» ثم وكزه بمرفقه تواطؤاً وهما يبتسمان.

وعندما هدأت الأمور، تواجه «إسماعيل» و«إبراهيم» بمقمعتين فليلتين خاصتين بالتداريب، وترسين. قبل ذلك عرض «أشقيلولة» على الشابين مِقمَعة ذات رأس معدني.

ـ إن هذا السلاح فعال جدا. يمكن أن يمزق أيَّ عَظْمٍ بسهولة. بالإمكان أن تهاجموا بها رأسا معتمرا خوذة، أو صدراً محميا بدرع، أو كتفاً مغطاة بزرد، إن الإصابة بها في أي مكان في الجسم تمزقه وتكسره.

شرع الفتيان في المبارزة بينما كان النبلي يقدم لهما بين الفينة والأخرى نصائح حول كيفية استعمال المقامع في المعارك. وحينما انتهت المبارزة جمع الفتيان آلات التدريب، ثم طلب منهم المدرب أن يتحلقوا حوله. أخذ عصا وشرع في رسم صويرات على الأرض.

ـ درس في التخطيط العسكري. هذه هي الهضبة التي نزلت بها محلة المسلمين. ـ رسم دائرة حول الموقع. ـ هنا كان حصن الأرك، بينما تموقع الجيش النصراني في رابية أخرى. وهاذان هما جناحا فرقة الخيالة الخفيفة، وهنا في الساقة كانت فرقة الاحتياط ومحلة المنصور. ـ كان يشير بالعصا إلى كل نقطة ـ بدأت فرقة خيالة المسيحيين الثقيلة بالهجوم على قلب جيشنا، واجتاحت عددا من الصفوف. ـ هنا توقف ـ ثم عاود الحديث بعد لحظة ـ تذكروا الدروس، كيف تعالجون هذه الوضعية العسكرية؟

ـ تأمّل الفتيان الأربعة الصورَ على الأرض وهم يتصورون كيفية انتشار الفرق العسكرية.

ـ تُسْنِدُ فرقُ الاحتياط مقدمة الجيش من الوراء، في حين يهاجم جناحا الخيالة رابية الأرك. ـ تدخل «إسماعيل».

نفى أشقيلولة بحركة بطيئة من رأسه.

ـ افتراضك يمكن أن يكون إيجابيا، لكنه يعتمد على الحظ.

ـ ينقض الجناحان في القوات الإسلامية على فرقة الخيالة الثقيلة وتدمرها. ثم تشدد على من في الرابية، مع الإبقاء على مسافة أمان ـ اقترح «محمد».

ـ صحيح! وهذا ما وقع في الواقع. لا تَنْسَوا دروس القدماء، فرق تسد. ـ خط «أشقيلولة» خطا بين فرقة الفرسان الثقيلة، وبين باقي الجيش المسيحي. ـ بذلك تكون لدينا فرصة لجمع ما تفرق من قواتنا، وتدمير فرقة خيالتهم.

ـ أين كنت أنت يا أبي؟ ـ سأل «إبراهيم».

ـ بالضبط هنا. في الجناح الأيمن.

أشرقت عينا النبلي حينما تذكر المعركة. ذكر تلك السنوات مشتاقا للإثارة التي يحدثها القتال، والشعور بالقوة الذي يغمر المرء حينما يمسك بالسلاح ليقتل عدوا. كان قد مر على ذلك زمن طويل، وجرحه لم يكن خطيرا لحد أن يصبح عاجزا أو كسيحا، غير أنه لم يسمح له بالعودة إلى ساحة الوغى. كان عمره الآن خمسة وخمسين عاما.

ـ ها أنتم الآن مقاتلون جيدون، لكني أنتظر منكم المزيد. ـ أشار إلى ولديه ـ أنتما احملا عُدة التدريب إلى المنية. حسبنا اليوم. ـ اقترب من «محمد» ـ تعجبك إذن؟ ـ قطّب «محمد» حاجبيه، كما لو أنه لم يدرك شيئا. ـ أنت محظوظ.

- لماذا؟ - أجاب «محمد» وقد استسلم لمقصد جده.

- بلغت فرح السادسة عشرة من عمرها، ألا تستغرب أنها لم تتزوج بعد؟ - كان «محمد» يصغي لجده بانتباه، وبدأ يحس باختلاج يصعد من معدته إلى صدره. - لست مغفلا... توكل يا زغلول، إنها مقدرة لك. - همس الجد في أذن الحفيد. ثم اعتلى متن فرسه وسار نحو «أرجونة».

لم يعد «محمد» يحس بألم الصفعة. فقد سكنت «فرح» روحَه بقوة. ولطالما كان يتفاجأ من نفسه، حينما يكتشف إدمانه على التفكير فيها. كان يحلم بلقاءات خفية بها، وكيف أنه يسرق منها قبلة أو قبلتين، أو يسرح به الخيال فيتخيل تعاريج جسمها وهي بالكاد ترتسم من تحت الجلابيب أو البرانيس.

كانت كلمات جده قد ملأت قلبه نورا وآمالا، غير أن تفكيرا واحدا كان يعكر عليه غبطته وسعادته ألا وهو أن لا تكون «فرح» ترضاه وتحبه، لكنه سرعان ما كان ينفي عنه هذا الكابوس، ويستسلم بطمأنينة إلى حلمه بأن تكون يوما ما بين أحضانه.

- ما بك يا أخي؟

سأل «إسماعيل» أخاه وقد لاحظ شروده. لم يجب «محمد» أول الأمر، بل أمسك بأخيه من كتفيه، وسار به في اتجاه العقبات التي توصل إلى «أرجونة». حينها أجاب:

- لا شيء، فقط أفكر في أن الله تعالى يصفعنا

أحيانا ليهدي لنا بعد ذلك كعكة حلوى.

وصل الأخوان إلى بستان والدهما. ثم بادرا إلى مساعدته في حمل عدد من القُفَف المحملة بالخضر، ثم عادا معه إلى القصبة.

ـ كيف تم الحصاد اليوم؟ ـ كان «يوسف» قد أناب عنه ولداه للقيام بالمهمة حتى يعتني هو جيدا بالبستان والبئر ـ هل الفرقة جيدة؟

ـ تقدمنا كثيرا ـ شرح «إسماعيل» لأبيه. ـ رجال «أندوجر» يحسنون استخدام المنجل. ورجال «أرجونة» ينافسونهم والكل يريد أن يبرز حذاقته. أما «حسن» فتحسن كثيرا في أدائه ـ كان «حسن» هذا صديقا مقربا للنصريين، ويشتغل معهم. أعتقد أننا لسنا في حاجة إلى مساعدة عاملات الحصاد، لأنه لم يتبقَ من الحصاد إلا القليل.

ـ حسنا، هذا يثلج الصدر، قريبا ستجدنا نحرق حشفات الزرع وجذاماته.

وفي البلدة ساق يوسف ولديه إلى تاجر يسكن بيتا مهجورا بحي اليهود. فطفق يتفاوض معه حول بيع بعض غلات الخضر، ثم عاد الجميع إلى بيت الأسرة حيث استقبلتهم «كريمة» شاكية. كانت تمسك بثلاثة أحجار. ألقى بها بعض أطفال الحي من وراء السياج. وهو ما أسخط المرأة، وجعلها غاضبة من هذا السلوك، فلم تتوقف عن ذكر التقدير الذي كان يكنه الصبيان للكبار في زمن طفولتها.

ـ لم يعد هناك حياء، لقد تخلوا عن الحشمة

والأدب... ـ كانت تدمدم متأففة وهي في طريقها إلى المطبخ لتقدم الطعام.

سار «إسماعيل» في إثرها ليساعدها على حمل القصعات والأكواب. كانت «كريمة» في حوالي الأربعين من عمرها، غير أن مظهرها كان يوحي بأكثر من سنها. لم يكن العمل المتواصل ليسمح لها بالاعتناء بنفسها، وقد تحولت هذه المرأة بإخلاصها وتفانيها في الخدمة إلى دعامة للأسرة.

تطهّر «محمد» ووالده باستعمال ماء الخابية الموجودة بالصحن.

ـ أبي ـ قال الشاب ـ ذكر لي الجد أن ابنة عمي «فرح» كنتم قد عينتموها لي منذ الولادة لتكون زوجة لي.

ارتاع «يوسف» ودقق النظر في عيني الشاب، ثم أخذ في تنشيف صدره بقطعة قماش بيضاء.

ـ وأنت ما رأيك؟

ـ إذا كنتم قد قررتم ذلك، فسأتزوجها.

كان «ابن الأحمر» يحاول أن يخفي مشاعره، غير أن والده الأريب لمح أمارة رغبة في عيني ابنه لم يتمكن الشاب من إخفائها.

ـ ما زال الوقت مبكرا. سنقيم حفل الزفاف بعد سنتين. علينا أن نوفر مقدار الصداق، فالفتاة تنتمي لأسرة عريقة... ـ لم يجرؤ «محمد» على معارضة والده، ولاذ بالصمت لكنه رأى أن سنتين مدة طويلة.

اغتسل «محمد» للتو، وترك النصف الأعلى من قميصه ساقطا على خصره. راح أبوه يمعن النظر فيه. كان «محمد» قد ورث اخضرار عينيه من آل نصر، وكانت هذه الخاصية متوارثة بينهم، في حين ورث عن أمه اللون الأبيض، وشامة في الجهة اليمنى من عنقه. كان الشاب متين البنية، قوي العزم، في عز النشاط والحيوية، وقد ساعده على الحفاظ على قوته ميلُه إلى التقشف والزهد. ولم يكن «يوسف» متعودا على التفكير في مثل هذه الأمور المتعلقة بولديه. لكنه الآن وهو يستحضر حضورهما البهي وقد أصبحا رجلين قويين ومهذبين غمرته مسحةٌ من الكبرياء والفخر.

وضع يده اليمنى على منكب «محمد» وقال:

- يمكنني الاعتماد على دعمك لإقامة الزفاف. أليس كذلك يا قليل الأدب؟

على التو ضج الأب والابن بالضحك حتى سمعت قهقهاتهما في أرجاء البيت.

كان «فرج» أول من أطل من مخزن الحبوب في الطابق الأعلى، وفي الحال التحق بهما في الصحن. ومن هناك قصدوا المجلس جميعا، حيث كان «إسماعيل» قد شرع في قرص الخبز الساخن الطري.

***

دير القديسة «ماريا لا ريال دي لاس ويلگاس» Monasterio de Santa María la Real de las «Huelgas

برغش Burgos نوفمبر 1214

كان العمال منهمكين في تبليط الطريق المؤدي إلى دير «لاس ويلگاس»، كانوا يذهبون ويجيئون محملين بقطع الحجارة دون انقطاع. والأشغال تتقدم على منوال حسن، وهو ما ينبئ بأن الورشة ستنتهي قريبا، وسيصبح الدَّير بذلك جاهزا. وكانت «بيرنجيلا» قد قررت بعد وفاة والدتها تفقّد الأشغال في الورشة، والوقوف على مدى التقدم في بناء الدير.

على الرحبة المجاورة جلس ثلاثة من الصناع المسلمين [وهم مهرة في الحرف والصنائع] آخذين في خلط الأصباغ لتلوين النقوشات الجصية على الجدران. وكانت الملكة «ليونور» [والدة «برنگيلا» وزوجة ألفونسو الثامن] قد أرسلت قبل وفاتها في طلب هؤلاء الصناع من طليطلة للعمل في مشروعها الكبير، الدير السِّيسْتِرْسِي للراهبات الذي تحول إلى الضريح الذي يأوي قبرها وقبر زوجها ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وهازم الموحدين في معركة «العِقاب».

بدا على «برنگيلا» بعضُ الهزال، وحفّت بعينيها هالتان مُزْرَقتان.

ـ آه، يا أيتها المَنُون، رفيقة السفر الدائمة ـ فكرتْ بصوت مسموع ثم تنهّدت وهي تسوق ولديها ألفونسو وفرناندو من يديهما.

لم تكن الأميرة «برنگيلا» قد أكملت الخامسة والثلاثين من عمرها، غير أن ما تكالب عليها من نوائب الزمن، وتقلباته، جعل مظهرها يبدو أكثر

من سنها الحقيقي. كان أول لقاء عصيب لها مع الموت حدث وهي لم تكمل بعد الثالثة والعشرين ربيعا، حينما فقدت ابنتها الصغيرة «ليونور». لم تنس ما نسيَتْ صورة ابتسامة الطفلة، حتى أنها اعتقدت عندما كانوا يدفنونها أنها تسمع رنة ضحكتها الصغيرة وهي تتردد بين أعمدة الكنيسة. ولم تكن صورة الطفلة وهي تُوارى الثرى لتغيب عن «برنكيلا» كلما حضرت مأتما، كانت تحضرها ابتسامتها الملائكية، وتتردد في أسماعها صدى ضحكتها البريئة كما لو أن ذلك تذكير فظيع بقصر هذه الحياة وزوالها.

بعد عشرة أعوام تقريبا، في سنة 1211، فقدت الأميرة أخاها «فرناندو»، الذي كان مرشحا لوراثة عرش قشتالة. ولكم كان تأثير هذه الوفاة عميقا في الأميرة، فقد مات أخوها وهو في ريعان الشباب، وافتقدت بموته أخا قريبا إلى قلبها توثره على غيره. والآن، وفي مدة قصيرة لم تتجاوز الشهر فقدت أباها ملك «قشتالة» «ألفونسو الثامن»، وبعده بأسابيع قليلة توفيت أمها الملكة «ليونور» أرملة ألفونسو. لقد رجت المنية العائلة الملكية رجا، وكدَّرت بِسُمِّهِا بلاط قشتالة، فغدا يضطرم أمام ما تخبئه له الأيام من نذر الشر. كان الأمير «إنريكي»، أخو «برنكيلا»، قد خلف أباه «ألفونسو الثامن» على العرش، غير أنه لم يكن أكثر من صبي في العاشرة من عمره، وبذلك كان عرضةً لكل التأثيرات. في البداية عادت الوصاية إلى أمها «ليونور دي پلانطاجينيت»، والآن، وقد توفيت أيضا الملكة الأم، عادت

الوصاية إلى الأميرة «برنگيلا».

ـ كيف حالك يا أمي؟ ـ سأل «فرناندو» والدته.

كان الأمير الفتى «فرناندو» دائم الاهتمام بأحوال أمه، كثير السؤال عن راحتها.

ـ بخير يا بني. لن يزول الشجن سريعا، لكن عزاءنا هو أن الفقيدين في ضيافة الرب، ويتمتعان بحياة أفضل.

ـ لقد كانت جنازة عظيمة ـ علق «ألفونسو» [ابنها الآخر]، وهو يحاول أن يخفف عنها.

ـ أجل يا «ألفونسو» ـ أجابت وهي تمرر يدها على رأسه. ـ حضر جميع النبلاء وأقطاب المملكة. كانت جدتك محبوبة ومحترمة لدى الجميع.

ـ وماذا سيكون الآن من أمر «إنريكي»؟ ـ ألقى «ألفونسو» بالسؤال دون لف أو دوران.

انتقت الأميرة مكانا منزويا بأحد أجنحة الرواق، وشرعت تشرح لولديها الوضع الجديد.

ـ كما تعلمان يلزم «إنريكي» وصيٌّ إلى أن يبلغ سن الرشد، ويستطيعَ أخذ القرارات دون مساعدة من أحد. وكانت الملكة «ليونور» هي الوصية عليه، والآن وقد قضى الرب بأن تفارقنا، عادت الوصاية إليَّ، باعتباري الأخت الكبرى للملك.

فتح الولدان عينيهما بدهشة.

ـ أنت ستُصبحين الوصية ـ علق «فرناندو» في اندهاش.

ـ وما مهمة «الوصية» بالتحديد؟ ـ سأل

ألفونسو.

ـ تحكُمُ «الوصيةُ» باسم الملك، وتقومُ بكل مَهامه إلى أن يُصبح قادرا على توَلّي مقاليدَ الحُكم. ـ كان «فرنادو» هو من أجاب عن سؤال أخيه.

صادقت الأم على إجابة ابنها بكبرياء. كان «فرناندو» يتعلم سريعا.

ـ مضبوط، «الوصية» هي التي تحكم.

ـ بمعنى أن موت الملكة «ليونور» حولتك إلى حاكمة قشتالة... ـ أردف «ألفونسو» وقد أدرك جيدا حجم الخبر.

ـ أجل يا بُني، إن الموت قد غير أقدارنا. دائما الموت... هذا الموت الذي يأتينا دائما. ـ وبدا كأن «برنكيلا» أخذت تهذي تحت تأثير الألم. ـ إنها المِسْوَاةُ التي تسوي بين الجميع. هناك وفيات تأتي سريعا، وأخرى تتأخر طويلا. إن الرب وحده هو الذي يبُتُّ في أمرها، ويعرف القَدَر الذي يسير عليه العالم.

ظهرت على «فرناندو» أمارات تفكير. كان يجول بخاطره أمر ما خلال الأسابيع الأخيرة. أخيرا عزم على الكلام.

ـ وهل موت الأمير ولي العهد قد أراده الرب أيضا؟

عرفت «برنكيلا» ما يريد قوله. ذلك أنه في شهر غشت الماضي كان قد وصل الخبر بموت الأمير «فرناندو بن ألفونسو التاسع» ملك «ليون» من

زوجته «تيريزا البرتغالية». وهو الفتى الذي كان قد أزاح «فرناندو القشتالي» عن ولاية العهد. وكانت «برنگيلا» قد أوَّلت هذه الوفاة باعتبارها علامةً ربانيةً أعادت المصداقية لنظام الوراثة الذي كان «ألفونسو التاسع» نفسه قد قرره بشأن ولاية العهد. والحقيقة أن «برنگيلا» كانت قد تلقت الخبر في سرها بارتياح كبير.

- أجل، إن الرب قد قدَّر تلك الوفاة في حق «فرناندو» ولد «تيريزا» - أجابت «برنگيلا» وقد عزمت على عدم المضي في هذا الحديث. - لنذهب إلى الرواق الصغير، بودي أن أصلي لأجل جدكما قبل العودة إلى «برغش».

في مصلى صغير بأحد الأروقة رقد الملك «ألفونسو الثامن» في قبره، جثت المرأة بجانب القبر، وهمست ببعض الأدعية وابناها يقلدانها.

- هنا يرقد فخر «قشتالة» - قالت الأميرة بعد أن أنهت صلاتها. - دون شك سيكون قد لقي في السماء صديقه الملك «بيدرو» [الثاني ملك أراغون، وقائد الجناح الأيسر للجيش المسيحي في معركة العقاب]. وتحدثا عن معركة «ناباس دي طولوسا» وكيف أنهما هاجما معا «الموروس». كانت تتحدث وهي تغالب ابتسامة ارتسمت على شفتيها.

كان «بيدرو [بطرس] الثاني ملك «أراغون» الدعامة الرئيسية لـ «قشتالة» في معركة « ناباس دي طولوسا». وكان قد توفي منذ حوالي سنة، في عز دفاعه عن رعاياه من الهرطوقيين الكاثاريين في منطقة «لانجيدوك»، ضد الحرب الصليبية التي كان البابا قد أعلنها ضد هؤلاء.

وبعد وفاة «بيدرو الثاني» هذا، بقي الأمير «خايمي»، وهو الآن ملك «أراغون»، بقي تحت وصاية زعيم الصليبيين. ولم يطلق سراح الأمير، ولماً يبلغ سن الرشد بعد، إلا بعد تدخل البابا «إينوسانت الثالث» حيث أعيد إلى «أراغون». وفي مقابل هذه المساعدة التي قدمها البابا فَرَضَ شرطا وهو أن تصبح الأراضي الواقعة خلف جبال «البيرينيه» تابعة لملك فرنسا. وبذلك بدا أن مسألة تعويض «أراغون» للأراضي التي فقدتها لصالح فرنسا بالتوسع نحو الجنوب، نحو بلنسية، ما هي إلا مسألة وقت.

ـ ما أعظمهما من ملكين فقدناهما! ـ قالت برنگيلا وهي تحت وقع سورة من الانفعال.

من الخارج كانت تصل أصوات الحاضرين في المأتم، وهم يستعدون للانصراف. كان القُدَّاسُ قد انتهى منذ ساعات، غير أن النبلاء كانوا متحلقين أمام باب الكنيسة، وهم يخوضون في أحاديث لا تنتهي.

أمسكت الأميرة بيدي ولديها من جديد، وسار الجميع عبر العنبر الرئيس من الكنيسة التي أصبحت فارغة من الحاضرين، ثم دلفت الأميرة وابناها إلى الساحة المجاورة للمدخل، وكان بعض الأقطاب ما زالوا مستمرين في أحاديثهم. كان موكب «برنگيلا» ينتظر حذاء الجدار الخارجي حينما مر قريبا من الأميرة «ألبارو نونييث دي لارا» أعظم نبلاء «قشتالة»، ومستشار الملك، وحامل لوائه، دون أن يحييها ولو بكلمة. لكن المرأة رفعت رأسها وتقدمت باتزان وثبات في اتجاه موكبها.

«لن يكون الأمر سهلا» قالت لنفسها.

***

**«أرجونة» Arjona. ديسمبر 1214**

بَرَزَتِ الخطيبة للمدعوين من كلتا العائلتين. كانت تلبس لباسا من حرير مطرز بخيوط ذهبية، وتتزين بِحُلِيٍّ أبرزها سواران من ذهب قدمهما لها الخطيب كمقدم صداق. بعد لحظة انسحبت الفتاة من مجلس «أشقيلولة» نحو غرفة النساء، لتترك المجال للرجال ليتمتعوا بالوليمة.

وضع ثلاثة من الخدم مجمرات بالغرفة سرعان ما أثارت الدفء في المكان. كان «عبد الله بن أشقيلولة» يفضل أن يتزوج في فصل أكثر حماوة، لكن أباه عمل برأي أشهر منجم بـ «أرجونة». كان المنجم قد أعلم «النبلي» أن كاشف الطوالع يشير إلى يومين خلال الشهر الجاري سَمْتُهُما في غاية السعد وحسن الطالع. كان «إبراهيم» قد تزوج في اليوم الأول من اليومين السعيدين، والآن يقيم أخوه حفلة زفافه في اليوم الثاني من يومي السعد. وكلا العريسين تزوج من قريبة، إذ كان الصهران ابني عم «أشقيلولة»، ولم يكن غيرهما في الأسرة الكبيرة لديه بنتان في سن الزواج. كانت زوجة «إبراهيم» في سن السادسة عشرة، في حين كانت زوجة أخيه «عبد الله» قد أكملت للتو الخامسة عشرة.

كان الخدم قد عادوا إلى القاعة لمد السّماط، وملء الفوانيس بالزيت، دون أن يَنْسَوا وضع إناءين من العطر في كُوَّتَي مدخل القاعة. كما

لم يَفُتْهم الاعتناءُ بالبُسُط الجميلة ذات الألوان الزاهية التي فرشت بها أرضية القاعة بالكامل، بما في ذلك الزرابي، التي كست الجدران وزادت من بهاء المكان.

اختلس «عبد الله» لحظة تمكن خلالها من التملص من المدعوين الذين كانوا يضايقونه بالمجاملات، وكثرة الدعوات الصالحة، واقترب من أخيه.

ـ أخي كيف الحال؟ ـ سأله وهو ينخسه بمرفقه في الجنب حتى يفهم السؤال جيدا.

أشرق محيا «إبراهيم» بابتسامة منفرجة، ثم بادر بالجواب هامسا في أذن أخيه:

ـ إنه ألذ بعشرات المرات من... غير أنه يصعب شرحه وتفسيره.

ـ على مهلك، يا «إبراهيم»، نحن أيضا نريد أن نسمع ـ انضاف «محمد» و«إسماعيل» إلى الأخوين.

ـ شيء رائع، ولذيذ، وقمة النشوة العارمة ـ كان «إبراهيم» يستخدم العبارات التي قرأها في النصوص الشعرية القديمة عن الحب، بينما كان السامعون الثلاثة يصغون في حسد.

ـ وكيف يُؤتى هذا الأمر؟ ـ سأل «عبد الله» «إبراهيم» دون تحفظ، وهو يحس أنه مقبل بعد قليل على تدشين تجربته، ويرغب في أن يذهب إلى الموعد مسلحا بكل المعطيات الممكنة.

ـ لا تتسرع، لن يفوتك ذلك. هي مسألة مفتاح

وقفل، أنت تملك مفتاحا وأمامك قفل، ما عليك سوى أن تضع المفتاح في القفل. المشكل أن القفل يستعصي على المفتاح، وقتها ما عليك سوى أن تكون ملحاحا، وتصر على وضع المفتاح في القفل المرة والمرات - كان «إبراهيم» يتحدث وهو يحرك وَركَيه إلى أمام وخلف.

ضحك الجميع. وبدا «إبراهيم» في قمة السعادة. كان محظوظا لأن زوجته جميلة وغاية في التربية والتهذيب.

في تلك اللحظة دخلت الخادمات بصحون مليئة بلحم الخراف، وسرعان ما سمعت نمنمة إعجاب بين الرجال. وراء الخادمات دخلت طائفة من نساء العريس وهن يحملن صحونا مليئة بطبيخ لحم الضأن المنقوع في الخل والغارق في الصلصلة. وبالرغم من أن اللثام كان يغطي وجه فرح إلا أن «محمدا» تمكن من التعرف عليها. وسرعان ما خفق قلبه وهو يتتبعها بنظراته... غير أنها ضاعت منه بعد قليل بين المدعوين. وضعت الفتاة الصحن على الموائد واستدارت للعودة إلى المطبخ. رمقها ابن الأحمر، اعتذر، ثم خرج سريعا من القاعة يتعقبها، أخيرا تمكن من اللحاق بها في الفناء.

- انتظريني هذه الليلة، سأزورك. - بادرها بالكلام في حالة انخطاف. كان يريد أن يتأكد من حبها له قبل الإقبال على الزواج منها. سافر الشاب لحظات في عيني حبيبته السوداوين كأنهما غابتا نخيل وقت السحر(7) في حين كانت هي تتطلع إليه بابتسامة من وراء اللثام، عرف ذلك من نظرتها.

ـ «محمد»! ـ سمع صوت «كريمة» الحازم يأتي من الجهة الأخرى من الفناء. اترك عنك الفتاة، وأنتِ اذهبي لشأنك!

أكملت «فرح» طريقها نحو المطبخ، في حين عاد «ابن الأحمر» إلى القاعة الكبرى.

كان «أشقيلولة» في غاية الفرح، وسِماطُه المُمَدَّدُ على المَصطبة الخشبية يهيمن على كل المجلس. كان على يمينه ابن عمه، والد العروس، وعلى يساره «يوسف» والد أحفاده المفضلين.

ـ قيل لي إن الأمور عندك تسير حسب ما تشتهي. ـ خاطب «أشقيلولة» «ابن نصر»، في اللحظة ذاتها دخلت القينة التي تعاقد معها «أشقيلولة». كانت برفقة امرأة تعزف على العود، وشاب ينقر على الطبل. بعد قليل شرعوا في تقديم وصلات من الموسيقى، بينما كان الرجال يشاركونهم الغناء بالتصفيق على الأكف.

ـ ليست بالسيئة ـ أجاب يوسف مبتهجا وهو ينتف بعض الشعيرات من لحيته المقصوصة بعناية، والمخضبة بالحناء. ـ كان المحصول وفيرا على غير ما كنا ننتظر. ومردود بستان البئر جيد يتحسن باستمرار.

ـ السنوات العجاف عادة ما تليها السنوات السمان، وهو ما يُسر له المرء. ثم إن الحدود هادئة بعدما أمضت في الصيف سفارة قشتالية اتفاقات هدنة مع الموحدين... قشتالة تعيش وضعا غير مستقر منذ وفاة «ألفونسو الثامن».

ـ تحت ناظري الآن حصانان ـ قال «يوسف» فجأة.

ـ كم عمرهما؟ ـ سأل أشقيلولة.

ـ ست وسبع سنوات.

ـ كنت أخمِّن ذلك! أنت شخص عنيد. كنت قد نصحتك بشراء الأمهار. ما أشبهك بالنصارى. فهم لا يريدون أحصنتهم سوى لامتطائها. ـ حاول أن يتصنع تكشيرة غضب غير أنه لم يفلح ـ وماذا عن ترويضهما هل كان جيدا؟ ـ سأل النبلي.

ـ جاء بهما كساب من «إشبيلية». قال إنهما من «قَبْطيل»، ويستجيبان بشكل جيد.

تطلع إليه «أشقيلولة» في اندهاش.

ـ إذا كانا من «جزيرة قبطيل»، إذن لا داعي للقلق. ـ كانت «جزيرة قبطيل» [Isla Menor] مشهورة بين الأندلسيين بتربية الخيول. وكان سكانها من أعقاب «النورمان» الذين نهبوا «إشبيلية» في قرون ماضية. ـ لا حاجة إلى تذكيرك بأني سأتكلف بأمر الحظيرة والسرجين. ـ أضاف.

على إثر ذلك وزع الخدم شراب اللوز على المدعوين. وكان الرجال قد تناولوا اللحم بشراهة تحت نغمات الموسيقى التي زادت الحفل رونقا وبهجة. ثم وضع الطبق الموالي على السماط، وهو عبارة عن عجينة مُوَرَّقة محشوة بلحم الحمام، وعجين اللوز.(8)

توجه «عبد الله» نحو مائدة والده وشاركه الجلسة. كان قد أكمل في الربيع الأخير العشرين من عمره. وكان «إبراهيم» أطول من أخيه بحوالي

قدم، كما كانت بنيته أضخم من بنية أخيه، لكن الأخ الأصغر كان أقوى وأقدر على التحمل. كان قد ورث قوة والده، وإن كان شعرُه أجعد، وأنفُه معقوفا مثل أنف أمه. في حين ورث «إبراهيم» ملامح والده، وكان شعره شبيها بشعر آل «أشقيلولة»، كستنائيا قليل الكثافة.

بعد طبق أوراق العجين المحشوة، وحينما كان الجميع متخما، وزعت النساء على الحاضرين زلابية الباذنجان، بعدها بقليل تأهَّب الخدمُ لتقديم العُقبة، وهي الطور النهائي من الوليمة، فحملوا صينيات الحلواء والفاكهة.

التحق «عبد الله» بباقي الشباب قبل أن تنتهي الوليمة، في اللحظة ذاتها زاد صخب الموسيقى فانضمت إلى الجوقة إحدى الراقصات.

ـ يشرفنا العريس! ـ صاح «إسماعيل» رافعا ذراعيه إلى أعلى.

ـ أنت رجل محظوظ يا «عبد الله» ـ خاطبه «محمد» ـ لن تنام وحدك هذه الليلة.

ـ أخي، تناول بُقْسُمَات العسل الهشة، لأنه لا ينبغي لك أن تنام ما يكفي هذه الليلة.

ضج الثلاثة بالضحك وقد سمعوا دُعابة «إبراهيم».

غير أن الفتيان سرعان ما استغرقتهم رؤية الراقصة وهي تتمايل على وقع الموسيقى. كانت المرأة ترسم بجسمها تشكيلاتٍ شهوانيةً توقَّف معها صخبُ المدعوين، وجعلوا يتلذذون بطعم الحلوى في صمت، وأنظارهم مصوبة في اتجاه

الراقصة. بدوره، بدا «محمد» ذاهلا، كان يتتبع حركات الراقصة بانتباه، وهو يخمّن تفاصيل الجسد الأنثوي تحت اللباس الرقيق الذي يغطيه. كان يتصور، على وقع الموسيقى، جسم «فرح» وهي عريانة أمامه، وهو يَلْثِمُها ويَضمُّها إلى صدره.

***

هبط الليل، ونزلت معه موجة برد قارص هيمن على «أرجونة». كانت الأيام الأخيرة صعبة للغاية بسبب موجات الصقيع المتتالية التي كانت تغمر البلدة ونواحيها، فيصبح الهواء دَبِقا لصقا كثير الرطوبة، وتغدو الحقول في الصباح لماعة بتكون طبقة الجليد عليها. كان الصمت يخيّم على القصبة بعد انتهاء حفلة الزفاف التي استمرت إلى ما قبل الأصيل، حينما خرج ابن الأحمر في عتمة الليل من البيت. كان الشاب يعتمر قلنسوة من الكتان، وينتعل جزمة من الجلد، وسترة من جلد الأرنب. مر بساحة السوق قريبا من المسجد الجامع ثم سار سيرا خفيفا إلى الجهة الأخرى من القصبة. كانت بالمكان خمسة منازل متلاصقة مسنودة إلى جهة من السور. قام بجولة استطلاع حول المكان ليتأكد من أن الحراس بعيدون عن المكان. اقترب من نافذة كبيرة يحميها شباك من حديد، ثم تسلّق عبرها إلى السطح الأول. بحذر اجتاز سطحين آخرين إلى أن وجد نفسه وجها لوجه مع سور يحيط ببيت خارج عن المجموعة السكنية. وعلى حوالي نصف قامة من العلو فوق القرميد قامت نافذة كانت دفتاها مغلقتين. كان المكان هو المبتغى، نافذة غرفة «فرح». اتحذ

«محمد» جميع احتياطاته وهو يخطو الخطواتِ الأخيرةَ. وضع يده على الخشب، وهو يتنهّد بعمق، ثم دفع الدفة برفق، وقلبه يخفق بشدة. استجابت الدفة، وتحركت نحو الداخل. كانت «فرح» قد تركتها دون إغلاق.

فتح «النصري» النافذة على مصراعيها، وأخذ يتفحص داخل الغرفة. كانت المقصورة صغيرة، وعلى مسطح من الخشب مُد سرير غليظ استلقت عليه «فرح». كانت البطانيات تغطي نصف جسمها وهي تتظاهر بالنوم. حدق ابن الأحمر في النهدين الناتئين وراء غلالة من الثوب الرقيق، ولما وضع رجله الأولى في الغرفة، تصنعت الفتاة الاستيقاظ مذهولة، وأسرعت إلى تغطية جسمها بما حولها من ثوب.

ـ ماذا تفعل هنا؟ هل أنت مجنون؟ ـ سألته وهي تحرص على ألا ترفعَ صوتها حتى لا توقظ أبويها كما يحدث، عادة، في لعبة المغازلة منذ الأزل.

ـ جئت لأراك ـ أجاب بكل ثقة: النافذة غير المغلقة، وجسمها المغطى إلى النصف رغم البرد، وصوتها الخافت... كل ذلك أمارات تنطق بأنه مرحَّبٌ به.

ـ ماذا تريد؟ ـ شدت بإحكام على طرف البطانية التي كانت تغطيها.

ـ فقط أريد الحديث معكِ. ـ أجاب وهو يدفع بدفتي النافذة دون غلقها. تظاهرت «فرحُ» بنوع من الاسترخاء وعودة الطمأنينة. ـ هل تعلمين أننا

مُعينان لبعضنا أنت لي وأنا لك. ـ نظرت «فرح» إلى عينيه في إيماءة تدل على الاهتمام. وإن كانت أعرف منه بالأمر، بسبب أن أمها كانت قد حدثتها بذلك، لكنها لم تجب. ـ لقد اتفقت ـ استطرد «محمد» ـ عائلتانا على أن نرتبط. ـ لم تبد على الفتاة أي علامة تغير أو ارتباك، كانت منتظرة مترقبة فقط ـ أريد أن أعرف فقط شعورك.

لم تتمكن فرح من إخفاء ابتسامة. فضحها انفراج خفيف ارتسم على يمين شفتيها. لم يفت ذلك «محمد» وهو يتطلع إلى الفتاة البهية. كان شعرها الفاحم الطويل مسترسلا، وعيناها السوداوان تشعان نورا.

اقترب «محمد» من السرير وجلس قبالة «فرح».

ـ أقبل بكل ما يقرره والدي. ـ قالت الفتاة أخيرا.

ابتسم «ابن الأحمر» موافقا وهو يعلم أن الموافقة حاصلة.

ـ وأنا كذلك. ـ رد الشاب وهو يتبادل نظرة طويلة مع حبيبته، ثم أردف ـ قبل انصرافي أريد منك قبلة.

جَفَلت «فرح» وهي تتطلع إليه مذعورة.

ـ لا أستطيع، علينا أن ننتظر.

ـ أطلب منك قبلة ليس غير. لن أنصرف دون ذلك. ـ تلفظ وهو مصر على طلبه.

تضايقت الفتاة، كانت تريده أن يغادر. تمكن منها الخوف من أن يفاجئهما والدها بالغرفة. نظرت إلى «محمد» ورأت الإصرار في عينيه.

كانت الفتاة ترتجف حينما أخذت في الاقتراب من «محمد» حتى لم يعد يفصل بينهما أكثر من شبر. وقتها أخذ هو المبادرة ووضع شفتيه على شفتيها. رعدة من اللذة غمرت الفتاة من رأسها إلى أخمص قدميها. مكثا في حالهما ثواني ثم تنحت بتأنٍ.

وقف «ابن الأحمر» بحركة خرقاء وهو يكاد يعثر في ثوبه. ودون أن ينبس بكلمة قفز إلى السطح من النافذة ثم أغلقها وراءه. حدق في سور القصبة، وبدا له أن أحد الحراس يقف قريبا. انحنى سريعا ثم جلس القرفصاء وهو ينتظر ابتعاد الرجل. سمع على الإثر «فرح» وهي تسد دفتي النافذة بإحكام.

ما إن دخل «محمد» غرفة النوم حتى استيقظ «إسماعيل». كان الصبي «فرج» ينام مع والده منذ وفاة والدته. كان المسكين يعاني من أحلام مزعجة تحتم عليه أن يشعر بوالده قريبا منه.

ـ ماذا حصل؟ ـ سأل «إسماعيل» أخاه بعينين نصف مغمضتين. لم يجب «محمد» وإن لمح «إسماعيل» ابتسامة رضا على وجه أخيه.

ـ تمكنت أخيرا أيها اللص.

ـ إنها تحبني، وقد تبادلنا قبلة. ـ أجاب موجزا.

ـ أنت مجنون. ـ تلفظ «إسماعيل»وهو يحرك رأسه في بطء نافيا. فقد كان يُعِزُّ أخاه ويتمنى له كل الخير. ـ وفي الأخير دائما تحصل على ما تريد.

طلب «محمد» من أخيه ألا يحكي هذا الأمر

لأي كان حتى لا يصل الخبر إلى آل «أشقيلولة»، وهم أقرباء مباشرون لـ «فرح»، لعلهم يشعرون بالإساءة.

أخلد الأخوان إلى النوم، وفي الحال أخذ تنفّسُ «إسماعيل» يُسمَع منتظما، في حين تأخر «محمد» بعض الشيء. في تلك الليلة حلم «محمد» بملذات ممنوعة يمارسها في مأمن تحت غطاء الظلام. رأى «ابن الأحمر» فيما يرى النائم أنه كان بمكان ما مع «فرح» وهما يلعبان مجردين من اللباس، وبينما هما كذلك نظرت الفتاة بعينيها السوداوين إلى عينيه... فصارت مشاهد الحلم تَتْرى في ضَغْث والتباس إلى أن استيقظ في الفجر ليجد نفسه مبللا. شعر ببعض الارتباك وهو يفكر في المدى الذي قد يصله الحلم.

***

كان «ابن الأحمر» يصلي في صمت وهو يحاول التلطيف من الأفكار التي تدور بخلده. كان يعمل بنصيحة «عمر الحسون» التي لطالما لقنه إياها وهي: «في سكينة فكرك يوجد الرب، فلا تبحث عنه خارج ذلك». ذكر «محمد» قولة الولي الصالح وهو منعزل وحيد في «مصلى النجاة». وكان الحسون يغيب بين فترة وأخرى حيث يسيح بين القرى والبلدات يعلم الناس دروسه. كان يعظهم بالسلام الداخلي، سلام الروح، والجهاد في سبيل الوطن، وفي نيته إنشاء مذهب شخصي جديد.

سمع «محمد» صوت الباب وهو يفتح، وحركة أحدهم وهو يخلع نعله، ثم يمشي على الحصير.

ـ السلام عليكم. حيا الطارئ.

كان الداخل «عمر». سر «محمد» برؤيته، فقد كان مشغولا بأمر يؤرقه ويريد مفاتحة الولي بشأنه.

لقد عدت اليوم من «أَنْدُوجَرْ»، هناك جماعة لا بأس بها من الناس تريدني، وتصغي إليَّ...

ـ هنا، أيضا، يصغي الناس إليك يا «عمر». ـ ودون مقدمات طرح «محمد» السؤال الذي يؤرقه:
ـ ما رأيك في العلاقات المحرمة؟

فكر «الحسون» للحظات قبل أن يُجيب:

ـ أرى أن الجميع ينتقدها، وأن الكل يفعلها. من لا يتردد أحيانا على نساء الفنادق؟ أتم عبارته وقد انفرجت شفتاه بابتسامة تسامح. من لا يلتقي بخطيبته في مأمن مقبرة، أو في حماية ظلام الليل وسكونه؟ ـ أضاف وهو يخمن سبب السؤال.

ـ لكن أن يفعل كثير من الناس ذلك لا يعني أن الأمر صار حلالا. ـ علق ابن الأحمر.

ـ هو أمر معتاد لأنه طبيعي في البشر، وقد جُبلوا عليه، إن الله تعالى وهبنا هذا الاندفاع لإقامة علاقات بين الرجل والمرأة بهدف الإنجاب والحفاظ على النوع، لكن هذا لا يعني الانتقاص من متعة هذا اللقاء الذي يقربنا من نشوة الخلق.
ـ بدا «محمد» غير مقتنع كثيرا بكلام الحسون
ـ دعني أشرح لك أيها الصديق: إن الله وضع في أجسامنا معدة تطلب الطعام، غير أنه ليس علينا أن نقنع فقط بما يجب تناوله، بل إننا نأكل أيضا لنتمتع بلذة المأكل. ونطبخ أنواع الأطعمة لنستسيغها أحسن، ويلذ طعمها أكثر. هل

هناك من عيب في ذلك؟ إن المتعة غلاف يجعل الضروري أحلى مذاقا.

ضروري، متعة... دارت هذه الكلمات في خلد الشاب كبلسمٍ شافٍ لاضطراب قلبه وقلق روحه. وأخيرا سكنت نفس الشاب، واختفت الشكوك، وشعر بأن الرغبة التي كانت تغلي بها دواخله عادت للحياة من جديد، لتدفع به نحو «فرح».

***

«ساهاجون» **Sahagún**. مارس 1215

التقى ملك «ليون» وأميرة «قشتالة» «برنگيلا» منفردين في قاعة خاصة بالدير. كانت الحالة في المملكتين قد تغيرت كثيرا، واتجهت نحو الأسوأ. فعزم الزوجان السابقان على الالتقاء بدير «ساهاجون» للبحث عن وسائل للتقارب بين المملكتين. كان «ألفونسو التاسع» قد فقد ابنه البكر، في حين كانت «برنگيلا» تريد اغتنام فرصة الاجتماع ليحظى ابنها «فرناندو» من جديد بعطف والده ملك «ليون». في ذات الوقت بات «ألفونسو التاسع» مقتنعا بأن إظهار بعض التودد نحو ابنه من الأميرة القشتالية أصبح مسألةً ضروريةً يقتضيها الظرف الجديد.

كانت «برنگيلا» قد عاشت خلال الأسابيع القليلة الماضية وضعية غاية في الدقة. ذلك أن «ألبارو نونييث دي لارا»، وهو أعظم نبلاء «قشتالة» جاها ومكانة، قد تمكن من تفويت الوصاية على الملك الطفل «إنريكي الأول» إلى أخته الكبرى على حساب «برنگيلا». وقد قبلت الأميرة فقدان

سلطة الوصاية على مضض، بالرغم من أنها كانت مسنودة بأنصار متحمسين لها، ولهم تأثير كبير في توجيه الأحداث، مثل أسقف «پالنثيا»، ومطران «طليطلة». وكان «دون ألبارو» قد جهز جيشا ليسقط به وصاية «برنگيلا» على الملك الطفل، علما أن ممارسة الأميرة لهذه المهمة السامية لم تكن قد تجاوزت شهرها الخامس.

ـ يتمتع الطفل ببنية سليمة. ـ قال «ألفونسو التاسع» في حق ابنه «فرناندو»، الذي سيكمل في القريب السنة الرابعة عشرة من عمره.

ـ هو شبيه بوالده. ـ أردفت «برنگيلا» بصوت لا يخلو من نبرة حقد.

ـ لا شك أن المربين يقومون بعملهم بشكل جيد. فقط، هو في حاجة إلى تقوية جسمه بعض الشيء.

كان الملك والأميرة جالسين مقابلين على كرسيين من نوع المقص ذي الظهر، وتفصل بينهما طاولة عربية الأسلوب، وضعت عليها قارورة خمر وحلويات.

ـ لن يجد أحسن من أبيه ليتولى ذلك. ـ ردت المرأة وهي تحدق بإمعان في زوجها السابق. كان أثر معاناة الشهور الأخيرة بادياً في عينيها.

لم يجب الملك، والتزم صمتا خليقا بمن في منزلته، قبل أن يغير الموضوع.

ـ سمعتُ ما قام به «آل لارا». ـ قال «ألفونسو التاسع» دون أن يعكس وجهُه أيَّ انفعال.

ـ اللعين منع عني الوصاية على الملك الطفل. لكن المسألة لن تبقى هكذا. أؤكد لك. أنا أيضا لدي حزبي الذي يناصرني، ويا له من حزب؟ ـ أكملت المرأة العبارة وهي تشد على قبضتها.

افترض «ألفونسو التاسع»، وهو يقوم بحساباته السياسية، أن الحرب ستندلع قريبا، وأن الأحزاب ستثور قريبا، وفي خضم ذلك ستجد «قشتالة» نفسها غارقة في حرب بين الأشقاء، وهو ما يستلزم من «ليون» أن تكون يقظة وتجتني الفرصة السانحة لصالحها.

ـ وعلى من تعولين؟

ـ على «بلد الوليد»، والقلاع التي تناصرني.

ـ افعلي ما يجب عليك فعله. ـ بصم الملك على قولها دون أن يوضح إن كان سيساندها.

أخذت «برنگيلا» كأسها، ورشفت رشفة من الخمرة. فبدا عليها كأنها خففت عن نفسها بعض الشيء.

ـ ابننا بلغ السن الذي يؤهله للتدرب على الفروسية ـ رجعت بالحديث إلى موضوع ابنها «فرناندو» مرة أخرى. وافق «ألفونسو» على كلامها بإيماءة، ثم أضافت:

ـ تريد أن يبدأ تداريبه بـ «قشتالة»؟

كان سؤالها سؤال الأريب. فأعطى الملك لنفسه مهلة قبل أن يجيب. فقد أصبح «فرناندو»، الآن، أكبر أولاده الذكور بعد وفاة أخيه من «تريسا» البرتغالية، و«ليون» و«قشتالة» في صراع تاريخي

دائم. فإذا كان على «فرناندو» أن يرث تاج «ليون»، فإن الصواب يقتضي ألا يسمح الملك بتلقي ابنه تداريبه في الفروسية على يد القشتاليين.

- سيأتي إلى بلاط «ليون».

لم تستطع «برنگيلا» أن تخفي سعادتها. تخيلت وجه غريمتها «تريسا» البرتغالية وهي تستقبل هذا الخبر. «إذن عادت الثعلبة الماكرة من جديد إلى «ليون»؟». - تخيلت «برنگيلا» تعليق غريمتها حين سماعها بالخبر.

لم يتناقشا في الآجال ولا حددا التفاصيل، غير أن المرأة عرفت أن «ألفونسو التاسع» سَيَفي بكَلِمته. ارتشفت رشفة أخرى من كأسها ثم بادرت بالوقوف.

- سأقول لـ «فرناندو» أن يأتي لتوديعك الآن، ريثما تقضي بلقائه ثانية.

سارع «ألفونسو» إلى الوقوف.

- انتظري - أمرَ بلهجةِ من يملك السلطةَ.

اقترب منها وهي تستعد للانصراف، أمسك بذراعها دون أن يضغط، لكن بحزم، ثم أخذها إلى طاولة ضخمة تناثر عليها عدد من المجلدات المغلقة. تموضع الملك وراء المرأة ثم مسح على ظهرها في تودد. كانت «برنگيلا» تتنفس في اضطراب.

- نحن في دير. - همست المرأة وهي تستدير.

دفع «ألفونسو» بوجنتها برفق لتتوجه بنظراتها إلى أمام، ثم أخذ في رفع أثوابها حتى عثر

بسروال تحتاني من الحرير. أنزله سريعا عبر ساقيها إلى أسفل. انحنت المرأة قليلا نحو الأمام وهي في حالة هياج. لمح الملك في إعجاب إلْيتيْها المتماسكتين ولونهما الأبيض. كانت المرأة جميلة، ولمَّا تفقدْ نضارةَ شبابها. على الإثر غمرت فورة من الشهوة الجامحة الرجل من بين فخذيه إلى غاية حنجرته.

هناك، في القاعة التي خصصاها للقاء، التحما في علاقة حميمية كما كانا يفعلان في الزمن الجميل. حينما كانا يعيشان معا في «ليون» في حضن علاقة حب أعمى.

لما انتهى «ألفونسو»، أصلح من هندامه، ثم خرج وابتسامة عريضة مرسومة على محياه. كان يومه ذاك حقا يوما جيدا. «قشتالة» كانت على خطوات من الانفجار، عبر حرب داخلية، وهو سيجد فرصته لجني ثمار ذلك.

في الطريق إلى لقاء ابنه استحضر الملك اسمَ «ألبارو نونييث دي لارا» «هذا القطب القوي والمستعد دائما لفعل أي شيء من أجل «الوصاية»، «أن أقدم له يد المساعدة سيكلفني القليل، في حين سيكون المقابل جليلا خطيرا». ـ دار بخلد الرجل وهو يزن الأمور.

كان «ألفونسو التاسع» يفكر باعتباره ملكا قبل أن يكون والدا، وزوجا، وذكرا.

***

أرجونة Arjona. مارس 1215

لم يكن أحد يتوقع مثل هذا البرد القارس في

هذه المرحلة من فصل الشتاء. كان قد مر على العاصفة التي ضربت المنطقة ثلاثة أيام، غطت خلالها الثلوج الأسطح، والشوارع، والحقول. فالتزمت الأسر البقاء في بيوتها، وخلت الشوارع من المارة والحركة، وأصيبت البلدة بالشلل.

جمع «أشقيلولة» تلامذته ببيته، وعزم على تقديم دروسه النظرية، كعادته في مثل تلك الأيام الباردة. كان فيما مضى، وفي أصائل مماثلة، قد حدّث تلامذته عن تنظيم الجيش، وعن اللوجستيك، وضرورة توفر الجيش على خط إمداد بالأقوات لإطعام الرجال، وتوفير المؤن لهم على الدوام. كما كان قد حدثهم في مناسبات أخرى عن التخطيط للمعارك والحملات، واحتساب المدة التي سيستغرقها تحرك الجند إلى غاية الوصول إلى الوجهة المطلوبة. مثلما شرح لهم كيفية تشكيل مجموعات الهجوم والدفاع، وأنواع دقات الطبول المستخدمة عند إرسال أوامر القائد الأعلى للجيش. في تلك الأمسية ووطأة العاصفة الثلجية تزداد شدة حديث النبلي لتلامذته عن أهمية الحزم العسكري، واحترام التراتبية العسكرية.

- إذا ترقيتم في الرتب العسكرية إلى رتبة قائد، عليكم أن تعرفوا كيفية اتخاذ القرارات الصائبة. - كان «أشقيلولة» يذهب ويجئ أمام تلاميذه وهم جالسون على مقاعد خشبية. إن التعب، والروح المعنوية، وحسن التموقع، وعدد الرجال، والتجربة، والعدة والسلاح...، كل هذه العوامل ينبغي على القائد المحنك أن يأخذها بعين الاعتبار. وإذا كنتم

تحاربون تحت قيادة قائد آخر احترموا توجيهاته، وتقيدوا بأوامره دون نقاش. فالمعروف أن القائد السيئ الذي يعمل تحت إمرته جنود مطيعون أحسن بكثير من القائد الجيد الذي يبتلى بجنود غير منضبطين.

اقترب النبلي من المجمرة وراح يفرك يديه فوقها. كانت أغلب الجمرات قد تحولت إلى رماد، بغتة سُمِعت جلبةٌ آتيةٌ من المنطقة الخلفية من البيت. أعقب ذلك صخبُ دجاج، وصهيلُ خيل.

ـ سيدي ـ اقتحم أحد الفتيان القاعة وهو في حالة عصبية ـ سقط أحد سقوف فناء الدواجن بفعل ثقل الثلج.

تنهّد «أشقيلولة».

ـ لا تبرحوا أماكنكم سأعود بعد قليل.

مباشرة بعد انصراف النقيب اقترب الشباب من المِجْمَرة.

ـ عندما أصبحُ قائدا سأعيّنكم نقباء. ـ وقف «عبد الله» وهو يومئ بيده في ازدراء.

ـ أنت مجنون يا أخي ـ قاطعه «إبراهيم» ـ أنا من سيكون القائد، وحينها سأكلفك بتنظيف روث الخيول لثرثرتك وكلامك الفارغ.

ضحك الجميع. كانت ملامح المزاج الشخصي عند كل من «عبد الله» و«إبراهيم»، ولدي «أشقيلولة»، تتضح أكثر كلما تقدما في السن وظهرت عليهما علامات النضج. فقد كان «عبد الله» قلقا عصبي المزاج، يطلق العنان لغضبه

بسهولة، وربما أميل إلى الكيد والدسيسة. أما «إبراهيم» فكثيرا ما كان يحمي أخاه، ويمد له يد العون، كان أقل تطلعات من أخيه، ولا يسكنه حب الظهور، ومن ثم كان أقل غيرة من النصريين.

ـ وكيف هي حياة المتزوج؟ ـ سأل «إسماعيل» ـ هل وفقت أخيرا إلى فتح القفل؟

ـ إن القفل يتعثر باستمرار، وعلى المرء أن يحاول فتحه دائما ـ أجاب «عبد اللّه» وهو يثير مزيدا من القهقهات.

ـ أنت مغفل بليد ـ بادر «إبراهيم» بالجواب دون أن يتوقف عن الضحك.

ـ تضحك، ولطالما سمعتك من غرفتي، خلال ليال كثيرة، وأنت تجهد نفسك من أجل فتح القفل. ـ قهقه «محمد» و«إسماعيل» بصوت عال... وقد كان التقليد المتبع في عائلة «أشقيلولة» منذ أجيال عدة أن الأولاد الذكور يستمرون في العيش ببيت الأسرة بعد الزواج.

نهض «ابن الأحمر»، ثم دنا من الباب، وهو يتطلع إلى الصحن خفية، فلمح جده مقبلا. كان يمشي سريعا، وساقاه تغوصان في الثلج. بعد برهة دخل النّبلي إلى القاعة، وهو يرتعد من البرد، ثم اقترب من المِجْمَرَة. نفخ فيها حتى يؤجج النار الهادئة المنبعثة مما تبقى من جمرات، ثم جلس القرفصاء يتدفأ.

ـ لنعد إلى ما كنا فيه... عن أي موضوع كنا نتحدث؟ ـ فكر لحظة قبل أن يسترجع الخيط الرابط، ثم استأنف الحديث. وبذلك قضى أمسيته مع

تلاميذه يخوض في شروحات طويلة عن الجيش والقيادة.

***

أرجونة Arjona. ربيع 1215

غادر «هادي» القصبة من باب القصر. ثم اجتاز البرج المنفرد، وولج الحي الواقع بجوار «باب جَيَّان» حيث بيته الجديد. كان برنامج دورات الحراسة قد ترك له الأماسي حرة، وهو ما كان يسمح له بالنوم خارج القلعة بجنب زوجته. وحصل أنه ما أن أنهى نوبته هذه المرة حتى ذهب لزيارة «أشقيلولة» في داره. ليطلعه على آخر ما علم من أخبار عن البربر.

افتتح «هادي» كلامه مع رب نعمته بالحديث عن «أبي يعقوب المستنصر» الخليفة الجديد الذي كان يحكم تحت تأثير أعمامه، وكيف أن هؤلاء كانوا مهتمين بشؤون «أفريقيا» أكثر من أي شأن آخر، خاصة وأن بوادر التمرد والعصيان، هناك، باتت ظاهرة للعيان لا تخفى على أحد. ومن ثم أصبح لزاما على قادة الأندلس في هذه المرة أن يواجهوا وضعهم الجديد اعتمادا على النفس. ومن أجل ذلك قضى الخليفة بأن يُسمح للأندلسيين بالإفادة من أكبر قدر مما يتم تحصيله من الإتاوات والخراج لصالح منطقتهم. وهو ما دفع بقائد «أرجونة» إلى الرفع من عدد جنود الحامية الأندلسيين. وعلى الرغم من اتفاقات الهدنة بين الموحدين والنصارى، فقد كانت الشائعات تتحدث عن عزم جماعات الفرسان الدينية على القيام بغارات على الحدود. يصادف ذلك قرب

انتهاء الأشغال في «قلعة رباح الجديدة»، قُبالة «شَلْبطرَّة»، وبدء ظهور جماعات من الفرسان وهم يحومون حول المناطق المجاورة للقلعة.

ـ قريبا سنضطر إلى تنظيم الطلائع. فكما لا يخفى عليك إن من يضرب أولا عادة ما يكون لديه الامتياز. ـ قال «النبلي» لـ «هادي» بعد أن سمع تقريره.

كان «هادي» يكن كثيرا من الامتنان لرئيس أشهر أسرة في «أرجونة». فقد تغيرت حياة الشاب كثيرا خلال الأشهر الأخيرة بفضل «أشقيلولة» الذي مهد له كل السبل ليتمكن من تكوين أسرته. كان النبلي قد وطّأ لـ «هادي» ليقتني داره حين توصل إلى اتفاق مع أحد الملاك يملك بيتا صغيرا في حي الحدادين، حيث طلب الرجل بتأثير من أشقيلولة ثمنا معقولا للشاب يؤديه عبر ثلاثة أقساط، ثم كان النقيب هو من تكلف بتحضير حفل زفاف «هادي» بإحدى جواريه، وقام بعتقها قبل أن يتم الزواج.

كانت حفلة الزواج بسيطة والعروسان بالكاد قد تعرَّف أحدهما على الآخر. غير أن الاثنين كانا مسرورين بالقِران وممتنين لـ «أشقيلولة».

وصل «هادي» إلى بيته قبل أن تبرز النجوم الأولى في الأفق. كان البيت صغيرا لكنه مريح. وراء المدخل الضيق كان ينبسط صحن رئيس تتوسطه بركة صغيرة تحيط بها غرفتان، ومطبخ، ومجلس محدود الأبعاد، ثم أخيرا بيت المؤونة بخزاناته الحائطية. كانت «هبة» في انتظار زوجها وقد هيأت صينية بها حليب وتمر لتستقبل زوجها.

كانت «هبة» في التاسعة عشرة من عمرها، وبالرغم من حداثة سنها، كانت تملك جسما فائضا ممتلئا، وخاصرتين متسعتين، وثديين ضخمين. وهو ما ينبئ بأنها كانت قد كلفت «أشقيلولة» حُزمة لا بأس بها من الدنانير الذهبية.

جلس الزوجان في القاعة الرئيسة أمام وعاء من حساء الخضر، وصينية عليها سفافيد كفتة مشوية. إضافة إلى قطعة من الخبز عجنته هي نفسها في الصباح وأرسلته إلى الفرن.

شرع «هادي» في تناول عشائه دون أن يعير اهتماما لزوجته التي كانت تحدق فيه بإمعان بعينيها السوداوين.

- توقف عني نزول دم الطَّمْث منذ أكثر من أسبوع.

أجابها الجندي بحركة إيجاب من رأسه. كان قد فهم ما تعنيه عبارتها. كانت «هبة» ترغب في أن تحمل من زوجها وتبحث عن الأوقات المؤاتية. كان الزوجان سيتعاشران تلك الليلة، هي ستمنح نفسها عن رضى كامل لزوجها، وهو سيسقيها من مائه، ربما سيفعل ذلك مرتين.

فكّرَ «هادي» في ماضي زوجته، وأحسَّ بشيء من تأنيب الضمير، بسبب المسافة التي اتخذها من زوجته منذ البداية. حقا، كان يحسُّ بالراحة في بيته، غير أنه بالرغم من إقباله على الزواج برغبة منه وموافقة، إلا أنه لم يكن يشعر بحب حقيقي تجاه زوجته. ربما مع الزمن قد ينمو هذا الحب، غير أنه لا يجمعهما الآن سوى وثيقة صداق، وواجب

الإنجاب.

ـ كم كان سنكِ حينما اقتناكِ «أشقيلولة»؟ ـ سأل فجأة باهتمام.

توهّجت عينا الفتاة سريعا قبل أن تجيب.

ـ ثمانية أعوام. كانت عائلتي جليقية، وكنا قد أقمنا في منطقة الحدود، لأن ملك «ليون» كان يَعِدُ بتمليك أراضي لمن يسكن هناك.

ـ وقعت غارة؟ ـ سأل «هادي» مفترضا.

ـ أجل، أغار علينا حوالي عشرون رجلا ذات صباح، ونهبوا كل شيء. والدي هرب على بغل ما إن لمح الرجال، اللعنة! وأما نحن، أنا وأمي وأخواي فقد استعبدونا.

ـ هل تعرفين عن أحوالهم شيئا؟

ـ لا شيء. وأطلب من المولى تعالى أن يكونوا بخير.

ـ وكيف انتهى بك الأمر بـ «أرجونة».

تنهدت المرأة قبل أن تجيب عن السؤال. كانت المسكينة تشعر بوخزة ألم في صدرها كلما ذكرت تلك الأحداث.

ـ أخذوني إلى مدينة كبيرة، أظنها «قرطبة» أو «إشبيلية». هناك اشتراني أحد تجار الرقيق بـ «جيان». وعندما كانت قافلته في طريق العودة توقف في إحدى الليالي بـ «أرجونة» حيث اشتراني «أشقيلولة». ـ أخذت «هبة» سفوداً وتناولت بعض اللحم ـ يفضل «أشقيلولة»، في العادة، المهور والعبيد في سن صغير، حتى

يتعودوا على طبعه.

حاول «هادي» أن يستخلص من كلام زوجته بعض ما يدل على أنها تضمر حقدا لـ «أشقيلولة».

ـ هل عاملوك بالحسنى؟

ـ أجل لم يَمَسَّني أحدٌ من الرجال، واحترموا... ـ صادق «هادي» على كلام زوجته قبل أن تتم العبارة. فقد تمكن زوجها في ليلة الدخلة من أن يعرف أنها ما زالت عذراء. ـ أما التجار فإنهم ضربوني مرارا ـ توتر هادي وانقبض ـ كنت صغيرة السن وكلفني استيعاب كل الأشياء الجديدة الكثير... ـ ختمت العبارةَ وهي تغض من طرفها.

ـ لا يحق لأي إنسان أن يستعبد آخر. ـ علق «هادي» في حزم وبشكل قاطع. إن اللّٰه تعالى يبارك كل من حرر رقبة، وأعتق عبدا.

ـ إذن، فليبارك «أشقيلولة». فقد عاملني دائما معاملة حسنة.

استمر الزوجان في تناول عَشَائِهِما في صمت للحظات. كان «هادي» يفكر فيما دار بينهما من حديث، في حين شعرت هي براحة، وقد تقاسمت حكاية حياتها مع زوجها.

ـ «هبة» أريد أن أفاتحَك في أمر. ـ أصغت الفتاة بانتباه إلى قرينها ـ أنت تعرفين أنني جندي، وأنني سأغادر يوما ما إلى الحدود لأقاتل ضد الكفار. ـ صادقت على كلامه، بينما توقف هو عن الكلام كأنه يبحث عن الكلمات المناسبة. ـ أريد أن أعرف إن كان إيمانُك صادقا، وإن كنت تشتاقين إلى أرض آبائك.

ـ أسرتي هي أنت، وديني هو دينُك، وحربُك هي حربي. ـ أجابت الزوجة وهي تحدق في عيني زوجها. أحسَّ «هادي» بالفخر، ثم وقف في كبرياء.

بعد الصلاة انصرف الزوجان إلى غرفتهما. اندست «هبة» في الفراش وهي لابسة غِلالتها، وأما «هادي» فدخله عُريانا كما خلقته أمه. لاعب ساقي زوجتِه بأصابعه حتى عثر بأطراف ثوبها، فرفعه إلى الخَصْر. فتحت الفتاة ساقيها لتستقبله.

لم يكن هناك هيام. قاما بالمعاشرة بشكل آلي دون أن يهتم الزوج بأن تصيب هي نصيبها من المتعة. وبعد دقائق معدودات وصل الرجل إلى قمة نشوته. ثم استدار على جنبه، وغاص في نوم عميق. أما هي فقد رفعت ساقيها وركبتاها مطويتان حتى تحبس ماء زوجها في دواخلها. في تلك اللحظة كان شخير «هادي» يتردد في أرجاء الغرفة. شعرت «هبة» على الإثر بضيق غريب في صدرها. فقد أحيى الحديثُ عن الماضي في نفسها أحاسيسَ منسيةً، مدفونةً تحت طبقات من الأمن المزيف. نامت المرأة على انهمار الدموع، وقد خففت، بالرغم من ذلك، عن أحزان كانت في بعض الأحيان تتآكلها من الداخل.

***

من جديد كانت عتمة الليل تحمي «محمداً». كان قد درس توقيت نوبات الحراسة، وعرف الأوقات المناسبة لتسلق الأسطح. وصل دون صعوبات

تذكر إلى نافذة «فرح». هناك، وأمام النافذة، أحس بإثارة الممنوع.

كان «ابن الأحمر» يلبس جلبابه المعهود، المصنوع من الصوف، على سروال طويل. وكان الجو أميل إلى الاعتدال. طرق لوح النافذة بأصابعه، ثم انتظر. في الجهة الأخرى سمعت خطوات، ثم فتحت النافذة:

ـ ماذا تفعل هنا؟ ـ سألت «فرح».

ـ جئت لأراكِ. تسمحين بالدخول؟ ـ قال وهو واثق من نفسه.

ـ ترددت الفتاة قليلا. تطلعت إلى الرجل الذي اختير لها، ثم أخذ قلبُها يخفق حينما ذكرتْ ملامسةَ شفتيه.

ـ أسرعي رجاء، إن الدورية ستمر بعد قليل ـ حاصرها.

تركته يدخل. دنا منها «محمد» دون أن ينبس بكلمة. في حين شبكت هي ذراعيها كأنها أحست بالبرد. أخذها من كتفيها بلطف، ثم طبع على خدها الأيمن قبلةً. لم تنسحب «فرح»، ارتجفت، وشعرت بأن أمرا يختلج في داخلها.

ـ لم أنسَ شفتيك. ـ قبّلها «محمد» في فمها ـ أحلمُ بكِ ـ ثم عاد لتقبيلها. في الليل أرى وجهكِ حينما أغمض عيني ـ كانت الكلمات تنبعث من حُشاشة قلبه، كأنها سيل يصعب إيقاف جريانه.

في هذه المرة، كانت هي من قبّلته، في حين كان يضمها هو بقوة إلى صدره.

ـ أشعر بأنني سعيدة ومحظوظة. كم هو جميل كل ما تقوله لي.

كان العشيقان قد استهانا بقواعد السلوك في لعبة الاستهواء القديمة، وكشفا عن أوراقهما في اللعبة الأولى. ولا غرو، فإن الحب البريء لا يفهم في القواعد.

عاد «محمد» إلى تقبيل حبيبته. لكن القبلة هذه المرة كانت طويلة، لعب الاثنان خلالها بشفتيهما وهما يتلامسان بأنفيهما لنقص التجربة. ضاق العناق، وشرع النصري يداعب ظهر حبيبته إلى أن وصل إلى ما تحت خَصرها. كان العشيقان ما زالا متشابكين في قبلتهما الطويلة، في الحال استسلمت الفتاة، فغاب العقل، وذهبت المخاوف، وسقطت الأعراف... كل شيء ضاع في نوبة من الإثارة دفعت بهما إلى السرير. فتحت الطبيعة سبلها لينتهيا إلى ما انتهيا إليه، شريكين في تعلم الحب وهما يتشاطران العشق والهيام.

حينما انتهيا ظلا متعانقين بعض اللحظات.

ـ ينبغي أن تنصرف ـ قالت الفتاة وقد عاد إليها رشدها.

قبّلها «محمد» ثم نهض منصرفا.

ـ هل أنتِ على ما يرام؟

ـ أجل ـ ابتسمت في انفعال ـ الآن اذهب، رجاء. ـ طلبت منه ذلك وهي تنظر إلى الباب.

تبادل الحبيبان آخر نظرة، وقفز الشاب من النافذة.

سأعود ـ قال لها قبل أن يبتعد، وهو يسير فوق القرميد.

عاد «محمد» إلى دار والده. كان «إسماعيل» و«فرج» يغطان في نوم عميق. انسل ابن الأحمر إلى سريره، غير أن فورة الإحساس أطارت النومَ من عينيه. لحظات قاطع صوتٌ غريبٌ هامدٌ سكونَ الليل. نهض ثم وارب الباب وأصاخ السمع فاستطاع أن يتبين تأوهات طالعة من غرفة أبيه. توقفت الأصوات في الحال. وظل «محمد» ساكنا في مكانه. على الإثر فتح باب غرفة «يوسف» وخرجت «كريمة» بلباس النوم. لحظتها عاد «محمد» بحذر إلى غرفته، ثم استلقى من جديد على سريره.

تفهم وضع والده، لكنه لم يستطع نسيان أمه. «فرح» و«كريمة» وأمه وأبوه كلهم جميعا حضروا في ذهنه في آن واحد، وحركوا مشاعره. وفجأة أحس بنفسه منهوك القوى، فاستسلم لنوم هنيء أذاب ذكرياته، إلا من حلم جسد «فرح» وهو يلامس جسده ويحتك به.

***

أرجونة Arjona خريف 1215

ذهب «أشقيلولة» إلى التداريب ومعه صقره المفضل، الصقر ذاته الذي كان قد انتصر على صقر القائد في المباريات التي أقيمت بمناسبة عيد الأضحى. تركه يطير بحرية، ثم ركز انتباهه في تلامذته. كان سيخصص اليوم للتدرب على تكتيك tornafuye [الكر والفر] وقد هيأ لهذا التمرين

مرمى من الخشب يقوم على ثلاث قوائم.

كان كل من الأخوين نصر يمتطي فرسه. وهما الحصانان أعيُنُهما اللذان تدربا عليهما خلال هذه الشهور الأخيرة. وكانت الدابتان مزودتين بركابين قصيرين يسهلان على الفارس المناورة والحركة. وهذا تقليد أخذ يتعمم في الأندلس تأثرا بالبربر. وكان «يوسف» والد النصريين يرقب المتدربين بتركيز، وقد أصر على حضور هذا المران العسكري ليرى كيفية استجابة الأحصنة.

قام بالمناورة الأولى «إبراهيم» و«عبد اللّٰه» وقد نجحا في تطبيق التمرين. اقتربا وهما يَخُبَّان بفرسيهما إلى المرمى، ثم أوقفا الحصانين، ورميا رمحيهما سريعا، ثم عادا عَدْوا إلى نقطة الانطلاق.

ـ إنهما فارسان جيدان. قال «يوسف» للنبلي.

ـ نعم، لكن ما زال أمامهما طريق طويل للتعلم. فقد أنزلا الترس قليلا في لحظة رمي الحربة، كما أن حربتيهما ضربتا في الخشب دون أن تَنغرزا فيه.

بعد ذلك جاء دور «إسماعيل». قاد الشاب الفرس بجدارة ثم رمى الرمح بالميل المطلوب. فأصاب سنانُ الرمحِ المرمى ثم ارتد. انثنت السارية ثم تقوست وأخيرا سقطت. ثم عاد الفارس وهو يركض في سرعة.

ـ قدرة ممتازة على الحركة لكن تنقصه القوة. سنمنحه مزيدا من الوقت. ـ قال المدرب ـ ثم إنه يملك موهبة عالية في فن الركوب.

ـ وما رأيك في الحيوان؟

ـ الحصانان رائعان. ـ أقر النبلي.

خلال ذلك اقتربت «فرح» مع صويحبات أربع في سنها عبر الطريق المؤدي إلى «أرجونة». كلّ يحملن سلالا لجني التوت من العُليق المنتشر بكثرة قريبا من منية «أشقيلولة». ولم تكن المرة الأولى التي يبرزن فيها بالمكان.

كان الدور هذه المرة على «محمد». كان فرسه كميتا [أسمر محمرّاً] أسود الذيل والهُلب. خَبَّ ابن الأحمر بفرسه خبَباً سريعاً إلى المرمى، ثم وقف على الركابين وطبّق تمرينَ الحربة بإتقان، حيث اخترق الرمحُ الخشبَ عميقاً قبل أن يعود الفارس وهو يعدو بفرسه عدو حُضْر، [العدو ذو الوثب].

ـ إنه يَكُرُّ وَيفِرُّ كما لو أنه ولد وهو يعلم ذلك. ـ علّق «أشقيلولة».

ـ إنه بات قادرا على القتال. ـ أضاف والده بفخر.

ـ كان قادرا على ذلك منذ شهور، والآخرون سيكونون مثله قريبا.

أبطأت «فرح» في مشيتها لترى «محمداً» بشكل أفضل. في حين أخذت الفتيات يتهامسن، ثم تابعن طريقَهن. أما «يوسف» فقد قطب جبينه، وقال في بطء كما لو أنه يجد صعوبة في نطق الكلمات:

ـ سمعت «محمداً» خلال ليال عدة وهو يتحرك بالبيت ـ أخاف أن يكون حائما حول «فرح». لن يسرني أن يساء إلى أسرتك. سأهتم بالأمر.

ابتسم «أشقيلولة» وهو يومئ بيده دلالة على

أن المسألة غير ذات أهمية.

ـ كلاهما يحملان دمي ـ قال دون أن تغيب الابتسامة عن وجهه. ـ كلنا كنا شبابا. وفترة الصبا مدعاة للحب. قريبا سيتزوجان، فلا تكترث كثيرا للأمر. كم من مرة سمعت القرميد يتحرك قريبا من غرفة ابنتي فاطمة... ـ صَفَّرَ النَّبْلي مرتين وبعدها أخذ الصقر طريق العودة إلى ذراع صاحبه.

تفرس «يوسف» في مخاطبه مندهشا، وبدا كما لو أن الذكريات جعلته يبتسم. بل كلاهما شرعا في الضحك، غير أن مسحة من الحزن أطلت من عيني «يوسف». كان مشتاقا لفاطمة كما يُشْتَاقُ إلى بطانية دافئة في ليلة شتاء بارد.

***

ضيعة الماء الحلو. **Cortijo del Agua Dulce** (جنوب قشتالة) شتاء **1216**

ـ «رامون»! ـ اقترب الرجل من الجدول بصدر عار، وهو يحمل على كتفه عصا طويلة من الخشب. ـ كم تبقت من أشجار زيتون لم تخبطها بعد؟

ـ مرحبا «بلطران». ما زال أمامي حقلان بالكامل. إن لم أسرع فسيلحقني الربيع دون إتمام العمل.

ـ زمرتي على عتبة النهاية. إذا أردت، يمكننا مساعدتك.

حدق «رامون» في الرجل وهو يفكر في العرض.

ـ جميعا لا، نحن خمسة في زمرتي، قد يكون لطيفا أن نستعين بأحدكم فقط. تعال لنتحدث عندما تنتهي.

أخذ «بلطران» يغسل ذراعيه في ماء الجدول النظيف.

- هذا الصباح رأيت ابن أخي «فرناندو». هل تعلم أن زوجته توفيت منذ شهور؟ - نفى «رامون» برأسه، ثم تفرس مليا في «بلطران» - هو شاب ومحب للعمل، وقد بدا لي أن ندبر الأمر بينه وبين ابنة خالتك.

رفع «رامون» يده وقاطع الرجل.

- يكفي يا «بلطران». ولا تجعل من نفسك زَوَّاجاً للناس - أجاب جازما وبنبرة حادة. - أنا أيضا ترمَّلتُ، وأحتاجها في بيتي. سيكون هناك الوقت الكافي لحفلات الزواج.

قطب «بلطران» ما بين عينيه، لكنه لم يجب. كان يعرف مزاج ذلك الرجل الجلف. أتم نظافته، ثم اتجه نحو رجال زمرته.

- ستتجاوز الفتاة سن الزواج! وستحكم عليها أن تصير عانسا تتجرع المرارة. - صاح الرجل وهو يصعد في العقبة الأولى متشجعا ببعد المسافة بينه وبين «رامون».

- زَوَّاجٌ لعين، اهْتَمَّ بشؤونك الخاصة!

عاد «رامون» إلى عصبته، وساعد العمال على إفراغ ما في الثوب من زيتون في العربة. كان اثنان من رجاله سيقودانها إلى طاحونة الدَّيْر. في حين قرر هو أن يعود إلى بيته قبل المساء.

كانت «مارية» في الحظيرة حينما سمعت الأصوات الصادرة عن خالها وهو يملأ جرَّةً بماء

بليل من العين، ثم يملأ أخرى بالخمر. بجنب النار حطت «مارية» طنجرة الطعام في انتظار وصول «خالها». جلس «رامون» وشرعت هي في وضع الصحون، ثم الطنجرة، فوق المائدة. رفعت الغطاء وإذا برائحة الخضر المطهوة واللحم المستوي تجتاح المكان. كانت الفتاة قد اجتهدت في تهيئة الطعام. فرخ حمام مطبوخ على البخار، ثم مغلى في قليل من الخمرة. جهزت السُّفرة، ثم صليا وشرعا في تناول الطعام. كانت الشمس قد رنَّقت للمغيب.

ـ كيف كان يومك؟ ـ سألته «مارية» وهي تجهد نفسها لتكون لطيفة.

ـ حسن. ـ أجاب الرجل بنبرة جافة.

ـ والزمرة، هل هي جيدة؟

رفع «رامون» نظره عن صحنه ثم حملق في ابنة خالته في غضب شديد.

ـ نعم. ـ أجاب وهو يمعن النظر في «مارية» للحظات.

انتظرت «مارية» إلى حين ينتهي الرجل من تناول الفراخ لتتحدث.

ـ خالي... ـ تفرس فيها الرجل من جديد ـ لقد أكملت العشرين من عمري. متى ستبحث لي عن زوج؟ ـ طرحت سؤالها بنبرة حلوة.

تنهد الرجل، ثم تنحنح قبل أن يشرع في الحديث دون أن يفقد أعصابه.

ـ دعيني أشرح لك: إني منذ شهور وأنا أبحث

لك عن خطيب. فكما قلت لك فيما مضى إن عدد الرجال الصالحين للزواج بهذه النواحي قليل. وحتى هؤلاء القليلين ليسوا مهتمين بكِ.

أحسّت الفتاة بألم حاد جهة القلب، وأصبحت عيناها هامدتين كأنهما الزجاج.

ـ لكني سمعت...

ـ يكفي! ـ انتابت الرجلَ فورةٌ من الغضب العارم غيّرت ملامحَ وجهه. ـ ألم تسمعي ما قلته لك؟ أنت لا تسمعين إلا ما أقوله لك. ـ أردف وهو يشير إليها ـ هل تفهمينني؟ ـ أشارت المسكينة بالموافقة وهي مرتعبة. ـ لا أحد يريد الزواج بك. تلك هي الحقيقة الوحيدة!

كان «رامون» يتنفس في اضطراب، وهو في حالة هياج شديد. كان صدره يضطرب على إيقاع شهقاته. أخذ جرة الخمر وصب لنفسه كأسا. ثم حول القارورة إلى «مارية». كانت الفتاة تبكي من شدة إحساسها بالعجز، جاهدة في أن لا يسمع نحيبها.

ـ صُبَّ لنفسك ـ قال لها، ثم تجرع كأسه بشربة وواحدة.

أما هي فقد مسحت دموعها وقالت:

ـ لا يا خالي، أفضل أن أكون صاحية. ـ كانت ترتعش حينما انتهت من الكلام.

ـ كما يحلو لك. ـ أجاب.

أنهى «رامون» طعامه، ثم ملأ كأساً أخرى من الخمر. تفرّس في الفتاة ثم ابتسم في فجور.

كان قد بدأ يشعر بتأثير المدام. أما هي فأحسّت بغثيان غير أنها تمالكت. فقامت وسحبت المائدة وهي تغالب نفسها، إلا أن الرجل سار وراءها....

***

أرجونة. Arjona ربيع 1216

- لن أترك القصر دون حراسة. لا أكثر من خمسة رجال.

- لا بد من عدد أكبر للقيام بغارة جيدة. - كان «أشقيلولة» يتكلم وهو في حالة إثارة.

قوّس القائدُ حاجبَه، وزمّ على شفتيه قبل أن يجيب:

- قد نسيت أمرا. إن الخليفة حفظه الله من كل سوء، كان أمضى اتفاقات هدنة مع القشتاليين، فإذا ذهبنا بصحبة عدد كبير من الرجال، ربما سيفهمون المسألة على أنها تخل عن اتفاقات السلام.

- أنت تعلم، كما أعلم أنا، أن النصارى يقطعون الحدود على هواهم، ومتى يريدون، ثم إنهم يحملون كل ما يستطيعون حمله. - علق النبلي حانقا على موقف القائد.

- ولماذا لم يستجب أصحاب القلاع الموجودة هناك؟

- هؤلاء لم يكترثوا بكلام المخبر - اضطر النبلي إلى الاعتراف - بُرْجُ الحَمَّام Baños de la Encina ليس ببعيد، على مسافة يوم واحد بالفرس من «أرجونة».

ـ وتطلب مني أن أصدق هذا الشخص الذي يؤكد أنه بشمال «برج الحمَّام» ينتشر رعاة نصارى يرعون قطعانا كبيرة دون وجود حامية تحميهم؟

كان «برج الحمَّام» أحد القلاع الإسلامية التي استولى عليها النصارى بعد معركة العِقاب «ناباس دي طولوسا». في البداية أقامت بها حامية صغيرة للدفاع عنها، لكن النصارى مع الزمن تخلوا عنها، وغادروها.

ـ إذا كان كلام المخبر صحيحا فإن رجالنا سيعودون بما غنموه من مواشي تقريبا دون جهد. أما إذا كان العكس فإنهم، ببساطة، سيعودون بأيادٍ فارغة.

أمعن القائد النظر في عيني «أشقيلولة».

ـ إذا كان الأمر بهذه السهولة فخذ معك الأندلسيين ـ شدد القائد على الكلمة الأخيرة. كان كبرياء القائد ما زال مجروحا منذ فوز النبلي في مسابقة الصقور. ـ أما من حَامِية البلدة، فلن يصحبَك سوى خمسة رجال.

فكر «أشقيلولة» للحظات.

ـ حسنا، والغنيمة ستقسم كما جرت به العادة؟

وافق القائد بحركة من رأسه وتم الاتفاق. خرج «أشقيلولة» من البرج، ثم اجتمع بالمخبر. وكان من التجار الذين يجوبون المنطقة باستمرار، وأكد الرجل في كلامه أنه رأى بعضَ الرعاة النصارى بالناحية. كان النبلي يريد أن يعرف كل التفاصيل قبل أن يقوم بتنظيم غارة على هؤلاء الذين تجاسروا على اجتياز السلسلة الجبيلة(9) التي

كانت تعد الفاصل بين المسلمين والنصارى.

***

دنا «محمد» وأخواه، إضافة لحسن وباقي العُصْبَة، من بستان والدهم، وهم في الطريق إلى البيت. كانوا قد ساعدوه في تنظيف الأرض من الحجارة، ثم بعد انتهائهم من العمل أخذوا طريق العودة إلى القصبة.

ـ شرعنا في الاستعداد لتنظيم غارة. ـ قال ابن الأحمر للأولاد ـ وسيشارك فيها فقط الفرسان.

وأخذ يوسف في شرح كل ما كان يعرفه عن المشروع. مباشرة، طلب «محمد» و«إسماعيل» من والدهما الإذن بالمشاركة. وقتها دفع الأب بأولاده للدخول في حظيرة الدار. «فرج» كان يريد الحضور، لكن يوسف منعه بصرامة من ذلك. كان الولد متلهفا لبداية تكوينه كمقاتل، غير أن والده، وقد أدرك ضعف بنيته، كان يقابل طلبه بالتسويف، فيقول له: « إن مجد بني نصر يقوم على الحرب والأرض بالتساوي». كان الأب يردد هذا القول لابنه حتى يزيد من صبره، ومن مواصلته العمل.

في الحظيرة، شاهد «محمد» و«إسماعيل» كيف أن أباهما اقترب من دولاب مثبت بالحائط، ثم أخذ منه شيئا شبيها برزمة مطوية في ثوب. وضعها «يوسف» على الأرض، ثم فكها، فبرز أمام أعينهم زردٌ من جلد، وسيف، وحزمة من ثياب قِرْمِزية اللون، ومِقْمَعتان من النوع الصلب، المنتهي برأس معدني به نتوءات صغيرة على شكل السن. أخذ

والدهما الزرد والسيف وقال:

ـ هذان غنمتهما في غارة حدودية. وكنت أؤدي ثمن سلاحي بما أغنمه من النصارى. ـ كان يتحدث بنبرة جلال وفخامة ـ وكذلك فعل جدُّكما ووالدُ جدِّكما، جعل الله مثواهما الجنة. هذا تقليد في أسرتنا. ـ وضع قطعتي السلاح، ثم أخذ المِقْمَعتين وسلمهما لولديه. ـ ليستا بسلاحين نبيلين، ولكن قد ينفعان حينما يضطرم القتال، ويحمى وطيسُ المعركة. ثم توجه إلى زاوية في الحظيرة، وأمسك ببعض الحراب ـ هاته أيضا لكما ـ تسلمها الفتيان باحترام ـ أعرف أنكما مهيئان خير تهيئة، وأنكما ستعودان بالغنيمة. غير أنه لن تنسيا أبدا من تكونان، ومن هم أجدادكما. فإذا كنتما ترغبان في المشاركة في الغارة فإني أمنحكما تبريكاتي.

غمر الشابين شعورٌ بأنهما سمعا نفس الخطاب الذي سمعه أبوهما في لحظة ما من حياته. فشعرا بالفخر، وتقبلا، في صمت، الوعدَ بأن يعودا مجللين بالمجد، أو يموتا دون ذلك.

ـ لن نخيّب آمالك. ـ بادر «إسماعيل» بالقول.

ـ أنا واثق فيكما ـ أكد «يوسف» ـ سأدعو لكما في صلاتي، حتى لا تتعرضا لسوء، وتعودا سالمين.

أخذ «يوسف» قطعتي الثوب القِرمزيتين(10) ثم لفهما واحدة واحدة في خصْرَي ولديه على شكل حزام، في حين تدلت الأطراف إلى غاية القدمين.

ـ الأحمر هو لوننا، هو اللون الذي يمثلنا في

المعركة. اعملا من أجل أن يرتعد الكفارُ حينما يرونكُما في المعركة.

تبادل «محمد» و«إسماعيل» النظرات في فخر. وأخيرا ها هما قد باتا مستعدين ومهيأين لبداية حياة جديدة، لعلها ستدوم إلى آخر يوم في حياتهما.

***

مكثت «فرح» جالسة على حافة السرير، في حين كان «محمد» يتفرس بإمعان في أرضية الغرفة. كان قد خيّم صمتٌ ثقيلٌ عليهما وعلى المكان.

ـ مفروض عليك أن تشارك؟

ـ «فرح»، يجب أن أشارك، وأرغب في ذلك. أنتِ تعرفين من أكون.

أشارت الفتاة بالموافقة. كانت تعرف أنها ستتزوج بثغري، بمقاتل حدود. كانت تحبه لحد أن صدرها كان يؤلمها حينما تفكر فيه، وكانت مستعدة لتقبل غياباته، والصبر على لواعج الانتظار.

ـ سأدعو اللّٰه في صلواتي حتى يحفظك.

ـ سنغادر بعد غد، وسنعود بمشيئته بعد أيام. هوني على نفسك.

أجابت «فرح» بتنهيدة. في حين لبس «محمد» للتو ونهض لينصرف. ضمها إلى صدره وتبادلا قبلة طويلة شديدة في قوة لحظة الوداع ثم قفز النصري إلى القرميد.

كان «محمد» متأثرا، والانفعالات تتزاحم على

فم معدته. قرر أن يذهب إلى منية «أشقيلولة»، ويركب حصانه ليروِّح عن نفسه قليلا. لما وصل الحظيرة رَكَّبَ على الفرس «برميخو» العنان واللجام وباقي العدة، واستعد للركوب. وكان قد راجع المرة تلو الأخرى الاسم الذي سيطلقه على حصانه الكميت [الأسمر المحمر]، وأخيرا ارتأى أن «بيرميخو» هو أحسن الأسماء لفرس مملوك لأسرة بني نصر. سحب الفرس من العنان إلى الخارج، وهناك امتطى صهوته.

ركض بتأنٍ حتى لا يرهق حصانه. كانت الليلة دافئةً والسماء صافيةً. ولم يكن الهلال قد أهل بعد، في حين تناثرت في أعنان السماء النجوم والثريات وضاءة متلألئة في انتظار إطلالة الهلال. كان مشهدها يسبب له إحساسا بالدوار. تمشى بين السبل التي كانت تقسم الرياض والبساتين، ودون أن يشعر وجد نفسه يقترب من موقع الرباط، بداية ونهاية عديد من الطرق. لم يترجل، بل سار بين بقايا الأطلال متجاهلا ذلك الألم القديم الذي كان يقضه، في حين كان «بيرميخو»، طيعا سهل الانقياد. كان «محمد» يحمل معه دائما قطعته النقدية الرومانية. تأمل في مشهد الثور الذي يجر المحراث. فأحس بقشعريرة تسري في جسمه.

- ها قد حان الوقت لقلب العملة.

***

- في يوم المغادرة، فسحت «أرجونة» لأهلها في إقامة الاحتفالات، وعمها جو من البهجة والسرور. فإضافة إلى تلامذته، جمع «أشقيلولة»

زُمْرَةً من ثمانية رجال في ريعان الشباب متوفرين على تدريب أولي. وكان القائد قد ساهم بخمسة جنود، كما حصل الاتفاق عليه. على رأس الفرقة الصغيرة سار جنود القصر بدروعهم، وتُروسهم المدورة، المصنوعة من الخشب، والمغلفة بالجلد. اثنان منهم كانا فارسيْن من حاملي القوس. في حين سار اثنان آخران، أحدُهما كان «هادي»، يحملان حَربتين، وقد عُلق بمَنْطِقَتَيِ الرجلين سيفان. أما الزعيم، وكان بربريا، أسمر اللون مُتَغَضِّن الجلد، فكان مسلحا بسيف ورمح مزخرف بمناديل من ألوان مختلفة علقت بأذني السنان.

بعدهما سار الأخوان «أشقيلولة» والأخوان نصر: كان كل من «إبراهيم» و«عبد الله» مسلحا برمح وسيف وتُرس، وكانا يحتميان بزَرَد، وخوْذَة حديدية، ذات واق أنفي، وموشاة بِوِشَاح من الحرير الأخضر. أما «محمد» و«إسماعيل» فقد لبس كل منهما سروالا طويلا، وجلبابا منسوجا من الصوف الأبيض، شُدَّ عليه في الوسط بنطاق أحمر. وأما أسلحتهما فكانت حربة لكل واحد منهما، ومقمعة وتُرس سلمه الجد «أشقيلولة» لكل منهما.

وفي نهاية الموكب سار باقي الأرجونيين، بحراب من صنع رديء، ومِقْمعات، وأحيانا توفر بعضهم على خناجر شُكلت في الأحزمة. أحدهم، وكان حطابا، حمل معه فأسه التي يستعملها للتشذيب والتقطيع. «إن أعناق بني آدم لَدْنةٌ أكثر من جذوع الأشجار» أجاب حينما سُئِل. وكان بين الثغريين «أحمد بن إسحاق»، غريمُ «محمد»، كان أبوه قد حثه على الالتحاق بالمجموعة. كان يريد الجاه،

ويبحث عن شرف المنزلة لأهله.

سار المقاتلون عبر شوارع أرجونة من القصبة إلى باب «أندوجر». كان الناس يحيطون بهم في كل مكان يصلونه. فقد مر زمن طويل دون أن تُنظَّم غارة بهذه الأراضي، ومن ثم صفق سكان البلدة لهؤلاء الثغريين البواسل من صميم قلوبهم وإيمانهم بالجهاد.

ـ هذه هي الوحدة الحقيقية بين المسلمين وليس وحدة الألفاظ وخطب الوعظ. ـ قال «محمد» لأخيه.

كان الناس أيضا خارج نطاق البلدة، خاصة الأطفال الذين كانوا على استعداد للجري وراء المتطوعين مئات الخطوات.

ـ حفظك الله ورعاك يا «محمد»، أنت وجميع من يرافقونك ـ صاح «عمر الحسون»، وهو واقف في ناحية من الطريق تحيط به طائفة من أتباعه، بينما رفع «حسن» صديق العائلة يده، وهو يودع الثغريين. بغتة، نبه «إسماعيل» أخاه، وطلب منه أن ينظر إلى ناحية أخرى، هناك، وقفت وحيدة فتاةٌ مُلثَّمَةٌ تتطلع إلى الموكب. عرفها «ابن الأحمر» في الحال. كانت «فرح» تدعو له في صمت، في حين كانت عيناها تَنْقُلان إلى حبيبها ما تكنه له من حب كبير.

اختفى الثغريون بين الحقول، في اتجاه الشرق، عبر طريق «أندوجر». وبذلك انتهى العرض العسكري الذي خطط له «أشقيلولة» ذاتُه حتى يَشْهَد الجميعُ ابنيه وحفيدَيه يغادران نحو الثغور

[الحدود] بحثا عن المجد.

كانت السماءُ مكفهرة بالسحب، وبدا أن الثغريين كلما تقدموا في مسيرهم كلما زاد احتمال سقوط المطر قوة. كان الرجال قد قدروا أنهم سيصلون إلى «برج الحمَّام» مساء. بعد الظهيرة بدأ بعض الرذاذ ينزل لكنه لا يتوقف، حتى إذا مرت حوالي ساعة، تحول الرذاذ إلى مطر كثيف. إثر ذلك، شرع البربري الذي كان يتزعم القافلة يتفحص جميع الاتجاهات. بعد لحظة أنبأهم بأن عاصفة أكثر شدة تقترب في اتجاههم من الشمال. فأمر بحَثِّ الخُطى. شرعت الخيول تخُبُّ،(11) وتقدم الموكب مسافة لا بأس بها، إلى أن رفع الإفريقي ذراعه.

ـ كم بقي للوصول؟ ـ سأل الإفريقي أحد القواسين كان عارفا بالمنطقة.

ـ أقل من نصف ساعة.

ـ هل على الطريق قرية قريبة؟

تطلع الرجل إلى الطريق، واتخذ شجرة بلوط نقطة مَعْلَم، يسترشد بها، ثم قال بعد هنيهة.

ـ نعم، توجد قرية على مسافة قريبة، يتم الولوج إليها عبر طريق جانبي من اليمين.

ـ سر بنا إلى هناك. ـ أمر الرجل.

تبع الرجال الستة عشر المرشد إلى غاية مدخل قرية يحيط بها سور مطلي بالجير. مقابل الباب الكبير ذي الدفتين. نادوا بأعلى أصواتهم القاطنين، غير أنهم لم يتلقوا جوابا، لكن في

المرة الثالثة أطل عليهم من طاقة رجل في حوالي الخمسين من عمره، لابسا سُترة من الفرو، ومسلحا برمح.

ـ من هناك؟ سأل باللغة الرومانثية.

نظر الزعيم البربري إلى الأندلسيين وهو يلح على أن يجيبه أحد منهم.

ـ أتينا من «أرجونة»، ونحن في الطريق إلى «برج الحمام» لنغير على النصارى ـ شرح «إبراهيم» ـ ونريد سقفا نقضي به ليلتنا.(12)

كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة، في حين أعطى الرجل مهلة لنفسه ليتفرس في المجموعة، وفي الأخير أغلق الطاقة، وفتح الباب.

ـ هيا ادخلوا! ـ صاح الرجل بالعربية الآن ـ إلى الحظيرة هناك!

أطاع الثغريون، ودلفوا بسرعة في اتجاه الموضع، وفي أعقابهم القروي.

ـ عذرا عن عدم الثقة ـ قال القروي وهو يرفع الرمح ـ إنها أوقات عصيبة وهذه المنطقة خطيرة. ـ استطرد وهو يتطلع إلى الرجال وأسلحتهم ـ يسعدني أن أرى الدماء ما زالت تجري في عروق الأندلس... إن شاء الله ستُلقِّنون هؤلاء المشركين درسا سيكون عبرة لهم. ـ أحس الأرجونيون بالفخر ـ يمكنكم أن ترتاحوا هنا. في تلك الزاوية تجدون حطبا يابسا، وهناك يمكنكم إشعالُ النار ـ أشار إلى مكان مُعَلَّم بحجارة ومليء بالرماد. بغتة، سمع الجَمْعُ ضجة في نهاية الحظيرة، استداروا نحو مصدر الصوت، لكن الظلام كان

يغطي المكان، فلم يروا شيئا. ـ لا تخافوا، ـ قال القروي ـ لن تصيبكم بسوء. إنها منعزلة في غرفة أخرى، إنها أرملة أخي. أصيبت بالجُذام، وطردوها من قريتها. ـ ظهرت على الرجال علامات قلق ـ نحن ورعون نحب عمل الخير في هذه القرية. ـ فلتهنأوا، وليلتكم سعيدة. ـ خرج القروي ثم هدأ من مخاوف سكان القرية قبل أن يدخل بيته.

أشعل الأرجونيون النار، وتحلقوا حولها، ليجففوا أعضاءهم المتورمة. على التو، لمع من بين ألواح الخشب نور وهاج انبعث من برق خاطف أضاء المكان. تبعه على الإثر هدير رعد شق عنان السماء. أعقبه تأوه مخنوق صدر عن المرأة المجذومة. بعد قليل بدأ الماء يتسرب من السقف، فباتت معه النار غير كافية لتدفئة الرجال. ستكون الليلة ليلاء، دون شك، وفي غاية الطول. خارج الحظيرة استمر المطر في نزوله غير أنه بدا كما لو أن العاصفة بدأت تتراجع.

ـ أنتما الاثنان ـ توجه الإفريقي إلى قَوَّاسَين ـ تناولا شيئا من الطعام. أريد أن تقوما بجولة استطلاع حول «بُرج الحمَّام». تأكدا إن كان دخان ما ينبعث من القلعة.

طق الرجلان بفميهما، غير أنهما لاذا بالصمت.

تناول القواسان عَشاءهما، ثم خرجا لتهيئة فرسيهما. رويدا رويدا أخذت العاصفة تخلي السبيل لمطر خفيف. في حين تحلق الخمسة عشر من الرجال الباقين حول النار، وهم يخوضون في الحديث. أما «أحمد بن إسحاق» و«محمد» فكان كل منهما يتجنب الآخر. بينما كان «هادي» يحس

بنفسه متضايقا وهو بين الأفارقة، كانت حاله شبيهة بمركبٍ مبحرٍ بين ضفتي نهر دون أن يصل إلى أي منهما.

ـ فعلت فعْلَها النبال والحراب ـ علق أحد البرابرة ـ هاجموهم من وراء، وأعاقوهم عن الوصول إلى منابع الماء.

كان الثغريون قد بدأوا حديثا عن صلاح الدين الأيوبي ومعركة حَطِّين التي وقعت قبل ذلك بحوالي ثلاثين سنة. وكان الإسلام قد حقق خلالها نصرا كبيرا، بعد أن هُزم ملك القدس «گُويْ»(13) نفسه، وأسره المسلمون.

ـ حقا، فعلت فِعْلَها النبال والحراب ـ وافق «محمد»، لكن وراءها كان عقل كبير مدبر، وذراع قوية مصممة على النصر. كان صلاح الدين قد تحول إلى بطل الإسلام، بعد أن استولى على «بيت المقدس». ولطالما اعتبره «ابن الأحمر» نموذجا يحتذى. وبالرغم من مرور عقدين من الزمن على وفاته، فإن شخصه ما زال يحظى بتقدير المسلمين والمسيحيين.

ـ أنا متفق ـ قال «عبد الله»، ثم أضاف وقد ذكر كلام والده ـ يوجد دائما وراء أعظم المقاتلين، شخص ما يدبر الأمور ويتخذ القرارات.

أخذت حيوية الدردشة تَخْفُتُ بالتدريج. وبعد حين استسلم الرجال للنوم. في تلك اللحظة كان المطر قد توقف في الخارج، بينما استمر تسرب الماء إلى داخل الحظيرة. وفي وقت متأخر من السَّحَر عاد القواسان.

ـ وصلنا إلى غاية «برج الحمَّام»، وقمنا بجولة استطلاع حوله من جهة الشمال. بدا لنا أن القلعة والقرية المجاورة لها خاليتان. ـ حكى أحدهما ـ لم نلحظ أي علامات حياة بالمكانين، ولا رأينا أضواء أو دخانا. ثم سرنا طرقاً جبلية ضيقة تمر عبر ربوات مليئة بأشجار البلوط والصنوبر ـ اقترب القواس من النار ليتدفأ بها ثم استطرد ـ فلم نر أثرا لقطعان مواشي، وإن لمحنا عمودا رقيقا من الدخان يتراقص من بعيد، من جهة الشمال.

ـ حسنا، هذا أفضل من لا شيء. ـ تنهد البربري ـ تدفأوا قليلا ثم سنغادر.

سُمع تأوُّه بصوت خافت... وقبل أن يطلع النهار تحركت المجموعة لتغادر القرية.

ـ صلوا من أجلي! صلوا من أجلي! ـ صرخت المجذومة من الجهة الأخرى من الجدار. كانت المسكينة تصرخ بصوت يائس قانط.

ـ سنفعل! ـ صاح «إبراهيم»، وهو يقترب من الجدار في حالة أقرب إلى الذهول.

***

غادر الثغريون القرية في نظام. تموضع القواسان في المقدمة حتى يضبطا الاتجاه. في تلك اللحظة هب نسيم صباحي زاد من برودة ثيابهم المبللة، وجعل القوم يرتعشون من البرد. وعند الفجر وقد اقترب الركب إلى «برج الحمام» لفوا لفة صغيرة، ثم ساروا شمالا. ومن قمة رابية يكثر بها شجر السَّنديان، أشار المرشدان إلى المكان الذي رأيا به الدخان.

- لنقترب من المكان عبر الأدغال. - أوعز الإفريقي إلى القوم.

اجتاز الرجال غابات البلوط إلى أن وصلوا إلى واد صغير تغطيه أجمة من الأحراج. كانت الشمس قد أطلت من وراء الأفق، والسماء صافية الأديم. قبالة الزمرة انفتحت غابة صنوبر خيمت عليها سحب صباحية خفيفة. لحظتها أعلم أحد الأرجونيين بدخان يتصاعد من فوق الأشجار. كان عمود الدخان ضعيفا كما لو أنه يأتي من وراء أشجار الصنوبر. لم يتردد الرجال، وفي إصرار ولجوا الغابة.

***

كان نسيم الصباح يهز أعالي الأشجار المبللة، فيتسبب ذلك في تساقط مستمر لقطرات الماء على رؤوس الفرسان الخمسة. كان الرجال يرقبون، في سكون تام، الطريق الجبلي الذي يقطع غابة الصنوبر. ومن موقعهم القريب من نهاية الغابة كانوا يحدقون في جمرات النار التي أشعلوها في البطحاء. كانوا مسلحين برماح دون أُذَيْنَات وسيوف، ومحميين بدروع حديدية سابغة، وواقيات سواعد من الحديد، في حين اعتمروا غَفْرات من زَرَد تحت الخُوَذ، ولبسوا فوق الدروع جلابيب السِّيسْتِرْسِية البيض(14)، مرسوم عليها صليب كبير تنتهي أطرافه بصور زهرات السوسن. وكانت صورة هذا الصليب هي نفسها المرسومة على التروس المستخدمة من قبل فرسان «قلعة رباح»، وعلى التجافيف(15) التي كانوا يضعونها على شبكة الزرد التي تحمي جيادهم. وكان اثنان من

الفرسان يعتمران خُوذَتَين أسطوانيتين، وواحد خُوذةً عادية، بينما اكتفى الاثنان الآخران بعمرتي زرد مما يُلبس عادة تحت الخُوَذ، شُدَّ عليهما بشريط بمقدار ارتفاع الجبهة. كانت العُصبة قد قضت حوالي أسبوع بتلك الأنحاء، تنتظر جوابا على الإشاعة/الطُّعم التي أطلقوها بانتشار قطعان وفيرة من المواشي القشتالية بتلك النواحي دون حماية.

تحمّل الفرسان النصارى العاصفةَ في العراء، ونضبت مؤونتهم أو كادت، لكنهم رأوا في النهاية أن جهودهم ربما ستؤتي أُكُلَها، وأن الطُّعْمَ قد أفلح في جر العدو إلى المصيدة.

في هذا الخضم، خرجت زمرة من المقاتلين من غابة البلوط، وشرعت في قطع الوادي. في الحال تهيأ الفرسان الرهبان لتنفيذ الكمين.

كان «المايسطري» رئيس رهبانية قلعة رباح قد أمر، مدفوعا برغبته الشديدة في معاودة القتال ضد المحمديين، بتنظيم غارات صغيرة عبر الحدود. وكان الفرسان يتبارون فيما بينهم للمشاركة في هذه الغزوات الصغيرة عبر الثغور الإسلامية. كانت «رهبانية قلعة رباح» قد تعافت تماما من آثار الخسائر التي تكبدتها في معركة الأرك، إضافة إلى أن مركزها الجديد الذي بات معروفا بين الجميع باسم «قلعة رباح الجديدة» كانت الأشغال به على وشك الانتهاء في القريب العاجل.

بغتة، كسرت جلبة حوافر الخيل الصمت المخيم على الغابة. في الحال برز الفرسان: خمسة من الأفارقة مدرعون بدروع قصيرة، يليهم اثنا عشر

من الرجال سيئي العُدَّة والسلاح. فورا، من موقعهم المرتفع، ومتخفين بين الأشجار، سد «فرسان القلعة» تشكيلتهم، واستعدوا للهجوم. بعد هنيهنة، أومأ زعيمهم بيده وهو يشير إلى الأفارقة. على التو، وافق الأربعة بحركة من رؤوسهم دون أن ينبسوا بكلمة. بعد ذلك، قَبَّل الزعيم من تحت الخُوذَة صليبا كبيرا من الفضة كان معلقا بعنقه، ثم همس بصلاة.

***

خفف المرشدان من سرعة السير. كان الطريق يمضي عبر منحدر على سفح رابية حافلة بأشجار الصنوبر الكثيفة. تقدم البربري حتى أصبح على رأس الرجال. بغتة، صوتت حوافر الخيل من فوقهم، تزيد من تأثيرها المرعب حركة الأشجار، والخيل يخترق الغابة.

ـ احترزوا! غادروا إلى السهل! ـ صاح الزعيم، وقبل أن ينفذ أمره، هبط على الثغريين من فوق خمسة من الفرسان الرَّبَاحيين في تشكيلة محكمة.

قتل على الفور في هذا الهجوم أفريقيان، بينما سقط ثالث من جواده، وهو مجروح جرحا خطيرا في صدره. غير أن الفرسان لم يتوقفوا، وسرعان ما استداروا من جديد استعدادا لحملة أخرى. كان البربري الذي ترأس المجموعة منذ مغادرتها أرجونة أحد القتيلين، فبقيت حربته الموشاة بقطع الثوب الملونة مطروحة على الأرض لم يعبأ بحملها أحد. ولم يلبث أن تمكن الخوف من الأرجونيين الذين لم يسبق لهم أن واجهوا موقفا

قتاليا واقعيا. «هادي» وأحد القواسين، وهما المقاتلان الوحيدان المحميان بالزرد اللذان ما زالا يمتطيان فرسيهما، هاجما فُرسان القلعة بأسلحة الرمي، غير أنهما لم ينالا منهم شيئا سوى الدفع بهم إلى الانحراف عن مسارهم. فانسحب المسيحيون إلى الوراء ليعاودوا الهجوم على الأرجونيين.

على حين غرة ضجت الغابة بلغط وصراخ. وبدأ الفرسان عديمو التجربة، والعاجزون عن الدفاع عن أنفسهم في السقوط قتلى، أو جرحى إصاباتهم مميتة. على الفور همز «محمد» «برميجو» ليقترب من العدو، في نفس الوقت الذي راح يحفز بلدييه على التقدم من خلفه.

- هيا، احملوا عليهم! - صرخ «محمد» وقد انطلق كالسهم يَتبَعُه فَارِسَا الحامية.

كان وقتها الأرجونيون الذين نجوا من الهجوم الأول قد لاذوا بالفرار. على الإثر لمح «ابن الأحمر» أحد الفرسان الرباحيين يتعقب «أحمد بن إسحاق»، فرمى الفارسَ النصراني بحربته. فأصابت الحربة الفارس في ضلعه دون أن تقتله، أحمد وقد خَفَّف عنه تدخل «النصري» استمر في هروبه نحو الأجمة، لا يلوي على شيء.

- جميعا من أعلى! - صاح «محمد» في اتجاه «عبد اللّٰه» الذي أدرك الفكرة سريعا وسار بـ «إبراهيم» و«إسماعيل» وهادي إلى موقع مرتفع استعدادا للهجوم من هناك.

أما «محمد» والقواس الراكب فقد استمرا في

هجومهما انطلاقا من الطريق. كان قد سقط وقتها خمسة من الأرجونيين، في حين كان الفرسان النصارى، وهم متمرسون غاية التمرس على فنون الحرب، ينفذون مناوراتهم الفعالة في دقة وانضباط. ومع ذلك، تمكن القواس من رمي أحدهم، لكن درعه تلقى صدمة النبال، وحال دون أن يصاب الفارس القشتالي إصابة كبيرة، حينها ركز الرباحي كل انتباهه فيهما، وحمل عليهما، وقد استبدت به نوبة من حنق وغيظ، على التو رمى «محمد» النصراني بحربته، غير أن هذا تمكن من تفاديها بحركة من تُرسه أبعدتها عن مسارها.

ـ الآن ـ صرخ «ابن الأحمر».

من أعلى حمل الرفاق على الفرسان الثلاثة الذين ما زالوا يقاتلون ضد المؤخرة الإسلامية. في نفس الوقت ابتعد القواس البربري ليهاجمهم من وراء. وقبل أن يصلوا سقط أرجوني آخر.

«محمد» استقبل من هاجمه بالمقمعة في يده. غير أن رمح العدو أصابه في تُرسه الدائري الذي تكسر إلى قطعتين وطَوَّح بـ «النصري» أرضا. لكن النصراني فقد رمحه، ودفعت به قوة الاصطدام، هو أيضا، إلى الأرض.

نهض «محمد» والرَّباحي في الآن عينه، وأصبح أحدهما مقابلا للآخر. في ذات الوقت انضاف إليهما، والسيف بيده، النصراني الثالث الذي كان «ابن الأحمر» قد أسقطه سابقا. كان الرجل يتألم والدم ينزف من جنبه جراء الضربة التي أصابته من «محمد». واجه ابن الأحمر الأقرب إليه، ووجه إليه

ضربة بالمقمعة أطارت السيف من يده، فسقط الحسام ثقيلا على الأرض. غير أن «ابن الأحمر» سرعان ما قذف بالمقمعة في اتجاه غريمه، دافعا بكل ثقل جسمه نحو الأمام ونزل بها مرة ثانية على رأس غريمه. أحدثت الضربة صوتا معدنيا أعقبه تطاير خوذة خصمه في الهواء، وفوران دم غزير غطى وجه النصراني قبل أن يسقط دون حراك على الأرض الرطبة. مباشرة استدار «محمد» لمواجهة المهاجم الثاني دفاعا عن نفسه.

ـ ولا غالب إلا الله! ـ صاح وهو يستعد لمعالجة الوضع الجديد.

حينما أصبح الفارس أمامه، تصنع حركةً خادعةً ناحيةَ اليَسار، جعلت غريمه يستدير ناحيته، حينها تحول «النصري» إلى اليمين بسرعة البرق، وضرب الرباحي في كتفه. على الإثر، سمعت طقطقة العظام وهي تتكسر ليبقى الذراع معلقا دون قوة.

ـ استسلم! ـ قال للفارس بالرومانثية ـ استسلم! ـ ردد.

استبد بالنصراني الحنق العظيم، وثار ثورة بركان هائج ـ فصرخ ليخفف عن نفسه، ثم حاول أن يضرب «محمدا» لآخر مرة، لكن «ابن الأحمر» سرعان ما تفادى الضربة بسهولة، ونزل على قفا النصراني بالمقمعة، فسمعت من جديد طقطقة العظام قبل أن يسقط الرجل على الأرض وهو ينتفض انتفاضة الموت.

في الحال، عاد «النصري» في اتجاه رفاقه في

الجهة الأخرى من الطريق. فوجد أن الهجوم هناك قد توج بالنجاح. كان أخوه، وخالاه، والقواس الفارس، و«هادي» والحطاب يجهزون على آخر فارس رباحي على قيد الحياة. كان الشهيق ما زال يسمع من النصراني حينما خرج «أحمد» من الأجمة يحمل رمحا، وهو يصيح كما لو أنه يبحث عن غريم لمواجهته. لم يلتفت أحدٌ إلى ناحيته، واستقبلت صيحاته باعتبارها مدعاةً للسخرية والضحك.

خرجت روح الرباحي، فخيّم الصمت للحظات. كان القتال صعبا قاسيا، وكان الجميع، باستثناء أحمد، مخضبين بالدماء، وما زالوا يلهثون من الجهد الذي بذلوه في القتال. كان ثمن النصر غاليا: فقط نجا من القتال ثمانية أفراد.

ـ لا نعرف إن كان هناك آخرون. ينبغي أن نتحرك بسرعة. ـ قال «محمد»، ثم دنا من الرجال ـ أحسنت العمل ـ خاطب «عبد الله»، الذي قاد الهجوم، وهو ما أثلج صدره، وغمره بالفخر.

قبل الجميع بسلطة «ابن الأحمر»، بمن فيهم رجال الحامية، في حين أحس هو بارتياح وهو يتقمص دور الزعيم. حملوا أجساد قتلاهم على متون الخيول التي مات عنها فوارسها بما فيها أحصنة الفرسان النصارى. ثم جمعوا الأسلحة من الأرض، وكونوا قافلة صغيرة للعودة إلى «أرجونة».

اقترب «أحمد» من «ابن الأحمر» مطأطئ الرأس، ثم تموضع بجانبه. سار الشابان فترة قبل أن يجرؤ «أحمد» على الكلام:

- لقد أنقذت حياتي. - بهذا الأسلوب قدم شكره لـ «محمد». - أعقب نطق «ابن إسحاق» بالعبارة صمتٌ قصير قبل أن يستطرد: عدت حقا لكي أقاتل. - حاول أن يبرر موقفه.

- لا يعود إلي أمر الحكم عليك. أنا فقط رأيتُ ما فعلت.

مرت ثوان ثم تنحى «أحمد» جانبا ولم يقترب مرة أخرى من «محمد».

- أيها الرجال اسمعوا، - كانت القافلة الصغيرة على مقربة من «برج الحمَّام»، حينما خاطب ابن الأحمر الناجين - لا ينبغي لأحد أن يحكم على هذا الرجل بسبب ما حصل - كان يتكلم وهو يشير إلى «أحمد» - فلم يكن في مقدوره أن يواجه الفرسان النصارى لأنه لم يتلق أي تدريب عسكري، وكلنا نعلم ذلك. هل تفهمون ما أريد قوله؟

وافق الجميع واحدا واحدا على الاحتفاظ بسر جبنه، والتزامهم الصمت بهذا الخصوص. تنفس «ابن إسحاق» الصعداء، ثم ذهب إلى نهاية الركب وراء الجميع، وأجهش بالبكاء، وانتحب بمرارة، جراء ما صدر عنه من تخاذل في المعركة.

دنا «إسماعيل» من أخيه وقال:

- قتلت أحد الفرسان يا «محمد»، أنا وحدي صرعت واحدا منهم. - حكى لأخيه منفعلا - طعنته بالحربة فسقط مصابا بجرح خطير... قَتْلُه بعد ذلك كان سهلا. - ابتسم ابن الأحمر لأخيه.

برزت لهم «أرجونة» عند العشي. فجرى خبر

رجوع الثغريين من فم إلى آخر، وتحول الطريق، من السور الخارجي إلى القصبة، إلى استعراض امتزجت فيه الهتافات والتهاليل بأصوات النحيب والبكاء، واختلط فيه أهل البلدة الفخورون بصنع أولادهم بالأسر الممزقة قلوبهم بسبب فقدان عزيز. حاول المقاتلون أن يحافظوا على رباطةِ جأْشِهم وثَباتِ جَنَانِهم، غيرَ متأثرين بما يظهره الناس من مشاعر أو حزن. وبعد قليل وبمظهر غاية في الرصانة والوقار صعدوا في العقبات المؤدية إلى القصبة حيث كان ينتظرهم القائد.

***

في اليوم التالي، ومع بزوغ الفجر، ذهب «أشقيلولة» إلى القصر بطلب من الحاكم. قريبا من الباب كانت تسمع صرخات البربري. كان الرجل في صحن القصر مع اثنين من جند الحامية الناجين.

ـ ثلاثة رجال، فقدت ثلاثة رجال! علما أن النصارى لم يكونوا سوى خمسة. وأنتم عوض أن تتسلموا القيادة حينما قتل قائدكم، تركتم فتى أندلسيا يقودكم. يا للخجل!

سمع صدى صفعتين. ابتسم على إثرها «النبلي» بسرور. دخل إلى الصحن في ذات الوقت الذي اقتيد فيه «هادي» والقواس إلى الزنزانة، حيث سيقضيان أسبوعا. كانت عينا القائد تشعان نارا بفعل شدة حنقه.

ـ غارة بسيطة، وغنيمة سهلة! ـ كان الرجل يتصنع الحركات بيديه. ـ ستة من سكان المدينة،

وثلاثة من جنود الحامية، كل ذلك ثقة بكلام تاجر لعين.

ـ كان هذا التاجر أحد جواسيسهم. ولا شك أنه قد انتقل، الآن، إلى الجهة الأخرى من الحدود. ـ خاطب «أشقيلولة» القائد في هدوء.

ـ ولماذا لم تفكر في الأمر قبل ذلك؟ كان بوسعنا وقتها أن نوفر مقتل عدد من الرجال.

ـ أي أن يستمر فرسان القلعة في الثغور. ـ أجاب «أشقيلولة» بشكل قاطع ـ لم يكن بالإمكان معرفة أن المسألة كانت خدعة، ومع ذلك لا أندم على ما وقع... وأذكرك أن وَلدَيَّ وحفيدَي كانوا في الزمرة مشاركين في القتال. كان الفرسان يستهزئون بنا، ويسخرون منا، وكان علينا أن نرد. حقا قتل مسلمون، لكن أيضا قتل الكفار الخمسة الذين غزوا أراضينا. سيفكرون في الأمر جيدا في المرة المقبلة.

ـ كان علينا أن نفعل ذلك بوسيلة أخرى. ـ رد القائد وهو يضغط على أسنانه.

ـ كنت قد طلبت منك عددا أكبر من الجند النظامي. لكنك رفضت. ماذا تنتظر أن يحدث حينما ترسل إلى المعركة رجالا دون تدريب عسكري. ـ خيم صمت ثقيل بين الرجلين، «أشقيلولة» قرر أن يثير موضوعا آخر ـ لقد أحضر العائدون معهم غنيمة حسنة من السلاح والجياد.

ـ عاينت ذلك. عتاد كامل لخمسة جنود، وخمسة جياد. سيأخذ الخليفة عُدَّة جندي واحد، وفرسا واحدا. ـ وحينما ذكر الخليفة كان يعني نفسه،

باعتباره ممثلا له في «أرجونة». أما الباقي فسيقسم حصصا متساوية.

- أرى ذلك منصفا. انحنى النبلي قليلا علامة على الاحترام. ثم سلم وانصرف. لقد سارت الأمور بطريقة غير التي كان قد قدرها، ومع ذلك وبالرغم من كل شيء كان هناك الكثير المفرح الذي ينبغي الاحتفال به، فقد مُزِّقَ الموحدون في حَمْأةِ الذل، وسقط المسيحيون، وعلا نجم أسرته بفضل جدارتها ومؤهلاتها الذاتية. إن المناسبة تستحق الاحتفال.

***

كانت الثريات تضيء القاعة بمناسبة الاحتفال بعودة الأولاد سالمين، وعلى المصطبة الخشبية جلس «أشقيلولة» و«يوسف» وأبناؤهما حول مائدتين. كان «هادي» أيضا حاضرا، ومن جملة المدعوين الذين كان عددهم محدودا. فقد كان «أشقيلولة» يريدها حفلة حميمية، حتى لا تتحول المناسبة إلى فضيحة في لحظات الحزن تلك، حيث كانت بعض الأسر تبكي قتلاها.

كانت خدمة تناول العشاء قد انتهت، والزوجات غادرن إلى غرفهن. فجأة، دخلت جارية تحمل جرة خمر من النوع المالقي.

- آه يا «نبلي»، من أين حصلت عليه؟ - قال «يوسف» فور شمه رائحة الشراب.

- رجل مثلي له وسائله الخاصة. الأندلس الممتدة الشاسعة أكثر من أن يراقبها الأفارقة.

توتر «محمد» وانقبضت ملامحه، ثم تطلع إلى

والده. لم يكن ذلك مما يجد هوى في نفسه الميالة إلى الزهد والنسك. أدرك «يوسف» ذلك، لكنه صب لنفسه كأسا من النبيذ، ثم رفعه أمام الجميع قائلا:

- يوم مثل هذا يستحق جرعة من الخمر. - ثم نظر إلى ابنه شَزْراً واستطرد - نحن لا نَعِيبُ السائل، وإنما مفعوله. - كان يتكلم والكأس ما زالت بيده مرفوعة إلى أعلى - لنشرب باعتدال ولا نخل بالأخلاق.

صب «يوسف» النبيذ لابنيه اللذين تقبلا دعوة أبيهما لمشاركته في تناول الشراب. «محمد» وفي تساهل من جانبه، رشف رشفة من كأسه، فوجد الخمرة قوية وحلوة المذاق في آن.

- قل لي يا «هادي»، كيف قاتلوا؟ - خاطب «النبلي» الجياني وهو يشير إلى تلامذته الأربعة. - اذكر ما حصل، ولا تكن مسايرا، متغاضيا عن ذكر الحقيقة. - تحرك «هادي» في مجلسه متضايقا ثم قال:

- كانوا حقا مقاتلين جيدين. لم تخنهم الشجاعة طوال القتال. - تكلم «هادي» ثم اتجه بنظره نحو «محمد»، وحدق فيه لثوان - يمكنك أن تفخر بهم.

- كنت أعرف ذلك. كنت أعرف أنهم سيكونون ثِغريين من الطراز الرفيع الذي لا يهاب النزال. - انفعل «أشقيلولة»، ثم رفع كأسه إلى فمه.

في تلك اللحظة دخل الفنانان اللذان تعاقد معهما «أشقيلولة». كانا موسيقيين، أحدهما حمل عودا، والآخر نايا، وكانت تصحبهما، أيضا،

راقصة تلبس تنورة حمراء بها شقوق طويلة، وزُين معصماها وكعباها بدَمَالِج في لون الفضة. وكان شعرها المموَّجُ المجَعدُ فاحمَ السواد، وملامحها تذكر بملامح اليهوديات.

- اقترب وسلم على قريبتك - همس «عبد الله» في أذن أخيه.

كان «عبد الله» قد عب من الخمرة ما كفاه، فراق مزاجه.

- أملك شعرا يهوديا، غير أني على الأقل أتوفر على شيء فوق رأسي. - جاوب وهو يعبث بشعر أخيه الخفيف.

بدأت الفرجة. افتتح الموسيقيان الوصلة بإيقاع خفيف لين، متوازن النغم، كانت المرأة أحيانا تتمايل، فيصاحب رنين الخَرَز إيقاع اللحن، وتطل ساقاها بين الفينة والأخرى من شقوق التنورة أمام النظرات النهمة للرجال المثارين.

- انظر، إنهما لا يشيحان بنظراتهما عن تينك الساقين - همس «أشقيلولة» في أذن «يوسف» بصوت خفيت. - لقد أصبحا رجلين، والمزاج في كل منهم آخذ في التشكل.

فجأة أحس «محمد» بأن عينين كانتا تتطلعان إليه في تركيز، نظر حوله فوجد «هادي» مصوبا نظراته نحوه. في سرعة أشاح الجياني بنظره عن الشاب في اتجاه الراقصة. انتهت الفرجة وصفق الحاضرون مبتهجين. وقتها جلست المرأة لأخذ قسط من الراحة، وشرع الموسيقيان يعزفان لحنا هادئا. مباشرة طلب «أشقيلولة» من الجارية التي

كانت تقوم أحيانا بدور الساقية المزيد من النبيذ. فأحضرت المرأة جرة أخرى من الخمرة، وسقت الحاضرين.

قبل «محمد» كأسا ثانية من النبيذ، ثم استند في مجلسه إلى جنبه مستسلما، وقد تيقن من صعوبة القيام بزيارة حبيبته تلك الليلة. بعد قليل شرعت الراقصة من جديد في تقديم رقصاتها. لكن «ابن الأحمر» حينها لم يكن متفرغا للتفكير فيها.

***

طُرق الباب. وبعد قليل سمع «يوسف» «كريمة» وهي ترحب بالطارقين، وتدعوهما للدخول. كان الضيفان «إسحاق» وابنه «أحمد» يحملان سلة مليئة بباكورات التين. في الحال نهض «النصري» لاستقبالهما. قال «إسحاق»:

- أعرف أن «إسماعيل» شغوف بتناول التين. فحملنا إليه بعضا منه، وهو من أول ما جنيناه.

- أجل، إنه يحب كثيرا فاكهة التين، - أجاب النصري - شكرا جزيلا. أعتذر عن ولدَي، إنهما الآن في الحقل. يا «كريمة»! - نادى «يوسف» المرأة - هاتي بعض التمر.

- شكرا، إننا ذاهبان، ينتظرنا العمل - اعتذر «إسحاق» - كان ابني «أحمد» يَوَدُّ أن يرى الولدين.

- ستكون هناك فرص للقاء. - أجاب «يوسف» بابتسامة - سأسلم لهما الهدية. - قال ذلك وهو يوجه نظرة تواطؤ للشاب الذي ظل صامتا. عرف «يوسف» سبب الزيارة. كان الأب وابنه يريدان

شكر «محمد» و«إسماعيل» على موقفهما خلال الغارة. ذلك أن الأخوين لم يكتفيا بإنقاذ حياة «أحمد»، بل أيضا أنقذا شرفه.

في مساء اليوم ذاته. اجتمع رب الأسرة النصرية بولديه في صحن الدار. هناك، فوق مقعد خشبي مد دِرْعي «جَامْبِزَان»(16)، وبجانبهما درعان آخران من الحديد مع كل العُدّة، من واقيات الساعد، وعَمْرتين من زَرَد، مما يلبس تحت الخُوذَة. كان «أشقيلولة» قد تَوَسَّطَ ببعض علاقاته، حين تقسيم الغنيمة، لتكون بعض الدروع مما غنمه الشباب في الغارة من نصيب تلاميذه الأربعة.

أمسك «محمد» و«إسماعيل» بـ «الجامبزان» ثم حملقا في والدهما.

ـ لقد اشتريتهما خصيصا لكما، لأنهما يتوفران على حشوة جيدة، بالرغم من أنهما ملوثان بالدم، وقياسهما غير قياس جسميكما..

شرع الوالد في إلباس ولديه الدِّرعين مع كامل العدة حسب الطقوس. بدأ بـ «إسماعيل»، إذ أَثْبَتَ على جِلبابه، على ارتفاع السروال، نطاقا جلديا ثخينا رُبطتْ إليه رباطات الجوارب الشبكية التي تصل إلى غاية الكاحلين. ثم لَحَّفَ الجميع بدرع الكتان المحشو، قبل أن يلبس ابنه الدِّرعَ الحديدي. ثم بعد ذلك، حط على رأسه عَمْرَةَ الزَّرَد التي تلبس تحت الخُوذة، أثبتها فوق عَمرة أولى من ثوب تمنع حدوث الاحتكاك والخَدَشَات. بعد ذلك، انتقل إلى «محمد»، وأعاد عملية الإلباس بكل طقوسها، ثم لما انتهى راح يتأمل النتيجة: بدت الدروع كبيرة

على الشابين، غير أن وزن كُلِّ العدة مع عَتادها لم يكن مُفْرطاً. وفي الختام أراد «يوسف» أن ينهي التشكيلة بشيء مميز، فلف خَصري ولديه بالحزام القِرمزي المتوارث في العائلة النصرية منذ أجيال. تراجع الأب خطوات إلى الوراء ليتأمل ابنيه. كان الشابان يحسان بالثِّقْل، كانت كتفاهما منقبضتين، غير أنه كان باستطاعتهما تحريك الذراعين بخفة ورشاقة. فقد كان الوزن موزعا بشكل جيد على كل الجسم.

بغتة، مرت «كريمة» بالفناء، ولمحت الشابين بلباسهما الحربي، فلم تتمالك، وهتفت في إعجاب:

ـ ها طِفْلَيَّ قد أصبحا رجلين!

ضحك النصريون الثلاثة مقهقهين. ثم بادر «يوسف» إلى نزع الدِّرع وعدته عن ابنه «إسماعيل»، وسرعان ما غادر الفتى الصحن في اتجاه المجلس. حينها وقف الوالد مقابلا ابنه البكر ثم حدق في عينيه لثوان.

ـ ألا تشعر بالحزن يا بُني لقتلك هؤلاء الرجال؟ ـ قال لابنه بصوت هادئ، وهو ينزع عنه الدرع.

ـ قطب «محمد» حاجبيه، مندهشا من السؤال المباغت.

ـ كانوا كفارا يهددون مسلمي الأندلس.

ـ اترك عنك حِيلَ القول للخطباء. أما أبوك فقل له الحقيقة. كانوا من بني آدم، أعداء، ولكنهم بشر. هل يؤرق قتلُهم ضميرَك؟

أطرق ابن الأحمر مرخيا بعينيه إلى الأرض، ثم قال:

ـ أجل، انتابتني أحلام ـ اعْتَرَف.

ـ إني أفهم ما تقول. أن يقع لك ذلك في البداية شيء طبيعي. إن القتال معناه رجلٌ ضد آخر. القتل سهل، يتمزق اللحم، وتتكسر العظام... ثم ينتهي بك الأمر متعودا على ذلك. غير أنه لا تتجاهل أحاسيس الإنسان فيك، احترم كل حياة خلقها الله، وصَلِّ من أجلها. ـ أومأ «محمد» بالموافقة على كلام أبيه، وقتها شد «يوسف» على صدر ابنه واستطرد: ـ ومع ذلك لا تنسَ أبدا أن الآخرين بدورهم كانوا يريدون أن يفعلوا بك وبأخيك ما فعلته أنت بهم. فالأحسن، إذن، أن يموتوا. ـ ختم النصري.

أخذ رب الأسرة «يوسف النصري» كيسا من الجلد، وأَخْرَجَ منه قِلادَةً من الفضة عُلق بها وسام، وقَلَّدَها ابنَه، قبل أن يُقَبِّلَهُ على وجنته. ثم قال:

ـ ستجلب لك الحظ.

تفرس «محمد» في القِلادة، وإذا بالوسام المعلق بها هو القطعة النقدية الرومانية التي كان قد عثر عليها قريبا من الرباط، في ذات اليوم الذي تعرض فيه لهجوم النصارى، فدمروه، وقَتَلوا من فيه. وكان «يوسف» قد كلف أحد الصَّاغة بتحويل القطعة إلى وسامٍ على شكل ميدالية، بنية تسليمه إلى «محمد» في اللحظة المناسبة. تأمل الشاب وجهي العملة: تلك التي صُوِّرَ بها الجُنديُّ، والأخرى التي طُبِعت عليها صورةُ الثور.

وبدا له أنه يقترب أكثر، في كل يوم، إلى الرمح، ويتخلى عن المحراث.

- شكرا أبي، سأحملها معي دائما ما حييت.

أخذ الأب وابنه يجمعان قطع الدرعين ومتعلقاتهما، ثم بعد لحظات استجمع «محمد» شجاعته، وطرح على والده السؤال الذي كان يدور بخَلَده خلال الأسابيع الأخيرة.

- أبتاه متى سيتم الزفاف؟

ارتسمت على محيا «يوسف» ابتسامة عريضة.

- تأخرت كثيرا في السؤال عن ذلك - قال الوالد - في السنة القادمة، قريبا، قريبا جدا.

خفق فؤاد الشاب خفقانا سريعا، وتمنى لو أن الأسابيع تمر عاجلا.

***

قلعة رباح الجديدة Calatrava la Nueva. ربيع 1216

بينما كان القداس اليومي يجري في الكنيسة ترحما على موتى الرهبانية، كان «مرتين» يتجول عبر مقبرة الشهداء، في ظلال القلعة الضخمة المهيمنة على الحصن. كانت المقبرة تقع بين القلعة والسور، على طول القرية الممتدة أسفل السور الأعلى. هناك كان الشهداء ينامون نومتهم الأبدية، شهداء معركة الأَرَك، والدفاع عن «قلعة رباح» القديمة. كان «مرتين» طفلا صغيرا حينما هزت تلك الأحداث المشؤومة أسس الرهبانية، غير أنه كان يَذكُر أحاديث عمه

«ألفونسو»، ووصفه للمعركة، وحكايته عن مقتل أبيه البطولي على يد «الموروس». وبذلك زرع العم في الفتى كراهية المسلم، فتربى «مرتين» على هذا البغض لهم، وقرر منذ شبابه الأول الالتحاق بـ «رهبانية قلعة رباح» ليقاتل المحمديين.

تكفل «ألفونسو» منذ مقتل أخيه بولديه «مرتين» و«رُويْ فرناندث دي بُرْغُش». ومع أنه لم يكن بمستطاع أي فارس تابع لرهبانية «قلعة رباح» أن يكسب ممتلكات مادية، إلا أن «ألفونسو» تكلف بالدفاع عن حقوق أرملة أخيه والحفاظ على ما انتهى إليها من ميراث زوجها. وكان كلما سنحت له فرصة ما يزور العائلة، ويملأ عقول حفيديه بحكاياته. وبذلك تحول العم إلى ما يشبه والد «مرتين» بعد أن فقد والده الحقيقي. ومع مرور الزمن اختار الفتى السير على نهج والده وعمه، فالتحق رفقة أخيه بالرهبانية. لكنهما ا،ختارا طريقين مختلفين: أحدهما فضل سبيل الحرب والقتال، في حين انتقى الآخر طريق الصلاة. وبعد الانتهاء من مرحلة التجربة والتمرين بدار المبتدئين في الترَهُّب سُلِّحَ «مرتين» باعتباره راهبا فارسا، أما «روي» فأصبح راهب دَيْر.

وبينما «مرتين» يسرح في تأملاته وهو يتجول عبر المقبرة، سمع بغتة بعض الصخب. ولمح الرهبانَ يغادرون الكنيسة التي لم تكن الأشغالُ بها قد انتهت. في الحال، بعد مغادرة الرهبان، عاود البناؤون الأشغال، وأعطوا الأمر للعبيد المسلمين بنقل الأحجار من كَوْمة حجر قريبة من

السور. «إن عظمة الرب أرادت أن يعاني الكفار من أجل بناء كنيسة دَيْرِه». فكر «مرتين» بابتهاج، وهو يتفرس في هؤلاء التعساء، أسرى معركة «نابِاس دي تولوسا».

انفصل «روي» عن باقي الرهبان، وسار بين القبور في اتجاه أخيه. كان يلبس على قشابته البيضاء الكَتِفِيَّةَ(17) الإلزامية، وعليها رسم الصليب الأسود المزخرف بصور ورود السوسن.

ـ عمنا «ألفونسو» لن يستريح هنا في هذه المقبرة، التي هي مكانه الطبيعي، بين باقي الشهداء الرَّبَاحيين. ـ قال «مرتين» لأخيه في حَنَق.

ـ هل من أخبار؟ ـ قال «روي» في صوت مرتعش.

ـ أجل، عاد الجاسوس. قال بأنه نجح في التغرير بـ «موروس» «أرجونة»، ودفع بهم إلى «برج الحمَّام». لكن... ـ «روي» وضع يده على فمه خوفا من الأسوأ. تنهد «مرتين» حتى يسترد نفسه، ثم تابع حديثه: ـ هاجموا في عدد كبير، وقتلوا جميع الفرسان وإن كان على حساب عدد كبير من قتلاهم. ارتعب «روي»، وأمسك سريعا بالصليب الحجري لأحد القبور لئلا يتداعى. ـ لا يمكننا استرجاع أجسادهم، ولا صليب الأب الذي كان «ألفونسو» يعلقه بعنقه. فقد حمل «الموروس» الجثث إلى «أرخونة».

ـ «أرجونة» مرة أخرى. يا للسخرية! ـ كان «ألفونسو» قد بنى شهرته قبل سنوات عديدة خلال غارة شنت على أراضي «أندوجر» و«أرخونة»،

حيث دك رباطا مليئا بالمرابطين وسواه بالأرض. ـ رحم الرب الرهبان الخمسة ـ نطق الراهب بشكل آلي، في حين اغرورقت عيناه بالدموع. ـ سنشرع اليوم في الصلاة على أرواحهم. سيذهبون مباشرة إلى الجنة.

ـ صلوا، فإن الصلاة هي شغلكم. ـ خفت «مرتين» من صوته ـ أما أنا فسأنتقم لهم، ذاك هو عملي.

سار الفارس بتأن إلى أن وصل إلى حافة السور. كان «روي» يسير خلفه. راح الراهبان يرقُبان الأشغال في القرية حيث كان المهتدون الرباحيون مشغولين بإنهاء الأشغال في مآويهم. كانت ملامح القرية الصغيرة قد تشكلت وبرزت، فبدت واضحة عدد من الشوارع وهي تمتد من حد إلى آخر. خارج النطاق انتشر بعض الرجال وهم يخدمون الأراضي القريبة، تلك التي تزود «قلعة رباح الجديدة» بالقوت والمؤونة.

ـ ما العمل؟ ـ سأل «روي» وقد امتقع وجهه.

ـ لقد أنشئت مليشيا الرب لخدمته في حربه ضد الكفار. ـ أجاب.

فهم «روي» أن أخاه في حاجة إلى خلوة، فانسحب ليعزل نفسه مع باقي الرهبان في الدَّير، في حين ظل «مرتين» وحيدا حِذاءَ السور.

ـ لن تذهب التضحية سُدى. ـ نَذَرَ «مرتين» على نفسه وهو في وحدته بين القبور، لا يشهد على نَذْره سوى عظام الرَّباحيين.

***

قصد «مرتين» حظيرة الخيل قبل السحر ليسرج فرسه. كان يلبس الدرع والبرنوس الأبيض السِّيشْتِرْسِي الملازم له، والموسوم بصورة الصليب الأسود المميز لفرسان «قلعة رباح». كان الفارس مسلحا برمح، وعَلَّق بسرْج جواده سيفاً وتُرسا على شكل ظُفْر. في حين لم يكن فرسه مجللا بأي واقية أو آلة حامية.

كان قد طلب الإذن من رئيس الرهبانية يومين قبل ذلك. وكان زعيم الفرسان صديقا حميما للهالك «ألفونسو»، فلم يعترض على الطلب، وسمح بخروج الفارس للانتقام، شريطة أن يكون حذرا متحفظا.

خرج «مرتين فرنانديث دي برغش» من «قلعة رباح الجديدة» في اتجاه ممرات «جبال الشارات» Sierra Morena. وكانت حركات الجواد تزيد من الألم الذي يحدثه احتكاك الدرع بجسم الفارس. إذ كانت قوانين الرهبانية تفرض عليه أن يلبس دِرعه خلال أغلب ساعات اليوم، بل وحتى بالليل. وبالرغم من أنه كان مرتديا «الجمبزان» فإن هذا الواقي لم يكن ليخفف عنه هذا العذاب. «سيَتُفنُ كتفاك ويغْلِظان، وعندها لن تحس ألما». قال له أحد الفرسان القدماء.

كان «مرتين» أسمر اللون، أكحل العينين. يبز باقي رفاقه طولا وقوة. وقد عُرف عنه مهارته في استعمال السلاح، وقدرته الكبيرة على تحمل التمارين الجسمانية الشاقة دون تشك. غير أنه لم يكن فارسا بارعا، وإن كان تَحَكمُّهُ في ركوب الخيل أقرب إلى الجودة.

قام «مرتين» بدوران كبير عبر طرق غير مطروقة، حتى لا يرصده «موروس» «شَلْبَطَرَّة»، ثم بعد ذلك ولج «جبل الشارات»، الحد الفاصل بين الأندلس وقشتالة. كان يعرف جيدا أجمات المنطقة وممراتها، إذ لطالما مر من هناك خلال التداريب العسكرية ورحلات الطَّرَد.

كان الأفق قد اصطبغ بحمرة شمس العشي حينما وصل «مرتين» إلى نهاية الغابة. فانتظر إلى غاية هبوط الليل، وارتدى فوق لباسه الميداني عباءة سوداء تعلوها قلنسوة تغطي الرأس. بعد لحظة اخترق الأراضي الإسلامية كأنه شبح من أشباح الليل. كان قد حفظ جيدا توجيهات رئيس الرهبانية حينما راجعا معا الخرائط المتوفرة في الدير. كانت «أندوجر» توجد قبالته، فمال عنها نحو الشرق، وعبر النهر، ثم عرج نحو الطريق المؤدي إلى الجنوب الغربي. اجتاز بعد قليل حقولا بورا مزروعة بالحبوب، ثم ولج حقل أشجار زيتون، وهناك، قرر ترك فرسه، والتقدم فيما تبقى من الطريق مشيا على قدميه.

سارع الخطى، وهو في حمى ظلمة الليل، إلى أن اقترب من أسفل الأسوار الضخمة التي تحمي بلدة «أرجونة». هناك في ممر أعلى السور كان حارسان يقومان بدورية الحراسة. انتظر دون حراك إلى أن استدارا. كانت العباءة السوداء تمنحه شعورا بالأمان، لكنه في هذا الطور بالذات من المهمة كان قلبه يخفق بشدة وجسمه يتفصد عرقا. سار في أسفل السور إلى أن عثر بباب خشبي بجنب أحد الأبراج الواقعة بين استحكامين

في السور. أخرج رَقا صقيلا ودقق السمع. سمع خطوات الحارسين وهما يمران بأعلى السور فوقه. ابتعد سريعا عن ناحيتهما، ثم انتظر قليلا، وأخيرا، سَمَّرَ قطعة الرِّق على الباب بخنجره. ثم انتظر مختفيا مرة أخرى حتى تمر الدورية من جديد. حتى إذا لمح الحارسين يبتعدان عن المكان شرع في العودة إلى الحقل.

لم يهدأ قلبه إلا بعد أن استتر مرة أخرى في حقل الزيتون، ثم بعد فترة عاد أدراجه على فرسه إلى غابات جبل الشارات. حينها كان إحساس بالاغتباط يغمره من رأسه إلى قدميه، كما لو أنه صفى حسابا كان له عالقا مع روح عمه.

«لم يبق الآن سوى أن أنجز النذْر الذي نذرته على نفسي». فكر.

***

**أرجونة Arjona. ربيع 1216**

ترك هادي سلاحه في مستودع الأسلحة، ثم غادر القصر في اتجاه دار «أشقيلولة». كانت هناك أخبار جديدة مهمة، سيسعد، دون شك، رب عمله القديم بسماعها. استقبل «النبلي» هادي في الصحن المركزي لبيته، بجانب البركة. قال «هادي»:

ـ هذا الصباح وجدوا رَقا مُنغرزا على باب «جيَّان».

قوس «أشقيلولة» حاجبيه مندهشا.

ـ طيب، وما فحوى ما كتب فيه؟

ـ تَحَدٍّ. جند القصر يقولون إن الفَعْلَة من عمل أحد فرسان «قلعة رباح». لأن الرَّق يحمل صورة

صليب أسود. ومكتوب بالعربية، وبلغة الرومانثي. قالوا لي إنه تحدث عن الفرسان الخمسة الذين قتلوا في «بُرج الحَمَّام»، وإنه سيأْخذ بثأرهم، وإن «أرجونة» وباقي الأندلس لن ينعما بالسكينة والهدوء، وإن الرهبانية ستحاربنا على الدوام... كلام من هذا القبيل.

ـ لقد نلنا من كبرياء الرَّباحيين ـ قال «النبلي» وهو ينظر إلى «هادي» بابتسامة عريضة. ـ يعجبني ذلك. سنعاني أكثر من غاراتهم، لكننا سنكون مستعدين.

ـ يريد حاكم القلعة أن يعزز من جنود الحامية ويزيدَ من عددهم. فقد اعتبر وصول نصراني إلى أبواب «أرجونة» ذاتها دون أن يحس به أحد مدعاة للخجل. وإنه ينوي تدريب عدد أكبر من الأرجونيين.

نهض «أشقيلولة» من مكانه، وقد بدا عليه بعض التفكير. على الإثر سلم على «هادي»، معلنا بذلك عن نهاية الاجتماع.

ـ شكرا على المعلومة. كنت سعيدا برؤيتك.

«عدد أكبر من الأرجونيين في القلعة... يا له من خبر رائع» فكر النبلي حينما بقي وحده.

***

قصد «هادي» داره مباشرة دون أن يلهي نفسه بالتوقف بساحة السِّنديانة. حيث كان يلتقي، أحيانا، ببعض معارفه من الرجال، لتمضية الوقت معهم. كان مسرعا هذه المرة لإتمام بعض الإصلاحات التي بدأها في بيته.

سمِعتْهُ هبة يدخل، فأسرعت إلى مدخل البيت لمساعدته على خلع جزمتيه.

ـ ألا تُقبلني؟

قبلها الرجل في فمها، ثم خرج إلى الصحن.

ـ انتظر يا «هادي» ـ توقف الرجل واستدار نحوها ـ إنني حامل ـ قالت سريعا وهي تمسح على بطنها. ـ لم ينزل مني دم منذ هلالين.

تأخر «هادي» في ردة الفعل. أشرقت عيناه، في حين ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء. «سأصبح أبا» مر بخاطره وهو بين إحساسين من السعادة والإحساس بالمسؤولية. بخطوتين واسعتين انتصب أمام زوجته، واحتضنها ثم رفعها في الهواء وهو منفعل في غاية السرور.

ـ بحذر، بحذر. ـ كانت هبة تبكي من الفرح وقد رأت ردة فعل زوجها.

ـ يا له من خبر سعيد يا هبة. ـ كان الرجل في حالة إثارة ينتقل من مكان إلى آخر ـ ينبغي أن أصلح كل شيء في البيت. يجب أن تكون الدار في حالة جيدة، سأبيض الجدران بالجير، ثم بعد ذلك سأهتم بإصلاح رفوف خزانات الحائط... غادر في اتجاه الغرفة ليغير ملابسه وهو يترنم بأغنية من أغاني بلده الأصلي جَيَّان. أحست هبة كما لو أن صدرها منتفخ زهوا وسرورا. ربما سيكون هذا الحدث السعيد هو الذي سيجمع بينهما إلى الأبد.

***

ظل «محمد» تحت النافذة يرقب «فرح» في ضوء

القمر. في حين كانت الفتاة تبادله النظرات من سريرها بعينين تُشرِقان بهجةً وفرحا. كان الحب الصافي الذي يجمع بينهما يَدفع أحدَهُما إلى الآخر كما يدفع تيار البحر مركبا دون أشرعة.

ـ لقد ساورني خوف شديد عليك.

ـ لا تخافي علي. إنه تعالى يريدني أن أكون ساعده. هذا ما أحسه وأنا واثق منه.

ـ أطرقت الفتاة، وهي ترخي بعينيها إلى الأرض في صمت.

ـ إن المقابر مليئة بشهداء الإيمان.

ـ إذا كان لا بد من موتي، فإني سأفعل ذلك بكل سرور من أجل الأندلس. لكني أعرف أن ساعتي لم تحن بعد. ثقي بكلامي.

بدا كما لو أن ثقة «ابن الأحمر» في نفسه قد هدأت من خوفها.

ـ أنا سأموت معك ـ قالت «فرح» في همس يكاد لا يسمع.

وقف «محمد» ثم اقترب منها ليقبلها. جلس بجانبها وأمسك بيدها، كان يريد تقبيلها في جيدها، لكنها منعته.

ـ أنا في الأيام القذرة. ـ تنهد «محمد» وتقبل الأمر. ـ سمعت أنك قتلت فارسين. ـ أومأ بالإيجاب. ـ كان من الممكن أن تكون أنت المقتول. أصلي لله في كل وقت وأشكره على بقائك حيا.

ـ أنا أقاتل وأنت تصلين. حقا نُكَون فريقا متكاملا.

استندت الفتاة إلى صدر حبيبها القوي لبعض الدقائق، ثم قبلها «محمد» في جبينها قبل أن يبعدها عنه بلطف ويقف.

- حان وقت انصرافي.

قفز «ابن الأحمر» إلى السطح، وأخذ يمشي. سمع في البداية صوت النافذة وهي تغلق، ثم بعدها وصلته أصوات قريبة من فوق رأسه. كانت قد صدرت منه هفوة مشؤومة. ذلك أنه خرج من الغرفة دون أن يتأكد من موقع دورية العَسَس في تلك الليلة. في الممر بأعلى السور، وعلى بعد خطوات من «محمد» كان «هادي» يراقب الشاب. نظر الجياني إلى النافذة وأدرك الموقف. ثم بعد أن تحقق من أن الحارس الآخر، الذي كان يبتعد في الاتجاه المعاكس، لم يتفطن للأمر، تابع سيره عبر ممر السور كما لو أنه لم يحدث شيئا.

فتح «محمد» فاه ليتمتم بكلمة «شكرا»، غير أن اللفظة سرعان ما تاهت في حنجرته. فعاد إلى البيت بخطى سريعة. في غرفته كان «فرج» ينام هنيئا في سبات عميق. وكان رب الأسرة «يوسف» قد رتب الأمور على هذا النحو الجديد بأن ينام أصغر أولاده في غرفة «محمد». ولم يفت «محمد» و«إسماعيل» سبب هذا القرار، فقد كان يعلمان أن وراء ذلك رغبة أبيهما في النوم مع» كريمة». احترما قرار والدهما، ولعبا لعبة التظاهر بأن المرأة ما زالت، كما كانت، خادمة البيت.

اضطجع «ابن الأحمر» على السرير. وهو ما أيقظ «فرج» متذمرا، دمدم الفتى من بين أسنانه ببعض الكلمات. في حين نام «محمد» على ذكرى دافئة

لشفتي حبيبته.

***

ـ إن القائد الجيد ينبغي أن يتمرس على شؤون القيادة في ساحة المعركة. لكن لا ينبغي له أبدا أن يخاطر بنفسه دون ضرورة. ـ قال «أشقيلولة» لولديه معلقا، بينما كان يمسك في كبرياء بأفضل صقوره. كان الثلاثة يسيرون ممتطين أحصنتهم، وكل منهم يحمل صقره على قفازه. ـ ثم إن القائد الزعيم ـ واصل «النبلي» ـ هو الذي يدرس الأخطار ويقومها، وفي نفس الآن، يُبينُ عن شجاعة وإقدام، دون رُعونةٍ أو هَوَج. وقد تصرفتم كما كان منتظرا منكم: منظمين وفعالين.

ـ نعم، لكن الصيت ذهب إلى النصري. لا أحد في «أرجونة» يتحدث عنا ـ أطلق «عبد الله» كلامه في غضب يصعب كَبْحُه.

ـ حقا سارت الأمور بالنسبة إليه على مايرام، وكان رائعا. وأشكر الله أن حفِظ حفيدي، وابن أختكما. ـ ذَكَّرَ «أشقيلولة» ولديه ـ لكن، مثل هذا السلوك في المعركة يؤدي إلى الموت. ربما ليس في المعركة الأولى، لكن على الأرجح في الثانية أو الثالثة. إن العمليات الهوجاء عادة ما تحقق لصاحبها المجد، غير أنها، أيضا، تؤدي إلى الموت المبكر. أنا لا أريد ذلك لكما. أريدكما أن تكونا من القادة الحكماء، الثابتين الحازمين في ساحة الوغى، من ذوي العقل الرصين الرزين. وبذلك ستصلان إلى الشيخوخة.

ـ لن يصل أخي إلى سن الشيخوخة. في إحدى

سورات الغضب التي تنتابه سيتوقف قلبه ـ قال «إبراهيم» بسخرية أضحكتهم ثلاثتهم.

ـ وأنت أيضا لن تصل إلى الشيخوخة. ستَسْمُنُ، ثم تسمُن، إلى أن تنفجر معدتُك يوما ما. ـ أجاب «عبد الله». فضحك الجميع مرة أخرى.

كانوا حينها يجتازون حقل الزيتون الأخير في فج «أرجونة»، قبل دخولهم غابة بلوط. حينها رفع «أشقيلولة» عقيرته بدعاء الصيد قائلا:

ـ اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في بطن الأرض فأخرجه، وإن كان بعيدا فقربه، وإن كان عسيرا فيسره، وإن كان قليلا فأكثره، وبارك فيه برحمتك يا أرحم الراحمين.. ثم بعد ذلك استحث فرسه على السير.

***

قلعة رباح الجديدة **Calatrava la Nueva**. خريف 1216

صلى الأخوان «فرناندث دي برغش» أمام الصليب، بمقبرة الشهداء، في ذكرى مقتل عمهما ألفونسو. كان «رُوي» يرتدي لباس الرهبنة، في حين كان أخوه قد تزين بزي فرسان «قلعة رباح» بالكامل، بما في ذلك الدرع. وعلق على صدره صليبا حديديا نسخة طبق الأصل من صليب عمه، وكان قد عهد إلى أحد الحدادين بالقلعة بعمل النسخة. كان وجود مكان للصلاة على روح عمهما يسلي عنهما ويشدد من عزمهما.

ـ أخي، أودعك ـ قال الفارس ـ غدا سأغادر مع المستوطنين الجدد.

- مرت علي أسابيع وأنا أصلي من أجل نجاح مهمتكم.

كان «المايسطري» رئيس الدير قد عهد إلى الفارس الشاب مهمة إنشاء مستوطنة جديدة بـ «جبل الشارات»، وكان «مرتين» قد قضى أياما وهو يجول في الوديان، والجبال، بحثا عن مكان لائق، مكان يتوفر على الماء، وقريب من بلاد «الموروس»، وأكثر من ذلك مخفي عن العيون بما فيه الكفاية. وأخيرا، وقع على الموقع في ناحية بأحد الوديان القصية.

كان رئيس الرهبانية مصرا على تنفيذ التهديد الذي جاء في الرق المغروز بباب «أرجونة». ومن أجل ذلك كان يريد أن تتوفر الرهبانية على مركز متقدم في الأرض الخلاء الفاصلة بين الحدود الإسلامية والقشتالية. كانت «مملكة قشتالة» في تلك الآونة تعاني من اضطرابات داخلية، ومن ثم لم يجد الملك من حل سوى اللجوء إلى تمديد الهدنة مع الموحدين ربحا للوقت. غير أن رهبانية «قلعة رباح» لم يكن بوسعها أن تظل ساكنة لا مبالية، فقد كان فرسان القلعة يرون أنفسهم في حل من هذه الاتفاقيات. وبذلك عاد حمل حماية الحدود إلى جماعات الفرسان الدينية.

- إن الرب معنا. ونحن في حمايته.

كان سيتكلف ببناء المنشآت، وخدمة الأرض، وفلاحتها، عدد من المستوطنين، في حين سيتكلف سبعة من الفرسان بحراسة المستوطنة.

- لقد أقمت الدليل على أن الرب يحميك، ومع

ذلك سأصلي من أجلكم.

ـ شكرا «روي» أعرف أن رنين صلواتك له وقع طيب في السماء.

شد كل من الأخوين على ذراع الآخر وهما يتبادلان النظر. قال الكاهن:

ـ إلى اللقاء قريبا، أخي.

ـ إلى اللقاء قريبا ـ أجاب الفارس، وهو يتوجه إلى حظيرة ليتحقق من تناول فرسه التغذية الكافية.

***

**أَوْتِيُو، .Autillo مملكة قشتالة. ربيع 1217**

نظرت «برنگيلا» يرافقها النبيل «غونثالو رويث خيرون» من البرج الكبير في القلعة، فوقعت عيناها على معسكر الوصي «آلْبَرو» وهو يعج بالحركة، والرجال مستغرقون في عملية فك الخيام إيذانا برفع المعسكر وإنهاء الحصار. وكان «غونثالو رويث» المذكور قد عمل كَهْرَمَاناً للملك ألفونسو الثامن، وشارك في معركة «ناباس دي طولوسا». وبعد وفاة «ملك قشتالة»، وما أعقب ذلك من انتزاع «آلْبَرو نُونْيِث دي لارا» الوصاية على الملك الطفل من الأميرة «برنگيلا»، وقف النبيل «غونثالو» إلى جانب المرأة، وأعلن إخلاصه ووفاءه لها. فعُد أكبر نصير متحمس لحزب الأميرة.

كانت الأميرة ونصيرها يريان من بعيد كيف أن قواد الجيش يعطون الأوامر هنا، وهناك، ويحثون الرجال على الإسراع، فبدا الجنود وهم يرفعون

خيام الميدان في عجلة من أمرهم، والدواب شرعت في التحرك...

ـ لم يكن لهم من خيار سوى الرحيل. ـ علق النبيل «غونثالو رويث خيرون» سيد القلعة.

ـ لا تخادع يا «غونثالو» نفسك، سيأتي يوم سيكون بالإمكان تصفية الحساب معه، لكن اليوم، فإنه يملك قوة وسطوة أكثر مما نملك نحن. ـ ردت الأميرة وقد كست نظرتَها مسحةٌ من الحزن. ـ في هذا الانسحاب أرى الملك أكثر مما أرى الوصي عليه. دون شك فرض أخي «إنريكي» على «آلْبَرو نُونْيِث دي لارا» المغادرة. ولو كان الأمر بيد «آلبرو» لكنا الآن في قبضته.

لاذ «غونثالو» بالصمت للحظات ثم قال:

ـ أنت على حق. ـ نطق العبارة بنبرة استسلام وإذعان.

ـ والظاهر أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد. أكيد أن «دون آلبرو» سيقنع الملك، وستنتهي المسألة بسحقنا. إن حزبه يملك القوة الكافية لفعل ذلك.

كان «آلْبَرو نُونْيِث دي لارا» قد استجاب للتحدي المفتوح الذي أطلقه «غونثالو رويث خيرون»، ضده حينما أعلن مساندته لـ «برنگيلا». وفي أبريل من ذات السنة قام الوصي بحملة مطاردة وتضييق على حزب «غونثالو» تمكن خلالها من الاستيلاء على عدد من القلاع التابعة لأنصار «برنگيلا». وكان الوصي «دون آلبرو» قبل الهجوم، وباعتباره رجل حرب وسياسة بامتياز، قد قام بعقد اتفاق سلام

مع ملك «ليون» «ألفونسو التاسع» الذي كان يلحس شفتيه أمام ما كان يتوقعه من آثار لهذه الحرب في صميم قشتالة.

ـ لِنُصل حتى لا يتحققَ ذلك. ـ قال «غونثالو».

ـ لنصل ولنقاتل. وليكتب الرب النصر لمن يملك الحق. ـ أضافت الأميرة في عزم.

ـ بالطبع، نحن على استعداد للموت في سبيل ذلك. ـ صادق سيد «أوْتِيو» على كلام «برنگيلا» ـ وماذا عن أحوال «فرناندو» و«ألفونسو»؟

ـ أيام سوداء، أيها الصديق العزيز. ما زالا بـ « ليون»، يتدربان على الفروسية. غير أن مُخْبِرينَا ينقلون اخبارا عن أن ابنَتَيْ البرتغالية، «سانشا» و«دولثي» هما اللتان يُدْرَجُ اسمُهما في الوثائق الملكية بجنب الملك. ـ أجابت حزينة.

ـ هل يعني ذلك...

ـ هذا يعني أني إن لم أتصرف حسب المطلوب، فإن زوج «سانشا» المستقبلي سيكون هو ملك «ليون» القادم. ـ كانت تتحدث وهي ترفع من صوتها حتى انتهى بها ذلك إلى الصراخ.

ـ أفهم ـ أعطى «غونثالو» لنفسه فسحة للتفكير، وهو يتحسس ذقنه. ـ يصعب علي الاعتقاد بأنهم سيسْهَوْنَ عن المنع البابوي. ربما يكون البابا الجديد أميل إلى اقتران سانشا بـ «إنريكي».

امتقع لون «برنگيلا» وبدأت تتفَّصدُ عرقا. كان «إينوسان الثالث» قد توفي خلال فصل الصيف،

منذ أشهر، واختير الكاردينال «سينْسْيُو سَبِيلِي» بابا جديدا، وتم ترسيمه باسم البابا «أونورْيُو الثالث».

- هل تعني أخي، ملك قشتالة؟ - سألت بصوت خفيض.

تنبه «غونثالو» سريعا إلى أن الإشاعات التي تتحدث عن محاولة ثانية لتزويج الملك الفتى بـ «سانشا» لم تصل بعد إلى سمع «برنگيلا».

- يتحدث الناس عن ذلك، ولكن لا شيء مؤكد.

- ستكون اللعبة تامة مكتملة بالنسبة للوصي ولملك «ليون». - بدا وكأن الأميرة بدأت تتفهم الأمر، أدركت الآن لماذا حلت الأميرتان، ابنتا الملك ألفونسو التاسع و«تيريسا» البرتغالية محل ابنها «فرناندو» في البلاط الليوني. - سيكون لـ «لارا» بذلك السيطرة الكاملة على «إنريكي»، إضافة إلى إفادته من دعم «ليون» ليتسنى له لاحقا القضاء النهائي علينا. - أومأ «غونثالو» موافقا بجدية تعكس احساسه بالخطورة. - وأما ابني «فرناندو»...، فسيعلم الرب ماذا سيحصل معه.

- لا يجرأ أحد على إيذائه. ولا سيما والده - ارتأى النبيل.

- مَنْعُهُ من حَقِّه ومما هو مِلْكُهُ أليس اعتداء وإيذاء! صرخت «برنگيلا». كانت تستند إلى حافة النافذة وهي تتفرس في آخر الرجال المغادرين تاركين وراءهم الفضاء حرا فارغا. - قل لي يا «غونثالو»، أيهما أعظم، حب المرأة لولدها أم حبها لأختها؟

تطلع سيِّدُ «أوْتِيو» إليها دون أن يتمكن من إدراك قصد هذه المرأة ذات العقل المرن، والعزيمة الصلبة.

***

أرجونة Arjona. ربيع 1217

أقيم حفل الخطوبة والتوقيع على وثيقة الزواج في اليوم الذي حدده المنجم. فشهد المسجد الجامع أطوار الحفل بخطبة ألقاها الإمام بحضور العدلين الإلزاميين والشهود. كان «يوسف» ووالد «فرح» قد اتفقا منذ أسبوع على المهر وجهاز العروس، أما اليوم فقد تزينت دار بني نصر، وتهيأت لاحتضان الوليمة.

منذ الساعات الأولى من الصباح، أقبل نساء العائلة وحفوا بـ «فرح». فأخذوا يضيفون عليها من أنواع الزينة ما يليق بعروس مثلها. بعد الزوال، بقليل، تجهز الموكب الصغير الذي سيحمل العروس إلى والدي العريس. كانت «فرح» تبكي من شدة السعادة. وبالرغم من أن الحجاب كان يخفي دموعها، إلا أن عينيها كانتا تفضحانها.

كان الرجال ينتظرون وصول العروس. في حين كان «محمد» في حالة انفعال. فتح الباب، وإذا بالموكب يجتاح الفناء تحفه أصوات الفرح والابتهاج. ظل «ابن الأحمر» صامتا لا ينبس ببنت شفة. وقتها شرع المدعوون في الدعاء للزوجين، وتبادل التبريكات غير أن «محمدا» تأخر في ردة الفعل. كان مأخوذا بمشهد زوجته وهي ترفل في الحرير، وقد زينت بحلي الذهب والفضة.

ـ اللهمَّ ألّف بين قلبيهما يا رحمن، ولا تفرّق بينهما أبدا! ـ كان بعض الحاضرين يدعون لهما. في حين يقول آخرون:

ـ اللهم بارك في زواجهما، واجعله فاتحة خير لهما معا!

ـ أنت رجل محظوظ يا أخي. ـ همس «إسماعيل» في أذن أخيه، أدعو الله تعالى أن يبارك لكم في البنين والولد.

كان «محمد» وقد أحس بالإرهاق يشكر الحاضرين على أدعيتهم له ولزوجه، وما لبث أن أخذ في دعوتهم إلى القاعة الكبرى لتبدأ الوليمة. بينما غادر النساء مع «فرح» إلى قاعة أخرى. حينها مد السماط، ودعي المدعوون للمأدبة، وتناول الأطباق المحضرة. وكانت مشكلة من ثلاثة أنواع من اللحوم... في لحظة، وقف «يوسف» وطلب من الحاضرين السكوت.

ـ أشكركم جميعا على مشاركتكم لنا أفراحنا في هذا اليوم المميز. إن الله تعالى قدر أن تتوحد عائلتانا التي جمعت بينهما علاقة الصداقة والاحترام منذ أمد بعيد. وأدعو من الرحمن الرحيم أن يبارك للزوجين حتى يحققا أمنيتي في أن أصبح جَداً قريبا إن شاء الله.

ضجت القاعة بالتصفيقات. في حين اتجه «إبراهيم» و«عبد الله» بنظريهما إلى «محمد» في إشارة تواطؤ.

ـ مهمة صعبة، أخي ـ همس «إسماعيل» في أذن «محمد». ـ غير أني مقتنع بأنك ستخرج منها

بنجاح.

دامت الحفلة عددا من الساعات، انتهت بعدها الوليمة بشراب الأعشاب، وتناول التمر والحلوى. ومع بدء انتشار الثريات الأولى في الأفق معلنة العشي شرع المدعوون في الانصراف. ومرة أخر سمعت من جديد التبريكات، والأدعية لصالح الزوجين، وعبارات مزاح عن الدخلة، وتصفيقات على ظهر «محمد» كان يستقبلها جميعا بابتسامة تعلو محياه.

ـ هيا إيتياني بأحفاد أقوياء. فعروقكما يجري فيها دم جيد. ـ قال له جده «أشقيلولة» قبل أن ينصرف.

***

حل الليل، وغادر آخر مدعو القاعة الكبرى، فعمها الصمت. ولم يتخلف سوى والد العريس. قال «محمد» لوالده:

ـ كانت مأدبة رائعة. أشكرك على مجهودك يا أبتي.

ـ لا داعي للشكر، ثم إن الجزارين لم يطلبوا أثمنة مرتفعة.

ـ أما عن غرفتنا فقد رُتِّبَت بشكل جميل مبهج، وهو ما سيُسْعِدُ «فرَح».

ـ أشكرُ «كريمة»، فهي التي قامت بترتيبها، واختيار قطع الأثاث بها.

كان «يوسف» قد هيأ غرفة للزوجين حتى يستطيعا العيش براحة في دار الأسرة.

ـ سأشكرها، إنها امرأة رائعة. ـ تطلع «يوسف» إلى ابنه، وقد فهم مقصده.

ـ اسمع يا بني، سأنصحك بوصفي أباك، كن مع زوجك صبورا متفهما. ينبغي عليكما أن تتوافقا، ويُكَيِّفَ أحدُكما الآخر، حتى يتعرف الواحد منكما رفيقه جيدا. أنا أعرف أنكما تتحابان، وهذه بداية طيبة. ـ تقطع صوته فضم إليه ابنه حتى لا يرى دموعه. ـ وقبل الدخول بزوجتك صليا، ولتكن أنت من يؤم الصلاة. ـ قال ذلك وجعله خاتمة حديثه مع ابنه وهو يعيد ما سمعه من أبيه ليلة دخوله بزوجته.

ودع «محمد» والده، ثم أخذ مصباحا زيتيا، وتوجه إلى غرفته. هناك كانت «فرح» في انتظاره، جالسة على السرير. حينما رأته، نهضت لاستقباله، وهي تُلَمِّسُ ثوبها. اقترب منها «محمد» في مهل، ثم أمسكها من يدها ودون أن ينطق بكلمة طلب منها أن تَجْثُوَ. ثم تموضع بجانبها، وتمتم بدعاء قصير من أجل سعادتهما الزوجية، ثم سرعان ما وقفا. كانت عينا «فرح» تشعان سعادة، بينما كان ضوء المصباح الدافئ الضعيف ينعكس على ملامحها صبغا أحمر متعدد الطبقات. أزال «محمد» اللثام عن وجهها، ثم الحجاب الذي كان يغطي شعرها.

ـ أحبك ـ قال الزوج.

ابتسمت «فرح» وهي صامتة، كما توصي السنة.

نزع «ابن الأحمر» الثياب عنها بلطف، ثم خلع عنها الغِلالة، قبل أن يتعرى هو أمامها بعد ذلك.

- ليس هناك ما ينبغي إخفاؤه بيني وبينك.

أحست العروس بالرغبة تنمو بداخلها وهي تري الجسم القوي والمفصل لزوجها. قبلها «محمد» في فمها ثم ضمها إلى صدره. كلا الزوجين ارتعشا من لذة الإحساس بحرارة جسميهما. ودون أن يتوقف عن تقبيلها طرح «محمد» عروسته على السرير وجعلها تحته، على التو بحث الواحد منهما عن الآخر، وشعر الرجل بماء زوجته، وقد أثارتها الرغبة، فلم يلبث أن أحس بدفء أحشائها. صدرت عن «فرح» أنة عجلت بأن ينهي «ابن الأحمر» قبل المتوقع. جلس الرجل على السرير، وراح يتأملها وهي تلهث.

- قولي كلاما رجاء.

- حتى أنا أحبك يا «محمد» ابن الأحمر النصري - أسرعت في الجواب كما لو أنها كانت قد هيأت الجواب، وتنتظر المناسبة للنطق به.

- لم يناما في تلك الليلة، ومارسا الحب مرتين أخريين وهما يتبادلان همسات الغرام، وتأوهات العشق، ويتواعدان على حب أبدي لن يفرطا فيه طوال الحياة وعلى مر السنين.

***

ظل «هادي» جالسا تحت شمس العشي الواهنة. كان قد انتهى من حك خشب النوافذ التي تطل على الصحن. ولم يكن قد توصل بالصباغة بعد، وهو ما يعني أن انتظاره سيطول أكثر. كان يتفرس في «هبة» وهي ترضع ولدها من ثدييها المعطاءين. في تلك اللحظة كان

يحس بنفسه سعيدا ومحظوظا لكونه يملك بيتا وأسرة. زوجته خدوم ووديعة، وربة بيت ممتازة. تحسن طبخ جميع الأطباق التي يفضلها زوجها. تعجن الخبز كل يوم، وتنسج على نَوْل الحياكة بمهارة. إضافة إلى أنها أهدت له ولدا ذكرا متين البنية، وتسهر على تربيته بعناية وإخلاص. لا يمكنه أن يطلب أكثر، ومع ذلك، لمَّا يحسَّ نحوها ذلك الحب العميق.

«مع الزمن سأتعلم كيف أحبها»، كان يردد دائما مع نفسه. ولم يفت ذلك «هبة» فكانت تلوذ بالصبر والانتظار، وهي تقول لنفسها «هذا هو الحب، الاعتناء بما يبقيه حيا، والاحترام المتبادل».

انتهى الطفل من الرضاعة، ثم تجشأ وهو على ذراع أمه. نهض «هادي» وأخذه بين ذراعيه.

ـ خذي قسطا من الراحة. أنا سأعتني به.

ذهبت المرأة إلى المطبخ. وأخذ «هادي» يهدهد ابنه، وقد أخذت عيناه تتفتحان نصف فتحة من النعاس. كان هذا الرضيع قد أعطى معنى لوجوده، ولحياته الزوجية.

ـ «كمال بن هادي بن كمال» ـ تمتم الأب بكبرياء. كان قد اختار له اسم والده، كما جرت به العادة.
ـ ستكون رجلا عظيما يا صغيري «كمال». ستكون قائدا، أو حاكم بلدة، أو قلعة ـ قال بصوت عال كما لو أنه يردد أحد الأدعية.

***

بالنثيا Palencia. ربيع 1217

كان صخب الأطفال، وهم يلهون، يتردد صداه في أرجاء المكان. كانوا يلهون ويجرون الواحد وراء الآخر في الفناء الفسيح لقصر الأسقف، في هرج ومرج يجد الخادم الذي يرقبهم، ويسهر على سلامتهم، صعوبة في التحكم فيه. بين الأطفال انخرط، بدوره، «إنريكي الأول»، ملك «قشتالة» الطفل، في اللعب مع باقي الأطفال، من أبناء أشرف العائلات القشتالية. وكان «طِجو طيجِث دي مِنيسِسْ» أسقف «پالنثيا»، وأحد أكثر أنصار «برنگيلا»، التحاما بقضيتها يراقب لعب الأطفال وهو جالس على مقعد حجري أسفل البرج الكبير في قصره.

وكان «دون آلبرو نونيث دي لارا» الوصي على «إنريكي»، قد أبعد الملك الطفل عن مسرح الأحداث التي كانت تهز مملكة قشتالة. كان «دي لارا» يبتغي من هذه البادرة، من جهة، إبعاد «إنريكي» عن «برنگيلا» التي كان يربطها عطف أخوي قوي بأخيها، من جهة أخرى كان يريد بهذا الإجراء أن يكسب «طيجو طيجث» إلى حزبه، بل طمح في أن يكسب أيضا رئيس أساقفة «طوليدو» ذا النفوذ الواسع «رودريغو خمينث دي رادا».

بدا «إنريكي» تعبا، وكما هو الحال مع الأطفال جميعا كان يتصبب عرقا. على الإثر نهض الأسقف واقترب من الخادم:

- احضر الماء - قال الأسقف للخادم بلهجة جافة.

ما إن غادر الخادم الفناء حتى توجه الأسقف إلى الملك.

- تعال واجلس يا صاحب الجلالة، إنك تتصبب عرقا، وقد تصاب بنزلة برد.

- أطلق الطفل زمجرة ضجر، لكنه بالرغم من ذلك انقاد لكلام الأسقف، الذي أمسك به من ذراعه إلى أن أجلسه على المقعد. في حين ظل «طيجو طيجث» واقفا أمام الملك الطفل.

- لا تغادر مقعدك. سأذهب لإحضار الماء، يعلم الرب وحده أين اختفى الخادم. - تذمر وهو يستدير مسرع الخطى. غير أن الأسقف لم يكن قد سار أكثر من خمس خطوات، حينما سمع وراءه هديرا أعقبه على التو صراخ الأطفال الذين كانوا يلعبون. استدار «طيجو» مرة ثانية، فرمق «إنريكي» والدم بفور من جبينه، حاول الفتى أن يقف، لكن جسمه ما لبث أن وهن وضعف، فسقط صريعا، جَنْبَ قطع مهشمة شبيهة بقطع القرميد المكسر.

رفع «طيجو» بصره إلى أعلى. ولمح في الحال ما يشبه شكل شخص يرتدي لباسا داكنا يتحرك فوق سطح البرج الذي كان منتصبا بجوار المقعد. نظر الأسقف حوله سريعا وبدا له أن لا أحد بالفناء سوى الأطفال. وقتها راح يشير بحركات سريعة لمن في السطح يطلب منه أن يختفي، بعد ذلك جرى نحو الملك، وهو يصرخ ويطلب النجدة.

- سقط الملك! النجدة! - كان يصرخ بيأس متصنع.

أدار الأسقف «إنريكي»، ومده على ظهره. كان وجه الطفل مغطى بالدماء، ويتنفس بصعوبة. هز المشهد المؤلم «طيجو»، فرفع إلى السماء نظره، وهو يدعو ربه. بحث بيديه المرتعشتين عن الجرح

الذي كان يفور منه الدم حتى يوقف النزيف، وبالكاد أفلح في الضغط على الرأس الصغير. «ماذا فعلنا؟ رباه، اغفر لنا». فكر الراهب بندم صادق.

اقترب الأطفال من موقع الحادث لرؤية ما حصل. ظلوا ساكنين وقد أحاطوا بالجريح. كان بعضهم يبكي في حين غطى آخرون أفواههم في قلق. بينما لاذت الأغلبية بالصمت دون قدرة على القيام بأي عمل.

ـ أيها الكسالى الملاعين! تعالوا إلى هنا سريعا، إن الملك في خطر!

لحظتها هرع عدد من الرجال إلى نجدة الطفل، فحملوه إلى داخل القصر، في حين تكلف آخرون بإشعار أطباء الأسقف. ظل «طيجو طيجث دي منسس» وحيدا في الفناء. تطلع إلى لبسه ويديه الملوثتين بالدم، فأحس بغثيان يعصر أعمق جزء من أحشائه».دم طفل يلوث يدي» فكر ثم أجهش بالبكاء. من الإقامات الداخلية للقصر وصلته الجلبة التي أحدثها اختلاط الناس الذين هرعوا إلى مكان الملك الجريح. أغمض الأسقف عينيه، ثم جثا على ركبتيه، وأخذ يصلي ويتذرع إلى الرب، يطلب منه الصفح عن ذنوبه، وإنقاذ روحه.

***

أَوْتِيو Autillo. مملكة قشتالة. ربيع 1217 م

ـ قواعد سلوك ذكورية، لا أقل ولا أكثر.

كانت «برنگيلا» تتمشى في غرفتها بالبرج الرئيسي في «أوتيو». في حين كانت أختها

«لينور» جالسة بجانب النافذة.

- غير أن البابا ليس أي رجل، إنه ممثل الرب في العالم.

- أجل، لكنه يبقى رجلا، واختياره تم من قبل رجال. - وضعت «لينور» يدها على فمها مستنكرة. - الرب معصوم من الخطأ منزه عنه، أما الرجال فمتغيرون، ولا يثبتون على حال. إن زواجي من ملك «ليون» ألغي بسبب القرابة، لكن المجمع الكنسي الرابع بـ «لِطْرَانْ» غير من الممنوعات، والآن يسمح بزيجات كانت ممنوعة منذ سنتين. - كان موقف «برنگيلا» من قواعد الزواج يتسم بخيبة الأمل، وبنوع من التحرر. خاصة وأنها خبرت الموضوع، إذ لم تكن تجربتها مع ملك «ليون» هي الأولى، بل سبق أن خطبها أحد أبناء الإمبراطور «فريدريك الأول» وهي ما زالت طفلة، لكن الخطوبة سرعان ما فسخت حينما وُلِد أخوها «فرناندو»، وأصبح ولي عهد مملكة قشتالة.

- غير أن مسألة زواجك من «ألفونسو» ما زالت ممنوعة، يا أختي. - قالت «لينور».

- ومن يدريك، لعله، خلال سنتين، قد يكون هناك مجمع آخر يرفع فيه البابا المنع عن زواجي بـ «ألفونسو». - كانت تتحدث وهي تحرك يديها. فقالت «لينور»:

- «برنگيلا»، أفضال البابا علينا عديدة، وتوجب الكثير من الشكر. إن النصرانية تقاوم بفضله، والحملة الصليبية الخامسة في الطريق، والجنود والرجال يتقاطرون على الأرض المقدسة،

والهراطقة «الكاثاريون» قد تم التحكم فيهم بحملة صليبية أخرى.

ـ لكن أختاه، إننا أيضا قدمنا للبابا الكثير مما ينبغي له أن يشكر القشتاليين عليه. من أوقف أقدام المحمديين في «ناباس دي طولوسا»؟
ـ في ذات اللحظة سمع طرق على الباب ـ لا تسيئي الظن بكلامي، فلست ضد قداسة البابا. ولكنَّ قراراً واحد من «إينوسان الثالث» قضى على زواجي، وعادت «ليون» و«قشتالة» إلى المواجهة، كما كان الحال في السابق. ـ حينها تكرر الطرق على الباب.

ـ ادخل!

فتح الباب، ودخل «غونثالو رويث خيرون» في عجالة.

ـ أريد محادثتك ـ توجه بالخطاب إلى «برنگيلا»، فغادرت «لينور» في الحال. ـ لقد عاد الرجل. ـ قال «غونثالو» ـ وقد أنجز ما طلب منه.

ـ هل...؟ ـ تجنبت الأميرة ذكر اللفظة المشؤومة.

اغرورقت عيناها بالدمع، واضطرب تنفسها وتسارع.

غير أن النبيل نفى وهو يهز رأسه في تؤدة.

ـ سقطت قطعة القرميد على رأسه، وتركته في حال حرجة. لكنه لم يمت... بعد. على الأقل حسب ما نعلم إلى حد الساعة. لكن النذل أخفاه عن الناس ـ كان «غونثالو» يقصد الوصي على الملك الطفل. ـ هذا كل ما نعرف. ـ ختم النبيل.

- وهل الجرح خطير؟ - كانت برنگيلا تجد صعوبات في النطق بكل كلمة. كانا يتحدثان عن أخيها، فكان ينتابها خليط من المشاعر، والأحاسيس، تُخَضْخِضُ أعماق قلبها.

هز «غونثالو» رأسه بالإيجاب.

- ما حدث قد حدث. - تمتمت «برنگيلا» ويداها ترتعشان، ثم استطردت: - ليس أمامنا سوى الانتظار والصلاة. ينبغي إحضار «فرناندو» إلى هنا حالا، وبأية ذريعة. - أومأ النبيل بالموافقة مرة أخرى. - أيها الصديق العزيز أريد الآن أن أخلو بنفسي. - أردفت الأميرة.

أطاع الرجل في الحال وانصرف. في حين تهيأت الأميرة وهي في غاية التأثر للصلاة والدعاء بسفر المزامير. أخذت سبحتها، وافتتحت صلاتها بالسلام على «مريم». غير أنها قبل أن تتم صلاتها الثانية وجدت نفسها مجبرة على التوقف. كان قلبها يخفق بقوة، ولم يكن باستطاعتها أن توقف الدموع.

- إن حياة «إنريكي» بين يديك يا إلهي. فافعل به وبنا ما تراه خيرا له ولنا - تمتمت في وحدتها حتى تريح ضميرها. ومع ذلك ظل الضمير يُبَكِّتُ ويُعذب. وبالكاد كانت «برنگيلا» تتحمل لسعات الإحساس بالذنب.

***

أرجونة. Arjona. أوائل صيف 1217 م

كان «محمد» يشتغل تحت شمس حارقة بجانب باقي العمال. وكان أسلوبه في الخدمة يمثل

الإيقاع الذي ينبغي أن تسير عليه الزمرة في العمل، يأخذ الحُزمة تلو الحزمة ويقصها بالمنجيل، يسترسل في ذلك دون استراحة، فيتصبب عرقه غزيرا على أنفه. بعد ساعات من العمل بدأ يحس بظهره يوجعه نتيجة وضعية الانحناء التي يتخذها جسمه وهو يعمل. أما «إسماعيل» وأبوه فكانا يعملان في حقول أخرى، ويشرفان على عمال آخرين، في حين كان «فرج» يتكلف بالإشراف على عاملات الحصاد.

ـ «محمد»! ـ رفع النصري هامته، وأخد يحقق النظر، فبدا له صديقه حسن عن بعد وهو يسرع الخطى للقائه. ـ عدت هذا الصباح، أرى الأشغال قد تقدمت كثيرا...هل بالإمكان الإفادة من أصول الزرع وجُذاماته(18)؟

كان الشاب قد تكلف بقطيع أغنام، في ملك حاكم «أرجونيلا». وكان قد قضى أسابيع يرعى الغنم في الأراضي المنخفضة من السلسلة الجبلية المجاورة. وأخيرا عاد إلى «أرجونة» ليَعْلِفَ الْحيوانات بما تبقى من أصول الزرع بعد حصاده.

ـ حسن! يا للفرحة! ـ قال ابن الأحمر، وهو يشير لرجاله بالاستمرار في الحصاد. ـ بالطبع يمكنك ذلك. غير أن هذه الأرض في حاجة إلى سَمَاد، ومن ثم سنقوم بإشعال النار فيما تبقى بها من جُذامات، لكن يمكنك استغلال الأرض التي يحصدها أخي.

ـ اشتقت إليك أيها الصديق، وأرغب في أن أراك، فالغنم لا تحسن الحديث.

ـ وأنا أيضا. ـ تفرس ابن الأحمر في الحقل. ولمح أن رجاله يتقدمون عليه في العمل. ـ علي بالاستمرار في عملي. هل أراك مساء في العين؟

ـ في العين؟ لا، لم نعد أطفالا يا «محمد». ـ ابتسم حسن ـ لدي خبر أريد أن أخبرك به. ـ قال ذلك قبل أن يعود صديقه إلى العمل. ـ لقد رأيت في الجبل قرية، رأيتها لأول مرة، والغريب أن ساكنيها من النصارى.

قطب «ابن الأحمر» حاجبه وهو يقدر أهمية الخبر.

ـ في الساعة الأولى من المساء أراك في فناء الجامع.

***

كان العدول والكتبة بصحن الوضوء مستغرقين في مهماتهم التوثيقية، وفي إنشاء العقود التي سيرفعونها للقاضي. فقد صادف هذا اليوم انعقاد جلسة المحكمة. دخل «محمد» الفناء وتوجه إلى الحوض الرخامي ليتوضأ. نظر إليه أحد الفقهاء الطاعنين في السن يسكن بالقصبة نظرة احتقار. لم يهتم «محمد» للشيخ. كان الشيوخ يؤمنون بأن المسلم لن يكون مؤمنا حقيقيا إن لم يتردد على المدارس القرآنية. في حين كان «محمد» يعتقد بأنه «في اللحظة التي سيأتي الكفار سينفع السيف أكثر من الكلمات».

في تلك اللحظة وصل «حسن»، ودلف حيث صديقه «محمد»، وكان قاعدا تحت ظل شجرة برتقال.

ـ السلام عليكم ـ سلم «حسن»، وجلس بجنب «محمد». ـ يبدو أن الحياة الزوجية قد وافقتك. أراك في حال جيدة.

ـ رأيتني أكثر وزنا، الفضل لزوجتي التي تحسن معاملتي. ـ تبسم الراعي. ـ هيا، دع عنك المجاملات، وحدثني عما رأيت.

ارتسمت على ملامح حسن علامات الجِد.

ـ كنت في أسفل الجبل، حيث المراعي التي تروق القطيع. عبرت المرتفعات الأولى، وعثرت بوديان كثيرة الخصب، لم ألتق خلالها بأحد مدة أسبوعين. ولا غرو، فإن الرعاة لا يجرؤون على ولوج تلك المراتع. صدقني يا «محمد»، إنها لمنتجعات أكثر ما تكون مُلاءَمَة لرعي الغنم. ـ قال حسن وقد أشرقت عيناه ـ في إحدى المرات وقعت عيني مصادفة على قرية صغيرة في حضن أحد الأودية. رأيت ذلك من قمة رابية.

ـ وكيف كانت؟

ـ بها دور من الخشب، وبعض البيوت من الحجر. كما كان هناك سياج للماشية، وبعض الحظائر، واصطبل، وكنيسة صغيرة مبنية من ألواح الخشب، وتطل على أحد الجداول.

ـ في شمال الجبل أم في جنوبه؟

ـ في الجنوب يا «محمد». من «أندوجر» إلى هناك، ربما مسيرة ساعة على الحصان.

ـ أكيد أن ما رأيته كان كنيسة؟ ـ سأل «النصري».

ـ لم يكن بها أجراس، لكن فوق سطحها انتصب صليب، ثم إني رأيت فرسانا.

ـ جاوز الملاعين الحد... وهل كانوا كثرا؟

ـ رأيت دورية من اثنين، من هؤلاء الذين يلبسون البياض وعلى صدورهم صليب أسود.

ـ الرَّبَاجِيون، من فرسان الرباط. ـ نظر إلى حسن، فأومأ بالموافقة. ـ دون شك هؤلاء طليعة من طلائع قلعة رباح الجديدة. ـ وهل كان بصحبتهم آخرون؟

ـ على الأقل خمسة عشر مستوطنا. بعضهم كان منهمكا في بناء دار جديدة، في حين كان آخرون يشتغلون في حقل، أو يقطعون الحطب.

ـ هل من مزيد؟

ـ ليس غير. غادرت سريعا. بعد أن أنقذني الله تعالى منهم، فلو كنت قد دخلت الوادي من جهة أخرى لكنت الآن في عداد الموتى.

ـ وهل حكيت هذا الأمر لآخر غيري؟ ـ هز حسن رأسه بالنفي. ـ حسنا، علينا أن نفعل شيئا. سأحدث والدي بالمسألة. ـ وضع «محمد» يده اليمنى على مَنْكِبِ صديقه وقال: ـ إنها معلومات قيمة.

***

كان «فرج» يلعب مع زملاء له بالزنقة. بينما كانت «فرح» و«كريمة» بالمطبخ يهيئان آخر وجبة من وجبات اليوم. لحظتها كان «محمد» مجتمعا بالمجلس مع أبيه وأخيه «إسماعيل».

ـ كنت أتحدث مع حسن. ذكر لي أنه رأى قرية مسيحية بالجبل، قريبا من «أندوجر». كما رأى فرسان القلعة يحومون بالمنطقة. ـ تمتم «إسماعيل» بلعنة في لغة الرومانثي.

ـ بهدف ذلك أنشأوا «قلعة رباح الجديدة». كان من المتوقع أن يبادروا إلى مثل ما ذكرت. إنهم يتحركون نحو الجنوب. ـ علق «يوسف».

ـ ثم إن حسن لمح مستوطنين بالمكان. أظن أنه موقع متقدم، قاعدة لتحرك العصابات. إذ لا تتوفر القرية لا على أسوار، ولا على برج لحمايتها.

ـ وليكن، فإن هؤلاء الفرسان يكتفون بقدراتهم لحماية أنفسهم. أنتم تعرفون ذلك جيدا. ـ تدخل «يوسف».

ـ أعرف ذلك. غير أني قتلت اثنين منهم ـ قال «محمد» بنبرة لا تخلو من فخر.

ـ وماذا ترى؟ ـ سأل «يوسف».

ـ لا يمكننا تركهم هناك، ينبغي طردهم.

ـ وماذا عن اتفاقات الهدنة؟

ـ ليسوا بجنود ملك «قشتالة»، ولا هم بأراضي قشتالية. ـ قاطع «محمد» والده. ـ هم فرسان رهبانية، ويهاجمون الثغور.

وافق الوالد في هدوء.

ـ أنا ذاهب معك يا أخي. لنعلم قواد الناحية حتى يخططوا للهجوم. ـ قال «إسماعيل» لأخيه، وقد قر العزم منه على الجد.

ـ ونترك الآخرين يتفردون بالمجد... ألا ترون ذلك؟

إنها مناسبة لأسرتنا ـ قال «محمد» وهو يذكر الوعد الذي كان قد قطعه على نفسه لأبيه.

ـ هل تريد أن تكون على رأس المهاجمين؟ ـ سأله «يوسف» وهو يمعن النظر بتركيز في عينيه.

على الإثر كست حميا الآباء والأجداد وجه «محمد» فأشرقت عيناه، ولم يعد الجواب بالكلمات لازما.

ـ لكني، ـ أردف الوالد ـ لا أريد المجد مقابل الموت. وإن كنت، أيضا، لا أريد أبناء جبناء. أَنْ تَرْغَبَا في الذهاب للقتال يجعلني أحس بالفخر، لكن إِن كُنتما تُريدان ذلك، فقوما، بالأمر على أحسن وجه. إن هذا هو كل ما أطلبه منكما. إذن، اجْمَعا من الرجال عددا، ولْيَكُونُوا من المتمرسين بالحرب، ومن العالمين بحِيلها، وتحدثا إلى الحاكم أن يوافيكما بالمقاتلين. بينا له أن الغارة في الطريق، حتى يُحسَّ أنه مُلْزَمٌ بمساعدتكما، ولا يضعَ العراقيل في طريق مسعاكما. هناك شيء آخر ـ فكر الرجل ثم استطرد ـ بالنسبة لآل «أشقيلولة» حدثوهما عما عزمتما عليه بعد الحديث إلى الحاكم.

ـ ليكن ذلك، أبتاه. ـ كان «محمد» يعرف مثل أبيه أنه إن أشعر «أشقيلولة» بالغارة باكرا فإنه سيستحوذ على التنظيم.

.... ثم لن تغادرا حتى يتم الحصاد. ـ أضاف الوالد قبل أن يختم ويستريح على سريره وهو في حالة سرور.

أومأ الولدان بالإيجاب. وتحسس «محمد» القلادة

المعلقة على صدره. كانت العملة القديمة تبرز الوجه حيث صورة المقاتل، وإن لم ينس أن الوجه الآخر كان يخفي صورة الثور والمحراث.

غادر الأب وولداه المجلس، وعلى الإثر سمعوا النساء يثرثرن ويضحكن في المطبخ. فكر ابن الأحمر في ضرورة أن يحكي لـ «فرح» ما عزم عليه. «إن زوجة الثغري لا ترتاح أبدا» قال لنفسه مكررا ما كانت «كريمة» قد قالته لـ «فرح» بُعيد زواجها. فقد كانت «كريمة» أرملة مقاتل ثغور. وكان زوجها قد قتل شابا قبل أن يرزقا بأبناء. «أنا لن أفعل ذلك مع «فرح» وعد نفسه بكل الثقة التي عرفت عن قدماء النصريين.

***

ترك «أشقيلولة» خدمة فرسه لأحد الفتيان قبل أن يجتمع بولديه «عبد اللّٰه» و«إبراهيم». كان الشابان منفعلين جراء ما نقله إليهما «محمد» خلال التدريبات.

ـ هل تريدان المشاركة؟

ـ ينبغي أن نشارك ـ أجاب «عبد اللّٰه» في حنق ـ لا يمكننا أن نكون متخلفين. هذا المغفل «محمد» لم يشأ حتى أن يسألنا. يريد الصيت له وحده.

ـ الصيت والذكر الطيب سيكون لنا جميعا، شريطة أن ننتصر. ـ أبدى «إبراهيم» رأيه.

تنهد «أشقيلولة».

ـ الزمرة أخذت في التكون. والحاكم تم إعلامه بالأمر ووافق على مشاركة بعض رجال الحامية

في الحملة. كان «ابن الأحمر» سريعا وصائبا. ستشاركان في الغارة، لكني لا أريد منكما أن تخاطرا. وإذا كان هو من نظم الغارة فليتحمل هو مسؤولية ما سيحدث. لا يمكنني أن أكبح حفيدي، إنه مُهر جموح، غير أني أستطيع أن أنصحكما أنتما.

كان لهذه الكلمات رنين في رأسي الشابين. ينبغي عليهما أن يقاتلا، غير أنهما فوق كل اعتبار، يجب أن ينجوا من شر القتال.

«المقابر مليئة بمئات الرجال مثل «محمد»، نجوم ذات إشعاع قوي خاطف، لكن عمرها كان قصيرا». مر بخاطر «عبد الله».

***

كانت المقبرة تعج بالزوار كما جرت العادة في كل يوم جمعة. عشرات من الفتيات، تتعقبهن نظرات الفتيان، كن يمشين بين ممرات المقبرة، وهُنَّ في رفقة أمهاتهن، يبحثن عن شواهد قبور أقربائهن، قصد الزيارة والترحم عليهم.

توجه «محمد» نحو البرج الطيني الذي يطل على كل المكان. وحينما وصل إليه وجد «عمر الحسون» قد سبقه، جالسا على قاعدة عمود روماني.

- شكرا - قال له «النصري» دون أي إضافة.

- إن قضيتك عادلة. وأتباعي تواقون إلى الخروج.

- كان عمر قد وعظ أتباعه بنصرة «ابن الأحمر»، وحثهم على المشاركة في حملته. وكان لهذا «الولي» عدد لا بأس به من الأتباع، على استعداد للذهاب إلى الجهاد، جلهم ممن تلقوا التدريب

العسكري، ويملكون العدة والسلاح. ـ أنت هو المسلم الحق. ـ أضاف الحسون.

ـ هل حقا تعتقد ذلك؟

ـ بالكاد تستطيع قراءة بعض أسطر الكتاب، غير أنك تحافظ على صلواتك، وتوجه أعمالك وتفكيرك لله.

قبل «محمد» هذا المنطق بابتسامة. ثم تطلع إلى قبر والدته، فذكر زوجته «فرح». «أماه لكم كان سيسعدك أن تراها في العائلة». مر بخَلَده.

***

على مقربة من «أندوجر» توقفت المجموعة في انتظار أتباع «عمر الحسون». كان «محمد» يترأس الركب. وقد لبس درعه ومتعلقاته بالكامل، بما في ذلك الحزام الأحمر الذي شد به نصفه. كان، مثل أخيه، مسلحا بحَرْبة ومِقْمَعة. بينما كان الأخوان «أشقيلولة» يلبس كل منهما درعا، ويحمل رمحا، ومن الحزامين الأخضرين اللذين تمنطق كل واحد منهما به تدلى سيف في غمده.

وكان الناجون الأربعة من الغارة السابقة على «برج الحمّام»، ومن بينهم «أحمد بن اسحاق»، قد عزموا، أيضا، على المشاركة في الحملة الحالية. كانوا راكبين جميعا أحصنتهم، ومسلحين بالسيوف التي كانوا غنموها في القتال السابق. وكان قد التحق بالمجموعة أربعة عشر مقاتلا، إضافة إلى عشرة آخرين، فأصبح بذلك عدد الرجال الذين يكونون المجموعة اثنين وثلاثين. سبعة

عشر منهم كانوا مشاة. وكان «محمد»، عملا بنصيحة والده، قد ألح على أن يتلقى جميع أفراد المجموعة تداريب عسكرية قبل المشاركة في الغارة. ومع ذلك كان «ابن الأحمر» مدركا أن القليل منهم سيستطيع مجابهة فرسان «قلعة رباح».

ولم يكن الحاكم ليتخلى عن اعتراضاته، ووضع العراقيل، ومن ثمة، لم يسمح بالمشاركة من جند الحامية سوى لخمسة من الرجال، كان «هادي» والقواس الراكب الذي عمل مرشدا في «برج الحَمّام» Baños de la Encina من بين هؤلاء الخمسة.

ـ لا أريدكم أن تقتلوا القرويين، فلسنا قتلة، كما لا أريد عبيدا. ـ خطب «محمد» في المجموعة حينما التأم الرجال جميعا.

ـ وإن هاجمونا؟ ـ تدخل أحد الأرجونيين متسائلا.

ـ إن هاجمكم أحد المستوطنين، يتحول إلى مقاتل ـ أجاب «محمد» حاسما في الأمر.

ـ والفرسان؟ إذا استسلموا ما العمل؟ ـ سأل أحد المشاة من «أندوجر».

ـ أيها اللعين الأبله ـ ضحك «عبد الله» حتى سمعت قهقهاته بعيدا ـ وهل واجهت مرة أحد الرباحيين؟ إن فارس «قلعة رباح» قد يسقط ويفقد سلاحه، وقد تُقطع إحدى ذراعيه، فيزحف على الأرض بذراع واحدة، ومع ذلك، لا يستسلم، بل يفضل الموت على الاستسلام. مع هؤلاء لا تنفع شفقة ولا رحمة ـ تكلم «عبد الله» بنبرة

المجرب المحنك كما لو وراءه عشرات المعارك.

ـ نظر «محمد» نحو قريبه، ثم ابتسم موافقا على كلامه. امتقعت ألوان عدد من الرجال، وباتوا يعون الأخطار التي ستواجههم.

في المساء حين وصول المجموعة إلى أول ممر في السلسلة الجبلية. أشار حسن بيده قائلا:

ـ من هناك.

كان الراعي قد أصر على المشاركة في الهجوم بصفته مرشدا للمجموعة. وكان «محمد» قد ألح عليه في أن يتسلح بمقمعة مثل التي في حوزته. وأن يتدرب على استعمالها. ولم يكن «حسن» الذي شارك بِوَصْفِهِ من المشاة يفارق «محمدا». كان يسير حذاءه لصيقا بفرسه.

كان الليل قد أظلم حينما وصل الرجال إلى الممر الثاني. وقتها أعلم «حسن» المجموعة بأنهم قريبون من القرية، فأمر «محمد» بالتزام الصمت، وبأخذ الحذر الشديد. كان القمر لم يبزغ بعد، والظلمة مهيمنة وهو ما أعطى للمجموعة نوعا من الأمان. لحظة، أعطى «محمد» الأمر بالتوقف عند أسفل الجبل الأخير. بعد هنيهة، طلب من «حسن» أن يصاحبه إلى قمة المرتفع.

ـ لا دخان هناك. يبدو أنهم أطفأوا المواقد. ـ كان ذلك أول ما رمقه «محمد» وهو يمعن النظر في القرية. لننتظر ساعة أخرى.

ـ حدق في أنحاء الموقع، وتركيبة المنشآت. ثم رأى على حين غرة الفارس الذي سيقوم بنوبة الحراسة الأولى، فَقَدَّرَ المدة التي سيستغرقها

وصولهم إلى القرية. بعد هذه الحسابات ارتأى أن يعود إلى المجموعة، لإعطاء التعليمات، وتوزيع المهام.

بعد ساعة من ذلك كان الرجال يدورون حول الجبل وقد قسموا إلى زمرتين، واحدة في كل جانب. كان «ابن الأحمر» قد قسم الفرسان والمشاة على نحو متساو ليحافظ على التوازن بين الزمرتين.

وما أن أطلت الزمرتان على الناحية الأخرى، المطلة على الوادي الصغير، حتى انطلق الفرسان في عدوهم نحو القرية الصغيرة، والمشاة في أعقابهم يسرعون الخطى للحاق بهم.

- يهاجموننا!

أنذر صوت الحارس المستوطنة.

- الله أكبر! - صاح «عبد الله» وهو على رأس الجناح الأيمن، بينما قاد «ابن الأحمر» المجموعة التي هاجمت من اليسار. كان علم «النصري» الأحمر يرفرف خفاقا، ويمسح متن «برميخو»، في حين كان الصوت المُميز الذي تحدثه حوافر الخيل، وهي تنهب الأرض، يتردد على جوانب الوادي، فيخلق إحساسا بالفزع يعطي الانطباع بأن أعداد المهاجمين مضاعفة، وليست خمسة عشر فارسا. على التو بدأ عدد الرجال في المستوطنة يزداد، وبروزهم يكثر. كان الرياحيون يتميزون ببرانيسهم البيضاء التي تغطي الدروع، وبالعُدَّةِ الحربية التي يحمي بها الفارس نفسه. كان «ابن الأحمر» يتتبع بنظره هؤلاء الفرسان وهم يجرون نحو الإصطبل

ليُسْرِجُوا جيادهم. أما المستوطنون، وكانوا كلهم من المنتمين الجدد في رهبانية «قلعة رباح»، فكانوا يفرون مُرتقين مجرى الجدول في اتجاه الجبل.

ـ إلى الإصطبل؟ ـ صرخ «محمد»، وهو يحمل إحدى حرباته.

وقتها كان الفرسان الثمانية يخرجون من الإصطبل ممتطين صهوات أحصنتهم، ورماحهم مُعدَّة للنزال. في الحال اتخذوا التشكيلة المغلقة المعهودة فيهم، وتهيأوا لاستقبال الهجوم الذي قام به المسلمون.

ـ لا تهجموا ـ أمر «محمد» ـ كُرُّوا ثم فِرُّوا.

التزاما بأوامره، تقدم «محمد» ورمى حربته في اتجاه غرمائه، ثم قام بتنفيذ الجزء الثاني من التكتيك وهو الفر والانسحاب. «إسماعيل» الذي كان وراء أخيه، نفذ الأمر كما فعل أخوه. فكرر العملية. في حين رمى القواس الراكب من حامية «أرجونة» سهما وهو ملتزم بترك مسافة بينه وبين الفرسان النصارى.. لم يسقط أي من الرَّناحيين. في حين لم يتبع الفرسان الخمسة الآخرون تعليمات «محمد» بخصوص الكر والفر، وحملوا على الفرسان القشتاليين فاستقبلهم هؤلاء بطعنات الرماح، وأردوهم في الحال قتلى دون صعوبة تذكر.

في ذات الوقت، كانت المجموعة المكونة من سبعة فرسان التي يقودها «عبد الله» تقترب من ساحة المواجهة الرئيسية. في الآن ذاته، أدرك

«محمد» أن الأرجونيين بدأوا يفقدون امتياز العدد. وأن فرسان القلعة بدأوا يتحركون في اتجاهه واتجاه الفارسين اللذين معه.

ـ من أجل المسيح! ـ صرخ الزعيم النصراني.

انتظر «محمد» في ثبات حتى صار النصارى منه على مسافة مناسبة، ثم رمى بحربته الثانية أحد الفرسان، فاخترقت على الإثر شبكية الدرع، ثم انغرزت في كتف الفارس. مال الرجل إلى الوراء ثم سقط، وظل ممددا على الأرض. أما «إسماعيل» فلم يصب الهدف، وكذلك القواس البربري، حيث اصطدم السهم الذي رماه بترس الفارس المسيحي الثالث دون أن يؤذيه. وقتها انسحب المهاجمون الثلاثة إلى موقع آخر أكثر أمانا.

في تلك الآونة لحقت زمرة «أشقيلولة» مؤخرة العدو. فقط اثنان من الفرسان السبعة كانا من الماهرين في الطعن بالحراب. «هادي» كان أحدهما. إذ بعد أن أخذ «الجياني» يتدرب على الفروسية مع برابرة القلعة، تمكن من اكتساب خبرة في فن الركوب...

بعد لحظات، حمل الفرسان الخمسة الآخرون على النصارى، فاستعد القشتاليون لهم وقد ركزوا على مهاجمة الفرسان المسلمين دون الآخرين. وفعلا، نجحوا في هجومهم المضاد، وقضوا في سهولة ويسر على ثلاثة من الخمسة. كان «عبد الله» و«إبراهيم» يقاتلان جنبا إلى جنب، فتمكنا معا من عزل أحد الرباحيين وتحييده. في هذا الطور من المعركة بدأ المشاة المسلمون يصلون تباعا، وفي غير نظام إلى ساحة النزال.

ـ إليهم! أنت، وأنت معي! ـ صاح الزعيم الرباحي، وقد برز من بين باقي الفرسان بحمله لصليب معدني كبير معلق على صدره. على التو، بعد سماع الأمر توزع الفرسان النصارى.

في لحظات معدودات تسبب فرسان القلعة الثلاثة في مذبحة بين المشاة «الموروس»، فغطى خليط من صهيل الخيل، وقعقعة السلاح، وأصوات البشر أنحاء المكان، وسط ليل أسود بهيم. في هذا الخضم، أطل البدر، وبدأ ضوؤه الفضي يروي جنبات الوادي، فبدت بين ثنايا هذا الضياء عالية متشامخة هيئات الفرسان اللابسين البياض.

أثناء ذلك كان «هادي» وحامل الحربة الآخر يضايقان الفرسان النصارى الثلاثة الذين كانوا يتعقبوهما. في سرعة ومهارة حمل «محمد» و«إسماعيل» والقواس على الفرسان من وراء، فأسقطوا اثنين، وجرحوا الثالث في ظهره، مباشرة ركز «ابن الأحمر» انتباهه في المشاة، فصرخ كالأسد في من تبقى من الرجال:

ـ اتبعوني! ـ ثم انطلق كالسهم.

في تلك اللحظة كان فرسان القلعة قد تشتتوا وجعلوا يقتلون كل من اعترض سبيلهم، أو كان في متناولهم. رمى «محمد» في حنق شديد آخر حرابه، فلم تصب هدفا، وانغرزت في الأرض، وقتها أخذ المقمعة، وتهيأ للحظة الحسم. مسح بنظره المكان في رمشة عين، فحدد هدفه، ثم وقف على ركابي فرسه، واتجه نحو أحد الفرسان

ثم انقض عليه كأنه الصقر.

ـ أيها اللعين، يا ابن الكلب! ـ صاح «محمد». كان يريد أن يستدير الغريم نحوه ويقابله.

استدار النصراني نحو الأندلسي وناور من أجل مواجهته. غير أن «ابن الأحمر» لم يمهله، ومر حِذاءه كأنه البرق التارك خلفه أثرا أحمر، ودون أن ينقص من سرعة فرسه، نزل «محمد» بكل ثقل المقمعة على هامة النصراني. على التو، سمعت طقطقة الجمجمة، وقد تصدعت وانكسرت، ففارت منها الدماء كأنها السيل، وسقط على إثرها الرباحي معانقا الثرى.

وقبل أن يلتقط أنفاسه، استدار «النصري» وهو يغير اتجاه فرسه، وسار كلمح البصر نحو الفارسين الرباحيين اللذين ما زالا على قيد الحياة، في الحال وقد رأى رفاقه ما عزم عليه ابن الأحمر، بادروا بالخروج سريعا لنجدته، وهو ما لم يفت النصرانيين اللذين أدركا قلتهم العددية، فما كان منهما إلا أن تركا الميدان ولاذا بالفرار. ولما كان فرساهما غير مدربين فقد عادا عداء في غاية السرعة، لكن «محمدا» تمكن من قطع الطريق عليهما، وأصبح من موقعه مقابلا لهما وجها لوجه. قَصَدَ أحدهما لتوه، وكان هو الذي يحمل الصليب المعدني الكبير، فهاجمه بالمقمعة، غير ان النصراني مال بجسمه نحو الجانب المعاكس لاتجاه الضربة، فتمكن من تجنبها وهو يواصل عدوه لإنقاذ حياته. مباشرة حصل اللقاء بين «ابن الأحمر» ورفاقه الثغريين الذين همزوا جيادهم للحاق بالفارين.

ـ اتركوهما! ـ صاح فيهم ـ لن تلحقوا بهما!

أطاع الثغريون أمر «ابن الأحمر»، وكبحوا جماح جيادهم، قبل أن يعودوا أدراجهم للاجتماع بالمشاة الناجين.

حقق الأرجونيون الظفر، لكن التكلفة كانت، مَرَّة أُخرى، عالية. لم يكن هناك أي احتفال، فقد كان عدد الشهداء مرتفعا، والصلوات عليهم لا تتوقف، وكذلك عدد الجرحى... ولكم كانت تأوهاتهم وأناتهم تشق السكون الذي أعقب القتال. بينما جلس، في ناحية، أحمد بن إسحاق وهو يضمد جراحه بعد أن أصيب بطعنة رمح تحت إبطه الأيسر.

ـ لم أهرب يا «محمد»، وواجهت النصارى. ـ قال «أحمد» لـ «ابن الأحمر» بفخر، عندما اقترب منه هذا ليسأل عن حاله.

ضغط النصري على كتف «ابن إسحاق» بقوة، ليبث فيه الثقة والأمان.

ـ أحسنت. الحمد للّٰه جرحك خفيف. لا تقلق.

لا أحد من الجرحى كانت جراحه خطيرة، فتمكن الناجون سريعا من إيقاف النزيف عنهم، ثم أركبوهم متون الجياد. حتى إذا جاء بعد ذلك دور القتلى، حملوا جثامينهم واحدا واحدا، ووضعوها على الخيول. ثم تفرغوا أخيرا للغنائم.

حدق ابن الأحمر في الناجين تحت ضوء القمر. ثم راح بعد ذلك يتفرس في يأس وقنوط في وجوه القتلى إلى أن وقع على ما كان يبحث عنه.

أمام جثمان صديق طفولته «حسن» وقف

«محمد»، ودون أن يشعر، صرخ بكل ما أوتي من قوة صرخة حزن وغضب، تردد صداها في جنبات الوادي المظلم، كان بذلك يريد أن يخفف عن نفسه ألم الفقد، وحرقة الفراق. احترم الجميع ألمه. توقف، وحاول أن يحافظ على رباطة جأشه، غير أن دموعه لم تتوقف، وانهمرت مدرارا في سكون.

ـ قِدُوا النارَ في كل شيء! سنرحل بعد قليل!

وسرعان ما لامست النيران المشتعلة الجدران وسطوح المنشآت، ثم أتت أخيرا على كل المستوطنة.

كان «محمد» في سن الثانية والعشرين. غير أن هيئته وهو على متن فرسه الكميت أشبه ما تكون بهيئة وتصرف قائد محنك. وكانت المغامرة قد انتهت بانتصار مُرٍّ، وبرسالة قاطعة حاسمة لـ «رهبانية قلعة رباح»: إن الأندلسيين يحسنون القتال، وأنهم على استعداد لحماية أراضيهم.

سمح «ابن الأحمر» لنفسه في رحلة العودة، وهو على رأس مجموعة المقاتلين أن ينعزل عن باقي الرجال، وأن ينساق مع عواطفه المخزونة في صدره. فبكى كما لم يسبق له أن بكى منذ وفاة أمه وأخيه. كان «حسن» أعز أصدقائه، وأقربهم إلى قلبه، فخالجه شعور بالذنب، كما لو أنه المسؤول عن مقتل صديقه، فكان يبحث جاهدا عن الكلمات المناسبة للقاء والدة «حسن»... فلم يجد العزاء طوال المدة التي استغرقتها رحلة العودة سوى في الصلاة...

***

بينما كان الأخوان نصر يقصدان دارهما، لاحظا كيف أن سكان البلدة كانوا يوجهون أنظارهم إليهما في احترام، ويتهامسون فيما بينهم حين مرورهما. كانت دروعهما ملوثة بالدم، ووجهاهما يعكسان ضنى المعركة، ومكابدة القتال. وما أن اقتربا من الدار حتى وجدا «فرح» في انتظارهما أمام الباب. في الحال، وقد رأت الزوجة زوجها، أسرعت إليه، واحتضنته بقوة.

ـ ما بك؟ ـ سألت «محمدا» قلقة بعد أن رأت وجهه كالحا.

ـ قتل عدد كبير من الرجال من بينهم «حسن». ـ أجاب «إسماعيل».

في البيت بادر يوسف بمساعدة ولديه على نزع دروعهما. في حين لم يبتعد فرج عن أخويه قيد أنملة وهو ينوي محاصرتهما بأسئلته، لكن «كريمة» تمكنت من إبعاده بلطف، وأخذته إلى المطبخ مستغلة نهوض أخويه للاغتسال، وتغيير ملابسهما بأخرى نظيفة.

ـ لقد قدمتما لي سببا آخر للافتخار بكما ـ قال رب الأسرة لولديه.

ـ كنا اثنين وثلاثين، وعدنا خمسة عشر. و«حسن» من بين القتلى. ـ أَعْلَم «محمد» أباه في جدية تامة.

ـ أَفْهَم ـ تنهد الوالد وهو يجيب ـ لكم يؤلمك فقدان الرجال، وخاصة رجل مثل صديقك «حسن». كل ثغري مسؤول عن حياته، ويعرف مدى

الأخطار التي يعرض نفسه لها حينما يذهب في غارة. هكذا كان الأمر دوما حتى في الانتصارات الكبرى... دائما هناك شهداء ومفقودون.

- استشهد كثيرون... لكن، لا، لم يكن من اللازم أن يقتلوا جميعا. - كانت نظرة ابن الأحمر مليئة بالغضب - هناك خطأ ما. هم كانوا ثمانية! ونحن اثنان وثلاثون! - حرك يديه ليشدد أكثر على كلماته - لم ينج إلا أجودنا تدريبا، نفس الناجين في غارة «برج الحمَّام». ليس الأمر مصادفة. ينبغي أن ندرب الرجال... - ترك كلماته الأخيرة معلقة في الهواء.

- تبادل «إسماعيل» و«يوسف» النظرات وأيقنا أن لوعة مقتل «حسن» ستتأخر كثيرا قبل أن تتعافى. وقف الأب مقابل ابنه ثم خاطبه:

- كل سلطة تحمل في طياتها مسؤوليات، وكل ظفَر له ثمنه - كان «يوسف» يسعى إلى مواساة ابنه - لا تعذب نفسك، لقد فعلت ما كان يجب فعلُه، وعدت مظفرا. - ختم الوالد كلامه - على أي سأترككما - أشْعَرَهما بذلك، وانصرف.

- فيمَ تفكر؟ - سأل «إسماعيل» أخاه - أعرفك، تخطط لأمر ما.

بدا «محمد» وكأنه استيقظ من حلم يقظة، ونظر في عيني أخيه.

- حاليا لا أفكر في شيء - لكن أخاه كان يعرف أن فكرة ما قد دارت في خَلَده، وأن ذلك إذا حدث فإن «محمدا» سيركز كل طاقاته ليراها تتحقق - أستسمح يا «إسماعيل»، أريد أن أرى عمر.

وخرج من البيت يريد ملاقاة «الولي الصالح»، وكان أعرف الناس بكيفية مواساة «النصري» ونقل السلام والطمأنينة إلى قلبه.

***

كانت الساحة الصغيرة التي تنفتح على «مصلى الخلاص» غاصة بالناس. وكان «عمر الحسون» قد حشد أتباعه للصلاة على الشهداء، وأيضا تقديم الشكر لله تعالى على نجاح العملية الجهادية.

ـ لقد استشهد بعض المسلمين، غير أنهم الآن ينعمون بالجنة، كما أننا انتصرنا، وعاد النظام إلى الثغور.

خطب الولي الصالح في أتباعه خطبته القصيرة، ثم شرع في قراءة بعض سور القرآن التي تحث على الجهاد: [وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُون](آل عمران ـ آية 160) [الحمد لله الّذي بعزّته وجلاله تتمّ الصالحات..]. قرأ الولي وهو متربع بعض الآيات، ثم انتقل إلى الدعاء، وتذكير الناس، بينما كان «محمد» يأخذ مجلسه بين المستمعين بالصفوف الأخيرة في تحفظ واحتشام.

.... فانظروا، إذن، إلى «شيخنا» وقد قعد بيننا مقْعدَ صِدق، فحول مصيبتنا إلى ضربة حظ سعيد. ـ قال الصوفي بغتة، وهو يشير إلى «النصري». وسرعان ما وجد الشاب نفسه مُسْتحِياً مرتبكا وقد علت حمرة الخجل محياه. ـ لا تُخفِ نفسَك يا «محمد». تعال إلى هنا، واجلس على شِمالي حتى أكون أنا على يمينك.

لبى «محمد» دعوة «الحسون» في استحياء، وجلس في مواجهة الناس. في حين واصل الواعظ وعظه وأدعيته، ولم يهتم بعد ذلك بالشاب. غير أنه ختم لقاءه بأتباعه بصلاة جماعية ذكر فيها بالآية: [وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ] (القصص. الآية 68)(19) وغيرها من الآيات التي تتحدث عن أن الله يختار من عباده للمهمات الكبرى بعض عباده الذين يؤتيهم الموهبة والحكمة. وسرعان ما أخذ الحشد يردد: ـ الله أكبر!

ـ اللهم حقق على يد شيخنا آلاف الانتصارات! كان الناس وقد تحمسوا، واسْتُفِزّتْ مشاعرهم يصيحون بذلك كاشفين عن مشاعرهم، ومصرحين عن أفكارهم تجاه «ابن الأحمر»، في حين كان هو يضع يده على صدره علامة احترام لهم. وقد دفعت هذه الهتافات المترددة على خروج عدد من النساء من دورهن، بينما اتجهت أعداد أخرى من عابري السُّبُل المجاورة إلى الساحة من بينهم «إبراهيم» بن «أشقيلولة» الذي ما أن رأى قريبه محاطا بذلك الحشد، حتى افْتَرَّ ثغرُه عن ابتسامة خفيفة وهو يفكر: «حينما سيعلم أخي بالأمر فإنه سيقضي من الاستياء والكدر... حقا إن «محمدا» شيخ، لا أقل ولا أكثر!».

كان هذا اللقب لا ينادى به إلا الأشخاص المرموقون في المجتمع، هؤلاء الذين بَرَّزُوا ليس فقط بريادتهم، وإنما أيضا بخصالهم الحميدة. فقد كان «الشيخ» نموذجا يحتذى به، وبذلك تمكن «عمر الحسون» أخيرا من أن يدفع بأتباعه إلى

اعتبار «محمد» قائدا وزعيما، ومن ثمة سيتكلفون، هم أنفسهم، بنشر هذا الصيت الذي أصبح لـ «ابن الأحمر» بين أهل البلدة.

***

بلد الوليد Valladolid صيف 1217

ـ إن حقي حصل الاعتراف به في «كاريون». ـ رفعت «برنگيلا» صوتها مباشرة بعد وصولها إلى بطحاء السوق. نظرت إلى جميع الرجال الحاضرين، واحدا واحدا. كانت امرأة قوية لا تَتَهَيَّبُ المواقف الصعبة بسهولة. وكان الحاضرون في الاجتماع قد استدعوها للالتحاق بهم هي وابنها «فرناندو» الذي كان بجانبها. ـ ثم أردفت: ـ وكان قد نودي بي ملكة في «أَوْتِيُو»، وأنا شخصيا وضعت تاج «قشتالة» على رأس ابني ـ قالت ذلك وهي تشير إلى «فرناندو»، قبل أن تستطرد ـ الذي سيحكم عندما يصل إلى سن الحكم.

هيمن صمت طويل على الجمع. بينما أخذ بعض المجتمعين يتهامسون فيما بينهم.

كان مكان الاجتماع بجانب أحد أبواب مدينة «بلد الوليد» حيث اجتمع الأشراف القشتاليون» المناصرون لـ «برنگيلا» يناقشون مستقبل «قشتالة» مع بعض أعضاء المجالس البلدية بـ «إكستريمادورا»، ممن لم يكونوا قد اتخذوا موقفا واضحا من مسألة وراثة الملك، بعد أن توفي الملك الطفل «إنريكي». وكان المسكين قد صارع بين الحياة والموت لمدة أيام بعد الحادث. وفي الأخير، ورغم كل الجهود التي بذلت لإنقاذه، قضى

الطفل أمام عجز الأطباء. وقد كان الإحساس بالذنب قد أرق «برنگيلا»، وخضب قلبها بالغم والألم، ولم يخفف عنها سوى ما تلقته من دعم أسقف «پالنثيا»، الذي أقنعها بأن «إنريكي» لم يمت بقطعة القرميد، وإنما بمشيئة الرب التي قدرت أن يرحل حتى تسير مملكة «قشتالة» في الطريق الصحيح.

كانت مساندة المجالس البلدية أساسية وضرورية. خاصة بعد أن فشلت محاولات التفاوض مع «آلبرو نونيث دي لارا». وكان الوصي هذا قد رحل إلى بلاط «ليون» للاتفاق على تعاون متبادل. ووصل به الأمر إلى أن عرض على «ألفونسو التاسع» عرش «قشتالة»، مُستندا إلى تأويل قام به لاتفاقية «ساهجون» الموقعة في منتصف القرن الماضي بين مملكتي «ليون» و«قشتالة».

بدا «فرناندو»، أثناء الاجتماع، متماسكا ثابت الجنان، ومتخذا موقفا ساميا رفيعا، فحافظ على رصانته وكبريائه وهو يتابع الأحداث، ويرصد مواقف الرجال. وكانت استراتيجية «برنگيلا» من أجل استمالة ابنها لمشروعها قد أعطت أكلها بكل إتقان. فقد أرسلت المرأة «لوبي دياث دي آرو» و«غونثالو رويث خيرون» إلى مملكة «ليون»، طالبين حضور «فرناندو» إلى «قشتالة» استنادا إلى تبرير واه لا يعكس ما كان يحصل في المملكة. فسمح «ألفونسو التاسع»، وكان لم يتوصل بعد بخبر وفاة الملك الطفل «إنريكي»، لابنه «فرناندو» بأن يلتحق بأمه. وبذلك تمكنت الأميرة بما عرف عنها من مكر من أن تنتزع من

زوجها السابق أهم أداة كان سيستعملها ملك «ليون» للضغط على «قشتالة». وقد استقبلت الأميرة ابنها في «أَوْتِيو»، وهناك، دون أن تضيع وقتها، أعلنت نفسها ملكة على «قشتالة» أمام أسقفي «برغش» و«پالنثيا». ثم سرعان ما تنازلت عن الحكم، ونادت بابنها ملكا.

كان «فرناندو» حينها في سن السادسة عشرة. وكانت مواهبه قد نمت بجانب والده بـ «ليون»: تدرب على الفروسية، وتمرن على استعمال السلاح ووضع الخطط الحربية، وشرع في تلقي دروس في فن السياسة والدبلوماسية. فنضجت مواهبه سريعا وغادر سن الطفولة نهائيا وتركها وراءه. كانت أمه تنظر إليه في إعجاب، خاصة وأنه حضر الاجتماع في أناقة تامة، وعلى قدر كاف من الاستعداد ليحضر على نحو طبيعي اجتماعا مثل اجتماع «بلد الوليد».

انتحى «الأكستريمادوريون» ناحية على شكل حلقة صغيرة ليتناقشوا حول الموضوع. وما لبثوا بعد لحظات أن دعوا إليهم «لوپيث» و«غونثالو»، وهما عماد أنصار الأميرة، ليتفاوضا باسمها. وقد استغرق القوم في نقاش فترة لا بأس بها بالكاد كان يصل صداها إلى الأم وولدها. واستمرت المفاوضات عدة ساعات، وبدا أنها تتعثر، وربما ستُعَلَّقُ دون بث. وكانت «برنگيلا» قد لجأت إلى الاتفاقات القديمة بخصوص حقها في العرش. غير أن الأشراف «الإكستريمادوريين» أظهروا معارضة شديدة للاعتراف بها ملكة.

وكما حدث في «قشتالة» مرات عديدة، تكون

الاتفاقات والمعاهدات موضوع مراجعات، بل لطالما تكون موضع شك من حيث صلاحيتها. ومن ثمة كانت المرأة متيقنة من أن ما اتفق عليه في «أوْتيو» لن يكون له أي قيمة، إذا لم تحصل هناك، في بلد الوليد، على دعم الأشراف ومجالس المدن.

في تلك اللحظة لفت «فرناندو» انتباه أمه إلى رجال الحلقة المتداولين. لوحظ على الجمع إيماءات توحي بالمصادقة على أمر ما. ثم بعد ذلك خيم صمت على حلقة المداولة. في تلك الآونة اقترب «غونثالو رويث خيرون» إلى «برنگيلا» وحدثها همسا في أذنها، على مرأى من الجميع.

- اتفقوا على أنهم سيعترفون بك ملكة، لكن، مباشرة بعد ذلك، يجب عليك أن تتنازلي عن العرش لابنك «فرناندو». - وجه «غونثالو» نظرة إلى الشاب. - ثم إنهم لا يريدون الانتظار حتى يصل الأمير إلى سن الرشد، إنهم يقولون إذا كان «فرناندو» ملكا، فليبدأ منذ الآن في ممارسة مهامه الملوكية.

تطلعت «برنگيلا» إلى ابنها، هنيهة، ثم ركزت انتباهها في أعضاء الاجتماع.

- إن تاج «قشتالة» هو ملك لي ويخصني، وأنتم تعلمون ذلك جيدا. - نطقت العبارة بصوت قوي ليسمعها الجميع. - وهذا واقع لن يستطيع أحد تغييره. والرب يعلم ذلك. - في تلك الآونة كانت تمرر نظرتها عبر الوجوه الحاضرة المصغية - وإني باعتباري ملكة «قشتالة» سأتنازل عن الحكم لابني «فرناندو»، غير أني مع ذلك سأحتفظ بالحق في

مناقشة المسائل الجليلة للمملكة.

كان لهذه الكلمات صداها القوي في الهواء الدافئ الذي يغمر المكان. حينها تقدم أحد نبلاء «إكستريمادورا»، وأخذ الكلمة باسم مجموعته:

ـ إن الملك سيحترم قوانين «الفويرو» الخاصة بالمجالس البلدية. ـ قال النبيل، وقد تقدم خطوة إلى الأمام.

ـ ولن يغير من «الحيازات». ـ أضاف آخر، وكان من نبلاء قشتالة.

نظر «فرناندو» إلى أمه يطلب الإذن في الكلام. فحدقت «برنگيلا» في ابنها بعينين مفتوحتين نصف فتحة، ثم أومأت بالإيجاب متمهلة، وقد انتابها قلق مما سيقول ابنها.

ـ لا أحد من الملوك يمكن أن يتعهد بمثل ذلك، لأنه إن فعل، لم يعد ملكا. ـ رن صوت الشاب قويا وفي ثبات. فافتر ثغر أمه عن ابتسامة خفيفة. لقد بدأ ابنُها مشوارَه برصانة وهو يدافع عن حقوقه.

ـ إلى أن يبلغ العشرين كاملة. ـ طلب المتحدث باسم «الأكسترمادوريين»، وهو ما أفرح القشتاليين، فبدوا راضين، مسرورين بالعرض.

تقدم «فرناندو» خطوتين، دون أن يطلب الإذن هذه المرة.

ـ فليكن! أتعهد بأن لا أغير أي قانون أو تشريع محلي، مثلما ألتزم باحترام الحيازات إلى أن أكمل العشرين من عمري. والرب شاهد على ما أقول.

بعد صمت دل على أن المجتمعين قبلوا كلام «فرناندو». تدخل «لوپي دياث دي آرو» ليلخص ما تم الاتفاق عليه، ليكون واضحا جليا. و«لوپي» هذا، هو سيد بلاد «البشكنس»، وابن «دييگو لوبث دي آرو»، وحامل راية «ألفونسو الثامن» ملك قشتالة، والزعيم العسكري في معركة «ناباس دي طولوسا» [العقاب]، وقد كان من أعمدة الأنصار الذين اعتمدتهم «برنگيلا» في حزبها.

- لا أحد يعارض؟ - انتظر للحظات - حسنا. إذن، يعترف هذا الجمع بـ «برنگيلا» ملكة على قشتالة، وهو ما أهلها بهذه الصفة للتنازل عن العرش لصالح ابنها «فرناندو» الذي سيحكم تحت اسم «فرناندو الثالث» لمملكة «قشتالة». ويقبل «فرناندو الثالث» تحفظ أمه فيما يخص ضرورة موافقتها على القرارات الكبرى للمملكة. كما أنه يتعهد بعدم تغيير قوانين «الفويرو» المحلية، أو «حيازات» النبلاء، حتى يصل إلى سن العشرين. وسيقيد هذا الاتفاق كتابة - توجه بنظره إلى أحد الكتاب الحاضرين - وسيصادق على المتفق عليه كتابة خلال الأيام القادمة.

- لا، بل ستتم المصادقة في يومنا هذا. - قاطعت «برنگيلا» المتحدث - لماذا الانتظار؟ سننادي بالملك الجديد اليوم - أومأ بعض الحاضرين بالمصادقة، في حين التزم آخرون الصمت دون أي اعتراض.

- يحيى الملك! - صاح بكل قواه «لوپي دياث دي آرو».

- يحيى الملك! صرخ الجميع بصوت واحد ثلاث

مرات.

تنهدت «برنكيلا» بارتياح. فقد أصبح «فرناندو» ملك قشتالة، وفي نفس الآن تم الاعتراف بسيادتها. في الواقع، كان اتفاقا رائعا ممتازا.

« اليوم بدأت «قشتالة» جديدة. فقط، ينبغي نزع شوكة من قدم الأسد». مر بخاطر المرأة وهي تستشعر سرورا وبهجة، وتتصور المصير الذي ينتظر آل «لارا»، أعداءها البغيضين.

في تلك اللحظات انتقل المجتمعون إلى كنيسة القديسة «ماريا» لاختتام الحفل أمام الرب والشعب.

***

«قلعة سانفيرو»، قريبا من مدينة البَسِيط Albacete. صيف 1217

صعد الأندلسيون الثلاثة، وهم لابسون السواد، خفية بين الصخور التي تقوم عليها «قلعة سانفيرو». كان الهلال، وهو في أول لياليه، وعتمة ما قبل الفجر، يخفيان الرجال، ويقدمان لهم الحماية. وكانت قلعة «سانفيرو» ممتدة على صخرة صلدة تمثل جُنَّة طبيعية للقلعة، ولباقي البنايات التي انتشرت على هضبة الصخرة الضخمة.

بدا الطريق المحصن المؤدي إلى الحصن خاليا من الحراس، وكذلك الممرات الموجودة فوق الأسوار. فوصل الرجال الثلاثة إلى أسفل القلعة بسهولة ودون أية عرقلة. على التو، شرع أصغرُ الثلاثة، وأهيفُهم، في تسلق الجدار المنتصب قريبا من السور الذي يحمي مدخل القلعة. وكان

هذا المدخل الثغرة الوحيدة على طول النطاق الذي يحتضن الحصن. وقد بني به باب ذو عطفتين.

وصل الشاب إلى السور بمهارة ويسر، ثم استند بعد ذلك إلى بعض بقايا أحجار كانت قد استخدمت في ورش بناء فيما مضى، فتمكن أخيرا من الوصول إلى ممر أعلى السور. بدا المكان خاليا. فأخذ الشاب يقترب وهو في غاية الحذر من كوخ الحارس الذي كان يعلو مدخل القلعة. وقتها وصل إلى سمعه شخير الخفير الموزون، وتنفسه المنظوم. كان الرجل مستغرقا في نوم عميق. فأخرج الأندلسي ثوبا أبيض من تحت سرواله، ولوح به من فوق السور. في الحال فعل رفيقاه الاثنان الشيء نفسه، ولوحا بثوب أبيض لشخص كان يرصدهما في أسفل الصخرة حيث يمتد السهل. في تلك اللحظة قفز الاثنان إلى الطريق الموصل إلى الباب الرئيس.

دخل المتسلق في كتمان إلى الكوخ. ثم استل خنجرا، وذبح لتوه الحارس. فاض الدم فوارا على المِلاط فلوث يدي الشاب الذي أخذ يصيخُ السمع وهو في كامل الانتباه واليقظة. لكنه لم يسمع أي صوت. وظهر له أن القلعة لم تكن محروسة بشكل جيد. بعد حين نزل عبر سلم خشبي، ثم فتح الباب، ليجد نفسه وجها لوجه مع رفاقه.

أخذ المغيرون يصعدون سريعا عبر الطريق المحصن، وقتها، ومن مكان ما وسط القلعة ارتفع صوت ينذر بالخطر. مباشرة بعد ذلك قطع سكونَ الليل نُباحُ كلب، أعقبه ضجيج، فحركاتٌ سريعة لذهاب وإياب داخل القلعة. على الإثر

سمعت أصوات رجال وهم يصرخون، ويخرجون من مختلف البنايات التابعة للحصن، والموزعة على جوانب الهضبة. في تلك اللحظة كان الثلاثة يدعون الله ليتأخر النصارى في تنظيم صفوفهم، حتى تصل مجموعة الثغريين كاملة إلى الموقع.

وصل «ابن هود»، القائد الثغري الشاب الذي تزعم الهجوم، على رأس حوالي خمسمائة من الرجال، ثم أعطى أوامر دقيقة للسيطرة على مدخل القلعة، والتقدم في أمان داخلها. في تلك الآونة، كانت مجموعة من القشتاليين تتقدم بسرعة نحو الباب، لكن النصارى، وقد رأوا عدد المسلمين الضخم، سرعان ما تراجعوا إلى الداخل، وانضموا إلى زملائهم هناك. ولا غرو، فقد كان المدافعون عن القلعة أقل من نصف عدد المغيرين.

ولم يتردد ابن هود في تعقب النصارى المتراجعين وهو على رأس حوالي مائتين من الرجال. في الطريق عثر المهاجمون بمسجد «حصن سانفيرو» وقد توج بصليب من المعدن، وهو ما زاد من حنق المغيرين واستنكارهم. فطوقوا القشتاليين الهاربين في ساحة صغيرة يحيط بها عدد من المخازن، وهناك، في ظلام الليل، لم يعد يسمع سوى صراخ النصارى وهم يضربون بالسيوف، ويطعنون بالخناجر من قبل أتباع «ابن هود»، فاستمر فيهم القتل إلى أن قضى الأندلسيون عليهم جميعا دون رحمة.

وأخيرا التقت المجموعات القتالية بالبرج الرئيس، حيث اجتمع المدافعون الذين ظلوا على قيد

الحياة.

ـ إنهم على شفا حفرة من الموت. ـ علق «ابن هود» مخاطبا أحد رجاله.

سعى المهاجمون إلى فتح الباب جاهدين، والنصارى يرمونهم من السطح بالحجارة. بينما جد قواسون، أربعة على الأقل، في الرمي بالنبال على مَن كان من المسلمين على مسافة بعيدة. في الحال سقط خمسة رجال أو أكثر بجروح في الرأس.

ـ اِحْتَمُوا، من هنا! ـ صاح أحد القواد الأندلسيين. وهو يشير إلى الجزء العلوي لأحد المخازن.

اجتمع المغيرون ثانية وانتظروا التعليمات. بينما أخذ القشتاليون، وقد أصبحوا في مَأْمَن، يهتفون من داخل البرج. نظر ابن هود حوله، فلمح خيطا رفيعا من الدخان يصعد في السماء من أحد المنشآت القريبة، فصاح في جماعة من البربر:

ـ هاتوا النار.

عاد البربر سريعا حاملين شعلة. في تلك الأثناء كان ثلاثة من القواسين يهيئون سهاما في رؤوسها خِرَقٌ مشتعلة. أمرهم القائد بأن يصوبوا نبالهم المشتعلة إلى قاعدة الباب. أخيرا، وبعد محاولات خاطئة انغرز سهم في خشب الباب، وسرعان ما أومض المكان بالنار، خاصة بعد أن انغرز سهم ثان وثالث في الهدف، وبدأ الخشب يحترق. حينها انتهت هتافات القشتاليين، وبدا أن أمن البرج بات مسألة وقت، وسيتحول أمانه بعد حين إلى رماد وغبار. وصل الدخان إلى السطح،

وإذا بالنصارى وقد تمكن منهم اليأس، شرعوا في مناقشة وضعهم.

- إنهم يتفقون على الشروط... سيستسلمون. - علق القائد بابتسامة رسمت على فمه. - إن هذا سيُعَلِّمُهُم ألا يأخذوا ما ليس لهم.

اختفت الابتسامة من محيا «ابن هود»، وحلت محلها تكشيرة غضب، انقبضت لها جميع ملامح وجهه. فقد كان استيلاء القشتاليين على «حصن سان فيرو» ضربة قاسية لأندلسيي شرق الجزيرة. حيث رأى أهل «مرسية» كيف أن الحدود تمددت في اتجاههم، واقتربت منهم. ولكم انتظر في صبر كثير من المرسيين، بينهم «ابن هود» نفسه، أن يحرك الخليفة الساكن، ويرسل الجند لإعادة النظام إلى نصابه، غير أن الشهور مرت متتالية دون أن يعبر بوغاز[جبل طارق] أحد، أو أن تصدر ردة فعل من قائد موحدي، ويبادر باستعادة ما ضاع. لقد شعر الأندلسيون كما لو أنهم تركوا لمصيرهم... ولما أعيا الانتظار ابن هود قرر أن ينظم الهجوم على حسابه، وتحت مسؤوليته، لاستعادة القلعة. فخاض الحملة ببعض الجند البربر القلائل الذين كانوا تحت إمرته، إضافة إلى عدد لا بأس به من المتطوعة الأندلسيين. وبهؤلاء قاد هذه السرية التي باتت على وشك إعادة الأمور إلى ما كانت عليه.

بدأ خشب الباب يُقَرْقِرُ، وهو يتحول إلى فحم. حينها طلب القائد المُرْسِيُّ من رجاله أن ينتظموا على مرأى القشتاليين. بعد دقائق من ذلك، سمع صياح النصارى وهم يعلنون استسلامهم. وبذلك

سقطت قلعة «سان فيرو» على يد أندلسي قاد الهجوم.

رفع المسلمون أصواتهم بالهتاف والتهاليل عبر هواء الليل الدافئ. فسمعت أصوات البربر وقد علتها، هذه المرة، أصوات الأندلسيين الذين كانوا يرون أنفسهم الملاك الحقيقيين لتلك الأراضي.

ـ «ابن قادس»! ـ سُمع بين الحشود... كانت ذكرى القائد الأندلسي المدافع عن «قلعة رباح»، والذي اغتاله الخليفة بسبب غيرة وزيره ما زالت حية في ذاكرة عدد كبير من الأندلسيين. ومن ثمة، تحول مقتل «ابن قادس» إلى رمز لكراهية الناس للموحدين.

***

ضيعة الماء الحلو Cortijo del Agua Dulce (جنوب قشتالة). صيف 1217

مرر القس يده على ثوبه الرث ثم تنهد وهو يحدق في «مارية». بدت الفتاة وهي جالسة أمامه في حالة شرود، كأنها ما زالت غائبة من أثر الصدمة. في عنقها برزت خطوط حمراء من أثر شد الحبل الذي حاولت به أن تضع حدا لحياتها، بينما انطبعت على ذقنها قشرة دم يابس.

ـ إن الحياة يا «مارية» هدية من الرب. فلماذا تزدرين بما هو منحة من عنده، وتستخفين بهديته.
ـ لم تجب الفتاة. ـ «مارية»... ـ همس الراهب.

ـ هدية نتنة ـ قالت الفتاة دون انفعال.

ـ لماذا تقولين ذلك؟ هل حصل لك أمر؟ ـ كان

الرجل يريد أن يقف على أسباب المحاولة، حتى يساعد الفتاة على إنقاذ روحها الضائعة.

التفتت الفتاة نحو مخاطبها، وعيناها الخامدتين المنطفئتين تحدثانه عن الخيبة، واليأس، والحزن اللامتناهي.

في الآن ذاته تناهى إلى الأسماع صوت آت من الفناء. كان «رامون» قد ترك القس والفتاة لوحدهما حتى يفسح لهما في بعض الألفة، ثم ليقوم هو بإصلاح عجلة عربة.

- يمكنك أن تثقي بي. يحميك «شرط الكتمان».

اغرورقت عينا الفتاة بالدموع، وأجهشت باكية على نحو وديع، دون تصنع حركات أو نحيب.

- لا أريد هذه الحياة.

اقشعر جسم الراهب وهو يرى الثقة التي تتحدث بها «مارية»، وقسوة الكلمات التي تتفوه بها.

- أنتِ ما زِلتِ شابةً في ريعان الشباب. ما هذا الأمر الخطير الذي حصل لك حتى تفكري بهذا النحو؟

سُمعت هذه المرة من الفِناء صرخةُ ألمٍ صدرت عن «رامون»، بسبب ضربة أصابته في الأصبع.

- هو تعدى علي. - تمتمت، ثم التفتت ناحية الباب التي تؤدي إلى الفناء.

- فهمت - كان القس يشك فيما يشبه ذلك. - هل يضربك؟

في بطء، هزت «ماريا» رأسها بالنفي.

ـ يغتصبني ـ لفظت العبارة سريعا، وبدا كما لو أن الإشارة إلى السيئة نزلت على روحها بردا وسلاما.

أجهشت من جديد بالبكاء، لكن هذه المرة دون توقف، بنحيب مر مفجع، لكنه مُحَرِّرٌ مُسكّن. احترم الرجل ألم الفتاة، وتركها في نشيجها ما وسعها ذلك، وهو يضع يده على ظهرها لينقل إليها بعض العزاء.

ـ لا أريد أن أعيش على هذا المنوال. ـ قالت وهي تشد على كم لباسها.

ـ «مارية» إن الحياة ليست سهلة. إن الرب يختبر أولاده ويبتليهم.

ـ وهل هو ابنٌ صالح للرب؟ ـ سألت في نبرة قاسية.

ـ هو سينال ما يستحقه، أرجو أن يحصل ذلك قريبا. ـ لم يستطع الراهب كبح نفسه. ـ أما أنت فيجب أن تنقذي نفسك، لا يمكنك أن تديني نفسك بالجحيم الأبدي بسبب الانتحار. الزمي الصبر وصلي. سأعمل كل ما وسعي لمساعدتك. ـ قال في صدق. إشارة القس إلى النار أيقظت في الفتاة ذكرى أليمة، ذكرى اشتعال النار في بيت أسرتها، فشعرت كما لو أن شللا عاما غمر كيانها
ـ عاهديني على أن لا تعودي مرة أخرى لهذا الفعل.

تأخرت الفتاة في الجواب.

ـ أعدك، لن أعود إلى ذلك.

ـ حسنا ـ تنهد القس من أعماقه ـ سأكون رقيبا على كل ما سيحدث في هذا البيت. لنصل الآن. إن الصلاة كانت دائما ملاذا وراحة للأرواح النقية مثل روحك.

صليا معا، ثم نهض الراهب وسلم على «مارية» مودعا.

ـ متى احتجت خدماتي لا تترددي في زيارتي. سأودع خالك.

كان «رامون» جالسا على الأرض والعجلة أمامه. أومأ كما لو أنه سينهض، لكن الراهب أسرع ليقترب منه.

ـ لا تكلف نفسك وتنهض. إنني سأنصرف. ـ انْحنَى القس في اتجاه «رامون»، وألصق شفتيه بأذنه متمتما ـ ستحرق في الجحيم ـ ثم استدار مغادرا.

ترك «رامون» العجلة تسقط أرضا. لم يكن ينتظر مثل هذا الحكم. امتقع لونه، وبدأ يرتعد من الخوف وهو يتفصد عرقا، كأنه شعر بلهيب النار يقترب من جسمه المذنب في قساوة لا تستلين.

***

مرسية Murcia. صيف 1217

ـ قائد الثغر «ابن هود الجذامي» ـ أعلن الحارس الذي كان يحرس الباب، وهو يفخم الأصل العربي اليمني للقائد الذي ينتمي لقبيلة «جُذام» اليمنية.

ظل والي «مرسية» جالسا على وسادته الوثيرة

فوق المصطبة الخشبية، كان المكان القاعة الرئيسة لِمُنية الحاكم الموحدي. تقدم ابن هود وقد اعتمر عمامة على الطريقة البربرية في تُأَدَة نحو الوالي حتى تموضع على بعد خطوات من الحاكم.

- يسعدني أن أستقبلك في بيتي - قال الموحدي.

- وأنا لي الشرف أن أحضر إلى هنا.

كان كل من الرجلين يحدق في صاحبه ويرقبه في تمعن. كانت تلك المرة الأولى التي يلتقيان فيها.

- إن الخليفة أبا يعقوب الثاني حفظه الله، وخلد ذكره، نما إلى علمه مأثرتك، وهو يريد أن يكافئك على ذلك. - مد الوالي ذراعه ناحية أحد الخدم الذي أسرع إلى أن يضع بين يديه سيفا. كان السيف فاخرا مما لا يُلبس إلا من قبل الصفوة، غمده من الجلد المثبت ببراشم من النقرة الخالصة. استل الحاكم الحسام من غمده وعرضه على ابن هود. أعجب الأندلسي بصفحة السيف المنقوشة بأعجب النقوش، وبالمقبض المصنوع من العاج.
- إنها الهدية الجديرة بقائد مثلك - قال الحاكم وهو يسلم السلاح لـ «ابن هود».

- انقل امتناني وشكري لخليفتنا، العالي أمره بالله، على هذه الهدية. - التمس «ابن هود» نقل شكره، وهو يعلم أن أبا يعقوب الثاني لا يمثل له استردادُ «قلعة سانفيرو» سوى زَغَبَة من الغبار بين اهتماماته الحقيقية. - إن العظمة لا تخص إلا الله

تعالى ـ انحنى «ابن هود» قليلا، وهو يفكر في أن ما يفضله من السيوف هو المتين المتوازن الذي ينفع في المعركة.

ـ ما زلت شابا ـ حدثه الوالي هذه المرة بدون نبرة الفخامة السابقة ـ «سانفيرو» قطعة أساسية في منطقة الثغور. غير أني أرجو ألا يكون لهذا الحادث نتائج غير مستحبة، أو يغير النظام المتفق عليه.

«ذلك كل ما يهمك أيها الوغد اللعين» مر بخاطر ابن هود.

ـ ذلك النظام أعيد إلى نصابه، وواجبنا الآن أن نحافظ عليه. ـ أردف «ابن هود» باعتدال واتزان. وهو بالكاد يتحمل ضغط الكلمات التي كان يفضل النطق بها في حق الحاكم والموحدين.

ـ من أجل ذلك نحن هنا، من أجل أن ندافع عن الإسلام، والجهاد في سبيل اللّٰه. ـ أجاب الوالي دون أن يزيح عينيه السوداوين عن وجه «ابن هود».

ـ فاللّٰهَ نسْألُ أن يعطينا القوة الكافية لتحقيق ذلك، وأيضا الوسائل المناسبة.

لم تفت الإفريقي الملاحظة الأخيرة التي عبر عنها «ابن هود»، فابتسم ابتسامة خفيفة في استعلاء، ثم أشار برأسه وسرعان، ما اقترب أخد الخدم من القائد الأندلسي ودعاه إلى الانصراف. في الخارج وتحت الكرمة الكبيرة المعترشة التي كانت تغطي الطريق نفخ "ابن هود" بقوة وهو يسرع الخطى.

«منذ معركة «العقاب» وأنتم تتراجعون ولا تهمكم سوى مراكش» فكر في مرارة. «فما أشبه الأندلس بمركب فقد دفة التوجيه، وسار التيار يدفع به إلى جرف شديد الانحدار».

***

قلعة رباح الجديدة **Calatrava la Nueva**. صيف 1217

ـ كم من رأس غنمتم؟ ـ سأل «المايسطري»، قائد الرهبانية، وهو جالس قبالة الطاولة الضخمة من الخشب المتين التي وضعت وسط الغرفة.

ـ قرابة أربعين من الأغنام وثلاثة رؤوس ماعز. ـ أجاب «مرتين فرناندث دي برغش» وهو واقف مواجها القائد. كانت ملامح وجهه جادة قاسية. ثم أردف ـ ويوجد القطيع في البلدة.

هم القائد واقفا، ثم أمسك بـ «مرتين» من منكبه، ودفع به إلى مصاحبته خارج الغرفة. صعد الرجلان إلى الطبقة العليا من الحصن، ثم أطلا ناحية القرية الصغيرة. في حظيرة لصيقة بالسور الخارجي بدا القطيع الذي انتزعه الرهبان الفرسان من أحد الرعاة «الموروس»، قريبا من «شلبطرة».

كانت ملامح القرية التي ينشئها فرسان القلعة تبرز واضحة، وبدأت خطوط الشوارع تتشكل بقدر ما كانت الدور تبنى، وتأخذ مواقعها في الأرض.

ـ أحداث؟ ـ سأل القائد بينما كان يحدق في الحظيرة.

ـ مناوشة بين دورية واثنين من «الموروس».

تعقبونا لبعض الوقت، غير أنهم لما عدنا لمواجهتهم رميا بحربتيهما ثم فرا.

ـ عدد جيد من الأغنام. سننتفع بحليبها لا محالة. ـ علق القائد ـ أعرف أنك تعاني، لكن قد حان الوقت لتنسى أمر المستوطنة. ـ غير الموضوع فجأة، فأدرك «مرتين» لماذا أتى به «المايسطري» إلى هناك.

ـ آسف أنني سببت لكم خيبة أمل ـ أطرق.

ـ كل الرجال يخطئون بمن فيهم العظماء. ـ قال «المايسطري» ـ غير أن الرجل إذا ترك الخطأ ينهشه باستمرار، ويعذب ضميره، فإن فضائله الفطرية ستضيع من كثرة تأنيب الضمير. ـ كان يتحدث دون أن يتطلع إلى الفارس، ومهتما في نفس الآن برصد العمال وهم يعملون في الحقول المجاورة. ـ التزمت بكفارة قاسية، وها قد آن الأوان لرفع الرأس مرة أخرى. كنت تقود سبعة رجال و«الموروس» فاق عددهم الثلاثين نفرا. قُتِل أكثُر من نصفِهم، ولم يُسْتَشْهَدْ أحد من المستوطنين. لا أحد آخذك على شيء.

ـ نجا المستوطنون بإرادة «الموروس». لو كانوا يريدون قتلهم لفعلوا ذلك بسهولة. ـ اعترف «مرتين». ضميري غير مرتاح.

ـ كفى يا «مرتين» ـ نطق «المايستري» هذه المرة بصوت لُبِّسَ نبرة سلطوية ـ نحن جندُ الرب وسيفُه ـ علق وهو يشد على قبضة يده ويُهدْهِدُها. ـ إن الرب في حاجة إلى سيف بتار يضرب به الكفار، سيف لا يَتْلَمُ عند أول ضربة ـ

كان يريد لعبارته الأخيرة التي تلفظ بها في شبه صراخ أن تطن في ذهن الفارس ـ تصالح مع نفسك، وعد إلى خدمة ربك على نحو حسن.

ختم «المايستري»، وجعل يمشي لتوه، تاركا «مرتين» لأفكاره.

بقي الفارس وحيدا. فشد على الصليب المعلق على صدره، ولاحظ كيف أن قلبه أخذ في الخفقان بقوة، والدم يجري سريعا في عروقه. أغمض عينيه وتحدث في وحدته، مستحضرا أباه وعمه «ألفونسو» وجميع شهداء الرهبانية الذين سقطوا منافحين عن المسيحية.

ـ إلهي، سأكون سيفَك القاطعَ الذي لا ينكسر، وسوطَك، وعاصفتَك. وسأثأر لمن قُتِل من أجلك، وسأقضي على أعدائك.

وحينما فتح «مرتين» عينيه، كانتا قد استعادتا ومضة من ومضات الحياة، وشرارة من بريق الشجاعة.

***

الطريق من برغش إلى «بالنثيا» **Camino de Burgos a Palencia**. نهاية صيف 1217

ـ سيدي، أَلْقَوْا القبضَ على الوصي. ـ كانوا ما زالوا يستخدمون لقب الوصي حين الحديث عن «آلبرو نونيث دي لارا» ـ كان نفَسُ الرسول متقطعا بسبب تعب الإحضار(20).

طلب «فرناندو» مزيدا من المعلومات، فحكى الرسول أن آل «طِيجِثُ»، الذين كانوا يقودون

الطليعة، فاجأوا «لارا» قريبا من «إريرا». ويبدو أن النبيل كان قد كمن هناك ليفاجئ ملك «قشتالة» الجديد. غير أن الأخوين «طيجث»، وهما من أنصار «برنگيلا» والملك الشاب، تمكنا من الإمساك به، وهما الآن ينتظران مع من معهما وصول موكب الملك «فرناندو الثالث».

كان «فرناندو» صحبة حاشيته في الطريق من «برغش» إلى «پالنثيا». إذ منذ جلوسه على العرش لم تتوقف أنشطته وتحركاته. وكان الوصي «آلبرو» قد أقنع «ألفونسو التاسع» ملك «ليون»، ووالد «فرناندو»، باكتساح «قشتالة»، فاستولى هذا على عدد من القلاع والحصون إلى أن اقترب من ضواحي «بلد الوليد». غير أن «فرناندو» رفض مواجهة القوات الليونية. فاضطر «ألفونسو التاسع» إلى تغيير وجهته، ومضى إلى ناحية «برغش» ليقترب من المنطقة التي تخضع لتأثير حليفه، «آلبرو نونيث دي لارا»، لكنه وجد «برغش» محمية خير حماية من قبل «لوپي دياث دي آرو»، الذي عُيِّنَ حاملا لراية الملك «فرناندو الثالث». أمام هذا الأمر الواقع عَدَّل ملك «ليون» من مشاريعه، وعاد إلى مملكته، وترك «دي لارا» وحده. إزاء ذلك لم يتردد ملك «قشتالة» لحظة، واستغل الفرصة، وقام بهجوم تمكن خلاله من الاستيلاء على حصون: «مُنيو»، و«لِرما»، و«لارا» قبل أن يدخل إلى «برغش» دخول الفاتحين. وبذلك، انتهت خطة «آلبرو نونيث دي لارا» بالفشل الذريع، بعد أن وجد نفسه محاصرا ودون مساعدة مملكة «ليون» ليتم إلقاء القبض عليه في الأخير.

وبذلك دشن الملك الجديد «فرناندو الثالث» عهده بحَمْلَةٍ مَلْحَمِيَّة، مدفوعا من أمه، ومدعوما بنبلاء حزبه الذين عوضوا نقص خبرته العسكرية بسعة تجربتهم في ميدان الحرب، وخبرتهم بتقلباتها. ولكم أحست «برنگيلا» بالفخر وهي ترى ابنها يُثبت أهليته ليصبح قائدا عسكريا من الطراز الرفيع.

همز «فرناندو الثالث» فرسه في اتجاه مقدمة جيشه، وسار في أعقابه أهم الفرسان وقادة الجيش. كان يلبس درع الميدان، ويحمل مُعلقاً بحزامه سيفا. كانت الحرارة مفرطة، وجسمه يتفصد عرقا.

وصل الملك ورجاله إلى المقدمة، ووجد في استقباله الأخوين «طيجث». في حين كان «دون آلبرو نونيث دي لارا» واقفا مقيد اليدين، ويحرسه حارسان. كان وجهه يعكس غضبا مكتوما. وما أن رأى الملك الشاب حتى بصق على الأرض. على التو ضربه أحد الحراس بمِرْفَقِه، فصرخ صرخة توخى منها أن يفرج عن حَنَقه المكبوت.

ـ ليس لديكم الحق في أن تفعلوا هذا ـ صرخ الأسير وهو يرفع يديه المربوطتين بالحبل.

ـ ليس الحبل لازما، إنه رجل شريف. ـ توجه «فرناندو» بالخطاب لرجاله وهو ما زال راكبا فرسه.

أسرع الحراس إلى فك الرباط. في الوقت ذاته الذي برزت فيه «برنگيلا» مصحوبة بخمسة فرسان، وهي تعدو عدوا خفيفا فوق ربوة قريبة من المكان.

تطلع «دون آلبرو» إلى «فرناندو الثالث»، فرد الملك عليه بنظرة استعلاء. كانت عينا الشاب تَبْرُقَان بحُميا الشباب، في حين عكست نظرةُ النبيل خيبةَ أمل عميقةً، ممزوجة بالكراهية وحُبِّ السلطة.

ـ لم يكن عليك أن تدك البلدتين ـ كان الملك يعني الانتقام الذي صدر من «آلبرو» في حق البلدتين «بيلورادو» و«ناجرة»، بسبب ما قدمتاه من مساعدة لجند الملك «فرناندو الثالث» خلال الحملة.

ـ أتصرف فيما هو مِلْكِي كما يحلو لي.

ـ لم يعودا من أملاكك. لم تعد تملك الآن سوى حياتك. صَلِّ من أجلها.

كانت «برنگيلا» قد وصلت للتو واقتربت من القوم.

ـ المجد للرب في الأعالي! ـ نطقت المرأة في ورع صادق. بدت الأميرة مبتهجةً في قمة السعادة. فقد كان ما حصل علامةً أخرى من الرب بأنها اختارت الطريق الصحيح. وأخيرا وجدت روحها العزاء والارتياح.

***

أرجونة Arjona. خريف 1217

وصل «محمد» و«إسماعيل» وهما في غاية الإنهاك، وذهبا في الحال للاغتسال بماء الجرة الموجودة في الفِناء. كان موسم الزرع وبذر البذور على الأبواب، ومع ذلك ما زالت قطع كثيرة من

الأرض لم تحرث بعد. وكان الأخوان قد قضيا يوما طويلا قاسيا في العمل، ثم انتقلا بعد العصر للقيام بالتداريب العسكرية. فقد كان «أشقيلولة» يصر دائما على أن يستمر الشباب الأربعة في تمارينهم، بالرغم من أنهم كانوا على مستوى من التدريب يهيئهم أصلا لخوض المعارك والقتال.

ـ إن الوَشَق لا يتخلى أبدا عن الصيد، بالنسبة إليه ليس هناك زمنٌ سلام، وهنا يكمن سر فعاليته. ـ قال «أشقيلولة» للجميع، حينما ذكر «إبراهيم» أنهم باتوا مدربين بما فيه الكفاية، وقادرين على خوض غمار الحرب.

ـ يا شيخ، ـ نادى «إسماعيل» «محمدا» وهو يتطلع إليه في سخرية ـ ناسبك الزواج، غير أنك إذا استمررت على هذا المنوال ستجد نفسك بعد قليل بكرش شبيه بكرش الحاكم. ـ علق «إسماعيل» مقهقها.

ـ أخي من الصعب أن ترفض طبقا تحضره «فرح» ـ أجاب «ابن الأحمر» وهو يخفض من صوته. ـ قريبا ستفهم ذلك، سَتَسْمُن وستصبح رجلا ـ صاحب كلامه بصفعة حبية. كان «إسماعيل» قد أكمل عامه العشرين، تاركا خلفه سن المراهقة، وأخذ في الاستعداد للزواج بإحدى بنات قريباته من جهة والده. كانت الأسرة قد خططت ليتم ذلك في ظرف سنة.

ـ اقترب «فرج» من أخويه وهو يحمل قطعة من خشب شذبها على شكل سيف.

ـ هيا! قاتلا أيها الكافران.

كان الطفل يقفز متنقلا من مكان إلى آخر، وهو يهز سيفه المرتجل.

ـ سيحين الوقت الذي ستحمل فيه سيفا حقيقيا... ـ قال له «إسماعيل».

كان «فرج» متشوقا، وقد بلغ الثالثة عشرة من عمره، إلى أن يشرع في التمرن على فن الحرب. كان قَوَامُه ما زال ضعيفا، ولم يكن «يوسف» يريد أن يصبح أصغرُ أبنائه مقاتلا، لكن الفتى كان مصرا على أن يسير في طريق أخويه.

اجتمع أفراد الأسرة في «المجلس» حول المائدة لتناول وجبة العَشَاء. بعد الانتهاء من الطعام صلى الجميع، ثم انسحب كل منهم إلى غرفته. فقط، ظلت «كريمة» تَلُمُّ بقايا الطعام، وترتب الأواني، فكانت آخر من آوى إلى غرفة نومه.

في مقصورتها شرعت «فرح» في نزع لباسها في ضوء القنديل الخافت.

ـ دعيني أراك ـ طلب منها «محمد» حينما تجردت من لباسها. اقترب منها ليضمها إلى صدره، غير أن الزوجة أفلتت منه، وتوارت في أحد أنحاء الغرفة، وغِلالتها بيدها.

ـ اليوم، لا.

ـ هل بك ما يمنع؟

نفت فرح بهزة من رأسها.

ـ قمت بحسابات مع «كريمة»، وتبين لي أنني في رمضان المقبل لن يمكنني القيام بفريضة الصوم.

تأخر «محمد» في إدراك مقصد زوجته بعض الثواني، وحينما فهم مغزى الكلام أومأ بإشارة كما لو أنه يطلب منها التصديق.

ـ أجل إنني حامل.

أطلق «محمد» صيحة فرح، وأمسك زوجته بذراعيه، وضمها إلى صدره.

ـ سننجب طفلا... ـ ردد أكثر من مرة.

كانت «فرح» تضحك مقهقهة وهي ما زالت مجردة من الثياب. تفرس فيها زوجها بإمعان فرآها أجمل من أي وقت مضى.

ـ هل ذلك مضر للجنين؟

ـ أجل، من الأحسن توقي الحذر في البداية.

امتثل «ابن الأحمر» للظرف. واستلقيا على الفراش مشبكين يديهما.

ـ سأستعمل العِرْناسَ والنَّوْلَ اللذين تحتفظون بهما في المخزن. ينبغي أن أشرع منذ الآن في نسج الثوب، وحياكة لباس الوليد ـ قالت «فرح».

ـ كانت أمي تستخدمهما. ـ علق «محمد» وأمارات بهجة حقيقية تغمر نفسه. وسرعان ما داهمه النوم ويد «فرح» بين يديه.

في تلك الليلة، رأى فيما يرى النائم، أن زوجته تحمل بين يديها طفلة صغيرة، ثم تقترب منه وتسلمها له في عناية، وأنه يأخذها منها في سعادة ويحتضنها بصدره.

***

نهض «هادي» من القيلولة عند العصر. فغادر بيته للتو. كانت عيناه محاطتين بهالتين مُزْرقَتين غائرتين نتيجة السهر في رعاية ابنه. كان الرضيع يعاني من آلام في البطن، ويقضي الليل في بكاء شديد. ومع ذلك كان «كمال»، هذا اسم الوليد، يتمتع ببنية قوية، ويحبه «هادي» حبا فوق كل شيء.

أنعش هواءُ المساء «الجيانيَّ»، فقطع الشوارع بخطوات خفيفة. وحين وصوله إلى الباب الرئيسي للقصبة صادف «ابن الأحمر» الذي كان هو أيضا في الطريق إلى المقبرة ليحضر خطبة «عمر» الوعظية.

ـ السلام عليكم يا «شيخ». ـ سلم «هادي» في احترام.

ـ وعليكم السلام، ـ أجاب «ابن الأحمر» بابتسامة نَوَّرَتْ ثغرَه. إذ لم يكن متعودا على أن يدعوه الناس بلقب «الشيخ». ـ يبدو العياء على وجهك.

ـ بالكاد أنام. ابني «كمال» يقضي الليل في البكاء.

ـ على الأقل، تنبؤني مبكرا استعدادا للآتي.

أدار «الجياني» وجهه نحو «محمد» قائلا:

ـ هل «فرح» حامل؟ ـ أجاب «محمد» بنعم. ـ هنيئا، وبارك الله فيكما، لكم أسعدني سماع هذا الخبر. إن الأطفال زينة الحياة.

ـ شكر «ابن الأحمر» «هادي» ثم وضع يده على كتفه عربون صداقة. ظهر توتر على «هادي». بعد

فترة صمت قصيرة، خاطب الجنديُّ الثغريَّ بنبرة فيها جِد.

- أنا مدين، يا «محمد»، في كل ما أملك لجدك، بما في ذلك زوجتي وابني. وامتناني وشكري يمتدان إليك. ومن ثم أنا مدين لك بالإخلاص. لقد تبعتك مرتين، وسأتبعك في جميع مشاريعك التي تخطط فيها لمزيد من المجد للإسلام والأندلس. - نطق «هادي» هذه العبارات وهو يضع يده على صدره. كان الرجل حقا معجبا بذلك الشاب.

- شكرا، أيها الصديق العزيز، تجربتك ستكون أكبر مساعد لي. - أجاب «محمد» وهو يحس بنفسه في وضع مربك - حدثني عن المعركة الكبرى. أتنازل عن خمس سنوات من عمري لو كان قد قدر لي حضورُ تلك المعركة.

- مرت سنوات عدة، لكن الذكرى ما زالت حاضرة حية. كنت لا أزال في ميعة الصبا، وناقصا التجربة. كان يوما حزينا. - توقف هنيهة وبدا كأنه يفكر - أكثر ما أذكر هو الضجيج والرائحة. ولكم حلمت في ليالي عدة بتلك الأصوات، والطبول، وصهيل الخيل، والصراخ، والمعادن تتصادم... - خفت صوته قبل أن يستطرد - لم أر مجدا في ذلك اليوم. لقد رأيت المجد في الغارات.

وبينما الرجلان في الطريق وهما يتحدثان، التقيا بعدد أكبر من تابعي الطريقة. إذ منذ «انتصار المستوطَنة»، زاد صيت «الولي الصالح»، وغنمت طريقته عددا أكبر من المريدين. لحظة، بدا لهما من بعيد «أحمد بن إسحاق» الذي كان يمشي بخطوات وئيدة، وذراعه ملتصقة وربا على

صدره. كان العدو القديم لـ «محمد» قد دفن نهائيا أحقاده تجاه بلديه، وأعلن نفسه تابعا لـ «حَسُّون»، ويدِه اليمنى الشاب «النصري».

في المقبرة، انتشر عشرات من الرجال بين القبور، وهم يصغون للولي المتصوف. وكان من بين الحاضرين حارسان بربريان يعتمران عمامتين، حضرا ليتأكدا من أن «الحسون» لا يقول شيئا ضد العقيدة الموحدية.

ـ عقيدتنا تختلف عن عقيدة هؤلاء. ـ قال «محمد» لـ «هادي» وهو يشير بذقنه إلى أحد الحارسين.

في تلك اللحظة سُمع صوت الأذان بعيدا في «أرجونة»، كأنه صدى صوت قصي، تتردد نبراته عبر الأثير، إلى أن تصل المكان الذي خيم عليه صمت القبور. انتظم الرجال لتأدية صلاة المغرب. وعينُ «هادي» دائما على «محمد». بعد الصلاة، وقد ارتسم على الغَسَق آخرُ خيط من ضوء النهار، شرع «عمر الحَسُّون» في خطبته الوعظية. كان الرجل يُلهِب حماس الناس بأفكاره، ومثله الزهدية، ودعوته للجهاد.

***

ـ التزم دائما حذرك! حياتك رهينة بذلك.

كان «أشقيلولة» يراقب بإمعان حركات كل من «إسماعيل» و«عبد الله» ليصحّحا وضعيهما على الفرس. أما «إبراهيم» و«محمد»، القريبان من «أشقيلولة»، فكانا مركزين غاية التركيز في المبارزة. كانا يتبارزان بسيفين من الخشب

حفاظا على سيفيهما المصنوعين من المعدن حتى لا يلحقا بهما أي ضرر. وكان الشابان حين توزيع غنائم المستوطنة قد حصلا على سيفين رائعين من السيوف القشتالية، وهو ما حدا بـ «أشقيلولة» إلى تكثيف تدريبهما على المسايفة.

كان «إسماعيل» قد اتخذ وضعية الدفاع محاولا تفادي أو صد ضربات «عبد اللّٰه». كان «إسماعيل» موفقا في مناوراته بالسيف لدرجة أن «أشقيلولة» الابن بدت عليه علامات القنوط، هاجم «عبد اللّٰه» غريمه النصري مرة أولى، وثانية، لكن سعيه في التغلب على غريمه كان يخيب، المرة تلو الأخرى، لمهارة «إسماعيل» في المراوغة، وقدرته على الإفلات من ضربات الغريم. نفخ «عبد اللّٰه» بقوة، ثم استدار بغتة، وهوى على منافسه بسيفه من أعلى، فضرب الحسام للتو سلاح النصري، وسمع اصطدام الخشب في الفناء، قبل أن تتلوه ضربة أخرى، أقوى من الأولى، جعلت سيف إسماعيل يرتج بيده. وهو ما استغله «عبد اللّٰه» ليهاجم ذراع غريمه اليمنى بكل ما أوتي من قوة، حينها سمع صَريفُ الضربة وهي تصطدم باللحم، يتلوها توجع «إسماعيل».

وثب «محمد» في اتجاه المتبارزَين، كأن زُنْبُركا رمى به إلى حلبة النزال، وقد استبد به غضب شديد، كما لو أنه ذئب محاصر.

ـ ما معنى هذا؟ كان يكفي أن تسجل بلمسة، يا غبي. ـ صاح «محمد».

نظر «عبد اللّٰه» في اتجاه عمه نظرة احتقار. على الإثر انتزع ابن الأحمر السيف من يد أخيه،

وواجه المعتدي متحديا. كان «أشقيلولة» ينادي على الاثنين، غير أن المتخاصمين لم يكونا يباليان بندائه.

ـ هيا يا شيخ، اهجم ـ قال «عبد الله» بنبرة ساخرة.

استجاب «محمد» للدعوة، وفي أقل من ضربتين تمكن من نزع سلاح غريمه. ثم تقدم خطوتين نحوه، ودفع به إلى الوراء بيديه، على الإثر سقط «عبد الله» على قفاه، ثم انقض عليه «محمد»، واضعا الخنجر على عنقه. كان «عبد الله» يتنفس بعصبية، غير أنه لم يتحرك، كانت نظرة النصري، وهو في قمة الغضب، قد أرهبت «ابن أشقيلولة».

اقترب «النبلي» من المتبارزَين، وأخذ منهما السلاحين، ثم أمسك بابنه، ووجه له بكل قوته صفعة أعادت إليه رشده. ثم وجه أخرى بعد ذلك لـ «محمد».

ـ كان عليكما أن تحسا بالخجل. ألا تعرفان بعد من هو العدو الحقيقي؟

بعد قليل أخذت ذراع «إسماعيل» تتخذ لونا ورديا. تفحصه «أشقيلولة» في غضب مكبوت. كانت الرَّضَّةُ قويةً، غير أنها لحسن الحظ لم تسبب أي كسر للشاب.

كان الشاب «النصري» يحدق في «عبد الله» ببغض، وعجز عن فهم سبب هذه العدوانية، فخيم الصمت على الجميع، ولم يجرؤ أحد على أن يحرك شفتيه بكلمة.

ـ أنتما شابان، وأن تحدث مثل هذه الأشياء بينكما يعتبر عاديا. ـ خاطب «أشقيلولة» المتخاصمين بلهجة تنحو إلى التوسط بينهما، ثم أردف: ـ من الصعب أن تُبقيَ على أكثر من ديك في قفص واحد. لكن لا تَنْسَيَا أبدا، أبدا، أنكما قريبان.

«أنا نصري ولست «أشقيلولة»» مر بِخَلَدِ «ابن الأحمر».

ـ ابقيا يدا واحدة، ـ استطرد ـ ولا يُضمِرْ أحدُكما الضغينة لصاحبه، واضربا كأنكما قبضة واحدة، كل أصبع فيها له دوره وأهميته. ـ سكت «أشقيلولة». ثم مَدَّ ساعدَه وشد على أصابعه وسط راحة يده وجعل يحرك القبضة أمام الشباب. ـ هل تفهمون؟ ـ وافقوا جميعا غير أن قلوبهم بدأت في التباعد على نحو لا يمكن تفاديه.

كان «أشقيلولة» يتفرس في الجميع في صمت، وبدا أن الرابطة التي كانت تؤلف بين هؤلاء الشباب منذ الطفولة بدأت في التفسخ شيئا فشيئا.

أشعر «النقيب» بانتهاء الدرس. فانصرف التلاميذ كل إلى عمله، في حين ركب «أشقيلولة» فرسه في اتجاه أراضيه الغربية. كان الرجل ما زال تحت وقع المهارة الكبيرة التي أظهرها «محمد» وهو يجرد ابنه من سلاحه.

«ولد في سنة «الأَرَك»، فكر «أشقيلولة» وهو يستحضر الشعور الذي غمره بعد انتهاء المعركة، حينما أعلمه الطبيب، الذي كان يعالج جروحه،

بميلاد حفيده «محمد».

***

دير «سَانْتا مَارِية لَا رِيال دي لاش وِيلگاش»

**Monasterio de Santa María la Real de las Huelgas**

برغش Buros. ديسمبر 1217

قضى «فرناندو الثالث» وأمه أكثر من ساعة أمام قبر «إنريكي» الأول يصليان من أجله. وكانت «برنگيلا» قد تكفلت شخصيا بجنازته، وأمرت بدفنه في الضريح الملكي. بعد الانتهاء من الصلاة انتقل الملك ووالدته إلى رِواق الدَّيْر القَديم، حيث كانت رفات «ألفونسو الثامن» تنام نومتها الأبدية. وفي خلوة مع النفس، وانعزال تام، جثا «فرناندو»، وأخذ يصلي مرة أخرى في صمت، في حين بقيت أمه خلفه على بعد خطوات. كان الملك الشاب يقدم احتراماته لأعظم ملك عرفته «قشتالة». كانت قد مرت خمس سنوات على معركة «ناباس دي طولوسا»، غير أن ذكرى «ألفونسو الثامن» كانت ما زالت حية في ضمير الأمة المسيحية. ولكم كان «فرناندو»، الذي لم تكن سنه قد تجاوزت الحادية عشرة حين وقوع المعركة، يذكر باستمرار أحاديث أمه عن مآثر جده وبطولاته، والألعاب التي كانت تبتدعها مع أخيها «ألفونسو»...

بعد لحظة، حينما أتم «فرناندو الثالث» صلاته، أمسكت «برنگيلا» بذراعه، وقالت:

- إن دمه يجري في عروقك، يكفيه فخرا أنه قدم

الإيمان المسيحي على الانقسامات والخصومات التي كانت قائمة بين الممالك النصرانية. وأنت، مثله، سيُخَلِّدُ الناسُ ذكراك بما ستقوم به من أعمال جليلة، وتحققه من بطولات. لا تنس أبدا أن الرب أناط بنا مهمة من أعظم المهمات ألا وهي تحقيق الوحدة بين المسيحيين، وقتال الكفار المسلمين. ـ ظهر ارتياح على وجه الملك الشاب ـ ونحن الآن نسير في الطريق الصحيح، لاسيما أن الهدنة السائدة في هذه الآونة تمنح عرشك الثبات والاستقرار.

كانت الأم تشير إلى عزل «آلبرو نونيث دي لارا» والتضييق عليه، حتى اضطر إلى التنازل لـ «فرناندو الثالث» عن عدد كبير من ممتلكاته وحيازاته ليسترجع حريته. ثم بعد ذلك لجأ هاربا بنفسه إلى مملكة «ليون». حيث تعمقت محنته بتخلى «ألفونسو التاسع» عنه. وكان ملك «ليون»، حينما رأى سقوط أسرة «لارا»، قد اضطر إلى فتح جولة من المفاوضات مع «قشتالة»، انتهت بعقد اتفاقات هدنة مع ابنه «فرناندو الثالث».

ـ حقا، ولكن على حساب القلاع التي أخذها منا.

وكان ملك «ليون» «ألفونسو التاسع» قد طلب مقابل احترام الاتفاقات، التي عقدت بينه وبين ابنه، أن يتم التنازل على جميع القلاع التي استولت عليها «قشتالة» خلال الحملة الأخيرة، ودمجها في «ليون».

ـ لكل هدنة كلفتها، يا بني، وهذه لم تكلفنا كثيرا. وقداسة البابا يقوم الآن بوساطته من أجل أن تتحول هذه الهدنة إلى سلام نهائي بين

المملكتين. ـ أنهت عبارتها وهي تضغط على ذراع ابنها ـ وقد أعلمني رئيس أساقفة «طليطلة» أن البابا «هونوريوس الثالث»، حفظه الرب لسنوات مديدة، سيرفع عنك ما لحقك من منع وراثة أبيك. إذ ارتأى الحبر الأعظم أن ما قام به والدك من تبنيك، يجعلك وارثا شرعيا.

ـ لا يهم ذلك كثيرا ـ أجاب «فرناندو الثالث» ـ إن أبي له أولويات أخرى.

ـ «فرناندو»، يا ولدي، إذا أصبحت ابنا شرعيا سيكون لنا الحق في عرش «ليون». أؤكد لك أنه عندما يحين الوقت ستجد لك داخل المملكة أنصارا كُثُرا.

مع سماعه لهذا الكلام خفق قلب الملك الشاب خفقانا سريعا.

ـ يعني ذلك... ـ لم يشأ إكمال العبارة.

ـ يعني ذلك أنه بإمكانك، وقتها، أن ترث والدك فتصبح ملكا لـ «قشتالة» و«ليون».

***

أرجونة Arjona. ربيع 1218

خرجت «كريمة» مسرعة إلى صحن الدار. وأمرت «فرج»:

ـ أقمشة نظيفة، حالا، إنها في الخزانة!

بدا «محمد» في حالة عصبية تحت تأثير لحظة الاضطراب والبلبة هذه. كان يذرع الصحن جيئة وذهابا، مشغولا عما حوله. في حين جلس والده، وجده، وأخوه، وخالاه «إبراهيم» و«عبد الله» في

ناحية من الفناء يعمها الظل. بين الفينة والأخرى كان يسمع صراخ «فرح» يتردد صداه على جدران الصحن، فيزداد قلق «محمد»، وقد تمكن من قلبه أصلا شعور بالعجز والالتباس.

- هون عليك، كلنا أتينا إلى هذا العالم هكذا. - قال له والده.

افتر ثغر الشاب عن ابتسامة فاترة، سرعان ما انطمست حينما سمع زوجته تصرخ مرة أخرى.

- ها هو على وشك النزول! - سمع صوت القابلة. كانت قد مرت ساعات من الانتظار، إلا أنه بدا، الآن، أن اللحظة المنتظرة أصبحت قريبة. - ينبغي أن تكوني قوية - رددت القابلة - ادفعي يا فتاة! -

لحظتها بدأت تترى قائمة طويلة من الأوامر والصراخ في تناوب، تَسْتَحِثُّ الأمَّ لتُسهِّل الطريق إلى الحياة.

- هيا، ادفعي بقوة أكثر!

أخذ «محمد» يصلي، ويدعو ربه، وهو في غاية القلق خوفا على حياة الأم والجنين. بعد قليل شارك «إبراهيم» خاله في صلاته. كانت زوجته، هي أيضا، حاملا، وحضوره هذه اللحظة اعتبرها تجربة صالحة، تهيئه لما ينتظره مستقبلا.

- انظر إليهما كأنهما جَفْنَتا حساء في يدي شيخ. - علق «عبد الله» همسا في أذن «إسماعيل».

ضحك الاثنان.

بالرغم من أن الشباب كانوا يتظاهرون أمام

الأبوين بأن العلاقات بينهم عادية، إلا أن الواقع كان غير ذلك. إذ منذ حادثة تمرين المسايفة أصبح التباعد بين النصْرِيَيْن وابني «أشقيلولة» في اطراد. «إسماعيل» كان قد قضى أكثر من أسبوع يتوجع بذراعه، و«محمد» خلال تلك المدة لم يكن يبادل «عبد لله» الكلام.

ـ هيا، يا طفلة، ادفعي! ـ كانت «كريمة» هي التي تحث «فرح» هذه المرة.

كانت فرح تصرخ، يمزقها ألم فظيع. كانت المسكينة تدفع بكل ما أوتيت من قوة. أغمض «محمد» عينيه وهو يشد على قبضتيه.

ـ إنه يخرج، لقد برزت رأسه الصغيرة! ادفعي بكل قواك! ادفعي! كانت القابلة تحفز الفتاة حتى لا يُغمى عليها.

بغتة، سمع صوت حاد طويل، أعقبه سكونٌ، سمعت خلاله خطوات النسوة، كن، دون شك، يتحركن من مكان إلى آخر لأخذ قطع القماش النظيفة وبعض الماء.

ـ يا لها من صبية جميلة! ـ سمع الرجال بالصحن، وهم يتنفسون الصعداء.

بعد لحظات خرجت «كريمة» وهي تتصبب عرقا، وملوثة ببعض الدم. في الحين اقترب منها «ابن الأحمر»، فبادرته قائلة:

ـ صبية جميلة، وفي حالة صحية جيدة. إنها مع أمها. ـ هم «محمد» بالدخول، غير أن المرأة منعته. كان صراخ الوليدة يسمع من داخل الغرفة

ـ الآن لا، هناك أشياء يجب القيام بها ـ صفقت على ذراعه ـ أنت رأيت الدم في المعركة، لكنك إن رأيت ما هناك في الداخل، فلن تظل واقفا على رجليك ولو لدقيقة واحدة. ـ ضحكت.

عادت «كريمة» إلى الغرفة، في حين آب «محمد» بوجه مشرق إلى الرجال، وكانوا متحلقين وهم يثرثرون في انتظار قدومه لتهنئته بالمولودة الجديدة.

ـ ها قد أصبحتَ جَدّاً، وبدأت تنزل عبر المنحدر. ـ تلفظ «أشقيلولة» بالعبارة وهو يمسك بذراعي «يوسف».

ـ وماذا في نهاية المنحدر؟ أنت أقدر مني على وصف ذلك. ـ أجابه «النصري» بمكر.

عم جو من الانبساط والضحك. بعد فترة ليست بالقصيرة خرجت «كريمة» من جديد إلى الفناء، ثم نادت على «ابن الأحمر». وسرعان ما دخل الشاب إلى الغرفة، فوجد «فرح» مستلقية على السرير، والصبية على صدرها. كانت هالتان مُزْرَقّتان تحيطان بعينيها، وملامح وجهها تشي بمعاناة الولادة القاسية. كانت بقايا من دم ما زالت عالقة بالسرير، بينما لاحت أخرى، هنا وهناك، فوق الأرض. في الحال، غادرت «كريمة» إلى المطبخ لتحضر للنفساء مرق الطيور، أما أمُّ «فرح» فظلت بجانب ابنتها، وهي تمسك بيدها، وتمرر إليها الطمأنينة والسكون. بعد برهة أخذت القابلة الرضيعة ملفوفة في قطعة من ثوب أبيض وسلمتها لأبيها. في شيء من الخوف أمسك الشاب بابنته، واحتضنها بين ذراعيه. وسرعان ما

بدا التأثر على وجه «محمد»، فلم يستطع مقاومة الدموع وهي تنساب على وجنتيه. كانت الرضيعة قد توقفت عن البكاء، ساكنة مغمضة العينين. رفع الأب ابنته وقربها إلى وجهه، ثم وضع شفتاه على إذنها اليمنى، وهمس بصوت دافئ.

- الله أكبر.

ثم شرع في ترديد الأذان، عبارة، عبارة، مبعدا بذلك الجن عن الصبية. بعد الانتهاء من ذلك وضعت الحماة أصبعها في إناء عسل ثم أدخلته في فم الوليدة حتى شعرت بها تلحس الشراب الحلو. وفعلت الأمر ذاته بجسم الرضيعة، في حين كان «محمد» يتأمل هذه الطقوس وقد غمره شعور بالفراغ.

خالجت «ابن الأحمر» سعادة غامرة لم يسبق له أن شعر بمثلها من قبل. نظر إلى زوجته التي كانت تبكي من السعادة. اقترب منها ثم قبلها في جبينها الذي لم ييبس العرق منه بعد.

- كنت أريد أن أمنحكِ صبيا.

وضع «محمد» أصبعه على فمها ليسكتها.

- القادم سيكون طفلا. لقد أعطيتني طفلة رائعة، وأنا جد سعيد. سأضحي بكبش فداءً لها.

كانت أم «فرح» تهدهد الصغيرة بين ساعديها، فيما كان الزوجان يتبادلان نظرة طويلة عميقة أغنتهما عن الحديث.

***

«كاستريخون» Castrejón، مملكة قشتالة. صيف

تخلى «ألفونسو التاسع» عن المشاركة في حصار «كاستريخون»، وانسحب بقواته عائدا إلى مملكته. وبذلك أصبح عدد المدافعين عن المدينة يُضاعِف عددَ المهاجمين.

وكان الوصي القديم «آلبرو نونيث دي لارا» قد أراد، من جديد، أن يستعيد السلطة. فَانْتَزَى بـ «بالْدِنِبْرُو»، ومن هناك، جهز عددا من الحملات العقابية ضد «طييرا دي كامبوس». والظاهر أن إلقاءَ القبض على هذا النبيل، وإطلاقَ سراحِه بعد ذلك، لم يَكْفِيانِهِ ليأخذ العبرة، ويرعوي عن نشاطه الهدام. وقد شجع الوصيَّ «آلبرو» في سعيه إلى العودة إلى السلطة الدعمُ الذي كان يتلقاه أحيانا من حليفه «ألفونسو التاسع» ملك «ليون». ذلك أن هذا العاهل استغل مسألة دَيْن قديم، كان في ذمة «قشتالة» لـ «ليون»، لم تكن المملكة القشتالية قد وفت به، ليعلن نهايةَ الهُدنة، وانحيازَه مرة أخرى لأسرة «لارا». وفي هذا السياق قام الحليفان [الوصي والملك] بحشد قواتهما وحصار «كاستريخون». لولا أن «فرناندو الثالث»، وقد شعر بخطورة الوضع، سارع إلى بعث رسالة مؤثرة لوالده «ألفونسو التاسع» يطلب منه فيها العودة إلى السلام. وقد كان للرسالة التأثير المؤمل، حيث قرر ملك «ليون» في النهاية، وهو في خضم حصار «كاسْتْرِيخُون» العودة إلى مملكته، تاركا الوصي القديم «آلبرو نونيث دي لارا» لمصيره.

غادر الفرسان الثلاثمائة، الذين أتى بهم «آلبرو»

لحصار البلدة المذكورة، المُعَسْكرَ في تشكيلة مغلقة تتحرك كأنها كتلة واحدة. ولم يتوقفوا عن تقدمهم حتى وصلوا إلى أسوار «كاستريخون». كانوا مسلحين بأحسن سلاح وأفتكه: التروس المصفحة، والسيوف، والرماح، وتحميهم الدروع الطويلة، ودروع السواعد، وعلى برانيسهم رسم شعار أسرة «لارا». في الحال قبل المدافعون عن البلدة التحدي. فخرج فرسان «لوپي دياث دي آرو»، «وغونثالو رويث خيرون»، والأخوين «طيجث» من «كاستريخون»واصطفوا على طول سور البلدة في انتظار الصدام. كانوا يتفوقون من حيث العدد على خصومهم، فبدوا واثقين من النصر، متيقنين من الغلبة.

احتل دون «آلبرو» ورجاله سطح مرتفع من الأرض. ثم قسمَ قواته إلى سرايا ثلاث، كل سرية مكونة من مائة رجل. يقود السريةَ الوسطى النبيلُ نفسُه. وقف «آلبرو» على رأس رجاله على قمة المرتفع، وراح ينتظر من موقعه المتميز تحرك غرمائه حتى يبادر هو بعد ذلك بالتصدي لهم. وسرعان ما تحركت قوات «كاستريخون»، فابتعدت عن سور البلدة، وشرعت في الصعود إلى المرتفع التي تموضع به «دون آلبرو». على التو أعطى «الوصي» الأمر بالهجوم على الجناح الأيسر لعدوه. في الحال نزلت السرايا، وانقضت على رجال «طيجث» وشتتتهم عند أول الصدام. أمام هذه الضربة الأولى بدا واضحا لجند «طيجث» أن لا أمل لهم في المقاومة، فانسحبوا في تفرق وفوضى. غير أنه ظهر للنبيلين «لوبي

دياث دي آرو» و«غونثالو رويث خيرون» أن اللحظة مناسبة للقيام بحركة التفاف من خلف خصومهم ومفاجأتهم من فوق، لكن «لارا» تمكن ببراعة أن يحبط خطة خصومه، إذ سبقهم إلى المناورة، وأعطى تعليمات لقواته بإعادة الانتشار فوق الأكمة، وهو ما وفر، على الأقل، فرصة للمهزومين بالفرار.

... مباشرة بعد ذلك انقضت سريتان من السرايا الثلاث على رجال «غونثالو دياث دي آرو» وسحقتهم، في حين كانت السرية الثالثة تترصد تحركات قوات «رويث خيرون. وكان «دون غونثالو» هذا يريد أن يساعد حليفه بالانقضاض على مؤخرة عدوه، غير أن السرية المذكورة على رأسها «دون آلبرو» حملت عليه في سرعة وقوة. فدامت المعركة أكثر من ساعة، ساعة من طعنات الرماح، وضربات السيوف، وآلام الجرحى، ودماء القتلى. غير أن تموقع «دون آلبرو» العالي، في قمة المرتفع، جعل النصر حليفَه، وفي جانب حزب أسرة «لارا».

كان الرجال قد وهنوا، وأضناهم القتال، فلم يفت القائدان المحنكان «لوبي» و«غونثالو» أن خيرَ ما يمكنُ فعلُه، قبل أن تتحول المعركة إلى مذبحة، هو الانسحاب. وذلك ما تم بالفعل. حيث ارتد الفرسان على أعقابهم، لا يلوون على شيء في اتجاه «كاستريخون»، وهم في حالة يرثى لها، تاركين وراءهم عشراتٍ من الشهداء.

أثارت نشوة الانتشار «آلبرو نونيث دي لارا»، وأصبح يعوي كالذئب الذي تمكن من صيده، فقد

هز ظَفَرُهُ بخصومه، وهو في عدد من الرجال أقل من نصف رجال «لوبي» و«غونثالو» كيانه، خاصة وأن النبيلين يمثلان عماد المناصرين لحزب «برنگيلا» وابنها «فرناندو».

ـ واحد من رجالي يساوي أربعة منكم! ـ كان الرجل يردد، وقد خرج عن طوره، ولا يعرف إن كان الدم الذي يلوث برنوسَه له أو لغيره ـ إلى الأبواب! ـ صرخ وهو ينطلق كالسهم، ورجاله يسيرون في أعقابه.

لحظتها، كان آخر المدافعين عن البلدة قد دخلها. وسدت الأبواب. في مقابل السور وقف «دون آلبرو» يصرخ، ويصيح لتفتح الأبواب. في حين كان حراسه يقتربون... بين الفينة والأخرى، كان النبيل يدق دفتي الباب بحربته متحديا، ليستفز الحامية المدافعة. ويبدو أن أحد المحاصَرين أطل من أعلى السور، ورأى مشهد «آلبرو» وهو في غمرة نوباته، فرمى عليه بحجرة ضخمة، فأصابته في أعلى الكتف وسقط مصعوقا، في ذات الوقت جُرح فرسه، فانطلق يعدو بسرعة بعد أن تحرر من ثقل راكبه. في تلك الآونة، وصل على جناح السرعة ثلاثة من الفرسان إلى الفارس الجريح، ورفعوه إلى أحد جيادهم، ثم انسحبوا في لمح البصر، تاركين وراءهم جدولا من الدماء بعد أن تكفل زملاء لهم بتغطية انسحابهم بالركض في اتجاه السور.

وهناك، في المعسكر، قام أحد الأطباء بفحص جروح النبيل، وتكفل بعلاجه. وبذلك رفع الحصار نتيجة ضربة حجر حاسمة، وانتهت حملة «آلبرو

نونيث دي لارا» ضد ملك «قشتالة».

***

أرجونة Arjona. خريف 1218

ـ كيف حال العروسين؟ ـ سأل «أشقيلولة» «يوسف» وهما خارجان من المسجد.

ـ بهالات سوداء حول عيونهما ـ قهقه «يوسف» ضاحكا. كان ابنه «إسماعيل» قد تزوج بإحدى قريباته من جهة أمه. ولم يكن الزوجان قد تعارفا سابقا؛ قبل حفلة الزفاف. غير أنهما كانا يتقدان حرارة ونشاطا، فكانا يستغلان الليالي لتعميق التعارف بينهما.

ـ أظن أنه قريبا سيكون لي المزيد من الأحفاد... حقا يا «أشقيلولة» إن ابنَي يجعلان مني شيخا متقدما في السن. ـ أردف «يوسف».

ـ ما يجعلك متقدما في السن ليس أولادُك، ولكن توالي السنوات سريعا. إني قريب من الستين، وبالكاد أتحمل آلام العظام. ـ تلفظ العبارة وهو يمس بيده موضع الجُرح في ساقه. ولكم كانت إصابة «أشقيلولة» في معركة الأرك مدعاة لزهو الرجل وعذابه.

ـ أقدر ذلك. أنت تعاني من جُرحِك، وأنا أقاسي من آلام ظهري التي تنغس علي نومي. فقد هشم عملي في الحقول غَارِبي. عمري أقل من عمرك بعشر سنوات. ومع ذلك أراني وصلت إلى مرحلة ستضطرني إلى أن أخفف على نفسي ضغط العمل. ـ كان الرجلان يسيران في بطء بصحن الجامع بحثا عن ظل شجرة برتقال. ـ كيف

حال «عبد الله» و«إبراهيم»؟ طال العهد دون أن أراهما في بيتي.

ـ على ما يرام... وإن كان «إبراهيم» وزوجته يعيشان فترة صعبة منذ أن أجهضت المرأة. غير أنهما سيعودان قريبا إلى سابق عهدهما حينما ستحمل المرأة مرة أخرى. ـ نظر «أشقيلولة» إلى «يوسف» ثم أردف ـ كما تعلم هي سلوكات الصغار، يحترم كل منهما الآخر ويحبه كما لو كان أخوين، وفي نفس الآن يتطارحان الهوى... شيء عادي أن تتخلل الحياة الزوجية بعض المشاكل.

ـ أعرف. على كل حال هذا شأنهما. ما رأيك في الخطبة؟ ـ سأل «يوسُفُ» ليغير الموضوع. كان خطيب الجامع وإمامها، وهو شاب بربري داكن اللون، خصص خُطبة الجمعة للحديث عن الأخبار الأخيرة بخصوص حملة مملكة «ليون» على مدينة «قَصْرِ آشْ» [Cáceres].

ـ خطبة حسنة، لكن الذي ينقص الموحدين هو الفعل والعمل. ـ أدلى «النبلي» برأيه في صوت خفيض ـ يتحدثون عن الوحدة والاستعداد للحرب، إلا أن الثغور ما زالت غيرَ محمية أمام غارات المسيحيين.

ـ وستكون غارات أخرى أكثر عددا في قابل السنين. لقد كنت أعلم أن السلام بين «قشتالة» و«ليون» ستكون له عواقب. منذ حوالي شهرين وقعت المملكتان اتفاق سلام نهائي بـ «طُورُو». حقا «قشتالة» لم تتحرك لأن لها اتفاقات هدنة مع «مراكش»، أما «ليون»... انظر كيف استغلت «ليون» السلام مع «قشتالة».

- استغلت السلام لمهاجمتنا. فعلا صمدت «قَصْرِ آشْ» لكن سقطت «أبو القُرقِ» «Alburquerque». وهذا ما لم يقله إمام الجامع. ولا أظن أن أحدا في «أفريقيا» سيجهز جيشا للانتقام لنا.

- لا يخامرني أدنى شك في أن «فرناندو الثالث» سيهاجمنا حينما تنتهي اتفاقية الهدنة بين «قشتالة» والموحدين». لاسيما وأن المملكة النصرانية قد تقوت بسقوط المتمردين على الملك. - أبان «النبلي» عن معرفة دقيقة بما يجري في الساحة. فقد كان «آلبرو نونيث دي لارا» قد توفي منذ أيام بعد حصاره الفاشل لـ «كاستريخون» متأثرا بجروحه.

- أتمنى أن يعرف الثغريون في جميع أنحاء الأندلس كيف يدافعون عن أراضيهم. - أجاب «يوسف» وهو ينظر إلى السماء مبتهلا إلى الله.

- ما سيقع لن توقفه قبضة من الثغريين - أجاب «أشقيلولة»، وهو يرد صاحبه إلى الواقع.

***

- صغيرتي الحلوة «مؤمنة»، كفاك بكاء، بعد قليل ستطل علينا الثريا، وسيحين وقت الراحة...

كانت «فرح» تغني بصوت ذي طلاوة حتى تُنِيمَ الطفلة، كانت تردد نفس الأغنية التي غنتها لها أمها لما كانت رضيعة. استمرت «مؤمنة» في البكاء لفترة، غير أن صرخاتها فقدت قوتها رويدا رويدا إلى أن أتعبها البكاء فنامت. وضعتها أمها في المهد بحرص، ثم استلقت على السرير منهوكة قد أخذ منها التعب كل مأخذ. بعد

لحظات سمعت صوت زوجها وقد عاد من الحقل، كانت تسمعه وهو يمازح أخاه «فرج» بصحن الدار. غير أنها لم تكن تملك القوة للنهوض إلى ملاقاته. دخل زوجها إلى الغرفة، فأسرعت بإيماءة منها إلى دعوته إلى خفض صوته. فقد كانت الرضيعة تعاني من ارتفاع حرارة جسمها منذ يومين، وبالكاد كانت تستريح. أطل الرجل على المهد، ولمح ابنته نائمة. كانت ملامحها قد أخذت في التشكل، والشبه بينها وبين والدتها يزداد يوما عن يوم، فشعر بالسعادة، ثم استلقى على السرير، بجانب زوجته، وتنهد متمتعا بالسكون والهدوء.

- انكسرت سن أحد المحاريث، غدا في السحر يجب علي أن أحمله إلى الحداد. - نفخ بصوت مسموع - وهو ما سيؤخر عملية البذر.

نقل «محمد» يده إلى كتفه الأيسر، وتشكى من آلام تنتابه في عضلاته المُتوَتِّرَةً. فطلبت منه «فرح» أن ينام على بطنه، ثم جلست على ظهره، وجعلتْ تُمَسِّدُ على كتفيه وعنقِه. كان الرجل قد غنم قوة وحجما فكانت عضلاته أكثر نموا. أحس بالألم يزداد قوة، لكنه أخذ يشعر بحرارة تشع في جسمه، وكيف أن التوتر العضلي بدأ يختفي شيئا فشيئا.

- دع عنك النفخ والتشكي، فلكم يعجبني موسم الحرث.

- يعجبك أن تراني أقاسي؟ - أجاب سريعا في نبرة سخرية.

ـ حينما يبدأ الحرث، يعني ذلك نهاية الصيف، أي انقضاء فترة الغارات. ـ قالت وهي تنحني نحو الأمام لتقبل الكتف المؤلم. سقط شعرها المسترسل على ظهر زوجها فأحس بارتعاشة تجري في جسمه ـ استرح، استرح ما شاء لك ذلك. لأنك قريبا ستنام نصف ما تنام الآن.

على الفور استدار «ابن الأحمر» ليراها.

ـ حقا؟ هل أنت متأكدة؟

وضعت «فرح» يدها على بطنها، وكانت ما زالت مكتنزة قليلا بسبب الحمل السابق، وأومأت بعينيها الدامعتين بالإيجاب.

صدرت عن «محمد» صرخة سعادة غامرة أيقظت «مؤمنة» من نومها. فارتاعت الرضيعة، وأخذت في البكاء. في حين أسرعت الأم إلى وضع يدها على فم زوجها.

ـ ثرثار ـ قال ودموع الفرح تنساب على خديه. ثم نهض من السرير، وأخذ بين ذراعيه الرضيعة، فسكتت لحينها.

لم يعد «محمد» يشعر بالألم أو التعب. خرج لتوه من الغرفة ليشرك باقي أفراد العائلة في الخبر السعيد. بينما بقيت «فرح» وحيدة في غرفتها تهدهد الصغيرة «مؤمنة».

كانت تصلها أصوات الابتهاج من الصحن خافتة بسبب الجدران.

ـ صغيرتي الحلوة مؤمنة، كفاك بكاء، بعد قليل ستطل علينا الثريا، وسيحين وقت الراحة...

عادت الرضيعة إلى النوم على إيقاع همسات أمها. كانت «فرح» ما زالت تبكي، من شدة سعادتها، وهي لا تذكر أنها كانت سعيدة أكثر من هذا اليوم.

***

«برغش» **Burgos**. خريف **1218**

ـ ها قد حان الوقت ليسعد الملك بزوجة تنجب له ورثة. ـ كانت «برنگيلا» تتأمل الفضاء من النافذة شاردة الفكر ـ بصفتي ملكة سأتكلف شخصيا باختيار المرأة المناسبة.

فهم «فرنادو» في الحال أن أمه وقع اختيارها على إحدى الفتيات. كان يجلس بجانبه أخوه «ألفونسو»، وهو مصغ للحديث باهتمام. كانت الوثائق الرسمية، منذ تتويج «فرناندو الثالث»، تشير إلى أخيه «ألفونسو» باعتباره وارث عرش «قشتالة». إذ لم تكن «برنگيلا» على استعداد لتفلت من يدها زمام المملكة، ومن ثمة كانت توثق كل شيء، وتضعه تحت المراقبة. ساعدها على ذلك الاتفاق مع «ليون»، وسقوط أسرة «لارا»، وسيادة فترة من الاستقرار والسلام. وبالتالي كان الوقت مناسبا لتعزيز المكتسبات، والمراهنة على «قشتالة».

ـ فيمن فكرت؟ ـ سأل الملك.

ـ في الأميرة «إيسابيل دي سهابيا» ـ أجابت «برنگيلا» دون تردد ـ. هي ابنة عم الإمبراطور «فديريكو الثاني»، وسليلة أسرتين ملوكيتين. ـ قطب ولداها جبينيهما علامة شك ـ كان جدها

«إسحاق الثاني»، إمبراطورا على البيزنطيين.

ـ كم عمرها؟

ـ أظن ثلاثة عشر ربيعا، ذاك ما قيل لي، أربع سنوات أقل منك.

ـ وهل تقرر ذلك؟ ـ سأل «فرناندو» بنوع من الاستعلاء. كان الملك الشاب قد بدأ يتعود على الحكم.

ـ تقريبا. طلبْتُ معلومات. إذا كانت إيجابية سنرسل سفارة.

أومأ «فرناندو الثالث» مصادقا. كان مقتنعا بأن في حوزة أمه المعلومات الضرورية، وأن السفارة ستبعث في الربيع القادم، وأنه في أجل سنة، على أقصى تقدير، سيكون متزوجا بـ «إيسابيل دي سهابيا».

ـ يقولون إنها فتاة في غاية الجمال ـ أضافت الأم.

ـ وهل يهم ذلك؟ أليس ذلك صحيحا، يا أماه؟

شخصت «برنگيلا» ببصرها إلى ولديها، وقد افتر ثغرها عن نصف ابتسامة.

ـ إذا كان الشراب ممزوجا بالعسل، أضحى تناوله أسهل...

***

قلعة رباح الجديدة. **Calatrava la Nueva** خريف **1218**

غادر «المايسطري غونثالو جانييث دي نوبوها»،

قائد رهبانية قلعة رباح الجديد، الكنيسة، ثم نادى على «مرتين فرناندث دي بورغوس» وطلب منه أن يرافقه في جولة على الفرس.

كان قد مر حوالي ثلاثة أشهر على وفاة «المايسطري» الأسبق، ومع ذلك استمرت إقامة الصلوات على روحه. وكان القائد السابق هذا، حينما أحس بالموت يحوم حول فراشه، أوصى بعدد من التوجيهات تخص من سيخلفه. من بينها وصية توصي وارثَ منصبه الجديد بإجراء مقابلات مع عدد من الفرسان والرهبان، ترك لائحة بأسمائهم، وذلك قصد التعرف أكثر على الرجال الذين سيسوسهم. وكان «مرتين» أحد هؤلاء المعنيين.

ـ يظهر أن «ألفونسو التاسع» قد أسند مهمة الدفاع عن بلدة «القنطرة» لرهبانية «سان خوليان دي بِرِيْرُو» ـ كان أول قرار أصدره «المايسطري» الجديد هو عدوله عن حماية «القنطرة»، وهي بلدة استولت عليها «ليون» في سنة 1213، وذلك لكون المدينة بعيدة وتصعب حمايتها بكفاية. ـ والظاهر أن «البِرِيرُوسِيين» سينتقلون إلى عين المكان، وسيحولون مركزهم قريبا إلى «القنطرة». ومقابل ما قام به «ألفونسو التاسع» من إسناد مهمة الدفاع عن البلدة إلى رهبانية «دي بِرِيْرو»الجديدة قرر أن يتبع «البِرِيرُوسِيون» لرهبانيتنا الرباحية.

ـ وهل سيتبعون أصول الرهبانية السِّيشْتِرْسِيَّة؟

ـ بالطبع.

سار الفارسان بمحاذاة السور، ثم دخلا البلدة من «باب الباجي»، هناك كان عدد من الرجال يدهنون الأزقة الجديدة بمِلاطِ الجير.

ـ رهبانيتنا قوية. ولن يتكرر هنا ما وقع في «قلعة رباح القديمة». بيد أنه ما رأيك في الوضعية التي عليها الحدود. ـ أراد «المايسطري» أن يجس نبض الفارس.

ـ ما دامت الهدنة سارية المفعول فإنه محكوم علينا أن نقنع بصغار الأمور. حان وقت استئناف العمليات. على «قشتالة» أن تتبع خطى «ليون».

ـ أنت على صواب، يا «مرتين». وحسب علمي فإن «فرناندو الثالث» يقوم باستعدادات على قدم وساق، لقد قبل المهمة الربانية في القتال ضد الكافر، وهو الآن يغتنم فرصة الهدنة ليحشد الرجال ويقوي من العتاد. لنعطه الوقت.

ـ أطلب من الرب أن يهديه إلى الطريق السوي.
ـ تمنى الفارس للملك.

ـ يشاع أن رئيس أساقفة طليلطة «رودريغو خمينث دي رادا» لا يريد الانتظار إلى غاية انتهاء اتفاقات الهدنة. هو ليس «قشتالة»، ومن ثَمَّ في حِل من المعاهدات، وبإمكانه أن يجهز حملة قوية ضد الأندلس.

ـ بالتأكيد، ولا شك أنه سيعتمد في ذلك على دعم روما.

تطلع «المايسطري» إلى الفارس باندهاش. بدا كما لو أن «مرتين» كان على اطلاع جيد بخصوص علاقة «البابا» بالمطران «دي رادا». كان «غونثالو

جانييث دي نوفوها» يعرف صرامة «مرتين» في اتباع الأوامر الدينية، وكيف أنه منضبط في صيامه، باسل مقدام إلى ما لا نهاية. ولم تكن هذه الجولة التي جمعتهما سوى تأكيدا لانطباعاته الأولى عن الفارس، وعن ذكائه وعزمه.

قام الفارسان بدورة كاملة حول أسوار القلعة قبل أن يعودا إلى الاصطبلات.

ـ قريبا سنكون على استعداد للهجوم، صدقني. وستتاح لنا فرصة تنظيف اللطخات السابقة.

سببت تلك الكلمات ألما حادا في صدر «مرتين»، الذي استحضر الهجوم الإسلامي على المستوطنة. فاجتاحته للتو، رغبة ملحة لاستئناف تلك المبارزة. كان الرجل يأمل في أن يستطيع تنظيف شرفه، وهو يقاتل في جيش الرب.

***

ضيعة الماء الحلو (جنوب قشتالة). شتاء 1219

كان الثلج قد تجمد، وهو ما يستدعي بضعة أيام ليذوب. وكانت «مارية» تبغض تلك العواصف التي تفرض عليها أن تلزم البيت مع خالها «رامون» الذي كانت العطالة تسبب له اضطرابا في المزاج.

ـ «مارية»!

ناداها الرجل، غير أنها استمرت في العمل على نَوْل الحياكة. كانت الفتاة، مثلما حصل لها مرات عديدة، تحلم بأن يسقط الرجل يوما مصعوقا بشعاع برقي ترسل به العدالة السماوية، أو أن يتعرض لحادثة تنتهي به إلى أن ينشق رأسه

إلى نصفين، بل وصل بها الحد إلى أن تتصور قاطع طريق يدخل الدار ويضع نهاية لحياة خالها. زادت دقات قلبها وهي في خضم هذه الأحلام المرعبة. ولا غرو، فهي وقد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها لم تعرف حياة غير هذه، مع هذا الرجل الجلف، وحتى ذكرياتها مع أبويها ومع خالتها بدأت تتلاشى يوما بعد يوم بمرور الزمن.

- مارية! - سمعت النداء للمرة الثانية، ومن جديد لم تحفل بالنداء.

كان بغضها للرجل كبيرا إلى حد أنها كانت أحيانا تتجاهله وتتحداه. سمعت خطواته خفيفة وهو يقترب، ثم بغتة، فُتح الباب بعنف.

- أيتها الفتاة النكرة هل تسمعينني؟! - ظلت مارية صامتة - أعمل ليل نهار لأتكفل بك تعوضيني عن ذلك بالاحتقار.

أمسك بها من الذراع، وراح يَخَضْخِضُهَا، ثم صفعها صفعة قوية، جعلت شعرها المسترسل يغطي وجهها. بدأت عينها اليسرى تبكي دمعا، غير أن «مارية» تماسكت، فلم تصرخ، ولم تدافع عن نفسها. وهو ما فاقم من حنق الرجل. جرها إلى المطبخ، ثم جلس وأمرها بأن تسقيه خمرا. أطاعت الفتاة وظلت واقفة أمامه. كانت عينُها محمرةً، ودموع بكائها الصامت تفيض على نحو لا إرادي.

- هيا قومي بعمل ما! - صرخ «رامون».

أخرجت «مارية» طنجرة، وشرعت في تقطيع الخضر لتحضر طبيخا. كانت النار قد فقدت توقدها

الوهاج، فألقت الفتاة ببعض الحشيش عليها فتأجج الموقد.

شرب «رامون» الخمرة إلى أن أتى على كل الجرة. مباشرة، أحس بأن الرغبة تغمره صاعدة من بين رجليه إلى صدره. كانت كلمات القس ما زالت ترن في ضميره. في الشهور الأخيرة عوض تجاوزاته بالضرب والعنف. كان ذلك وسيلته في التخفيف من شعوره بالإخفاق والخيبة. وقف الرجل، وهو يترنح، ثم اقترب من «مارية» من الخلف.

- اهدئي - قال لها، في حين توترت الفتاة وانقبضت.

أمسكت «مارية» بقوة سكين المطبخ، ثم أخذت نفسا عميقا وهي تحاول أن تهدئ من روعها. وضع الرجل يده على كتفها، ثم ضغط بصلابة. أحست بنفس الرجل النتن قريبا من قفاها. أغمضت عينيها، وقبضتُها على السكين تزداد ثباتا. بدأت تصلي، تطلب من الرب الغفران على ما نوت ارتكابه من خطيئة عظيمة. مرت بضع دقائق، قبل أن تفتح «مارية» عينيها.

- لا تديري رأسك! - صاح بها الرجل.

أطاعت الفتاة. تردد «رامون» للحظات، غير أنه عاد وجلس أخيرا حول المائدة من جديد. كانت الفتاة قد أكملت تقطيع الخضر بيدين مرتعشتين دون أن تنبس ببنت شفة. وضعت الطنجرةَ فوق النار، وانصرفت إلى قاعة الحياكة. وحينما جلست لوحدها ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة.

كانت رغبة رامون شديدة حادة، ولكن ليس في مستوى خوفه من الجحيم، ذات الإحساس الذي خامرها حينما اجتاحتها الرغبة في الانتحار. كان الخوف من النار هو الذي يبقى حياتيهما العفنتين متوازنتين.

***

«أرجونة» Arjona. ربيع 1219

كان الليل لا يزال مُدْلَهِمًّا، لكن هبات من نسيم السَّحَر انبأت بقُرْبِ انصداع الفجر. وكانت الانقباضات قد فاجأت «فرح» منذ سويعات، فبعث «محمد» أخاه «فرج» ليأتي بالقابلة. بينما أخذت «كريمة» «مؤمنة» إلى مكان آخر لترعاها. كانت الصبية قد أكملت عامها الأول، وشَبَهُها بوالدتها يزداد يوما عن يوم.

- تذكرين عندما كنت أقفز من فوق السطوح لأزورك ببيت والدك؟ حدثها الزوج بصوت عذب.

- لم يمر زمن طويل. طبعا أذكر ذلك. - شدت على يده، وهي في حالة هدوء، بعد أن خفت الانقباضات، واستكانت إلى إحساس غامر بالراحة.

تذكر الاثنان لقاءاتِهما الخفية. وكلماتِهما المخنوقة، واللذة المخفية... كان وحي الذكريات يسبغ على عيونهما إشراقا ولمعانا.

- والآن، ها نحن هنا على وشك أن نرزق وليدا جديدا. - انحنى «محمد» وقبلها في جبينها.

- عاهدني على الوفاء بما سأطلبه منك. - طلبت المرأة من زوجها.

ـ قولي.

ـ إذا كانت فتاة هل ستُحبها حبَّك للأولى.

ـ لماذا تقولين ذلك؟

ـ كنت قد قلت لك أن الثاني سيكون ولدا، لكني الآن أعرف أنها طفلة. أشعر بذلك. عاهدني، إذن. ـ شدت المرأة على يد زوجها بقوة.

ـ أعاهدك. يأتي من يأتي سيكون مرحبا به في هذه الأسرة. ـ شعر «ابن الأحمر» كيف أن فرح بدأت ترخي من قبضتها. ـ إذا كانت فتاة فعلينا أن نلح.

ابتسم الزوجان. ظل «محمد» ينظر إلى زوجته مسحورا بجمال بشرتها الناعمة الطرية، ووجهها الذي كان يشع جمالا وبراءة على نحو نادر.

أحست «فرح» بانقباض جديد، تلوت على إثره متوجعة. بدا أن التقلصات بدأت تتزايد بسرعة. من الصحن سمع صوت القابلة وأم «فرح». كانتا قد وصلتا لتوهما إلى دار «بني نصر».

ـ هيا، هيا، ليغادر الزوج. ـ طلبت القابلة.

قبل ابن الأحمر «فرح» وغادر الغرفة.

ـ أنت الآن تعرف كيف يكون هذا الأمر، فلا تقلق. ـ قال له «يوسف».

ومع ذلك، كان «محمد» يقاسي مع كل صرخة، مع كل توجع من زوجته. مرت ساعتان من المخاض، وأخيرا، بدأ النفاس. صرخات فرح زادت حدة.

ـ ادفعي، كما تعرفين يا «فرح»! ـ كانت الأم تقول لابنتها، ويسمع قولها في الخارج.

ـ لم يستدر الجنين وجعل أَلْيَتَه في الأسفل... أبطأ الجنين ـ قالت القابلة.

وهو ما يعني أن الولادة ستكون عسيرة. ظهر الاضطراب على الأب، كانت «فرح» تبكي من شدة الألم في حين أطلقت «مؤمنة» صرخة بكاء حاد. خرجت زوجة «إسماعيل» من الغرفة لتهدئ من روع الصغيرة، في الحال اندفع «محمد» نحوها:

ـ كيف حالها؟ ـ كان وجه المسكين يتفصد عرقا.

نظرت الفتاة بوجه كالح إلى صهرها.

ـ صل، يا «محمد»، صل كثيرا، وادع ربك.

غشيت عينيه غمامةٌ من اليأس. نهض «يوسف» من مجلسه، وأسرع إلى جنب ابنه. لم تكن صرخات «فرح» تتوقف، وأيضا أصوات النساء اللائي كن يسهرن على توليدها. دام العذاب لعدة ساعات. حاول «ابن الأحمر» أن يقتحم الغرفة أكثر من مرة، لكن أباه كان يمنعه من ذلك.

أسرع الوقت. ولا أحد غادر مكانه طوال الصباح. وفي الساعة الأولى من الظهيرة أطلت القابلة من وراء الباب.

ـ أحضروا الطبيب، أنا وحدي لا أستطيع.

خرج «فرج» سريعا ليبحث عن طبيب. ومع ذلك لم يأت إلا بعد مرور حوالي ساعة. خلال فترة الانتظار سُمح لـ «ابن الأحمر» بالدخول ومرافقة زوجته.

ـ سَمِّها شمس. ـ أوصت «فرح» زوجها.

ـ نسميها ما شئت ـ أجاب المسكين وهو في حالة تأثر قصوى، وقد سرت في كل جسمه رجفة

ارتج لها كل كيانه. أخذ قبضته وشد عليها بكل قواه حين معاينته الانقباض التالي. كانت «فرح» تدفع وهي على شفا الانهاك التام، لكن... دون جدوى.

ـ فقط أرى مؤخرة الجنين. عليك صغيرتي أن تضغطي أكثر، أعرف أن ذلك يؤلم، ولكن لا وسيلة غير هذه. ـ تحدثت القابلة بشكل قاطع.

وما إن وصل الطبيب حتى أمر بخروج الزوج. سمع الأذان للمرة الرابعة، واجتمع الرجال بالمجلس للصلاة، غير أنه حتى الخلوة النفسية التي تتيحها الصلاة للمؤمنين لم تستطع أن تهدئ من تخوفاتهم.

سجى الليل، «ومحمد» لا يتوقف عن الدعاء في صمت، بعيدا عن أفراد أسرته. في حين ما زالت «فرح» تقاسي العذاب من ولادة بدت وكأنها لن تنتهي، وتنذر بالاستمرار إلى غاية الفجر القابل. وهو ما حصل. فإلى غاية الفجر كانت الأم تبذل مجهوداتها اللامتناهية من أجل منح الحياة لوليدها، دون فائدة... لحظتها بدا للطبيب وقد قدر الحالة بعد استنفاد جميع الوسائل، أن يحدث القابلة لاتخاذ أقصى قرار. كان الجنين يعاني ما دام وقت الولادة قد حان. تركوا «فرح» تستريح بعض الدقائق قبل أن يطلبوا منها آخر مجهود. حينها سمحوا لـ «محمد» بالدخول ومرافقة زوجته. قَبَّلَ الزوجُ زوجته، فبكت «فرح» بمرارة تخفيفا عن حزنها وألمها.

ـ حانت اللحظة يا صغيرتي. ـ قال الطبيب. ـ سأطلب منك أن تدفعي قدر ما تستطيعين حتى

لا يعاني وليدك. أنا أعلم أنك شجاعة - كان يريد أن يقوي من عزمها - وأنا سأساعدك بجرح بسيط حتى تتمكني من الوضع مرة واحدة.

وافقت «فرح» بعينين مُغْرَوْرِقَتَيْن بالدموع. ثم أمسك «ابن الأحمر» بيديها. وبين الصراخ والإرشادات دفعت «فرح» بكل قواها. في البداية فاض الدم غزيرا من الجرح الذي شَرَطَتهُ يدا الطبيب المتمرسة. على الإثر غمرت القاعة رائحة بطعم حلاوة منفرة، خليط بين رائحتي الدم والعرق. بعد ذلك سمعت هتافات القابلة التي تمكنت أخيرا من تلقي أليتي الوليد. في حين كانت الماخِضُ ما زالت تصرخ وهي في نهاية قدراتها على التحمل والمقاومة.

- إنها طفلة يا فرح! كنت على صواب. - صاحت أم النفساء.

سحبت المولدة الوليدة حتى أخرجت ساقيها، ثم ناورت لتخرج كتفيها وأخيرا رأسها. في الحال تكفلت المرأة بالصغيرة، وتعهد الطبيب بأمها فأوقف نزيف الجرح، غير أن نزيف الرحم لم يتوقف. نظر الطبيب إلى القابلة في قلق. لمح «محمد» نظرة الطبيب. فأطلق لبرهة يده من يد زوجته، وانتحى بالطبيب جانبا.

- حينما يكون المخاض طويلا، يحدث أحيانا أن شيئا ما يتمزق في الداخل، فيحدث في بعض الأحيان نزول دم.

- وهل الأمر خطير؟

- لقد رأيت الخطير والحميد. - كان ذلك كل جواب

الطبيب.

أدرك «ابن الأحمر» أن الوضع خطير.

ـ هل من علاج يمكن اللجوء إليه.

ـ إنها تنزف من الداخل. حسبنا الآن أن ندعو الله بالشفاء.

كانت المولودة التي بكت طويلا ترتاح بين ذراعي جدتها. ثم وضعت المرأة الصغيرة على صدر أمها. أمسكت بها «فرح» وربتت عليها، والدمع يغالبها. حدَّق «ابن الأحمر» في الشراشف وقطع القماش المبللة بالدم، وسرعان ما تبادر إلى ذهنه شعور باليأس والقُنوط. فاستلقى بجانب زوجته وضمها إلى صدره.

ـ إنها فتاة جميلة.

ـ تشبهك يا «محمد». ـ قالت «فرح»، وهي تستجمع كل ما تبقى لها من قوة. ـ أَحِبَّهَا يا «محمد».

ـ سنحبها كثيرا نحن الاثنين. استريحي واستعيدي قواك.

ـ أجل، أحس بتعب شديد.

أغمضت عينيها ببطء. تطلعت أمها وزوجها إلى الطبيب. أطل هذا على السرير وتحقق من أن الفتاة ما زالت تنزف. شد على فمه، وهز رأسه نافيا. لاطف «ابن الأحمر» شعر زوجته الممزوج بالعرق، ثم قبلها في فمها. لكنها لم تبد حراكا. ثم ناداها في أذنها، غير أنها لم تجب. مرت دقائق من العذاب والألم، إلى أن اقترب الطبيب

من «فرح» ليجس نبضها.

- لم تعد بيننا.

بدأ «محمد» يتنفس في جزع. كان صدره يعلو وينخفض في إيقاع سريع، وأظلمت عيناه وغشيتهما الدموع. ثم انفجر باكيا بكاء مريرا. في حين صاحبت تفجعاتِه صرخاتٌ كانت تصدر عن حماته تفتت القلوب... استيقظت الوليدة فخَفَّت المُولِّدة إلى احتضانها، وتركت «محمد» يعانق جثة زوجته. لا شيء يمكن أن يعزيه في مصيبته، لا شيء يمكن أن يسليه فيما تبقى من حياته.

هكذا جاءت «شمس» إلى العالم، بين صرخات الألم، وألم الفجيعة، يتيمة الأم دقائق بعد أن رأت نور الحياة.

***

كان الوقت قرابة الظهيرة، والنساء منهمكات في تحضير جثمان الشابة للدفن. امتلأت الدار بالمعزين الذين يريدون مصاحبة أهل الراحلة في مصيبة الموت القاسية التي داهمتهم. عدد من النساء الجالسات حول بركة الصَّحن كن يبكين ويصرخن. كلهن كن يلبسن اللون الأزرق، حسب التقليد الذي سنه الموحدون. في مكان بين النسوة جلست أم فرح. كان بوجهها بعض خدوش ودم.

أما «محمد» فقد بدا شاردا غائبا، كأن ضربة القدر التي أصابته قد أفقدته التوازن، وضعضعت كيانه. نهض من مكانه وتوجه إلى القاعة، حيث سُجي جثمان زوجته، دون أن يعترض طريقه أحد. دخل

القاعة. وفي ضوء القناديل وقف متأملا مستعبرا أمام جثة زوجته المسجاة. تنحت النساء جانبا باحترام. ثم أخرج من حزام جلبابه سكينا حادا.

ـ إياك أن تمس الجثة... ـ شرعت تقول عجوز. غير أن «كريمة» سرعان ما أسكتتها، وتركت الرجل المدمر يفعل ما أراد فعله. أمسك «ابن الأحمر» بخصلة من الشعر ثم قصها. كانت دموعه تنهمر على الكفن. وضع الخصلة بين ثنايا الحزام ثم انحنى، وقبل «فرح» في الجبين. كانت بشرتها باردة. خرج إلى الصحن وجلس ينتظر مرور الوقت ليحمل زوجته إلى مثواها الأخير، حيث ستوارى الثرى في مدفن الأسرة.

***

مع انتصاف النهار، رجع المشيعون. استمر «محمد» صامتا وهو في ذهول. انعزل في المجلس، ولم يجرؤ أحد على مرافقته سوى أبيه. جلس بجانبه دون أن ينطق بكلمة. لم يكن هناك ما يقال.

ـ هل لديك خمرة؟ سأل الابن أباه بعد فترة.

نظر إليه «يوسف» في استغراب. ومع ذلك، نهض الرجل، وتوجه نحو التجويف الموجود في الأرضية الخشبية، وأخرج زقا، كان يحتفظ به هناك، ثم سلمه إلى الشاب. عَلَّ «محمد» منه طويلا دون أن يكون متعودا على الطعم القوي للخمر فكاد يتقيأ. غير أنه قاوم جيشان نفسه من رائحة الشراب وطعمه، واستمر في فعله.

ـ اهدأ يا بني... ناولني بعض الشراب. ـ كان

«يوسف»، أيضا، في حاجة إلى إغراق بعض حزنه في الخمرة.

من الخارج، بعيدا، كان يصلهما بكاء «مؤمنة» و«شمس». كانت «كريمة» قد تمكنت من العثور على فتاة لتقوم بشؤون الصغيرتين. فكانت تحسن إطعامهما، دون أن تستطيع تخفيف حزنهما.

احتسيا ما في الزق، وطلب «محمد» مزيدا من الخمرة.

ـ لم يبق منها شيء.

ـ إذن يجب أن نحصل عليها. ـ كان لسانه يتعثر.

أدخل «محمد» يده في ثنايا حزامه ثم تحسس خصلة فرح. تنهد في عمق، ثم دخل في نوبة نشيج، وهو يتلفظ بكلام غير مفهوم.

لم يمض وقت طويل حتى سرى مفعول الكحول في «محمد»، فأنساه إحساسه بالدوار ألمه. رأى «يوسف» كيف أن الخمرة، تتغلب على ابنه، وتجعله يتمايل، وينحني، دون أن يتمكن من التحكم في جسمه. ولم يلبث وقد أخذ منه التعب والسكر كل مأخذ أن سقط على دكة، وراح في سبات عميق. وضع والده تحت رأسه وسادة، وظل بجانبه يحيي الليل بطوله.

ـ استرح يا بني، واستعد قواك. فما نحن إلا في البداية.

***

بيتوريا Vitoria. خريف 1219

نجحت السفارة القشتالية إلى بلاط الإمبراطور

الجرماني في مهمتها. وعاد المبعوث على وجه السرعة إلى «بيتوريا» ليعلم بوصول «إيسابيل دي سُهابْيَا» خطيبة الملك «فرناندو الثالث».

كانت «برنگيلا» تنتظر وصول موكب الأميرة مساء. فتهيأت للخروج لاستقبال خطيبة ابنها مرفوقة بالحاشية، قُدَّامَ أبواب المدينة.

مضت «برنگيلا» بصحبة صديقها الوفي «غونثالو رويث خيرون»، سيد «أَوْتِيُو» تَحرُسهما مفرزة من الجند. اجتازت الأميرة، وهي ممتطية فرسا، أسوار المدينة، ثم توقفت، منتظرة، في الطريق الذي سيصل منه ركب الأميرة «إيسابيل».

ـ حرك «رودريغو» قواته، وخرج لغزو المسلمين.
ـ قالت المرأة وهي تستطلع بنظراتها الطريق، تتشوف قدومَ الأميرة.

كان «رودريغو خمينث دي رادا» مطران «طليطلة» قد شرع في حملة غزو ضد الأندلس، انطلاقا من «طليطلة»، وفي اتجاه «بلنسية». وكان الحَبْرُ الأعظم نفسه قد شجعه على ذلك.

ـ كم كان بودي أن أصاحبه في حملته ـ علق «غونثالو».

لم تتبقَّ مدة طويلة على نهاية اتفاقات الهدنة، أيها الصديق «غونثالو». أما الآن، فـ «قشتالة» في حاجة إلى زمن.

في تلك الأثناء برز في الأفق موكب الأميرة «إيسابيل» ومن معها، يتقدمهم أسقف «برغش» الذي انتهز فرصة السفر ليتعاقد مع أحد معلمي البناء ليشرع في بناء «كاتدرائية برغش». حوالي

مائة شخص، على الأقل، كانوا يصاحبون الأميرة «إيسابيل»، ابنة عم الإمبراطور «فديريكو الثاني». وصلت الفتاة في أبهى حلة، وهي تركب فرسها بوقار، وفي سَمْتٍ ملوكي. بجانبها كان يسير أحد التراجمة، ومباشرة، خلفها، سارت خمس من السيدات. ووراء الجميع مفارزٌ من الحراس القشتاليين، ورجال الإمبراطور، مهمتهم حماية الموكب.

خطت «إيسابيل» في اتجاه «برنگيلا» إلى أن اقتربت منها على بعد خطوات، ثم طأطأت رأسها علامة احترام. سُرت الملكةُ بهذه الإنحناءة، وهي تتطلع إلى «الأميرة»، فأعجبت بقسماتها الجميلة التي تقطر رقة ولطافة، وبَشَرَتِها الشفافة والصافية البياض في لون الثلج. أدارت الملكة حصانها، ثم مدت يدها للشابة، وسرعان ما تموقعت بجانبها، وأمسكت بيدها. لم تترجل أي منهما، ومشيا معا للحظات ممسكة الواحدة منهما بيد الأخرى.

- مرحبا بك في بيتك يا «إيسابيل».

ترجم المترجم العبارة للفتاة فأجابت بلغتها:

- شكرا سيدتي. يمكنك أن تناديني «بياتريث».

كان اسم «بياتريث» هو اسم أختها، امبراطورة الإمبراطورية المقدسة لوقت قصير، وكانت الأميرة الصغيرة، وهي تتبنى هذا الاسم، تتشرف باسم أختها وبذكراها، وأيضا تبدي رغبتها في أن تتفيأ المجد ذاته الذي لحقته شقيقتها.

- وهو كذلك، إذا كنت ترغبين في ذلك سيطلق

عليك اسم «بياتريث».

وبذلك مضت المرأتان إلى قلب مدينة «بيتوريا» يحرس كلا منهما حراسه الخاصون.

***

وادي الرقوط (21) **Valle de Ricote** (قريبا من «مرسية»). شتاء **1220**

ـ أنا لست غيرَ الحُب. إن اللّٰه حالٍ فيَّ، كما هو حالٌّ في جميع المخلوقات. لا يهمني أسماء الديانات، كلنا نحمل اللّٰه في دواخلنا.

كان الشيخ الصوفي جالسا على ضفة «النهر الأبيض»، يتحدث لنفسه بعينين مغمضتين. باحثا عن الإلهام وهو مستغرق في تفكير عميق. كان المريدون يتلقفون تعاليم الصوفي في هدوء وإقبال. من بينهم «ابن هود». وكان هذا القائد اللامع الذي استطاع أن ينتزع من النصارى «قلعة سانفيرو» يشعر بانجذاب كبير نحو التصوف ورجاله.

كانت الطريقة المتبعة في «دار الصلاة»، تلك، قائمة على الحب والسلام. وقد نهج «ابن هود» مع باقي المريدين تعاليمَها، وردد أورادَها. غير أنه لم يكن متفقا مع هذا التوسع في فهم الألوهية لدى الصوفية. «حقا ـ كان يدور في خلد هذا العسكري ـ إننا نحمل جميعا الإله في قلوبنا، غير أنه ليس هناك سوى إله واحد حقيقي هو إله المسلمين».

كان صوت خرير المياه يحدث في تابعي الطريقة تأثيرا مخدرا، وسكونا روحيا، ولا غرو، فقد كان الشعار الذي تأخذ به الزاوية [Zawiya] هو «هدئ

عقلك وستجد السعادة».

- إن الله روح تنفرط - استمر المعلم في كلامه. لكنه أحجم، فجأة، عن متابعة الحديث، بعد أن لمح مريديه يتهامسون.

على مسافة قصيرة من الجمع برز فارس بربري من جنود حامية «الوادي». عرفوه للتو، للعمامة التي كان يلبسها في زهو. لم يكن لابسا درعه، وبدا كما لو أنه كان في فسحة بالمكان.

- استرسلوا لا أريد مقاطعَتَكم. - قال الجندي حينما أصبح على بعد خطوات من حلقة الوعظ.

- نحن في حالة تأمل - أجاب المعلم بصوت لطيف - شاركنا إن شئت.

- التأمل؟ إن التقرب من الله لا يتم إلا بالصلاة والجهاد. - قال الجندي وهو يخرج سيفه من غمده، وكان مربوطا إلى نطاقه. هذه هي أداتي التأملية.

- وهذه هي أداتي. - عقب الصوفي، وهو يضع يده على صدره.

تبادل الرجلان النظر خلال بضع ثوان، ثم جذب الفارس عنان فرسه، ومضى بعيدا عن الحلقة، وهو يحذر:

- احذروا! نحن نعرف جيدا ماذا يدور في هذه الحلقات. لا تنسلخوا عن العقيدة الصحيحة.

- أهل البدع الملاعين - جمجم أحد الحاضرين، وهو يتتبع الفارس الموحدي بنظره. - قلل من النظر إلينا، وأكثر من النظر إلى الحدود.

سمعه «ابن هود»، فابتسم في وجهه.

- هل تبغضه؟

- من أعماق روحي.

- اسمي «ابن هود الجُذامي».

- وأنا يطلقون علي «العُشْتي».

- يبدو أنني وأنت سنتفاهم بشكل جيد للغاية.

ابتسم الرجلان ابتسامة اعتراف بأنهما شريكان في بغض هؤلاء الغزاة.

***

**«أرجونة». Arjona ربيع 1220**

شعر الشاب بضربتين خفيفتين على أضلاعه. فتح عينيه. كان المولدي العجوز يصوب عكازته نحو «محمد».

- هيا يا فتى، غادر. ستخلق لي متاعب... هيا، ارحل حالا.

أغمض «ابن الأحمر» عينيه، ثم عاود الشيخ العجوز نَخْسَهُ بالعصا مرة ثانية. نفخ «محمد»، ونهض من مكانه في قرف. كان الوقت بداية المساء، وأمام «النصري» قرابة ساعة للوصول إلى «أرجونة». كان الشاب في حالة ذهول، بل لا يزال ثملا، يعاني من الدوخة، ومن بقية طعم الخمرة القوي في فمه. أدى الحساب، ثم امتطى فرسه «برميجو»، وسار بعيدا عن القرية. وفي خُرْجٍ فرسه زق خمرة... كان قد تمكن من إيجاد من يبيعها له.

فيما مضى كانت هذه القرية مصدر أحسن أنواع

الخمور في المنطقة. غير أنه منذ أن جاء الأفارقة، لم تعد الخمرة متداولة سوى بين أوساط النخبة، وفي سرية تامة.

وصل الفارس إلى مُنية جده وقد أطلت النجوم الأولى في السماء. ترك «برميجو» للخادم ليعتني به، وأخذ زق الشراب، وشرع في الصعود عبر العقبات التي تؤدي إلى القصبة. دخل إلى دار أسرة «نصر» دون أن يسلم على أحد، ثم دلف إلى غرفته، واستلقى على السرير.

ـ خذ يا أخي. ـ دخل «إسماعيل» الغرفة وفي يده جرة ماء. ـ هذا أحسن ما يمكن أن تُطفئ به ظمَأَك. وضع الجرة على الأرض أسفل السرير. ـ نريدك بالحقل. ستكون الغَلَّةُ سيئة هذه السنة. لقد انتهت فترة السنوات السمان.

حدق «محمد» قليلا في أخيه. وبدا كما لو أن عينيه عاجزتان عن التركيز في نقطة معينة. لم يقل شيئا، في حين جلس أخوه على حافة السرير.

ـ تحسنت حالة «مؤمنة» ـ استطرد «إسماعيل» وهو يظن أن ذلك يهم أخاه. والواقع، أن «محمدا» لم يعلم حتى بمرض ابنته، وأنها كانت تعاني من الحمى. ـ أخي، قد حان الوقت لترفع رأسك.

ـ لا تبدأ من جديد، حسبك. ـ أجاب «ابن الأحمر» بنبرة خشنة.

ـ أنصحك، لأنك تهمني. أتَفَهَّمُ ألَمَك، ولا أريد أن أفكر...

ـ لا تَفهمُ شيئا، لا أنت ولا غيرك! إن حياتي لم

تعد حياتي، وأنا لم أعد أنا!

تجمد «إسماعيل» في مكانه، وهو يلمح سَوْرَةَ الغضب التي استبدت بشقيقه. نهض الشاب، وخرج لتوه دون أن ينبس ببنت شفة. في الخارج لقي المرضعة وهي ترضع الصغيرة «شمس»، أما في الداخل، فلعل «محمدا» أحس ببصيص من تأنيب الضمير. لكن قلبه الجريح إلى حد الموت، بسبب فقده لـ «فرح»، لم يعد يعرف كيف يتصرف. أخذ الزق ثم عب منه عبا طويلا. لم يكن تأثير الخمرة فيه سريعا، لكن طعم الكحول هدأ من روعه. بعد نصف ساعة عاد من جديد إلى حالة الثَّمَل التي أصبحت ملازمة له. وما لبث أن غاص في نوم مضطرب تزاحمت فيه الكوابيس. كانت الرؤى المفزعة تطفو وتغيب في منامه، كما لو أنها ناعورة تدور وهي مليئة بجرات لعينة.

كان «ابن الأحمر» صادقا في كلامه، إذ لم يعد هو نفسه، ولن يكون أبدا ما كان عليه في السابق.

***

بلد الوليد Valladolid. نهايات 1220

هذا عصيان، هذا استخفاف واحتقار! ذاك النذل قد خالف القانون. ـ رفعت «برنگيلا» عقيرتها بهذا الكلام حالما رأت ابنها يدخل إقامتها الخاصة. في الحال، غادرت وصيفتان كانتا مرافقتين لها، فانفردت الملكة بـ ولدها «فرناندو الثالث» في القاعة.

بدا «فرناندو» وكأنه لم يسمعها. وفي هدوء

تام، جلس على مقعد مقص في هيئة ملوكية. كان الملك ما زال في ريعان الشباب، غير أن ثقل المسؤولية التي اضطلع بها، والتكوين الذي تلقاه من معلميه، كل ذلك جعل منه رجلا كفؤا كفيلا بأن يأخذ على عاتقه مسؤولية الحكم. كان قد مر عام منذ أن أُعْلِنَ فارسا، وتزوج في «برغش» بـ «بياتريث دي سُهابيا».

ـ أعلم ذلك يا أماه. ـ قال الملك ـ وسينال سيد «كاميروس» عقابَه.

وكان «رودريغو دياث دي لوس كاميروس» ـ وهو أحد النبلاء الذين ناصروا في أول عهدهم «برنكيلا» وابنها حين اشتد الصراع بين الأسرة الحاكمة في قشتالة وأسرة «لارا». قد استُدعِي للمثول أمام الملك حتى يقدم تفسيرات عن التجاوزات التي كان يقترفها بأراضيه. إلا أن الرجل، فيما يبدو، كان قد غادر البلاط، بعد ذلك، دون أن يكلف نفسه حتى عناء توديع عاهل البلاد.

ـ قال إنه ذهب لِيَفِيَ بِنَذْرِهِ الصليبي. ومن سيصدق هذا العذر؟ ـ قالت «برنكيلا» وهي في حالة غضب شديد، ولا تتوقف عن القيام بحركات وإشارات. ـ وعَلامَ اتفق المجلس؟

ـ سأنزع يده عن القلاع والحصون التي في ملكه، وسأجرده من حيازاته. عليه أن يعيد كل ذلك إلى التاج. ـ كان «فرناندو الثالث» يتحدث وهو في كامل الاتزان والهدوء.

ـ هذا حسن، هذا حسن... ـ هدَأت «برنكيلا»، وقد بدا لها أن العقابَ مناسب. ـ ينبغي علينا، الآن، ألا

نظهر أي ضعف. فإذا كنا قد انتهينا من أعدائنا، فينبغي علينا، اللحظة، أن نمر للأصدقاء. ـ كان الأشراف الذين قدموا يد المساعدة لـ «فرناندو الثالث» وأمه ينتظرون مقابلا لخدماتهم. ـ أنت الملك يا بني، ويجب عليك أن تُحكِم سيطرتَك عليهم.

ـ ماذا سنفعل إذا امتنع سيد «كاميروس» عن إعادة الحيازات والممتلكات؟ أجيبي يا أماه... ينبغي علينا أن نعول على الأشراف الآخرين لإخضاع الرجل، لا يمكننا أن نتناسى الأثرياء، منفردين لا قوةَ لنا ألبتة.

اكتشفت «برنگيلا» في فلذة كبدها أمورا جديدة لم تكن تعرفها فيه من قبل. رأت كيف أن ابنها قد نضج، وبات يطرح قضايا المملكة بالرزانة والحكمة اللازمتين.

فكرت الملكة قليلا قبل أن تجيب:

ـ ربما سيكون لِزاما علينا أن نتفاوضَ بهذا الشأن، ولو مع صاحب «كاميروس». إلا أنه إذا تقرر استعادةُ الحيازات والممتلكات، فإن الأمر ينبغي أن يُنفَّذَ في جميع الأحوال.

ـ إن الرجل، كما تعلمين، سيرفض الانصياع لحكمنا، ما ترى يا أماه؟

ـ أجل، إنه سيرفض، وهو ما يحتم أن نبقى على اتصال مع باقي النبلاء. على كل حال، لم تكن بدايات حكم الملوك، إلا في حالات قليلة، سهلة. ـ نظرت إلى ابنها في حنان أمومي كأنها تريد أن تحميه. ـ وماذا عن اتفاقات الهدنة هل عرضتم

لها؟ إنها ستنتهي بعد شهور قليلة...

ـ لا... غير أني فكرت في الأمر. نحن في حاجة إلى وقت. لسنا بعد مهيئين لحرب ضد «الموروس» [المسلمين عربا وبربرا]. أريد جيشا مجهزا وقويا لقتالهم. وإلا فانظري ما حصل للمطران. ـ كانت الحملة التي قام بها مطران «طليطلة» «دي رادا» قد فشلت أمام أبواب رَكَّانَة Requena. ـ كانت رغبته شديدة في القتال ضد الكفار المسلمين ليؤدي واجبه السماوي في استئصال الكفر، لكنه لم ينجح في حملته... علينا أن نتهيأ لإنجاز المهمة الربانية التي أنيطت بمملكتنا، وحتى ننجح في مسعانا، فينبغي الاستعداد لذلك في مدة زمنية لا تقل عن ثلاث سنوات أخرى.

أشرقت عينا «برنگيلا» من الفخر، فقد كان ابنها، دون أن يعي ذلك، قد استوعب الدروس والنصائح.

ـ أوافقك الرأي، يا «فرناندو»، إنه أحسن قرار يمكنك اتخاذه. ثم إن «الموروس» لن يضعوا أي اعتراضات. إن مَلكَهُمْ ضعيف، يتحكم فيه الأقرباء والشيوخ كالخاتم في اليد. إضافة إلى أن الموحدين لم يعودوا يملكون جيشا قويا يستطيعون به العبور إلى شبه الجزيرة. إنهم لم يستعيدوا بعد عافيتهم منذ هزيمة «ناباس دي طولوسا». مالت في مجلسها إلى الوراء قليلا، وهي تحدق في زخرف السقف وتجاويفه. ـ هل تذكر لما كنت أحدثك عن فرسان «قلعة رباح»؟

ـ بالطبع، أذكر ذلك. ولكم حلمت مرارا أنني أزاحمهم في القتال ضد المسلمين. الآن يمكنني

فعل ذلك، أنا اليوم ملك قشتالة. وعندما يحين الوقت سأذهب مع رجالي للاضطلاع بالحرب المقدسة ضد الكفار المسلمين.

نهضت «برنگيلا» من مقعدها وعانقت ابنها.

ـ من أجل هذا أنت ملك، واستحق جلوسك على عرش قشتالة كل هذه الجهود التي قمنا بها، والصعاب التي مررنا بها.

اغرورقت عينا المرأة بالدموع دون أن يعرف الملك إن كانت دموعَ فرح، أو تخفيفا عن الأحزان الماضية.

***

وادي الرقُوط **Valle de Ricote** قريبا من «مرسية». ربيع 1221

ـ نقاسي الجوع. زوجتي جائعة، ابني جائع. كلنا نعاني من الجفاف. إنه تعالى يعاقب الولد الذي في «مراكش»، ويدعونا بذلك إلى أن نتململ. ـ كان صوت «ابن هود» يعلو بقوة، والرجال المتحلقون حوله، بما فيهم الواقفون الذين يحرسون الحلقة، يوافقون بإيماءاتهم وتحريك هاماتهم على كلامه، كانوا كلهم من معارضي الموحدين الذين جندهم «العُشتي»ـ إن الولد قد جدد اتفاقية الهدنة مع «قشتالة» وهو ما زال حبيس قصره. ـ لم يكن «ابن هود» يعترف بالخليفة الإفريقي ويبايع خليفة «بغداد». ـ نحن في حرب والمبتدعة الموحدون لم يدركوا ذلك بعد! إننا نمنح «قشتالة» ما تتمناه من وقت حتى تزداد قوة... بينما نصارى «ليون» وأتباع «بابا روما»

يطاردوننا في الحدود. وقد وصلت بهم الجرأة إلى القيام بحملتين، على قَاصِرش [قصر آش] ورَكَانَة.
نعم، نحن جائعون ـ كرر «ابن هود» وقد خفض من صوته ـ والولد في «مراكش» يريد أن يقطع أيادينا حتى يمنعنا من الإغارة على الكفار. وأكثر من هذا أن الوالي ينظر نحو الجهة الأخرى، ويصم أذنيه عن سماع التماساتنا. ما العمل إذن؟

ـ أن نغير على الكافر! ـ صاح «الغُشتي» بقوة، وفي الحال رددت العبارة عشرات الأصوات. كان هذا الرجل قد ربط أواصر صداقة مع «ابن هود»، ومعا نظما هذا الاجتماع لخدمة هدفهما.

ـ نعم، أن نغير على الكافر! ـ كرر الرجال بصوت واحد.

ـ نعم، لنجهز غارة. ـ أكد «ابن هود» ـ لا أنوي أن أبقى ساكنا أتفرج على أسرنا وهي تموت. ما دمت أملك قوة في هذا الذراع ـ رفع قبضته اليمنى ـ سأنهب أراضي النصارى لأحمل القوت إلى أهلنا.

سمعت الهتافات، ورفعت القبضات. كان الجميع متفقين:

إذا كانت الأرض لا تثمر، فينبغي حمل الثمار من الأراضي الأخرى.

***

كانت السماء ملبدة بالسحب، وبالكاد ترى بعض النجوم فوق الأفق من جهة الغرب. وعند منتصف الليل أسرع الفرسان المجتمعون قريبا من قلعة «سانفيرو» إلى رفع خيام المعسكر. كان عددهم

ثمانية عشر نفرا، جميعهم ممن استجابوا لدعوة «العُشتي» Al ـ Gusti وصديقه ابن هود. في جانب على الطريق كانت متوقفة ثلاث عربات من التي يجرها الثيران تنتظر حمل الغنائم. وكان أغلب هؤلاء الثغريين المرتجلين، وأغلبهم من صغار الملاك الفلاحين، مسلحين بالقنا والفؤوس، في حين كان «النقيب ابن هود» وثلاثة من الجند مسلحين جيدا بدروع الزرد، والحربات ذات الأُذَيْنَيْن، وسيوف من النوع الجيد. أما العُشتي فحمل ترسا مدورا صنعه بنفسه، ومقمعة يدها من خشب.

قبل الرحيل صلى «ابن هود»، وطلب من الله أن يبارك الغارة، ويوفق رجالها. ثم أعطى بعد ذلك بعض التعليمات القصيرة للرجال.

ـ لم تتوفروا على الوقت الكافي لتتدربوا على القتال. على أي، لا أعتقد أنكم ستجدون مقاومة في المحل الذي سنقصده. وحتى إذا حصلت مواجهة، اتركونا نقاتل نحن الجند. ـ أشار بيده إلى الرجال المدرعين ـ وبحول الله وقوته سنعود مظفرين محملة عرباتنا بالغنائم. ـ الله أكبر!

ـ الله أكبر! ـ أجاب الثغريون.

شرع الرجال يسيرون على إيقاع الثيران، وهم يبتعدون شيئا فشيئا عن حصن «سانفيرو».

ـ أرجو ألا يكون أصحاب بلدة «ألكراس» في نوبة حراسة. ـ قال «العُشتي»، وهو يتموضع بجانب صديقه «ابن هود».

ـ لن يكونوا كذلك، إنهم مطمئنون لاتفاقات الهدنة. ـ نظر النقيب إلى ترس صاحبه، وكان

مربوطا إلى الشرج. ـ لن يتحمل ولو الضربة الأولى.

صفق عليه «الغشتي» وسمع صوت الخشب الرطب.

ـ صحيح، إلا أنه قد يصلح غلاقة لبرميل زيت.

ضحك الرجلان، وهما يتركان وراءهما حقول الحبوب الممتدة عبر فحص «سانفيرو» الفسيح. بعد فترة دخلت الزمرة في الأراضي الفارغة التي تفصل بين المملكتين. وهي أراضي لا أحد يجرؤ على زراعتها، ولا تنمو بها سوى الأدغال والنباتات البرية المتوحشة التي تمتد إلى أسفل الجبال.

ـ نحن على بعد نصف ساعة. ـ أشعر «ابن هود» الرجالَ بعد مسيرة ساعات، وكان أول الوديان قد بدا للجماعة من بعيد.

منذ تلك اللحظة، بالغ الثغربون في أخذ الاحتياطات. بعد سويعات اعتلوا قمة تل متوسط الارتفاع، فبرزت لهم ضيعة يحيط بها نطاق قديم من حجر، على ارتفاع نصف قامة رجل، وكل الأراضي المحيطة به مزروعة بأشجار الزيتون والكروم. تأمل الرجال في البنايات، ثم وقع التخطيط للهجوم. قسمت الزمرة إلى مجموعتين، كل مجموعة سيحميها جنديان. في حين سيتكفل الرجال غير المدربين على القتال بالبحث عن موقع المستودعات، وخزائن الميرة والأقوات، للاستيلاء عليها جميعا وحملها.

ـ الزيت، والطحين، والحبوب والماشية... لا شيء من الخمر. ـ أنذر «ابن هود» العصبة.

بدأت الكوكبة في ولوج حقول الزيتون قبل حوالي ساعة من بزوغ ضياء السحر. ارتقت التل الصغير، وفي قمته انقسمت إلى مجموعتين. بعد لحظات تجاوز المغيرون النطاق الحجري دون أن يَبْصُرُوا بأي حراسة، غير أن حوافر الخيل حينما وَطِئَتِ السُّوَيْحَةَ الرئيسة المبلطة بالحجر، سمعت في الحال أصواتُ تحذير، وأطلت عديد من الرؤوس من النوافذ.

- «موروس»!

- إنهم يهاجموننا!

- يا إلهي، أنقذنا!

رجال ونساء كانوا يستصرخون السماء، ويتوسلون إلى الرب، وهم حَيَارى في حالة هَرْجٍ ومَرْجٍ. خرج أحد الأطفال وهو يعدو من إحدى الدور، ودخل إلى كنيسة، وشرع في قرع الجرس. رنين الدق المتواصل أصم آذان الثغريين فخف اثنان منهم إلى بناية الكنيسة لإسكات الناقوس. في الحال احتجزوا الطفل، وحملوه إلى وسط السويحة، وهناك استوقفوه أمام أنظار الجميع.

عم المكان ضوضاءُ دجاجٍ، وشرع بعض الكلاب في النباح، في حين خرج بعض الرجال إلى أبواب منازلهم، وهم مسلحون بمعدات الفلاحة.

- اتركوه إنه طفل! صاح أحد القشتاليين.

- لا - صرخ «ابن هود» وهو يشير إلى إحدى النوافذ، حيث تموضع أحد القشتاليين وهو يصوب بقوس قذوف. إذا قذفت فإننا سنتصرف وفقا لذلك. لا نريد قتلى لا في جانبكم ولا في جانبنا. -

حدثهم باللغة الرومانثية.

فكر القواس للحظات، قَلَّبَ الرأي في الاختيارات المتاحة ثم فضل في الأخير أن يحني قوسه. نظم الثغريون في الحال أنفسهم ليحشروا بقاطني القرية في السويحة، والقيام بعد ذلك بتفتيش الدور، والمخازن، والزريبات بحثا عن الأقوات والمؤن.

كان الصباح قد شاعت أنواره حينما انهمك الرجال في تحميل العربات. في حين كان قد حُشر بما يقرب من ثلاثين شخصا مزدحمين وسط الضيعة.

جمع الثغريون غنيمة كبيرة: عشرات الطيور، وأقفاص أرانب، وثلاث بقرات، وخمسا من الثيران، وقطيعا صغيرا من الشِّياه والمعز، وقد تكفل أحد المسلمين بقيادها. كان المستوطنون «القشتاليون» يتفرجون على كل ذلك، وهم عاجزون عن منع المسلمين من سلب ثمرة عملهم، وعرق جبينهم.

- التزموا الهدوء ولن يحدث ما يفسد هذا الهدوء... - قال لهم «ابن هود». فجأة، لفت انتباهه صراخ امرأة يغطى عليه ضجيج السلب والنهب ونباح الكلاب. على التو، وفي بحثه عن مصدر الصوت، ولج «ابن هود» صحن إحدى الدور كان بها كلب مربوطا إلى جذع شجرة، وهو لا يتوقف عن النباح والقفز. في عمق المكان توجد زريبة دجاج في حالة بدائية تنبعث منها روائح نتنة. أطل «ابن هود» على الزريبة، وهو قابض على سيفه، فلمح أحد رجاله، فلاحا من «رقوط» وقد شَمَّرَ ثوبَه إلى النصف، وسرواله نازل إلى

عقبيه، وهو يحاول أن يغتصب امرأة نصرانية كانت قد اختبأت بالبيت. لم يتفطن الرجل وهو في حالة من الإثارة لوصول رئيسه. فانقض «ابن هود» على المعتدي، وأمسك به من إحدى ذراعيه، ثم جره إلى الصحن، وألقى به أرضا، وقد قَوَّسَه بضربة من قدمه. ثم وقف خلفه، وأمسك بشعره. وبسرعة جذب رأسه نحو الوراء، وذبحه بالسيف فورا كأنه كبش. تركه ينزف ثم عاد إلى الزريبة. كانت الفتاة المسكينة منكفئة على نفسها متكبكبة. أنهض «ابن هود» الفتاة من الأرض برقة، ثم أخذها من يدها وسار بها إلى الصحن.

ـ هل أنتِ على ما يرام؟ ـ سأل النقيب.

أجابت الفتاة موافقة، وهي مُرْتَاعَة. لحسن حظها أنقذ «ابن هود» شرفها. أعاد النقيب السيف إلى غمده. ودون أن يطلق الفتاة، أمسك بالمذبوح من إحدى كعبيه، وجره إلى سويحة الضيعة. كانت سحب الليل الداكنة، حينها، قد تبددت، والشمس تسطع مشرقة في كبد السماء.

ـ إيسابيل! ـ علت الأصوات باسم الفتاة. في ذات الوقت الذي كان أحد الأسرى يجاهد لينفصل عن الجماعة ويصل إلى الناجية.

تظاهر أحد الجند بمنعه من ذلك، غير أن النقيب سكن من روعه. وسمح لوالد الفتاة بالاقتراب منها، ثم سلمه يدها. ضم الأب ابنته إلى صدره في تأثر شديد، وعاد مصحوبا بها إلى الجماعة.

أمسك «ابن هود» بالفلاح، الذي تحول إلى ثغري، وجره بعض الخطوات، ثم ألقاه على ظهره

فوق أرض الساحة المبلطة. كان جسم المحتضر قد ترك وراءه خيطا من الدماء القانية. حاول القتيل أن ينطق بعبارة وهو يغطي حنجرته بيديه، غير أن الدماء لم تكن لتمهله وهي تلوث أصابعه بالأحمر.

ـ أريد مسلمين جيدين وليس حيوانات. ـ رفع النقيب عقيرته أمام الجميع. ـ لقد جئنا للبحث عن طعام لشعبنا الجائع. وإن المغتصبين يَلعَنُهم اللّٰه، وأمْقُتُهُمْ أنا.

تحدث بالعربية. لأنه أراد أن يوجه الخطاب لرجاله. كان شابا في ريعان الشباب، لكنه على قدرة كبيرة لجعل الآخرين يحترمونه. امتطى فرسه، ثم توجه ناحية العربات، وتأمل فيها لحظة: «غنيمة جيدة»، مر بخاطره. وأحس بأنه حقق ما كان يريده.

ـ هل نتلف ما تبقى ونخربه؟ ـ سأله العُشْتي.

ـ لا، أبدا، أيها الصديق. وماذا سنسرق لهم في المرة القادمة.

سارت العربات تتقدم الركب يحرسها أربعة من الفرسان، وراءها، على بعد خطوات، مضى باقي الثغريين، غيرَ غافلين عن الطريق، وقد أخذوا حِذْرَهُم، مُؤَمِّنين بذلك عودتَهم إلى «سانفيرو» في ظروف حسنة، ومن هناك، سيسيرون إلى «وادي الرقوط» وقد تحولوا إلى قافلة إنقاذ لشعب جائع.

***

«أرجونة» Arjona. 1221

دخل «عمر» إلى القصبة وهو يسير سيرا متثاقلا. كان ما يعانيه من التهاب في الركبتين يمنع عليه الصعود في العقبة بسهولة. فكان بين الفينة والأخرى يستند إلى الحائط، ويسترد بعض أنفاسه. كان «الحسون» يلبس قميصا طويلا، وسروالا أسود، ويعتمر قَلَنْسُوَةً سوداء من اللِّبْد. دق باب دار «آل نصر». فاستقبلته زوجة «إسماعيل» على الفور. وسرعان ما نادت على صهرها.

ما إن رأى «يوسف» «عمر» حتى خف لمعانقته. ودعاه إلى مرافقته إلى «المجلس».

- لم آت لزيارتك، أنت بالذات، أيها الصديق، كيف حاله؟

انطفأت نظرة رب الأسرة النصرية، وبدا على وجهه أثر الألم.

- سيئة. يرفض العمل، وحينما أوفق في أن آتي به إلى الحقول، يقضي نهاره جالسا في ظل شجرة. لقد فقد الروح. - سُمعت في تلك اللحظة خطواتٌ سريعةٌ وضحكاتٌ طفولية. «مؤمنة» و«شمس» كانتا تلعبان في الفناء. كانت الطفلتان تتربيان دون أب.

نظر «يوسف» في عيني رفيقه القديم. ثم استطرد: - لقد احترَمَك دائما. أرجوك أن تفاتحه في الأمر.

- جئت من أجل ذلك.

كانت قد مرت أكثرُ من سنتين على وفاة «فرح»، و«محمد» على حاله السيئة، غارقا في قاع البئر

العميقة التي أراد لنفسه أن يسقط فيها. كان يقضي معظم نهاره في غرفته: لا يتصل بأحد، ولا يأكل إلا ما يُقيم به صُلْبَه، مداوما على شرب الخمرة القوية التي كان يحصل عليها في الأماكن السرية.

دخل «عمر» إلى غرفة «ابن الأحمر». فكان أولَ ما تلقاه رائحةُ شراب نفاذة. أغلق الباب وراءه، وفتح دَفَّتَي النافذة الوحيدة بالمكان. أيقظ الضوءُ الشاب. وما لبث أن استدار وهو يغطي عينيه. كان يتضور جوعا، تاركا لحيته طويلةً، وغير مهذبة، كما بدا شعرُه مُشَبَّكاً ووسِخا.

- قف يا «محمد» - فاتحه «عمر».

استجاب «ابن الأحمر» بحركات خرقاء. انتاب الصوفي خلالها إحساس بالعطف الشديد تجاه تلك الروح المُحَطَّمة. غير أنه تمالك وأظهر الحزم. تموضع «محمد» على بعد خطوتين من معلمه. كان الشاب في حالة يرثى لها، بالكاد تحمله رجلاه، وغير قادر على التطلع إلى صديقه.

- يا «محمد»، انظر إِلَيّ - طلب «الحسُّونُ» منه.

اتجه «النصري» بنظره إلى عيني «عمر». على الإثر رفع «الولي الصالح» يده اليمنى، وفي قوة، صفع الشابَّ حتى أدار وجهَه إلى ناحية وهو في حالة من الذهول والحيرة لا مزيد عليهما استمرت للحظات. بعدها انقبض «محمد» على نفسه، ثم شرع في نحيب هادئ في أوله، ثم سرعان ما بدأ يزداد إيقاعه تباعا. مد ذراعيه يبحث عن صديقه، إلا أن الصوفي تمكن من التهرب من عناقه، وابتعد

عن الممسوس. تركه «الحسون» يبكي وقتا كافيا، وهو حازم صارم في موقفه تجاه الشاب. وحينما هدأ روعه، خاطبه «الولي» بالكلام قائلا:

ـ تحس بالخجل؟

كان «النصري» قد استعاد جزءا من وعيه. وجعل يحدق في «عمر».

ـ لم أعد أشعر بأي شيء. ولا يهمني شيء.

ـ أين هو «شيخي»؟ ثُمَّ ألا تخاف من الحساب غدا أمام اللّٰه تعالى؟ ـ حينها أشار «الولي» إلى «محمد» بإصبع اتهام ـ لقد عانيتَ حقا، لكن المعاناةَ جزء من الحياة. كلنا نجر أحزانا وهموما. غير أن ذلك لا يبرر ما تسببه لأسرتك من مُقاساةٍ ونَصَب.

ـ وماذا أسبب لهم؟ ـ تجرأ «النصري» على الإجابة ـ أنا وحدي الذي يقاسي.

ـ أيها الأعمى اللعين. لك ابنتان لا تعرفان إلا أبا ثَمِلاً، أفظعَ من أسوأ الكفار. ـ رفع صوته ـ أهذا كل ما ستتركه من ميراث لابنتيك؟

اهتز «محمد» في مكانه تأثرا. لمح ذلك «الحسون»، وخمَّنَ أنه ما زال هناك أمل.

ـ من قبل كان يهمك أن تكون مسلما صالحا. لكنك الآن... الآن، تحولت إلى كومة من العظام بلا روح، ولا إيمان. ـ ختم «الولي» كلامه أخيرا.

ـ لن أتخلى أبدا عن إيماني ـ أجاب «النصري» سريعا ـ ولولا إيماني لكنت قد أنهيت حياتي منذ مدة.

ـ ضع حدا لحياتك ـ تطلع الشاب مندهشا إلى «الحسون» ـ لماذا تريد هذه الحياة؟ ـ واصل «الولي» ـ إنها تسيء إلى الخالق، وتسبب الأذى لعائلتك. ـ لم يكن «النصري» ينتظر من صديقه أن يكون قاسيا معه إلى هذا الحد. لمعت عيناه، لكنه استطاع أن يتمالك. لحظتها بدا على عينيه شيء أقرب إلى الاعتزاز والكبرياء. ـ خذ مقمعتك وشق رأسك حالا... أمامي. أُفَضِّلُ أن أراكَ ميتا، على أن أشاهدَك مَهيضَ الجناح، ضعيف المُنَّة، فاقدا للإيمان. ـ أعاد العبارة التي كان لها الوقع الكبير على «محمد».

ـ ماذا تريد مني أن أفعل يا معلمي؟ أن أتظاهر بأني أريد الحياة؟

ـ في البداية عليك أن تتظاهر بذلك، وسرعان ما ستجد نفسك مقبلا على الحياة، محبا لها. اهتم بعملك، اعتن بأسرتك، أحِب ما تملك، احتراماً لمن فقدت.

وما لبثت ذكرى «فرح» أن أحيت الشعور بالذنب في «ابن الأحمر». لقد ولدت «مؤمنة» و«شمس» ثمرة للحب المتبادل بينه وبين زوجته الفقيدة، غير أنه، حقا، لم يعتن بالصبيتين كما تستحقان.

ـ إنهما يذكراني كثيرا فيها... ـ نطق العبارة وهو يجهش بالبكاء.

ـ ومن أجل ذلك، صنهما، يا «محمد»، واحفل بهما.

ومن جديد غص بالبكاء. فنشج ما وسعه ذلك، ثم قال:

ـ لن أستطيع أن أعدك أمرا. ـ ذكَّرت العبارة عمرَ بـ «محمد» الثغري ـ غير أنني سأحاول.

ـ حسبي هذا. ولنشرع من جديد في تأملاتنا، فإنها ستمنحك راحة وسلاما.

اقترب «محمد»، كما لو أنه استيقظ من دوار الخمر، من الجفنة التي كانت بزاوية في الغرفة، وغسل وجهه وشعره، ثم سار نحو «الولي»، وشعره المبلل يفضح مدى الهزال الذي أصاب وجهه وجسمه، فأمسك بذراع معلمه، وخرجا معا إلى فناء الدار.

ـ «كريمة»! ـ استجابت المرأة في الحال للنداء ـ أريد آلة حلاقة لقص الشعر ـ أمر بذلك، وهو يمرر يده على لحيته غير المرتبة.

تحركت المرأة كحمامة فوق كومة من القمح. وأحضرت سريعا مقعدا وآلات القص. كان الوقت أصيلا، و«إسماعيل» و«فرج» قد عادا لتوهما من الحقل. بينما كان «عمر» قد انصرف بعد أن ودع الجميع، تاركا الأسرة وحدها متحلقة حول «محمد». على الإثر تحول قص الشعر إلى طقس تابَعَ أطواره أفراد العائلة بإعجاب. هو لم يكن يتكلم، في حين كانت نظرته كئيبة وغائبة... كآبة لن تغيب عنه طوال حياته.

ـ لماذا يقص أبي شعره؟ ـ تساءلت «مؤمنة»، الابنة الكبرى.

ـ حتى نرى وجهه أحسن. ـ أجابت «كريمة» وهي مستغرقة في عملها.

***

أدى «هادي» صلاة الجمعة، ثم جلس ينتظر «أشقيلولة» في صحن الوضوء منعزلا عن حلقات الرجال الخائضين في أحاديثهم. بغتة، ظهر له «محمد» خارجا برفقة والده وأخويه من باب الجامع. اندهش «هادي» لمرآه، فقد مرت عليه شهور دون أن يراه. كان «محمد» في غاية الهزال، غير أنه بدا نظيفا تزين وجهَه لحيةٌ مهذبة. بعد لحظة أطل من باب الجامع آل «أشقيلولة». كان رب الأسرة يمضي، وهو يتكئ على عصا، ويتوسط ولديه. بعد برهة تنبه إلى حضور «هادي»، فابتعد عنهما، وتوجه صوب الجندي.

- أهلا يا فتى، مضت أيام طويلة دون أن أعرف عنك شيئا. حدثني.

أمسك بذراعه، وأخذه إلى زاوية في فِناء المسجد.

- وصلت بعض الأخبار إلى القصبة. - دون مقدمات بدأ «الجياني» حديثه - لقد انتهت الحملة الصليبية الخامسة، ونصر الله سلطان مصر، بعد أن فاجأ النصارى، في إحدى الليالي، وأوقع بهم مذبحة لم يكن أمامهم بعدها سوى الاستسلام.

- الله أكبر - كبر «أشقيلولة» متأثرا.

- أيضا، وصلت أخبار من «مراكش». دب الصراع بين أعمام الخليفة، كل يسعى إلى الهيمنة على الإمبراطورية. كما أن بعضَ شيوخِ الموحدين يريدون حقهم في السلطة. في حين شرعت القبائل المتمردة في محاصرة الموحدين

والتضييق عليهم. وقد وسعت قبائل «زناتة» من نفوذها، ويفعل الحفصيون الشيء نفسه [في «المغرب الأدنى»] بدعوى أنهم هم الموحدون الحقيقيون بعد أن تخلى الخليفة عن العقيدة الموحدية.

أعطى «أشقيلولة» لنفسه بعض الوقت ليتمثل هذه الأنباء.

ـ هكذا تبدأ الأمور عادة حينما تتداعى أركان الإمبراطوريات. ولعلنا سنكون قادرين قريبا على طردهم من الأندلس. لم يعلق «هادي» والتزم صمتا حذرا. ـ كيف حال الحاكم؟

ـ كالعادة، لا هم له سوى حساب الخراج، وتحصيل الضرائب والإتاوات. إلا أن الأمر ليس سهلا، لأن القرى تعاني من الجفاف ـ هز «أشقيلولة» رأسه مصادقا. فقد ذاق، هو نفسه، الشدة والعسر جراء ذلك في أراضيه.

أنهى الجندي «تقريره» عن كل ما علمه. وبعد أن ودع المحسن إليه، مضى إلى بيته. وما أن دخل حتى تناهت إلى سمعه خطوات «كمال» الذي كان قد كمن عند المدخل ليفاجئ أباه. تظاهر الأب بأنه لم يسمعه، ودلف إلى الصحن بخطوات مسموعة.

ـ خذ أيها الكافر! ـ صرخ الطفل وهو يضرب أباه من الخلف بقضيب من خشب شجر اللوز.

تظاهر «هادي» بأنه جريح، وجثا على ركبتيه. وهو ما انتهزه الطفل ليمس صدر أبيه بنهاية القضيب.

ـ ميت!

استلقى الجندي على الأرض وأخرج لسانه. حينها طفق «كمال» يقفز قفزات بهجة وفرح، قبل أن يضمه والده إلى صدره.

ـ أرى البيتَ وأمَّكَ مُؤَمَّنَيْن بوجودك. ـ علق «هادي» وهو يقبل ابنه على خده. وسرعان ما مسح الطفل، وهو متضايق، خده بكمه ـ ستكون جنديا عظيما، أرى ذلك في عينيك. ـ قال لابنه وهو لا يدري إلى أي حد قد تكون هذه النبوءة صحيحة.

***

«قلعة زفرة» Castillo de Zafra، حدود «قشتالة» مع «أراغون».

ديسمبر 1221

كان الوقت ليلا، والمطر يهطل بغزارة، ومع ذلك أتم النقيب دورية الحراسة حول القلعة بالكامل. ليتأكد من أن الحصار كان فعالا. كان برفقة القائد ثلاثون فارسا، والبرد قارص، وماء المطر يزيد الثياب ثِقَلا.

ـ هناك! ـ صرخ أحد الفرسان.

لم يكن النظر عند النقيب حادا. فكان عليه أن يُدقق بصرَه لثوان حتى تمكن من مشاهدة الرجل الذي كان يتحرك بعيدا. حينها أشار القائد بالتقدم. مباشرة تحركت المفرزة، وسارت حاملة حرابها على السَّنَّادات. وما أن رآهم الرجل حتى ألقى بالكيس الذي كان يحمله على ظهره، وأطلق ساقيه للريح

وهو يقفز على الحجارة التي تحد الطريق. على بعد خطوات لمح الرجالُ ثلاثَ عربات محملةً ببراميلَ وأكياسِ الأقوات حولها عدد من الرجال يُنزلون الحُمُولةَ وينقلونها على أكتافهم إلى القلعة. وقريبا منهم كان خمسة من الجنود يقومون بحراسة الشحنة ما أن رأوا، هم أيضا، رجال الملك، حتى قاموا بحساباتهم ليَتَبَيَّنَ لهم أن الاختيار الأسلم هو أن يَفرُّوا بجلودهم مسرعين لا يَلْوُون على شيء.

ـ أسرعوا، إلى العربات! خذوها إلى المعسكر، وسيروا بها من وراء الصخور. ـ أشار النقيب إلى عدد من رجاله، في الحال أخذ الرجال يسيرون نحو عربات الشحن.

سمحت المفرزة لرجال سيد «مولينا» بالهروب والنجاة بأنفسهم، في حين أسرع الفرسان في الرجوع إلى المعسكر وهم يجرون العربات المحملة بالأقوات التي استولوا عليها.

***

سقطت نقطة ماء أخرى على رأس «لوبي دياث دي آرو»، حامل راية الملك. فغير مجلسه للمرة الثانية، وهو يمسح على صلعته، وينفخ بقوة في ضيق... غير أن المطر لم يتوقف، واسترسل يهطل دون أن يفتر حتى سقطت خيمة الملك.

ـ هذه الرطوبة تقتلني، تنفذ إلى حد العظام.

ـ يُرى في الشمال بعض الصحو. لن يدوم كثيرا هذا الطقس. ـ علق «غونثالو رويث خِرون»، رئيس خدم ملك «قشتالة». كان هذا النبيل يتحمل رغم

تقدم سنه بصبر ورباطة جأش قساوة الجو، إضافة إلى أهوال الحملة العسكرية.

تطلع «فرناندو الثالث» إلى النبيلين، وهما أهم دعامتين يستند إليهما في حكم مملكته. وها هما الآن، كعادتهما، بجانبه من أجل مساعدته وإسداء النصح إليه. وكان العاهل القشتالي قد استنفرهما من أجل إخضاع «غونثالو بيرث»، سيد «مولينا»، وكان هذا قد تحالف مع سيد «كامِيروس» في تحديه للملك، قبل أن يلجأ إلى «قلعة زفرة». وكان على الملك أن يعطي المثال في التعامل مع هذه النازلة ليتجنب بذلك قيام نبلاء آخرين ضده.

ـ أراكما على أعتاب الشيخوخة. وينبغي علي أن أتخلى عن الاعتماد عليكما في مثل هذه القضايا.
ـ مزح الملك مع الشريفين وهو جالس على كرسيه.

كان «فرناندو الثالث» في مزاج رائق. ومملكته تشهد أياما زاهرة. فقد بدئ في إنشاء كاتدرائية «برغش»، والأشغال بها تسير سيرا حسنا، والأشراف المتمردون وجدوا أنفسهم منعزلين، ثم إنه رزق منذ أسابيع بابنه البكر، وقد سماه «ألفونسو»، وفاء لذكرى جده من أمه «ألفونسو الثامن»، واحتفاء بوالده «ألفونسو التاسع» ملك «ليون». وكانت زوجته «بياتريث دي سوأبيا» قد حملت، وتقدم حملها، ورغم ذلك فإنها آلت على نفسها أن ترافق زوجها في حملته على سيد «مولينا». وحصل أنه ما أن وصل الجيش إلى «طليطلة» حتى بدأت «بياتريث» آلام المخاض.

فكان على الجيش أن يتوقف عن التقدم إلى أن وضعت الأميرة وليدها. وبذلك فتح وارثُ «فرناندو الثالث» عينيه على الدنيا في عاصمة القوط القديمة، تحفه الفؤول الحسنة، والتبريكات الربانية التي جزم كثيرون أنهم شاهدوا علاماتها في السماء.

«في ليلة ميلاد «ألفونسو» أشرقت سحابة وسط السماء، فأنارت بإشراقها الفضاء كله، وكذلك سَيُنيِّر «ألفونسو» مملكة قشتالة». نقل هذا الكلام عن أحد المنجمين المسلمين كان يعيش في «طليطلة».

ـ سيدي، ما زالت ذراعاي قويتين قادرتين على تمزيق أي متمرد أو «مورو» إلى قسمين. ـ أجاب «غونثالو رويث خرون».

ـ لا أشك في ذلك يا «غونثالو» مثلما أسعد بأن يكون بِجِوَارِي، أيضا، ذراعا «لوپي». ـ استقام حامل الرايات في مجلسه، وبدت عليه نشوة الفخر والكبرياء. ـ هل وصلت الإمدادات؟ ـ كان قد مر على حصار القشتاليين لسيد «مولينا» عشرة أيام، فبدأت المؤن تقل. لا سيما وأن القوة القشتالية الُمحاصِرة كانت تتكون من ثلاثمائة من الرجالة، وأكثر من مائة وخمسين من الفرسان مع تَرَّاسيهم [ممن يقومون بخدمة هؤلاء الفرسان].

ـ وصل منها أقل مما كنا ننتظر، غير أنها كافية لخمسة عشر يوما. وقد حَضَّرَتْ والدتُك حفظها الرب لذلك بعناية تامة ـ أجاب حامل الرايات. ـ كما أنقل إليكم، سيدي، أنباء عن الدورية الليلية. فقد تمكن الرجال من اعتراض سبيل ثلة من المتمردين

كانوا بصدد إيصال إمدادات للقلعة. وقد استحوذ رجالنا على تلك الشحنات، واحتجزوا العربات، وهي بحوزتنا الآن.

وقف «فرناندو» بقفزة، وراح يصفق بيديه من الفرح.

ـ قلعة زفرة ليس لها ما يكفي من مساحة لتخزين الأقوات والمؤن. وإذا لم تدخلها الإمدادات فإن المدافعين عنها لن يصمدوا طويلا.

ـ ليس مستبعدا أن يكونوا الآن في ورطة. قد يملأ المطر البئر ماء، أما الأقوات... فكما هو معلوم جيش بلا طعام لا قوة له لحمل السيف ـ حسم «لوپي دياث دي آرو» الموضوع.

ـ رائع! سأصلي ليكون الأمر كما يُتصور.

صرف «فرناندو الثالث» النبيلين، وجثا على ركبتيه أمام الصليب الذهبي الذي كان يصاحبه في تنقلاته، ثم صلى بإيمان عميق يطلب من الرب أن يعود قريبا إلى قصره.

بعيد الظهر توقف المطر عن الهطول. ولم يعد دالا على الأمطار الغزيرة التي سقطت سوى رائحة قوية للتراب المبلل. وعند العصر وصل من «زفرة» مبعوث علق على صدره وشاحا أبيض. كان «غونثالو بيرث»، سيد «مولينا» يريد أن يتفاوض.

***

أرجونة. Arjona ربيع 1223

أسرع «فرج» في مشيه عبر عقبات الطريق، يريد أن يصل سريعا إلى «أرجونة». كان أصدقاؤه

ينتظرونه في القصبة، بجنب المسجد الجامع، كعادتهم كل أصيل. ولكم كانت تلك اللحظات التي يجتمع فيها برفاقه تسليه وتمتعه، وهو الشاب الذي أشرف على العشرين من عمره، لما يتخللها من تبجح، وعبارات خيلاء حين رؤية الفتيات الأرجونيات وهن يتبخترن أمام الشبان. كان جسمه قد قوي، واشتدت عضلاته، ومع ذلك ما زالت بنيته ضعيفة. وبالرغم من أن «محمدا» كان يعرف أن أخاه لن يكون ثغريا مميزا، إلا أنه شرع في تدريبه على استخدام السلاح.

وكز «إسماعيل» بكُوعِهِ «محمدا» على الجنب، وهو يشير إلى أخيه الأصغر.

ـ لم تمض، بعد، مدة طويلة حينما كنا مثله. هل تذكر ذلك؟

اصطنع «ابن الأحمر» ابتسامة خفيفة. ذكر كيف أوتي على شبابه ما يكفي من مرارات الحياة فكان على وشك الغرق. كان قد استعاد عافيته، وزاد وزنه، غير أن مسحة الكآبة ما زالت تعلو محياه منذ اليوم الذي فقد فيه زوجته.

ـ بالطبع أذكر ذلك ـ قال وهو يمرر المِغْزَق إلى الكتف الآخر. ـ خاصة تلك الاجتماعات التي كنا نعقدها بالقرب من العين صحبة «إبراهيم» و«عبد الله».

أعقب كلامهما صمت قصير. فمن الزمالة القديمة التي كانت تجمع بين الأقرباء الأربعة لم تبق سوى مجاملة باردة كان الأقرباء الشباب يتبادلونها في بعض الاجتماعات العائلية.

ـ وهل تذكر طفولتنا؟ ـ سأل «إسماعيل» في نبرة رومانسية ـ أذكر حينما ذهبنا مع أمي إلى الحمام، وقضينا الوقت كله نتعقب بنت النجار ـ أطلق ضحكة ـ كانت تلك آخر مرة سمحت لنا الوالدة رحمها الله بمرافقتها.

ـ أذكر ذلك، ولكم اشتقت إلى أمي، وإلى كل من رحلوا.

ـ آسف يا «محمد» لم يكن علي أن أعرض لهذا الموضوع. ـ قال ذلك وهو يضع يده على كتفه. كم يسعدني أنك عُدْت.

ابتسم الابن البكر لأسرة نصر. غير أن عينيه تحدثتا عن الحزن العميق الذي كان لا يزال راسيا في أعماقه بعناد. بعد حين وصل الشقيقان إلى الدار قبل والدهما، فذهب «إسماعيل» إلى زوجته التي كانت ترضع ابنته المولودة أخيرا. أما «محمد» فتوقف في المدخل يغير حذائه.

ـ أبي!

دخلت «شمس» وهي تجري، وعانقت ركبة والدها. كانت الصغيرة قد بلغت الرابعة من عمرها، وفي كل يوم كانت تزداد شبها بأبيها. كانت قد ورثت عن أبيها لونَه الأبيض، وعينيه الخضراوين. وراءها جاءت «مؤمنة»، وكانت تكبر أختها بسنة واحدة، وضمت إليها ركبته الثانية. كانت «مؤمنة» تشبه كثيرا أمها. شعرها شبيه بشعر أمها في السواد والقوة، وعيناها سوداوان. فكان «ابن الأحمر» كلما نظر إليها يشعر بقَرْصَةٍ في معدته.

ـ هيا يا صغيرتيَّ إنه وقت العَشاء.

ـ لاطف الأب شعر بنتيه، وأمسك بيديهما الصغيرتين، ودخل بهما فِناء الدار. وقفت «كريمة»، وكانت في مكان قصي من الصحن وتحمل طنجرة، تمعن النظر في مشهد الأب العائد مع ابنتيه، ثم ابتسمت وهي في حالة من التأثر.

***

**«وادي الرَّقوط» Valle de Ricote. قريباً من «مرسية» Murcia. شتاء 1224**

حدق «ابن هود» في سحابة الغبار التي تركها وراءه عدو الفرس. وحينما اقترب الفارس تبين له أن القادم هو صديقه «الغُشتي». في الحال، ابتعد «ابن هود» عن الجماعة، وانتحى ناحية ليستقبله منفردا. كان «الغُشتي» قد استقر في الجبال مع طائفة من أصحابه يقوم بالغارات هنا وهناك عبر الحدود. وأحيانا كان «ابن هود» يشارك صديقه سرا في أعمال السلب والنهب تلك. كبح الصديق فرسه وتوقف على بعد خطوات من النقيب. كان الغشتي يلهث، وينفخ بقوة بفعل العدو. غير أنه لم يصبر حتى يلتقط أنفاسه وأطلق لتوه النبأ:

ـ وصل مبعوث من أفريقيا(22)... يحمل أنباء... مات الخليفة.

ـ كيف؟ هل أنت متأكد؟

ـ أجل، ويشاع في «مراكش» أن الوزير قتله بالسم. ـ وضع «الغُشتي» يده على صدره ثم استنشق عميقا حتى يستعيد نفسه. ـ وقد تولى

الخلافة أحد أعمام والده.

- أرجو أن يكون حازما، ويعيد الأمور إلى نصابها، بحول الله وقوته.

خفض الغُشتي من صوته قبل أن يستطرد قائلا:

- قال المبعوث إن الخليفة الجديد ليس له أنصار كُثْر(23). ويتناقل الناس في «مرسية» إشاعات عن اعتزام «العادل» إعلان العصيان ضد الخليفة الجديد.

في الحال مر بخلد «ابن هود» أن «العادل»، وهو أحد أفراد الأسرة الخليفية ويستقر بمرسية، إذا، حقا، تمرد على الخليفة الجديد فإنه سيعلن الثورة من الأندلس.

- لعله من الأحسن، والحالة هذه، أن نناوئ «مراكش» من هنا.

- على أي، مهما يقع، المهم أن تدور الأحداث لصالح الأندلس. - تمنى «الغشتي» ذلك، ثم عاد إلى مخبئه.

في حين عاود «ابن هود» السير مع رجاله، وهو يقلب أوجه فكره بشأن الاحتمالات التي فتحت نتيجة المشهد الجديد.

***

**«مونيو» Muñó، مملكة قشتالة. يونيو 1224**

- ها قد حانت ساعتك يا بني بصفتك ملكا، وأيضا، رجلا. لقد خرجت للتو العربات محملة بالأموال لأصحاب «كاميروس». وبذلك أصبح الأشراف من مناصريك. وهو ما يعني أيضا أن

لحظة الاهتمام بالكفرة. قد حانت - خاطبت «برنگيلا» ابنها وهما في طريقهما إلى الاجتماع.

كان «فرناندو الثالث» قد توصل إلى اتفاق مع النبيل المتمرد سيد «كاميروس». بعد أن أصر الملك القشتالي في حزم على قراره القاضي بانتزاع إقطاعة الشريف المتمرد، غير أن العاهل اضطر إلى التراجع نسبيا حينما فاوض النبيل المتمرد على تقديم أربعة عشر ألفا من القطع النقدية المرابطية مقابل التخفيف من قبضته عليه.

من جهة أخرى، فإن الزواج المتوافق عليه بين خالته «ليونور»، أخت «برنگيلا»، و«خايمي الأول» ملك «أراغون» كان قد أكسب «فرناندو الثالث» حليفا قويا ذا حَوْلٍ وطَول. كان ملك «أراغون» قد أكمل السادسة عشرة من عمره، وكان عليه أن يجابه عددا من التمردات من جانب الأشراف. ومن ثم أُعْلِن بالغا سن الرشد، وإن تمكن من تهدئة المملكة فإنه سيتمتع بجميع سلطاته. وهو ما يعني أن «فرناندو الثالث» قد أمن حدوده الشرقية.

أما في الغرب. فكانت «ليون» لا تزال محافظة على الهدنة والسلم مع «قشتالة». و«ألفونسو التاسع» عهد بولاية العهد لابنتيه «سانشا» و«دولثي». وبذلك ضاع من «فرناندو الثالث» أمل وراثة والده على عرش «ليون». غير أنه في مقابل ذلك ضمن السكينة التي تسمح له بالتوسع في الجنوب، [ضد الكفار المسلمين].

كانت اتفاقات الهدنة مع الموحدين قد انتهت،

والوضع في المملكة الإسلامية يتسم بالتشنج وعدم الاستقرار. والخليفة الجديد وجد نفسه أمام منافس هو «العادل» الذي تمكن من استقطاب أغلب الأندلسيين إلى جانبه.

في هذا الخضم أمر العاهل القشتالي بأن يجتمع أهم رجالات الدولة لمناقشة هذا الموضوع، واتخاذ القرارات المناسبة.

دخل «فرناندو الثالث» ووالدته «برنگيلا» معا إلى القاعة، حيث كان ينتظرهم النبلاء، ثم اقتعدا كرسيين جنبا إلى جنب.

ـ مرحبا وأهلا بالجميع: أمي، الملكة، وأنا، نَهْنَأُ بحضوركم هذا اللقاء. ـ حيا فرناندو الجميع. ـ إن سبب اجتماع هذه الهيئة، غير العادية، هو اتخاذ قرارات هامة سيكون لها تأثير على مملكة «قشتالة». وأرجو، اعتمادا على نصائحكم السديدة، وبمساعدة المسيح أن نختار الطريق الصحيح. ـ عدل أسقف «پالنسيا» من جلسته، واستند إلى مقعده ـ فكما تعلمون، إن اتفاقات الهدنة قد انتهت، و«المحمديون» يتصارعون فيما بينهم. وإنها لفرصة مناسبة للانقضاض عليهم. ـ توقف قليلا، ثم أردف ـ سني ثلاث وعشرون سنة، ومنذ أن توليت الملك لم أحارب سوى القشتاليين والليونيين. ومن ثم، لا أريد أن أهدر أفضلَ سنوات شبابي، وأنا أقاتل داخل الدار. لقد آن الأوان لرفع راية وحدتنا المسيحية ضد الكفار.

ـ الوحدة بين المسيحيين! ـ ارتفع صوت بالقول.

ـ والحرب ضد الكفار! ـ أجاب صوت آخر.

- من أجل كل هذا، أرجو من الملكة - نظر إلى أمه هنيهة - ومنكم جميعا، أنتم الذين تمثلون أعمدة حكمي، أن تصادقوا على قرار عدم تجديد الهدنة مع الموحدين، واستدعاء الرجال. سنذهب إلى الجنوب قبل متم الصيف.

- نظر النبلاء جهة الملكة، فأومأت بالإيجاب راضية مسرورة، وهي تتظاهر بأن القرار اتخذه «فرناندو» بمفرده، وبوحي من فكره.

أعقب المصادقة اختلاط أصوات ولغط، ثم ضجت القاعة بتصفيقات احتفالا بما يتوقع من استيلاء على أراضي جديدة، وما يرتبط بذلك من مال وغنائم. لم يحتج الأمر إلى مداولات أو نقاش، فقد كان الحضور جميعهم متفقين على عقد جلسة أخرى بـ «كاريون»، على أن يستدعى إليها هذه المرة مطران «طليطلة»، ورئيسا رهبانيتي «قلعة رباح» و«أُقْلِيش» **Uclés**. وهناك سيعرض المجتمعون إلى تفاصيل الحملة التي باتت على وشك الانطلاق.

وبذلك أعلنت الحرب على الأندلس.

***

**«أرجونة» Arjona. صيف 1224**

من الطريق كان «هادي» يشاهد الحقول التي قضى بها الساعات العديدة يكد ويشتغل تحت أشعة الشمس الحارقة. اليوم، وبفضل رب عمله القديم، أصبح يعمل في «المليشيا الموحدية». يلبس درعا، ويحمل معلقا على ظهره تُرسا. كان فرسه منهكا، لا يجد في السير. هو، أيضا، كان

مرهقا. فقد دام حصار «إشبيلية» أكثر مما كان متوقعا.

كان تمرد «العادل» [أبو محمد عبد الله والي «مرسية»] قد حقق نجاحا باهرا في الأندلس. إذ لم يظل وفيا للخليفة الجديد بـ «مراكش» [أبي محمد عبد الواحد] سوى السيد(24) «أبو زيد» أمير المنطقة الشرقية. وكانت «إشبيلية» أيضا قد تحولت إلى وكر للتمرد، وهو ما حدا بالخليفة إلى بعث جيش ضخم لإخضاعها، بقيادة النبيل الموحدي «إبراهيم بن محمد»، والي «جَيَّان» المعروف بـ «البَيَّاسِي»، غير أن الخليفة [أبا محمد عبد الواحد] ما لبث أن عزله [بعمه أبي الربيع بن أبي حفص]، وهو ما دفع بـ «البياسي» إلى الانضمام إلى الخليفة الثائر بـ «الأندلس»، «العادل».

وحينما وصلت الأنباء إلى «أرجونة» بخروج «العادل»، انحاز الحاكم، مثلما فعل أغلب الأندلسيين إليه، وقدم عددا لا بأس به من جند الحامية لتدعيم الجيش الذي كان يواصل أهباته للزحف على «إشبيلية». وكان «هادي» من ضمن الجند الذين اختيروا للمشاركة في الحملة، وهو مقتنع بالقضية التي سيدافع عنها. وبعد أسابيع عديدة من الحصار، رضخت إشبيلية، أخيرا، للعادل. بعد ذلك بقليل جاءت أخبار أخرى من «أفريقيا» مفادها أن الخليفة الجديد قد قتل بـ «مراكش» وأن «العادل» قد نودي به خليفة بالمغرب. وبدا كأن الوضع قد استقر بعد أن لم يبق مقاوما للعادل إلا شرق الأندلس. ومع ذلك، فإن قلاقل

جديدة لم تكن في الحسبان سرعان ما ظهرت في «قرطبة».

كان شوق «هادي» لرؤية أسرته كبيرا، غير أنه كان عليه قبل ذلك أن يقوم بزيارتين. الزيارة الأولى سيخصصها للمحسن إليه «أشقيلولة» لينقل إليه آخر الأخبار. وأما الزيارة الثانية فيتعين عليه أن تكون للقصر، حيث سيقدم تقريره للحاكم.

وصل «هادي» إلى بيت «أشقيلولة» الذي خَفَّ لاستقباله وهو أحرص ما يكون على معرفة آخر الأنباء.

ـ خضعت إشبيلية. ـ شرع الجندي يخاطب المحسن إليه بعد تحية مختزلة.

ـ وصل حمام يحمل هذا النبأ. وأيضا خبر مقتل الخليفة. هل كان الحصار قاسيا؟

ـ تقريبا مدة شهرين. و«البياسي» قطع الإمدادات عن الحاضرة، من الأرض، ومن النهر(25).

طفق «هادي» يسرد وقائع حصار «إشبيلية». سبعة أسابيع من التضييق على سكان العاصمة، فعانى الناس من قلة الأقوات والمؤن، ومن العزلة التامة. حاول الوالي، في يأس، أن يفك الحصار ثلاث مرات، قاد خلالها جند الحامية ضد المحاصِرين، غير أن القوات التي احتشدت قريبا من الأسوار كانت تفوق قدرات الحامية الإشبيلية وتتجاوز كل إمكاناتها. وفي الأخير لم يستدع الأمر أي هجوم ولا أي معركة في الميدان. بل إن أهل إشبيلية هم أنفسهم قاموا ضد الحاكم،

وهتفوا بالاستسلام. أمام هذا الوضع، وقد وجد نفسه دون أي سند، لم يجد الوالي من خيار سوى الخضوع، وطلب التفاوض قبل أن يفوت الأوان.

ـ هذا الجرح، أصبت به في مناوشة مع عسكر إشبيلية إثر طعنة برمح. هاجموا مفرزتي ليلا، ولم نتمكن من دفعهم إلا بعد مشقة. ـ لحظتها جذب «هادي» الواقي الداخلي [الغامبيسون] من أسفل، وكشف لرب عمله القديم جرحا مخيطا في كتفه الأيسر.

ـ هل رأيتها؟ ـ سأل «أشقيلولة» «هادي» ـ هل رأيت المئذنة؟ ـ قطب الجندي حاجبيه قبل أن يجيب:

ـ أجل. وما زلت أحلم بها. لم أر أبدا مثلها. كنا نراها من المعسكر منتصبة فوق الأسوار. وحينما تكون الريح مواتية كنا نسمع المؤذن يرفع الأذان.

ـ يقال لا يوجد في العالم مئذنة أعلى منها ـ علق «أشقيلولة» ـ ما أعظم هذا المصير الذي خصص لغنائم معركة «الأرك»! ـ كان نصر «الأرك»، والأموال التي غنمت في الحملات اللاحقة، وراء إنشاء المعلمة، التي بنيت في ظرف ثلاث سنوات فقط. فيا له من زمن كان للمسلمين فيه مجد وحضور، وللعظمة مكان موفور. ومنذ ذلك الوقت انقلبت الأحوال بالموحدين، وساروا في طريق الضعف والانهيار. ولكم أتمنى أن تتغير الأحوال، ويتجه «العادل» بنظره إلى الحدود.

ـ السلام عليكم. ـ حَيَّا «إبراهيم» و«عبد الله»، وهما يدخلان إلى «المجلس».

ـ ستواجه «العادل» مشاكل جمة حتى يحافظ على الخلافة ـ استطرد «هادي» ـ أخضعَ الآن «إشبيلية»، لكن ضاعت منه «قرطبة». ـ اتسعت عيون آل «أشقيلولة» لسماع هذا الخبر وهم يصغون لكلام المقاتل العائد في انتباه ـ أجل، لقد كان «البياسي»، وهو من أخضع «إشبيلية»، ينتظر من «العادل» أن يعينه واليا عليها، غير أن «العادل» عين محله أخاه أبا العلاء، وأسند لـ «البياسي» ولاية «قرطبة». ـ هز «أشقيلولة» رأسه في نفي، خوفا من الأفظع. ـ مباشرة، وقد أحس هذا الأخير بالإهانة، وبالحط من قدره، أعلن نفسه أميرا.

ـ مرة أخرى: خليفة جديد، وأمير متمرد. ـ قال «عبد الله» بنبرة سخرية ـ إنها بداية النهاية. ـ ختم بلهجة قاطعة.

ـ إن مصيره هو مصيرنا... هذا أمر يقلق، ويشغل البال. ـ علق «إبراهيم»، في حين نزلت غمامة من الحزن والغم على الجميع.

ـ وهل لـ «البياسي» أنصار؟ سأل رب الأسرة.

ـ يقال إن «بَيَّاسَة» و«جَيَّان» يستقبلان مبعوثيه بالأحضان.

ـ قريبا سيصلون إلى هنا، دون شك. أرجو أن يكون الحاكم حصيفا عاقلا، وإن كان في الواقع لا أدري ما هو الاختيار الرشيد. ـ تنهد «أشقيلولة» ـ شكرا، يا «هادي»، كالعادة إن الأخبار التي تأتينا بها دائما تكون جليلة. كانت أسرة «أشقيلولة» تقيم تفوقها على شبكة من المخبرين

يساعدونها على اتخاذ المواقف العاقلة.

ودع «هادي» أفراد الأسرة قاصدا القصر. كانت حياته إلى تلك الساعة تتسم بالهدوء والسكينة. أما الآن فإن وضعه قد تغير. غدا واعيا أن مصيره بات بأيدي آخرين. كان على الحاكم أن يتخذ موقفا جديدا، وعلى هذا الموقف تتوقف مشاركته أو عدمها في النزاع الذي يتهدد الأندلس. وإنه لنزاع سيأخذ طابع مواجهة أهلية بين مسلمي الجزيرة ستهتز له، دون شك، دعائم شبه جزيرة الأندلس.

***

حدود «قشتالة» مع الأندلس. خريف 1224

عبر «فرناندو الثالث» «ممر الموردال» يتقفى أثر الطليعة. كان الملك لابسا درع الميدان، في حين، وضع تاج «قشتالة» على رأسه بحكم المناسبة. من بعيد تراءى له المعسكر الصغير الذي أقامه رجاله مكانا للقاء الذي ستجري وقائعه بعد قليل. كانت أعلام الأسر النبيلة: «دي آرو»، و«خِرون»، و«مِنيسِسْ» ترفرف فوق الخيام، في الجهة الأخرى خفقت أيضا ألوية الملك المسلم بألوانها القوية.

التقى «فرناندو» و«البياسي» على مسافة خطوات تفصل بينهما بحضور الترجمان. كان «البَيَّاسِي» لابسا سروالا فضفاضا، وقميصا طويلا مطرزا بخيوط الذهب، ويعتمر عمامة كبيرة من الحرير الأزرق. لم يكن يحمل سلاحا، وحرسه بالكاد يصلون إلى خمسين رجلا. مباشرة بعد ذلك شرع الرجلان في التفاوض، ودامت المقابلة وقتا ليس

بالقصير.

أكد «المحمدي» للمرة الثانية ما كان قد سبق أن أعلن عنه للملك القشتالي عبر مبعوثيه. فذكر أنه محاصر من الخليفة الذي، حسب قوله، كانت له نوازع غاية في العدوانية ضد «قشتالة» وملكها. في المقابل قال «البياسي»، إنه يعرض على «فرناندو» التعاون المشترك من أجل الإطاحة بالعدو المشترك، وأنه مستعد لمساعدة «قشتالة» بأن يفتح للعاهل القشتالي أبواب الأندلس من المناطق التابعة له عبر السماح لجيوش النصرانية بالمرور إلى الأراضي الإسلامية، إضافة، إلى أنه على استعداد، أيضا، لتقديم جميع الأخبار الضرورية ليسهل على «قشتالة» القيام بهجومها على العدو المشترك.

وكان «أبو العلاء»، أخو الخليفة «العادل»، وأمير إشبيلية، قد انتزع من «البياسي» «قرطبة»، و«أُبَّدة» و«جيَّان». وفي تلك الأثناء كان الأمير المتمرد يقاوم من «بَيّاسَة»، عاصمتِه الحصينة. غير أنه كان في حاجة إلى مساعدة القشتاليين الذين أبانوا منذ اللحظات الأولى عن اهتمامهم بالموضوع، ورغبتهم في الوصول إلى اتفاق مع هذا الحليف القيم، الذي ينشط من قلب أراضي العدو.

في الأخير تحدث «فرناندو» و«البياسي» عن ضرورة التمسك بالاحترام بين الجانبين، والعمل على الالتزام بالمساعدة المتبادلة.

وقبل أن يرحل «فرناندو الثالث» أومأ ملك «بياسة» بإشارة، فجاء رجلان بالابن البكر

«للبياسي»، وكان في حوالي العاشرة من عمره، هزيل البنية، وذا نظرات ملؤها المكر والدهاء.

ـ أسلم لك ابني البكر رهينة، ضمانا لما اتفقنا عليه، وهو أكبر أبنائي الذكور، وأحب أبنائي إلى قلبي. قال بالعربية.

قبل «فرناندو الثالث» الرهينة، ثم ودعه الأمير المسلم وهو في حالة تأثر.

كان الاتفاق قد تم توقيعه.

عاد «البياسي» إلى معسكره. في حين فضل «فرناندو» قضاء ليلته بعين المكان، والرحيل في الغد عند الفجر. كان يريد أن يدرس الخرائط، وتحديد الطرق التي سيتبعها جيشه. ومن أجل ذلك جمع قواده في مجلس نبلاء. كان الاتفاق أن «البياسي» سيخصص مفرزة لمصاحبة القشتاليين لترشدهم في الطريق.

كان كل شيء يشير إلى أن الحملة ستنتهي بنجاح باهر.

***

في البداية سمعت قرقرة الخشب الذي بُنيت به الآلة. أعقب ذلك صفير خفيف، ثم بعد ثوان معدودات وصل إلى المعسكر صوت الاصطدام. كانت القذيفة الحجرية قد اصطدمت ببرج الباب الكبير، وهدمت بعض شرفاته، وهو ما أثار زوبعة من الغبار. كانت ثلاث قطع منجيق لا تتوقف عن ضرب الأسوار الطينية المحيطة بمدينة «قيجاطة» [Quesada] دون أن يكون للمدافعين حيلة أمام ما تسببه من دمار سوى الصبر،

والالتجاء إلى البنايات الأكثر متانة وتحملا. خلال يومين بليلتيهما كانت الأحجار تهوي على المدينة من السماء، فهدمت أجزاء من الأسوار، وخربت عددا من الدور.

كان «مرتين فرناندث دي برغش» يتأمل طويلا في مجريات الحصار. لم يسبق له أن رأى أسلحة بهذا القدر من قوة التدمير، فكان يحس حماسا غريبا كلما مرت قذيفة مخترقة السماء نحو هدفها. «كأن الرب نفسه يدفع بهذه الأحجار» مر بخاطره.

اشترك في الحملة «مايسطري» [رئيس] رهبانية «قلعة» رباح، استجابة لنداء ملك «قشتالة»، وكان على رأس مائتين من خيرة الفرسان الذين وقع انتقاؤهم بدقة. كانت الرهبانية، وتقع على الحدود مع المسلمين، مصممة على بدء الحرب المقدسة ضد الكفار.

في هذا الخضم حاول أهل «قيجاطة» أن يقوموا بعملية يائسة لعلهم يصيبون في النصارى فرصة. فتحوا باب البلدة، على حين غرة، وفي الحال، خرجت ركضا مفرزة صغيرة من الفرسان، وانقضت بالسرعة المعهودة في الفروسية الإسلامية على جماعة من الجند القشتاليين، كانوا بصدد تحميل أحد المجانيق بحجرة. بعد لأي تمكنت المفرزة من القضاء على الحراس والرجال المكلفين بالآلة وتحميلها. ثم شرعوا في قطع الحبال وتخريب الخشب، بنية تدمير الآلة.

مباشرة، تنوقلت الأوامر بين فرسان الرهبانيات القريبة من المكان، إلا أن فرسان «قلعة رباح»

كانوا السباقين إلى الوصول للعدو.

- هيا من أجل الرب، سيدنا! - سُمعت هتافات الفرسان، تغطي عليها أصوات حوافر الخيل.

من خيمته طلب «فرناندو الثالث» أن يأتوه بفرسه، حتى إذا امتطاه أصبحت زاوية الرؤية لديه أوسع وأجود. كان «البياسي» بجانبه يشاهد أيضا القتال. برانيس وأثواب بيضاء فوق الدروع، وتَجَافِيفُ جياد من ذات اللون، وصلبان سوداء منتهية بورود السوسن... هناك كان مقاومو «شلبطرة» الشرسون يقاتلون ضد الكفرة المسلمين تحت راية ملك قشتالة... ولكم كانت رغبة «فرناندو» شديدة في تلك الآونة في أن يشارك هؤلاء الرجال ملحمتهم، يعدو على فرسه بينهم، في اتجاه المحمديين وقد غمرته حُمَيا القتال.

- ليكن قضاء الرب! - صرخ «مرتين فرناندث دي بُرغش» بينما كان يغرس رأس حربته في أضلاع أحد فرسان «قيجاطة» الذي ترجل، وأخذ في قطع أحد الحبال.

أضاع الرباحي رمحه خلال الهجوم، وسرعان ما أخرج سيفه من غمده. كان زملاؤه قد سحقوا الزمرة المسلمة، وجعلوا آخرين يطلقون سيقانهم للريح. مباشرة انطلق رجال كتائب «برغش» و«بسكاية» في أعقاب الفارين. في حين عاد الرباحيون المنظمون إلى جوار رئيسهم «المايسطري».

للتو، بدأ رجال الملك في إصلاح الآلة التي عادت

سريعا إلى إطلاق قذائفها على نطاق البلدة الرث القديم، وسرعان ما بدأ السور يتداعى من مواضع كثيرة.

وفي فجر اليوم الثالث ظهرت على السور ثلاث فتحات. فاجتمع «فرناندو الثالث» برؤساء الجيش، ورأوا جميعا أن يكون الهجوم بواسطة ثلاث مجموعات. أعطى الملك الأوامر، وبدأت الأعلام تتحرك. كان عدد المدافعين قليلا جدا بالمقارنة مع المهاجمين، فلم يخامر القشتاليين شك في أن المدينة ستسقط في أيديهم.

تقدم «مرتين» مع الرباحيين، ودخل معهم من الباب الرئيس للبلدة. كانت الدروب فارغة، والحامية لجأت إلى القصبة. عدد كبير من السكان كانوا يركضون باتجاه باب «كاثورلا» غير أن الفرسان القشتاليين الكامنين في أهم دروب وأزقة البلدة فاجأوهم على حين غرة، فأسروهم واستولوا على أملاكهم لإضافتها إلى ما جمعوه من غنائم. أمام هذا الوضع أمر الحاكم برفع الأعلام البيضاء علامة على الاستسلام، غير أن الأوان كان قد فات. كانت أوامر الملك أسر سكان البلدة وهدم أكثر ما يمكن من دور، في عرض للقوة، وإنذار للمسلمين بأن «قيجاطة» **Quesada** قد انتهت ولن يسمح بإعمارها ثانية.

في كل الزوايا كانت تسمع أصوات وأنات المهزومين. كان رجال «فرناندو الثالث» يجوبون الشوارع والأزقة وهم ينهبون ويعيثون فسادا في كل زاوية هدما وسلبا وقتلا. وبعد حين حشد النصارى المسلمينَ أفواجا خارج المدينة، وشرعوا

إما يفاوضونهم بخصوص إفتكاكهم، وإما أنهم كانوا يعرضونهم على تجار النخاسة ويتوافقون معهم على ثمن اقتنائهم. في خضم ذلك، كان «مرتين»، وفرسان «قلعة رباح» يحرصون على القيام بمهمتهم باعتبارهم حراسا على المثل والقيم. ومع ذلك، فإن الفوضى التي عادة ما تصاحب النهب والسلب أدت إلى خروج الوضع عن السيطرة. فأطلق بعض الرجال العنان لأكثر غرائزهم انحطاطا.

من معسكره، كان «فرناندو الثالث» يحدق من بعيد في طوابير من الرجال كانت تدخل المدينة وتخرج منها محملة بكل ما وسعها من أنواع الممتلكات النفيسة. ولم يتوقف هذا العرض إلا عند منتصف النهار، وحينما تحولت المدينة إلى هيكل فارغ، أمر الملك بهدم الأسوار، وإشعال النار في كل ما تبقى. فحفرت الحفر حول محيط «قيجاطة» وأشعلت النيران، وما هي إلا ساعة حتى كانت النار قد أتت على كل شيء.

«هكذا أريد أن أنقي أرض المسيحيين القدماء من رجس المسلمين... بالنار». مر بخاطر «فرناندو الثالث» حينما رأى أعمدة الدخان متصاعدة من المدينة المسلمة.(26)

كان «البيَّاسي» يحدق بأعصاب هادئة، وجوارح ساكنة في مئذنة أحد المساجد، وقد أخذت تهتز فاقدة أساساتها بفعل الحفريات التي قام بها الجند القشتالي.

عاد «مرتين» إلى جنب رئيسه «المايسطري»

ليقدم له تقريره. كان الطبع الرصين والسلوك المنضبط لهذا الفارس قد أهلاه ليغنم ثقة الرئيس الجديد لرهبانية «قلعة رباح».

ـ لا يخلو جيش من السفلة والأوغاد. لقد قبضنا على عدد منهم. وأظن أن عدالة الملك ستكون حليمة، متساهلة معهم.

ـ إنه زمن الحرب يا «مرتين»، إن الرجال يتصرفون، والرب هو من يحاكمهم. كنا في حاجة إلى ملك مثل «فرناندو» ثابت العزم، قوي الإرادة.

ـ فليهبه الرب القوة الكافية ليواصل المسيرة الذي بدأها اليوم.

***

أرجونة Arjona. خريف 1224

كان «يوسف» منهمكا في تنظيف الأخاديد، وبيده ماعون «أبي كَفٍّ» almocafre، المِعْزَق المستخدم في تنظيف الأرض والقنوات من الأعشاب الضارة، والأشواك التي تمنع جريان الماء بسلاسة، في حين كان «محمد» يعمل قريبا منه على استخراج الماء من البئر.

ـ سأضطر إلى تركيب ناعورة، إن مساحة الأراضي أصبحت أكثرَ اتساعا.

ـ لا بد من توسعة فم البئر ـ ارتأى «ابن الأحمر»، ـ سيكلفك ذلك بعض المال، غير أنك ستستعيده سريعا. لقد رأيت الناعورة التي ركبها في «أندوجر» بنو سليم. يُجرون الماءَ إلى إحدى البرك، حيث يتجمع، ثم يسهل عليهم بعد ذلك السقي

متى شاؤوا.

- حقا، يا ابني، أحسب أن الوقت قد حان لذلك.
- نطق بالعبارة ثم لاذ بالصمت لفترة قصيرة
- الحقيقة، قد أزفت ساعة التفكير في أشياء كثيرة. ألا ترى ذلك يا «محمد»؟

- أجل، أبي... - حدس «محمد» الوجهة التي يريدها والده للحديث.

- «عائشة» هي بنت عمك، وقد مرت سنوات وهم يهيئونها لك. وليست هناك أخرى أفضل منها.

- ليس الأمر رهينا بها، أنت تعرف ذلك.

- كما أن الأمر لا يخصك أنت وحدك. ابنتاك ليس لهما أم، وهما تحت مسؤوليتك. - عَجَزَ «محمد» عن الجواب. - مرت خمس سنوات، وحان وقت إعادة بناء حياتك.

أفرغ «ابن الأحمر» السطل، ثم أسنده إلى خرزة البئر، قبل أن يُنشِّف العرق، وهو يتنهد تنهيدة عميقة.

- أعرف ذلك يا أبتاه. امنحني فسحة أشهر لأفكر في الأمر.

لم يعد الوالد وولده إلى الحديث عن هذا الموضوع مرة أخرى. وشعر الشاب «النصري» كيف أن سَوْرَةً من الحزن قد غمرته على حين غرة، فقضى يومه حزينا كئيبا. كان موت «فرح» ما زال يطارده في أحلامه، وفي سكونه، كما لو أنه شبح لجوج، ليس مرئيا، ولكنه دائم الحضور.

***

حدود قشتالة مع الأندلس. يونيو 1225

ـ من جديد نلتقي هنا ـ قال «فرناندو الثالث» لـ «البَياسي». كان الملكان مصحوبين بأخلص رجال دولتيهما. فكما حصل في المرة الماضية، اتفق العاهلان على اللقاء في «ممر المورادال».

كانت «قشتالة» قد تجاوزت محنها الداخلية، وشرعت في جني الثمار، خاصة وأن المحاصيل غدت وفيرة، والمجاعةَ التي دامت سنوات انتهت أخيرا. وأما يد الملك فأصبحت طويلة تصل إلى كل زاوية، وجنده الأقوياء ذوو العدد والعدة يتطلعون في حرص وجشع إلى المغانم التي تنتظرهم وراء الحدود مع الأندلس. فَلَكَمْ يَنطبِقُ على هذا الوضع المريح ما قالته «برنگيلا» ذات يوم لابنها «فرناندو»:

لقد حانت ساعتك يا بني، لتضطلع بواجبك المقدس.

كانت حملة السنة الماضية قد انتهت بمغانم عظيمة. فإلى جانب غزوة «قيجاطة» **Quesada**، تعرضت بلدات إسلامية أخرى للنهب والتدمير. وكان «فرناندو الثالث» قد أمر، حينما اختتمت صولاته العسكرية بالأندلس، بإبقاء فرقة صغيرة من الجند القشتالي في «بَيَّاسة» **Baeza** تحسبا لأي هجوم من جانب الخليفة «العادل» على البلدة انطلاقا من «إشبيلية»، خاصة، وأن العاهل القشتالي كان قد قدر بأن الموحدي عازم، دون شك، على تجهيز حملة ضد مرتع «البياسي».

وفعلا، تحقق التوقع، وبعث «العادل» أخاه، «أبا العلاء»، [أبا العُلى إدريس بن المنصور] على رأس جيش لقتال الخارج عليه، غير أن «أبا العلاء» ما إن رأى جموع القشتاليين والبياسيين حتى أمر بالانسحاب(27). ومع فشل هذه الحملة، فقد بدا لـ «البيَّاسي» واضحا أنه دون مساندة الملك القشتالي، لن تقوم له قائمة، فكان ذلك عاملا آخر زاد من تعزيز وفائه وإخلاصه لـ «فرناندو الثالث».

ـ حقا، غير أن لقاء اليوم هو لقاء تابع بسيده ـ أجاب المسلم، وترجم الترجمان.

ترجل ملك «بياسة»، واقترب من «فرناندو». هذا أيضا نزل من فرسه ليكون قريبا أكثر من «البياسي». وسرعان ما شبك الأمير المسلم على يديه مجتمعتين، ثم مدهما أمام القشتالي، فما لبث «فرناندو» أن شد عليهما بين يديه.

ـ أعدك أن أكون رجُلَكَ، وأتعهد بأن أُخْلِصَ لك الطاعةَ والوَفاء. ـ قال البياسي العبارة باللغة الرومانثية. حفظها، دون شك، لهذه المناسبة الجليلة.

وكانت قد حررت وثيقة بلغتي الحدود العربية والرومانثية وسرعان ما وَقَّعَ الملكان عليها. وبذلك باتت بنود الاتفاق ممهورة مختومة. وكما لا يخفى كان هذا العَقْدُ يعني لـ «فرناندو» أن جزءا لا بأس به من «الأندلس» قد أصبح تحت مراقبته.

ـ سيدي، إن مملكتي محاطة بالأعداء، المخلصين

للخليفة المزيف. وأنا في حاجة إلى عدد أكبر من الرجال حتى أتمكن من مجابهتهم لصالح «بياسة» و«قشتالة». ـ كان «البياسي» يعلن بذلك عن أول طلب مساعدة، باعتباره تابعا للملك القشتالي.

أعمل «فرناندو الثالث» فكره في الموضوع، ثم تحول إلى مستشاريه يطلب رأيهم. لحظة راح «لوپي دياث دي آرو»، حامل اللواء، يحدث «فرناندو»، استمر الحوار لدقائق، بعدها وافق القشتالي راضيا مسرورا.

ـ سلم لنا «أَنْدُوجَر»، و«أَرْجُونة»، و«مَرْتُشْ»، وبذلك سنخلق حدودا غير قابلة للاختراق، وهو ما سيضمن حمايتك.

جاء دور «البياسي» في الكلام. فكر في العرض، ثم حاور رجاله وناقشهم في الأمر قبل أن يجيب:

ـ يمكننا تسليمكم «أندوجر» و«مرتش». لأنهما تابعتان لنا، وستخضعان لأمري. أما «أرجونة»، فلا، لأننا لا نستطيع أن نسلم ما ليس لنا. إنها تخلص الولاء لـ «العادل». ـ وافق ملك «قشتالة» بعد أن سمع الترجمة ـ غير أن هذا لا يحل المسألة من جهة الشرق.

ـ سنهجم على أراضي عدونا المشترك من «أندوجر» و«مرتش». إن الخليفة له ثلاثة قلوب هنا: «جيَّان»، و«إشبيلية»، و«مُرْسِية» ـ في هذه المرة لم يحتج «فرناندو الثالث» إلى استشارة أحد ليجيب ـ سنعاقب المدن الثلاث، خلال هذه السنة بالذات، إذا شاء الرب، ووهبنا القوة.

ابتسم «البياسي»، وهو مسرور بالعرض. فَقَدَ

بلدتين مُهِمَّتين، غير أنه بدون القشتاليين لا يملك شيئا. كان يفضل أن يتنازل عن نصف الأندلس على أن يُبْتَلَعَ من قبل «العادل».

أراد «فرناندو الثالث» أن يستغل ما تبقى من ضوء النهار في تحقيق مشاريعه. فأمر للتو بعد نهاية اللقاء مع «البياسي» الاستمرار في السير نحو الجنوب ليبدأ حملته على الندلس. كان الرجل قد عول على ضرب «جيان» أولا، لأنها القلب الأقرب إلى الجيش القشتالي من القلوب الثلاثة التي يملكها الخليفة الموحدي.

***

**أرجونة Arjona. صيف 1225**

- لا يبدو عليه أنه في غاية الابتهاج.

- لا، ليس مسرورا، يا «أشقيلولة». حقا، تمكنت في الأخير أن أقنعه، فعلت هذا من أجل مصلحة الصبيتين. - قال «يوسف».

إلى غاية الصحن كان يصل صخب الرجال وهم يحتفلون بالزفاف في «المجلس». بين الحين والآخر كان، أيضا، يطرق سمع «يوسف» و«أشقيلولة»، صوت القينة العذب وهي تصدح بأغاني العشق والغرام. وكان «النصري» قد تعاقد مع المرأة للمناسبة.

- لن ينساها أبدا، غير أنه سيتعلم كيف يستعيد عافيته. - علق «النِّبْلي». - لا تتسرع، إن السنوات، كما لا يخفى عليك، دواء كفيل لشفاء مثل هذه الأشياء.

ـ تُعلم الإنسانَ كيف يحيا مع الألم.

ـ «عائشة» فتاة جميلة ومهذبة، حرصت زوجة أخيك على تربيتها، وتلقينها المثل والقيم، يكفي أن تراها. ـ هز «النصري» رأسه موافقا. وكان والد «عائشة»، أخو «يوسف»، قد توفي منذ سنوات. ـ لا شك أنها سَتُسْعِد ابنك.

ـ أسأل الله أن يتحقق قولك، فـ«محمد» في حاجة إلى ذلك.

بادر «يوسف» بالعودة إلى «المجلس»، غير أن «أشقيلولة» سرعان ما استوقفه للحظة.

ـ توصلت بأخبار. أمير «بياسة» كان في «إشبيلية» صحبة أصدقائه القشتاليين، والظاهر أنه تغلب على جند الخليفة بـ «إشبيلية» في المعركة التي جرت بينهما، إلى جانب أن عددا من قرى الكوُرة قد دخلت في طاعة «البياسي» خوفا من انتقامه. ذات الشيء حصل في «قرطبة»، إذ يبدو أنها فضلت أن تكون بجانب حلفاء «قشتالة».

أما في منطقة «جيان» فقد استعرض «فرناندو الثالث» قوته وحمل على الناس بها. وبالرغم من أن «جيَّان» قد صمدت أمام الحصار، إلا أن القوات القشتالية مُعَضَّدَةً بقوات «البياسي» تمكنت من بسط سيطرتها على عدد من البلدات المحيطة، واجتاحت عددا آخر من الحصون، بل إنها اكتسحت مناطق واسعة من «فحص غرناطة».

ـ «قشتالة»، دائما «قشتالة». حينما نامت كنا في سلام، لكن الآن... يخيفني هذا الملك الشاب.

ـ والأسباب كثيرة لتفكر كذلك، يا «يوسف».

فقد تعززت حاميتا «مَرْتُش» و«أنْدُوجَرْ» بقوات جديدة. عشرات من الفرسان النصارى استولوا على القَصَبَتين. وعدد كبير من إخواننا المسلمين غادروا ديارهم ورحلوا ـ توقف «أشقيلولة» عن الكلام لحظة ثم استطرد ـ بل لوحظ أن مستوطنين قشتاليين شرعوا في تعمير المناطق التي خلت من سكانها المسلمين.

اتسعت عينا «يوسف». لم يكن يصدق أن النصارى أصبحوا على مقربة من «أرجونة». يتربصون بها كأنهم النسور: من «أنْدوجَر» في الشمال، ومن «مَرْتُش» في الجنوب.

ـ لقد سلمها لهم اللعين، لقد سلمها لهم اللعين. ـ وضع «يوسف» يده على رأسه. ـ لقد بات هجومهم علينا مسألة وقت فقط... هل ما زلنا أوفياء للخليفة «العادل»؟

ـ أجل، يبدو أننا ما زلنا مناصرين له. ـ أجاب «النبلي» ـ فالحاكم لم يغير حزبه، وهو ما يحولنا إلى هدف للقشتاليين و«البياسي».

ـ ليحفظنا الله ـ دعا «يوسف» ربه دون أن تخفي نبرةُ صوته قلقَه، وانشغالَ باله. أطلت «كريمة» من المطبخ. ـ معذرة، «أشقيلولة»، علي أن أهتم بالمدعوين. نتحدث لاحقا. ليس يومنا لذكر الهموم ولأحزان.

دخل الرجلان من جديد إلى المجلس، فعملت الموسيقى وبهجة المناسبة على نسيان الأخبار السيئة، ولو إلى حين.

***

نزع «محمد» ملابسه، واستلقى على الفراش دون أن يتغطى. كانت الحرارة خانقة، لم يخفف من الإحساس بها ولو هبوطُ الليل. وكانت «عائشة» التي أكملت لتوها التاسعة عشرة، عشر سنوات أقل من زوجها، تلبس غِلالةً رقيقةً تَشِفُّ عن جسمها الصغير. جلست الفتاة تمشط شعرها تحت ضياء القمر المتسلل من النافذة المُوَارَبة، في حين كان الزوج ينظر إليها في صمت، مضطربَ النفس، لاختلاط المشاعر في صدره.

تركت العروس المشط ثم استدارت. تأملت للحظات جسم «محمد»، وعضلاته القوية، وبشرته السمراء بفعل الشمس. فاختلجت أنفاسُها، وسارت في بطء إلى الفراش. استلقت وهي تنتظر.

- كان يوما متعبا، استريحي. - قال «ابن الأحمر» في همس.

استدار الرجل، وأعطى ظهره لزوجته لينام. سَمع نشيج العروس، وهي تحاول أن تخفي صوت بكائها حتى لا تثير انتباهه. أحس «محمد» بأنه مذنب في حق الفتاة. غير أنه لم يتراجع. كان يحس أنه لا يستطيع في تلك الليلة إتمام الزواج والدخول بزوجته.

***

«وادي الرقوط» Valle de Ricote، قريبا من «مرسية». خريف 1225

- شَلْبَطَرَّة؟ هل أنت متأكد؟ - سأل «العُشتي»، وهو يحرك ساعديه.

ـ ذلك ما يتداوله الناس في الرَّقُوط. وليس «شلبطرة» وحدها، بل، سَلَّمَ، أيضا، «برج الحمة» Bugalimar، و Capilla «قَبَالَة» أيضا ـ أجاب «ابن هود».

كان البَيّاسي قد سلم، حسب آخر الأنباء، القلاع الثلاث لملك «قشتالة»، كضمان على اتفاقاته معه، ودخوله في طاعته. إضافة إلى أن قلعة «بَيَّاسَة»، هي، أيضا، أصبحت خاضعة لرقابة «مايسطري» «قلعة رباح». ولم يكن «الغُشْتِي» يحمل أي فكرة عن موقع «برج الحمة» و«قَبَالَة»، أما «شَلْبَطَرَّة»، فقد كانت شهيرة وتمثل رمزا للأندلس.

ـ هذا النذل غرز الشر في قلب أراضينا.

ـ إذا كان الخليفة سيئا فـ «البياسي» أسوأ منه. لا وجود لموحدي جيد. ـ حكم «ابن هود» على جميع الموحدين جازما. ـ واللّٰهِ لَأَقْطَعَنَّ رؤوسَهم جميعا احتراما لهذه الأرض المقدسة التي يلوثونها ببدعهم.

على الصخور، عند مدخل «الوادي»، كان الصديقان يلاحظان طلائع الجيش القشتالي وهي تتقدم مُجدةً في السير. كان معظمُ الجيش النصراني قد عسكر في الشمال الغربي، في حين كان بعض الفرسان يتفقدون الميدان حتى يقعوا على المسار الأنسب. بتلك الحملة كان «فرناندو الثالث» يرغب في معاقبة «مرسية» الوفية للخليفة «العادل».

كان «ابن هود» قد غادر صفوف الموحدين

بدعوى الاهتمام بحقوله، غير أنه في الواقع كان قد انضم إلى «الغُشتي» ورجال الجبل، حيث يقضي فترات طويلة بينهم، بينما تبقى زوجته وابنه تحت رعاية أقربائه. وكان عدد من الأندلسيين الذين كانوا يعملون في كتائب الخليفة قد ساروا على نهج «ابن هود»، فتخلوا عن العمل في الجيش الموحدي، وانخرطوا، مع رجال الجبال، في تنظيم الغارات ضد ضيعات المسيحيين على طول الحدود.

اختفى رجال «الغُشتي» عن الأنظار، وراء الصخور، وانتظروا إلى أن وصلت الطليعة إلى نفس الارتفاع الذي تموضع فيه «المغاورون» من رجال «الغشتي». كانت المجموعة المسيحية مكونة من خمسة عشر مقاتلا في كامل العدة. وما هي إلا لحظة حتى أصدر «ان هود» الأمر بدحرجة الصخور نحو الطريق، فقطعت السبيل على النصارى الذين تفرقوا على الإثر، وسقط منهم أرضا ثلاثة فرسان.

- كمين! - دوى صوت قائدهم كالرعد.

في الحين، أطل من بين الصخور قواسون مسلمون وشرعوا في رمي الفصيل النصراني بالنبال. وهو ما استغله «ابن هود» وانقض برجاله كالصاعقة على القشتاليين.

- الله أكبر! - صاح الأندلسيون. وكانت فئة منهم لا تلبس الدروع، غير أن المباغتة، والعدد، والارتفاع، كل ذلك لعب في صالح المسلمين، فتمكنوا من تبديد الفرسان النصارى، فقتلوا سبعة منهم، وأجبروا الآخرين على الفرار.

ـ هذا ما ينتظركم، من هنا إلى «الرَّقوط»! ـ صاح «ابن هود» بالرومانثية وهو مصاب بطعنة حربة في كتفه الأيسر. ـ إن الوادي محمي محروس!

حمل القشتاليون» الإنذار على محمل الجد. فغير جيش «فرناندو الثالث» وجهة سيره، وسار بمحاذاة الوادي حتى يتسنى له نهب أراضي أخرى قريبة من «مرسية».

وبذلك تمكنت زمرة المغاورين من ساكني الجبال من غنم أعداد من قطع السلاح والجياد. كما استطاع «ابن هود» أن ينتزع من الطليعة القشتالية لواءَها. وسار به في كبرياء عبر الوادي، فخورا بنصره. وفي سرعة شاع بين الناس ما حققه «الرقوطي» من ظفر، فخرج المئات من أهالي المنطقة لاستقبال هؤلاء الأبطال بالهتافات والتهاليل.

كان ابن هود يسير والألم يعصره إلا أنه أبقى الراية مرفوعة.

ـ يحبونك ـ قال له «الغُشتي» في صوت خفيض.

ـ يحبوننا جميعا.

ـ لا تكن ساذجا. أنت وجه المجموعة. بالنسبة لهم أنت هو العلم. ـ تطلع «ابن هود» إلى «الغشتي» وهو لا يعرف بما سيجيبه. ـ لا تَظُنَّ أنني أشعر بالغيرة. فما دام حقي في الغنيمة مضمون لا يهمني أن ننسب عصابتنا إلى اسمك.

ضحك الاثنان. كان «ابن هود الجُذامي» يعرف أن صديقه لا يصبو إلى المجد. وهذا هو سبب

اشتغالهما معا في وئام: يهاجمان الأراضي المسيحية، ويستولون على غنائم معتبرة، وتذيع شهرتهم بين الناس. وفي النهاية، كان الجميع يخرج رابحا.

***

أرجونة Arjona. شتاء 1226

كان «مرتين فرناندث دي برغش» يزيد من حذره كلما اقترب أكثر من مَرْجِ «أرجونة». كان فرسانه العشرة في منتهى اليقظة، منتبهين لأحوال الطريق، ولا يغفلون عن مراقبة كل ما يحيط بهم.

كان للمسيحين جبهات عدة مفتوحة في الأندلس. فـ «قَبَالَة»، كانت إحدى البلدات التي سلمها «البياسي» لسيده الجديد. غير أن البلدة ثارت ولم تقبل بالخضوع للنصراني، في لحظة كان «العادل» قد غادر إلى المغرب، وترك أخاه «أبا العلاء»، والي «إشبيلية» نائبا عنه بالأندلس إلى غاية عودته من أفريقيا.

هاجم «أبو العلاء» «البياسي» حتى يخفف من الضغط القشتالي على Capilla «قَبالة». واستطاع أن ينتصر عليه في معركة ميدانية. في تلك اللحظة كان «مايسطري» فرسان «قلعة رباح» مستقرا بـ «قصبة بياسة»، استقر بها منذ أن وضعها البياسي تحت السلطة المباشرة لـ «فرناندو الثالث»، ضمانةً للاتفاقات التي أمضاها هذا مع الأمير المسلم. ومن هناك، كان رئيس «قلعة رباح» يسير عمليات رهبانيته.

بعث «المايسطري» «مرتين» إلى «أندوجر» على

رأس فصيلة من الفرسان في مهمة المساعدة في الدفاع عن البلدة وعن سكانها، وأيضا القيام بعمليات تخريب ونهب في الأراضي التي كانت وفية للخليفة «العادل». وكان قد قر عزمه على أن تُجَهَّزَ الغارة الأولى ضد «أرجونة». المكان الذي انطلق منه الثغريون الذين قتلوا عمه في «برج الحمة».

غادرت فصيلة الفرسان قاعدتها قبيل الفجر بقليل، في جو شديد البرودة. والرجال متدثرون بمعاطفهم، اتقاء البرد القارص، ويضعون أياديهم على أجسام أحصنتهم طلبا للدفء.

بعد فترة دخل الرجال إلى حقول القمح والحبوب، وهم يمرون بين الفينة والأخرى بقرى مهجورة. بعد قطعهم مسافة، صادفوا معصرة زيتون تعمل بأداء كامل، وما أن رآهم العمال حتى أطلقوا سيقانهم للريح. وسرعان ما أحرق الفرسان المُنْشَأَة، قبل أن يستمروا في تقدمهم، وقد ازدادوا حيطة وحذرا. كان الدور بعد ذلك على ثلاثة بساتين أخرى، إذ أشعلوا النار فيها، وأتوا على ما بها من غلة، ثم قصدوا حقلَ كروم عاثوا فيه فسادا ونسفا. وحتى ينهي «مرتين» عمله بشكل جيد قاد رجاله إلى بقعة صغيرة بها شجر زيتون، ثم أمر بإضرام النار بالمكان، فما لبثت الشعلات المتقدة أن لحقت بالأشجار، فشَبَّتِ النار في أوراقها سريعا، فأتى اللهب على البقعة وحولها إلى خراب.

قريبا من المكان كانت ثُلة من الشبان الأرجونيين منهمكين في صيد الطيور، ووضع الفخاخ لها.

ـ يا هذا! ـ صاح أحد الشباب ـ اتركوا عنكم أشجار الزيتون تلك، إنها في ملك أسرتي! ـ هدأ «مرتين» رجاله، وحثهم على أن يستمروا في مهمتهم.

في الحين أخذ الشاب الذي لم يكمل بعد العشرين من عمره يعدو نحو الفرسان وهو يحمل عصا. وصل الشاب قريبا من «مرتين» ثم صفع متن الفرس.

ـ ارحلوا! هذه ليست أراضيكم ـ قال باللغة الرومانثية.

ـ التزم الهدوء يا فتى سنرحل بعد قليل.

انطبعت على وجه الفارس القشتالي تكشيرة سخرية واستخفاف، وهو ما أثار الشاب الأندلسي. كان الفتيان الآخرون يشاهدون هذا الموقف عن بعد، دون أن يجرؤوا على التدخل. وبغتة، ودون تفكير رفع الفتى العصا، وضرب بها عجيزة الفرس. على التو شَبَّ الحصان وكاد الفارس يسقط أرضا. في الحين كانت ردة فعل الفارس غريزية حيث أسند مقبض الحربة في جنبه ثم غرز رأس القناة الحادة في صدر الشاب. سقط على التو الأندلسي جثة هامدة على كتل التراب المنتثرة في المكان.

ـ «فرج»! ـ صرخ أصحاب الشاب من شدة الفزع، ثم أطلقوا سيقانهم للريح نحو «أرجونة».

ـ هيا غادروا! ـ صاح «مرتين فرناندث دي برغش».

بادر الفرسان بالانسحاب جريا. كان «مرتين» يسير وهو يصلي. ثم قرر أن يصوم يومين حتى يسكت صوت ضميره بسبب قتله للفتى.

حينما وصل الفرسان إلى «أندوجر» استقبلهم المستوطنون بالتهليل والترحاب، في حين كان المسلمون القلائل الذين لم يغادروا البلدة ينظرون إليهم في خشية وارتياب.

ما من يوم كان يمر على «أرجونة» إلا وازدادت ضعفا. إن الفاكهة تنضج، وفي يوما ما سيحين أوان قطافها.

***

كانت عيناه محمرتين. شعر «محمد» بمقتل «فرج» كما لو كانت طعنة أخرى من ذلك القدر المشؤوم الذي يلح على طعنه المرة تلو الأخرى. كانت الأسرة جميعها محطمة القلب، مكسورة الخاطر. انخرط «يوسف» في حزن عميق لم يعد يعرف بعده طعما للنوم، فكان يقضي ليله بين الصلاة والبكاء. في حين وجد «إسماعيل» عزاءه في العمل، وفي إيجاد المبررات ليستمر نشطا فاعلا. أما «كريمة»، التي كانت بمثابة الأم، فلم تطق صبرا، ولا وجدت عزاء، فكانت كلما ذكرت «فرجا» تجهش بالبكاء، وتضرب صدرها من شدة الحنق.

قبَّل «ابن الأحمر» ابنتيه في الجبين، وزوجته في الثغر. كانت العلاقة بين «النصري» وقرينته تزداد قُربا بالتدريج. وقد احترمت «عائشة» في صبر وأناة هذا السياق، وبذلك تمكن الاثنان، رويدا رويدا، من إيجاد الحميمية الضرورية للحفاظ على لحمة الزواج. ودع «محمد» أهله وخرج إلى الشارع. عَبَرَ سور القصبة، ثم نزل عَبْرَ المنحدرات

التي توصل إلى المدينة في اتجاه البزار، وسوق الحدادين. كانت البلدة تعيش لحظات حالكة من القلق والغم. فلم يكن لحلقات الثرثارين من موضوع سوى الحديث عن تسليم النصارى «مرتُش» و«أندوجر»، الرمحين اللذين كانا مصوبين نحو «أرجونة» وساكنتها.

نادى «النصري» بأعلى صوته من أحد أبواب ورشة الحدادة إلى أن برز أحد الفتيان. أزال «محمد» القلادة التي كانت بعنقه، ثم فك منها القطعة النقدية الرومانية، وسلمها للفتى، بعد ذلك أخرج شيئا من كيس صغير، وحركه أمام ناظري الغلام الذي كان يتتبع حركات «ابن الأحمر» في انتباه.

ـ أريدك أن تذيب هذا على وجه العملة. ـ كان هذا الشيء الخصلةَ التي قصها من شعر «فرح».

حدق الغلام في القطعة من وجهيها ثم قال لـ «محمد».

ـ يمكننا أن نضع على أحد وجهي العملة صُفَيْحةً من نفس الحجم، ثم نقوم بعد ذلك بإذابة الشفير. ـ وافق «محمد» ـ من أي جهة نفعل ذلك؟

ـ من الوجه المنقوش عليه صورة المحراث. ـ أجاب «محمد» لتوه.

ـ حسنا. يمكنك المرور لاستلامها مساء.

«انتهينا من الأرض، لا خيار بعد اليوم سوى الحرب» فكر «محمد بن الأحمر»، وهو في الطريق إلى منية جده.

***

امتطى «محمد» صهوة «برميجو»، ثم أمسك بعنان فرس أخيه القتيل، وعاد مصحوبا به إلى الدار.

ـ اتبعني يا «إسماعيل». قد حان الوقت لنفعل شيئا. ـ كان ذلك كل ما قاله لأخيه. كانت هذه الفكرة تدور بخَلَده منذ سنوات، والآن قرر إنجازها.

لبس الأخوان «الجمبزان».

ـ إلى أين ذاهبان؟ ماذا حصل؟ ـ خرج «يوسف» إلى الفناء وقد أنذر خطرا وهو يسمع صوت الحديد.

ـ لا شيء أبتاه. سَنُعَبِّئُ الأرجونيين. فقد آن الأوان لحمل السلاح.

تطلع «يوسف» إلى «إسماعيل» في انتظار جواب أكثر وضوحا، غير أن هذا لم يزد عن هز كتفيه.

ـ حسنا، اترُكاني، إذن، أن أقوم بإلباسكما الحديد.

دَرَّعَ «يوسف» ولديه، قطعة قطعة. ثم أنهى الشابان العملية بتعليق كل منهما سيفه في الحزام، قبل أن يمسكا، ختاما، بالحربتين ذاتي الأُذَيْنَين. مباشرة خرج الثغريان راكبين فرسيهما، وشرعا في الجولان بشوارع «أرجونة».

ـ «فرج» يرافقنا يا أخي. ـ قال «محمد».

سارا على مهل عبر أزقة البلدة، وبموازاة مرورهما كان الناس يخرجون من دورهم مستغربين.

- هل حان الوقت لتشرح لي هذا؟ - سأل «إسماعيل».

- سأجمع ما استطعت من أهل البلدة في المسجد. سأحدثهم.

كان «محمد» واثقا من نفسه، مقتنعا بما سيقدم عليه، وتصميمه على ما عزم عليه سرعان ما انتقل إلى أخيه. كان مقتل «فرج» قد ألهب مشاعر «النصري»، وأشعل نارا في دواخله.

- ماذا حصل؟ - سأل أحدهم من أهل البلدة.

- اتبعنا إلى الجامع، أريد أن أحدثكم في أمر. - أجاب «محمد».

شاع الخبر بين الناس، وفي الحال، امتلأت الشوارع بالفضوليين، ومحبي الاستطلاع. ومر الناس حِذاء «مصلى الخلاص» حيث كان «عمر» يدردش في مدخله مع بعض أتباعه. ابتسم وهو يرى الشابين. وما لبث أن انضاف إلى من كان معهما.

كان عدد من صَحِبَ الشابين يفوق الثلاثمائة حينما دخل الحشد إلى صحن المسجد. وهو ما ارتاع له الإمام، وكان حينها يُحفظ القرآنَ لبعض الأطفال من الأحياء الفقيرة. على الإثر طلب «ابن الأحمر» منه الإذن بالكلام، فاستجاب الرجل سريعا لطلب الشاب وهو ما زال في ذهوله. لم يترجل النصري، وذلك حتى يصل صوته إلى جميع أركان المُنشأة الدينية، ومن بها من جمهور، ومن أقرباء، إلى جانب «أحمد بن اسحق»، و«هادي»، والقاضي، بل وحتى حاكم «أرجونة».

ـ إن طرقة واحدة من مطرقة الحداد لا تصنع سيفا ـ افتتح خطابه بصوت حازم صمت له الناس وسكنت همساتهم ـ بل يحتاج نحته إلى ضربات حتى يستوي شكله. إن الكفار يعاقبوننا، ونحن إلى حد الساعة نقاوم، غير أنه إلى متى ستدوم هذه المقاومة. بل إلى متى سنبقى ساكنين، بينما هم يضربوننا بالعصى إلى أن نخضع لهم؟

ـ لا! ـ ارتفعت بعض الأصوات.

ـ هذه أرض أجدادنا، وأجداد أجدادنا. إن واجبنا المقدس أن ننافح عنها، وندافع عن حدودها. إن الخليفة «العادل» ذهب إلى مراكش، في حين متمرد «بياسة» لا يتوقف عن إهداء المسيحيين القطعة تلو القطعة من الأندلس. ـ عند هذه النقطة أعار الحاكم انتباهه أكثر إلى كلام «ابن الأحمر». فقد كان الرجل ممثل الخليفة، غير أنه كان يحس بنفسه متخلى عنه من قبل الخصمين، ولا يتلقى منهما أي مساعدة. ـ إن عددا كبيرا من أهل «مرتُش» و«أندوجر» أجبروا على مغادرة ديارهم وحقولهم بسبب تجاوزات السادة الجدد. بعض هؤلاء المغادرين موجودون معنا الآن، ويسمعون كلامي، ويعلمون أن كل ما أقوله صحيح. ـ أشار «محمد» إلى بعض الوجوه الساخطة المستنكرة.

ـ اللعنة على القشتالي وفرسانه من حاملي الصليب! ـ صرخ أحد المَرْتُشيين.

ـ لقد غدونا وحيدين في محنتنا ـ نظر «محمد» في اتجاه الحاكم ـ إننا وحدنا أمام ثلاثة بحور تتلاطم أمواجها بالضبط فوقنا. وأنا لن أبقى

مكتوف اليدين.

ـ وأنا أيضا! ـ صرخت عشرات الأصوات.

ـ لن أتخفى في انتظار أن يصلني ما هو آت في الطريق. لن أترك الإهانات تلاحقني دون انتقام!

ـ لا، لا! ـ رددت الأصوات.

تذكر «محمد» أخاه «فرج» وسقطت دمعتان من عينيه على خديه.

ـ فاجأني بمهارته على الخطابة الحماسية ـ همس «أشقيلولة» في أذن يوسف.

ـ لقد أزفت ساعة حمل السلاح للدفاع على ما هو لنا! ـ استطرد «ابن الأحمر» ـ فليتوقف الحدادون عن صنع المَعَازِق، وليمسك الفلاح بقناته، ولتحرث المرأة الأرض وتزرعها حتى تتيح لزوجها وأبنائها أن يستعدوا للحرب. ـ هز كثير من الحاضرين رؤوسهم موافقين على ما يقوله «النصري». ـ كانت «أرجونة» تتوفر على رباط، فلنبعثه من جديد! هناك، سيتدرب الأرجونيون للدفاع عن أراضيهم، وأعراضهم، بمشيئة الله. ـ ارتفعت ضجة صماء من بين الحاضرين، علامة على اندهاشهم، واتفاقهم مع ما سمعوه. ـ فهأنذا أتواعد معكم للحضور غدا مع الفجر إلى الرباط. فلنبن من جديد الأسوار، ولنحمل مرة أخرى السلاح.

ـ شيخ، شيخ! ـ دعاه الناس، وسرعان ما تحولت نمنمتهم إلى صياح وهتاف.

ـ لم أخطئ حينما توسمت فيك ما توسمت. ـ

حدث «عمر الحسون» نفسه بخصوص «محمد».

انسحب الحاكم دون أن يتدخل، لكن بابتسامة على شفتيه. فإذا تمكن «النصري» من تكوين كتائب للدفاع عن «أرجونة» سيكون هو رابحا.

ـ كان لازما أن يكون هو... إنه يبحث دوما عن المجد. ـ تأفف «عبد الله» وهو بجنب أخيه «إبراهيم». ـ غادر الاثنان الجامع، في حين شرع الحاضرون في التكبير والصلاة على النبي في تنفيس انفعالي يحررهم للحظات من القلق والغم.

***

كان ضوء الصباح يعم المكان من الشرق حينما وصل «محمد» إلى الرباط. كان قد خرج من «أرجونة» قبل أن تفتح الأبواب، غير أنه حين وصوله الرباط القديم أحس ببعض القلق. ربط فرسه «برميجو» عند شجرة لوز، ثم راح يتجول بين الأطلال، وقلادته على قميصه، تتوسطها العملة الحاملة على وجهها شعيرات فرح.

«بين انفعال الخطب، وجدية الفعل هناك مسافة طويلة» دار في خَلَدِ «ابن الأحمر» وهو يتمعن في أطلال المكان. كان تجديد الرباط في حاجة إلى جهد جهيد، وعمل مضن متواصل. كان بالإمكان فقط أن تستغل الأساسات وقواعد الأسوار. بعد أن ابتلعت الأحراش كل الفضاء، ونفذت إلى الغرف والإصطبل، والمصلى والمطعم.

لعل الذين هتفوا باسمه البارحة بالجامع لم يكونوا متأهبين للعمل في هذا الصباح البارد

والرطب. أو ربما كان محكوما عليهم أن يتركوا أنفسهم لقمة سائغة لـ «قشتالة». بعد فترة من شروعه في جولته قرر أن يشرع في تحريك الحجارة ليخفف عن أعصابه. كان قد قضى لحظات وهو يراكم الحجر فوق الحجر، حينما سمع بعض الصخب والضوضاء. خرج من الرباط، ومن بعيد رأى «إسماعيل» وهو على حصانه يتقدم حشدا من الأرجونيين يسيرون وهم يغنون أغاني المنطقة. تمكن «محمد» من عد أربعين رجلا. كثير منهم كان يحمل أدوات العمل، وبعض آخر جاء راكبا على بغال. ارتجل «محمد» وعانق أخاه.

ـ هأنذا جئتك بجيشك. هناك آخرون كثيرون، غير أننا اتفقنا على أن نخصص نوبات عمل حسب الأيام. هذا الرجل هو المعلم البنَّاء [العريف alarife] وسيساعدنا على إقامة المنشآت. ـ أمسك «إسماعيل» بأحد الشباب من كتفيه. كان الشاب قوي البنية، ويحمل أدوات القياس في كيس جلدي.

ـ اللهم إني أشكرك على ما تسخره لنا. ـ لم يتمكن «محمد» من كبح فرحه.

بعد دعائه ربه وشكره أمام الحاضرين، شرع «النصري» ومن معه في العمل.

بدأ المتطوعون في إزالة الحطام والركام عن الرباط، وتنظيفه من الدغل والأحراج. وعند منتصف النهار كانت نسبة كبيرة من المكان قد نظفت. حينها اجتمع العريف بـ «ابن الأحمر» ليطرح عليه بعض المسائل المتعلقة بمشروع الإصلاح.

- يا شيخ، نحتاج المال لنشرع في البناء. إذا واصلنا العمل على هذا الإيقاع، فإن الأرضية ستكون مهيأة للبناء خلال يومين. سنحتاج إلى هاونات، وحجر تبليط، وأعمدة من الخشب، وأبواب، وحصائر... دون الحديث عن الأثاث.

- والأسلحة - أضاف «محمد» - فهمت كلامك بدأنا بتحريك السواعد، والآن جاء دور تحريك الجيوب.

***

انعقد الاجتماع في برج الحاكم. هناك جلس إمام الجامع، والقاضي، وخمسة من فقهاء «أرجونة» الرئيسيين. «أشقيلولة» كان حاضرا مرافقا ابنه ليدعمه.

- بدأنا ورشات البناء في الرباط، ونحتاج تمويلا. أطالب بمداخيل الحُبُس - دخل «محمد» في الموضوع مباشرة دون مقدمات.

- مداخيل الأَحْبَاس انتهت منذ سنوات. حينما دُمِّر الرباط. وأصحاب الأحباس استعادوا أراضيهم لاستغلالها في أغراض أخرى.(28) - شرح الإمام، وهو المكلف الرئيس في التصرف في مال الوقف بأرجونة.

- إذن أعطوني الفائض عن الآخرين.

هز أحد الفقهاء المسنين رأسه بالنفي.

- كلا، - قال الفقيه وهو يزم على شفيته - لا يمكن ألبتة أن تستغل أموال الحبس في غير ما حبست له.

أومأت عدد من الرؤوس بالمصادقة على كلام المسن.

ـ يمكننا أن نكون مرنين بهذا الخصوص. ـ تدخل الحاكم، الذي كان يرغب في تقوية وسائل الدفاع في الحصن.

ـ علينا أن نحترم ما جرى به العمل عند السلف. إن الفائض يكدس ويجمع لحين الحاجة إليه في كبار الأمور. ـ قال أحد الفقهاء الحاضرين.

كان الإمام صامتا، ينظر بين الفينة والأخرى إلى الحاكم بمؤخرة عينيه. كان ينتظر أن يدلي الجميع بآرائهم ويوضحون مواقفهم من النازلة.

ـ وأي حاجة أعظم من هذه؟ أليس الأمر مبررا؟ ـ قال «أشقيلولة».

ـ لا حاجة تبرر الخروج عما قرره السلف الصالح منذ قرون.

... وبذلك دخل المجتمعون في نقاش عقيم حول رأي الفقهاء وأهل السنة في النازلة لم يغن شيئا.

علينا أن نتصف ببعض الاتزان ـ خاطب أخيرا الإمام الحاضرين. ـ إن الدفاع عن الإسلام هو أصلا عمل خيري.

ـ لا، أرفض هذا الكلام. ـ عارض الفقيه المسن وقد وثب من مكانه ـ ثم ماذا يعني أن يأتينا الآن هذا الأمي ليقول لنا ما ينبغي فعله.

بدا واضحا أن معلمي «أرجونة» القدماء ما زالوا ممتعضين من رفض «محمد» الحضور إلى المدرسة

القرآنية حينما كان طفلا. ـ إن الخروج عن السنة يبعدنا عن الطريق المستقيم.

هم «محمد» واقفا ثم قال:

ـ حسنا، قولوا لي أيها العلماء الشيوخ أين ذهبت الآن إيرادات أحباس «أنْدُوجَر»، و«مَرتُش» و«شَلبطرَّة»؟ ـ على الإثر خيم الصمت على القاعة. ـ تثبتوا بما قاله السابقون، ولن يمر عليكم وقت حتى تجدوا تلك الأراضي، وتلك المطاحن والمعاصر يعمل بها الكفار، ومداخيل كل ذلك تمول بها النواقيس التي ستوضع على المآذن.

وافق الإمام بحركة من رأسه.

ـ «محمد» على صواب، سنخصص فائض الإيرادات لبناء الرباط والوفاء بحاجياته. ـ أصدر الإمام حكمه.

حافظ الفقهاء على موقفهم الحازم، وبدت عليهم علامات شجب واستهجان، إلا أنهم لم يجرؤوا على النطق ولو بكلمة.

حينها طلب «ابن الأحمر» من الحاكم المساعدة فيما يخص المسائل العسكرية، وافق هذا مسلما. وتكفل بأن يكلف أحد الحدادين بصنع الأسلحة والدروع، كما أنه سيسمح بجند الحامية بالتردد على الرباط لتدريب الأرجونيين.

حصل الاتفاق ورتبت جميع الأمور. سيكون لـ «أرجونة» جيش خاص، قِوامُه رجال مدربون، وعلى أهبة الرد على أي هجوم قشتالي. وبذلك لن يتكرر فقدان ثغريين بسبب النقص في التدريب، كما حصل مع حسن صديق «محمد».

***

**أرجونة Arjona. ربيع 1226**

بللت «مارية» قطعة من القماش بماء عذب بارد ثم أعادت وضعها على خدها حتى تخفف من الألم. كان خالها قد ضربها. «ترغبين في الرجال كأنك عاهرة؟» قال لها «رامون» لما فاجأها في النافذة ترقب الشاب الأرمل الذي استقر أخيرا بالقرية. «لن يريدك أحد، ستعيشين معي إلى وفاتي، ثم بعدها، ستصبحين عانسا شمطاء». كانت «مارية» تحلم بموت خالها، وغدت لا تشعر بالإحساس بالإثم جراء هذا التفكير. في الليل كانت تستسلم لأوهام حول آلاف الطرق لاستئصال هذا الخال البغيض، كلها بشكل عنيف وصاعق.

كان الرجل، على الأقل، قد تخلى عن مس «مارية» بعد أن بلغ سن الشيخوخة، ولم يعد جسمه يستجيب، كما كان الحال سابقا، لرغباته. ومع ذلك، فإن هذه العُنَّة كانت تجعله مُعَكَّرَ المِزاج على الدوام، يُقْدم على ضرب الفتاة لأتفه الأسباب. وكانت المسكينة تتقبل هذه المعاناة باستسلام قدري، داعية الرب إلى أن يضع حدا لإحدى الحياتين.

استلقت «مارية» على فراشها، وهي تسمع أصوات الأطفال يلعبون في الخارج. كانت قد استقرت بالقرية إحدى العائلات بأطفالها. ولم يكن من المعتاد أن يقع مثل ذلك في الأراضي الحديثة العهد بالاستيلاء عليها، ونزعها من «المورو».

وكان «رامون»، في وقت سابق، قد استجاب إلى دعوة المدافعين عن «أندوجر». كان هؤلاء يَعِدُونَ المستوطنين إن استقروا في البلدة بالأراضي الخصبة الوافرة. ولا غرو، فقد كانت حاجة الفرسان إلى اليد العاملة لخدمة الحقول والأرياف ماسة لتوفير الغذاء والطعام. «لا توجد طريقة لجعل هذه الأرض منتجة معطاء!» كان «رامون» يردد دائما متشكيا حينما يقيم في الجهة الأخرى من السلسلة الجبلية. «قريبا، سيصبح كل شيء ملكا للمسيحيين، وسنصبح، نحن، أول المغادرين إلى هناك، أثرياء» كانوا قد منحوه عددا من القطع الأرضية المغروسة شجر زيتون، وقطعة أرضية أخرى مزروعة بالكروم، ومساهمة في معصرة زيتون.

كانت أصوات الأطفال وهم يلعبون توقظ في «مارية» أحاسيس اعتقدت أنها ماتت فيها منذ زمان. مر بها وقت كانت تتمنى أن تكون أُمًّا، أما الآن، وقد أكملت الثلاثين، فتعلمت كيف تحصر هذا الاندفاع الطبيعي فيها. ومع ذلك كانت تنتابها اندفاعات أخرى كان يصعب عليها كبحُها. مرارا كانت تشعر كيف أن تلك النار التي عذبتها منذ مراهقتها كانت تصعد من أحشائها إلى صدرها، فتزيد من دقات قلبها، ومن توالي أنفاسها. ولكم كانت تشعر بالإثم وهي تحسب أن تلك الرغبة، وما يصاحبها من أحاسيس جياشة لا تستطيع حبسها، من عمل الشيطان. مرات كانت تترك الحرية ليدها… ومرات أخرى تحلم حلم يقظة أن «برناردو» الشاب الأرمل يضاجعها. في لحظات

الانعتاق تلك كانت تغمرها أحاسيس انتقامية ضد خالها «رامون».

- إلى الغد، ياگومي!

وصلها صوت «برناردو» بوضوح عبر الجدران، فهيج خيالها. تصورت الرجل يدخل البيت، ويجامعها في عين المكان.

- «مارية»، هأنذا قد عدت إلى البيت!

وثبت من فراشها، وقلبها يدق بسرعة، وخرجت من الغرفة لاستقبال خالها. ثم خَفَّتْ إلى المدخل، وهي تصلي من أجل أن يكون مزاج الرجل رائقا.

***

حصن «قَبَالَة» **Capilla**، شمال قرطبة. صيف 1226

- مات! مات «البياسي»!

دلف «غونثالو رويث خيرون» إلى الخيمة الملكية، حيث كان «فرناندو» في اجتماع مع بعض المسؤولين الإداريين. بعد فترة أعلن الملك عن نهاية الاجتماع، ليختلي بكبير خدمه.

- كيف حصل ذلك؟

- ثار القرطبيون ضده بسبب ما قدمه لنا من تموينات. فاعتبروه خائنا وأجبروه على مغادرة «قرطبة»، ثم قتلوه بالقرب من «المدور». واحتزوا رأسه.

نزع «فرناندو» القميص عن صدره وهو ينفُخ. كانت الحرارة مضنية.

ـ ينبغي أن نتصرف سريعا. وإلا سنجازف بفقدان سيطرتنا على الأراضي التابعة له.

ـ سيدي، هو لم يعد موجودا...

ـ لكني أملك وارثَه. سيظل يعمل معنا، ونحن سنحرُس على مصالحه.

ـ أحسب الأمر صوابا. إنها استراتيجية جيدة. وماذا عن «قَبَالَة»؟ مرت علينا أسابيع ونحن نُحاصِرُها، لكن ما زالت ممتنعة عن الخضوع لنا.

ـ «قبالة» سلمها لي صاحبها الشرعي، وهو تابع لي. على الرجال أن يضاعفوا من مجهوداتهم، وعلى المجانيق أن تعمل بكل طاقاتها، أن ترمي بالصخر والحجر ما وسعها ذلك.

ـ ستسقط في أيدينا، يا ملكي. آخر قطيع ماشية أرسلته الملكة وصل البارحة. نملك ما يكفي من الأقوات والمؤن.

كانت «برنگيلا» تدعم حملة ابنها، ولو عن بُعد، فقد كلفت «غونثالو رويث خيرون»، سيد «أوْتِيُو»، بتقديم أحسن النصح والمشورة إلى ابنها، إضافة إلى السهر على سلامته.

للتو نقل «غونثالو» أمر الملك إلى رؤساء الجيش. ثم انزوى في خيمته، وطلب عُدة كتابة ليملي تقريرا جديدا يبعث به إلى الملكة «برنگيلا»:

«ملكتي وسيدتي، حفظك الرب. مازلنا مستمرين في الحصار بحماس أكبر. قريبا ستسقط «قبالة». ابنُك، ملكي، يُبين عن عزيمةٍ قوية لا تقهر، وفهم

للأمور في غاية الحكمة، كما لو أنه تراكمت لديه تجارب سنوات طويلة من الحياة..».

هكذا ابتدأت الرسالة التي بعث بها المستشار الملكي مساء ذلك اليوم إلى طليطلة.

***

**أرجونة Arjona. صيف 1226**

أدى الرجال صلاة الفجر، ثم خرجوا إلى الفناء. كان كل واحد منهم يعرف المهمة التي تنتظره.

ـ لقد تحقق حلمك، أيها الصديق. ـ كان «عمر» قد تخلف ليحدث «محمد». ـ إن الأشغال متقدمة في الرباط، وأوائل الثغريين على أهبة التمرن على السلاح.

ـ يستطيع أي كان أن يحمل السلاح، لكن الأهم هو معرفة استخدامه، وذاك أمر لا يتم خلال شهرين. لا بد من فترة زمنية أطول، وأنا أجهل كم نتوفر عليه من وقت.

ـ ليسوا مستعدين لخوض معركة ميدانية، لكنهم قادرون على شن الغارات. لعله حان الوقت لكسب بعض المغانم. ـ علق «الحسون».

قَلَّبَ «ابن الأحمر» فكرة «الحسون» على أوجهها. فقد ظهر له أن الأشغال تسير سيرا حسنا، وأن الرباط يعمل بكفاءة منذ أشهر. و«الحسون» كلف بالجانب الديني في الرباط، يؤم الناس في الصلاة، وفي تأملاتهم الروحانية حسب طريقته الصوفية. وكان النطاق يتوفر على فرن، وإصطبل بستة أحصنة، وبئر عذب، ومصلى

يتوفر على حصائر وفوانيس زيتية. كما زود الرباط بمستودع أسلحة صغير، وضعت به أسلحة بسيطة، لكنها متقنة الصنع. مثلما أن الأراضي التي كانت تابعة للرباط استُصلحت وأعيد استغلالها. في حين أن المرابطين كانوا يقضون ساعات طوالا من اليوم في التدرب على استخدام المِقْمَعات والرماح والأقوس. وكان المدربون، من بينهم «محمد» نفسه، وأخوه «إسماعيل»، حازمين يفرضون على المتدربين الانضباط والجزم.

ـ عسى أن يكون كلامك على صواب. ولعله قد أزف الوقت للقيام بغارات على أراضي النصارى.

كان الأرجونيون يحيون في قلق وخوف. فقد فرغت القرى من أهلها، وغدت أراضيهم البعيدة قاحلة جرداء لافتقادها للحرث والزراعة. داخل الأسوار تضاعف عدد الناس، والأقوات بدأت تشح. وبعد مقتل «البياسي»، فشل المسلمين في استعادة «أنْدوجَر» و«مَرْتُشْ»، فرغت البلدتان نهائيا من «المحمديين»، والتجأ عدد كبير منهم إلى «أرجونة». فأصبح الجوع في هذه الآونة يهدد، حقا، السكان.

استعد «محمد» للذهاب لزيارة أهله. فقد مر عليه أكثر من أسبوع في الرباط، وجاء الدور عليه للاعتناء بأسرته.

ـ لترافقك السلامة يا شيخ. ـ دعا «عمر الحسون» لـ «محمد» ـ الكل على ما يرام هناك؟

ـ أجل، زوجتي طيبة، وتسهر على راحتي، وعلى تربية ابْنَتَيَّ. ـ نظر «محمد» في عيني المعلم،

ولمح نظرته الفاحصة. ـ أحيانا أذكر الخمرة، وأواصل البكاء على «فرح»... على أي، ذلك أمر سأجره معي طوال حياتي. لا تشغل بالك بحالي، لن أسقط مرة أخرى. ـ قال بلهجة جادة.

صَدَّق «الحسون» «النصري»، وضمه إلى صدره. بعد ذلك بقليل، أخذ «ابن الأحمر» يبتعد عن الرباط شيئا فشيئا وهو يمتطي «برميجو»، وجهته العقبات التي تؤدي إلى أرجونة.

***

دخلت عائشة إلى الغرفة، فنزعت ثوبها، وأطلقت شعرها، قبل أن تلبس غِلالة رقيقة من الكتان، وتندس في السرير بجنب زوجها.

ـ كيف سارت معك الأمور في الرباط؟

ـ جيدة. كل شيء يسير حسب المخطط له. عَزْمُ المرابطين ثابتٌ على التعلم سريعا. في القريب سنجهز لغارة. ـ وضع يده على ساق عائشة، ثم همس في أذنها: ـ لقد اشتقت إليك. ـ كان يريد أن يظهر عطفه وحبه.

أخذت المرأة يده ثم قبلتها برقة. استثارته، فمد يده نحو غلالتها، ثم شمرها إلى خَصرها، للتو فرجت عائشة ما بين ساقيها لتستقبله. رغب «محمد» في جسمها الرشيق، وهي تركته يفعل. لم يتحدثا، في حين، تقريبا، لم تتحرك عائشة. وحينما انتهيا، استلقى «ابن الأحمر» على ظهره، بينما راحت الزوجة لتغتسل، قبل أن تعود ثانية إلى الفراش.

ـ ليلة سعيدة ـ تمنى الزوجان أحدهما للآخر. ثم

ناما، وهما يسمعان صوت صرار الليل من بعيد.

في تلك الليلة حلم «محمد» بـ «فرح». رآها فيما يرى النائم وهي ما زالت في بيت والديها، حينما كان يتسلق السطح ليصل إلى غرفتها ليمارسا الحب. كان هو يرقد على ظهره بينما تجلس هي منفرجة الساقين عليه، فيتحرك تحت ساقيها حركات شهوانية تزيد من رغبتها، في حين يمرر هو يديه على عجيزتها وهو يقبل ثدييها. استيقظ وهو يتصبب عرقا، وفي الحال أحس من جديد بلوعة الفراق ومصيبة الفقد. فنهض من فراشه، وانتظر الصبح جالسا في الفناء.

ومنذ أن خرج الرجل لم يغمض لـ «عائشة» جفن.

***

طليطلة Toledo. صيف 1226

ركب «فرناندو الثالث» فرسا أسْرِجَ برفاهية. في حين لبس هو رداء رقيقا موشى بعناية. تحته درع زرد من حديد وتحت الجميع «غامبيسون» مطرز بالذهب. لبس التاج فوق عمرة من الحرير، وأمسك بيده اليمنى سيفا رصعت ثومته بالحجر الكريم في غاية الأناقة، لا يحمله إلا في المناسبات. اقترب من «طليطلة»، وأصبح دخوله إليها وشيكا، فلم يفته أن يقدم نفسه في صورة الفاتح الكبير، والمحارب الظافر. فقد كان حصار «قَبَالَةَ» قد انتهى بنجاح، وسقطت المدينة في يد مملكة «قشتالة» بعد أن طرد جميع سكانها المسلمين.

كان الملك محاطا بحراسه، وبأهم رجال دولته. عَبَرَ القنطرة ووصل إلى القصر حيث احتشد مئات

الطليطليين، هناك كانت تنتظره أمه، في أبهى حلة، أيضا. إذ بالرغم من سنها كانت الملكة لا تزال على قدر من الجمال والحضور.

سار الركب الملكي بشوارع المدينة، يتقدمه مطران «طليطلة»، وأهم رجالات الكنيسة، بينما اصطفت الجموع محتشدة على جنبات الطريق وهي لا تتوقف عن الهتاف بحياة الملك، بعد فترة وصل الموكب إلى «كاتدرائية القديسة مارية». كانت أشغال تحويل جامع المدينة في العهد الإسلامي إلى كاتدرائية تجري على قدم وساق. بما في ذلك هدم جزء كبير من جناح الجامع لتعزيز الأساسات. وكان المطران ينتظر، منذ شهور، حضور الملك ليدشن رسميا بدء الأشغال، بالرغم من أنها كانت قد بدأت منذ سنتين تقريبا. حضر الملكان وضع الحجر الأساس على قرع الأجراس في جميع كنائس «طليطلة»، ورفعِ الرايات على هتافات أهالي المدينة التي ازدادت حماسا وحيوية بالمناسبة. وبذلك شُرع رسميا فيما كان قد خطط له وهو أن تكون لـ «طليطلة» كاتدرائية جديدة، كما هو الحال مع «برغش». وأخيرا انتهى الحفل بإقامة قداس في الهواء الطلق حول الحجر الأساس، رمزا لانبعاث جديد.

- كيف حال «بياتريث دي سهابيا» والأولاد؟ - سأل «فرناندو» أمه حينما كانا يتمشيان في اتجاه القصر.

- كلهم في صحة جيدة. زوجتك اشتاقت إليك. - كان زواج «فرناندو» و«بياتريث دي سهابيا»

موفقا. الجميع في البلاط كان يتحدث عن الخصوبة الجيدة لهذين الزوجين اللذين أنجبا أربعة أولاد. ـ يسعدني أن أجتمع بك قبل أن تختلي بها.

استجاب «فرناندو» لطلب أمه، وقد ارتسمت ابتسامة على محياه. وما أن وصلا إلى القصر، حتى اجتمع الولد بوالدته في قاعة منعزلة. نزع الملك عنه شبكة الزرَد و«الغامبيسون» على الفور وهو يتصبب عرقا بفعل الحرارة المفرطة.

ـ أنت مثال للرجل الكامل، وملك عظيم. وكأم أشعر بالغبطة والفخر. فقد اضطلعت بمهمتك الربانية على أحسن وجه. و«قشتالة» تَكْبُرُ وتَتَّسِعُ على حساب «المحمديين». اليوم «قَبَالَة»، وقريبا، «بيَّاسة» التي يوجد قصرها، الآن، تحت سيطرة «مايسطري» «قلعة رباح». وسوف لن نتأخر في الاستيلاء على الباقي. ولا غرو، فسكان «بياسة» يحيون في هم وقلق منذ أن مات «البياسي». ـ ابتسمت الملكة.

ـ كيف حال ابنه؟ ـ سأل الملك

ـ نرعاه جيدا. يسهر على تهذيبه أحسنُ المعلمين. إلى حد الساعة لا يعرف أن أباه قد قتل. والأفضل أن يبقى كذلك لبعض الوقت.

ـ صعب أن يفقد الإنسان والده. ـ كان «فرناندو» لا يزال متأثرا من سلوك أبيه ملك «ليون» «ألفونسو التاسع» حينما عزله عن ولاية العهد، وعهد به لأختيه «سانشا» و«دولثي». ـ لا أريد أن ينقصه شيء، باسمه سنستولي على قلاع والده. إن الأمور لا تعدو عن كونها في البداية...

تراودني أحلام بالليل يا أماه. لقد رأيت «جيان»، وقصبتها الهائلة وعلى أعلى أبراجها يرفرف علم قشتالة.

ـ هذه ليست أحلام يا ولدي. إنها رُؤى يوحيها الرب إليك ليُلْهِمَكَ الصواب. ستحقق ما لم يستطع أحد تحقيقه إلى حد الساعة. كنت أعرف ذلك دائما.

ـ بمساعدة الرب يا أماه، دائما بمساعدته.

***

في قرية من قرى مرج «أندوجر». Andujar، خريف 1226

انتظمت الدور في القرية على طول شارعين متوازيين ينتهيان في أحد البيادر. جد الثغريون في السير حتى لا يعطوا وقتا للأهالي للقيام بردود أفعال. كانوا قد عبروا «الوادي الكبير» دون أن يتفطن لهم أحد، وقاموا بلفة طويلة اتقاء دوريات «أندوجر».

كان المستوطنون منظمين، يتناوبون للقيام بدورات حراسة ليلية. وما أن رأى الحارس إطلالة الثغريين حتى علا صوته، يدعو الرجال للتأهب. في الحال وضعوا العربات وِّرْباً في مدخل الشارع لصد الطارئين. أخذ القشتاليون الرماح، والفؤوس، والمعاول استعدادا لطرد المغيرين. وإن كان استقبالهم للمسلمين لم يتعد الرمي بالحجارة.

ـ لا أظن أن بينهم جنودا. ـ قال «هادي».

ـ ليسوا بينهم ـ أجاب «ابن الأحمر» ـ لكن

الحجارة أيضا تلحق الأذى بالآخرين، يَكُنْ مَنْ كَان الذي يرميها.

كان «هادي» و«محمد» يلبسان الزرد الحديدي، غير أن الرجال الذين رافقوهم كانوا يحمون أنفسهم بشبكات زرد من جلد. تقدم «محمد»، ثم صاح محذرا باللغة الرومانثية:

ـ كل محاولة مقاومة ستكون غير مجدية، لن يأتي أحد لإغاثتكم! دعونا ندخل، ولن يكون هناك قتلى.

الإجابة الوحيدة كانت هي المزيد من الحجارة، تعبر الفضاء وتسقط حذاء رجلي الزعيم الذي تراجع، وعاد قريبا من رجاله.

ـ دون رحمة مع الذين يقاتلون، أما الآخرون فسنسوقهم كأسرى. ـ كان قلب «محمد» قد قسا منذ مقتل أخيه «فرج» على يد فرسان «قلعة رباح». لنهاجمهم من الوراء، من هناك سيكون عدد المدافعين أقل ـ أطاع الثغريون ـ تذكروا أن هذه الأراضي هي ملكنا. فليسقط الغازي! ولا غالب إلا اللّهّ! ـ صرخ قبل أن ينقض على مؤخرة المدافعين.

تقدم الفرسان الخمسة عشر عدوا إلى غاية المدخل الخلفي للشوارع. ترجل خمسة رجال، وحرروا أحد الشوارع ليفسحوا الطريق للباقي، في حين كان القرويون مستمرين في رمي الحجارة دون طائل، إذ لم يتمكنوا من منع الثغريين من اقتحام القرية.

كان «ابن الأحمر» أول الداخلين. فاجأ الزعيم

المدرع القشتاليين الذين تأخروا في ردة الفعل، ومع ذلك تلقى «النصري» ضربتي حجر في الصدر قبل أن يدخل ثغريوه ويستولوا على الشارع. حينها رمى بعض الأهالي بالسلاح، وشرعوا في الصلاة. آخرون، وكانوا أكثر حمية، أمسكوا برماحهم وفؤوسهم وواجهوا الفرسان. فلم تأخذ الثغريين بهم شفقة ولا رحمة. كانت النساء يصرخن وهن في حالة هلع، في حين كان الأطفال القلائل الذين يسكنون القرية يبكون وهم متعانقون. بعد لحظات أصبح الشارع آمنا. فبادر الأرجونيون بإيثاق الناجين، ثم شرعوا في النهب، وتحميل العربات بالأَسْلاب.

توجه «محمد» بحصانه إلى الشارع الآخر. كان يريد أن يتأكد من أن رجاله آمنين لا يدبر ضدهم أي كمين. بغتة، سمع صراخا، لمح على إثره رجلا متقدما في السن، يخرج من مدخل إحدى الدور كالبرق، ويطعن «بيرميجو» بخنجر في الساق. صهل الفرس من الألم، ثم شَبَّ، فرمى بفارسه أرضا. جرى كل ذلك بسرعة، شعر «محمد» بألم اصطدامه بالأرض، وظل مُجَنْدَلا على التراب. حينها قذف الرجل بنفسه على «النصري»، وهو يصوب طعنة لوجه عدوه. للتو تحرك «محمد»، فأصاب السلاح عنقه بجرح، بالرغم من أنه كان محميا بالمِغْفَر.

- خالي! سمع صوت امرأة من جهة مدخل الدار.

وأخيرا أبدى «محمد» ردة فعل، فلَكَمَ المعتدي لكمة شديدة، أسقطته جانبا، وتركت «محمدا» حرا. حدق برهة في المرأة التي ظلت جامدة في

مكانها، وقبضتاها مشدودتان، ثم ضرب الرجل بسيفه في الصدر، فأحس كيف أن حد السلاح يخترق القَصَّ. كان الرجل يريد أن يقول شيئا، غير أن الدم، الذي فار من صدره، فاض على حنجرته، فحال دون تكلمه. في الحال جرت المرأة نحو المحتضر، متجاهلة الثغري، ثم بصقت عليه في وجهه، وهي تطيل النظر في عينيه بقرف.

ـ مت، مت، إنهم ينتظرونك في الجحيم ـ قالت «مارية» في حنق وغيظ، فتح الرجل عينيه في يأس، وكأنه اعتقد أن كلام المرأة حقيقة.

كانت «مارية» تتنفس في جزع، تضغط على أسنانها، وتزم على شفيتها وهي تغمغم، وهي تغمغم مرة وأخرى: «مت». تحرك الجريح تحت وطأة حشرجات الموت، فخرجت روحه مطوقا ببغض «مارية» الكبير نحوه. وأخيرا توقف قلب الرجل عن النبض، ولم يعد يتنفس. أما «مارية» فقد خرت أمام قدمي «محمد»، ثم طفقت تقبل دِرْعي سَاعِدَيْه.

انحنى الثغري، وأنهضها وهو يمسك إحدى ذراعيها ثم حدق في عينيها.

ـ شكرا ـ قالت له «مارية» وقد تاهت في عمق عينيه الخضراوين. ـ شكرا.

كان صدرها يَرْتَجُّ عند أخذها كل نفس. دفع «محمد» بالمِغْفَر وعَمْرَة الرأس إلى الوراء، تاركا شعره للهواء، لم تمهله المرأة وقبلته في فمه، قبل أن تمد يدها إلى ما بين فخذيه. في الحال أمسكها من كتفيها ودفع بها إلى الوراء. هذا

الوضع هيج النصري.

ـ ما اسمك؟ ـ سألها بالرومانثية.

ـ «مارية» ـ أجابت المرأة. كانت عيناها تشعان رغبة... أحست بنفسها حرة لأول مرة، ورغبت في أن تسلم نفسها للرجل الذي أنقذها.

ـ «مارية»، هل حقا تريدين...؟

من الجهة الأخرى من الشارع كانت تصل أصداء النشل والاختلاس.

كان جوابها قبلة أخرى، وملاطفة جديدة لما بين فخذي الشاب. أخذها «ابن الأحمر» من يدها، وأدخلها إلى الدار. في المدخل حل النطاق القرمزي، ثم شرع في انتزاع الدرع.

ـ ساعديني ـ طلب منها، ـ فكت «مارية» درعي الساعدين الحديديتين، وسرعان ما انزلقتا من يديها، وسقطتا على الأرضية محدثتين رنة وطنينا.

حافظ «محمد» على لِبْسِ «الغامبيسون». كان جسمه يتصبب عرقا، وتنبعث منه رائحة قوية. شَمَّرت «مارية» عن تنورتها. في حين رفعها هو بذراعيه القويتين، فسارعا إلى تبادل قبلة نهمة. عضت هي على شفته السفلى، وهي تحرك وركها باحثة عن عضوه، فكان لها ما أرادت بحركات همجية لاهثة، شعر بعدها الشاب بخَوَرٍ في رُكبتيه، هنيهة قبل أن يصل إلى قمة رغبته وهو بداخلها...

حينما خرجا إلى الشارع، كان «برميجو» بالباب، وجرحه ينزف، غير أن الطعنة لم تكن عميقة.

امتطى «محمد» فرسه، وساعد «مارية» على الركوب وراءه. تركا «رامون» مرميا في بركة دمه، وتوجها إلى حيث كان الثغريون يُنضِّدون آخر ما نهبوا من أقوات في العربات.

تموضع الزعيم على رأس الموكب، ثم أمر ببدء المسير نحو «أرجونة». خمس عربات كانت تجرها الثيران حملت المغانم، إضافة إلى من أُسِرَ من أهل القرية.

... وحالما شرعت القافلة تبتعد عن القرية، اقترب «هادي» من «محمد».

ـ يا شيخ من تكون هذه المرأة؟ ـ سأل «هادي» بنوع من السخط في نظرته.

نظر «ابن الأحمر» إلى الوراء، فتلقته عينا المرأة المترعتان بالحزن، فرأى فيهما، على التو، كل مرارة الحياة التي ذاقتها «مارية».

ـ إنها نصيبي من الغنيمة. ـ أجابه دون أن يوقف المسيرة.

***

أرجونة Arjona. ربيع 1227

ـ اتركيها هناك، يا «مريم». ـ قالت «عائشة» للمرأة التي عادت من العين بجرتين مليئتين بالماء. هكذا كان الجميع ينادون «مارية» منذ أن استقرت في بيت النصريين.

قبلت «عائشة» في بيتها الجارية المسيحية التي غنمها زوجها في غارة «أندوجر»، غير أنها في السر كانت تمقتها. كانت «مارية» تساعد

في شؤون البيت، تطبخ، وتغسل الثياب، وتنظف البيت. كذلك كانت تسهر على الزريبات، وهو ما خفف كثيرا على نساء الدار. غير أن «عائشة» لم يفتها أن عمل «مريم» لم يكن ينتهي هناك، كانت تعرف أن «محمدا» مواظب على زيارة النصرانية.

كان «ابن الأحمر» يوفّق بين المرأتين. يقدر عمل زوجته التي تكفلت بأسرته كما هو منتظر من امرأة مسلمة صالحة، وإن لم تتقد نار الغرام بينهما. أما مع «مريم» فكان شخصا آخر، عاشقا مشبوب العاطفة، متقد الحب دائما. وهو ما اعتبرته الجارية المملوكة بركة ويمنا مسا حياتها الجديدة بعد حياة الشجن والألم التي عاشتها فيما مضى، فاستسلمت لوضعها الجديد دون تحفظ أو لوم، خاصة لتلك الرغبات التي تعلمت في الماضي كيف تكبحها بوسائلها الخاصة. حقا، ما زالت هناك كثير من آثار هذا الماضي ينبغي محوها، وهي آثار لن تتخلى أبدا عن ملاحقة «مارية»، مثلما أنها هي التي حددت مزاجها الحزين والمنعزل، غير أن «النصري» كان بالنسبة إليها المشعل الذي يضيء أكثر زوايا حياتها قتامة.

كما أن الأمة النصرانية مثلت لـ «محمد» روحه التوأم، كلاهما يحمل في جعبته الآلام والعذاب، كلاهما ضاع وخسر، فكانت لقاءاتهما تساعدهما على الشفاء، رويدا، رويدا.

أرسلت «عائشة» المملوكة إلى المخزن للإتيان ببعض الأقوات. وصادف أن «النصري» كان خارجا

من «المجلس»، فلمح «مريم» تعبر الفناء، فلحق بها، وهناك، في المخزن، وهما واقفان، مستندين إلى الجدار، مارسا الحب في سَعْر وهيجان. كانت المرأة تضمه إليها، وتحثه على أن يدفع بقوة أكبر، فلم يلبث أن قضى الرجل وطره في الحين.

ـ أنتِ تشبهينني ـ قال «محمد» وهو يلهث ـ يُعجبك اللعب ـ نظر إليها فوجد نظرتها دون بريق.

ـ مثلك ـ أجابت المرأة بالعربية. خلال الشهور التي قضتها في دار «آل نصر» اجتهدت في تعلم لغة المسلمين.

خرج «ابن الأحمر» من المخزن قبل «مريم»، فلقي «عائشة» في الصحن. وسرعان ما انفجرت المرأة مؤنبة موبخة زوجها.

ـ إنك لا تحترمني كانت تتحدث وتضرب على صدره ضربات خفيفة ـ بالكاد تلامسني، وتفضلها علي ـ ثم أشارت إلى المخزن ـ تريدني أن أعود إلى بيت والدي؟ ـ ذاك ما تريده يا «محمد»؟ ـ لم يجب الرجل. كان يُصغي إلى كلامها باهتمام، غير أنه حافظ على رباطة جأشه، فبدا غير متأثر ولا مضطرب. كان يتفهم أحاسيس زوجته لكن، بعد معاناة طويلة، ها هي «مارية» أعادت إليه الحياة، فلم يكن مستعدا للتخلي عنها. ـ اسمعني جيدا، أيها الزوج ـ أكدت على هذه اللفظة ـ هبني ولدا قبل أن تحمل هي. هذا كل ما أريده منك.

ـ نظر إليها «ابن الأحمر» في هدوء. عادة كانت «عائشة» محتشمة ورصينة غير أن هذه الحادثة أفقدتها التوازن.

ـ سأعود إلى الرباط في الأسبوع القادم. لنا الوقت الكافي. ـ أجاب بصوت حازم تأكيدا لوعده معها.

***

ـ ليلتك سعيدة، يا «شيخ».

انسحب «أحمد بن إسحاق» في اتجاه مخدعه لينام. كان قد وصل حديثا مع المرابطين الجدد، ليتدرب على استخدام السلاح. كان يتقدم بإيقاع جيد، وعلاقته بـ «النصري» أصبحت ودية ووفية. وسنوات المجابهة بينهما غدت بعيدة منسية، لا تعدو أن تكون ذكرى للعبة مراهقين. بقي «ابن الأحمر» وحيدا. كانت السماء صافية، والنجوم تتلألأ في كامل وميضها.

ـ «محمد» ـ ناداه «عمر». قبل أن يجلس بجنبه، في أسفل سور الرباط.

ـ زوجتي تَغَارُ من «مريم». ـ فاتح «محمد» «عمر» دون مقدمات ـ

ـ لها ما يبرر ذلك.

تنهد «محمد»، ثم مرر يده على عنقه. كان الجرح الذي أصابه في الغارة قد بَرُؤَ، إلا أنه ما زال يؤلمه.

ـ «مريم» تُجنني، يا معلم. ـ كشف عن أحاسيسه تجاه الجارية صراحة. ـ إنها امرأة غريبة الأطوار. تتقاذفها مشاعر وأفكار، لكنها تسمح لنفسها أن تنقاد للحيوية التي تسكنها، وتجعلني أنسى كل شيء.

ـ لا تحرم نفسك، لكن احترم زوجتك، ولا تهملها، أو تتهاون في واجباتك نحوها. ـ تنهد الشاب، وهو يوافق بإيماءة على كلام «الحسون». مباشرةً، غَيَّرَ المتصوفُ الموضوع:

ـ أين وصلت الأشغال في برج المراقبة؟

ـ العمل به على وشك الانتهاء. ـ أجاب «النصري» ـ شرعنا في مهمة المراقبة.

تحول إمداد «أرجونة» بالمؤن إلى مشكلة خطيرة. فعزم «ابن الأحمر» على تخصيص بعض المال من اعتمادات الرباط لبناء مَرْقَبٍ يُمَكِّنُ مِن رؤية أيّ تحرك هجومي مسيحي، والإخطار به قبل وقوعه. وقد نجح رجال الرباط بهذا الإنجاز في تأمين عودة الفلاحين إلى الاشتغال في الحقول، وشرعت الأراضي البعيدة تدر، من جديد، المحاصيل الوفيرة.

ـ إن الأمور تجري بسرعة. ألا تدرك ذلك؟

ـ ماذا تعني، يا معلم؟

ـ أعني المسيحيين: «ليون» تغير على أراضي المسلمين من جهة، و«قشتالة» تستولي على مساحات ومراكز في جهة أخرى. ـ كم من أراضي ضاعت منا في ظرف ثلاث سنوات؟ هذا الملك الجديد يقلقني أكثر من جده.

اغتنم «فرناندو الثالث» عدم الاستقرار الذي كانت تحياه الأندلس، ليستولي على مناطق واسعة من أملاك المسلمين. كانت آخر مدينة تسقط بيده مدينة «بياسة»، وتعد من أهم المراكز الأندلسية، وعاصمة مملكة عابرة كانت سريعة الزوال. وفي

حماية الاتفاقات التي كانت بين الأمير المتوفى، وباسم وارثه سعى «فرناندو الثالث» إلى الاستيلاء على المدينة، غير أن البياسيين قاوموا الملك القشتالي، وطلبوا المساعدة من «جَيَّان»، لكن المسيحيين تمكنوا أخيرا من الظفر بالمدينة.

ـ إن الأندلس سفينة تبحر دون دَفَّةٍ وسَط عاصفة. ـ علق «النصري» بنبرة شاعرية.

ـ أرجو أن تجد قريبا من يُقَوِّمُ اتجاهَها.

***

«وادي الرقوط» **Valle de Ricote**، قريبا من «مُرسية» **Murcia**. خريف **1227**

ـ السلام عليكم، سيدي ـ قال مُياومٌ حينما مر حِذَاءَهُ «ابن هود» وصاحبه «الغُشْتي».

رد الفارسان على السلام دون أن يتوقفا، كانا في طريقهما إلى الجبل، حيث ملجأهما، بعد أن قام كل منهما بزيارة أهله. لم تكن السلطة الموحدية تنظر إليهما بعين الرضا، لكنها كانت تغض الطرف في تسامح عن نشاطهما. على أي، ومهما كانت الأحوال، فإنهما كانا يساعدان في توفير المؤن للأهالي.

ـ لقد أوقعت الجميع في شرك شخصيتك. حتى الأولياء يتحدثون عنك في مواعظهم.

لم يعلق «ابن هود». كان حزينا على إثر مقتل أحد أقرب أصحابه في حمل السلاح، قتل برمية من قوس قاذوف.

ـ ينبغي عليك أن تهتم للأمر، لا أمزح ـ ألح

«الغُشتي». وكان قد عرض على صديقه في أكثر من مناسبة أن يثور على الخليفة الموحدي الجديد.

كانت دسائس البلاط في «مراكش»، من أجل الاستفراد بالحكم، عوض أن تهدأ، قد زادت استفحالا في الشهور الأخيرة. و«أبو العلاء» حاكم الأندلس من قبل أخيه الخليفة «العادل» كان قد حمل على «مَرْتُشْ» بجيش قوي، فكانت القلعة على وشك السقوط في يد المسلمين لولا النجدة التي أرسلها «فرناندو الثالث» لقواته. وقد انتهت المعركة بين الطرفين بالتعادل. وهو ما أدرك معه الجانبان أن الوقت لم يكن مناسبا للدخول في مواجهة مفتوحة. فأمضى الطرفان الموحدي والقشتالي اتفاقية هدنة، وتعهد «أبو العلاء» شخصيا بدفع الجزية لملك «قشتالة». وبذلك أصبح بإمكان «فرناندو» القشتالي أن يوطد حضوره في الأراضي والمراكز التي استولى عليها أخيرا. في الوقت ذاته كان السيد «أبو العلاء» [أبو العُلى] يهيئ للخروج على أخيه، وهو ما قام به، فعلا، قبل نهاية الصيف انطلاقا من «إشبيلية». فاعترفت به جميع الأندلس باعتباره الزعيم. فكتب إلى الشيوخ الموحدين في «أفريقيا» يُمَنِّيهِمْ بالمنافع الكبرى، فلم يلبث هؤلاء، وقد حركهم الجشع وحب المال، أن انقلبوا على «العادل» وقتلوه، وأعلنوا «أبا العلاء» خليفة. غير أن الشيوخ المتقلبين الذين لا يثبُتون على حال، سرعان ما فكروا في أن ما قاموا به من قتل «العادل» ربما سيغضب «أبا العلاء»، لأنه في النهاية يظل أخاه. وأخيرا، وفي آخر لحظة، تنصلوا

من مبايعة «أبي العلاء»، وقدموا ابن أخيه «يحيى المستعين بالله». وقد أغاظ هذا السلوك «أبا العلاء»، وآل على نفسه، إن تيسر له جيش قوي، أن يعبر به المضيق ليلقنهم الدرس والعبرة.

ـ العادل، البياسي، أبو العلاء، يحي... يضيع مني العد. إن الموحدين يتقاتلون من أجل تولي الخلافة كالنسور. ـ تابع «الغشتي» ـ بينما الشعب يتضور جوعا، ويهلك، ويترك أرضه ليستولي عليها الآخرون. لا أدري، والحالة هذه، كم بقي في عمر الأندلس؟

فكر «ابن هود» في صمت.

ـ لم ينجح أي تمرد. ـ ختم في النهاية.

لأنهم ليسوا من هنا. أما أنت فمن أهل البلد. ارفع لواء الثورة، والجميع في هذه الضفة من المضيق سيتبعونك. أنا أولهم! متحدين سنقضي على هؤلاء المبتدعة.

ـ الأندلس في حاجة إلى زعيم... ـ قال «ابن هود» في شرود متصنع، كما لو أنه لم يهتم بطلب صديقه. في حين كانت الفكرة تراوده دائما، تلاحقه في سكون الليل، وتخطر بخلده كلما رأى شعبه يعاني من سوء المحاصيل، ومن جامعي الضرائب الموحدين، ومن نهب المسيحيين وسلبهم. ـ لا بد من زعيم... ـ ردد العبارة بنوع من الغموض.

***

أندوجر، Andujar. شتاء 1228

خرج «مرتين» من القصبة ثم ساح في أزقة القرية. وبالرغم من وصول المستوطنين الجدد فإن «أندوجر» بدت مُقْفِرة فارغةً من السكان. وكان القشتاليون قد استقروا في الدور القريبة من القصبة، تلك التي كانت تبدو أكثر أمانا. سار راكبا جواده في الأزقة الضيقة التي تميز المدينة الإسلامية. كثير من الدور كانت أبوابها مفتوحة، في حين كانت ترى هنا وهناك على ملاط الأزقة بعض الأثواب والأغراض التي نسيها أصحابها عند المغادرة. وبينما هو يتجول بالشارع الرئيس للبلدة صادف الفارسُ الرباحي قطيعا من البغال تحرُسُه زمرةٌ من الفرسان. كان الرجال في القلعة ينتظرون وصول القطيع المذكور منذ أيام. في إحدى العربتين حُمل أحد الجرسين اللذين أرسلتهما الملكة «بياتريث دي سهابيا» إلى «أندوجر» ليوضعا على برج أول هيكل سيُكَرَّسُ للعقيدة المسيحية.

واصل الفارس الرباحي جولته عبر الأحياء المحاذية للسور الخارجي. وسرعان ما أثار انتباهه برج بدا أنه مئذنة أحد جوامع البلدة. كان مدخل الجامع مفتوحا، فدخل «مرتين» إلى الصحن حيث يتوضأ المصلون. ومن هناك نفذ إلى قاعة الصلاة حيث الأرضية مغطاة بالحصر الموزعة بين أعمدة الرخام. بينما علقت في السقف ثريات برونزية. لم تكن بالمعبد الإسلامي صور ولا تماثيل، في حين كانت الجدران مزينة بالحروف العربية. أثار انتباهه الكوة الرئيسية للمحراب بألوانها الذهبية، ووفرة التزاويق بها، ذات الألوان الحادة.

«لن يُصَلَّى بعد اليوم لله بين هذه الجدران» فكر الفارس الرياحي.

كان «مرتين فرناندث دي بُرغش» معجبا بملكه الذي تمكن من نزع تلك الأراضي من «المورُوس» بفضل تخطيطاته الماهرة، وبعد نظره.

«لا بد أن أفعل شيئا من أجل مزيد من الأمجاد للرب ولـ«قشتالة». حدث نفسه، وهو متأثر بمشهد الجامع الفارغ.

***

«طليطلة» Toledo. شتاء 1228

ظل الفرس بكل زينته من الجلد والفضة هادئا مستكينا، بينما كان الملك القشتالي يمعن النظر فيه، ويلاحظ كل تفصيلاته. كان فحلا كستنائي اللون من فصيلة الخيول العربية، هدية من «أبي العلاء»، الخليفة المحبط الذي كان قد وَقَّعَ اتفاق هدنة مع «فرناندو الثالث». كان العاهل القشتالي يتوقع أن يصله في القريب من «أبي العلاء» طلب مساعدة ليغزو «مراكش» ويُعترف به خليفةً للأفارقة.

تحلص «فرناندو» سريعا من السفير المسلم، بتسليمه عدة هدايا لسيده، مع كلمات شكر وامتنان.

ـ هجنوا إناث الخيل بهذا الفرس، إنه مثال للفرس الجيد. ـ أمر «فرناندو» سائس خيوله. ثم ذهب لاستقبال أخيه «ألفونسو» الذي عاد من الحدود الأرغونية بعد أن احتفل بزواجه من ابنة «غونثالو بيرث»، سيد «مولينا»، والمتمرد السابق

الذي كان «فرناندو الثالث» قد حاصره بحصن «ثَاقْرَا». وحصل أنه بعد سنوات من هذا الحادث أعلن سيد «مولينا» من جديد العصيان، فكانت ردة فعل «فرناندو الثالث» قاطعة حاسمة. ذلك أنه أرغم «غونثالو» على أن يعين ابنته «مَافَالْدَا» وريثة، ثم صادق على اقتران أخيه ألفونسو بها.

ـ هل حالفك الحظ يا أخي؟ ـ سأل الملك بنبرة سخرية.

ـ يمكن القول نعم، إذ إن زوجتي تسر الناظرين.

تعانق الأخوان بحب صادق. كان «ألفونسو» يحيا دائما في ظل أخيه، وزواجه بـ «مافالْدا» يعد جائزة عن وفائه وإخلاصه. فقد كانت إقطاعية «مولينا» غنية وقوية.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي كان «فرناندو» و«برنكيلا» يستعينان بالزواج، لحل مشاكلهما السياسية باعتباره أداة فعالة في هذا الشأن. فقد كانت «لِيُنور»، خالة الملك، قد عقدت زواجها مع «خايمي الأول» ملك «أراجون». لكن «لينور» هذه كانت تكبر زوجها بسبع عشرة سنة، فكان زواجهما يثير الكثير من اللغط بخصوص العلاقة بين الزوجين. فقد شاع بين الناس أن ملك «أراغون» كان قد طلب من السلطات الكنسية إلغاء الزواج للقرابة.

ـ هل هناك أنباء عن الوالد؟ ـ سأل «ألفونسو».

ـ لاشيء، ما زال يفضل «سانشا» و«دولثي». لا يريد أن يعرف أي شيء عنا ـ أجاب «فرنادو» بنبرة استياء ممزوج بحزن.

ـ ماذا عن أبناء الجنوب؟ ـ سأل «ألفونسو» ليغير الموضوع.

ـ لنا أناس يعودون منه، وآخرون يذهبون إليه. يقولون إن «موروس» الجزيرة ليسوا على ما يرام مع الأفارقة.

ـ كالعادة.

ـ أجل كالعادة. ـ أكد الملك ـ لكن الآن هناك شيء مختلف، الآن، نحن حاضرون: نهاجم أراضيهم، وننتهز فيهم الفرصة ما داموا في خلاف بينهم. لقد أصبح الأفارقة عاجزين، وغير قادرين على تجهيز الجيوش، والعبور بها إلى الجزيرة.

ـ وماذا سيقع في نظرك؟ ـ سأل «ألفونسو» وهو موافق على ما قاله أخوه.

ـ أرى مستقبلهم بوضوح، ستتفتت مملكتهم. في الخفاء يطلق عليهم الأندلسيون أهل البدع، ويحتقرونهم، ويقولون عنهم إنهم أشبه بالكلاب التي تتقاتل من أجل قطعة من العظم.

ـ وإذا ما حصل ما تقوله، ماذا أنت فاعل؟

قهقه «فرناندو»، وفسح لروحه الشابة في أن تبرز، بعد أن أخفاها في السنوات الأخيرة ثقل المسؤولية.

ـ أخي، ينبغي شَطْرُ البطيخة قبل تناولها.

***

«وادي الرقُوط» Valle de Ricote، قريبا من مُرسِية Murcia ربيع 1228

ـ هل أنت على استعداد؟ ـ سأل «العُشتي».

ـ أجل، على أتم الأهبة. ـ أجاب «ابن هود». كان لابسا درعا من الجلد، وخُوذَة مخروطية الشكل. وفوق الدرع لبس جلبابا أسود، في حين وقف بجانبه رجل يحمل علما أسود أيضا.

كان الزعيم يسير على رأس عصابة الجبليين، التي انضاف إليها في الشهور الأخيرة عشرات من رجال الوادي من بينهم أفراد من أسرة «بني هود»، بما فيهم أخوه «سالم». كانوا في طريق العودة من غارة على الأراضي المسيحية محملين بالغنائم الوفيرة من المؤن والأقوات. كان عددهم حوالي خمسين فارسا ومائتين من الرجالة.

وما إن أطلت الكوكبة على الوادي حتى تلقاها مئات من الأهالي، وهم يهتفون ويصفقون للعصابة لتواصل سيرها إلى وادي الرقُوط. وما لبث «ابن هود» أن وزع المغانم على أهل المنطقة، فدعوا له، ولرجاله، باليمن والبركات. كان رجال «العُشتي» هم من أشاعوا خبر أن «ابن هود» سيقوم ضد الموحدين، وأنه سيهاجم قلعة «الصخيرات» Peñascales التي كانت تهيمن بمنعتها على «وادي الرقوط». في هذا الخضم استفز دق الطبول عددا لا بأس به من المتطوعة، فعززوا رجال «ابن هود» بانضمامهم إليهم، وهم يحملون أدواتهم الفلاحية، كأسلحة مؤقتة.

وأخيرا عزم «ابن هود» على اتباع نصيحة صديقه، وركوب مغامرة الزعامة، ليحرر شعبه من الأفارقة، الذين كانوا يستخلصون منهم الضرائب والإتاوات دون أن يهتموا بأمنهم.

ـ أعترف فقط بخليفة واحد هو خليفة «بغداد»، لأنه سليل النبي حبيب اللّٰه! ـ كان «ابن هود» يصرخ بهذه العبارة بأعلى صوته، كلما لقي بأحد في الطريق.

ـ أمير! أمير! ـ كان الناس يجيبونه في حماس.

وبذلك بدأت جماعة «ابن هود» تتكاثر تباعا، وحينما وصل إلى قلعة «الصخيرات» **Peñascales** كان الموحدون، وقد علموا بالأمر، قد أغلقوا عليهم الأبواب، واحتموا بداخل الحصن. في الحال، أمر الحاكم، وكان بربريا مسنا، سريع الغضب بالمقاومة إلى النهاية. كانت الحامية مكونة من ستين رجلا.

صنع أتباع «ابن هود» السلالم، وأخذ الشجعان منهم يصعدون الصخرة من سبعة نقط مختلفة. مباشرة، حما الأفارقة الزيت، وتهيأوا للتصدي للمغيرين بالرماح والسهام. فقتل عدد كبير من المهاجمين، وأصيب عدد آخر منهم بحروق فظيعة. غير أن الأندلسيين سرعان ما تمكنوا من زُقاق أعلى السور، وأمَّنوا صعود باقي الرجال. فكان صراخ الجرحى يصل إلى أغلبية الجند الذين كانوا ينتظرون على مسافة آمنة.

ـ يلزمني أن أكون معهم هناك، في الصف الأول. ـ هَمْهَمَ «ابنُ هود»، وهو يعض على أسنانه.

ـ ذاك ليس دورك الآن. ـ قال له «العُشتي»، دون أن يزيح نظره عن الأسوار.

مرت لحظات، ثم لوح بعض المتسلقين لزملائهم

المتمردين بالتقدم إلى الباب الذي أصبح مشرعا ليستقبل الجند. من جديد سمع الصُراخ، لكن هذه المرة من جانب الموحدين الذين كانوا يُقتلون بسلاح الأندلسيين. على التو، استسلم عدد من الأفارقة، رموا بأسلحتهم، ثم رفعوا أيديهم. أما الحاكم، وقد احمر وجهه من الحنق، فقد تقدم الذين ما زالوا يقاومون، وانقض في عملية انتحارية على الجدار البشري الذي كونه المتمردون. وهناك، في فناء قلعة «الصخيرات» مات سعي الموحدين في الحفاظ على هيمنتهم على «وادي الرقوط».

دخل ابن هود الحصن راكبا حصانه، وراءه سار أخوه وبعض أقاربه. ثم صعد إلى آخر مَحْرِز(29)، حيث كان رجاله يحرسون المستسلمين من الموحدين.

- إليك هؤلاء! إنهم في ملكك لتفعل بهم ما تشاء. - قال أحد المتمردين، وكان من قدماء الضباط الأندلسيين.

- أهل البدع ليسوا مني ولا أنا منهم، إنهم لله، فأرسولهم إليه ليحاكمهم.

في الحال نفذ الأمر في الأسرى، وأعدموا جميعا، وبقي الدم الإفريقي مهروقا على الصخور التي يقوم عليها الحصن. في الوقت ذاته الذي كانت رايات العباسيين السوداء ترفع في أماكن عدة من القلعة.

- مئات من الأشخاص تحتشد في أسفل الأسوار - قال «العُشتي» لصديقه - اذهب إليهم

وخاطبهم.

نزل «ابن هود» إلى آخر نطاق بالأسوار، وصعد إلى ممر الدوريات بها. بغتة، برز للناس فعلت الهتافات نحو الفضاء مهللة باسمه، حتى ارتجت لها الصخور التي يقوم عليها الحصن.

ـ يا أمير الأندلس!

ـ لقد هُزم المبتدعة ـ استهل «ابن هود» خطبته بصوت قوي واضح، وقد سكت الناس، وهم يصغون إلى كلامه. ـ وإتاواتكم لن تذهب بعد اليوم إلى «أفريقيا»، ستبقى هنا، وستوظف في حماية «الأندلس». ـ سُمِعتْ أصوات الابتهاج والاغتباط. ـ إذا قبلتم أن أكون ملكَكم سأحرركم من الجنوب ومن الشمال. فَلْنُطِعِ الخليفةَ الحقيقي، وسترون أن الحقولَ والبساتين ستُزهر من جديد. ولن تكون، بعد اليوم، مسغبة، بجهد المولى عز وجل.

كان «ابن هود» قد أعد للمناسبة خطبة بليغة، غير أن انفعالَ اللحظة جعله يتلعثم، ويتلجلج، فأنهى خطابه قبل الموعد.

ـ أمير! أمير!

أكدت الهتافات أن الجميع خضع لطاعته. وأن الناس هللوا له باعتباره ملكا، ملكا على الأندلسيين.

ذاع الخبر في كل أنحاء الوادي، وهو ما فاجأ الموحدين الذين كانوا موزعين في حاميات قائمة على طول «النهر الأبيض»، فما لبثوا أن فروا من المنطقة إلى «مرسية». ولم يمهلهم الأهالي،

بل تعقبوهم، وقتلوا العديد منهم، نهبوا ممتلكاتهم، وانتقموا لأنفسهم منهم انتقاما قاسيا عوضهم مرارة النير الموحدي خلال سنوات طويلة(30). فتقاطر على «الصخيرات» في تلك الأمسية، وعلى طول الأيام التالية، ممثلو أشهر الأسر لتقديم البيعة للعاهل الجديد.

ـ أنت في حاجة إلى مدينة ـ قال «الغشتي» لـ «ابن هود»، لما انتهت أفراح الأيام الأولى ـ لتكون «عاصمة» تنطلق منها للاستيلاء على «الأندلس».

ـ ستكون «مرسية» عاصمتي، هناك من ينتظرني بها منذ سنوات.

جهز والي «مرسية» [السيد أبو العباس] عساكره استعدادا لصد «ابن هود». قبل ذلك كان قد بعث رسله إلى «السيد أبي زيد» والي «بلنسية» يعلمه بما عزم عليه. في تلك الأثناء جمع أنصار «السيد أبي العُلى» جموعهم، وتهيأوا لمقاتلة المتمرد. من جهته طلب «ابن هود» العون والمساعدة من أهالي «وادي الرُّقُوط» والمناطق القريبة منه، فحشد قوات ضخمة فيهم متطوعة لم يحملوا السلاح ولو مرة في حيواتهم. لكنهم كانوا يعوضون قلة تجربتهم بعزيمتهم الحديدية. بعد قليل ستتاح لهؤلاء الرجال، بمن فيهم المجربون على القتال، أو من لم يخضع منهم لأي تدريب عسكري، وهم الغالبية، الفرصة لمواجهة الموحدين، وإرغامهم على ترك الناس يرسمون مصيرهم بأنفسهم.

***

**أرجونة Arjona. صيف 1228**

دخل «محمد» إلى القاعة المعتدلة الحرارة في الحمام، وجلس بجانب أخيه ووالده على مقعد طويل من الآجر. في الحين صب أحد الغلمان قدرا من الماء على الأرضية الساخنة، ففار على التو بخار حار زاد من الإحساس بالحرارة. في مقعد آخر ترك أحدهم حلاقا يزين له شعره. في حين كان نور الصباح ينبعث من الكُوَّات الصغيرة المتناثرة في أعلى قبة الحمام.

ـ لم أنم هذه الليلة. ـ قال أكبر النصريين. كانت هالتان مزرَّقتان(31) حول عينيه تؤكد ذلك ـ لم تتوقف الصغيرة فاطمة عن البكاء.

كان «ابن الأحمر» قد وفى بتعهده. فبعد فترة من طلب «عائشة»، رزق الزوجان بفتاة أطلقا عليها اسم «فاطمة» إكراما لذكرى والدة النصْرِيَيْن.

ـ سمعنا بكاءها جميعا ـ علق «إسماعيل» ـ وهيء نفسك، سوف يكونان في السنة القادمة اثنين، وعساهم يكونون مع بعض الحظ ثلاثة، إن لم أقل أربعة إذا بَذلْت قُصاراكَ مع النصرانية. ـ ضحك الرجال، فقد كانت «عائشة» حاملا.

ـ هل من أنباء جديدة هذا الصباح؟ سأل «محمد».

ـ استقر «ابن هود» في «مرسية» ـ قال «إسماعيل» ـ انتصر على الواليين الموحدين، ففتح له المرسيون أبواب المدينة. الجميع يتحدث عنه.

كان الأندلسون يتتبعون ثورة «وادي الرقوط» باهتمام. إذ تحول «ابن هود» إلى أمل بالنسبة للعديد منهم. فقد كان البطل ذا مؤهلات كافية ليغير اتجاه الإسلام بالجزيرة. وسرعان ما نودي به أميرا للمسلمين في الأيام الأخيرة، وتمكن من غَنْمِ عاصمة لإمارته الفتية.

ـ والحاكم؟ ماذا عن أحواله؟

ـ وماذا ستنتظر منه؟ سيستمر دائما على ولائه للموحدي ـ أدلى «يوسف» برأيه.

ـ فليكُنْ على يقين، أنه إذا وصل المتمردون إلى هنا، سيجد نفسه مرغما على التضحية بحياته ليبرهن على وفائه للموحدين. ـ أجاب «ابن الأحمر» على الفور.

أتم الحلاق العمل في رأس زبونه. فوقف «محمد» على الإثر ليطلب خدمته. في حين ظل «إسماعيل» و«يوسف» يفكران فيما قاله «محمد». من المدخل كانت تصل أصوات المستحمين، بدا أن الحمام بدأ يغص بالمرتفقين.

ـ لنَشرَع في اللُّبس. ـ قال «إسماعيل» لأخيه قبل الخروج.

أغمض «محمد» عينيه وترك الحلاق يقوم بعمله.

***

كانت «مريم» تتنفس بخضخضة. وقفت، وهي تنظف نفسها، ثم سوت من هيئتها، وتهيأت لمغادرة الزريبة. حينها فاجأها «ابن الأحمر» بحضوره، ثم أمسكها من ذراعها.

- هذا اليوم مغاير لباقي الأيام، ألستُ على صواب؟ - وافقت «مريم» وهي تلهث وبالكاد تتنفس. كان «محمد» يمارس معها الحب، وهي في نشوة عارمة ارتعشت لها حتى ساقاها. - إذا كنت أنت تتمتعين، فأنا متعتي أكثر وأقوى - قال لها بالرومانثي.

- إذن نشوتك اليوم كانت أشد وأقوى. - أجابت هي بالعربية.

ابتسمت المملوكة، غير أن عينيها، كالعادة، كانتا تشيان بحزن عميق متراكم. على الإثر لبس «محمد» سرواله ثم ارتدى جلبابه.

- احكي لي يا «مريم» شيئا عن بلدك.

زالت الابتسامة عن محيا المرأة.

- هذا بلدي، وأنت هو سيدي. كنت أعيش في الجحيم، وأنت أنقذتني. - أجابت المرأة، ثم قبلت «محمدا» في ثغره.

- مُمَالقةٌ، سيأتي يوم ستحكين لي عن قصتك.

- «مريم»! - سمع صوت «مؤمنة» و«شمس»، ابْنَتَي «النصري»، كانتا تناديان على الجارية، تريدان منها أن تغني لهما أغاني «قشتالة».

نظرت «مريم» نظرة خاطفة إلى «محمد»، ثم غادرت الزريبة في سرعة للقاء الصبيتين. وقبل أن تغيب عن ناظريه، استدارت نحوه قائلة:

- في يوم ما - نطقت العبارة، وقد انطبع على وجهها تعبير لا يخلو من مكر.

***

«لورقة» Lorca. نهاية صيف 1228

وقف «أبو العلاء» وقد لبس شبكة زرد من حديد، واعتمر خُوذَةً مخروطية الشكل يتدلى منها طوق من الحرير الأخضر، يراقب تحركات القوات. كان هدير الطبول التابعة له وغيرها، وأصوات الخيل وهي تدك بحوافرها الأرض، يتردد صداها في صدره. كان القواسون قد حيل بينهم وبين عدوهم بتخلفهم، في حين كان الرجالة يقاتلون قتالا مريرا ضد المتمردين. أما الفرق المسيحية فقد استماتت في القتال، وبدأ جناح «ابن هود» الأيمن يتراجع أمام قوتهم. ذلك أنه بمقتضى الاتفاق الذي حصل بين المتطلع للخلافة وبين «فرناندو الثالث» فإن هذا سيتكلف بتقديم العون العسكري والمؤن لـ «أبي العُلى» مقابل تنازل هذا عن عشرة من الحصون، وتقديم الجزية حينما يتم له الأمر.

كان تفوق «أبي العلاء» واضحا. وبدا أن قوات المتمردين، بعد ساعات من القتال، أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة، والدفاع عن نفسها وهي في حالة انسحاب. حينها اعتبر القائد الموحدي أن الوقت قد حان للانقضاض على قوات «ابن هود» بحرسه الشخصي.

حمل الموحدون على الجناح الأيسر للعدو فتراجعت صفوفه الأولى، وأصبح مكشوفا دون حماية. كان طعن «السيد أبي العُلى» بحربته لاثنين من رَجَّالة «ابن هود» غير المدرعين كافيا لفرار قوات المتمردين، وتراجعهم المخزي أمام ضغط الدفع الموحدي. خلال الانسحاب ارتكب

الفرسان البربر مجزرة في حق الهاربين. فتناثرت على إثره جثثُهم عبر ميدان المعركة. وقتها انسحب القشتاليون، وعادوا إلى جنب أبي العلاء.

وقف «أبو العُلى» [المأمون] يتأمل فلول ابن هود المهزومة، وهي هاربة لا تلوي على شيء في اتجاه «مُرسية» بحثا عن ملاذ داخل أسوارها. فبدا أن هذا الظفر سيعزز سلطة أبي العلاء في الأندلس، وسيسمح له بالذهاب إلى «مراكش» ليعالج قضية ابن أخيه، والشيوخ المناصرين له.

***

**«أندوجر» Andujar. شتاء 1229**

طوى «مرتين» الرسالة، ووضعها بين ممتلكاته. ثم خرج للتفسح قليلا عند الأسوار، متبعا الطريق الذي تسلكه عادةً دوريات الحراسة. وكان عدد جديد من المستوطنين قد وصل حديثا للاستقرار ببعض الدور والممتلكات، فكانت حركتهم وهم يحملون الأمتعة من مكان إلى آخر قد أسبغ على القرية بعض الحياة. كانت كلمات أخيه «رُويْ» تدور بخلده فأحس بالحاجة إلى إضفاء بعض الصفاء إلى أفكاره، والتخفيف من شعور الوحدة الشديد الذي كان ينتابه بسبب بعده عن أخيه.

يذكر القس في رسالته لـ «مرتين» أنه اشتاق لرؤيته، وأنه يصلي باستمرار من أجل أن تنظف أرواح الرَّبَاحيين من الدم. وأنه يصلي، أيضا، من أجل أن ينجح أخوه في تحقيق أهدافه، التي، يقول القس في رسالته، إن لديه إحساسا بأنها جليلةٌ رَفِيعَة. ولم يكن الراهب مخطئا في حدسه.

فـ «مرتين فرناندث دي برغش» كان يحمل في جعبته مشاريع سامية، يطمح إلى تنفيذها، والآن، أصبحت في متناوله الوسائل الكفيلة بتحقيقها. وفي الأخير قص «رُويْ» على أخيه بأنه تمكن من زيارة «شَلْبَطَرَّة»، التي عادت من جديد إلى أيدي النصارى، وأنه انفعل حينما وطئت قدماه تلك القلعة التي كانت مركز «رهبانية قلعة رباح».

كان «مرتين» يقلب أوجه فكره. ذلك أن «المايسطري» [الفارس الأكبر] وضعه على رأس مجموعة من الفرسان بمهمة المشاركة في الدفاع عن «أندوجر». حتى الآن، لم يكن قد حقق سوى مهاجمة بعض قرى «الموروس» ضمن أعمال عسكرية محدودة. وكان فرسان «أرجونة» قد أسسوا نظام الزُّمَرِ، وهي جماعات من الثغريين مهمتهم أن يجوبوا، حسب النوبات، الحقول والبساتين لحماية المياومين. وهو ما صعب على القشتاليين تنظيم الغارات، وقلل من فرص القيام بها. كان «مرتين» يرغب في الهجوم على المناطق الإسلامية بالحديد والنار. غير أنه مع إمضاء الاتفاقات الجديدة(32) لم يكن بوسعه أن يجهز لاجتياح كبير.

ومع ذلك، بدا كأن الوضعية قد بدأت تتغير. فقد اتسعت رقعة التمرد بـ «مُرْسِية»، وهو ما حدا بـ «فرناندو الثالث» إلى إعلان الحرب ضد «ابن هود» ليحمي تابعه «أبا العلاء». وكان «مرتين» يحلم بأن يربط «مَرتُشْ» بـ «أنْدُوجَر» عبر «أرْجُونة». وبالرغم من أن الفارس الرباحي لم يفته أن البلدة ما زالت متشبثة بالحكم الموحدي، إلا أنه كان

يعرف أيضا أن الفترة تشهد تشنجا، ومن ثم، فإن الرغبات والعزائم لا تثبت على حال، وتتغير كما تتغير الأرياح، بمعنى أن «أرجونة» يمكنها أن تغير ولاءها في أي وقت اتجاه فريق الأمير «ابن هود». وهو ما يقدم له العذر لتجهيز قواته قصد اقتحام البلدة.

تابع «مرتين» جولته، ثم وقف عند نقطة من السور يظهر منها النهر، أي النهر(33) ذاته التي تسقي مياهه سهول قرطبة وإشبيلية. فجأة دقت الأجراس تدعو المؤمنين إلى القداس.

«علي أن أنتظر إلى أن يتغير اتجاه الريح»، فكر وهو في الطريق إلى حضور أول قداس صباحي.

***

**«أرجونة» Arjona. ربيع 1229**

- وأخيرا وَلَد، مبروك. ماذا ستسميه؟ - سأل «أشقيلولة»، وكان قد حل ببيت "آل نصر» ليهنئهم بازدياد أول مولود ذكر لـ «محمد».

- سيحمل اسمي - أجاب «يوسف».

- «يوسف»، على اسم جده، نعم التقليد المتبع. كيف حال «عائشة»؟

- في غاية السرور. كانت تريد أولادا يملؤون وقتها، ويَشْغَلُونَها عن التفكير في النصرانية... فقد شُغِفَ بها ابني وأولع بحبها.

- شبابيات... دعه، سيأتيه يوم ستصبح واحدةٌ أكثرَ من كافية.

صدرت عن الرجلين ضحكة انبساط.

ـ هل هناك من أخبار يا «أشقيلولة»؟ ـ سأل «يوسف».

ـ تعرفني جيدا أيها الصديق العزيز ـ اعتدل «النِّبْلِيُّ» في جلسته ـ الخليفة له أعداء، هنا وهناك ـ قال «أشقيلولة» ذلك في سرور. ـ هناك، يكثر أعداؤه كل يوم. يظهر أنه تخلى عن بعض مبادئ العقيدة الموحدية وشرع عدد كبير من شيوخ الموحدين ينتصرون لابن أخيه ـ وقبل أن يتم كلامه انحنى على «يوسف» ثم واصل: ـ على الأقل، ليتصرفْ كمسلم حسن، ولو لمرة واحدة، وإن كان هذا الأمر سيكلفه غاليا. ـ قهقه «أشقيلولة»، في حين رد «يوسف» بابتسامة ـ سيجد نفسه في حمأة حرب لعدة سنوات. كان «أبو العلاء» قد عبر المضيق إلى العدوة [المغرب] بعد انتصار «لورقة»، وتمكن من إخضاع ابن أخيه والدائرة المحيطة به من الأوفياء والمقربين. وما أن تمت له البيعة في «مراكش» حتى شرع في تنظيف الحضرة المراكشية من المعارضين والمناوئين. ومع ذلك، فإن حزب ابن أخيه [يحي] بدأ يسترد بعض القوة. أما هنا في «الأندلس» فإن معضلته تسمى «ابن هود»، باعتباره الحاكم الفعلي للجهة. فقد سقطت «جيان» أمام قواته، بل فتح له الموحدون أنفسهم أبواب المدينة. لأن الوضع في «الأندلس» شهد تحولات مهمة منذ أن غادر «أبو العلاء» إلى أفريقيا. إذ أنه بالرغم من هزيمة «ابن هود»، فإنه استمر في المقاومة انطلاقا من «مُرسية». وبذلك جاءته في زمن يسير البيعات من «ألمرية»، و«مالقة»،

و«غرناطة» والأحواز التابعة لها. وكانت ولاية «جيَّان» آخر الملتحقين بإمارة «ابن هود» الفتية.

ـ أرجو أن تصبح كل مناطق «الأندلس» تابعة له. وإلا سيؤول الأمر إلى فقدان أرضنا. ـ أشار «أشقيلولة» إلى صديقه ليثير انتباهه ـ انظر إلى ما وقع في قاصِرِش...

كان خبر سقوط «قاصِرِش»[قصر آش] قد رج المسلمين في جميع بقاع الأندلس. كانوا ينتظرون من المدينة أن تقاوم هجوم الليونيين وتردهم على أعقابهم كما حدث مرات قبل ذلك. لكن هذه المرة كان «ألفونسو التاسع» ملك «ليون» قد صَمَّمَ على اقتحام المدينة، والسيطرة عليها، وهو ما تم له فعلا.

تمكن «ابن هود» في ظرف أشهر معدودة من السيطرة على نصف الأندلس. في هذه الآونة، لم يفلت من هيمنته سوى الجزء الغربي من «الأندلس» ومنطقة الشرق. في هذه المنطقة ثار [أبو جميل] زيان [بن أبي الحملات] و«ابن مردنيش»، وهو من أعقاب «الملك الذئب»، وهو أندلسي آخر تشمئز نفسه من الأفارقة، وكان قد أعلن الخروج عن الحكم الموحدي، ونودي به أيضا أميرا للمسلمين. وكان يُظن أنه يتوفر على القوة الكافية للتصدي لملك «أراغون» الشاب «خايمي الأول»، الذي كان مشغولا بتجهيز قواته لغزو جزيرة «ميورقة».

ـ وإذا كانت «جيان» مع المرسي، فماذا سيحدث لـ «أرجونة»؟ ـ سأل «يوسف».

ابتسم «أشقيلولة» ابتسامة عريضة، فهم منها

«النصري» أن «أشقيلولة» يحوك دسيسة لتسليم «أرجونة» إلى الأمير الأندلسي.

ـ انتظر، إنك على وشك استقبال زيارة أخرى.

مرت بضع دقائق، وإذا بـ «كريمة» تدخل «المجلس» وتعلن عن مجيئ «هادي». استقبله «أشقيلولة» بالأحضان ودعاه إلى المشاركة في المجلس. ثم بعد أن هنأ «هادي» رب أسرة النصريين. جلس الجندي على إحدى المخدات.

ـ كيف حال أصدقائنا؟ ـ سأل المُسِنّ.

ـ عازمين ومهيئين.

كان «يوسف» يصغي في اهتمام. فقد تبين له أن «النِّبْلي» سار في الأمر أكثر مما كان يظن. كان قد مرت عليه أسابيع، وهو في مفاوضات مع «هادي» لينسق مع الأندلسيين الذين كانوا يعملون في القصبة. خاصة بعد أن تبين أن عددا من الأُسر الأرْجونية كانت على استعداد للتدخل عندما يَتَعَبَّأ مَنْ بالقصبة.

ـ كما ترى يا «يوسف» هناك أناس على استعداد للقيام بالخطوة الأولى. لقد حان الوقت لإرسال الحاكم إلى «أفريقيا»، حيث أهله.

انتقل «هادي»، بعد ذلك، إلى الحديث عن نوبات الحراسة التي يلائم توقيتها عملية الاستيلاء على الأسوار والأبواب الرئيسة.

ـ ومن سينفذ إلى الحصن لطرد البربر؟

من الفِناء وصلت أصوات «محمد» و«إسماعيل» وكانا قد عادا من الرباط. بعد برهة دخلا إلى

القاعة.

ـ أقدم لكم وارثي ـ أعلن «محمد» وابنه بين ذراعيه.

نهض «أشقيلولة» من مجلسه، وأخذ يوسف الصغير.

ـ إنهما ذراعان قويتان سَلِيمتان، ستكونان عونا وخيرا في المستقبل. ـ أمعن «أشقيلولة» النظر في عيني «محمد»، ثم تطرق إلى الموضوع مباشرة ـ لقد أزفت اللحظة المنتظرة، لم يعد الموحدون يفعلون أي شيء للصالح العام، والنصارى يبتلعون الأندلس قطعة قطعة. فصار «ابن هود» هو الأمل، وعلينا أن نتبعه. هل أنت مستعد للقتال؟ أنت ومن معك في الرباط. عندما وصل إلى هذه النقطة نظر في اتجاه «إسماعيل».

عاد «ابن الأحمر» إلى أخذ ولده، ثم أجاب بصوت حازم.

ـ اعتمد علي.

***

كان الليل يرخي بأسداله حينما أغلقت أبواب «أرجونة»، فأطلت من السماء النجوم الأولى يخفف من تلألئها نور بدر غير مكتمل. بعد صلاة العَشاء بدأ «إسماعيل» جولته عبر القرية ليجمع الرجال الذين كانوا قد غادروا الرباط خِفْيَةً وعادوا إلى دورهم. قاد شقيق «محمد» الجمع إلى العقبات الأولى المؤدية إلى القصبة بجانب البرج المَرْقَبِ، وقريبا من قطعة السور التي كان أحد

الأندلسيين يقوم بها بنوبته في الحراسة. وقد كان الجندي قد كلف بتأمين الارتباط بين رجال القرية وجند القصبة.

أثناء ذلك كان «محمد» مجتمعا مع أخواله في دار «أشقيلولة». وبالرغم من كون «إبراهيم» و«عبد الله» لم يكونا قد شاركا في تهيئة الرباط، وظلا على هامش هذا المشروع، إلا أنهما لم يكونا يرغبان في تفويت هذه الفرصة، لإظهار وفائهما لتمرد «ابن هود». في تلك الليلة كان الجميع يلبسون الدروع، بعد قليل، بدأ الرجال من ساكني حي القصبة ينضافون إلى المجتمعين بالتدريج شيئا فشيئا. كان «هادي»، حينها، يقوم بنوبته في الحراسة بالقصبة في ارتباط مع الحارس الآخر. لحظات بعد ذلك أشار «محمد» و«إسماعيل» بالشارات المتفق عليها. على التو، أنزل الجندي السلم من الممر في أعلى السور، وفتح الباب، في الوقت ذاته الذي وصل فيه رجال «إسماعيل». في الحال نفذ الرجال إلى نطاق القصر دون أن يشعر بهم أحد. فعل «هادي» الشيء نفسه، غير أن أحد الحراس البربر تفطن للأمر، وصاح ليوقظ الآخرين وهو يجري نحو باب الحصن. في تلك اللحظة بدأت المشادات والمشاجرات، ورفعت الأصوات عبر فضاء الليل القاتم، وإذا بموج من الرجال في كامل عدتهم يغرقون القصر بجزماتهم وأسلحتهم، ويحتشدون في الفناء.

ـ الموت للمبتدعة! ـ صرخ الأندلسيون بصوت واحد، ثم حملوا على من جَرُؤوا على القيام بردة

فعل. سريعا تمكنوا من القضاء عليهم، ثم ساروا بحذاء الأسوار بهدف الاستيلاء على المنافذ. حدث كل شيء في وقت قصير لحد أن الأفارقة الذين كانوا في الحراسة، وجدوا أنفسهم متجاوزين، فاستسلموا دون قتال. مباشرة برز الحاكم في مظهر مهمل دل على أنه لم يجد الوقت الكافي حتى لِلَوْث عمامته على رأسه.

ـ ماذا حدث؟ ما دهاكم؟ ـ صرخ بوجه ممتقع، وهو يواجه «ابن الأحمر».

لم تعد «أرجونة» تابعة للخليفة، من الآن أصبحت للأندلسيين ـ أجاب هذا. ثم أعقب جوابه هتافٌ بحياة «ابن هود».

توجه الحاكم بالكلام إلى «محمد» وهو يشير إليه:

ـ أخطأت في تقديري للأمور، كان علي أن أدرك أن لا خير سوف يأتي من الرباط، وأن أسحقك في اللحظة التي كنت قادرا على فعل ذلك. ـ كانت عبارات الحاكم مفعمة بالغضب والحنق.

ـ هذه القلعة تابعة منذ الآن لـ «ابن هود»، أمير المسلمين! ـ أعلن «عبد الله» في المهاجمين بصوت عال.

لم يقتل أحد بعد ذلك. فقد علم المهزومون أن أي مقاومة سيكون مآلها الفشل. على الإثر اقتيد الموحدون إلى البرج الرئيس في الحصن. في الوقت ذاته شُرِعَ في نزع كل الشعارات والعلامات الموحدية في المُنشأة العسكرية. وبالسيطرة التامة على البلدة كلها ختم

«أشقيلولة» على التحاقه بالمتمردين. ثم نصح بأن يُبْعَثَ برسل إلى الأمير يعلمونه بالوضع الجديد بـ «أرجونة». وفعلا، اختير ثلاثة من أمهر الفرسان للمهمة، ومع بزوغ الفجر انطلقوا إلى «مُرسية».

بعد ذلك بيومين، أطلق سراح الموحدين وحكم عليهم بالنفي. أما بخصوص العائلات الإفريقية المستقرة بـ «أرجونة» فقد احترمت، بما في ذلك الإمام والقاضي اللذان قررا البقاء في البلدة، وإن بدون مزاولة وظيفتهما القديمتين.

وبذلك انتهى التمرد في هذه القلعة الحدودية، التي تمكنت في الأخير من أن تصبح سيدة مصيرها، واستسلمت لرياح التمرد التي كانت تخض الأندلس.

***

وصلت بعثة الأمير «ابن هود» إلى «أرجونة» مع بدايات الصيف. كانت مكونة من مندوبين وعشرين جنديا من الحراس. بعد حين تمت دعوة المندوبين إلى القلعة حيث عقد اجتماع في برج الحاكم. وقد قضى المندوبان أياما عدة يجمعان المعلومات، ويتحدثان مع الفقهاء، ويراجعان الوثائق ذات الصلة بالأحكام التي كان القاضي قد أصدرها في السنوات الأخيرة.

ـ أرى فتورا في أجوبتكم. ـ علق «العُشتي» في الاجتماع الثاني لوجهاء البلدة. ـ بدا أنه المندوب الأكثر مقاما ـ لقد قضى القاضي سنوات وهو يمارس عليكم التمييز والظلم، ويقضي بغير عدل لصالح الأفارقة على حساب الأندلسيين،

ويقتل أهلنا فقط لأنهم يتمسكون بعاداتهم، ويحافظون على تقاليدهم. وعليه، فإني أرى ضرورة إعدامه في الحال. أما الإمام فإنه سينفى إلى أفريقيا. بمصاحبة العائلات الإفريقية، وستحبس أراضيهم لصالح الجهاد. ـ لم يعارض أحد أو تجرأ بالمقاطعة ـ ذاك ـ أشار إلى المندوب الثاني ـ سيكون حاكمكم. ثم سنعين فقيهين «أرجونيين» ممن لا يُطعن في إيمانهما وفي شرفهما لتولي منصبي الإمامة والقضاء. وبذلك قضينا باسم العلي القدير.

ـ اللهم بارك ـ أجاب الأرجونيون.

ـ هل طهرتم المساجد؟ ـ سأل الحاكم الجديد. كان الجواب بالنفي من قبل الحاضرين. ـ إذن سنقوم بهذا الطقس مساء اليوم، لقد كانت المساجد بيد أهل البدع، لا تنسوا ذلك.

قبل صلاة العصر أقيمت طقوس تطهير المساجد. وفي الحال تولى الأئمة الأندلسيون وظائفهم، وأقاموا الصلوات باسم خليفة «بغداد». بعد ذلك نادى المنادون بعملية إعدام القاضي التي ستتم في بطحاء القصبة في الساعة الأخيرة من مساء اليوم ذاته.

جاء المئات من الأرجونيين لحضور إعدام القاضي. كان ينتظر مصيره في ثبات، محافظا على عزة نفسه إلى آخر لحظة. بعد لحظة وُضعَ رأسُ الرجل على قُرْمَة:

ـ كن فعالا. ـ طلب من الجلاد.

ـ سأفعل بضربة واحدة.

أنجز الجلاد وعده، إذ فصل الرأس عن الجسد بحزَّة واحدة. فار الدم بقوة، وسقط الجسد واهنا نحو الوراء على الأرض والدم ينزف منه. سمعت على الإثر لعنات الأسر التي كانت قد تضررت من أحكام الرجل، وتخالطها أصوات تلذذ واستمتاع بمشهد قتل القاضي، في حين غادر آخرون في صمت في اتجاه المدينة.

تسلم الحاكم الجديد منصبه بالقصر. وهيأ «الغُشتي» لعودته في اليوم التالي. وبذلك أصبحت «أرجونة» تابعة للأمير المتمرد.

***

**«مرسية» Murcia. خريف 1229**

جلس الأمير على المقعد تاركا الحلاق يقوم بعمله. كان المُزَيِّنُ قد صعد إلى الطبقة العليا من برج «كراماجول»، وهو أهم أبراج القصر، ليخضب لحية «ابن هود». كان أمير المسلمين يسمع التقارير اليومية التي يقرأها عليه أحد الكتاب مصطنعا هيئة رزينة وقورة. من جهة البستان كانت تصل ضوضاء العمال، وهم يَكِدون في خدمة الأرض، ويثابرون في أعمالهم. في حين كان نور الشمس المتسرب من الشُّرفة الكبيرة يغمر كل القاعة.

- موحدو جزيرة «ميورقة» يقاومون الأرغونيين غير أن قواتهم بدأت تضعف. لا نعتقد أنهم سيصمدون مدة أطول. كان الأراغونيون قد تمكنوا من القيام بإنزال بحري كبير بالجزيرة في نهاية الصيف، وهزموا الموحدين مرتين، وهم

الآن يحاصرون المسلمين في العاصمة. وقد طال الحصار إلى حد الآن مدة شهرين، وكل العلامات تؤشر إلى أن النهاية ستكون قريبة.

ـ أما عن حاكم «إشبيلية» فقد فر وهو الآن في الطريق إلى «الجزيرة الخضراء» ليعبر إلى «أفريقيا» ـ استطرد الكاتب ـ. على الإثر بايعت الحاضرة أمير المسلمين «ابن هود»، فالله يحفظه، ويبارك خطواته.

وبهذا الخبر تأكدت الإشاعات التي كانت قد راجت عن أن وجهاء إشبيلية كانوا قد اجتمعوا خفية، وأعلنوا خلعَ أيديهم من طاعة الموحدين، وبادروا بتسليم المدينة وفحصها لـ «ابن هود». وبذلك سارت العاصمة القديمة للموحدين على نهج «قرطبة» و«بَطَلْيُوسْ» Badajoz اللتين كانتا قد أعلنتا، قبل ذلك بقليل، عن خضوعهما لطاعة «ابن هود». وبذلك قرر الأمير إرسال أخيه سالم [أبو النجا] واليا على إشبيلية، وقد كان يضع فيه كامل ثقته.

ـ هل أنت في حاجة إلى المزيد من الوقت، أيها الحلاق؟ ـ كان «ابن هود» قلقا، لم يكن من الذين يكرسون الكثير من الوقت للعناية بأنفسهم.

كان الرجل في حالة إرهاق بسبب قضايا الحكم التي حاصرته من كل جانب، بسبب طلبات أنصاره اللامتناهية. كان كل شيء قد تغير، وأيام «وادي الرِّقُّوط» انتهت وولت. ولَكَمْ كانَ يَشْتاقُ إلى حُرية الجبل، وإلى الغارات، والحب الحقيقي والقريب الذي تكنه له قرى الوادي وأهله. الآن، أصبح مسيطرا على مناطق شاسعة تحتاج إلى

إدارة محكمة لتحصيل الضرائب والإتاوات، ومعالجة الاستثمارات العامة. لقد كانت هذه الجوانب الإدارية للتمرد أَقَلَّ ما يثير اهتمامه، وبالتالي كان يكلفُ رجالَ إدارتِه بالتَّكَفُّلِ بها.

اقترب الكاتب منه، ثم قدم له قطعة نقدية من ذهب.

ـ هذه من أوائل «الضبلات» التي سكت باسمك بـ «دار السكة».

كانت «دار السكة» بـ «مُرسية» قد شرعت في إنتاج القطع النقدية للدولة الجديدة، ضبلات(34) من ذهب لتعويض النقد الموحدي. كانت أشكالها مختلفة، ونقشت عليها نقوش تشير إلى الأمير والخليفة العباسي. تأمل ابن هود القطعة، وظهرت على وجهه علامات الرضى.

ـ لنمحو ذكراهم. ـ قال «ابن هود»، ووافق عليه من كان حوله من رجال حاشيته. ثم مال برأسه نحو الوراء، وترك الحلاق يكمل شغله، في حين استمر الكاتب في قراءته:

ـ حاكم «أُبَّدَة» بعث بشكوى. يقول إنه يحس بأنه غير محمي.

وكان «فرناندو الثالث»، قد اقتحم أراضي «ابن هود» مساندةً للخليفة أبي العلاء [المأمون]، واستولى على قلعتي «شوذر» Jódar، و«شَبْيُوط» Sabiote، ومن ثمة، ضيق الخناق على «أُبَّدَة» Úbeda، ووضعها في الخط الأمامي للمعركة. والظاهر أن عدم وفاء الخليفة «المأمون» بوعده في تسليم الملك القشتالي

عشرة حصون، بسبب التمرد الأندلسي، دفع بـ «فرناندو الثالث» إلى استيفاء الحساب بنفسه.

ـ إن الحاكم على صواب، لم نفعل شيئا.

ـ لقد أضعنا «شوذر» و«شبيوط» غير أننا ربحنا «قرطبة»، و«بَطَلْيوس، و«إشبيلية». ـ تدخل أحد الفقهاء المسنين اشتهر بينهم باعتباره متصوفا.

ـ لا يمكننا أن نغنم على حساب أن نخسر! ـ انفجر غاضبا «ابن هود» في وجه الفقيه المسن ـ ثم هم واقفا وهو يزيل قطعة القماش التي كانت على صدره حتى لا يلوث بالحناء، وتوجه إلى الشرفة الكبيرة. ـ يكفينا خمولا هنا في «مرسية»، بينما بعضهم يتضاربون فيما بينهم، وآخرون يأخذون ما هو ملك لنا. لقد سقطت «قاصِرش» Cáceres في يد الليونيين، واستولى القشتاليون على «شبيوط» و«شوذر»، في حين يحارب الأراغونيون في جزيرة ميورقة وهي قاب قوسين أو أدنى من السقوط في أيديهم، أما نحن، ماذا نفعل نحن؟ ماذا ننتظر؟ ـ كان الحاضرون في القاعة ينظرون إليه في ترقب، وقد أصيبوا بحيرة واضطراب جراء احتداد الأمير. ـ لقد حانت لحظة التصرف، ـ استمر «ابن هود» ـ وحانت ساعة دق الطبول، وتحرك الجيوش. ـ على الإثر، هتف رجال الحاشية مهللين لكلامه، هم الذين كانوا ينصحونه دائما بالتريث، والانتظار بـ «مُرسِية»، ومراقبة تطور الأحداث إلى أن يتوضح المشهد ـ لقد آن الأوان لمقابلة النار بنار أقوى منها! ـ ختم أمير المسلمين.

***

أرجونة **Arjona**. شتاء 1230

ـ لقد أتلفوا أشجار الزيتون! ـ كان صوت «إسماعيل» يتردد صداه في أرجاء البيت ـ إن الكفار الملاعين قد دمروا أشجارنا!

منذ أن أعلنت «أرجونة» انضمامها إلى المتمرد ابن هود، عاد النصارى إلى سياسة الغارات بحدة وشدة. وهو ما عاق البلدة عن التزود بما تحتاجه من مؤن وأقوات، وأصاب أهلها بالذعر والجوع.

خرج «محمد» للقاء أخيه، ثم أخذه إلى إحدى الغرف حتى لا ينذر باقي أفراد العائلة.

ـ والحبوب، ماذا عن الحبوب؟

لا، لم يتعرضوا للحبوب، في ذلك حالفنا الحظ. لكن نسفوا عددا من بساتين الفواكه، سوف لن يرتدعوا، يا «محمد»، إننا مطوقون.

ـ علينا أن نتقوى أكثر. سأحدث الحاكم في هذا الشأن. اطمئن، سنوقفهم عند حدهم.

كان الحاكم الجديد قد أعاد تنظيم القصر، وأدمج في الكتائب عشرات من الأرجونيين الذين تدربوا على السلاح في الرباط. وقد احتفظ الحاكم بعلاقة جيدة مع النصريين وآل «أشقيلولة». وخصص اعتمادات مالية جديدة للرباط، ولم يكن يتوقف عن تشجيع «محمد» على الاستمرار في عمله.

خرج الأخوان من الغرفة، فالتقيا بـ «عائشة» وهي تحمل على وَرِكِها سلة مليئة بالثياب الوسخة.

ـ أظن أنها حامل، فقد فات موعد دورتها الشهرية. ـ همس «ابن الأحمر» في أذن أخيه. ابتسم «إسماعيل» ثم ضغط على ذراع شقيقه ليهنئه. ـ ثم إنها لم تعد تعنفني بخصوص «مريم».

ـ كفى يا قليل الحياء، هيا إلى الخارج ـ أمسك «إسماعيل» أخاه من ذراعه ـ من كان سيصدق أنك، أنت ذو السلوك القويم، ستكون لك جارية مسيحية في البيت؟!

ـ لقد علمتني الحياة أن أكون لينا مرنا حتى لا أكَسَّر إلى شِقَّين.

***

ملأت «مريم» الجرةَ ماءً بسطلين. كان لونُها ممتقعا، وعيناها محاطتين، بهالتين مُزَرَّقتين.

ـ ما بك، يا «مريم»؟ ـ سألها «ابن الأحمر» من مسافة قريبة.

ـ لا شيء. ـ تصنعت «مريم» ابتسامة لم يَخْفَ على «محمد» زيفُها.

ـ لم تنامي جيدا؟

كسرت نبرة «محمد» الحاجز الذي سعت «مريم» إلى رفعه.

ـ كوابيس، لا شيء مهم.

ـ حينما كنت طفلا كانت أمي تسألني عن أحلامي، وكانت تحسن قراءة الرموز المكنونة فيها. قُصِّي علي بعض أحلامِك عساي أن أكون قد ورثت موهبتها.

أزاحت «مريم» خصلة من الشعر عن وجهها، وابتسمت من جديد. غير أن ابتسامتها هذه المرة كانت حقيقية. لم يكن «محمد» قد عاملها أبدا بفظاظة، لكن اهتمامه براحتها كان جانبا جديدا في علاقتهما.

ـ حلمت أن خالي يغتصبني، وأن بذرته تتعفن في دواخلي، فتركتني بائرة غير منتجة. ـ لم تكن المرة الأولى التي حلمت بمثل هذا المنام المريع.

تأخر «ابن الأحمر» في إظهار ردة فعله، متأثرا بقسوة كلماتها.

ـ في منامك كنت وحيدة، أما الآن فأنا بجانبك. ـ قال بنبرة غلبت عليها الرقة والحنان.

***

«أندوجر» **Andujar**. شتاء 1230

أظهر التاجر إجازة المرور لحراس الجسر، وبعد أن تحققوا من طابع «رهبانية قلعة رباح» سمحوا له بالمرور. عَبَرَ «الوادي الكبير» وهو راكب فرسه، ثم توجه إلى «أندوجر»، حيث خضع لعملية المراقبة ذاتها مَرَّتَيْنِ. في النهاية وصل إلى القصر. ترك فرسه في حراسة أحد الفتيان، ثم ذهب للقاء «مرتين فرناندث دي برغش». استقبله على التو وشرع في استنطاقه.

ـ أغلب الحراس من العامة، تدربوا في معسكر يوجد يضواحي المدينة ـ بدأ التاجر حديثه.

ـ كم عددهم؟

ـ لمَّا غَيَّرُوا ولاءَهُم، طَردُوا الأفارِقة. ولا أعتقد

أنهم يتوفرون الآن في القصر على عدد كبير من الرجال، وحتى وإن كان لديهم رجال فهم ناقصوا التدريب.

- فهمت. وهل بعث ملكهم برجال إلى الحامية؟

- لا، حسب ما قيل لي. ويزعم بعضهم أن الأمير يجهز جيشا ليقوم بحملة على «الإكستريمادورا الليونية»، يريد الرجل تحرير مدينة «ماردة» من حصار ملك «ليون».

كان «ألفونسو التاسع» قد حشد قوات كثيفة للاستيلاء على المدينة. وأمام هذا التحدي الذي أثار حماس «ابن هود»، شرع هذا الأخير في استدعاء الجند إلى «قرطبة».

استغرق الفارس في تفكير عميق، وأخذ يدور في مكانه ببطء أمام العميل، كما لو أنه يرسم حلقة وراء حلقة. حقا كان الرجل مكلفا من رئيسه بمهمة، مثلما أن طموحه كان يدفع به إلى أن يحقق عملا باهرا يجعلُ رئيسَه يفخر به. كل مرة كان يرى الأمر، مع تطور الأحداث ومضي الوقت، واضحا جليا، إن الريحَ تُغير اتِّجاهَها، والسبيلُ يُصبح كل يوم سَهلا مُمَهَّدا. فلماذا لا يبادر بعمل بطولي ما؟ كان تحت تصرفه عدد لا بأس به من فرسان «رهبانية قلعة رباح»، كما أن أعدادا أخرى من الفرسان القشتاليين ستعزز، دون شك، رجاله عند الضرورة.

- عمل جيد، يا «گومي». قل لـ «رودريغو» أن يدفع لك أجرك. - قال للعميل.

بقي الرباحي وحيدا، وجعل يصلي في صمت

خلال أكثر من ساعة، وهو يسكت زمجرة معدته بتأثير الصيام. «إلهي، كتائبكك في خدمتك، اجعلها تحت تصرفك متى شئت، وقدها إلى النصر على الكفار»، دعا ربه سرا، ليختم بذلك صلاته.

***

«حصن الحنش»(35) **Alange**، مارس 1230

وصل الجيش الذي حشده أمير الأندلس بقرطبة إلى أحواز «حصن الحنش» **Alange** أياما فقط بعد أن استولى جيش ملك «ليون» ألفونسو التاسع على «مَارِدة» **Mérida**. في الحال أمر «ابن هود» بإقامة معسكر بعين المكان ليُقَوِّمَ الوضع. أمام هذا الوضع، صمم «ألفونسو التاسع» من المدينة ذاتها «ماردة» مواجهة ابن هود في الميدان. كان الجيش الإسلامي يفوق من حيث العدد كثيرا الجيش المسيحي، لكن الملك الليوني كانت لديه ثقة في خبرة جنده، ومهارتهم الكبيرة في فنون القتال. فقد اجتمع في قواته منذ أن دعا إلى الحرب ضد «الموروس» إضافة إلى جموعه، الفرسان التابعون للجماعات الدينية، من «فرسان شنت ياقب»، و«الهيكل»، و«القنطرة»، وجموع مطران «شنت ياقب»، وعدد من أساقفة مملكته مع الفرسان والمشاة التابعين لهم.

عبر الليونيون «وادي يانة» [النهر اليانع] **Guadiana** بالليل، وفي الصباح برزوا أمام المعسكر الإسلامي الضخم مصطفين على أهبة الدخول في المعركة.

- إن الله معنا! - صاح الأمير مستحثا رجاله،

بينما كانت سرايا الأندلسيين تصطف، هي أيضا، في مواجهة النصارى. كان التعب باديا على «ابن هود»، بدا فاقدا من وزنه، وعيناه تحيط بهما هالتان رماديتان عميقتان.

دقت الطبول، وتردد صدى هديرها عبر الحقول. هنا، وهناك كان صهيل الخيل، والجلبة التي يحدثها المقاتلون من هذا الفريق وذاك تعم الفضاء. قبل الزوال اتخذت تشكيلات النصارى وضعا دفاعيا. كانت برانيس الفرسان فوق دروعهم تبرز من بعيد بألوانها المختلفة، في حين أشرقت خُوذَاتهم الحديدية الصقيلة تحت أشعة الشمس التي كانت تعلوهم من وراء. كان النصارى قد وَقَعُوا على أنسب المواقع لخوض المعركة. بينما كان ابن هود يسعى إلى المناورة بالاستدارة قليلا نحو الجنوب. على الإثر شرع حاملو الحربات في رمي رماحهم تجاه النصارى لمناوشة الصفوف الأولى لليونيين واستفزازهم قصد الدخول في المعركة، غير أن القوات المصاحبة للعاهل الليوني لم تحرك الساكن، والتزمت مواقعَها، فقط سمحتِ القيادةُ المسيحية لأحد صفوف القواسين بأن يستقبلوا المسلمين بسهامهم. مباشرة، حاولت فرقة من سلاح الفرسان الخفيف الإسلامي تطويق جيش «ليون» من الجناحين، لكنها فشلت في سعيها، وكلفت مناورتها الفاشلة «ابن هود» الكثير من الأرواح. فرأى القائد الأندلسي أن يتقدم بسلاح الرجالة. وكانوا يمثلون مقدمة جيشه، وبالكاد يعرفون استخدام السلاح لقلة دربتهم عليه. على الإثر

أبيدوا من قبل رجالة فرق الأساقفة.

ـ جميعا، إلى الأمام! ـ أمر «ابن هود»، وقد احمر وجهه، من الغيظ. ـ إن اللّٰه يراقبنا!

سرى الأمر بالتقدم بين رؤساء الجيش. فتقدمت القوات الإسلامية دون أي استراتيجية عسكرية أمام جدار من الدروع الليونية. على التو، ظهر عجز «ابن هود» في إدارة الحرب. فقد كان الرجل متعودا على قتال الغارات، والعمليات الصغيرة، أما تسيير معارك الميدان الكبرى من قبيل معركته ضد ملك «ليون»، فلم يكن «الجُذامي» مهيئا لها.

ـ اغلقي، يا إسبانيا! ـ سمع من الجانب الآخر. فانطلق سلاح المشاة الليوني كالسيل في اتجاه العدو الكافر.

ـ سانتياغو!(36) ـ صرخت مئات من الأصوات بينما كان أصحابها يعدون في اتجاه «الموروس».

عند اللقاء تمازج الرجال واختلطوا. قوة الهجوم المسيحي جعلت بعض الرجال يتجاوزون خط العدو. على الإثر نشر الأساقفة فرسانهم عبر خط طويل حرص القواد على ألا يتعمق في صفوف العدو، في حين تموضع رجال الملك وراءهم باعتبارهم قوة إمداد. كان «الموروس» يفوقون النصارى عددا غير أنهم كانوا يسقطون أكثر من المسيحيين. في الحال امتلأ الميدان بالأشلاء والجثث.

سعى سلاح الفرسان الإسلامي إلى تطويق المسيحيين من الجناحين لكنه وجد في انتظاره فرسان «الهيكل» و«سانتياغو». في هذا الوقت

بدأ خط الرَّجَّالَة النصارى ينثلم من الوسط بفعل دفع الأندلسيين الذين كانت أعدادهم الكثيرة ترجح الكفة تدريجيا لصالحهم. في الحال دخل رجال الأمير من الثُّلْمَة.

ـ أغلقوا، أيها الفرسان! ـ صاح على الإثر «مايسطري» رهبانية «القنطرة»، الذي كان ينتظر دوره في المعركة على أحر من الجمر:

ـ ها الرب يرسل بقواته! ـ مباشرة حمل فرسان «القنطرة» على المسلمين بتشكيلة أغلقت كل منافذ الهرب عليهم، فتفردت بمن داخل الثُّلْمة. لحظة، تغير الوضع، ونفَذَ الفرسان النصارى إلى عمق العدو، فبدأت المجزرة. ولم تكن قوات «ثَمَوْرَة» وهي ترى مشهد اندحار المسلمين لتُفَوِّتَ على نفِسها المشاركةَ في المذبَحة. تقدم الثَّمُورِيُون من الفراغ الذي أحدثه الفرسان المسيحيون في المشاة المسلمين، فقسموهم إلى قسمين. منذ تلك اللحظة لم يعد العدد مهما، فقد حاقت الهزيمة بـ «المورويس» Moros من كل جانب، بالرغم من أعدادهم الكبيرة التي تفوق أعداد الليونيين ومن معهم، وسرعان ما غادروا ميدان المعركة، وأطلقوا سيقانهم للريح. فلم تمض سوى بضع دقائق حتى كان الجميع في الجيش الإسلامي، بما في ذلك زعيمه ابن هود، يتسابقون هربا في اتجاه «بَطَلْيوس» Badajoz طلبا للنجاة بأنفسهم داخل أسوارها. غير أن الليونيين، مع ذلك، لم يمهلوهم فتعقبوهم، وإذا بالحقول والوديان يخيم عليها الموت، وتتلوث بدماء المهزومين.

شرع «ابن هود» يبكي بكاء الغضب والحنق. كانت الهزيمة تخنق صدره، وتعطل أنفاسه، بينما كان يعدو محاطا بطائفة من رجاله الأقربين. كيف أدبر المجد الذي كان ينتظره في ذلك الصباح؟ وتلاشى النصر الذي كان يراه مؤكدا على ملك «ليون»؟

فجأة استفاق ابن هود على رؤية زمرة من فرسان رهبانية «القنطرة» وهم يَجِدُّون في العدو للحاق به، وبمن معه.

ـ اهرب! ـ صرخ أحد قواد الزعيم.

ـ لا، لا أريده تعالى أن يراني منصرفا عن رجالي!

استدار «ابن هود»، وحمل بكل قوة على فرسان الرهبانية المحنكين، والمدربين خير تدريب على فن القتال. كان الجميع يدعو ربه، لكن الرب إن كان عليه، في ذلك الصباح أن يميل إلى فرقة دون أخرى، لم يكن ليفعل ذلك إلا لصالح الفريق النصراني. جُرح «ابن هود» في إحدى ساقيه فأجبره رجاله على المغادرة، قبل أن يتمكنوا من «فرسان القنطرة»، ويقتلوهم جميعا، ثم ابتعدوا آمنين بعض الشيء، إلى أن وصلوا إلى أحواز «بطليوس».

في المدينة، اعتنى طبيب الحاكم بـ «ابن هود»، وخاط جُرحَه بعناية خاصة، دون أن يصدر عن «ابن هود» أثناء العلاج أي توجع بسبب الألم. كما أن الزعيم الأندلسي لاذ بالصمت، ولم ينبِس ببنت شفة إلى غاية الصباح في اليوم الموالي. حتى اعتقد تابعوه المقربون أن الرجل فَقَدَ القدرة على

الكلام بسبب الصدمة، وتأثير الهزيمة. لكن ردة الفعل هذه، لم تكن في الحقيقة سوى الغضب الشديد الذي كان يغلي به صدر أمير المسلمين، وهو ما عطل حنجرته.

لم يكن «ابن هود» قد بدأ حكمه بخطى سديدة.

***

**جَيَّان ـ Jaén. خريف 1230**

ـ بعد قليل سيبدأ موسم الأمطار، وهو ما سيحول دون سقوطها، لقد حان موعد العودة إلى قشتالة.

اجتمع «فرناندو الثالث» بمستشاريه، وأخذ يُقَوّم نتائج الحصار الذي ضربه على «جَيَّان» منذ ثلاثة أشهر. كانت الحملات التي عرفتها المنطقة في السنة الماضية وألحقت بها الخسائر التي أضعفتها، إضافة إلى الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في Alange «حصن الحنش» قد رسخت لدى القشتاليين الاقتناع بأن الاستيلاء على «جَيَّان» سيكون أمرا سهلا. كان «فرناندو الثالث» قد شرع في محاصرة «جيان» منذ يونيو، حيث ضيق عليها الخناق، ومع ذلك، لم تصل المدينة خلال مدة الحصار أي إمدادات من أمير المسلمين. وهو ما بدا معه أن «ابن هود» قد أصبح أكثر تبصرا واحتراسا. ويبدو أن التحصينات الضخمة التي كانت تحمي «جيان»، وعجز القوات القشتالية على قطع تزود المدينة بالمؤن بشكل تام، كل ذلك منع على القشتاليين دخول المدينة، والسيطرة عليها. فقد كان الأهالي يعرفون طرقا خفية عن عيون

غير العارفين بالمنطقة، ومن ثم، كانوا يربطون مدينتهم بالقرى والبلدات المجاورة، وهو ما كان يسمح لهم بالتزود ببعض الأقوات.

كانت هذه هي المرة الثانية التي يغادر فيها القشتاليون حصار «جيان». فبدا كما لو أن حلم «فرناندو الثالث» في ضمها إلى ممتلكاته سوف لن يتحقق.

ـ يمكننا أن ننسف الزروع والكروم ونقطع الأشجار. ـ اقترح أحد النبلاء.

وافق العاهل القشتالي على الفكرة، ثم أمر برفع الحصار، والعيثِ فسادا في الحقول والبساتين المحيطة بالمدينة قبل العودة إلى «طليطلة».

في بداية أكتوبر، كانت القوات القشتالية قد عبرت سلسلة جبال الشارات Sierra Morena ووصلت إلى «قشتالة». تاركة الأندلس في وضع لم يعرف معه الأندلسيون ما المناسب، هل إظهار فرحهم بانسحاب القشتاليين، أم الشعور بالخجل لعجز «ابن هود» عن إنجاد «جيان» المحاصرة.

في طريق العودة، وقريبا من من «أرْكَشْ» Orgaz وصل مبعوثون وطلبوا لقاء الملك.

ـ ملكي، غمرك الرب بغفرانه وإحسانه. أتيتك أحمل أخبارا عاجلة من سيدتي الملكة، والدتك. وإنها الآن آتية خلفنا، ولعلها في هذه اللحظة على مسافة قريبة من «أركَشْ».

ـ ما هذه الأخبار؟ ـ سأل فرناندو بوجه ممتقع.

ـ مات ملك «ليون». ـ أجاب الرسول على الفور. ـ غادر «بَطَلْيوس» بعد أن استولى عليها، ثم قصد «سانتياغو» [شَنْت يَاقِب] ليقدم الشكر للحَوارِي [أحد أنصار عيسى عليه السلام المدفون هناك]، غير أنه مرض في الطريق، ومات قبل أن يصل إلى المزار، دون أن يتمكن أطباء البلاط من إنقاذه.

لاذ فرناندو بالصمت. كان الأشراف يرقبون حركاته بانتباه. على الإثر سارع الملك إلى امتطاء فرسه في حركات عجلى، وأمر بمعاودة المسير.

ـ أنتم! ـ صاح في المرسولين ـ أسرعوا إلى الملكة وقولوا لها أن تنتظرني في «أرْكَشْ».

همز الرجال جيادهم، وأسرعوا عدوا إلى أن غابوا بعد لحظة عن ناظري الملك. انزوى «فرناندو الثالث» ناحية، بعيدا عن حراسه، حتى لا يروه يبكي، وانخرط في موجة بكاء حاد على أبيه. تَصَارَع في صدره خليط من المشاعر والأحاسيس، منعته من التنفس براحة. كان يحب والده، وقبل مدة كان قد عزم سرا على أن يتصالح معه، وأن يعود إلى رؤيته، لكنه أيضا كان يشعر نحوه بحقد دفين زاد من أوراه الحرب، وأيضا، الاحتقار الذي عامله به. اجتر ملك «قشتالة» كل تلك الأحاسيس وهو يبكي وفاة والده في صمت وعزلة، كما ينبغي لملك مثله.

***

ـ إياك وأن تتوقف يا بني، واصل إلى غاية «ليون» وخذ ما هو ملك لك! ـ صرخت «برنگيلا» ما إن رأت «فرناندو الثالث» يقترب.

عانق الولدُ أمَّه. وقد بدا على عيني «برنگيلا» أثر البكاء.

ـ سأفعل يا أمي. إن ميراث والدي هو لي، تم الاتفاق على ذلك في معاهدة «كَبريروس» Cabreros واعترف الجميع بذلك. ـ وكان «ألفونسو التاسع» قد أبدى في السنوات الأخيرة من حياته تفضيله بشكل واضح لابنتيه «سانشا» و«دولثي» على حساب «فرناندو»، غير أنه لم يترك وثيقة مكتوبة توثق هذه الرغبة. وهو ما دعا ملك قشتالة إلى التمسك باتفاق «كبريروس» القديم ليتم الاعتراف به ملكا على مملكة «ليون»، مادام أن نص المعاهدة [الذي وقع بين «ألفونسو التاسع» وبين ملك قشتالة ووالد «برنگيلا» «ألفونسو الثامن» في 26 مارس سنة 1206] لم يُنسخ، ولم يعرف أي تغيير.

وصل «فرناندو الثالث» وأمه إلى «طليطلة». وقرر الملك أن يقضي العشي والليلة في المدينة، ثم الاستمرار في المسير في اليوم الموالي. هناك، كانت «بياتريث دي سهابيا» الملكة تنتظر زوجها وهي حامل من جديد. كان «فرناندو» مشتاقا إليها خلال غيباته الطويلة. في البلاط كانت الحاشية تحكي النكت عن خصوبة الزوجين. وكيف أن أولادهم كانوا يكبرون في صحة جيدة. وكان «ألفونسو»، أكبر أبنائهما سنا، قد بقي في رعاية «غرثيا فرناندث بياماجور»، مؤدبه. وكانت التقارير تتحدث عن ذكاء ولي العهد وقدراته على التعلم بسرعة، واهتمامه الكبير بالتحصيل والدراسة.

ـ كيف تركت جيان؟ ـ سألت «بياتريث دي سُهابيا» بلغة رومانثية ذات نبرة شمالية قوية.

ـ لقد خَبَطْنا الشجرة، لكن لم تسقط كل الثمار.
ـ قبلها الزوج في جبهتها ـ المرة الثالثة ستكون هي الأحسن، ستسقط. إن الرب يرينيها كذلك في منامي.

ود الملك أن يقضي وقتا أطول مع زوجته، غير أنه كان ينبغي عليه أن يعالج أمورا أخرى قبل الذهاب إلى «ليون». فخصص بعضا من وقته للاجتماع بالمسؤولين والأشراف في حين حدد الساعة الأخيرة لتفقد الأعمال في كاتدرائية «طليطلة». كانت الجدران قد بدأت ترتفع، وحركة العمال والعربات لا تنقطع. فسر «فرناندو الثالث» بالتقدم الذي حصل في الأوراش، بالرغم مما شعر به وهو يتفقد الأشغال من بعض الحنين الممزوج بكآبة، حينما استحضر في تلك الآونة عدد القداسات التي حضرها مع أمه في الكاتدرائية القديمة. « أن يد الزمن الطُّولى تلحق كل شيء، وكل مخلوق» دار بخَلَدِه.

«أنا أكبر أبنائك الذكور الأحياء، ومن ثم سآخذ حقي، وما يُعَدُّ من نصيبي» قال الملك لنفسه، كما لو أن إخضاع مملكة «ليون» لحكمه قد يكون وسيلة ما للاعتراف بشخصه ابنا لأبيه الهالك.

***

وصل مبعوث أسقف «ليون» إلى «منت ليشم» Mansilla يريد مقابلة ملك «قشتالة». كان «فرناندو الثالث» قد نفذ إلى مملكة «ليون» على

رأس جيشه يصاحبه أقرب رجال دولته. وخلال المسافة التي قطعها سريعا داخل «ليون»، تمكن من أخذ الاعتراف به وريثا للمملكة من بعض المجالس البلدية Concejo أهمها مجلس «طورو». فقط، خرجت، عن شبه الاجماع الذي لقيه في طريقه، مدينة «سَمُورَة» التي أظهرت ميلا إلى الأميرتين «سانشا» و«دولثي». وبالرغم من ذلك كانت الوضعية في عاصمة المملكة «بُرْغُشْ» مختلفة. فقد خيم على المدينة جو من التوتر بدا معه أن الأمور ستتجه إلى حرب أهلية. بعد أن قام قاضي الملك في مملكة «ليون»، وهو من أنصار الأميرتين بالتحصن داخل القصر، مثلما قام حليفه النبيل «دييغو فْرُيْلَسْ»، باتفاق مسبق مع القاضي، باقتحام كنيسة «سان إسيدورو»، ثم استولى عليها. بينما قام أسقف «ليون» وهو من أنصار «فرناندو الثالث» ملك «قشتالة»، وكردة فعل من جانبه، بتحصين الكاتدرائية وحَثِّ البرغشيين على السيطرة على أبراج الأسوار، وعلى الكنائس، لحد أنه حينما وقع حادث لم يكن متوقعا أصبح الجو العام بالعاصمة يتنفس حربا. ذلك أن «دْيِيغُو فْرُيْلسْ» المذكور ألم به مرض جعله طريح الفراش، فاعتقد الجميع، من بينهم الشريف نفسه، أن إصابته بالمرض هي عقاب رباني بسبب انتهاكه لحرمة الكنيسة. وهو ما دفع بالنبيل إلى إعادة الكنيسة ومغادرة العاصمة. وبذلك بدأ الطريق يتمهد لـ «فرناندو». على الإثر أرسل الأسقف وأعيان المملكة مبعوثا إلى ملك قشتالة يدعونه إلى الدخول إلى الحاضرة.

ـ إنها لنا ـ قال «فرناندو» لما أنهى قراءة الرسالة.

ـ ما هذا الذي أصبح لنا يا بني؟ ـ سألته الملكة «برنگيلا».

ـ العاصمة. يقول الأسقف «ضون رودريغو» إنه لم تعد هناك أي مقاومة.

رسمت الملكة ابتسامة عريضة على محياها التعب. في حين صفق «غونثالو رويث خيرون»، سيد «أَوْتِيُو» وقهرمان الملك الأكبر، بكلتا يديه فرحا وبهجة.

ـ إذن، يا «فرناندو» لم تملك العاصمة فقط وإنما مملكة «ليون» بأجمعها أصبحت تابعة لك. ـ علقت «برنگيلا» وهي في حالة انفعال.

ـ «ليون» و«قشتالة». ـ نطق القهرمان في جلال.

ـ «قشتالة» و«ليون» ـ صحح «فرناندو الثالث» للقهرمان. ـ المملكتان معا من أجل المجد للرب في الأعالي، والرهبة والفزع للكفار المسلمين.

***

أرجونة Arjona. خريف 1230

سجد «محمد» لله وهو في الجامع يحفه والده من جانب وأخوه من جانب آخر. كان جميع أعضاء أسرته الأقربين حاضرين، وصلوا مجتمعين احتفاء بالوافد الجديد إلى العائلة، ولد ذكر، كان «ابن الأحمر» قد رزق به منذ سبعة أيام.

انتهت الطقوس بالمسجد، واتجه الجميع إلى دار

«آل نصر» حيث كان في الانتظار كبشان سيضحى بهما بمناسبة العقيقة. طلب «محمد» من جده المساعدة في ذبح الكبشين وتقطيعهما، حتى إذا أنهيا العمل، شُرع في شواء اللحم دون أن ينسى «ابن الأحمر» تكليف ابنتيه «مؤمنة» و«شمس» بتوزيع قسط من اللحم على الفقراء والمساكين. كانت الفتاتان تقتربان من سن المراهقة، وبقدر ما كانتا تدنوان إليها كان الشبه بينهما وبين أمهما يزداد وضوحا. فكان الأب دون أن يعي ذلك، يتجنب ملامستهما.

وفي اللحظة التي كان الجميع يحتفي ويأكل، أخذ «محمد» الرضيع من ذراعي «عائشة»، وقبل جبهتها. ثم أمسك بسكين حاد وحلق رأسه.

- ما الاسم الذي اخترته له؟ - سأل «إبراهيم بن أشقيلولة».

نظر النصري إلى ابنه ثم ابتسم قبل أن يجيب.

- سنسميه «فرجا» - أجاب بنبرة يشوبها التأثر.

وقف «يوسف» وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ثم اقترب من ابنه وحفيده وقال:

- اسم جميل - ثم تنهد، وهو يغالب دمعه.

- أيها الوالد - قال «محمد» - عسى الله تعالى يتيح لي في يوم ما فرصة الانتقام لموته.

***

**«شاطبة» Játiva. خريف 1230**

ودع «ابن هود» مشيعيه، ثم واصل السير إلى «مرسية» وهو يحث الخطى قبل أن يشتد نزول

الأمطار. كان في استقباله في «شاطبة» ابن عم [أبي جميل زيان] ابن مَرْدَنِّيشْ، خصم «ابن هود» في شرق الأندلس. وقد كان استقبال هذا الرجل لـ «ابن هود» استقبالا حافلا بعد أن أعلن انتصاره لـ «الهُودِي» على حساب ابن عمه [أبي جميل].

كان أمير المسلمين يمتطي فرسه وهو صامت، مستسلما لتفكير عميق حول الجبهات المفتوحة التي وجد نفسه غارقا في حمأتها. من الجهة الغربية كانت مملكة «ليون» لا تكف عن حصاره ومضايقته، بينما «قشتالة» لا تتوقف عن اجتياح جيان وأحوازها، وضغط «ابن مردنيش» من الجهة الشرقية لا يتوقف.

ـ أنت قائد استثنائي، رعاك الله وزاد من حكمتك. إنهم مشغولون بالبحث عن الطعام. وسيتركوننا ننعم بالهدوء مدة طويلة. ـ قال أحد الوزراء لـ «ابن هود»، بعد أن اقترب منه، يريد فتح حوار مع الأمير.

كان «ابن هود» قد وصل في حملاته ضد «ابن مردنيش» إلى غاية «بلنسية». غير أنه لم يتمكن من دخول الحاضرة، فعمل على نسف زروعها، وتخريب أحوازها. فزاد بذلك من المحن وشح المعيشة التي كانت تحياها إمارة الشرق. أمام هذا الوضع المتأزم لم يجد «ابن مردنيش» من خيار سوى التحرش بمملكة «أراغون» بتنظيم غارات حدودية ضدها. غير أن هذا الاستفزاز لم يُجْدِهِ نفعا إزاء غريم نصراني صلب وقوي مثلِ ملك «أراغون» الشاب «خايمي الأول». إذ بعد حصار دام أربعة أشهر، سقطت مدينة «ميورقة» تحت

ضربات قواته، ودخل المدينة بجيشه، فعاث فيها الأرغونيون بهمجية سلبا ونهبا. بعد هذه الحملة توجه الملك الأراغوني بنظره إلى «بلنسية»، يرغب في امتلاكها، في وقت كان فيه عدد كبير من البلنسيين ينظرون إلى الشمال في خوف وفزع.

ـ اتركني لوحدي ـ أجاب الأمير وهو معكر المزاج، وزاهد في الاستماع إلى المداهنات.

تنحى الرجل جانبا، وتموضع «الغشتي» بمحاذاة الأمير، يسير بفرسه بموازاة حصان «ابن هود».

ـ صرفتَه سريعا، كان المسكينُ يختارُ كلماتِه منذ لحظات. ـ ضحك «الغُشْتي» وهو يشير برأسه إلى ناحية الوزير وقد تخلف إلى الوراء.

ـ أكره المتملقين، لا تعرف أبدا إن كانوا يقولون الحقيقة. و«مرسية» ملأى بهم ـ تنهد الرجل ـ كانت الحياة بسيطة وبهية بالجبال. أنا وأنت مع تلك العصبة من السفهاء ننهب النصارى. ـ لمعت عيناه ببريق خاطف ـ الآن كل شيء يمثل معضلة... أن تحكم ليس بالأمر الهين. أرجو من الله أن يمدني بالقوة اللازمة لإخماد كل هذه النيران.

ـ على الأقل لن يعود الأفارقة إلى هنا. هناك لديهم ما يكفيهم من مشاكل، وليست بالبسيطة.

كان «أبو العلاء» ما زال في مواجهات مع ابن أخيه «يحيى» الذي كان أنصاره يزدادون كل يوم تباعا. من جهة أخرى كانت قبائل «زناتة» في حروب مستمرة مع الموحدين بغاية إزاحتهم عن

الحكم. وفي الأخير استقل الحفصيون في الجهة الشرقية من المغرب، وأعلنوا استقلالهم عن «مراكش».

ـ فليتحمل كل واحد أثقاله. هنا لنا ما يكفينا من مشاكلنا. ـ لاذ الأمير بالصمت ثم واصل ـ إن الوسيلة الوحيدة، أيها الصديق، لمعرفة أنهم لن يعودوا هي قطع الطريق عليهم.

ـ فيم تفكر؟ في الجزيرة الخضراء؟ ـ سأل «الغُشتي».

ـ و«جبل طارق» ـ أضاف «ابن هود»، مفصحا بذلك عن مقاصده القريبة المدى.

***

أرجونة Arjona. ربيع 1231

احتشد المرابطون بالمسجد الصغير وهم يؤدون صلاة الفجر، يؤمهم «عمر» الذي كان يهتم بتزويد المصلى بكل حاجياته. في ركنين من المكان كان سراجان زاهران من الشُّرُجِ البرونزية القائمة تضيئان المسجد، في حين تضوعت جنبات المكان المقدس بروائح خفيفة من عطر الورد. «إن الله يحب الروائح الزكية» كان يردد دوما «الولي الصالح».

بعد حين وصل أسماعَ المصلين من بعيد وقعُ حوافر الخيل، يخفف منها نقرُ تساقط المطر على السطوح والأشجار. وصل الفارس ـ وكان من جملة الحراس العاملين بِمِرْقَبِ «أندوجر» ـ في ذات اللحظة التي تفرق فيها المصلون، استعدادا لبداية التداريب العسكرية اليومية.

ـ إنهم آتون! نصارى «أندوجر» آتون! ـ على التو رددت أسوار الاستحكام صِياح الرجل. مباشرة خف «محمد بن الأحمر» للقائه. ـ هم أكثر من مائتين ـ قال الفارس وهو يلهث ـ على الأقل نصفهم فرسان. إنهم يسيرون بسير الرجالة لكن بخطى سريعة.

شرع «محمد» في التأهب لتوه. لبس درعه، وتسلح بحربتيه والمِقْمَعة، دون أن يتوقف عن إعطاء الأوامر للرجال:

ـ الدروع والسلاح! أسرعوا! ولنجتمع بباب» أندوجر».

ثم ركب فرسه وانطلق كالسهم في اتجاه «أرجونة».

ـ إنهم يهاجموننا! أريد مزيدا من الرجال! ـ صرخ بشوارع البلدة، وهو في الطريق إلى القصبة ـ جميعا إلى باب «أندوجر»!

أثناء ذلك، وقد خف سقوط المطر، كان عشرات من الأرجونيين قد استجابوا لدعوة «ابن الأحمر». كان عدد كبير منهم قد تدرب على حمل السلاح واستخدامه بالرباط، منهم من كان يملك حتى سلاحا شخصيا، بل بعض الأغنياء كانوا يملكون خيولا وسيوفا خاصة.

ـ هيا، إن «الشيخ» يدعونا! ـ كان يسمع في جميع دروب وأزقة «أرجونة».

وصل «محمد» إلى القصبة، وفي الحال خرج الحاكم لاستقباله.

ـ لا يمكننا إضاعة الوقت، إن النصارى آتون. استنفر جند القصر. إني أحشد رجالي بباب «أندوجر».

ـ كم عددهم؟

ـ أكثر من مائتين. ـ أجاب «محمد». وقد لاحظ على الحاكم بعض الاسترخاء، ذلك أن هذا الرقم لم يكن كافيا للانقضاض على المدينة ـ بإمكانهم أن يقطعوا عنا الأقوات والزاد، وأن ينهبوا الحقول ويعيثوا فيها، وهو ما قد نكون معه في عداد المحكوم عليهم بالهلاك إذا اعتبرنا ما تقاسيه «أرجونة» من نقص في الميرة والقوت. ـ أضاف النصري حينما لمح استرخاء الحاكم. ـ علينا أن نقاتل.

قلب الحاكم كلام «ابن الأحمر» في فكره، ثم تفاعل في الحال مع الشاب.

ـ نعم، يا «محمد»، ينبغي أن نقاتل. ـ ختم مقرا بصواب رأي «محمد».

اجتمع جند القصر وهم في كامل عدتهم بالقصبة استعدادا للذهاب مجتمعين إلى باب «أندوجر» بجانب هؤلاء التحق بـ «الشيخ» أيضا أقرباؤه. كان «إسماعيل» و«يوسف» أول من التحق به من الأسرة النصرية، ثم جاء «إبراهيم» و«عبد الله» و«أشقيلولة» نفسه. كان الثلاثة لابسين دروعهم وهم ممتطون صهوات خيولهم.

إن الله تعالى أكرمني بنعمة المشاركة في آخر معركة. ـ قال النقيب القديم وهو يحرك دِرْعَيْ سَاعدَيْه.

وهكذا، وقبل أن يُطل من الأفق فرسانُ الطليعة القشتاليين، كان جدار من الرجال يفوق عددُهم خمسَمائةِ مقاتل ينتظرون مقدم النصارى قرب سور البلدة. في تلك اللحظة تنحى الحاكم بـ «أشقيلولة» و«محمد» ناحية ثم قال لهما:

ـ أنا لن أقود الرجال.

ـ يمكن أن يضطلع بالقيادة بشكل جيد أيٌّ من ولَدَي. ـ أخذ «النبلي» الكلمة.

ـ هو من سيقود المعركة ـ أشار القائد إلى «محمد»، ثم سلمه أربع رايات سوداء، عليها كتابات بيضاء.

شعر «محمد» بقلبه يخفُق بشدة، وغمره إحساس عارم بالفخر. قَبَّلَ القِلادَة من جانبها الخلفي. ثم همز على التو، فرسه، وسلم بدوره الرايات إلى أخيه، وخاليه، ولـ «هادي».

ـ لنقسم الرجال إلى أربع مجموعات.

وقف «النصري» أمام الحشد في مكان عال يسمح للجميع برؤيته، وبِسَمَاعِ صوْتِه. وقف مترقبا، وقد توقف المطر عن النزول، مخلفا جوا رطبا، وأرضا بليلة. كان النصارى وقتها على مرأى العين وهم يتقدمون، فجأة، توقفوا على مسافة معينة، وبدا كأنهم يقومون الوضع.

ـ لقد أصبحتم على دراية بفن القتال! ـ افتتح «النصري» كلمته ـ دربتم وهيئتم لهذا اليوم الأمجد. إن الله تعالى منحنا هذه الفرصة للدفاع عن أرضنا، أو الموت دونها شهداء عنده. ـ هتف «محمد» بصوت قوي جَهْوِرِي ـ لا أخاف الموت،

وأنتم، أيضا، ينبغي عليكم ألا تهابوها. إن الله تعالى ينتظركم في الجنة. فاتبعوا لواءكم، إما للنصر، وإما للشهادة.

ـ الله أكبر! أجاب المقاتلون بصوت واحد.

وقبل أن يعطي «ابن الأحمر» أوامره، فحص الميدانَ بناظريه، وهو يراقب تموقعَ العدو.

ـ سنعتمد خططا بسيطة، ما دام أن عددا كبيرا من رجالنا لم يتمموا بعد تدريبهم على استخدام السلاح. خذ يا عبد الله نصف المشاة، واذهب بهم إلى البساتين ـ أشار إلى الأراضي التي كانت في مواجهتهم ـ لكن لا تتجاوزوها. وأنت يا «إبراهيم» تموضع وراء أخيك مع الباقي، وانتظر، باعتبار مجموعتك جند إمداد. على أن تشكلا أنتما الاثنين من مجموعتيكما تشكيلتين منفتحتين. أما أنت يا «هادي» فموقعك هناك ـ أشار إلى جهة الغرب ـ مع فرقة الخيالة الثقيلة، واستعد للتدخل إذا دعت الضرورة إلى ذلك. وأما أنت يا «إسماعيل» فمكانك هناك ـ أشار إلى جهة الشرق قريبا من جدول ماء يسقي المنطقة ـ مع فرقة الخيالة الخفيفة. واسْعَ إلى إرهاق العدو، لكن مع الحفاظ على مسافة بينك وبينه. ـ كان تحت أوامر «إسماعيل» جده «أشقيلولة» ووالده «يوسف».

شرع الجميع في الحركة. تقدم «عبد الله» و«إبراهيم» إلى غاية البساتين، ثم توقفوا بغالبية الجند بنظام وانتظام. كان القواسون على أحصنتهم في انتظار التعليمات، أما أصحاب الحراب فإنهم شرعوا في التقدم باتجاه المسيحيين مقدارا كافيا لبدء المناوشة.

ـ تذكر، حملات متواترة، ونوبة وراء نوبة، دون أن تغفل عن ترك مسافة فارغة خلف الخيل تسمح بالعودة إلى الوراء ـ قال «أشقيلولة» لحفيده «إسماعيل» همسا.

بدأت المعركة بتبادل الرمي من الجهتين، وفوق الفضاء الفاصل بين الجيشين.

ـ أغلقي يا إسبانيا! ـ هدرت الأصوات من الجانب القشتالي.

في تلك اللحظة أعطى «مرتين فرناندث دي برغش» الأمر بالتقدم.

على الإثر هدر الحديد، وضجت الساحة بصوت المعدن. فقد كان نصف الفرسان النصارى من فرسان «قلعة رباح» الذين يعتمدون الفروسية الحربية الثقيلة، يلبسون الدروع المعدنية الثقيلة، ويتدربون على فنون القتال السنوات الطويلة. تمكنت الفرقة الخفيفة للفرسان التي يقودها «إسماعيل» من إسقاط عدد من الفرسان النصارى، وعشرات من الرجالة. في الحال قامت مجموعة من فرسان «قشتالة» بتعقب الفرسان الأندلسيين، غير أنهم سرعان ما سقطوا في كمين المسلمين، حيث شرع أصحاب الحراب في رمي النصارى وطعنهم، وهو ما جعل القشتاليين يتراجعون سريعا حتى لا يسقطوا في أيدي الأرجونيين...

في الموجة الأولى تمكن الرباحيون من دك المواقع الأمامية لفرقة «عبد الله». غير أن خيل «قلعة رباح» سرعان ما أصبحت خرقاء حينما نفذت إلى البساتين المليئة بالوحل. فكان على الفرسان

النصارى أن يتراجعوا بها قبل أن يتعرضوا لحملة جديدة من قبل الأرجونيين. فسجلت بينهم بعض الخسائر، غير أن خسائر الأندلسيين فاقت بكثير خسائر المسيحيين، مما اضْطُرَّ معه إلى تعزيز فرقة «عبد اللّٰه» بوحدات من فرقة «إبراهيم». في تلك اللحظة من المعركة تدخل «المشاة القشتاليون»، وشرعوا في القتال باستماتة وشراسة. فقد كانوا في الأغلب من مقاتلي الحدود المتمرسين على الحرب. وما هي إلى لحظة حتى بدا تفوقهم واضحا على الأرجونيين منذ الوهلة الأولى. حرك «إبراهيم» جميع رجاله إلا الخط الأمامي للمعركة. كان الأخوان «أشقيلولة» يصدران الأوامر، وهما يحملان اللواءين بفخر واعتزاز.

إثر ذلك انتقل فرسان «قلعة رباح» ذووا الفعالية الكبيرة، وقد تلطخت برانيسهم بالدم والوحل، إلى أحد جانبي فرقة العدو للقيام بهجوم جديد.

لمح «ابن الأحمر» الحركة الالتفافية التي قام بها الخيالة المسيحيون حول المسلمين، وكيف أن رجالة النصارى كانوا يغنمون الميدان. حينها عمد «إسماعيل» بسرعة إلى إنجاد المحاصرين من الشرق. يصاحبه «يوسف» و«أشقيلولة» و«أحمد بن إسحاق» كان الثلاثة على جيادهم ينهبون الأرض عدوا. لم تكن قد بقيت معهم المزاريق والرماح القصيرة. فاضطروا إلى إخراج سيوفهم من أغمادها. في تلك اللحظة قصد «محمد بن الأحمر» «هادي» وفرقة فرسانه الثقيلة. كانوا حوالي أربعين فارسا استطاع القائد أن يرى في

عيونهم نار الرغبة للدخول في المعركة ومباشرة القتل. كانوا يمثلون نخبة الجند، وبينهم كثير ممن سهر «محمد» شخصيا على تدريبهم. في الحال تموضع «محمد» بجانب «هادي» صديقه الوفي.

ـ من أجل الأندلس، ومن أجله تعالى! ـ صرخ «محمد» وهو ينطلق في اتجاه العدو، ووراءه بقية الرجال.

كان فرسان «قلعة رباح» حينها قد صدموا جانبا من الجيش الإسلامي ومؤخرته، مسببين في صفوفه خسائر جسيمة، جعلت الأرجونيين يضيعون امتياز تفوقهم العددي. أصبحت أعداد الفريقين متساوية الآن، غير أن جثث القتلى المتناثرة على الطين المبلل بالبساتين غدت تعرقل تقدم الفرسان المسيحيين المثقلين بالدروع المعدنية. وحينما سقطت عليهم الخيالة الأندلسية، بالكاد كان الفرسان النصارى يقدرون على الانكفاء وتغيير أوضاعهم لمواجهة أعدائهم.

ـ ولا غالب إلا الله! ـ صرخ «ابن الأحمر» بكل قواه وهو يقاتل في الصف الأمامي.

تراجع «فرسان رباح» عند الصدام الأول. وهم مرتبكون، ومحصورون بين ساقة العدو وهجوم القائد الإسلامي. كانت وضعية النصارى حرجة، زادها بلة أن المشاة الأندلسيين حينما لمحوا الراية السوداء فوق رؤوس فرسانهم وهي تتقدم في ثبات، اندفعوا في حماس وقد جددوا الأمل، وحملوا بكل قوتهم على العدو.

فيا لأهوال الحرب وفظاعتها: جروح تنزف،

وأعضاء تبتر، وسط صرخات اليأس، وتأوهات الألم.

ـ «سانتياغو»! ـ صرخ حينها «مرتين فرناندث دي برغش» بوجه ملطخ بآثار القتال، والدم يسيل من ذراعه اليسرى إثر إصابته بجرح. كان يريد أن يبث الحماس والحمية في رجاله، لكنه أدرك لتوه أن وقت ذلك قد فات. مباشرة، وعلى مقربة منه لمح حامل رايته يسقط مضرجا في دمائه ـ انسحاب! ـ عوى أخيرا، وهو في حالة اضطراب شديد.

أطلق العنان لفرسه، وتبعه على الفور عدد من الفرسان. في حين ظل آخرون ملتحمين بالأرجونيين، يقاتلون من أجل حيواتهم وقد ضاعت منهم فرصة النجاة بأنفسهم.

ـ انسحبوا! ـ كرر الفارس الرباحي صرخته، بين الرجالة، هذه المرة، وكانوا يتراجعون أمام دفع المسلمين.

في الحال تحول الفرار إلى فعل جماعي حاشد، وتَعَقُّبٍ مرير للنصارى من قبل الأرجونيين. فتمكن «مرتين فرناندث دي برغش» من الإفلات من قبضة العدو، غير أن آخرين لم تكتب لهم النجاة.

أوقف «ابن الأحمر» فرسه، وراح يتأمل مسرح المعركة. تناثرت حوله عشرات من الجثث الساكنة الجامدة، اختلط فيها العدو بالصديق. في بعض الأماكن كانت الدماء برائحتها المميزة قد اختلطت بالتراب. وكانت التأوهات والصرخات تسمع من كل الجهات، ممتزجة بجلبة المنتصرين وضوضائهم. في حين كان المنهزمون يعدون من مكان إلى آخر، فارين بأنفسهم من ملاحقة الخيالة

الأندلسيين. لحظة، بدأ النصري يشعر ببعض البرد. انتبه إلى نفسه لأول مرة منذ بداية المعركة. كانت ركبته تؤلمه جراء ضربة أصابتها. ويعاني من تقلصات في كتفه اليسرى بسبب تفقع مفصلها، في حين حصل له جرح قليل العمق براحة يده اليسرى.

- اطلب من جميع أطباء أرجونة الإتيان حالا! - أمر أحد الفرسان، الذي غادر على الفور إلى البلدة.

كان «هادي» مقوسا فوق فرسه، وهو يضع ذراعه على صدره. فجأة لمحه «محمد» وهو يتهاوى من فرسه ويسقط فوق الأرض المبللة.

- «هادي»! - صرخ ابن الأحمر، وهو يخف إليه.

كان الرجل يتنفس بصعوبة، و«جامبزونه» المبلل بالدم، يمنع رؤية جروحه.

- إني أموت يا شيخ.

- لن تموت إن الأطباء في الطريق.

نظر «هادي» إلى «ابن الأحمر» بعينين فاترتين، ثم عاين «محمد» في الحال كيف كانتا تخبوان على قدر انسكاب دم الجريح على الأرض بفعل النزيف.

- اسمع يا «محمد»، إني خائف. - أمسك «النصري» بيد «هادي» ثم ضغط عليها.

- لا تخف، إذا مت فإنه تعالى في انتظارك في الجنة.

نفى «هادي» برأسه في بطء، بينما نزلت على خديه دمعتان حارتان.

ـ لن أكون من المقربين إلى الله.

ـ لماذا تقول هذا الكلام؟ إنك حاربت من أجله.

ـ لم يعد بالوسع أن أخفي عنك... قال «هادي» في صوت خفيض ـ لدي رغبات غير طبيعية، كانت لدي دوما ـ نطق الجريح متجهم السحنة، في حين بقي «محمد» ذاهلا جراء هذا الاعتراف. ـ شيخ لقد أحببتك دائما ـ انفجر الجريح باكيا ـ كيف تريد أن أنعم بالجنة؟

تطلب الموقف من «محمد» بعض اللحظات ليقوم بردة فعل. كان ما يزال ممسكا بيد صديقه الوفي، ثم سرعان ما ضغط عليها بقوة أكثر.

ـ إذا كانت لديك تلك الرغبات، فإن غافر الذنوب هو من زرع ذلك في جِبِلَّتِك. لا تقلق، لو قدر لك الموت، فإنه سيحملك إليه. أما الآن، فكن قويا وتحمل، فبعد قليل سيحضر الأطباء.

اقترب منهما أحد الأطباء وطلب مساعدة «محمد» لينزع عن «هادي» الدرع. فبرز الصدر مليئا بآثار الضرب والكدمات، يتوسطه جرح خطير بدا عميقا تحت تمزق أصاب الشبكة المعدنية لدرع المصاب. دون شك نَكَّلَ به أحد فرسان القلعة. لم يتوقف فوران الدم من عدة نقاط، ولون البشرة تحول إلى اللون البنفسجي علامة على نزيف داخلي. نظر الطبيب إلى «محمد» ثم حرك رأسه بالنفي. بدأ «هادي» يتنفس في خضخضة، ويبكي بكاء مريرا.

ـ لا تقلق، أيها الصديق ـ همس «محمد»، بينما غادرهما الطبيب باحثاً عن جريح آخر لإسعافه ـ

لم ترتكب ذنوبا قد يحاسبك الله عليها، كنت دائما مسلما صادق الإيمان. فلتمت في سلام. ـ كان «النصري» يغالب مشاعره تجاه هذا الصديق الوفي حتى لا ينفجر بالبكاء.

ـ زوجتي وابني... أوصيك بهما يا «محمد». لم أكن زوجا حسنا.

أمسك القائد بيد صديقه، ووضعها بين يديه وبذلك امتزج دمه بدم «الجياني».

ـ اصغ إلي جيدا يا «هادي». ـ أدام «محمد» النظر في عيني المحتضر. كان يعلم أنه لم يعد لديهما وقت طويل. ـ سأتكلف بكل ما يخص أسرتك، وسأسهر على أن أوفر لزوجتك وابنك كل ما يحتاجان إليه. مت مطمئنا... فأسرتك ستكون تحت حماية «آل نصر»، ولن نتخلى عنها أبدا.

تراخت أسارير «هادي» وأصبح تنفسه بطيئا.

ـ لا أريد أن أموت. ـ اعترف أخيرا.

ـ لا أحد يموت، فقط نغادر أجسامنا.

بدرت من «هادي» تنهيدة انتهت بشخير خفيف. كان النزيف قد أفرغ ما بجسمه من دم، فأسلم الروح وهو ممدد على أرض المعركة المبللة بالماء... والدماء.

لم يعد يسمع في الصمت الذي خيم على الفضاء سوى أنات الجرحى. كان الأطباء يفعلون ما في وسعهم لتطبيبهم، غير أنه لم يكن بمستطاعهم إرضاء الجميع.

نظر «النصري» حوله، فرأى والده قد حمل لواء

«هادي» الأسود، ثم سلمه إليه بحركة غاية في الجد، كما لو أنه يحذره من ألا ينساق مع عواطفه أمام الجيش. فقد كان كل الناجين فقدوا عزيزا أو أكثر في المعركة. في الحال وقف «ابن الأحمر»، متناسيا الآلام المبرحة التي تعاني منها ركبته، وأمسك بالعلم، ثم تقدم إلى حيث كانت راية فرسان القلعة وأخذها أيضا، ثم امتطى فرسه وتوجه إلى الجيش بالخطاب:

ـ إنها ساعة حمل موتانا، وتنظيف الميدان. التمسوا الدعاء من ربكم، ليس من أجل هؤلاء، ولكن من أجل أن نستمر دائما متحدين تحدونا نفس العزيمة. أما هؤلاء ـ أشار إلى الشهداء ـ فهم ينعمون الآن بالجنة مع الأبرار.

أجاب الرجال بصمت وقور، وقد خيم على المكان سكون جليل.

ـ يملك مؤهلات الزعيم. لَكمْ كنت أقولها لك دائما. ـ قال «أشقيلولة» ليوسف، وهو يتطلع إلى حفيده قي كبرياء.

بالكاد كان «محمد» يتحمل الألم الفظيع. فقد تسرب من كتفه المصاب وشاع في كل ظهره. سار القائد الشاب والرجال وراءه في اتجاه باب «أندوجر». هناك احتشد المئات من أهالي البلدة وهم يشاهدون غير مصدقين عودة المظفرين. كيف تيسر لـ «النصري» أن يهزم فرسان «قلعة رباح» الأبطال المقتدرين، بجيش من الأندلسيين تدربوا في رباط.

ـ شيخ! ـ بدأت الأصوات تتعالى متفرقة هنا

وهناك، وسرعان ما صدح الجميع باللقب. لقد أعاد هذا النصر للناس الأمل، بعد أن كانوا متعودين على الهزيمة.

رفع «محمد» في فخر واعتزاز الرايتين قبل أن يقوم في الناس خطيبا.

ـ لقد بدت ملامح هذا الانتصار تبرز منذ عدة شهور، منذ أن شرعنا في إعادة تهيئة الرباط، وتوجهنا إليه جميعا بإيمان صادق. ـ افتتح ابن الأحمر كلمته ـ لم يكن النصر سهلا، فقد استشهد عدد كبير من المسلمين، ربما أكثر من النصارى، الآن، علينا أن نعوضهم، يا رجال «أرجونة» إن الله تعالى في حاجة إليكم!

ـ الله أكبر! ـ أجاب الحشد.

اختفى موكب «آل نصر» و«آل أشقيلولة» بين الدروب والأزقة المؤدية إلى القصبة. أما الأرجونيون فقد خفوا إلى ميدان المعركة، بعضهم لحمل جثث قتلاهم، وآخرون لنهب ما خلفته المعركة من بقايا. ولم يمض وقت طويل حتى اكتنفت الحقول والبساتين التي شهدت القتال موجات من الدموع، وسورات من الغضب. فحملت جثامين القتلى المسلمين إلى «أرجونة» لدفنها، وتركت جثث النصارى مهجورة عارية على الأرض.

***

نزلت «مريم» عبر المنحدرات المؤدية إلى حي الحدادين. كانت تسمع بين الفينة والأخرى دقات المطارق، يتلوها أحيانا بعض نباح الكلاب الضالة

وقد أثارها تتابع الدق. كانت المرأة تلبس عباءة رقيقة، تغطي كامل جسمها حتى الرأس، ويعلّقُ بعضها على ساعد المرأة. وكانت تحمل سلة من الورد والفاكهة. لحظة دقت على أحد الأبواب:

ـ السلام عليكم ـ قالت «مريم» لفتى في حوالي الخامسة عشرة من عمره. ـ أنت بلا شك «كمال». أتيت لزيارة والدتك.

فسح لها الفتى لتدخل البيت، ثم قادها إلى حيث كانت «هبة» تعمل على منوالها.

ـ سلام، «هبة»، أنا «مارية». ـ استخدمت اسمها المسيحي ـ جارية «محمد بن الأحمر».

ـ سلام، «مارية». جليقية؟ ـ سألت بالرومانثية.

ـ «قشتالية». جئت لتعزيتك. ـ ثم مدت يدها بالسلة.

وقفت «هبة» وعانقتها. ودون أن تنطق بكلمة، أخذت «مارية» من يدها، وسارت بها إلى المطبخ. هناك، هيأت نقيع أعشاب وقدمته لضيفتها. جلست المرأتان في الفناء الصغير، بينما راح كمال يمعن النظر فيهما.

ـ كان «محمد» يعز كثيرا زوجك يا «هبة». وقد وعده بأن يحرص على الاعتناء بك وبولدك. تيقني من ذلك، لأن «آل نصر» رجال صادقون في عهودهم.

كان قد مر حوالي أسبوع على معركة البساتين، و«أرجونة» أخذت تعود تدريجيا إلى حياتها الاعتيادية. كانت المغانم قد اقتسمت، والجرحى

يعالجون تحت رعاية الأطباء، في حين دفن الموتى بكل تشريف وتكريم.

- قدمي له تشكراتي يا «مارية». إنه إنسان نبيل. كان «هادي» يتحدث عنه دائما بخير.

تحدثت المرأتان عن ماضيهما، وسرعان ما نمت بينهما صداقة حثتهما على التطرق إلى بعض أسرارهما الخاصة.

- كانت العبودية بالنسبة إليك تحررا، أما بالنسبة إلي فقد كانت كابوسا فظيعا - قالت «هبة» بعد أن سمعت قصة «مارية».

- لكنك الآن عثرت على حياة هنا. لك ولد سليم البنية، قوي وجميل.

شكرت «هبة» «مارية» بابتسامة.

- وأنت، لماذا لا تتحفزين للحمل؟ إذا عزمت أكيد ستحملين من «محمد».

انقبضت «مريم»، وسعت إلى تغيير الموضوع.

- إن ذلك ليس لمن في سني. لقد وقعت في يد «محمد» وأنا متقدمة في السن، دون شك أصبحت جافة.

وضعت «هبة» يدها على إحدى ركبتي المرأة.

- إذا قَدَّرَ الربُّ أن يكون لك ولد، فإنك ستحملين، دون شك.

لم تجب مريم. لعل ذلك هو المشكلة، أن الرب لا يريد لها ولدا.

***

«مُرْسِيَةُ» **Murcia. صيف 1231**

ـ مزيدا من الضرائب والرسوم، ليس هناك طريق آخر.

أصدر الوزير حكمه، وهو يطيل النظر في الوثيقة التي كانت بين يديه. كان المستند سجلا لحسابات الإمارة. وقد اتضح للوزير أن النفقات العامة كانت مرتفعة ومكلفة.

ـ لقد سبق لنا أن رفعنا منها. وكنت قد التزمت بأن أبقي فقط على الرسوم الشرعية... لا، لا أريد مزيدا من الإتاوات.

ـ لكن سيدي ـ تدخل وزير آخر ـ كيف يمكننا أن نغطي نفقات الجيش، كيف يمكننا أن نجند الرجال، كيف يمكننا أن نحافظ على الطرق والمساجد؟ إن الأحباس تقل كل يوم، والأسر تعاني من الحاجة، والمجاعة...

ـ كفى! ـ انفجر الأمير ـ إن رأسي سينفجر. تُرَجْرِجُونَ الأصواتَ مثلَ الطيور: ضجيج كثير، ومضمون فارغ. ـ خيم على المجلس صمت ثقيل ـ لنهيئ لعملية تجنيد حتى نعوض خسارات الرجال. ولنرفع من الرسوم لنصنع السلاح ـ أمر «ابن هود» ـ لكن في حدود الضروري. ـ هل تسمعون؟ الأقل الذي لا محيص عنه. وسأسهر على أن يكون الجيش الجديد قادرا على جلب المغانم التي تُسْعِدُ الشعب.

في ربيع تلك السنة استقبل «ابن هود» من النصارى ضربتي عصا جديدتين. ذلك أن بلدة «قيجاطة»، التي كانت منذ سنوات خلت قد

نهبت من قبل «فرناندو الثالث»، سقطت، الآن، نهائيا في يد مطران «طليطلة». وفي أقصى الجهة الأخرى من الأندلس تمكن الولد البكر لـ «فرناندو الثالث»، ولمَّا يَبْلغِ التاسعة من عمره، من النفوذ إلى الأراضي الأندلسية برفقة «آلبارو بيريث دي كاسترو» على رأس جيش ضخم. وقد وصلت الحملة إلى ضواحي «شَرِيشْ» **Jerez**. وفي الطريق هاجم النصارى «پالما دل ريو»، واستأصلوا السكان المسلمين، وحصلوا على غنائم عظيمة. وكان «ابن هود» قد سعى إلى مواجهة القشتاليين، لكنه فشل في ذلك، وانهزم أمام النصارى قريبا من «وادي لكة» **Guadalete** هزيمة كان وقعها في الأندلس الإسلامية شبيها بأثر هزيمة «حصن الحَنَش» **Alange**. وبذلك بدأ حكم «ابن هود» يفقد شعبيته، ويزول بريقُه بتوالي الانتصارات المسيحية. لحد أن الشعور بالاغتباط الذي غمر الأندلسيين بسيطرة «أمير المسلمين» على «الجزيرة الخضراء»، و«جبل طارق» لم يدم وقتا كافيا ليحافظ على شرف المنزلة التي حظي بها الأمير بين شعبه.

ـ سيدي الأمير. ـ بادر أحد الرجال بمخاطبة «ابن هود»، كان الرجل أنيقا، يلبس ثوبا حريريا أزرق اللون. ـ لعلنا في حاجة إلى التفاوض بشأن الحدود...

ـ أبعدوا عني هذا الغبي! أخرجوه من المجلس! لا أريد أن أراه مرة أخرى! سأخضع النصارى بالنار والحديد، إلى أن تنزف منهم آخر نقطة دم! سأفعل بهم ما فعلته بالموحدين!

لم يتوقف «ابن هود» عن الصراخ إلى أن اختفت خطى المستشار خارج الأسوار. كان الأمير نزقا حاد الطبع. وقد أفاده بغضه للموحدين والنصارى في تولي الحكم. ومع ذلك فإن قتال «قشتالة» و«ليون» متحدتين كان دون شك فوق طاقته، بل انتحارا بينا. في كل معركة كان المئات من المسلمين يموتون. ومن ثمة، لم يكن الدم الوحيد الذي يسكبه ابن هود سوى دم شعبه.

***

مستشفى «دي لا إِرَّادا»، كاريون **Carrión**. خريف **1231**

لم يتوقف المطر منذ ثلاثة أيام. وأخيرا برزت الشمس وهاجة مشرقة، وبدأت الأرض تجف. قصد «فرناندو الثالث» و«برنكيلا» ناحية من الرحبة التي تنفتح قبالة باب المستشفى ووقفا تحت أشعة الشمس طلبا للدفء، كانت أعضاؤهما متنملة مخدرة، ذلك أن جنازة «غونثالو رويث خيرون»، قهرمان الملك، دامت أكثر من ساعتين.

كان هذا النبيل قد قدم خدماتٍ جُلَّى للملك القشتالي ووالدته. فتبوأ لديهما مرتبة سامية جعلت كثيرا من أشراف «قشتالة» يتأثرون لوفاته، ومن ثم، خف لحضور جنازته عدد كبير من النبلاء، وسامي شخصيات المملكة.

انتحت الملكة «برنكيلا» ناحية من البطحاء مع ولدها الملك، وقد بدت عليها مسحة من الحزن. كانت نظراتها كئيبة متجهمة على عادتها حينما تحضر الجنائز. كانت المآتم تجعلها تستحضر أحزانا

أخرى عديدة طبعت حياتها.

ـ عليك أن تفعل شيئا لـ «ليون». ـ قالت «برنكيلا» فجأة ـ حقا، أنت ملك «ليون»، لكنك ما زلت في حاجة إلى جلب قلوب الليونيين.

كانت «برنكيلا» و«طريسا» البرتغالية قد توصلتا إلى اتفاق يخدم مصلحة الأميرتين «سانشا» و«دولثي» بعد أن تقبلتا جلوس «فرناندو الثالث» على عرش «ليون». وبذلك تحول هذا العاهل من ملك «قشتالة» إلى ملك «قشتالة» وطليطلة، و«ليون»، و«جِلِّيقِية»، و«بيَّاسة»، و«بطَلْيوس». وكان الملك في مسعى منه لتهدئة الأمور في ممالكه الجديدة، قد قام بزيارات لبعض المدن والقلاع، معترفا بالامتيازات التي أعطيت لبعض الأشخاص والهيئات، ومحافظا على النظام الذي أنشأه والده. والآن، كان يتهيأ للدخول من جديد إلى مملكة «ليون» وهو ينوي الذهاب إلى «جِليقية»، حيث بدأت بعض جيوب التمرد تحرض على العصيان ضد الملك القشتالي.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ إنهم يرونك كملك لـ «قشتالة»، غير أنه عليهم أن يروك أيضا كملك على «ليون». كان أبوك يعاقب منطقة «إكستريمادورا»، فاسْلُكْ أنت ذاتَ الطريق. أرسل الليونيين للقتال حتى يضيفوا لأراضيهم أراضي أخرى، ويحصلوا على غنائم حربية، كل ذلك سيجعلهم يحبونك أكثر.

ـ لقد خططت لهذا الأمر يا أماه. سأتمم ما بدأه أبي. ـ كانت نظرة الملك تشي بحزن عميق لم يكن

ليخفى «برنگيلا».

ـ كان والدك يحبك. لكنه كان ملكا قبل أن يكون أبا، ملكا جيدا. وأنت جدير بأن تكون ابنَه، وحفيدَ «ألفونسو الثامن» ملك «قشتالة».

ـ وابنَ والدتي. ـ أضاف «فرناندو الثالث» بابتسامة حزينة.

ـ ماذا اعتزمت فعله؟ ـ قالت «برنگيلا» بعينين متسائلتين.

ـ «تَرْجالَة» **Trujillo**. اقترح علي ذلك «مايسطري» «رهبانية القنطرة»، وقد أعلمت بذلك مجالس بلديات «إكستريمادورا». وسيتكلف أسقف «ابْلَنَّانْسَية» **Palencia**(37) بالتنسيق بينها، وباستدعاء جمعيات الفرسان الدينية لتشارك في الحملة. وقبل أن تنتهي السنة سيكون الجيش محاصرا المدينة.

ـ هدف جيد. متحدين، نحن المسيحيين، نقاتل أحسن.

ـ الاتحاد بين المسيحيين، والقتال ضد الكفار المسلمين. ـ ألقى بالعبارة كأنه ينشد شعرا.

كان الملك يؤسس لسلطته ويثبتها، كان لا يزال في ريعان الشباب، غير أنه، مع ذلك، حاز احترام الآخرين، وتقدير رعاياه.

بعد انتهاء مراسم الجنازة جعل النبلاء يقتربون منه وهم يجاملونه، ويحرصون على التودد إليه، بالابتسامات والكلمات الطيبة المنتقاة. حينها تركت «برنگيلا» ابنها وحده. كانت المرأة تعرف

جيدا أن «فرناندو الثالث» يحسن التصرف، أيضا، في مثل هذه المواقف.

***

**«أرجونة» Arjona. خريف 1231**

تناول «محمد» على عادته التقشفية لقيمات من الطعام، ثم أنهى وجبته. صادف هذا اليوم احتفال الرباط بصعود «عبد الرحيم الإلبيري» إلى الجنة، وهو الولي الصالح الذي بُنِيَ الرباط على شرفه. وقد ذبحت بالمناسبة أفراخ الطيور والدجاج، وشُوِيت كمياتٌ من اللحم المفروم. في حين كان الشبان الذين يتلقون تداريبهم بالرباط، يتفانون في خدمة الآخرين، ولا غرو، فقد عرف عنهم الإخلاص فيما يقومون به من أعمال، والاتصاف بالورع والتقوى. وقد كان عدد هؤلاء الشباب يزداد باطراد، وعدد الراغبين منهم في ولوج الرباط كبيرا لحد أن الحاكم تقبل أن يقوم بعضهم بالتدرب بالقصر.

في هذا الخضم، انزوى «محمد» في ناحية. كان باله مشغولا بالعودة إلى «أرجونة»، بعد أن اشتاق إلى رؤية أسرته.

ـ إن الله هو الغالب الأوحد، غير أنك الذراع التي تحمل سيفه. ـ أخرج «عمر» بكلماته «ابن الأحمر» من استغراقه الفكري.

فكر «محمد» في تلك الكلمات، وسرعان ما رددها:

ـ أجل، دائما لا غالب إلى الله. ـ أجاب أخيرا بمهابة ووقار.

امتطى ابن الأحمر جواده القوي «برميجو» رغم تقدم سن الدابة، وتوجه إلى «أرخونة». كانت جراح الفرس تتعافى مثلما هو الحال مع صاحبه «محمد» الذي بدأت جروحه تشفى أيضا: شفي الجرح الذي أصابه في راحته، واختفت آلام كتفه أسابيع قليلة بعد المعركة، وإن كان توعك ركبته ما زال يضايقه، ومع ذلك بدا التحسن واضحا على النصري.

ـ السلام عليكم يا «شيخ». ـ سلم عليه «كمال» وهو في الطريق. وكان «محمد» قد توسط للفتى مع «الحسون» ليقبله في الرباط، رغم سنه الفتي، أربع عشرة سنة. وكان الفتى يعمل في الحقول القريبة من الرباط، وهناك أيضا كان يتلقى التداريب على القتال.

نظر «النصري» إلى عيون «كمال» ليرد عليه التحية. ووجد نفسه إزاء نظرة صديقه الميت. فأحس بألم الذكرى ينغرز في صدره بحدة. أومأ للغلام ثم واصل سيره.

وصل إلى داره عند العصر. صادف وصوله خروج ثلاثة رجال تعلو وجوههم ابتسامات عريضة. كان «يوسف» يودعهم عند الباب، كانوا من المحتاجين الذين يلجؤون إلى «دار النصري» لطلب المساعدة، كما كان الحال فيما مضى. فقد استرجعت الأسرة النصرية مقامها القديم، وبعضا من سلطتها.

كان أحمد بن إسحاق أحدهم. وما إن أبصر «محمدا» حتى اقترب منه بوجه مُتهَلِّلٍ.

ـ سلام يا «شيخ». والدك رجل من خيرة الناس.

أما والدي رحمه الله فقد دفنته منذ زمان. مثلما أني دفنت النزاع حول الصُّوَّات. ـ تبسم «محمد» وهو يوافق بهزات من رأسه على كلام الرجل ـ سأشتري بعض الأراضي جهة الشرق ـ قال وهو يشرح سبب زيارته ـ وهأنذا حصلت على السلف.

ـ يسعدني ذلك أيها الصديق. في هذه الدار أنت دائما مرحب بك.

ـ كنت يا «محمد» قد فقدت شرفي، والفضل يرجع إليك في استعادته دون أن تمس سمعتي أمام الناس. سأبقى دائما شاكرا لك هذا الموقف الكريم.

ربت «محمد» على الكتف اليمنى لـ «أحمد بن إسحاق» عربون صداقة وتقدير.

ـ الصُّوَّات ومسائل الشرف مضى عليها الزمن، وأصبحت من الماضي. الآن لا يحضرني سوى معركة البساتين، حيث قاتلت بشجاعة ومهارة.

رفع «أحمد» رأسه بفخر ثم ودع صديقه.

سمع «محمد» جلبة الأطفال وهو ما زال بمدخل الدار ينزع حذاءه. كانوا يمرحون في الفِناء ويصيحون. سمع أيضا بكاء «فرج»، وهو يطلب طعامه، وعبارات السلوان الحلوة التي تنطق بها ابنتاه «مؤمنة» و«شمس». توقف قليلا، يُسَرِّي عن نفسه، وهو يسمع نبضات الحياة وهي تُبعِدُ عن نفسه أشباح الموتى.

كذلك وجدته «مريم» حين عودتها من زيارة صديقتها «هبة». طلب منها ابن الأحمر أن تلوذ بالصمت، وتسترق السمع. التزمت «مريم» بالصمت،

وما لبثت أن فهمت أن عربدة الأطفال ولهوهم قد استهوت «محمدا» وسحرته. حينها أحست المأة بهَمٍّ غريب يغمرها قبل أن يستقر في بطنها، ثم ما لبث أن ذهب عنها ليختلط بالضوضاء الذي يحدثه الأطفال، فلم تعد تصغي لأفكارها.

جلس «محمد» على المقعد الحجري الطويل بالمدخل، وأغمض عينيه، واستمر في تشربه للحياة.

***

أزال أحد العبيد السودانيين الرماد من المَجْمرة البرونزية، ثم زودها بجمرات جديدة. في الخارج كان المطر يواصل نزوله دون توقف، محدثا رطوبة في الجو ما فتئت تتسرب إلى عظام «أشقيلولة». كان الحاكم قد استقبل «أشقيلولة» في برجه ليناقش معه آخر التطورات. وكانت العلاقة بين الرجلين حسنة، تسودها الثقة، وتزيد من متانتها الاجتماعات المتوالية بين الرجلين وما يتخللها من دردشات حبية.

- لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا، يا «نبلي»، بمزيد من الخيبات.

- لا، لا يمكن يا «أبا نبيل». قتل عدد كبير من الرجال في قتال البساتين، ومثلهم في «شَريش». و«أرجونة» معرضة لحملات قد تفاجئها من «مَرْتُشْ» و«أنذُوجر»، نحن في حاجة إلى الرجال.

كان عدد كبير من الأرجونيين قد استجابوا لدعوة «ابن هود»، غير أن أغلبيتهم قُتِلوا على يد

القشتاليين في معركة «شَريش».

- أجل، في كلتا المعركتين فقدنا كثيرا من الرجال... - زم الحاكم شفتيه وهو يرتعد من الغضب - لكننا انتصرنا في «معركة البساتين». - انفجر أخيرا - ربما يستحسن أن نرسل حفيدك إلى «مرسية» حتى يقدم دروسا للأمير. - في الحال ندم الحاكم على ما فاه به وعلت وجهَه حمرةُ الخجل. نهض ثم أطل من الباب ليتأكد من خلو المكان من المتجسسين. ثم واصل قائلا: - أيها الصديق، انس ما تفوهت به، إن الضغط كبير، من «مُرسية» لا يتوقفون عن طلب الزيادة في الضرائب لتأدية مصاريف تجنيد الرجال. وهي ضرائب غير شرعية، وأنا لست من المتحمسين لذلك، ولكني أطيع سيدي.

تطلع «أشقيلولة» إلى الحاكم وافتر فاه عن ابتسامة.

- اهدأ يا أبا نبيل. - ضرب بيده على ساقه المصابة في «معركة الأرَك». - لقد كان الأمير فعالا ضد الموحدين، فلم نعد نسمع عنهم منذ زمان، لكنه مع النصارى يقع في هنات...

كان «أشقيلولة» يعرف جيدا أن الخلل ليس في الاستراتيجية العسكرية، بل في المهارة الدبلوماسية. إذ بعد أن هدأت الأمور في «قشتالة» وحصلت الوحدة بينها وبين «ليون»، تحولت المملكة إلى خصم يتجاوز كثيرا أعداءه قوة وجبروتا.

- لست أنت الوحيد الذي أصيب بخيبة أمل بعد

هذه الحوادث الأخيرة ـ استطرد «أشقيلولة» كأنه يريد ألا يسبغ أي أهمية على كلامه .. ومع ذلك لم يفت رب الأسرة أن يسجل هذا الرأي الذي صدر عن الحاكم. فقد كان «ابن هود» قد أخذ بمجامع القلوب، واستهوى الناس، غير أنه لم يكن في مستوى ما تحتاجه الأندلس في تلك اللحظة.

***

«أندوجر» **Andujar**. خريف 1231

دخل «غونثالو جانييث دي نوفوها» **Gonzales Yáñez de Novoa** «مايسطري» [رئيس] «رهبانية قلعة رباح» «أندوجر» على رأس مائتين من الفرسان، وعدد أكبر من الجند المشاة. وكانت البلدة قد عززت حاميتها بعد هزيمة «أرجونة»، خاصة بعد أن صمم الملك «فرناندو الثالث» على الشروع من جديد في تسيير الحملات على الأندلس. ويأتي وصول «المايسطري» إلى الحدود، في إطار مشاركته في المجهود الحربي ضد مسلمي الجزيرة، حيث سيبعث قائد الرهبانية المذكور من «أندوجر» مساهمته من الرجال والسلاح إلى «ليون».

ـ كيف حالك؟ يسعدني أنك نجوت من معركة «أرجونة». ـ توجه بالسلام إلى «مرتين فرناندث دي برغش» الذي عينه رئيس الرهبانية قائدا على سرية فرسان رباح في «أندوجر».

أمسك «مرتين» ذراعه اليسرى بيده اليمنى.

ـ كسروا عظام هذه الذراع بضربة تُرس، لكني الآن استعدت عافيتي.

ـ أشكر الرب على عافيتك ـ قال «المايسطري». ثم أمعن النظر في الفارس وأردف: ـ بالصوم دون شك؟

صادق الفارس على كلام رئيسه، كان وجهه المتهلل يؤكد ذلك.

ـ من أجل الذين استشهدوا في المعركة.

ـ كفاك صوما يا «مرتين» ـ تنهد رئيس الرهبانية ـ حسن من جودة طعامك. لا يُفيد الرجل الضعيفُ الرَّبَّ في شيء، لقد حَمَّلْتُك أكثر مما تُطيق... فاتخذت قرارات متسرعة، حقا، دائما من أجل تمجيد الرب، وخدمة الرهبانية، غير أننا فقدنا عددا كبيرا من المسيحيين في أرض «الموروس». ـ أطرق «مرتين». لم يكن مظهره حسنا، وأعضاؤه المنهكة تحت الدرع تعطي الانطباع بأنه يكاد يغرق بثقل الحديد. ـ الآن أريدك في مكان آخر، حيث ستخدمني جيدا، وفي الآن نفسه، ستشفى من الشعور بالذنب الذي يضنيك.

ـ حيث تأمر، سيدي. ـ كان قد فشل للمرة الثانية، وكان في حاجة إلى المصالحة مع الذات، ومع رئيسه.

ـ سيبعث أسقف «ابْلَيَّانْسَية» **Palencia** بحملة ضد «تَرْجالَة» **Trujillo**. ويوجد الجيش الآن في الطريق، وقبل انتهاء السنة سيحاصر المدينة. وستشارك الرهبانية بمائتي فارس. سترافقهم أنت، فكن وفيا للأصول في جميع الأحوال، وقاتل بشرف من أجل الرب.

قَبَّلَ «مرتين» الصليب الذي كان معلقا على

صدره وهو يوافق على كلام رئيسه. كان يعرف ماذا يعني ذلك: إن «المايسطري» يجرده من رتبته، ويرسله بعيدا، إلى المعركة، حتى يجد فرصته في خدمة الرب بشكل جيد.

ـ سأضحي بالنفس والدم في قتالي ضد الكافر ـ قال في فخر واعتزاز.

ـ لا أشك في ذلك، يا «مرتين» الوفي، غير أنه قبل ذلك ينبغي أن تستعيد جسمك، لأنك ستحتاجه.

ودع «المايسطري» «مرتين»، ثم طلب حضور القائد الجديد الذي سيعوضه على رأس فرسان القلعة في «أندوجر».

***

**«تَرْجالَة» Trujillo. يناير 1232**

كانت الرطوبة والبرد قد نفذتا عميقا في أجسام النصارى المحاصرين لِ «تَرْجالَة». فأصاب المرض عددا كبيرا من الجند، وأصبحت المعسكرات، التي لطخها الوحل، ورَجَّتْ أركانَها الرياحُ الباردة، بؤرا للمرض لا يسمع فيها سوى صوت السعال والأنات البكماء الصادرة عن الجنود المحمومين. ولم يكن «مرتين» ليفلت من المرض. فقد قضى يومين منهكا وَهِناً بسبب ارتفاع حرارة جسمه. غير أنه ما أن ارتفع الضباب، وخف البرد، حتى استعاد صحته، وأحس بنفسه مستعدا من جديد للمشاركة في القتال.

كان الحصار الشديد الذي أقامه النصارى على بلدة «تَرْجالَة» قد منع عنها التوصل بأي إمداد من

القوت والمؤن. وقد كانت الاستراتيجية الحربية التي سار عليها المسيحيون في أول الأمر هو التضييق على القلعة عن طريق القيام بهجومات خفيفة على الأسوار، لكن هذه الحملات الصغيرة سرعان ما كانت تُصدُّ من قبل المحاصَرين. أمام هذا العجر عن اقتحام القلعة اتفق أسقف «ابْلَيَّانْسَية» **Palencia**(38) و«مايسطري» رئيس «رهبانية القنطرة» **La orden de Alcántara** على شن هجوم أخير بهدف الاستيلاء على البلدة، وليس التضييق عليها.

- لنستجمع كل قوانا وننهي هذا الأمر مرة واحدة. - اقترح رئيس «القنطرة»، بعد أن أعياه الانتظار دون فائدة.

اصطفت قوات بلدية «ابْلَيَّانْسَية»، وفرسان الجمعيات الدينية أمام أضعف أبواب «تَرْجالَة» تحصينا، بنية النفوذ منه إلى البلدة بأقل الخسائر. فجأة، انقض المشاة على السور، ووضعوا سلالمهم عليه. في الحين قام المحاصَرون بردة فعل قوية، فتصدوا للموجة الأولى من المهاجمين، وأكثروا فيهم القتل، حتى تحولت دروب الأسوار، وما يحيط بها إلى مقبرة للنصارى، فبدا الوهن والضعف واضحين على القوات المهاجمة، وارتأت القيادة أن الاقتحام محكوم عليه بالفشل، غير أن إطلالة الشمس من بين السحاب، بغتة، بنورها المشع على السور، غَيَّرَ الموقفَ واعتبر المهاجمون ذلك رسالة من العذراء:

- سيدتنا العذراء! ترسل إلينا شارة! - صرخ أحد

المقاتلين الپالانسيين.

رفع الجميع أبصارهم، وتمعنوا في تلك الشارة التي أتتهم من «مريم العذراء».

- إما السيطرة على القلعة أو الموت! - انتقل صراخ الحرب من فم إلى فم، وهو يزرع في المقاتلين الحماس والإقدام.

شرع الجند المسيحيون في التزاحم على السلالم، وجعلوا يصعدون إلى دروب السور بشجاعة وحمية لا مثيل لهما، كان الرجال لا يعبؤون للقتلى الذين يتساقطون حولهم، فكان ينبري للاستشهاد منهم، مقابل كل قتيل، ثلاثة من الأحياء، كلهم يسعون إلى بلوغ أعلى السور، واجتياز شرفاته، مجازفين بحيواتهم. وهكذا، بعد مذبحة سريعة. تمكن الطلائعيون منهم من النزول إلى درب السور، ليواجهوا «الموروس» الذين كانوا يدافعون عنه. واستمر القتال على أشده بين الفريقين، لكن في النهاية انتصرت العزيمة الحديدية للنصارى، وفتح الباب، ونفذ منه الفرسان إلى داخل القلعة.

لحظتها كان «مرتين فرناندث دي برغش» ضمن جماعة من فرسان «قلعة رباح»، يرقبون الوضع عن كثب وهم في حالة من التوتر والقلق... قبّل «مرتين» الصليب بقوة وهو يذكر أباه وعمه، فاجتاحه شعور غامر بأن أوان الانتقام لهما سيحين بعد هنيهات، وأن ساعة مسع العار الذي لحق الأسرة آتية لا ريب فيها.

- سانتياغو! - صرخ رئيس رهبانية «سانتياغو»،

وما هي إلا رمشة عين حتى كان رجاله مندفعين كالسهام للانتقام من العدو الكافر.

حينها توجه «مرتين» بنظره إلى ناحية القائد الذي كان يقود فرسان «قلعة رباح»، واصطبر على أحر من الجمر ينتظر أمر الانطلاق الذي جاء للتو.

- إسبانيا! - زعق القائد، وإذا بفرسان الصليب الأسود الموشى بصور الزنابق يعدون في أثر فرسان «سانتياغو».

وراءهم تحرك فرسان «الهيكل»، و«الأسبتارية».

احتمى أهالي البلدة ببيوتهم، في حين كان جند الحامية المسلمون قد أخذوا في التراجع إلى الأبراج الأكثر قدرة على الصمود، في الآن ذاته، كانت الأزقة والدروب تعج بصرخات الإستغاثة، وطلب النجدة، كان الأهالي يفرون من مكان إلى آخر في جنون، أمام الانقضاض الشرس من جانب الفرسان النصارى.

وصل «مرتين» في كامل جاهزيته إلى الصف الأول من المهاجمين، ممسكا برمحه، ومُتَّكِئاً به إلى السَّنَّادَة، فقصد إلى حيث كانت جماعة من المحمديين تسعى إلى صد المسيحيين. لم يكن «مرتين» لينتظر طويلا حتى غرز الرمح في صدر أول رجل عرض له في الطريق. ثم استمر يضرب بالسيف، وقبل أن تتمزق نهائيا جموع الكفار، أتم العمل بقتل ثلاثة منهم على الفور. غير أن ظمأه إلى المزيد من الدماء لم يكن ليرتوي بذلك، فتعقب الذين كانوا يفرون إلى أمن البرج الرئيس. ولم يمض سوى حين حتى لم يعد يسمع قريبا

من البرج الكبير سوى حشرجات المحتضرين، وصراخ النساء، وصياح الأطفال اليائسة.

ومع ذلك بقيت أعداد من الكفار المسلمين على استعداد للقتال، لكن مصير «تَرْجالَة» كان قد حسم، وارتفعت بنود المسيحيين خفاقة في الشوارع والأزقة.

على بعد من الأسوار، ومن مسافة آمنة، كان ثلاثة من الفرسان الخفاف المسلمين يرون كيف أن آخر الفرسان النصارى يدخلون البلدة. على الإثر وفي عجلة، أداروا خيولهم في الاتجاه المعاكس، وعادوا من حيث أتوا.

***

على بعد أميال من «تَرْجالَة»، كان معسكر «ابن هود» ينتظر آخر الأنباء.

- سقطت البلدة، ودخلها النصارى.

أمر الأمير الفرسان الثلاثة بالانصراف، ثم اتجه إلى رجال ثقته قائلا:

- لنرفع المعسكر، ولنَعُدْ إلى «مرسية». لقد وصلنا متأخرين.

كثرت الإشاعات، وترددت الأقاويل داخل المعسكر الإسلامي. وبالرغم من استجابة الجميع للأمر الأميري فإنهم كانوا يعرفون أن الخبر نصف حقيقة. فقد بدأت الشكوك تخامر الكثيرين حول صيت الأمير القديم، وقدراته على التصدي للنصارى بعد أن توالت الهزائم متتابعة، ليستوثقوا أخيرا، بعد خزي الانسحاب، بأن «ابن

هود» كان يهاب مقاتلة المسيحيين. إذ قضى الجيش الأندلسي أياما وهو يطوف بمنطقة «تَرْجالَة»، لكن الأمير لم يعزم على التدخل لإنقاذ البلدة إلا بعد فوات الأوان، وسقوط المدينة بيد القشتاليين. كان «ابن هود» يعرف أن جيشه أكثر عددا من قوات المسيحيين، لكنه كان، أيضا، على بينة من أن رجاله تنقصهم الدُّرْبة والِمراس، بعد أن سقط عماد جيشه من الرجال المدربين في معركتي «حِصْن الحَنَش» و«شَريش». وكأن بالأمير المسلم قد تيقن من أن مواجهة فرسان الجمعيات الدينية ذوي الحَوْلِ والطَّوْل في ساحات النزال لا يكفيها إيمان وعزيمة عصبة من الفلاحين. وبذلك وجد «ابن هود» نفسه محاصرا من سياسته ذاتها التي قامت على الهجوم دون التفاوض.

وهكذا تهاوى حلم زعيم أندلسي مظفر أمام عدو يفوقه قدرة وإصرارا بكثير.

***

**«أرجونة» Arjona. شتاء 1232**

كان اليوم يوم جمعة، وفناء المسجد الجامع بـ «أرجونة» يعج بالرجال المتهامسين بأصوات خافتة تكاد لا تسمع. كان الإمام وهو أيضا الخطيب، قد خطب في الناس مناديا بـ «ابن هود» باعتباره منقذا لأرض الأندلس المقدسة من أهل البدع بـ «أفريقيا»، والكفار في الشمال». دون أي إشارة إلى سقوط «ترجالة» أو الموقف المخزي الذي صدر عن أمير الأندلس حينما أحجم، بسبب وَجَلِه، عن مواجهة المسيحيين. ومع ذلك فإن الأرجونيين

كانوا مطلعين على الواقعة، يعلقون عليها، ذاهلين، مزدرين بمن كان وراء الفاجعة.

في تلك الأثناء خرج «يوسف»، وكان قد وقف للسلام على بعض الزبناء، متأخرا بعض الشيء من قاعة الصلاة، وحينما هَمَّ بمغادرة الصحن نادى عليه «أشقيلولة» بصوت مرتفع، لكن النصري لم يتنبه للمناداة عليه، فلم ينفع «أشقيلولة» غير الهرولة، رغم عَرَجِه، حتى يلحق بـ «يوسف».

أمسك «أشقيلولة» بصهره من ذراعه، ثم انتحى به جانبا.

ـ لا يمكننا أن نتركها بين يديه. ـ قال له على الفور.

ـ عَمَّ تُحدِّثُنِي؟ ـ سأل يوسف بابتسامة خفيفة.

ـ هذه الأرض، يا رجل. لا تجعلني أيأس، إنك على علم بالموضوع الذي أتحدث عنه. ـ كان «النبلي» في حالة انفعال ـ لقد ضاعت منا «ترجالة»، والأمير لم يحرك ساكنا ليمنع ذلك. ألهذا يدعو الناس للتجنيد؟ أمن أجل ذلك يفرض الضرائب غير الشرعية؟ ـ هز رأسه نافيا ـ لقد خدعنا، وأنا أولُ المخدوعين. كنتُ أظنُّه أَجَلَّ عَقْلا وذَكاء، لكنه ليس أكثر من صبي يملك سلاحا، ولا يعرف ما يفعل به.

ـ لا تنس أننا مدينون له بالكثير ـ أراد «يوسف» أن يخفف قليلا من انفعال صاحبه.

ـ لكن ذلك لا يعطيه الحق في أن يترك الأندلس تستسلم تباعا للنصارى. ـ أعطى «أشقيلولة» لنفسه مهلة صمت قبل أن يواصل ـ هل أنت، ياتُرى، أعمى؟ نحن في حاجة إلى زعيم قدير

وكفء.

ـ أجل، نحن في حاجة إلى هذا الزعيم ـ أجاب «النصري» موافقا على كلام «النِّبلي» ـ فقط كنت أُذَكِّرُ ببعض فضل الرجل.

ـ كلنا نعرف أفضال «ابن هود». من المروءة أن نعترف بمناقب الناس، وأيضا، بمثالبهم. فقد كان مثالا ألهم الأندلسيين حينما كنا في أمس الحاجة إلى طرد الموحدين. إلا أنه حاكم رديء، وغاية في الرداءة باعتباره قائدا عسكريا.

ـ أنت على صواب. ـ تنهد «يوسف» ـ نحن نسير في الطريق الخطأ: «حصن الحنش» Alange، «شريش» Jerez، «قِيجَاطَة» Quesada... والآن، «تَرْجَالَة» Trujillo. لكن ماذا بوسعنا أن نفعل نحن؟

زم «النِّبلي» على شفتيه، كما لو أنه يجد صعوبة في كبح كلماته.

ـ أنا أملك مخططا، وأراه واضحا. وأنت أيضا ينبغي لك أن تراه كذلك، يا أخرق! ـ فاجأ «يوسفَ» بالجواب، وهو يتراجع، متكئا على عصاه، نحو الباب مَخْرَجِ الفِناء.

***

بدت سطوحُ «أرخونة» وحقولُها لامعةً بفعل تجمد الثلوج. في الطريق نحو القصر، بدا «أشقيلولة» متدثرا في معطف ثخين من جلد الأرانب. كان «النقيبُ القديم» يريد زيارةَ الحاكم.

كان البرج من الداخل حسن التدفئة، ما أن دلف «النبلي» إليه حتى غمر وجهه إحساسٌ لطيفٌ

من التنمل. جلس الرجلان حول طاولة من الخشب، قصيرة القوائم، وتقاسما صينية من التّمْر، وجرةً من الحليب الساخن.

ـ فشل جديد، وضياع بلدة أخرى. ـ قال «أبو نبيل» على الفور، دون انتظار أن يَبَدَأَ صديقُه بالكلام.

ـ لم تكن مخطئا، إن الأميرَ تعوزه بعض الدروسِ في الاستراتيجية الحربية، وأمور أخرى.

كان الرجلان يتحدثان بكل صراحة، فقد كان كل منهما موضع ثقة الآخر.

ـ نحن تائهون، والأندلس من جديد في كف عفريت، تهتز كأنها فرع شجرة زيتون يُخْبَطُ، والزيتون لا يتوقف عن السقوط. ـ مسح الحاكم وجهه بيده من يأسه ـ ونحن هنا محاصرون، نعيش على التهديد المسيحي المستمر، كسيف مصلت على رؤوسنا... صراحة لا أعرف ما أفعل. هناك عدد كبير من المتطوعة، ولدي ثلاث نوبات لتدريبهم، لكننا في حاجة إلى مزيد من الجهود. ولو لم يكن «ابن الأحمر» والرباط، لكانت «أرجونة» تدق بها منذ زمن الأجراس عوض سماع الأذان.

مسح «أشقيلولة» على لحيته، وهو يفكر وينتقي الكلمات التي سيَفُوهُ بها.

ـ أعترف بفضل «ابن هود». ـ وضع «أشقيلولة» يده على صدره، ثم أغمضَ عينيه لهُنيهة ـ لكنه بوصفه زعيما فإن مَعينَهُ يَنْضُبُ يوما عن يوم. وإني أخاف على مستقبل هذه الأرض، وقد وُضِعَ مصيرُها بين يدين عاجزتين غير كُفْؤَتَيْن ـ انتهى

من عبارته تاركا الكلام في الهواء ليجس نبض الحاكم.

- غاية في العجز - أكمل «أبو نبيل» بوجه غاية في الجد. ودون أن يشوب صوته أدنى شك.

- قل لي أيها الصديق. - ارتأى «أشقيلولة» أن لحظة المخاطرة قد حانت - لو برز زعيم جديد، من صنف الرجال الذين يتحلون بالشجاعة والمهارتين الاستراتيجية والخطابية، ويتسم بالحلم، ويحبه الشعب... هل تناصره.

حدق الحاكم في «النبلي» بتركيز. وقد فهم الرسالة المحجبة، ثم أجاب دون أن يزيح بنظره عن عيني «أشقيلولة»:

- إذا خرج زعيم مثل حفيدك، سأنصره دون تردد.

أخذ «أشقيلولة» تمْرة من الصينية، ثم وضعها في فمه مبتهجا.

- نسأل الله أن يحقق ذلك، وأن تجد الأندلس الأمير الذي تستحقه. وسأصلي وأدعو ربي ليحصل ذلك.

***

كان الصغيران «يوسف» و«فرج» يتنازعان من أجل فرس من الخشب كان جدهما قد نحته لهما. على الإثر أنهت «عائشة» شجارهما بأن أخذت منهما اللعبة، وتركتهما يبكيان بحرقة.

- إذا كنتما لا تُحسنان تقاسم الأشياء، فلن تكونَ اللعبةُ لأي منكما. - قالت الأم توبيخا لهما.

مباشرة سدد «فرج» لأخيه صفعة، في الحال

خفت «مريم»، وكانت قريبة من الأخوين، لتفصل بينهما، قبل أن تستدير عائشة قائلة:

- شكرا يا «مريم»، لا يمكنني أن أتغافل عنهما، ولو هنيهة، لقد أضنياني حقا.

كانت هالتان رماديتان تحيطان بعيني الأم، ووجهها يعكس تعبا لا مزيد عليه. «مؤمنة» و«شمس» كانتا تسهران على إلهاء الصغيرة «فاطمة» التي كان مزاجها أميل إلى السكينة من أخويها. بينما كانت «كريمة» تقوم بمساعدة زوجة «إسماعيل» وابنتيها بإعداد الطعام، ساد البيتَ جوٌّ من الألفة والروية. فقد تناست «عائشة» الحقد الذي كانت تكنه لـ «مريم»، وأصبح من الماضي، وتقبَّلتِ النصرانيةَ كعضو آخر من أعضاء الأسرة.

توقفت الحياة في الحقول والبساتين جراء سقوط الثلوج. وشغل رجال البيت الثلاثة أوقات الفراغ بإصلاح أثاث المنزل الذي تَقَوَّضَ بفعل مرور السنين. كان النصريون قد عادوا من جديد إلى وضعهم القديم باعتبارهم الأسرة الثانية من حيث الجاه والنفوذ في «أرجونة». ومع ذلك، فإن رب الأسرة وأبناءه حافظوا على نشاطهم القديم في القيام، من تلقاء أنفسهم، بجميع الأعمال التي يقدرون على القيام بها. «إن رب العمل ينبغي عليه أن يعرف ما هو العمل. فإذا جهل ذلك كيف سيَعْلَمُ ما يجب عليه أن يطلبه من المياومين» كان «يوسف» يكرر ذلك دائما لأولاده.

لم يكن أصحاب البيت ينتظرون أي زيارة في يومهم ذاك. غير أنه قُبَيْلَ منتصف النهار وصل

«أشقيلولة» وابناه. فعزم «يوسف» على استقبال ضيوفه بـ «المجلس».

- أريد أن أحدثكم في أمر مهم - فاتح «أشقيلولة» الحاضرين بالقول - من جديد عادت الأندلس إلى المعاناة مع حكم سيئ. «ابن هود» تتوالى عليه الهزائم معركة بعد معركة. ويتنازل عن الأرض للكفار كل يوم. والنصارى على مرمى حجر من «أرجونة» محيطين بها... وأخاف على أسرنا، ودورنا، وحقولنا - كانت الوجوه تعكس دقةَ الموقف وجِدِّيَته - لقد حانت ساعة التصرف.

- أوافقك القول يا «أشقيلولة». - أكد «النصري» على كلام «النبلي» - لقد خيب الأمير ظننا فيه. أعرف أنك تتوفر على خطة، لكني لا أتبين ما هو لديك في حكم الجلي الواضح.

- الواضح لدي هو أن الأندلس في حاجة إلى زعيم، ومن «أرجونة». - أجاب دون مُواربَة - أريد شيخا يحترمه شعبُه - نطق بالعبارة ثم نظر إلى «محمد».

شعر «ابنُ الأحمر» كما لو أن قلبَه يخفُق أكثر من اللازم. بجانبه، قطب «عبد الله» ما بين حاجبيه وعَبَس، ثم لوى بفمه، وقد أخذته سَوْرةٌ من الغضب المكبوت، لكنه لم ينطق ولو بكلمة ضد العرض الذي تقدم به والده.

- هل تتحدث بجد؟ - سأل «يوسف» - وكيف سيتأتى لنا تحقيقُ ذلك؟

- «ابن هود» كان يعمل نقيبا في خدمة الموحدين بـ «وادي الرِّقوط» **Valle de Ricote**،

نعرف قصة حياته جيدا. كان زعيمَ قرية مغموراً، لا يُعرف عنه سِوى ما يقوم به من أفعال. ومع ذلك، تمكن من جر كل الأندلس إلى قضيته. أما هذا ـ أشار إلى حفيده ـ فَلَهُ أعْمال، ووراءَه أُسْرَة.

حرك يوسف رأسه كأنه يريد أن يستوضح الأمرَ بإفاضة.

ـ لكن، ليس من السهل إسقاط أمير، يا «أشقيلولة».

ـ أنا لا أتحدث عن إسقاطه، بل أتحدث عن مُنافَستِه من هنا. لقد مرت على الموحدين سنواتٌ وهم يفعلون ذلك، يتمرد بعضهم على بعض، وتَخْلُق كلُّ فئة منهم حزبَها. هُنا بالأندلس ليس «ابن هود» الوحيد الذي أعلن الإمارة. ـ لاذ بالصمت لبعض الوقت ثم استطرد: ـ هل تريد أن نستكين للبديل، أن نترك المجال مفتوحا للمسيحيين، يغزوننا وينهبون أرزاقنا. ـ مد «النقيب القديم» يده نحو «يوسف» ينتظر جوابه.

ـ ليكن ما صَمَّمْتَ عليه ـ تدخل «ابن الأحمر»
ـ أريد أن أحقق ذلك ـ شدد القائد الشاب على كلامه، ليؤكد عزمه على الخروج على «ابن هود».

ابتسم «أشقيلولة» في سرور.

ـ أنا بجانبك يا أخي. ـ أكد «إسماعيل».

تطلع «يوسف» إلى ولديه، وشعر بالفخر أكثر من الشكوك.

ـ علينا أن نبحث عن المناصرين. ـ نظر إلى «أشقيلولة».

ـ لقد تحدثت مع الحاكم. سيساعدنا.

ـ دائما تسبق الأحداث، وتسير بين يديها أيها العجوزُ الماكر.

ـ الوسيلة الوحيدة لِئَلاَّ تُفاجِئَك الأحداثُ هي أن تصنعها بنفسك.

تعانق الرجال، بعضهم كان أكثر اقتناعا من الآخرين. هناك في مجلس «آل نصر» وضع الختم على الاتفاق الذي سَيُقَدَّرُ له أن يُغَيِّر مصيرَ الأندلس.

ـ سأتكلف بالخطوات الأولى ـ قال «أشقيلولة» لحفيده قبل أن ينصرف.

انصرف «أشقيلولة» وولداه. وحينما انفرد «محمد» بوالده وأخيه، توجه إليه قائلا:

ـ أَتَذكُر العهدَ الذي كنت قد قطعتُه على نفسي لك؟ كنت قد وعدتك بأن أرفع اسم الأسرة عاليا، حتى يتألق اسمُ «بني نصر» كما تتألق النجوم في السماء. ـ أشرقت عينا الوالد ـ واليومَ أُجددُ لك وعدي.

ـ تَحسَّس «محمد» القِلادة، ثم أمسك بالقطعة النقدية الرومانية التي كانت تحمل خصلة «فرح»، قبض عليها كأنها رفاتُ قديس، ثم رَجَّها أمام أخيه ووالده، كما لو أن كلماتِه ستغدو بتلك الحركة أكثر قوة.

***

ـ أتريد أن تضع «محمدا» على رأس الأندلس؟ ألا يكفيك أن ينادوه بـ «الشيخ» في «أرجونة»؟ هل

يا تُرى تحبه أكثر من ولديك اللذين هما من صلبك؟ ـ كانت هذه الأسئلة من جملة سيل الملامات التي أمطر بها «عبد الله» أباه، ما إن غادر الثلاثة دار آل نصر، ومضوا تحت رحمة برد شديد في اتجاه دارهم.

تجاهل «أشقيلولة» كلمات ابنه. ولم يجبه إلا حينما كانا في حماية جدران البيت.

ـ في لعبة السياسة يجب على الفرد أن يكون أريبا يا بني: أن تسهر على تطلعاتك الخاصة ومصالحك، وأن تستخدم، في الآن ذاته، الأدوات المتاحة التي هي في متناول يدك.

ـ والدي، لست متعودا على أن أوافق على آراء أخي، غير أنه ربما سيكون مبالغة منك أن تُفضل «محمدا» ليتبوأ منزلة أمير. ـ أدلى برأيه «إبراهيم».

أومأ «عبد الله» بموافقته على رأي أخيه، وأحس ببعض القوة وقد سمع ما تفوه به شقيقُه.

ـ يبدو أن السنوات لا تمر هباء. ـ قال «عبد الله» بنبرة سخرية.

على الإثر رفع «أشقيلولة» ذراعه وسدد صفعة لـ«عبد الله» أوقعته للتو أرضا.

ـ انهض واسمعني! ـ كان «أشقيلولة» ما زال محتفظا بلياقته البدنية والذهنية رغم أنه في الستين. ـ إذا أنا ناديت بأحد منكما غدا زعيما للبلدة، من سيدعمه؟ من سيتبعه؟ ـ توقف عن الكلام، كأنه يعطيهما فرصة للتفكير في الجواب ـ لا أحد. حقا، تتوفر فيكما عديد من الفضائل،

وأحبكما أكثر من أي شيء آخر في الوجود، لأنكما ولداي الذكران الوحيدان، أنتما المفضلان من بين أبنائي، غير أنكما لا تملكان موهبة تحريك الناس، واستنفارهم. بينما ابن أختكما، «محمد بن الأحمر»، «شيخ أرجونة»، ومُرَمِّمُ الرباط، ومُعيده إلى سابق عهده، والظافرُ في معركة البساتين...، قد قطع نصف الطريق. لحد أنني إذا كتبت له نص بيعة ستجدان مئات الأرجونيين يصطفون في الطوابير من أجل تقديم الولاء له. هل تفهمان؟

ـ ولِمَ يجب أن تكون أنت بالذات من سيساعده؟ ـ سأل «عبد الله»، الذي لم يكن قد اقتنع بعدُ بوجهة نظر أبيه. كانت وجنتُه قد احمرت جراءَ الصفعة، وإحدى عينيه تَذرِفُ الدمع تلقائيا.

ـ أفَضِّلُهُ على آخرين لأن دمنا يجري في عروقه. وإذا أحسنتُ مساعدتَه، وتحقَّق المرادُ، فبإمكاني أن أطلبَ منه مقابلا. ولعلكما إذا فهمتما الدرس جيدا، وتصرفتما باحترام أكثر مع والدكما، قد أطلب منه أن يتقاسَمَ الحكمَ معكما. ـ بدا، أخيرا، أن الشَّليلين قد فهما الدرس، وبدآ يهدآن.

***

«كاريون» **Carrión**. ربيع 1232

تقاطر الممثلون البارزون لبلديات «ليون»، وعدد من الأشراف على مدينة «كاريون»، استجابة لدعوة الملك «فرناندو الثالث». فعَجَّت المدينةُ بالحياة، وسادَتْها حركةٌ أكثرُ مِن المُعتاد. كان «فرناندو الثالث» قد جاب «جليقية» و«أَسْتُرْيَاشْ» خلال شهور لإخماد الثورات التي اندلعت بعد

وفاة والده «ألفونسو التاسع»، وهددت استقرار مملكة «قشتالة ـ ليون». وقد اغتنم العاهل وجوده بالمنطقة، فقام بزيارة قبري والده والحَواري «سانتياغو» الذي كان يُكن له ولاء خاصا مذ كان طفلا صغيرا. وحتى ينهي جولته، قرر عقد هذا الاجتماع في «كاريون»، بهدف وضع الأسس لقيام تفاهم بين ممثلي المجالس البلدية والأشراف والسلطة.

كانت في رِفقة الملك أمه «برنكيلا»، وزوجته «بياتريث دي سوهابيا».

ـ لقد خسر «الموروس» في كل الجبهات. «ابن هود» يتخوف منا، وسلطته تضعف يوما بعد يوم ـ قالت «برنكيلا» وهي تقضم تفاحة.

ـ أرجو أن يستمر الأمر على هذا المنوال. قريبا سنستولي على كل الأندلس، بقوة الرب والحواري «سانتياغو»، نحن من هنا، ومملكة «أراغون» من هناك. ـ تمنى «فرناندو» على ربه، وهو جالس بجنب زوجته.

كان «خايمي» ملك «أراغون» يرتبط بعلاقة طيبة بـ «فرناندو» و«برنكيلا». وبالرغم من أن زواجه من «ليونور» أخت الملكة «برنكيلا» لم يكن ناجحا، حيث افترق الزوجان منذ سنوات عدة، إلا أنه أسند ولاية العهد إلى ابنه من الأميرة المطلقة. وكانت سياسته التوسعية قد بدأت باكتساحه جزيرة «ميورقة». والآن، وقد استقر المسيحيون بجزر [البليار]، عرف الجميع أن ملك «أراغون» سيتحول بنظره إلى «شرق الأندلس» الذي يحكمه «ابن مردنيش»، وأن «بلنسية» ستكون هي محور هذا

الهدف.

ـ رأى «جَيَّان» مرة أخرى في منامه. ـ تدخلت «بياتريث» برومانثية سليمة. كان بطن المرأة الشابة منتفخا بعض الشيء. فقد غابت عنها الدورة الشهرية لأكثر من شهرين، وسيدات البلاط كن يؤكدن أنها حامل من جديد.

تطلعت «برنگيلا» إلى ابنها، وطلبت إليه بنظرة منها أن يحكي لها حلمه.

ـ أجل يا أماه، رأيت «جيَّان» في منامي مرة أخرى. رأيت فيما يرى النائم بأن مآذن المساجد والجوامع بها تحمل الأجراس، والملائكة يقرعونها، فتسمع دقاتها في الأعالي. في حين كان أسد يتجول في شوارعها واثقا من نفسه، وحشد من النصارى يحيطون به.

ـ إذا كان الرب يلح برسائله، فعليك أنت أن تصر على الإتيان بعظائم الأعمال. فلا شك أن «جيان» ستكون ذات يوم من نصيبك، ولن يكون سهمها إلا أول الغيث، وسيتلو فتحها فتوحات أخرى، ولا ريب.

ـ فليَسمَعْكِ الرَّب، وليَمْنحها لي.

ـ متى موعدُ الاجتماع؟ ـ سألت «بياتريث»، وقد اشتاقت إلى العودة إلى «طليطلة».

ـ البارحة وصل المتأخرون. ومن ثم، سيكون الموعد غدا. ـ أجاب الملك. كان «فرناندو» يسعى إلى سماع أصوات رعاياه، وإعطاء الفرصة لمجالس البلديات في مملكته للتعبير عن نفسها. كان يعرف أنه بهذه اللقاءات سيخرج أقوى مما كان،

وأنه سيصادق على اختصاصات البلديات وأعرافها، وسيعزز من وفاء الأشراف وإخلاص المجالس. وهذه كلها مبادرات ضرورية ليحقق أهدافه في بلاد «الموروس»، وإعادة التخطيط لحملاته عليها.

***

**«أرجونة» Arjona. ربيع 1232**

كانت «مريم» منبطحةً على بطنها، وهي تسعى جاهدة إلى خنق تأوهاتها بدفن وجهها في الفراش. فضلت هذا الوضع، بأن استلقت ووجهها لأسفل، وساقاها منفرجتان خارج السرير. كانت ركبتاها مستندتين إلى الأرض، وذراعاها منفتحتين في استرخاء من شدة الإحساس بالنشوة. في حين كان «محمد» يجامعها من وراء، تقابل حركات حبيبها الخشنة القوية بحركات ذهاب وإياب من وركها.

ـ بقوة أكبر ـ كانت «مريم» تطلب منه المزيد عبر همسات خافتة.

أمسك بها بشدة من خَصرها وضغط، كما يحلو لها، وسرعان ما أحس أنها تصل إلى الرعشة للمرة الثانية، على التو وصل هو بدوره إلى قمة اللذة، وقذف في داخلها.

استلقى على الأرض وهو يلهث ويتصبب عرقا، بعد هنيهة، طلب من حبيبته أن ترقد بجانبه.

ـ أمرك عجيب. لكَمْ تعلمني من ملذات ومسرات لم أكن أعرفها من قبل. ـ نطق «ابن الأحمر» وهو ينظر إلى السقف في حالة انتشاء.

ـ نتعلم معا. إن الرغبة هي التي تعلمنا.

كان الحبيبان، فيما يخص ما يجري بين الرجل والمرأة داخل الغرف، يبحث أحدهما عن الآخر باشتياق كبير، ويستسلمان للحب بوحشية كما لو أنهما يريدان أن يمسحا بذلك آلام الماضي وأحزانه. فتحول الجنس بالنسبة إليهما إلى علاج، فتعاطياه بكل لذاذة وشبق.

لم يكن «ابن الأحمر» ليتخلى عن «مريم». فقد وجهت له الحياة من الضربات ما كفاه ليصوغ، في النهاية، مزاجه على الجدية والصرامة. انتهى ذلك الطفل المبتهج، والعاشق البريء، والشاب الحالم الطموح، والزوج الوفي... كل أولئك عُوضوا برجل جديد يعرف كيف يصارع من أجل تحقيق ما يريد، وينتضي السيف متى استوجب الظرف ذلك في سبيل قيادة شعبه.

ـ يسألون عنك! ـ رفعت «كريمة» صوتها منادية من الفناء.

ارتدى «ابن الأحمر» لباسه على عجل، وخرج من غرفة النوم. كان جده ينتظره جالسا على حافة البركة بين أصيصين، وقد علت محياه ابتسامة سخرية.

ـ مَشِّطْ لحيتَك.

رفع «محمد» يده إلى وجنتيه ومَلَّسَ شعْرَ لحيته.

ـ ماذا جاء بك إلى هنا؟

ـ جئت لأحدثك بمفردك. ـ أطلق «أشقيلولة» ساقيه، ثم شَمَّر سرواله. باستثناء «كريمة»

و«مريم» لم يكن أحد بالبيت. ـ كما وعدتك سابقا، قمت بالخطوات الأولى. هناك أسر يهمها التغيير، وأهلي وأولادي على استعداد لمساندتك، ـ ابتسم «محمد» ما وسعه الابتسام ـ كما أرسلت مبعوثين إلى إفريقية، إذ أن مساندتها مهمة ـ كان الحفصيون قد استقلوا عن حكم الموحدين، وأصبحوا يسيطرون على منطقة واسعة من شمال «أفريقيا». ولا غرو، فإن كل من يتطلع إلى الزعامة في الأندلس لا بد له من دعم خارجي ـ ثم ـ استطرد «أشقيلولة» ـ ما زال أمامنا عقدٌ عديدٍ من اللقاءات والاجتماعات، بل يجب تقديم أموال لبعض الرجال الذين سيخدمون قضيتنا. غير أنه، قبل أن أتابع جهودي، أريد أن أسمع منك جوابا عن مسألتين: أولاهما هل أنت ملتزم بالقضية، ومدرك لما نحن بصدد القيام به.

ـ أنا ملتزم بالقضية. ـ أجاب «محمد» بصراحة تامة. ـ ومدرك للعواقب والمخاطر التي سأتعرض لها، وأتحمل مسؤولياتي إزاء ذلك. إن الأندلس في حاجة إلى إدارة صارمة، وأنا أستطيع، بحول الله تعالى، أن أوفر لها ذلك. وسأعمل كل ما في وسعي لأصل إلى مبتغانا.

هز «النبلي» رأسه ببطء، وهو يتطلع إلى حفيده، علامة على موافقته على ما سمعه، وأحس بارتياح، لأنه كان يعلم أن الثقة التي وضعها في حفيده كانت في محلها وأن «محمدا» لن يخيب له أملا.

ـ أما الثانية، وهي أني أريد أن أعرف كيف ستجازي مساندة آل «أشقيلولة» لك. ـ نظر «ابن

الأحمر» في اتجاه المسن الذي بدا في هدوء وسكينة كما لو أن سؤاله بين واضح.

ـ سأكون لكم دوما شاكرا ممتنا.

ـ لا أتحدث فقط عن الامتنان. لا تكن ساذجا يا «محمد بن الأحمر». إنني سأضع كل مقدراتي في سبيلك. وإذا تسنى لك حكم الأندلس، أريدك أن تتقاسمه مع وَلَدَيَّ.

فكر «محمد» في العرض الذي تقدم به جده. وللحظات أحس بنفسه كأنه زعيم الأندلس، ثم قال:

ـ سيكون لولديك مكانتيهما، أعدك بذلك.

سُر «أشقيلولة» للجواب، وهَمَّ بتوديع «محمد» والانصراف حينما لمح «مريم» تخرج من الغرفة بخطوات سريعة، ثم تتجه إلى المطبخ دون أن تنظر إليهما. ابتسم المسن بسخرية مرة أخرى.

ـ سأواصل هذه الخطوات، يا «محمد»، اسْتَعِدَّ، إن الأمر أقربُ مما تظن، قريبا، قريبا جدا، سأدْعوكَ لِأَخذِ العِنان.

***

«مرسية» **Murcia**. صيف 1232

ـ سيدي، إن أهم بؤر العصيان في إشبيلية، غير أن مناطق التمرد هي أكثر من ذلك.

مكث الوزير واقفا أمام الأمير. كان «ابن هود» يطل من الشرفة الكبيرة ببرج «قلعة الماء» **Torre de Caramajúl** مستقبلا بوجهه نور الشمس.

ـ هل ثاروا؟

ـ لا، ليس بعد، لكن الوضع محتقن. يتشكون من الضرائب.

ـ لا ألومهم ـ شد ابن هود قبضتيه ـ نطلب منهم الكثير، وفي المقابل لا نقدم لهم شيئا، سوى الهزائم والخزي. أرجو أن يحسن أخي التصرف، ويستوعب الوضع. وماذا عن «تَرْجَالَة» Trujillo؟

ـ قد استقر بها المستوطنون النصارى. وفرسان الجمعيات الدينية يغيرون على أراضينا القريبة، ولا غرو، فإنهم جميعا يحسون بالأمن.

ـ لو كان لدي رجال أكفاء لطردتهم بالرَّفَسات.
ـ كان الحنق مرسوما على وجه الأمير، لشعوره بالعجز أمام التقدم المسيحي. وضعف الجيش الأندلسي ونقص أعداده، وتدريبه الناقص على استخدام السلاح بشكل جيد. وكثيرا ما كان يبرر فشله بهذه المبررات. واللافت أنه لا يذكر أنه كان يتوفر فيما مضى على جيش ضخم حسن التدريب، وأنه فشل في قيادته في ميادين الحرب المفتوحة.

استرسل الوزير في قراءة التقارير، غير أن الأمير كان قد انتقل بفكره بعيدا، إلى الوادي صحبة رفاقه من المغيرين على الحدود، يتمتع بحرية صعود الجبال، تلك الحياة التي لطالما اشتاق إليها وهو يعاني من الوحدة بين جدران القلاع والقصور.

***

«أرجونة» Arjona. صيف 1232

بين أشجار الحَوَر التي كانت تكسو ضفتي الجدول الصغير، تقع مقاعد بُنيت من أحجار غير مُقصَّبة. كانت الليلة مضيئة بنور القمر الفضي الذي ينير الحقول والبساتين. وكان الرجال يتقاطرون على المكان، ويجلسون تباعا حتى اكتمل نِصابُهم. مَثَّلَ هؤلاء أشهرَ أسر أرجونة ورجالاتها: الحاكم، والقاضي، والفقهاء المحترمين، وبعض خدام الإدارة المحلية. وكان «عمر الحسون»، وَلِي الرباط الصالح، قد دعي، أيضا، لهذه «الجلسة» التي ترأسها «أشقيلولة». في حين جلس «ابن الأحمر» بجنب «النقيب القديم»، وهو لائذ بصمت جليل.

كان الاجتماع خاتمةَ عمل دؤوب حَضَّر له «أشقيلولة» منذ عدة شهور. حيث كان «النِّبلي» قد اتصل قبل ذلك بكل الحاضرين، واستطلع آراءهم بخصوص إعلان الخروج على «ابن هود»، فأبدى له الجميع موافقتهم على الخطة، فلم يترددوا في الانخراط في المشروع. ومن ثم لم يبق سوى توحيد العزائم، ومناقشة التفاصيل.

- كلنا نعلم لماذا نحن هنا. - افتتح المسن الجلسة واقفا وقد جلس قبالته ولداه، إضافة إلى «يوسف» وإسماعيل»- إن الأندلس ابتليت بزعيم فاشل يقودنا إلى الهلاك والخسران. وها قد حانت لحظة التصرف. كل واحد منكم يمثل طائفة، غير أننا جميعا متحدين يمكننا أن نحقق الهدف، لكن يجبُ أن نستحضر أن «ابن هود» لا بد وأن تكون له ردة فعل.

- لدينا الظافر في «معركة البساتين»، وإنه لقادر على أن يجابهه بما يستحق. - صاح «عمر

الحسون»، وقد استثاره الاعتزاز بصديقه الشاب.

ـ لا أشك في ذلك. غير أنه لكي ننتصر لا بد من الرجال، إذ لا يمكن لـ «ابن الأحمر» أن يضطلع بالأمر وحده. إنه يحتاج إلى التزامكم بالقتال إلى جانبه مع إخوانكم متى تطلب تحقيق الهدف ذلك.

ـ لك التزامنا، من أجل ذلك نحن هنا. ـ أكد «أبو نبيل».

كان الحاكم هو قائد حامية القصر، وهي تمثل المجموعة القتالية الأكثر عددا وعدة.

ـ لك التزامنا ـ كرر الحاضرون فردا فردا.

ـ نحن متفقون جميعا، وعلى هدف واحد. ـ وقف أحد الفقهاء وأشار إلى «محمد» ـ لننقذ «أرجونة»!

تعالت الأصوات من كل جانب مرحبة بكلام الفقيه. في تلك اللحظة وقف «ابن الأحمر» في هدوء، ثم انتظر حتى تنتهي الجلبة.

ـ أنتم على خطأ، يا قوم ـ تكلم أخيرا ـ لن يقتصر الأمر على «أرجونة» وحدها، بل منها سننقذ جميع الأندلس!

انفجر الحاضرون بالصياح موافقين، وكانت الجلبة والحماس هذه المرة أكثر من المرة الأولى.

ـ يا شيخ! يا شيخ! ـ كان الحاضرون يهتفون، كأنهم بذلك يطرحون عن أنفسهم الخوف من فقدان أراضيهم.

انفض الجمع بكتابة البيعة، بما تعنيه من خضوع الجميع إلى سلطة «محمد بن الأحمر»، ولم يبق

سوى انتظار التاريخ المناسب لإعلانها، والأمل في أن يقبلها الناس في الأندلس.

***

كان اليوم يوم جمعة، والحرارة المفرطة تدفع بالناس إلى الاحتماء بظلال أشجار البرتقال، وكما يحصل في كل جمعة كان المسجد الجامع في «أرجونة» ممتلئا عن آخره بالأرجونيين. في صحن الجامع كان الناس يتهامسون، ويتجهون بأبصارهم بين الفينة والأخرى نحو البوابة الكبرى لقاعة الصلاة.

بعد لحظات خرج «آل نصر» و«آل أشقيلولة» معا من الجناح الكبير، ووقفوا مجتمعين عند دَرَجِ المدخل. كانوا في أبهى حلة، يتوسطهم «محمد بن الأحمر» وقد تزين بنطاقه القِرْمِزِيّ فوق جلبابه الأبيض. خفق قلب الشاب في جموح وهو يرى مئات الأرجونيين يتدافعون لرؤيته. على الإثر أمسك «أشقيلولة» «محمدا» من معصمه، ثم تقدم خطوة نحو الأمام. كانت حينها القطعة النقدية على صدره تلمع لمعانا خاطفا بفعل انعكاس الشمس.

- يا شيخ! - سُمعت بعض الأصوات تنادي من بين الجمهور.

رفع «النبلي» ذراع «محمد».

- هأنذا أقدم لكم أميركم! أمير الأندلسيين!

تردد صدى مئات الأصوات المدوية عبر جدران الفناء، وهي تهتف محتفية بالأمير. كان الناس يتعانقون، ويهللون كما لو أنه قد حان موعد إنقاذ

الأندلس.

ـ أمير الأندلسيين! ـ كانوا يصرخون مبتهجين.

أمام هذه الاستجابة الصارخة من قبل الشعب، بويع «محمد بن الأحمر» أميرا على الأندلس. مباشرة خرجت النساء من دورهن وقصَدْنَ النواحي المحيطة بالجامع احتفاء بالحدث. ولم يمض وقت طويل حتى تحولت القصبة إلى عيد.

تنفس «النصري» أخيرا الصعداء. كان يتصبب عرقا من الانفعال، حتى التصق ثوبه بجسمه. ها هو ذا قد حقق بعض آماله، وستتاح له الفرص منذ الآن لإنجاز أهدافه التي كان يحلم بها منذ سنوات عديدة. حينها مرت بخلده ذكرى الذين استشهدوا، وشعر بالتأثر لغيابهم، وعدم وجودهم بجانبه في هذا اليوم.

فجأة، وفي نوبة انخطاف، صعد «أحمد بن إسحاق» الدرج، وفك ربطة الحزام القرمزي من خَصْرِ الأمير. على التو، وقد فهم «إسماعيل» المراد، دخل إلى قاعة الصلاة، ثم أخذ منها عصا طويلة، استعان بها مع «أحمد» لصنع علم «بني نصر». وما هي سوى لحظات حتى راح الرجلان يلوحان بها أمام الحاضرين.

ـ «ابن الأحمر»! يحيا الأمير، يحيا أميرنا! يحفظه الله! ـ صاح «أحمد» وهو يحرك العصا من جهة إلى أخرى.

أخذ «إسماعيل» العلم المرتجل ومرره لأخيه. أخذه «محمد» بقوة، واستمر في التلويح به، وهو يصيح صيحة النصر المعهودة عنده:

ـ «لا غالب إلا الله»!

***

«طليطلة» Toledo. صيف 1232

ـ ظهر منافس جديد لملك «مرسية»، «مورو» آخر. ـ علق «فرناندو الثالث» وهو يتفقد أشغال الكاتدرائية وأمه ممسكة بذراعه.

ـ أين؟ ـ سألت الملكة «برنكيلا».

ـ في «أرجونة».

كانت «برنكيلا» قد وصلتها أصداء عن هذه البلدة التي استعصت على مسيحيي «مَرْتُشْ» Martos، و«أندوجر» Andújar. وقاومت بعناد حملات الفرسان.

عبست الملكة، وقطبت ما بين حاجبيها.

ـ أعرف يا أماه. إن أهالي هذه البلدة عنيدون متصلبون. غير أن الخبر جيد. كلما ازدادت انقساماتهم أفضل لنا.

ـ أجل، يا بني، أحسن أن تنتصر على خمسة صغار من أن تظفر بواحد كبير. ـ أجابت «برنكيلا»، غير أن سحابة القلق التي أظلمت لها عيناها استمرت كالحة، كما لو أنها رأت في ذلك أمارة منذرة بما لا تريد.

ـ اهدئي ـ قال «فرناندو» لأمه، وقد لمح ما اكتسحها من شك. ثم استطرد وهو يَرْبِتُ على يدها الممسكة بذراعه ليُهدئَها. ـ إذا سَوَّلَتْ له نفسُه، هذا الملك «المورو» الجديد، أن يجابهنا فإننا سنسحقه.

واصل الملك وأمه جولتهما عبر الورشة الضخمة، كان العمل في الأسس قد انتهى، وشُرعَ في رفع الجدران التي وصل علوها إلى ما يزيد على طول قامة رجل. وبذلك أخذت «كاتدرائية طليطلة الجديدة» تتشكل كما لو أنها كناية عن القوة التي راكمها «فرناندو الثالث» تحت تاجه.

كانت أهداف ملك «قشتالة» و«ليون» واضحة جلية في خَلَده، ولم يكن بإمكان أحد أن يمنعه من تحقيقها.

***

**«أرجونة» Arjona. صيف 1232**

بدأ تنفس «برميجو» يضيق بمرور الوقت، في حين اتسعت عيناه غاية الاتساع، علامة على ما كان يعانيه من آلام مبرحة. استلقى الحيوان على جانبه الأيسر بساحة استعراض الجند وسط القصر، وبجانبه «ابن الأحمر» الذي لازمه طوال الصباح. كان الأمير يداعب عنقه، ويلاطف هُلبه، وبين الفينة والأخرى يهمس في أذن الحيوان كلمات عزاء ليخفف عنه. في كل حشرجة ينفث لظاها الفرس، وعند كل حمحمة تصدر عنه، كان الأمير النصري يقاسي بدوره.

ـ مولانا ـ ناداه «أحمد بن إسحاق»، ـ مولانا ـ ردد «أحمد» وهو يمد لـ «ابن الأحمر» سكينا ماضيا من السكاكين التي يستعملها الجزارون. ـ خذ ما طلبته.

أخذ «محمد بن الأحمر» السكين، ثم ركز انتباهه مرة أخرى في الحصان.

ـ الكل سيكون على ما يرام. ـ قال للحيوان في صوت خفيض.

في المدخل الرئيس للبرج الرئيس كان عدد من الحراس يرقبون المشهد. في حين وقف «إسماعيل» و«أشقيلولة» على بعد خطوات ينتظران النهاية.

أمسك الأمير بمقبض السكين بقوة، قَبَّلَ رأسَ الحصان، ثم وضع حد السكين على عنق الحيوان. وفي لمح البصر مرر الأداة. ارتعش «برميجو» رعشة الموت، وبعد ثوان من الارتجاج، ساد الهدوء، وسكن الفرس تاركا الدماء تنزف من جسمه في سلام.

كان الأمير يهم بالوقوف حينما اقترب منه أحد الحراس.

ـ سيدي، حاكم «بُركونة» Porcuna ومن معه ما زالوا ينتظرون. ـ أشار الحارس إلى باب القصر ـ هل أسمح لهم بالدخول؟

ـ لست في أحسن حال لاستقبالهم. ـ نظر إلى جلبابه الملوث بالدم، وهو يقاوم دموعه ـ هيئ لهم مكانا للمبيت، وغدا أستقبلهم.

لحق به «أشقيلولة» وهو يُعَوِّجُ إلى مدخل البرج، فأمسكه من ذراعه بقوة.

ـ أنت الآن لم تعد أحد من هب ودب من الرجال ينهزم شخصه لموت فرسه. أنت الآن أمير «أرجونة»، ويجب عليك أن تكون في مستوى المهمة المنوطة بك. أطلق العنان لبكائك هذه الليلة حينما تكون منفردا بغرفتك ولا يراك أحد. ـ

سكت «أشقيلولة» للحظة ـ استقبل هؤلاء الرجال حالا، لقد انتظروك لساعات.

وقف «محمد» ثم نظر بإمعان إلى جده. تنفس بعمق وهو في صراع بين كبريائه وما يمليه المنطق.

ـ معك الحق! ـ اعترف أخيرا ـ فليسمحوا لهم بالدخول.

دلف حاكما «بُركونة» و«أرجونية»، مصحوبين بخمسة من الرجال، إلى القاعة الرئيسة في البرج. خلال الأيام الأخيرة وصلت مراسلات عدة من القرى والبلدات القريبة من «أرجونة». كانت السلطات المحلية لهذه القرى تريد أن تتعرف الأمير الجديد، حتى تقوم الوضع. كانت أياما بهيجة في «أرجونة» غير أنها كانت أيضا أيام ارتياب وشك.

ـ أمير «أرجونة»، حفظك الله ورعاك. جئنا لرؤيتك وللتفاوض معك. ـ استهل حاكم «بُركونة» كلامه. حينها وقف «ابن الأحمر» فبرز جلبابه الخشن الملطخ بالدم.

ـ إنه دم حصاني، الملقاة جثته هناك، في الفناء، كان يموت فخففت عليه معاناته. أستسمحكم إن كنت قد استقبلتكم في هذه الهيئة. ـ علت محياه ابتسامة، لكن عيناه كانت تعكسان حزنا عميقا.

ـ لا شر في الرجل الذي يحب فرسه ـ قال له حاكم «أرجونية». كان الرجل يلبس درعا من الجلد، ويحمل في وسطه سيفا في غمده. تبادل الرجلان نظرة عرفا بعدها أنهما من فصيلة

المقاتلين

دعا «محمد» الحاضرين إلى مشاركته الطعام. بينما جلس «أشقيلولة» على يمين الأمير.

ـ جئنا لننضم إلى دعوتك. ـ قال حاكم «أرجونية» دون مواربات ـ نحن نعرف مسيرتك، نعرف كيف ظفرت في معركة البساتين، نحن نبحث عن زعيم مثلك، نريد أميرا يتمكن من كسب المعارك.

استقام «محمد» في مجلسه مسرورا بهذا الكلام الطيب الذي راقه. واستعادت عيناه بعض بريقهما.

ـ سنرحب بكم وبأراضيكم في هذه الإمارة.

ـ رجالنا يتسمون بالشجاعة ـ قال حينها حاكم «أرجونية» ـ اُدْعُنَا، نستَجبْ.

صادق ممثلو القرى وحاكم «بركونا» على كلام حاكم «أرجونية» بالموافقة. وعلى حين غرة أخرج أحد الزوار كيسا من جلبابه وفكه على المائدة. وإذا بدندنة الدنانير يسمع صداها.

ـ هذه أولى الضرائب التي نقوم بتحصيلها باسمك. إن رسومنا وضرائبنا تؤول إليك يا مولانا، نحن في خدمتك ما دمت في خدمتنا وتضمن حمايتنا. ـ أضاف الرجل.

ـ إن جيشي سيأتي لحمايتكم كلما استلزم الظرف ذلك.

ـ نسأل الله ألا يقع ذلك أبدا. ـ أضاف «أشقيلولة»، حتي ينتبه الزوار لحضوره.

ـ لدينا رباط ـ أخذ ابن الأحمر الكلمة من جديد

ـ به ندرب الرجال الذين يرغبون في الدفاع عن أرضهم. ابعثوا رجالكم إليه.

ابتهجت السفارة الصغيرة لهذه الفكرة.

ـ لمن سندعو في خطبة الجمعة؟ ـ سأل حاكم «بُرْكُونَا».

ـ لـ «أبي زكريا يحي»، أمير المؤمنين ـ أجاب «أشقيلولة». وكان «ابن الأحمر» قد بحث عن مساندة الأمير الحفصي، وقدم له بيعته انصياعا لنصيحة جده «أشقيلولة».

تبادل الرجال أحاديث لبعض الوقت عن الوضع في الحدود، وعن «مرتش» و«أندوجر» باعتبارهما نسرين متربصين بمسلمي الناحية، وعن سياسة التوسع التي ينهجها الملوك النصارى. حتى إذا جاء وقت الوداع والانصراف، ضم كل واحد منهم يديه أمام الأمير ليقوم هو بضمهما إلى يديه. وبذلك أظهر كل منهم خضوعهم للأمير.

ـ كانوا قد حدثوني عنك ـ قال حاكم «أرجونية» لـ«محمد» وكان قد تخلف عن باقي مصاحبيه ـ وعن شجاعتك وزعامتك. الآن وأنا قريب منك، أنظر إلى عينيك، أرى حقا بطل كل تلك الروايات.

***

طليطلة **Toledo**. صيف 1232

نغمات الأجراس البطيئة تغمر الهواء المحيط بالقصر. الارتجاج المعدني للأجراس يهز أسس الأرض ذاتها. مَلَكانِ، يغمرهما نور أبيض يخطف أبصار سكان «جَيَّان»، كانا يدقان الأجراس. يُسمع

نواح بعيد في أسفل البرج الذي انتصب في ناحية الشرق. وعلى ظهر أسد خرج فرناندو من جيان نحو الغرب. كان يعدو عبر ضفة نهر كبير إلى أن وصل إلى البرج، حيث كان المئات من الناس ينتحبون حول أحد النعوش. الأسد استلقى بجانب النعش. ثم هبط الليل.

تقدم فرناندو بأقدام مرتعشة إلى حد الصندوق. دقت نغمة جرس أخرى، وإذا بالأرض التي يطأها تتحرك. سقط غطاء التابوت الثقيل وكشف عن الميت. لم يعد بمقدور الملك أن يتنفس. والدموع شوشت على بصره.

ـ فرناندو، إنه هو فرناندو. ـ سمع حواليه.

لمح نفسَه مُكَفّناً، بالسواد، ووجهه هادئ.

تُسمع نغمة جرس أخرى، أكثر عذوبة.

ـ فرناندو...

ـ فرناندو! ـ نادت «بياتريث» على زوجها الذي كان يتكلم في المنام، ويتقلب في السرير بسبب كابوس.

نهض الملك مذعورا، وهو يتصبب عرقا. قص حلمه على زوجته وهو مضطرب من واقعية المنام. لكن «بياتريث» همست إليه بأن يعود إلى فراشه. غير أن فرناندو لم يعد قادرا على النوم. فارتدى ثوبه وخرج من الغرفة. سلم عليه حراس الباب في احترام ثم تعقبوه عن بُعْد. بَعْدَ حين أطل من نافذة ليتأمل بزوغ الفجر على المدينة الغارقة في سكونها. وسرعان ما أمعن النظر في القرية الصغيرة المبرقشة بأنواع النبات والأزهار

التي انسابت على ضفة نهر «التاجه» ليتحول عنها ببصره إلى ورشة بناء الكاتدرائية. لحظتها سمع صوت خطوات وراءه.

ـ أمي، يبدو أن لك قدرة على الإحساس بقلقي.

ـ لا تكن ساذجا يا بني، إني متفقة مع الحراس بإشعاري.

ابتسم الملك ووالدته.

ـ عادت إلي أحلامي مرة أخرى.

ـ بدأت تعتورني الأحلام مرة أخرى، لكني رأيت في منامي هذه المرة كابوسا. ـ قال الملك لأمه وشرع في قص حُلْمِهِ عليها.

ـ لا تقلق ـ قالت الملكة في نبرة حلوة ـ سيأتينا الموت جميعا في يوم ما، وكلنا نخافه. والأحلام تعكس رغباتنا، وأيضا تخوفاتنا.

ـ وخطابات يبعثها الرب إلينا. ـ أضاف «فرناندو».

ـ أجل، يبعث رسائل عبرها. لكن يا ابني، ليكن هدفك واضحا جليا، وامْضِ في تحقيقه حتى تُنْجِزَهُ وتجني ثمراته. إن الرب قد كشف لك في منامك عن «جَيان» وأيضا عن «إشبيلية».

ـ إني مصر على مواصلة العمل، يا أماه، من أجل تحقيق المراد. ـ مسح على وجهه ثم أردف: فكرت في مهاجمة أُبَّدَة **Úbeda** في الشتاء المقبل.

أعطت برنگيلا لنفسها مهلة ثوان للتفكير في الخطوة.

ـ لك سندي ودعمي، بدون «أبدة»، لن تكون «جيان». هل ستجمع مجلس المستشارين؟ إن

الصيف في نهاياته، والوقت يزاحمنا.

- نعم، في بحر هذا الأسبوع، وسأدعو «ألفونسو» للحضور. لقد بلغ السنَّ التي تسمح له بالمشاركة في هذه الأمور.

- ستفعل حسنا. «ألفونسيكو»، وهو بعد طفل في الحادية عشرة من عمره، أبان عن ذكاء، بل عن شدة ذكاء، وعن شغف بالعلوم. سيكون ملكا جيدا. - قالت الجدة في فخر - لقد حان الوقت ليتعلم من أبيه. - أنهت برنگيلا تعليقها ثم ربتت على ظهر «فرناندو» قبل أن تنصرف وتتركه وحيدا غارقا في أفكاره، وتخوفاته، ومشاريعه.

***

«وادي آش» Guadix. خريف 1232

- إن الإسراف والتطرف عادة ما يبعدان الناس عن المروءة والفضيلة. - قال «الولي الصالح» وهو يشير إلى رجل سمين ضخم الهيئة، جلس بالصف الأول. - غَذِّ روحَك أكثر من لحمك. - أضاف «الحسون» دون أن يحجب عن محياه ابتسامته العريضة. على الإثر سمعت ضحكات - تعلم رؤية الله، وعش سعيدا، قريبا منه.

فجأة سمعت وشوشة بين المستمعين، ... رفع «عمر الحسون» يده ثم سأل الشيخ:

- يا شيخ عبد الملك [بن «إبراهيم» بن بشر القيسي] أين يمكننا رؤية الله؟ - ساد الجمعَ صمتٌ أعقبَتْه هَمَسَات استحسان من قبل الحاضرين.

- هنا - وأشار الصوفي إلى صدره - ينبغي أن

نبحث عن الله بالتوجه ببصرنا إلى دواخلنا، وإن بدا أحيانا حاضرا أكثر في صدور البعض دون آخرين. ـ سمعت على الإثر قهقهات. هكذا كانت المواعظ التي يلقيها الشيخ «أبو مروان عبد الملك القيسي»، جامعةً بين التعمق العلمي والفكاهة.

ـ حينما انتهت خطبة الوعظ، وشرع الحضور في التفرق، وكانوا من وادي آش والقرى القريبة من فحصها، انتظر قليلا «عمر الحسون» قبل أن يقترب من العالم الشاب.

ـ أيها العصفور الصغير! كيف طرت حتى وصلت إلى هنا؟ ـ سُرَّ الشيخ بلقاء «الحسون» وعانقه وهو في غاية السرور.

ـ كما تعلم، لا أتحمل أن أبقى ساكنا في مكان واحد مدة طويلة. وكنت قد انتويت أن أزور هذه المنطقة منذ زمن. وفي «أرجونة» حدثوني عن أنك ستمكث بهذه الناحية بضعة أيام. شهرتك وصلت بعيدا، يا صديق النصارى. ـ ربت «الحسون» على وجنة الشيخ.

ـ اصغ إلي يا «عمر»، على المسلمين أن يتعلموا من هؤلاء النصارى. ـ كان الرجلان يقصدان إقامة «الشيخ أبي مروان» في أحد الأديرة في الشام. ـ الشيء الوحيد الذي لم يعجبني في القساوسة ـ خفض من صوته ـ هو نفرتهم من النساء. ـ ختم المتصوف عبارته بالضحك مع صاحبه.

كان «أبو مروان عبد الملك» من قرية «جُهانس» القريبة من «ألمرية». وكان الشيخ قد ارتحل خلال سنوات طويلة بين الأندلس وشمال أفريقيا

والشام. كما قضى فترة من النسك والتزهد بإحدى قرى «البُشَرّات». وهناك تعرف على «عمر الحسون»، الذي كان يأخذ العلم بها عن أحد الشيوخ.

ـ أدعوك لزيارتي هذه الليلة في مغارتي ـ دعا «أبو مروان» «عمر» ـ هذا المكان يعمه كثير من السلام.

كانت أرضية المغارة مليئة بالحجر الصغير، والتراب المدعوس، غير أنه كان بناحية منها متسع من الأرض واطئا شيئا ما حيث كان ولي قرية «جُهانِس» قد ألقى عليه بعض البطانيات لينام عليها.

ـ أتيت،إذن، من «أرجونة». لا بد وأنك تعرف أخبارا عن المتمرد بها، أليس كذلك؟

ـ لا أرى «ابن الأحمر» متمردا، أيها الصديق العزيز، إنه أمير شرعي.

ـ لا أعرف عنه أشياء كثيرة، لكنك ستوافقني الرأي بأن الرجل ينافس «ابن هود» في الملك، أليس الأمر كذلك؟

ـ إن رعايا «ابن هود» من الأرجونيين هم من اختاروا «ابن الأحمر» أميرا عليهم، وولوه شؤونهم. وكل ما سيأتيه لاحقا أو يمس مسيرته سيأتيه من نفس الطريق، طريق الاختيار الشعبي. إنه لا يملك جيشا قويا، ولكنه يتوفر على صدق الكلمة، والعزيمة القوية، والإيمان الصادق.

ـ والسفيرِ الحكيمِ العالم. ـ أضاف «أبو مروان» بإشراقة ذكاء في نظرته.

ـ لن أكتمك أنني نَصيرٌ وَفِيٌّ له، وإنه ليستحق ذلك. تربى على الجهاد ضد النصارى في الحدود باعتباره ثغريا، ثم أخذ عني التصوف والزهد والابتعاد عن الغطرسة وحب المظاهر.

ـ لا تنس أن الزعيم يحتاج إلى أكثر من ذلك. ـ ذَكَّرَ «أبومروان» «عمر الحسون»

ـ كما أنه لا يؤاخذ على أي تقصير من جانبه في الجهاد والاستعداد: أعاد تهيئة رباط مهجور، وجعله مركزا للمران العسكري، يدرب فيه المجاهدين على الدفاع عن الأندلس، ثم إنه انتصر في عديد من المعارك، وتمكن من رد هجوم قام به فرسان «قلعة رباح» على «أرجونة».

لاذ «الولي الصالح» بالصمت للحظات، بينما جعل رفقاؤه في سياحته يُكَدِّسُون الحطب عند مدخل المغارة لإشعال النار.

ـ أعرفك جيدا يا «عمر»، أنت صارم مع نفسك حتى تتأثر بسهولة بمداهنات الأنبياء المزيفين، وتملق دعاة التحرير. وكل ما ذكرته له نغمة عذبة في الأذن، بل نغمة غاية في العذوبة. إذن أين هو المشكل؟

ـ يكمن المشكل في كون زعيم «أرجونة» ينقصه الأنصار. أكيد أن «ابن هود» سيقوم بردة فعل، وإذا لم يبن «ابن الأحمر» قوة لمجابهته فلن يتعدى منطقة الحلم، حلمٍ سرعان ما سيتلاشى مع أضواء الصباح. ـ وأخيرا كشف «عمر الحسون» عن الهدف من زيارته لـ «أبي مروان».

نهض «الجُهَنِّسِيُّ» من مجلسه وغادر المغارة.

كان الوقت مساء، والجو بدأ يبرد، في حين هبت نسائم عليلة منعشة كانت تهتز لها أغصان أشجار اللوز المنتشرة عبر الحقول. استدار «أبو مروان» نحو «عمر»، والنار قد زندت وبدأت تشب، وسرعان ما دعاه إلى أن يتبعه.

ـ انظر، ها قد لاحت في الأفق أول نجمة. ـ قال «أبو مروان» لـ «عمر» وهما يواصلان السير في صمت. بعد لحظة جلس الرجلان على صخرة وهما يتأملان كيف أن نجوما جديدة توشي السماء بلمعانها. ـ حدثني الآن يا «عمر»، مرة أخرى، عن زعيمك هذا الذي أسَرَك. ـ طلب «أبو مروان عبد الملك» من «الحسون»، وقد وجد نفسه، هو أيضا، مفتونا بفكرة ظهور زعيم جديد بالأندلس، يقدر على تغيير مسار الأحداث بها.

***

«مرسية» **Murcia**. خريف 1232

ـ لكم تسُرُّني رائحة الأرض المبللة، تذكرني بالوادي. ـ علق في حزن «الواثق باللّٰه»، الابن الأكبر لـ «ابن هود»، وهو يتأمل من شرفة «برج الماء» **Caramajul** رذاذ المطر يبلل بساتين القصر.

ـ يمكنك العودة إليه متى شئت. هناك تملك الأسرة أراضي وضياع باستطاعتك أن تتكفل بشؤونها. ـ عرض عليه الأمير.

ـ أفضل أن أبقى هنا. أجاب الولد في الحال.

ـ أعرف. ـ قهقه والده. ـ أعرف أنك اشتقت إليه، لكنك تفضل أكثر الرفاهية والسلطة.

كان «الواثق بالله» في سن الثانية والعشرين، وقد تكلف بالسهر على إعداده لشؤون السياسة في الإمارة فريق من رجال البلاط. وبالرغم من أنه كان فتى ماهرا، وله قدرات على المراوغة، إلا أن معلميه كانوا يشكون في مقدرته على إدارة دفة الحكم.

ـ لو كان باستطاعتي أن أغادر إلى الوادي لفعلت ذلك غدا، وأتركك خلفا لي هنا. ـ قال «ابن هود».

ـ وماذا يمنعك من ذلك؟

ـ ذاك، ـ أشار ابن هود إلى مستشاره. ـ ومن هم على شاكلته.

ـ يا سيد «الأندلس»، لا تمزح ـ تدخل المعني بكلام الأمير. ـ هذه الأرض في حاجة إليك، الآن، أكثر من أي وقت مضى. النصارى لا يتوقفون عن مهاجمة الثغور، و«إشبيلية» على شفا إعلان العصيان... والآن ظهر لنا متمرد جديد في «أرجونة».

ـ أما عن النصارى فأني أخافهم، لأنه لا همَّ لهم سوى الرغبة في القضاء علينا. بخصوص «إشبيلية»، فأسأل الله أن يستمر أخي في حكمها، وأما عن «أرجونة» فما أشبهَ حالُها بحال ذُبابةٍ تحوم في حيزها الضيق حتى إذا أعياها الحَوَمانُ وأضناها الدوران، ووقعت على ذراعي سَحقْتُها. ـ ثم صفق بيديه صفقة مدوية أجفل لها ابنه.

ـ انضمت إليها «بُرْكُونة» وأرْجُونِية، وطائفة من القري القريبة ـ أضاف المستشار حتى يوازن الأمير

الخبر جيدا.

- «بُرْكُونة» و«أرْجونِية»، لا أعرف حتى موقعهما.

- هش رجل البلاط بالخروج لاستحضار الخريطة غير أن «ابن هود» أوقفه بإيماءة من يده. - لا يهمني الأمر، في الوقت المناسب سنقضي على هذا المتمرد.

- نهض الأمير من مجلسه، واقترب من ابنه. كان المطر الخفيف قد كَفَّ عن النزول. في أسفل البرج توقف ركب صغير من بعض الخيول وعربتين. وطلب الإذن بالدخول. قبل ذلك قدم حاذي العربتين أوراق اعتماد إلى الحراس. كان بجانب الحوذي رجل طويل القامة حسن الهندام، يلبس لباسا عسكريا، إضافة إلى امرأة ترتدي جلبابا مبللا بالمطر التصق بجسدها فعكس تفاصيل غاية في الرقة. أزالت الفتاة الوِشاح عن رأسها فبدا شعرها الجميل مُتموجا مشعا بلونه المائل إلى الحمرة. نادى «ابن هود» مستشاره وسأله.

- «سانشو الإلشي»؟

- أجل، سيدي. عاد لتوه من الحدود الشرقية.

- ألم يكن أرملَ؟ هل تزوج مرة ثانية؟ - سأل الأمير وهو يشير إلى الفتاة.

- إنها ابنته، «خيمينا»، نصرانية مثل والدها. كلاهما وفيان لقضيتنا. - أطال «ابن هود» النظر في الأنثى في صمت إلى أن غاب الركب في المنطقة السكنية.

- لولا أني وعدت أمك... - كان «ابن هود» قد عاهد زوجته على ألا يتزوج امرأة أخرى ما دامت

هي على قيد الحياة.

ابتسم «الواثق بالله»، وهو يسعى إلى مداراة حرجه. ثم عاد في خِفْيةٍ إلى داخل القاعة» وبقي والده الأمير في الشرفة يشم أريج الأرض المبللة، والشذا المتصاعد من الجُنَيْبات العطرة.

***

«أرجونة» Arjona. خريف 1232

ـ هل أعجبك يا أميري؟

وقفت «مريم» وقد نظفت فمها أمام «محمد» وهي تمعن النظر في جسمه العاري. كان الأمير ما زال مستلقيا على السرير. أجابها «محمد» بإيماءة موافقة وعيناه مغمضتان، في حين أشرق محياه بعلامات رضى.

ـ شكرا ـ قالت الجارية بتلقائية.

ـ لماذا؟

ـ لأنك وهبتني الحياة. ـ أجابت «مريم» وهي تتنهد.

ـ لم تعودي تحلمين؟ ـ اعتدل الرجل، وجلس على السرير.

انقبضت مريم، وفقدت نظرتُها بعضَ البريق.

ـ أقل مما كنت، لكن ذلك سيلازمني مدى الحياة.

وقف «محمد»، وارتدى لباسه على عجل، ثم قبل حبيبته قبل أن ينصرف.

ـ أفهم حالتك، أفهمها جيدا، فما الحياة سوى إنجاز لبعض الأحلام، وإسكات لأخرى.

غادر الأمير الغرفة والوقت لا يزال مبكرا، غير أنه كان عليه أن يذهب إلى القصر. في الفِناء، لقي ابنتيه «مؤمنة» و«شمس»، اللتين، وقد شارفتا الرابعة عشرة، والثالثة عشرة من العمر، كانتا على عتبة أن تكتمل أنوثتهما. ابتسمت له «مؤمنة»، في حين نظرت إليه «شمس» في غضب وأشاحت بوجهها ناحية البركة. لم تكن الفتاة قد ورثت من أبيها العينين الخضراوين والبشرة الفاتحة، بل أخذت عنه، أيضا، عزة نفسه، وطبعه القوي. في تلك اللحظة كان الصغيران «يوسف» و«فرج» يلعبان في الزريبة، ويسمع صياحهما وضحكهما في كل زوايا البيت. في حين كانت «عائشة» تدعوهما من بعيد، بين الفينة والأخرى، إلى الهدوء.

ـ أتغادر الآن؟ ـ سأله شقيقه «إسماعيل»، وقد خرج لتوه من غرفة نومه.

ـ أجل، أزفت الساعة. ـ أجاب «محمد» ـ هناك جلسة ـ نطق العبارة وهو يكشر تكشيرة عدم رضا.

ـ لا تتشك، تصلك قضايا قليلة، ثم بجانبك القاضي الذي تشاوره.

ـ حقا، أنا وهو نشكل قاضيا جيدا. هو يسْتَفْتي الكتاب، وأنا أشغل الفطرة السليمة. ـ ضحك «إسماعيل» ـ رافقني، يا أخي، لا بأس عليك أن تتعلم بعض الأشياء.

ـ مولانا ـ استقبله بالمناداة عليه مُدَّعو ذلك الصباح.

ـ كان «أشقيلولة» في انتظار المدعين في صحن استعراض الجند، وهو يرتدي جلبابا من الحرير الأخضر.

ـ انضمت «قرمونة» إلى «إشبيلية» ونودي بـ «الباجي» أميرا. ـ أخبر «أشقيلولة» الأخوين، والثلاثة في طريقهم إلى البرج الكبير ـ كانت تلك أخبار الصباح التي وصلت للتو.

أخيرا ثارت «إشبيلية» ضد «ابن هود». كان أهل الحاضرة قد أقدموا على طرد أخي الأمير ثم قرروا أن تحكم المدينة نفسها عبر مجلس من الأعيان يترأسهم «الباجي». ولم تمر سوى ثلاثة أيام حتى التحقت «قرمونة» بـ «إشبيلية»، وأعلنت الخروج. حينها نودي بـ «الباجي» أميرا، أي قيام مملكة جديدة مستقلة بالأندلس.

ـ ينبغي أن نبتهج، فقد قُطعت إحدى ذراعي خصمنا. لم يبق لـ «ابن هود» سوى أيام معدودات لينتهي أمره. تنبأ «النبلي».

أثناء ذلك شرع الحراس في تنظيم المُدعين عبر طابور طويل امتد عبر الصحن من طرف إلى آخر.

ـ لنبدأ؟ ـ سأل «أشقيلولة».

ـ لنشرع في العمل، يا جدي، لنشرع ـ قال «ابن الأحمر» وهو يدخل قاعة المقاضاة يتبعه «إسماعيل».

***

**«أُبَّدة» Úbeda. شتاء 1233.**

بعد الهجوم الأولى بالحراب الذي قام بها

الفرسان المسلمون، لم تتأخر كتائب بلدية «طورو» Toro برد الفعل، دون أن تتفطن للمصيدة التي نصبت لها، وسرعان ما انخرط النصارى في العدو وراء مضايقيهم الأندلسيين.

ـ إلى الخلف! صاح حينها «ابن صناديد»، رئيس «جَيَّان»، الذي سارع إلى إغاثة «أبدة» حينما علم بأنها ستكون هدفا لحملة مسيحية.

وما إن فر الفرسان الأندلسيون، وقطعوا مسافة كافية، حتى عادوا على أعقابهم، وكروا على جند «طورو» ورموهم بنوبة ثانية من الحراب.

ـ أغلقي يا إسبانيا! ـ سمع من مكان ليس ببعيد ـ على الإثر، لمح «ابن صناديد» كيف أن فصيلة من الفرسان النصارى الخفاف تنطلق كالبرق في اتجاه المسلمين.

ـ انسحاب! صرخ حينها بكل قواه «ابن صناديد».

في الحال أنجز رجاله المناورة في الوقت المناسب للدخول إلى النطاق المسور من المدينة في ظروف آمنة.

تمكنت العملية من إلحاق خسائر في صفوف ال»ليون»يين، غير أن ذلك لم يكن نافعا للتخفيف من الحصار الذي ضُرب على المدينة منذ حوالي شهرين. كان «فرناندو الثالث» قد أصر على الاستيلاء عليها، ولم تكن لتمنعه عنها أي قوة، ومن ثم، لم يتزحزح عن قراره قيد أنملة وهو رابط الجأش ثابت الجَنان.

ترك «ابن صناديد»، حينما عاد إلى أمان المدينة، فرسه في عهدة أحد فتيان الخدمة. كان القائد

طويل القامة، أسمر اللون، وذا ملامح قاسية. عيناه السوداوان كانتا تعكسان عزيمة قوية، وطبعا قويا لا يلين، ولا يتزعزع. وكانت لحيته الطويلة والغزيرة تخفي أثر جرح غائر بذقنه من ذكريات معركة العقاب.

صعد الرجل إلى الدرب في أعلى السور الخارجي عبر السلم الذي كان بجنب «باب غرناطة». كان الجو ملوثا برائحة ذَرْق الحمام القوية التي كانت تتصاعد من المدابغ القريبة. راح يحدق من الأعلى في معسكرات المُحاصِرِين، وآلات الحصار التي أتوا بها. ومن بين الخيام برزت واحدة كان يرفرف عليها علم الملك «فرناندو الثالث».

كانت تشق المعسكر الرئيس عدة من الطرق والسبل، وكان الناظر يميز فيها بعض المنشآت البسيطة من الخشب، ومحلات بيع الطعام، ويتخلل كل ذلك هنا، وهناك، أعداد من الأفران لإعداد الخبز. كان وقتها «ابن صناديد» لا يزال يلهث جراء الجهد الذي بذله في الهجوم الأخير. استمر القائد يتفحص المعسكر، ثم مد بصره بعيدا في الأفق نحو الأراضي التي كان من الواجب أن تصل منها إمدادات «ابن هود»، وأمعن فيها النظر لعله يرى جند الأمير في الطريق إلى نجدة البلدة، لكن دون جدوى.

«ستسقط البلدة. لن نتمكن من صدهم بما بين أيدينا من وسائل شحيحة. والأمير سيصنع بنا ما صنعه بـ «ترجالة» **Trujillo**: سيفر من الخطر وسيتركنا لمصيرنا». مر بخَلَد «ابن صناديد».

***

**«أرجونة» Arjona. ربيع 1233**

ترأس «محمد بن الأحمر» المجلس باعتباره أمير «أرجونة»، غير أنه، من لباسه، لن يقول في حقه من يراه سوى أنه شاب زاهد من سكان الجبل. بجانبه جلس والده، وأخوه «إسماعيل»، وجده «أشقيلولة»، وخالاه «إبراهيم» و«عبد الله». كما حضر المجلس حاكم «أرجونية»، الذي حافظ على منصبه حاكما للبلدة.

ـ إذا عزمت على سن ضريبة، فإن الناس سيدفعون المستحقات عن رضى. إنهم يحبونك، وأيضا، يخافون من النصارى. ـ تدخل الحاكم.

ـ لا ينبغي لنا أن نقر ضرائب غير شرعية، سوى إذا كان الظرف يستوجب ذلك للضرورة. ـ أجاب «عبد الله» بشكل حاسم. كان صغير بني «أشقيلولة» يبدو عادة متغطرسا حينما ينعقد مجلس المشورة بالمشور. وكثيرا ما كان ينازع، بما أوتي من حدة، الأمير نفسه في سلطته. غير أن «محمدا»، وقد لقنه أبوه الدرس جيدا، كان يعرف كيف يكظم غضبه، ويحتوي الموقف.

ساد المجلسَ صمتٌ قصير. في حين مكث «عبد الله» واقفا، وهو يسوى من قلنسوة اللبد التي كانت تخفي شعره المتموج.

ـ ليس من الضروري الآن سن أي ضريبة جديدة، ـ دعم «ابن الأحمر» كلام خاله، وهو يتطلع إليه بعينيه الخضراوين. ـ إن الناس يعانون من نهب مسيحيي «أندوجر»، فإذا جذبنا الحبل أكثر قد يتمزق.

«أرجونة» **Arjona**. ربيع 1233

ترأس «محمد بن الأحمر» المجلس باعتباره أمير «أرجونة»، غير أنه، من لباسه، لن يقول في حقه من يراه سوى أنه شاب زاهد من سكان الجبل. بجانبه جلس والده، وأخوه «إسماعيل»، وجده «أشقيلولة»، وخالاه «إبراهيم» و«عبد اللّه». كما حضر المجلس حاكم «أرجونية»، الذي حافظ على منصبه حاكما للبلدة.

ـ إذا عزمت على سن ضريبة، فإن الناس سيدفعون المستحقات عن رضى. إنهم يحبونك، وأيضا، يخافون من النصارى. ـ تدخل الحاكم.

ـ لا ينبغي لنا أن نقر ضرائب غير شرعية، سوى إذا كان الظرف يستوجب ذلك للضرورة. ـ أجاب «عبد اللّه» بشكل حاسم. كان صغير بني «أشقيلولة» يبدو عادة متغطرسا حينما ينعقد مجلس المشورة بالمشور. وكثيرا ما كان ينازع، بما أوتي من حدة، الأمير نفسه في سلطته. غير أن «محمدا»، وقد لقنه أبوه الدرس جيدا، كان يعرف كيف يكظم غضبه، ويحتوي الموقف.

ساد المجلسَ صمتٌ قصير. في حين مكث «عبد اللّه» واقفا، وهو يسوى من قلنسوة اللبد التي كانت تخفي شعره المتموج.

ـ ليس من الضروري الآن سن أي ضريبة جديدة، ـ دعم «ابن الأحمر» كلام خاله، وهو يتطلع إليه بعينيه الخضراوين. ـ إن الناس يعانون من نهب مسيحيي «أندوجر»، فإذا جذبنا الحبل أكثر قد يتمزق.

قبل الحاكم تعليق الأمير بهزة من رأسه.

ـ إن الرباط يتلقى أموالا من إدارة الأحباس، والأسوار قد تم تعزيزها، وأصلحت بعض ثلماتها، والوضع ليس دقيقا ـ علق «يوسف» بالرغم من أنه لم يكن يرتاح لهذه المجالس، ولا يحضرها إلا بإلحاح من ابنه. ـ ثم لا نتغافل عن الضرائب غير الشرعية التي أفقدت أمير «مرسية» كثيرا من الدعم. يجب ألا ننسى ذلك.

ـ أوافقك الرأي، غير أن الهزائم التي مني بها كان لها وقعها السيء. إن هذا الرجل لا يجدي نفعا، ولا طائل تحته. ولم يكن نافعا إلا في واديه على رأس عصبة من المجرمين. ـ انفجر «أشقيلولة» الذي كان ينتظر الوصول إلى هذه النقطة من جدول الأعمال ـ «أُبَّدَة» ما زالت محاصرة، وهو قاعد بـ «مرسية» يتأمل كيف يقضمون أراضيه يوما عن يوم... إنه لا يعدو أن يكون لعينا لا فائدة ترجى منه.

ـ لعله من الواجب أن نسارع إلى إنجاد المدينة ـ عرض «محمد» على المجتمعين.

ـ لا! ـ رفعت الأصوات في توافق تام.

ـ أيها الأمير ـ تدخل وقتها «إسماعيل» ـ ليس من الحكمة أن تواجه «فرناندو»، اتركه يضيق على ابن هود حتى ينهكه، حينها ننتهز نحن الفرصة فيه.

ـ هل قرأت التقرير الأخير؟ ـ سأل «إبراهيم». وكان هذا محافظا أكثر من أخيه «عبد الله»، وأيضا أكثر حصافة ورشدا منه. كان أكرشَ ذا بطن

ضخم، وأصلع يكاد الشعر لا ينبت في رأسه. ـ إن جيش «فرناندو الثالث» عرمرم، وبالرغم من عودة المليشيات إلى أوطانها فإنه باستطاعته أن يهزم قواتنا وقوات «أُبَّدة» مجتمعة.

مباشرة بعد هذا النقاش ارتأى جميع المستشارين أن أحسن قرار يمكن اتخاذه هو عدم التدخل.

ـ هناك موضوع آخر ـ تابع الحاكم ـ «أرجونية» تطلب عشرة من الرجال لتعزيز حاميتها.

ـ سنرسل لها أول عشرة فرسان يتخرجون من الرباط بجيادهم وأسلحتهم. ـ كان الأمير يشعر بتعاطف خاص مع حاكم «أرجونية» Arjonilla.

ـ سيتم تنفيذ ذلك، يا مولانا. ـ سجل الحاكم في ورقة عددا من النقط، ثم رفع رأسه فجأة كأنه تذكر شيئا. ـ توصلت بأخبار من «عمر الحسون» يفهم منها أن جولته أخذت تؤتي أكلها، إذ يحكي التجار الذين يتنقلون عبر مناطق جولاته أن ولي «جُهَنْس» «أبا مروان» يدعو الناس إلى نصرتك. فعل ذلك في «وادي آش»، وفي «قنجيار». وأن للرجل أنصارا كثر، لحد أن لا أحد يستطيع أن يعاكس كلامه أو يرده، والظاهر أن عددا من الناس هناك قد أصبحوا من أنصارك، سيدي الأمير.

لم يعلق «محمد» ولو بكلمة، غير أن محياه أشرق استبشارا بالخبر. فقد كانت تلك اللحظات الأولى، أساسية وغاية في الأهمية، كانت لحظة ميلاد إمارة جديدة، وإذا لم تدعم حالا فقد تسحق

وتنتهي بكل سهولة.

ـ هل من نقطة أخرى؟ ـ سأل «ابن الأحمر».

ـ هناك مشاكل في قرى الجنوب ـ قال الحاكم ـ. وأهل «مرتش» Martos يقومون بغارات تزيد خطورتها بتوالي الأيام، يسرقون الماشية، وينهبون المحاصيل.

ـ يجب علينا أن نبني برج مراقبة، وأن نضع حراسا ليلا ونهارا لترصد حركة النصارى، لنمنح للفلاحين الشعور بالأمن والطمأنينة. ـ كان «محمد» يعطي أوامره بشكل طبيعي، استنادا إلى السلطة التي منحه إياها الشعب ـ اقْتَطِع، إن اقتضى الحال، من الموارد المالية الحبسية المخصصة للأسوار، نحن في حاجة إلى ثمار ومحاصيل تلك الأراضي. أيضا، خَصِّص للمنطقة حاميةً من الجند لتأمين سلامتها. كم؟ عشرون فارسا؟ ـ أطلق ابن الأحمر السؤال في الهواء.

صادق «أشقيلولة» بإيماءة على كلام حفيده في ابتهاج. أما الآخرون فقد التزموا الصمت.

وبالمصادقة على هذه القرارات انفض مجلس المشاورة، وبدأ المستشارون ينصرفون. غير أن «أشقيلولة» وقف عند جدار حجري عُلِّق به علم أحمر.

ـ الأحمر. لون الأسرة النصرية ـ قال بصوت مرتفع، ثم استدار متطلعا إلى حفيده. تبادل الرجلان النظرات للحظات دون كلام. لقد كان «أشقيلولة» يذكر «محمدا» باتفاق تقاسم السلطة بين «محمد» وأبنائه. غير أن المسن

سرعان ما غادر في اتجاه المخرج، وهو يسعى جاهدا إلى إخفاء عرجه. لقد كان جرح معركة «حصن الأرَك» **Alarcos** حاضرا على الدوام.

بقي الأمير وحيدا، فنهض من مجلسه، وتهيأ للصلاة.

ـ ادع لي في صلاتك يا «محمد»! ـ سمع «ابن الأحمر» كلام جده، وهو يحدثه من الباب. ـ لم يتبق لي كثير لملاقاة ربي.

***

ـ جاء أخي ـ وضعت «عائشة» الصينية على الطاولة، وبقيت واقفة بجانب «محمد». كانت «عائشة» بالرغم من حملها ثلاث مرات ما زالت محافظة على قوامها الممشوق. كانت تضع على رأسها وشاحا يغطي شعرها، غير أن خصلة طويلة من شعرها الأسود الفاحم كان ينزل على صدرها. كانت عيناها السوداوان جميلتين، غير أنهما ترشحان بريقا مرا من الحزن الدفين. ـ جاء ليجدد دعمه لك.

أحس «ابن الأحمر» بشعور عطف وحنان يكتنفه حينما نظر إلى زوجته. وقف ثم قبلها في فمها. أشرق وجه المرأة بابتسامة.

ـ أنت أُمٌّ مثالية، وزوجةٌ فاضلة. ـ قال لها «محمد» قبل أن يعود للجلوس ليتناول جفنة من «الحريرة». جاء متأخرا من القصر، وكان عليه قبل الساعة الأولى من حلول المساء أن يتفقد الرباط. إذ لطالما أحس بالذنب حينما يطول غيابه عن الرباط. ـ أعرف أن أخاك يساندني، وسيكون له

موقعه مستقبلا، إنه ابن عمي ورجل فاضل.

ارتاحت «عائشة» لكلام زوجها، ثم انصرفت لإتمام أعمالها المنزلية.

ـ أن تكون أميرا يستلزم عملا متواصلا، حسب ما أرى. ـ قال «إسماعيل» وهو يدخل القاعة.

أطلق «محمد» قهقهة قبل أن يجيب.

ـ لا تكن مغفلا. أنا أمير على ثلاث بلدات. لست شيئا... ـ علق وهو يتناول لقمة خبز ـ لم يحن الوقت بعد لذلك ـ أضاف وهو ينظر إلى عيني أخيه.

ـ إذن، ما زلت على الطريق، يا «نصري». كنت قد أخفتني. ـ أردف «إسماعيل» على التو.

ضحك الأخوان، غير أن الإصرار بقي مرسوما في عيني أمير «أرجونة».

***

**أُبَّدَة Úbeda. يوليوز 1233**

كانت المهملة التي أعطاها «فرناندو الثالث» لسكان «أبدة» لمغادرتها تنتهي مع غياب الشمس. من كل أبواب البلدة كانت الأسر تغادر بالكامل وهي تحمل أغلى ما تملك من متاع. ومن الصف الطويل الذي كونه المغادرون ارتفع إلى السماء نحيب المُهَجَّرين وتفجعهم، مختلطا بصراخ اليأس والقنوط. وعند العصر، أذن المؤذن لآخر مرة، داعيا المتخلفين إلى الصلاة، وحمل آخر تذكار لهم عن بلدتهم إلى المهجر.

«ستكون آخر مرة يؤذن «مورو» من أعلى هذه

المئذنة» ـ فكر «مرتين». كان الفارس الرباحي وهو راكب فرسا ضخما أبيض اللون، يتأمل موكب المهجرين على بعد مسافة من «باب غرناطة». كان الفارس مرتديا درعه الحديدي بالكامل، وفوقه البرنوس الموشى بصور الزنابق.

وأخيرا سقطت «أُبَّدَة». فقد كان الحصار الطويل، وقلة المؤن والأقوات وما يلازم ذلك من جوع ومسغبة، إضافة إلى غياب الإمدادات العسكرية، كل ذلك ثلم من صبر قائد حاميتها، وأيأسه من الاستمرار في المقاومة، فلم يجد أمامه من سبيل سوى قبول الاستسلام. ومع أن المسلمين أصروا في عناد على المقاومة إلى آخر لحظة، إلا أنهم فقدوا كل أمل، وجلسوا مع محاصريهم، لعقد اتفاق استسلام كفل للساكنة مغادرةَ البلدة في أمن وسلام، وحَمْلَ ما يمكن حمله من متاع.

حل الليل وانقطعت حركة الأُبديين بعدما غادروا جميعا بلدتهم إلى الأبد. حينها أعْطِي الأمر لمفرزة من الفرسان بالاستيلاء على القصر. كان من جملتهم «مرتين فرناندث دي برغش» بوصفه ممثلا لفرسان «قلعة رباح». كان «المايسطري» رئيس الرهبانية قد كافأه على الخدمات التي قدمها حين حصار «ترجالة» **Trujillo**، وأيضا لما أظهره من شجاعة وإقدام خلال فترة الحصار. وبذلك تمكن «مرتين» من جبر شرفه، واستعادة مكانته، إضافة إلى تصالحه مع ذاته. كان الرجل يقترب من الخمسين، غير أنه لم يفقد شيئا من قوته ورشاقته. حقا كانت المآسي التي عرفتها حياته ما زالت تثقل ضميره، إلا أنه لم يكن

مستعدا ليتركها تتحول إلى صابورة(39) ثقيلة تغرق حياته في الأخير، وتتركه بلا روح. كان يقول مع نفسه «خير لي أن أخدم ربي حاملا سيفي مرفوع الرأس، من أن أفتديه مواظبا على الصلاة والصوم». ولم يكن أخوه «رُويْ» ليختلف معه. كان يردد على مسامعه دوما: «يا أخي أنا سُويت للصلاة، وأنت للقتال. ولا تعذب نفسك باستحضار أفكار سوداء، وتصرف باعتبارك جنديا من جنود الرب».

دخل الجند إلى البلدة وشرعوا في التجول في شوارعها، وهم يرفعون عاليا بنود «فرناندو الثالث». وتلازمهم في الآن ذاته عبر جزء لا بأس به من تجوالهم رائحة خراء قوية. ذلك أن عددا من الأبّديين قبل أن يغادروا مدينتهم قهرا، عمدوا إلى التبرز في الشوارع.

عند مدخل القصر كان الزعماء المسلمون في انتظار الفرسان النصارى. وبعد أن سلموهم مفاتيح القصر، سمح لهم بالمبيت في أحد الفنادق إلى غاية الفجر.

قام النصارى بجولة عبر المنطقة المحصنة، وسرعان ما قام حامل العلم الملكي بالصعود إلى البرج الكبير، وأخذ يلوح بالراية قبل أن يولجه في القمة. لحظتها سمعت التهاليل والهتافات تصعد من بعيد، من المعسكرات النصرانية المحيطة بالبلدة. أما «مرتين» فلم يتوقف عن التجوال في دروب الأسوار العالية تحت نور مائل إلى البياض يشع في خجل من بدر غير مكتمل.

«أرض أخرى غنمناها للرب، أرض أخرى ينبغي لها أن تُستوطن بالنصارى» مر بخاطره، وقد غمرته مسحة من الإيمان العميق، المخلوط بالفخر والاعتزاز.

***

ـ قُضْمة وراء قضمة، هكذا سيلتهم الطاغية النصراني أراضينا.

كان حاكم «أبدة»، راكبا فرسه مُطأطأً الرأس، وقد ارتسمت على وجهه خيبة أمل عميقة. أما الفارس «ابن صناديد» فسار منتصبا على حصانه، وهو موقن أن الأندلس بإمكانها أن تحظى بمصير أحسن.

ـ وسيستمر في هذا القضم إذا لم نتصرف سريعا. ـ رد الزعيم العسكري لـ «جيان» في حنق. ـ لقد رآنا «ابن هود» نسقط دون أن يفعل شيئا لنجدتنا. ـ أمعن الحاكم النظر في العسكري ـ ودام الحصار ستة أشهر، وهي مدة كافية ليفعل ما كان عليه أن يفعله. ـ أضاف العسكري دون تردد.

كان الموكب يبتعد عن «أبدة» في اتجاه «جيان»، حيث عزم بعض المغلوبين على أن يبدأوا هناك حياة جديدة. كان موكب حاكم «أبدة» و«ابن صناديد» وآخرين آخر من غادر البلدة بعد أن وقعوا وثيقة الاستسلام، وسلموا للنصارى مفاتيح المدينة.

ـ هذا صحيحٌ يا صديقي. لقد تخلى عنا، ولا عذرَ له.

ـ فَلْنَتَخلَّ نحن عنه. ـ مرة أخرى أدار الحاكم عنقه وهو يتمعن في «ابن صناديد»، غير أن القائد العسكري استرسل في حديثه. ـ لنساند أمير «أرجونة». لقد سمعنا نحن الاثنين ما يحكى عنه. فإذا كان نصف ما يقال عنه صحيحا، فإن ذلك يكفيني لإسعادي. إنه رجل مؤمن وشجاع، وعرف كيف يحمي «أرجونة» من المسيحيين. فليفعل ذلك مع جميع الأندلس إن شاء اللّٰه.

ـ لكن إمارته لا تتعدى «أرجونة» وبعض ما يحيط بها.

ـ لو أعطيناه «جيان» لملك عاصمة جديرة بجيش من الرجال المدربين على حرب الحدود.

تبادل الرجلان النظرة للحظات.

ـ اسمه «ابن الأحمر» ـ قال الأُبَّدِيُّ ـ من أسرة بني نصر الأرجونيين.

بتلك الكلمات أبان حاكم «أبدة» عن مصادقته على كلام «ابن صناديد». حينها همز الزعيم العسكري لـ «جيان» فرسه ليجد في السير، وليحث باقي رجال الموكب على مزيد من السرعة. كانت رغبته شديدة في الوصول إلى مدينته، وفي انتظاره أعمال كثيرة ينبغي أن يقضيها في الأيام القادمة.

***

«غرناطة» **Granada**. يوليوز 1233.

عشرات من مواقد النار كانت ترى مبثوثة في كل مكان بالمعسكر، وحول كل نار جلست النسوة

يسوين الطعام، بينما انشغل الرجال بنصب الخيام على عجل لتستقبل أسرهم ليلا. كان الطريق طويلا وشاقا، لكن الجميع وصلوا أخيرا إلى أحواز «غرناطة». مئات من الأبديين الذين أجبروا على ترك ديارهم، انطلقوا هائمين على وجوههم وهم يبحثون لهم عن مستقر جديد. بعضهم ذهب إلى «جيان»، وآخرون، وهم الغالبية، قرروا الذهاب إلى «غرناطة»، المدينة التي استقر بها قبلهم بسنوات أهل «بَيَّاسَة».

كان المبعوث قد عاد إلى المعسكر قبل هبوط الليل.

- لدينا مكان سنستقر به! سمحوا لنا بالإقامة في حي البياسين! - جرى الرجل عبر المعسكر، وهو يخبر الناس بالخبر السار الذي استقبله المهجرون من ديارهم بالتهليلات والهتافات.

كان منفيو بياسة **Baeza** يسكنون خارج سور المدينة شمالا. حيث أنشأوا لهم ربضا معقدا يتمتع بنوع من التسيير الذاتي مقارنة بباقي أحياء المدينة. لحد أنه توفر على مسجد جامع كان البياسيون أنفسُهم يسهرون على إتمام بنائه. كان يطلق على الربض اسم «البيازين» وهو ربض لم يتوقف عن الاتساع منذ إنشائه. ويبدو أنه، الآن، بقدوم الأُبَّديين سيتلقى زخْماً جديدا.

- دنيا! - توقف المبعوث أمام فتاة في الخامسة عشرة من عمرها كانت بجنب إحدى العربات. استجابت الفتاة للنداء، ورفعت نظرها. ولم تلبث نظرتها أن أشرقت وهي ترى الفارس - ماذا تفعلين هنا؟ أين والدتك؟

ـ غادرت البيت يوم استسلام المدينة ولم تعد؟ فكان علي أن أغادر مع الجميع. ـ شرحت الفتاة بشكل مقتضب.

طَقّ الفارس بشفتيه، وهو يهز رأسه استنكارا. كان يعرف أمها، امرأة أنانية لم تُكِنَّ أبدا الحب لابنتها. في الشهور الأخيرة كانت تُغازِلُ أحد تجار «جيان» وعدها بحياة أفضل. حدس الرجل ما حصل، وشعر بعطف نحو الفتاة التي فقدت والدها منذ سنوات، وأصبحت الآن وحيدة.

ـ امكثي هنا. سآتي إليك حينما أتمم عملي. ستنضمين إلينا.

أجابته الفتاة بابتسامة. كان «قاسم» يقطن بنفس الزقاق الذي كانت تسكن به دنيا. وكان يبدو لها دوما رجلا لطيفا. ورؤيته في تلك الأثناء نقل إليها بعض الطمأنينة والعزاء. تأملت الفتاة «غرناطة» من بعيد، وحدقت في أسوارها العالية، وربواتها المتقابلة فغمرها على الإثر إحساس من الريبة والشك. ما المصير الذي يخبئه لها القدر في تلك المدينة...؟ على الأقل، ستهنأ الآن بحماية أسرة.

هدأ هذا التفكير من روعها، فما لبثت أن شكرت الله على هذه النعمة.

***

ما إن بدأت تباشير الصباح الأولى تبدو في الأفق بعد صلاة الفجر، حتى خف الرجال إلى إزالة المعسكر، ومعاودة السير. كان الناس مبتهجين، حقا، ضاع منهم المسكن والحي، لكن هذه الأرض

الجديدة ستوفر لهم فرصة جديدة لإعادة الاعتبار والاستقرار. سافرت «دنيا» هذه المرة رفقة جارها وأهله. كانت نظرتها كئيبة، ووجهها ذابل من قلة النوم. ولم تكن تحمل معها أي أمتعة، ولا رزمة ثياب. لكن زوجة «قاسم» الجار ما لبثت أن اهتمت بها، وسعت إلى البحث عما يلهيها، لتبعد عن فكرها الذكريات السيئة. كان قاسم قد رزق من زوجته بولدين صغيرين، وكانا يتطلبان عناية مستمرة وهو ما اضطلعت به المرأتان.

اقترب الموكب الطويل من أسوار المدينة عبر طريق «إلبيرة» **Elvira**. ثم بعد اجتيازه لمقبرة ممتدة عبر الأسوار توقف الركب عند أحد الأبواب، حيث تطوع حارس لدلهم على الطريق.

ـ من هناك، إلى أعلى ـ قال لهم أحدهم، وهو يشير إلى عقبة صاعدة بتواز مع السور نحو الرابية.

كانت منازل الربض الأولى قريبة، غير أنه كلما صعد الركب في العقبات المتعالية كان الربض يزداد كثافة. في قمة الرابية الأولى، في قلب حي «البياسين» [البيازين] خرج عدد من أعيان الحي لاستقبالهم.

ـ أيها الإخوان. لن يكون الأمر سهلا. فقد تأخرنا سنوات في بناء ما ترون. نعم هناك أرض لكن العمل قليل. ـ قال أحد المستقبِلين، وكان أكبرهم سنا، بعد أن رحب بالجميع. ـ فليكن الله في عونكم، لكن لا تنتظروا كثيرا من غرناطة.

غيرت تلك الكلمات من تعابير الوجوه. وقر في النفوس أن الطريق ما زال طويلا. وأن اغترابهم

لم ينته بعد.

***

أرجونة Arjona. غشت 1233

دخل «أشقيلولة» دار «بني نصر» بخطوات متسرعة.

ـ يا «محمد»! ـ دعا حفيده من المدخل.

ـ ماذا حدث؟ ـ أجاب «محمد» وقد أسرع إلى صحن الدار للقاء جده.

ـ وصل ثلاثة مبعوثون من «جيان» هذا الصباح. حملوا معهم هذا. ـ مد «أشقيلولة» يده نحو «محمد» وأعطاه وثيقة ملفوفة مكسورة الشمع. شرع «محمد» في قراءة الرسالة بصعوبة، لكن «أشقيلولة» لم يصبر حتى ينهي «محمد» القراءة ـ إنها مَحْضَرُ خضوع! ـ قال «النبلي» وهو يشير إلى الرسالة ـ لقد انضمت إليك «جيان» ورضيت بسلطتك!

ارتعشت يداه قليلا، وبرقت عيناه على الفور.

ـ علي بكتابة الرد حالا ـ قال «ابن الأحمر» في تلجلج.

يا غبي! عليك بالذهاب إلى «جيان» لاستلام القصر. «جيان» مدينة ذات شأن.

ـ أنت محق. سأرتب الأمور للذهاب غدا ـ تكلم وهو يركز انتباهه في الوثيقة ـ إنها العاصمة التي تحتاجها إمارتي. ـ شعر «ابن الأحمر» بدوار الأخبار السارة. لقد عرضوا عليه قاعدة كبيرة بمئات من الرجال المستعدين للقتال. إن القدر يشمله

برعايته.

- إن الظروف تعمل من أجل أن تكبر - قال «النِّبلي» بنبرة جلال وفخامة. - إن الله تعالى يجري الرياح لصالحك، فانشر القلاع.

- سأكون في مستوى الأحداث. - أجاب «محمد» بكبرياء.

***

عاد «أشقيلولة» إلى القصر، ثم اجتمع بولديه في البرج الكبير. كانت الحرارة مفرطة، غير أن الجدران الحجرية للقاعة كانت تخفف من وهج الحرارة المرتفعة.

- ماذا سيفعل؟ - سأل «إبراهيم».

- غدا سيغادر إلى «جيان». سيحولها إلى عاصمة إمارته.

- إمارتنا. - صحح «عبد الله» لأبيه - لقد ساندته أسرتنا، وبدون دعمنا له لن يكون له شأن، ثم إنه وعدك بتقاسم الحكم.

- أعرف ذلك، أعرفه - حك الوالد جبهته قبل أن يواصل - ومع ذلك، فإن الشعب يدعمه هو وليس نحن. و«جيان» خضعت له، وليس لغيره. علينا أن ننتهز حسن طالعه، ونسير في مَجَرَّته، وندفعَ به إلى الوجهة المناسبة حتى يصل بعيدا.

انتفض «عبد الله» غضبا، ونهض من مكانه، ثم شرع يدور في القاعة.

- الآن تحولنا إلى آكلي جِيَف؟ - أجاب على الفور.

وقف «أشقيلولة» دون عُكَّازَتِه، ثم تطلع إلى

ابنه وجها لوجه. توقف «عبد الله» توا عن هراءاته، مشلولا قبالة والده.

ـ تُفضل أن تكون أسدا؟ إذن، كُنهُ: ترأس الرجال في المعركة، وحارب مخاطرا بحياتك، وتزعم الناس بذكاء، واجعل الرأفة والشفقة توجه أعمالك. عسى بهذا السلوك يطلقون عليك لقب «شيخ»، كما يسمونه هم. ـ انغرزت هذه الكلمات في صدر «عبد الله» كأنها إبر صائبة ـ إنكما ولداي، وأنا أعرف الناس بشجاعتكما، غير أنه حتى تغنم احترام أي شعب لا بد لك من شيء آخر، وهذا الشيء الآخر يملكه «محمد». ـ خف الاحتقان بهذا الكلام ـ غدا سيذهب إلى «جيان»، ونحن سنرافقه. ـ ختم «أشقيلولة» بشكل قاطع.

***

**جيان Jaén. أغسطس 1233**

توقف الجيش الصغير قبالة باب «مرتش» **Martos**، حيث كان «ابن صناديد» ينتظر بمعية أعيان المدينة. كان حاكم المدينة الوفي لـ «ابن هود» قد غادرها هاربا إلى «مُرسية». في أعلى الباب علقت قطعة من القماش لونت على عجل بالأحمر، علم مرتجل بلون بني نصر.

ترجل «ابن صناديد» أمام أمير «أرجونة»، الذي فعل بدوره الشيء ذاته، ثم تعانق الرجلان بتقدير صادق. كان «محمد» لابسا جلبابا بسيطا أبيض اللون، برز منه في جهة الصدر القلادة التي تحمل القطعة النقدية الرومانية.

ـ مولانا، اسمي «ابن صناديد». إلى حد اليوم

كنت رئيسا لمقاتلي «جيان»، وقائد جيشها، وأنا ابن وحفيد لقائدين كانا في خدمته تعالى. نقدم لك وفاءنا وإخلاصنا لخدمة قضيتك.

ـ أخي، إن قضيتي هي قضيتنا، قضية الله. لنا أعداء في شمال الحدود، لكننا الآن لنا خصوم في الجنوب ـ أجاب «ابن الأحمر»، وهو يعني أمير «مرسية».

ـ ليس «ابن هود» سوى جبان لعين تنقصه مهارة حكم الناس، وحكم نفسه ذاتها ـ أطلق الجياني كلامه في حنق دون التزام بالنبرة الشكلية.

ابتسم «محمد بن الأحمر». وعلم منذ هذه اللحظة الأولى، أنه سيستأنس للرجل، وسيكون على علاقة جيدة معه. وبرفقة «ابن صناديد» دخل الأمير إلى «جيان»، ومَعاً، ذهبا إلى المسجد الجامع ليؤديا مع الناس صلاة الجمعة.

ـ يبدو أن الجُمَعَ تجلب لك الحظ. ـ قال «أشقيلولة» لحفيده، وهما يقتربان مع الآخرين من المسجد. ـ في يوم جمعة نودي عليك أميرا، وفي يوم جمعة أخرى، تدخل إلى عاصمة إمارتك الجديدة.

ختم الخطيب خطبته بالدعوة للأمير الحفصي، الذي استظل «ابن الأحمر» بحمايته، ثم احتشد الناس عند مخرج قاعة الصلاة ليظهروا دعمهم للأمير في تظاهرة مدروسة سهر على تنظيمها «ابن صناديد» شخصيا. مباشرة بعد ذلك، أخذ الموكب طريق القصبة، فصعد في المنحدرات

العالية التي تشرف على المدينة.

« لدى بني نصر الآن من الرجال أكثر مما لدينا... وأيضا سلطة أكثر»، دار بخَلَدِ «عبد الله»، وكان يسير بجانب أخيه وخلف الأمير. بـ «جيان» أصبح للنصري جيش حقيقي، ووضع يده على مداخيل تسمح له بتأسيس إمارة قوية. «لم يعد في حاجة إلينا. لقد غدا الآن حرا من كل تعهد. أرجو أن يكون وفيا لوعده».

دَلَّ ابن صناديد الأميرَ ومن معه من مسؤولي «أرجونة» على مسالك القصبة وسراديبها، وبعد حين افترق الرجلان عن باقي أعضاء الموكب الأميري عند أبواب قصر الحاكم. في تلك اللحظة شرع في توزيع باقي أعضاء الوفد على محلات إقامتهم بأقصى الجانب الغربي من المركب الذي كانت أسوار القصبة تحيط به بالكامل. حينها دخل «محمد» مع «الجياني» إلى القصر.

سار الأمير ومضيفه معا، وقطعا فِناء وعددا من الغُرف إلى أن وصلا إلى الرِواق الذي يفضي إلى «المجلس». بدا «ابن الأحمر» منبهرا بالتفاصيل التي تزين القصر، لمح عند المدخل بابا ذا قوسين على شكل حدوة الفرس، لُبِّسَتْ فقراتهما بالجِبْس، ووشيت باللون الأحمر وبالنقوش النباتية بالتناوب. في حين فتحت على الجانبين نافذتان وشيت بالأفاريز المنقوشة بتواريق من الجبس. وقد وضعت على كلا النافذتين ستارة من التشبيك الزهري تمنع الرؤية على الفضوليين.

ـ طلي القصر لتوه ـ أشار «ابن صناديد» إلى فقرات العَقد الحمراء.

بالداخل كانت قواعد الجدران بالقاعة الكبرى في غاية الجمال. في حين كانت الجدران ذاتها مطلية باللون القِرْمِزي، وفي الأعلى كانت ثريات النحاس تضيء المكان بألوان برتقالية متدرجة في وهجها. استقبل الأميرَ وابنَ صناديد جاريتان تضعان على وجهيهما لثامين، وتحملان صينيتين مليئتين بالزاد والشراب... على الإثر توجه الرجلان إلى ناحية من القاعة وجلسا على مقعدين قصيرين:

ـ مولانا، هذا قصرك، ويمكنك أن تجعله محل إقامتك. إنه متواضع، لكنه أنيق. في «جيان» عادة ما تخصص الدنانير للحرب.

ـ لا يحضرني هدف لتصريف المال أحسن مما ذكرت.

شرع الرجلان في حديث طويل عن الحالة في «جيان» وفي «أرجونة» المعرضتين للخطر المسيحي باستمرار. كما عرضا لموضوع سقوط «أبدة» وجبن ابن هود.

ـ إن الملك المسيحي يملك من القوة والسلطة القدر الكبير ـ علق «ابن صناديد» ـ كان عليك أن ترى جيشه العرمرم. معسكره الرئيس كان أشبه بمدينة بشوارعها، وأفرانها، وحداديها، وحوانيتها...

مر الوقت على الرجلين وهما في حديث وتبادل للرأي، ثم ختما أخيرا الجلسة بتناول بعض الحلوى المنقوعة في العسل.

ـ استقر حيثما بدا لك ـ قال «ابن صناديد» ـ

حاشيتك تتوفر على غرف العمل بهذه الناحية من القصر ـ أشار ناحية الشرق ـ غدا إذا راقك، يمكننا أن نجتمع مع أعيان «جيان». وليوفقنا الله، وعساه يَهدِينا إلى سَوَاءِ السُّبُل.

تعانق الرجلان، ثم خرج «الجياني» من القاعة. جاءت جارية ثم قادت «محمد» إلى غرفته، إقامة ذات اتساع مُعْتبر، ويتوفر على سرير مريح، وصناديق لترتيب الثياب، وعلى مِسْند كتب وضعت عليه نسخة من القرآن، مغلفة بالجلد المنقوش الناتئ. كان الأمير متعبا فلم يمهل نفسه حتى نام القيلولة. وبعد مرور بعض الوقت أيقظه طرق خفيف على الباب. فنهض من فراشه جافلا.

كانت الجارية التي جاءت معه من «أرجونة» قد بقيت واقفة بالباب في سكون وهي تحمل بين يديها جرة من الخزف. وفي حركة ذكية منها أسقطت المرأة جلبابها إلى قدميها، وبقيت عارية بالكامل، ثم بعد ذلك أزاحت اللثام الذي كان يغطي وجهها قبل أن تحرك بطريقة موحية الجرة.

ـ لقد وجدت هذا في خزانة هناك، لنجعل منه أمرا مشوقا. ـ قالت المرأة.

ـ لا تتوقفي عن مفاجأتي يا مريم. ـ قال لها وقد جعلته رؤيته للخمر يستحضر ذكريات سقوطه في الهاوية، وفقدانه لـ «فرح».

اقتربت الجارية من السرير، ثم عرضت الجرة على حبيبها. شعر «ابن الأحمر» على الفور بوخزة ألم في صدره. وبحركات رتيبة أزال القلادة من عنقه،

ثم وضعها على الأرضية. نظر إلى المرأة، تنهد، وأخيرا مد يده وتناول الآنية.

مارس الأمير وجاريته، طوال المساء وقبل حلول الليل، الحب بعنف، وهما ثَمِلان يسعيان في كل «هَجْمة» مسح آلام الذكريات القديمة.

***

ـ كانت تشبيكات ستارتي النافذتين تسمح بمرور ضوء الصباح الساطع، موزعا على أشكال مختلفة، بسبب تأثير التشبيك. في القاعة الكبرى كان أعيان «جيان» و«أرجونة» مجتمعين في انتظار الأمير.

ـ «شريش دل ماركيسادو»، «وادي آش»، «جهنس»، «قنجهار»، وجميع القرى الواقعة في فحوص هذه البلدات ـ قرأ أحد الكتاب من الذين كانوا يعملون في الإدارة القديمة بالمدينة.

ـ هذه المراكز التي انضمت إليك بعد انضمام مدينتنا يا مولانا. ـ قاطع «ابن صناديد».

سمعت همهمات سرور، ووشوشات استحسان. تبادل على إثرها «أشقيلولة» نظرة خاطفة مع الأمير الذي كان يسعى جاهدا لاخفاء ابتهاجه الشديد. ثم قال «محمد» في ورع:

ـ لنخلص لله تعالى بالعمل، وهو يؤتينا من نعمه. وكلما ازداد عددنا، سهلت علينا مقاومة الخصوم.

كان الأمير متيقنا أن الفضل في اتساع الولاء له يعود إلى توسط «عمر الحسون» بينه وبين

«الجُهَنِّسِي»، «الولي الصالح» المعروف.

ـ سيدي ـ أخذ الكلمة رجل أنيق يعتمر عمامة حمراء ـ كنت مكلفا بحسابات «جيان» إلى حد اليوم. وإذا سمحت، فإني سأستمر في مهمتي. بإمكاني أن أقوم بإحصاء جميع القرى والبلدات التي تخضع لسيادتك.

ـ أدعم الاقتراح ـ رفع «أشقيلولة» صوته بحزم.

ـ يجب أن نعرف عدد الرجال والدنانير التي نعتمد عليها ـ قال «محمد». كانت قد مرت عليه عدة أيام بـ «جيان» أصدر خلالها مجموعة من القرارات المهمة: أمر بإصلاح وتقوية دفاعات عاصمته الجديدة، وبناء ثُكنة عسكرية خارج المدينة لتجنيد كتائب جديدة ـ خذ ما تحتاجه واذهب حالا للقيام بعملك. ـ أضاف بنبرة سلطوية.

وافق جميع أعضاء مشورته. وشرع الكاتب في قراءة جدول أعمال اليوم، كانت النقط المدرجة في الجدول تناقش نقطة نقطة وفي كل منها كان الأمير يفصل فيها. كان «ابن صناديد» يلحظ باهتمام تصرفات «الأمير»، وقد أعجب بهذا الرجل النحيف ذي العضلات القوية الجالس على كرسي مقص بسيط، وهو يرتدي جلبابه الأبيض المعتاد. ابتهج القائد الجياني لاختياره الموفق في أن يكون بجانب «ابن الأحمر».

ـ ينبغي توزيع الحاميات بشكل يسمح لبعضها أن تنجد الأخريات عند الاقتضاء. ـ قال «محمد بن الأحمر» بشأن آخر نقطة في جدول الأعمال اليومي. ـ هنا في «جيان» يجب أن تقيم الفرقة

الرئيسة للجيش. ـ نظر نظرة خاطفة في الخريطة التي نشرها أمام الرجال. ـ غير أنه في المواضع البعيدة يجب أن تستقر حاميات تستطيع الدفاع عن الأرض في حالة إغارة المسيحيين.

ـ أو المرسيين ـ أضاف «عبد اللّٰه بن أشقيلولة».

ـ لسنا في حرب مفتوحة ضدهم. ـ عقب أحد الجيانيين.

ـ سنكون كذلك قريبا. ـ علق الأمير.

انتهى الاجتماع بالأدعية والتبريكات المعتادة، وبقي «محمد» وحده، يمعن النظر في مجسمات الأبراج الخشبية التي وضعت أمامه بشكل استراتيجي ممثلة للقلاع التي تحت إمرته.

ـ أخي! ـ فاجأه «إسماعيل».

ضم «محمد» أخاه إلى صدره بقوة، مسرورا بلقائه.

ـ وصلت على التو. أخبروني أنك كنت في اجتماع ـ ارتسمت على وجهه ابتسامه ثم استطرد ـ إنك تملك الآن قصرا جديرا بأمير. ـ فتح «إسماعيل» ذراعيه ثم أشار إلى قواعد الجدران المزخرفة بالتوريق، والألوان التي صبغت بها الحيطان.

ـ يهمني هذا أكثر يا أخي ـ وأشار «محمد» إلى المجسمات.

ظل «إسماعيل» ينظر في الخريطة برهة. كان يعرف ما يكفي من القراءة ليميز بين أسماء البلدات.

ـ «وادي آش» Guadix ـ نطق اسم البلدة

مندهشا ـ تابعة لك؟

ـ و«جهنس» و«قنجيار» و«شريش المركيزي»، والكُوَرُ التابعة لها.

ـ قبل زمن قصير كنت تجر المحراث، والآن تسكن في قصر، وتحكم إمارة. ـ قال «إسماعيل» وعيناه مشرقتان.

ـ صحيح، لكني ما زلت ذاك الذي كان يقلع الأشواك، ويزيل الأعشاب الضارة، ويحصد، الثغري ذاته الذي يغير على أراضي الحدود. كيف حال والدنا.

ـ أعطاني هذا لأوصله لك. ـ ناول «إسماعيل» أخاه رسالة ـ لن يأتي إلى هنا، يريد أن يواصل عمله في الحفاظ على ممتلكات الأسرة. أنت تعرف طبعه. فرح كثيرا لما حققته، وحثني على الالتحاق بك، قائلا إنه يستطيع أن يتكلف وحده بكل شيء. وقد اشترى في الأيام الأخيرة قطعتي أرض، وأصبح له زبائن جدد. ولا يتوقف عن الكلام عنك.

ـ وعائشة؟ ـ سأل «ابن الأحمر» عن زوجته.

ـ إنها بخير. مع الأولاد لا تجد الوقت للاشتياق إليك، غير أنها اشتاقت إلى «مريم» في البيت.

ـ كانت تساعدها كثيرا في رعاية الأولاد. كلهم بخير؟

ـ أجل يا أخي. لا تقلق. تتحدث كما لو أنك قضيت شهورا خارج «أرجونة».

ـ سأستقدمهم إلى هنا قريبا. ـ صمت للحظة،

ثم أمسك «إسماعيل» من منكبه، وأخرجه إلى رواق القاعة الكبرى. ـ ـ يسعدني أن تكون معي هنا. هذه الدار كبيرة ومترفة، لكنها فارغة أكثر من اللازم. هيا سأعرفك عليها. ـ وشرعا الأخوان في السير. لحظة سأل «محمد» أخاه: ـ ضعني في الصورة وأطلعني على ما يجري بـ «أرجونة».

ـ قليلة هي الأخبار في «أرجونة». «عمر الحسون» نظم مسابقة في الرباط.

ـ ومن فاز بها؟

ـ «كمال بن هادي». إن الفتى ماهر في استعمال السلاح، وركوب الخيل.

ـ مثل والده ـ قال «محمد» همسا. في الحين استحضر ذكرى مقتل صديقه في «معركة البساتين»، وغشيت وجهَه غِلالةٌ من الحزن. فقد كانت روحه ما زالت تختزن آلاما لم تَبْلَّ بعد آثارُها.

***

«طليطلة». Toledo، أغسطس 1233

ـ هنا توجد أُبَّدَة Úbeda، وهنا «جيان» Jaén. ـ أشار «فرناندو الثالث» بالتناوب إلى نقطتين على الخريطة الدقيقة التي وضعها الجغرافيون. في جوانب من الخريطة كانت أكوام من التراب الجاف تشير إلى السلاسل الجبلية الرئيسة التي تقع على الحدود. في ذات الوقت كان الأمير «ألفونسو» يتطلع بانتباه إلى ما يجري حوله. كان الفتى يتمتع بذكاء حاد، ويظهر اهتماما كبيرا بشؤون المملكة التي سيرثها يوما ما. ـ كانت «أبدة» تحمي «جيان». ـ وضع الملك يده على

موقعها ـ الآن أصبحت ملكا لنا.

ـ ومن هناك يمكننا الانقضاض على «جيان». ـ قال ولي العهد.

ـ حسن جدا. ما أريد أن تتبَيَّنَهُ هو أن الفتوحات تتم حسب تخطيط محكم، ومن ثم لا تأتي أكلها اعتمادا على الحظ، كل فتح يخدم آخر، وجميعها تخضع لخُطة عليا. ـ حرك يده فوق خَطٍّ أزرق يمثل «الوادي الكبير».

ـ «قرطبة» ـ قال «ألفونسو». في حين واصل والده تمرير أصبعه إلى أسفل النهر حيث «إشبيلية».

ـ هذه هي خطتي الكبرى. من «أبدة» إلى هناك طريق طويل. سنسير عبره جميعا بمساعدة الرب.

تأمل «ألفونسو» الخريطة في صمت. فوق مواقع «إشبيلية»، و«أرجونة»، و«مرسية» وضعت تماثيل من الخشب. أخذ الطفل تمثال إشبيلية وطَفِقَ يتمعنه في استغراق.

ـ إنها تماثيل الملوك «الموروس». في كل يوم يزداد انقسامهم ـ أخبر «فرناندو» ابنه «ألفونسو». ثم نقل، بحركة شاردة، تمثال ملك «أرجونة» إلى موقع «جيان». كان الجواسيس القشتاليون قد نقلوا إلى البلاط القشتالي أخبار الوضع الجديد بالأندلس. ثم واصل «فرناندو»: ـ وذاك الملك الجديد ـ قال وهو يشير إلى التمثال الذي بيد ابنه ـ سيتقاتل مع هذا ـ حرك أصبعه باتجاه «جيان». ـ ولعل الأرجوني لا يعلم بهذا الأمر بعد. ـ أشار «فرناندو» بغمزة لابنه ـ وإن هذا الاقتتال

بين هؤلاء السلاطين ليَنْفعُنا وهو في صالحنا. أثناء ذلك سيطلب منا ملك «مرسية» عقد اتفاق هدنة على أساس أن يقدم لنا إتاوات، ويمتنع عن مهاجمتنا. يريد أن ندعه مستكينا لنفسه، ولمحاربة خصومه الداخليين. وبالطبع بمال المُرْسِي يمكننا أن نهاجم «الموروس» الآخرين.

أطلق «ألفونسو» الصغير قهقهة. فلكم كان يسليه هذا اللعب السياسي.

ـ الوحدة بين المسيحيين ـ نطق الطفل كما لو أنه يلقي خطبة.

ـ والحرب ضد الكفار ـ أكملت الملكة «برنگيلا» العبارة وهي تدخل القاعة. ـ رزقت وريثا غاية في الذكاء ـ تَوجهتِ الملكةُ بالكلام لـ «فرناندو»، ثم نظرت ناحيةَ الطفل مُستطردةً: ـ تمكنت من إدراك كنه الفكرة. فإذا كان المحمديون منقسمين، فينبغي علينا، نحن المسيحيين، أن نظل متحدين حتى نضربهم بقبضة واحدة قاضية. وفي اليوم الذي ستصبح فيه ملكا، يا «ألفونسو»، وستكون عاشر ملوك قشتالة يحملون هذا الاسم، اسْعَ إلى الحفاظ على هذه الوحدة التي حققها والدك بإصراره وصبره. هل تفهم كلامي جيدا؟

ـ أجل يا ملكتي.

كانت «برنگيلا» قد تجاوزت الخمسين. وأخذ وجهُها يُبدي بعضَ التغضُّن، وعيناها تعكسان تعبا كبيرا، غير أن بَشَرَتَها التي حافظت على نعومتها، وقامتَها الهيفاء، كل ذلك أعطى لمظهرِها مسحةً من الطَّراوةِ والنَّضَارة.

حدَّقت الملكةُ في الخريطة، ثم ركَّزتْ نظرَها على «أرْجونةَ» و«جَيَّان».

ـ أرى أن فروعَها تزداد طُولا. لعله آن الأوان لقطع جِذْعِ هذه الشَّجرة.

***

«مرسية» Murcia. أغسطس 1233

ـ يبدو أن الأرجوني يتسم بالذكاء. وكنت قد استهنت به. ـ اعترف «ابن هود» لـ «ابن الرميمي» حاكم «ألمرية» الذي كان يتبع خطوات أميره، وهما يتفسحان ببستان القصر.

ـ لا يستطيع هذا الدعي أن يواجهك، وإن ملك «جَيَّان». لأنه لا يملك ما تملكه أنت من قوة، نسأل الله أن يحفظها لك.

ـ عسى يكون ذلك صحيحا الآن. منذ شهور كان يملك فقط «أرجونة» و«بُرْكُونة» Porcuna، أما الآن، فقد انضمت إليه «جيان» و«وادي آش». ـ رد الأمير.

ـ و«جُهَنِّس» و«قَنْجيار». ـ أضاف «ابن الرميمي» بغضب ـ أراه يقترب مني.

ـ ولهذا السبب دعوتك للمجيء إلى «مُرْسِية». قد حان الوقت لنوليه الاهتمام اللازم. أريدك أن تهاجم أراضيه من «ألمرية»، لتعرف باقي البلدات والقرى أن الانضمام إلى هذا الدَّعِيّ له عواقب وخيمة.

وقف الرجلان أمام حديقة زهر غُرسَت بأشجار الرمان، وهما يسمعان صوت الماء الذي تمجه

نافورة قريبة منهما.

- لا تهتم كثيرا لهذا الأرجوني - قال حاكم «ألمرية» - فقد وصلت شائعات من «إشبيلية» تتحدث عن أن «الباجي» عزم على مهاجمة الأرجوني حتى يستولي على أراضيه. من ناحيتي، سأبعث ابني إلى «قنجيار» على رأس سرية سنبقيها دائما في خدمتك - حنى «ابن الرميمي» رأسه باحترام.

أثناء ذلك مرت فتاة بالقرب منهما، كانت تلبس حجابا يغطي شعرها ووجهها، غير أنه من منابت شعرها يحدس لون شعرها الضارب إلى الحمرة. خفق قلب «ابن هود» لمرأى الفتاة التي ابتعدت بخطى سريعة. كانت ابنةً لـ «سانشو الإلتي»، القائد المسيحي في جيش «ابن هود». وكان «ابن هود» قد هام بها عشقا منذ أن رآها تصل لأول مرة بصحبة أبيها إلى القصر.

- أشكرك على إخلاصك - أجاب الأمير الوالي وهو يتابع الفتاة ببصره.

- ما أجملها من غزالة! لا تنعم بها؟

- فقط في المنام.

- ما يمنعك من ذلك؟ - سأل الحاكم مستغربا.

- كنت قد وعدت زوجتي بألا أمس امرأة غيرها. وأنا رجل أحافظ على عهودي.

وضع «ابن الرميمي» يده اليمنى على كتف «ابن هود».

- أنا وأنت نعرف جيدا أن هناك نزوات أقوى من

العهود.

تابع الرجلان ببصرهما خطوات «خيمينا».

***

«قنجيار» Canjáyar. سبتمبر 1233

كانت القوات المسيحية تبذل قصارى جهدها في بناء مناجيق تهاجم بها في أقرب وقت «قنجيار»، نظرا لقوة التحصينات التي كانت تحمي البلدة، فقد وضح للنصارى أن الحماية التي تتمتع بها القلعة جراء أسوارها العالية والماء الذي يحيط بها يجعل من المستحيل الاستيلاء عليها بواسطة هجوم مباشر من قبل الجيش. ومن ثم تَبَيَّنَ للمحاصِرين أن وسيلتهم الناجعة لإسقاط هذا الحصن الضخم هو استعمال أسلحة الحصار. وكان «فرناندو الثالث» قد أرسل قرابة أربعمائة من الفرسان لحصار المدينة عملا باتفاق الهدنة الذي تم توقيعه بين الملك القشتالي و«ابن هود» القاضي بمساعدة الأمير المسلم في حروبه ضد خصومه. وفي جانب من المعسكر القشتالي، وفي مواجهةٍ للحصن، أقام بعض الجند المسلمين معسكرا لهم، وكان الجميع تحت إمرة ابن والي «ألمرية» «ابن الرميمي».

في هذا الخضم قرر الولي الصالح «الجُهنسي»، الذي كان قد رحل إلى عين المكان ليساهم في الدفاع عنه، أن يتفاوض مع المهاجمين من أجل تسليم القلعة، وهو ما وافق عليه قائد «ابن هود»، فحصل لقاء بين الرجلين في منطقة محايدة حيث عرض «الجُهنّسي» على القائد

الهودي تسليم القلعة مقابل احترام حيوات الناس. مباشرة بعد الاتفاق رفع فوق الحصن علم أبيض.

- هل رأيت؟ إنهم ضعفاء - قال المَرِوِي لقائده.
- وليستمر النصارى في صنع المناجيق، ولا يرفع أحد خيمته، - وبذلك أخلف «ابن الرميمي» بكلمته، واستمر في الحصار.

في اليوم ذاته، قبيل العصر، خرج الجُهَنِّسي من القلعة وهو يحمل راية بيضاء. في هذه المرة تفاوض مع قائد الجيش المِروي.

- كان قد حصل اتفاق بيننا وبينكم - قال «الولي الصالح» في غضب، في حين لاذ القائد بالصمت. إذ لم يكن متفقا مع القرار الذي اتخذه «ابن الرميمي»، وقد أدرك ذلك الجُهَنسي بوضوح - لك زعيم لا يُشرِّف - استطرد الولي - رجل يَنْكُثُ عهدَه، ويتحالف مع النصارى ليهاجم المسلمين - احمر وجه القائد - وليعلم أنه لو كان المسيحيون وحدهم لكنا قد هاجمناهم بكل قواتنا، ولَكُنَّا قد بدَّدْناهم، بإذنه تعالى. - توقف الرجل الصالح برهة عن الكلام - لكنكم معهم، وبهذه الرفقة سينتهي بكم الأمر إلى قتل المسلمين.

أطلق «الجُهَنِّسِيُّ» العنان لفرسه، وعاد إلى «قنجيار» يرقبه المِرَوِي بنظرة متيقظة.

- سيحاربون - قال القائد لرئيسه بلهجة حازمة حينما لقيه بالخيمة- من هناك تمكنت من رؤية طريق على الجهة الأخرى من الصخرة. وهو عبارة عن طريق جبلي يمكنهم منه تلقي المساعدات.

علينا أن نسيطر عليه.

ـ أقم معسكرك هناك.

ـ كل الجيش؟

ـ أجل ـ أكد القائد الأعلى ـ أنا وحراسي سنظل هنا مع النصارى.

ـ أمرُك، ـ أجاب القائد في سرور.

***

ـ إنهم يتحركون!

من القصر لمح المدافعون عن القلعة، وهم ذاهلون، إعادة انتشار الجند الإسلامي، وتموضعه الجديد بإشراف القائد. قام المسلمون بتنفيذ دورة على الصخرة حتى حددوا موقعا مجابها للجبهة الجنوبية للصخرة. في الشمال بقي المسيحيون فقط، وهم في المرحلة الأخيرة من تركيب المجانيق.

ـ إنه مسلم حق! ـ قال ولي «جهنس» ـ ها قد حان وقتنا. يجب أن يكون هجوما خاطفا. وليكن الله في عوننا!

دقائق بعد ذلك فتح «باب ألمرية» ومنه انطلق الفرسان في سرعة كما لو أنهم البرق، خلفهم سار الرجالة يعدون ما وسعهم العدو، وسمحت به سيقانهم. في المعسكر المسيحي بدأ السباق، وسمعت الأصوات الآمرة الأولى، غير أن الرجال لم يجدوا الوقت الكافي للبس دروعهم وأخذ أسلحتهم. فوقع عليهم جند «قنهاير» كأنهم السيل، يقتلون، ويحرقون، ويخيفون الخيول. في

لمحة بصر أشعل المهاجمون النار في المجانيق، وجميع الخيام التي وجدوها في طريقهم. ولم يكن أمام القائد الأعلى، ومن معه من حراس سوى أن يطلقوا سيقانهم للريح، وقد حاقت بهم الهزيمة. ومع ذلك تمكن الفرسان المسيحيون من أن ينظموا أنفسهم لمواجهة «الموروس»، حينها صاح «الجهنسي» يأمر بالانسحاب.

دخل المنتصرون «قنجيار» من «باب ألمرية»، حيث استقبلهم الناس مبتهجين بالتهاليل والهتافات، بعد أن خلفوا وراءهم ميدانا مدمرا تكتسحه أعمدة الدخان المتصاعد، وتنتشر به رائحة الفحم واللحم المشوي. وبذلك تمكن «الولي الصالح» أن يبدد شمل الفرسان النصارى، وحافظ على القلعة تحت سيادة «ابن الأحمر».

***

**«أرجونة» Arjona. سبتمبر 1233**

وصل «يوسف» إلى الرباط فجرا ليتفقد سير المران العسكري الذي خضع له المجندون الجدد. كان رأس أسرة «بني نصر» يركب فرسا مطهما متناه في الرشاقة. وكان الشيء الوحيد الذي سمح به «يوسف» لنفسه كعلامة تميز، مذ وصلت عائلته إلى سدة الحكم، هو ركوب أجمل الجياد وأتمها زينة.

استقبله «عمر الحسون» بفرح، وقضى الرجلان فترة طويلة من الصباح يتحدثان عن سنوات الطفولة البعيدة، وعن «محمد».

- جاءَ إلى الدنيا ليَتَزَعَّمَنا، عرفت ذلك منذ أن

التقيت به لأول مرة. إن الله تعالى ادخر له هذا المصير السامي. ـ أكد «الحسون» على كلامه في اقتناع. كان يلبس جلبابا أسود، ويعتمر عمامة سوداء، ويسير سير خيلاء عبر فضاء الرباط.

ـ إنه باسل وكفء. ومشواره لم ينته بعد. ـ بصم «يوسف» على كلام «الحسون».

ـ متى ستذهب إلى «جيان»؟

زم «يوسف» شفتيه، ثم نفى بهزة من رأسه قبل أن يجيب.

ـ «محمد» قادر على إتيان الأمور بنفسه. وإن احتاج إلى مساعدة فسيجد أخاه وجدَّه في جانبه. تلك الأمور ليست لمثلي. مكاني هنا، في الريف، حيث أسهرُ على أراضي العائلة. ـ ربت على كتف صديقه ـ أتركْ السياسةَ لهم، أما أنا فليتركوا لي رائحةَ النبات والأرضِ المُبَلّلة، أغاني الطيور في الصباح، وخرير الماء وهو يجري في السواقي، تلك هي ثروتي. ـ وبينما هما كذلك مرا قريبا من طائفة من الشباب وهم يتمرنون ـ ما قدرات هؤلاء القتالية؟ هل يحسنون استخدام السلاح؟

ـ ليسوا بسيئين. المدربون مسرورون بما يحققونه من تقدم. «كمال بن هادي» سيكون محاربا بارعا، وسيفوق جميع زملائه في المهارات القتالية.

لاحظ «يوسف» الفتى وهو يصغي باهتمام لإرشادات أحد المدربين. رأى في ملامح الشاب صورة «هادي» فذكر التزامات «ابن الأحمر» تجاهه وتجاه والدته.

ـ كم عمره؟ ـ سأل «النصري».

ـ سبع عشرة أو ثمان عشرة سنة. لست متأكدا.

ـ ينبغي أن أغادر الآن، لكن قبل ذلك أطلب منك جميلا يا «عمر». قل لـ «كمال» أن يمر بالبيت هذا المساء. لدي شيء يخصه.

غادر «يوسف» في اتجاه أراضيه البور، حيث كان العمال يحرثون الأرض، استعدادا لِأَوان البَذْر.

***

وصل «كمال» إلى «أرجونة» عصرا. ثم توجه إلى دار «بني نصر» في لحظة كان الأولاد الصغار ينامون القيلولة. وجد الباب مفتوحا فدلف إلى المدخل.

ـ السلام عليكم ـ سلم الشاب.

على الفور برزت زوجة «محمد» وهي تحمل سلة مليئة بأنواع الفاكهة والخضر. تأملها الفتى وهي تسير مسرعة. كانت ما زالت شابة: ثدياها بارزان، ووَرِكَاهَا متسعتان قليلا، في حين انسدل شعرها الأسود الفاحم دون حجاب. سلمت «عائشة» السلة للفتى مع رغيفا بيتيا ملفوفا في قماش.

ـ هذا لكما. وقل لأمك ألا تتردد في طلب ما تحتاجه منا. ـ قالت «عائشة» لـ «كمال». في تلك اللحظة انتبهت المرأة للشاب. كان ولد «هادي» في ميعة الشباب: حسن الهندام، أسمر البشرة، وذا نظرات عميقة، صاغ العملُ ومداومة التدريب العسكري جسمَه بشكل ذكوري جميل. فما لبثت عائشة أن شعرب بالخجل، وبعض الحرج، بسبب عدم

وضعها الحجاب.

- شكرا، بارك الله فيكم. - أجاب «كمال» وهو ينظر في عيني عائشة السوداوين، وسرعان ما حولت المرأة نظرتها.

- سلم على أمك، وقل لها أن تأتي للحياكة عندنا متى شاءت.

أخذ كمال السلة، وانصرف، في حين توجهت عائشة مشوشة من اللقاء إلى المطبخ لتساعد «كريمة».

***

**«جيان» Jaén. سبتمبر 1233**

من الغرفة كانت تسمع الأصوات وجلبة السباقات التي تجري في الخارج. كانت ستارات النوافذ تترك فتحات تسمح بتسرب ضوء الصباح. نزل «محمد» من الفراش، في حين بقيت «مريم» نائمة، وهي عارية تماما. اقترب منها الأمير، ثم قبلها في خدها. تثاءبت المرأة، فشم ابن الأحمر رائحة الخمرة في نفسها.

- لم يكن عليك أن تشربي كثيرا.

- استدارت «مريم» واستلقت على ظهرها.

- يساعدني على نسيان همومي. ألا يروقك ذلك؟

- أنت لست في حاجة إلى الخمرة حتى تتخلصي منها. رد «محمد» في جد.

- يساعدني في التخلص من الصابورة. - صَحَّحَتْ.

ـ أُدرك ما تُريدين قولَه، لكن الخمرة لا تزيد عن كونها تنوم الذات. لكنك حينما تستيقظ، تجد الصابورة ما زالت في مكانها. لا ترتكبي ما وقعت فيه من أخطاء. قليل من الشراب حسن، غير أنه لا ينبغي السقوط في البئر.

ـ كان أحيانا يجبرني على الشرب. ـ قالت على الفور.

لم يجد «محمد» الكلمات ليجيب المرأة. أدرك أنها تتحدث عن خالها، غول ماضيها الذي قتله «ابن الأحمر». ساعدها على النهوض ثم عانقها.

ـ ذات يوم سنفلح في ذَبِّ الذكريات السيئة. ـ قال لها همسا في أذنها. كانت الثقةُ جاريةً بينهما. لم يكن هناك حب، وإن كانا في بعض اللحظات الخاطفة يخلطان بين الأمرين.

ـ سأرى ما يجري هناك. ـ كانت أصوات الضجيج في الخارج ما زالت قوية.

خرج «محمد» من الغرفة، وفي صحن القصر الكبير لقي أخاه «إسماعيل» وهو يتحدث مع رجلين لابسين لباس الفروسية. نظر «إسماعيل» إلى أخيه بابتسامة مشرقة.

ـ أخبار سارة، يا أخي، سارة جدا. «ابن هود» حاصر «قنجيار» وفشل في سعيه. نظم المقاومة ولي «جُهَنَّس»، فأزرى برجال المُرْسي ومن معهم من القشتاليين.

ـ بسط «محمد» راحتيه معا، ثم رفعهما إلى السماء.

- شكرا لرب العالمين.

- وهناك المزيد من الأخبار السارة. - أصبحت ابتسامة «إسماعيل» أعرض - هناك التحاق جديد بالإمارة. هذا الصباح وصل أحد الرجال يحمل نص البيعة - صمت «إسماعيل»، وأطال من صمته ليعطي للخبر ما يستحق من فخامة - خضوع الحاضرة العظمى، وجوهرة الأندلس.

- «قرطبة» - همس «ابن الأحمر»، وقد أخذته رجفة.

- كل مرة تزداد عظمة، أخي. كل ما زرعته منذ الطفولة يثمر الآن. المجد لـ «بني نصر»! - هتف «إسماعيل» وهو تحت وقع انفعال شديد.

***

عند مخرج المدينة احتشد المئات من الناس لوداع أميرهم. في حين بقي «ابن صناديد» على رأس «جيان» بوصفه حاكما لها. كان حب الشعب لـ «ابن الأحمر» نابعا من إحساس صادق تجاه هذا الأمير الذي حول حياتهم نحو الأحسن منذ أن تقلد مقاليد الحكم بالمدينة. كانوا يشعرون بالأمان في ظل حكمه، وأموال الضرائب تصرف لأهداف نبيلة، والفلاحون يفلحون أراضيهم ويزرعونها في جو من الطمأنينة والأمان، في حين أعيد تشغيل الطرق التجارية في ظروف طبيعية.

سار الأمير على فرس أسود اختار له اسم «برميجو سگوندو» إحياء لذكرى فرسه السابق. كان يلبس جلبابه القديم الأبيض على سروال فضفاض ينتهي ساقاه في جزمة من الجلد.

بجانبه كان يسير مبعوثُ «قرطبة» منتصبا، وقد ارتدى ملابس من الحرير. كان الرجل من أسرة «عبد المولى» العريقة التي تحكم قرطبة. وقد كانت العائلة في خلاف مع أمير «مرسية» «ابن هود» منذ مدة. وكان انضمام «جيان» إلى الإمارة النصرية المنبه الذي دفع بالأسرة إلى تغيير ولائها إلى «ابن الأحمر».

اختفى الموكب في الطريق الموصلة إلى «أرجونة» تحت هتافات المشيعين وتهليلاتهم. وهناك، بـ «أرجونة»، توقف الموكب لمدة يوم حتى تستعد أسرة الأمير لمرافقته. استقبلت «عائشة» زوجها بسرور، في حين أصر «يوسف» في عناد على أن يظل بـ «أرجونة»، بجانب «كريمة» التي أصبحت علاقتها به غير خافية على أفراد الأسرة. أما «أشقيلولة» وولداه فقد اختارا مصاحبة «محمد».

وكانت «أرجونة» مَسْقِطُ رأسِ ابن الأحمر قد خصصت استقبالا حافلا لابنها، خرج الناس إلى الشوارع محتفين فخورين بمقدم ابن بلدتهم، ولا غرو، فالأمير الذي يستعد الآن لحكم قرطبة، الحاضرة العظمى، وعاصمة بني أمية، تربى وترعرع في أحضان «أرجونة» وفي رعايتها.

وخلال إقامته القصيرة ببلدته، زار «محمد» المقبرة. ولم يسمح لأحد بمرافقته سوى لـ «عمر الحسون». وهناك، أمام قبور والدته، وأخويه، و«فرح»، سمح لنفسه ببعض الوقت للصلاة والدعاء في صمت.

- ذكريات عديدة؟ أليس كذلك؟

ـ أجل يا «عمر»، اشتقت إليهم. لكم يسعدني أن يكونوا معي الآن. كل حفرة من هذه الحفر هي جرح بالنسبة إلي.

ـ ومع أنك لم تدرس، فإنك تتحدث كما لو كنت شاعرا. ـ ابتسم الأمير في هدوء ـ كلنا ننتهي هناك، في التراب.

خيم صمت ثقيل بين الرجلين.

ـ لم أعد الرجل السابق، يا معلمي، لقد أصبحت ظل ما كنته فيما مضى. ـ رفع «ابن الأحمر» يده إلى القلادة، وشد على واسطتها.

ـ أعرف ذلك، رأيتك حينما كَبَوْت، وأيضا شاهدتك وأنت تنهض. ومع ذلك، فإن سقوطا مثل ذاك، لا يعود المرء بعده أبدا لما كان عليه في السابق.

ـ كل ضربة تلقيتها جعلت مني شخصا أكثر قوة، وأقل بهجة.

ـ إن الجرعات المرة تفقد الرغبة في الضحك. لكن كل شيء يجري لهدف. ـ تنهد الولي. كانت الفكرة التي تدور بخلده بإمكانها أن تجرح صديقه. كان عليه أن يزن كلماته ـ هذه الأرض المقدسة كانت في حاجة إلى زعيم مثلك: حازم، شجاع، صارم في قراراته، ولا ترتعش يده.

نظر «محمد» إلى عمر في اندهاش.

ـ تلمح إلى أن موت هؤلاء الأحبة كان ضروريا لأصبح أميرا حسنا؟

ـ لم يكن ذلك ضروريا، لكن اعتبارا لما حصل، لولا موتُ هؤلاء لما صِرتَ ما أنت عليه الآن. أعرف

أنه باستطاعتك أن تفهم ما أريد قولَه، لا تسئ فهمي.

- أفهمك - سكت للحظة - غير أنني ربما كنت قد تخليت عن الإمارة من أجلهم - أشار إلى شواهد القبور - وأواصل العمل في الأرض، والقتال في الحدود باعتباري ثغريا، كما كنت في الزمن القديم.

- ولكان قد وقع لـ «أرجونة» ما وقع لأندوجر، و«مرتشش» أو «أُبَّدة»، وأنت مع عائلتك تتطوح في البلدان، تستجدي الناس من أجل لقمة خبز أو عمل - رد عليه «الحسون» جازما. - لقد قُدِّر لمصيرك أن يأخذ وجهة أخرى. وقد تهيأت له خلال كل سنوات حياتك، مصيرك أن تؤسس لأسرة حاكمة ستطول في الزمن خلال قرون على أرض الأندلس.

- أسرة نصرية.

حرك «عمر» رأسه بالإيجاب. وهو يرى أن الفكرة راقت «ابن الأحمر».

«إن الأرض التي تستريحون في ترابها ينبغي أن تستمر في ملكنا» قال «محمد» لنفسه.

***

كانت عائشة تسير على مقربة من العربة التي كان أولادها على متنها في رعاية «مؤمنة» و«شمس».

- أنت الآن زوجة أمير، وأم ورثته - اقترب منها «محمد»، وهو ينظر إلى «يوسف» و«فرج» ويتذكر كلمات «عمر الحسون». هما سيكونان مبدأ سلالة

حاكمة. لم تجب المرأة، كانت مستغرقة في أفكارها.

اقترب الركب من «قرطبة» من الضفة اليسرى لـ «الوادي الكبير». وأصبحت على مرأى البصر «قلعة الحرة» [البرج الذي بناه الموحدون لحماية عاصمة الأندلس «قرطبة» من جهة الجنوب]، والحصن الذي كان يراقب مدخل الجسر الروماني القديم. من الجهة الأخرى للنهر كانت ترى أسوار الحاضرة والجدران العالية للمسجد الجامع، وبنايات القصر. في حين كان المئات من الناس يقطعون النهر عبر الجسر.

في أسفل «قلعة الحرة» وقف عدد من أعضاء أسرة «عبد المولى» في انتظار وصول الأمير، وقد أحاط بهم المسؤولون وأعيان البلد. كان القرطبيون في كامل أناقتهم، يرتدون أفخر الثياب وأرقاها في تعارض مع الثياب البسيطة التي تَزَيَّى بها «محمد» وأهله.

خفق قلب «ابن الأحمر» في شدة، وماج صدره بسيل من الأحاسيس المتعارضة.

«هل سأكون في مستوى الحدث؟» تساءل أخيرا وقد أصبح رهين الوساوس والشكوك. «ستكون»، خُيل إليه أنه سمع هذا الجواب محمولا على نسيم عليل، كأنه همسة خافتة بالكاد تلتقطها الأذن.

***

«وادي شِنيل» Valle del río Genil، قريبا من «إسْتِجة».

أوائل شهر أكتوبر من سنة 1233

لم تكن القوات الإشبيلية قد وصلت بعد، غير أن الرُّقباءَ النصريين كانوا قد رصدوها وهي تتقدم بسرعة من بعيد. كان «الباجي» ملتزما بما وقع الاتفاق عليه. وكان «محمد» قد قضى في «قرطبة» أكثر من أسبوع حينما أرسل إليه أمير «إشبيلية» يدعوه للنزال عبر معركة ميدانية. كان «الباجي» يريد أن يوسع من إمارته، لكنه لم يكن يملك من القوات ما يكفيه لمواجهة «ابن هود». فقاده فكره إلى وضع خطة استراتيجية لتحقيق أهدافه التوسعية تستند إلى مهاجمة «ابن الأحمر»، والاستيلاء على أراضيه، وبعد ذلك، ومن موقع أكثر قوة يجابه، أمير «مُرْسية». قبل «محمد» دعوة غريمه على مضض، وهو يعلم أن رفضه القتال سيمس من سمعته. فاعتبر الأمر ساعةَ الحسم التي سيقود فيها جيشه للدفاع عما حققه من مكتسبات.

وهكذا خرج «النصري» من قرطبةَ ولمَّا يستقرَّ بها بعدُ.

- إنها أشبه ما تكون بقوة صغيرة. كل رجل فيها يمثل فصيلة. - علق «أشقيلولة».

تأمل ابن الأحمر الأعلام وهي ترفع عالية على وقع انتظام الكتائب. تموضع جند «جيان» في المقدمة. كانوا مقاتلين شرسين، رجال الثغور المتمرسين على الحرب، والمتشوقين للدخول في المعركة. في حين لم يسبقهم في الصف الأول من المقدمة سوى جماعات من المزعجين والمتطوعة الذين ينقصهم السلاح والتدريب. بعدهم، يأتي القسم الأعظم من الجيش،

القرطبيون الذين زاد عددهم على الألف. أما «أرجونة» وناحيتها، فقدمت ثلاثمائة مقاتل مدربين في «رباط الحسون» كما هو معروف. في النهاية كان عدد الرجال المتأهبين للقتال يفوق الألفين.

ـ يا «نبلي»، خذنا إلى النصر بمباركته تعالى. ـ خاطب «محمد» جده.

ـ سأعمل ما وسعي ليتحقق ذلك. أخوك وولدَيَّ يعرفون جيدا عملهم. ـ كان «محمد» يفكر في الوضع. كان قد دخل في نقاش مع القرطبيين لينصب قوادا «إسماعيل»، و«إبراهيم»، و«عبد الله». وهو ما اعتبره القرطبيون إبعادا لهم عن القيادة. كل قرار كانت له عواقب، كما كان يقول دوما «أشقيلولة» في دروسه. وهذا القرار الذي اتخذه «محمد» سيكون له عواقب دون ريب.

بعد أن تم الاتفاق على تاريخ المواجهة، كان أول قرار اتخذه «ابن الأحمر» هو إسناد قيادة الجيش الأميري لـ«أشقيلولة». كان هذا القرار أول مكافأة يقدمها «النصري» لجده تقديرا لمساندته ودعمه له. و«أشقيلولة» بدوره عين القادة، وجهز حرسا أميريا، مكونا من أحسن العناصر المدربة على القتال. «أعرف أنك رجل بسيط، غير أن لك مسؤولية، والإمارة متوقفة على حياتك، ومن ثم، عليك أن تحافظ على نفسك» قال «النبلي» لحفيده.

سمح «محمد» لنفسه بأن يحاط بحراسه، وهو ينتظر ظهور الجيش الخصم في الأفق. بجانبه كان «كمال بن هادي»، ابن صديقه المتوفى. كان

ما زال شابا، لكنه ماهر ووفي، أبان خلال تمرينه على القتال عن مؤهلات رائعة.

بعد قليل برز أوائل الفرسان على تل قريب. وراءهم تعالت سحابات من الغبار الذي تثيره خطوات الرجال والخيول. كان الجيش ممتدا عبر قافلة طويلة، لم يلبث «أشقيلولة» أن أخذ في قراءة مكوناتها بعناية ودقة.

ـ يفوقوننا عددا بنسبة رجل ونصف مقابل رجل من عندنا ـ قال «أشقيلولة» للقواد.

ـ لكننا نحن الأحسن ـ رد «عبد الله» الابن الأصغر، على كلام والده.

ـ أنا سأقتل اثنين: ما يساوي نصيبي، أي رجلا ونصفا، زائد نصفا من نصيبك. ـ قال «إسماعيل» للتو.

ـ إذا سارت الأمور كما ينبغي لها أن تسير، فلا أحد منا سيقتل أحدا. أنتم قواد ولستم جنودا. ـ نظر إليهم «أشقيلولة» في اعتزاز.

حرك الجيش الإشبيلي الأعلام، وانتشر الرجال عبر الوادي على مسافة قريبة من القوات النصرية. هناك انتظروا الأوامر. كان الأمير «الباجي» يرقب العدو، وهو واثق من التطورات. لحظة أصدر الأمر، فسمعت في الحال دقات الطبول. تقدمت رايتا «إشبيلية» و«قرمونة» وهما تراوحان الخطى. وهو ما سمح للعسكر باتخاذ وضع الهجوم. في المقدمة، بدأت الخيالة الخفيفة في مناوشة المقدمة النصرية التي بدورها قامت بحركة نحو الأمام حتى تبعد العملية عن القسم الأعظم من

الجيش. بعد حين تراجع القائد العام الإشبيلي، وفسح للقائد الذي يليه رتبة في تسلم القيادة. لحظة، بدأ التراشق بالأسلحة القاذفة إلى أن قرر متطوعةُ القوات النصرية الهجوم على مقدمة القرطبيين لإيقاف المجزرة. وبحركتهم بدأ الصدام بين الرجال، واضطرمت الحرب بينهم، وإذا بالغريم يتصيد غريمه، ليَقْتُله أو يُقْتل على أرض الوادي الخصيب.

كان «ابن الأحمر» يراقب العمليات القتالية الأولى، وهو على قمة مرتفع صغير. لم تكن الرؤية لديه من موقعه جيدة، لكنها كانت كافية لتتبع مشهد النزال. وقع الالتحام بين المتطوعة من الجانبين بينما كانت الخيالة الخفيفة القرطبية تسعى لاختراق مقدمة الإشبيليين.

حينها أعطى «إسماعيل» وهو على رأس مقاتلي «جيان» الأمر بالتقدم، وإذا بالصف الأول المتكون من الفرسان الحاملين للدروع القصيرة ومن المقاتلين المشاة يتحرك بإيقاع سريع، على التو، وصلت أصداء صيحاتهم المخيفة إلى موقع الأمير.

بجهد قليل، وبكلفة ضعيفة في الأرواح، تمكن الجيانيون من تحييد الصفوف الإشبيلية الأولى، اخترقوا المتطوعة الناجين، ودفعوا بهم إلى مقدمة الجيش الإشبيلي الرئيسي.

- نحن الأحسن! - صاح «أشقيلولة» في ابتهاج.

- غير أننا الأقل عددا - أجابه الأمير الذي كان يتتبع كيف يسعى جناحا القوات الإشبيلية إلى

تطويق الجيانيين الأشاوش.

عدا «النبلي» إلى غاية موقع ولديه، قائدي القرطبيين، وحثهما على الدخول في المعركة. سمعت دقات الطبول للحظات، وسرعان ما اختنق هديرها، تحت جلبة الرجال وهم يتحركون. كانت المقدمة النصرية قد فتحت ثُلْمَةً في صفوف الخصم، غير أنها بدأت تهن أمام التفوق العددي لقوات «الباجي». وقتها هرعت الفرقة القرطبية لنجدتها، بينما بقي «ابن الأحمر» وحيدا مع قواته الشخصية في مأمن، بعيدا عن الميدان الذي كان رجاله يخاطرون فيه بحياتهم.

لم يتوقف القائد الإشبيلي عن الصراخ، وهو يحث النقباء في الجناحين على تطويق قوات العدو، غير أن جيشا يتحرك، ليس من السهل إدارتُه، والتحكُّمُ فيه. ومن ثمة، لم يفطن المقاتلون «الإشبيليون» الذين انقضوا على الجيانيين أنهم، بدورهم، أصبحوا ضحايا للقوات القرطبية التي نزلت عليهم بكل ثقلها مدعمة من الكتيبة الأرجونية المساعدة. غير أن الجناحين الإشبيليين تمكنا من الصمود أمام الهجوم القرطبي، لولا أن الجيانيين استطاعوا شق فتحة في قلب الجيش الإشبيلي. وبذلك بدا أن المعركة لم تحسم بعد، وأن الطرفين في تعادل.

كان «محمد بن الأحمر» ينتقل، وهو على فرسه، من مكان إلى آخر. كان في حالة عصبية، ويرغب في خوض غمار المعركة. كان جده قد لقنه أصول دوره الجديد، بوصفه أميرا، لكن «محمدا» لم يكن قادرا على التخلي عن فكرة أن مكانه الحقيقي،

هو في الأسفل، في الميدان مع رجاله، وليس على قمة رابية.

ـ سأتدخل.

ـ لا تكن فاقدَ الرشد أهوجَ. ـ قال له «أشقيلولة» ـ انظر إلى «الباجي»، هل رأيته يشارك في المعركة؟ مهمتك أن ترقب وتدير.

كانت عينا «محمد» محمرتين من الغضب... فجأة، همز الأمير، بهمة الأفذاذ، فرسه، وانطلق كالنسر عَدْواً في اتجاه الميدان.

ـ أنا لست مثله ـ صاح بينما كان يبتعد، يتبعه رجاله بشق الأنفس.

رفض «أشقيلولة» بهزة بطيئة من رأسه وهو يتنهد.

ـ بسبب هذا أنت الأمير. ـ اعترف أخيرا.

توجه «ابن الأحمر» إلى مؤخرة العدو، حيث كان القائد «الباجي» يسعى إلى تحويل اتجاه المعركة لصالح قواته. في ناحية بدا علمه الكبير ذو اللونين الأخضر والأبيض مرفرفا، ويُعلم بموقع القائد الإشبيلي. كان الرجل يصرخ في رجاله، ويقدم لهم التعليمات، في حين كانت مفرزة من الفرسان المدرعين تحرس على سلامته في استعداد للتدخل.

انحرف «محمد» عن موقع الصدام بين الكتلتين، وقصد موقعَ الباجي تسبقه حربته. في الحال شجع مشهد الأمير، وهو يتوجه إلى المعمعة، القوات النصرية، فحملت بشدة على الغريم، وما

هي إلا فترة، حتى بدأت الكفة تترجح لصالح «النصري» وأتباعه، في حين أخذ جند الباجي يفرون من الميدان. في اللحظة ذاتها هاجم الحرس الأميري الذي تقدم «ابن الأحمر» الحرس الإشبيلي، واحتدم القتال بين الطرفين بقيادة الأمير. في الحال اكتشف قائد «الباجي» أنه أصبح مطوقا، وأن رجاله يسقطون تحت ضربات النصريين، أو يتراجعون، ويفرون من المعركة. فتأكد من الهزيمة وأن لا حل سوى الاستسلام للأرجوني. أمر «ابن الأحمر» بنزع سلاح القائد القرطبي وتقييد يديه. على التو، قام كمال بتنفيذ الأمر، بينما كان أغلب الإشبيليين ينسحبون في فوضى. كان الشاب «كمال» قد التزم جانب «محمد بن الأحمر» منذ أن بدأ القتال، وتمكن من القضاء على فارسين خلال الصدام. كانت دماؤهما ما زالت مطبوعة على حلقات درعه.

- قمت بعمل جيد أيها الفتى. - خاطبه الأمير - أكيد أن والدك سيكون فخورا بك وهو بالجنة.

تعالى الضجيج من كل جانب، تأوهات الجرحى، وصرخات المغلوبين، وهتافات المنتصرين.

كان الأمير «محمد بن الأحمر» الأرجوني قد انتصر في أول معركة ميدانية يخوضها.

***

وصل الباجي إلى مكان الاجتماع بالنصري يحفه حارسان معزولي السلاح، تطبيقا للاتفاق الذي حصل بين الطرفين. كان «ابن الأحمر» يلبس درع القتال. تبادل الرجلان باعتزاز بالنفس النظرات دون

أن يترجل أحد منهما، أو يتظاهر بذلك.

- السلام عليكم، أمير أرجونة.

- أنا مصغ إليك. - أجاب «ابن الأحمر» في صرامة. كان ذلك الرجل يسعى إلى تقويض كل ما بناه الأرجوني بتضحياته، وبعرق جبينه.

- انتصرتَ عليَّ لكني ما زلت أتوفر على ما يكفي من قوة للاستمرار في الحرب. غير أن مواصلة القتال ليس في صالحنا جميعا، لأن هناك عدوا مشتركا يتربص بنا، يمكن أن ينتهز الفرصة فينا. - كان «الباجي» يتحدث بصوت قوي كما لو أنه يعلن على رؤوس الأشهاد عرضه - لنتحد، ولنُكَوِّنْ تحالفا ضد «ابن هود».

أعطى «محمد» لنفسه مهلة لحظات للتفكير في العرض. لم يكن ينتظر اقتراحا من هذا النوع. وسرعان ما مر في خاطره أن تهدئة حدوده الغربية يمكن أن تكون خطة حسنة، ليتسنى له المجال للتفرغ لخصمه الرئيس.

- ليعضد الواحد منا صاحبه في حالة قيام «ابن هود» بهجوم ضدنا. أما إذا نهضنا نحن ضده، فكل منا، نحن الاثنين، سيكتفي بما حققه - أجاب «محمد» أخيرا.

- فليكن الأمر كذلك. وهو ما يمثل أساس الاتفاق بيننا. - صادق «الباجي» على كلام «ابن الأحمر» وهو في حالة سرور. ثم أردف:

- إن اتفاقا مثل هذا ينبغي أن يختم بعلاقة مصاهرة. هل لديك بنات في سن الزوج؟

فكر «محمد» في «مؤمنة» و«شمس». كلتاهما كانتا في سن الزواج، غير أنه لم يكن مستعدا لتسليم أي من ابنتيه للأمير الإشبيلي.

ـ أجل لدي ابنتان في سن الزواج. وسأعرض عليك الزواج بإحداهما قريبا وليس الآن. ـ كان «محمد» يرغب فقط في توقيع الاتفاق. وعندما يحين الوقت، فإنه سيُدَبِّرُ للأمر، حتى لا يتم الزواج الموعود.

ـ جيد، إذن، حصل الاتفاق بيننا.

ـ أجل، حصل الاتفاق، لكن قبل أن تستعيد رجالك عليك أن تقدم مقابلا. ـ بدا الحليف الجديد لـ «ابن الأحمر» منذهلا كما لو أنه لم يكن ينتظر هذا الكلام. أمعن النظر في «محمد» برهة، قبل أن يرسم على محياه ابتسامة، غير أن «النصري» لم يلبث أن أكد كلامه قائلا: ـ لم أكن أنا من بادر إلى هذه المعركة، ومن ثم، فإن الأسرى الذين وقعوا بيدي شرعيون. فعليك أن تؤدي عنهم إذا أردت استعادتهم. ـ وبذلك ختم أمير «أرجونة»، صلباً متشدداً في الحرب، مثلما هو ماهر حذق في التعاقد والتفاوض.

***

مرسية Murcia. خريف 1233

ـ سيغادرون اليوم، سيدي. إن القشتاليين ينتظرون في الحدود منذ يومين. ـ أخبر الكاتبُ «ابن هود»، ثم سلمه تقريرا عن زمرة الفرسان الذين سيحملون الإتاوة الأخيرة من الأمير إلى «فرناندو الثالث».

قرأ «ابن هود» نص الوثيقة، ثم تمعن في الأرقام. احمر وجهه من الغضب وخاطب الكاتب:

ـ كم بقي لنا؟

ـ ليس الشيء الكثير. ينبغي أن نجبي المزيد من الضرائب.

ـ القصة ذاتها دائما، نرفع من قيمة الضرائب، إما لخوض غمار الحرب ضدهم، وإما لتهدئتهم. الظاهر أنهم هم الذين يحكموننا. ـ كان يتحدث والغضب يأكل قلبه ـ ماذا يتردد في المجلس؟

ـ متخوفون من تحالف «أرجونة» مع «إشبيلية». يرون أنه ينبغي علينا أن نتصرف.

ـ هذا صحيح ـ قال الأمير ـ سأستدعيهم هذا المساء. «إشبيلية» انهزمت، وهذا يعني أنها الأضعف الآن، فعلينا أن نبدأ بها ونهاجمها.

ـ أطرق الكاتب، في حين خرج ابن هود من القاعة. كان يشعر باضطراب وقلق، نتيجة الأخبار الأخيرة التي وصلته، والضغط الذي يمارسه عليه رجال دولته. اتجه إلى البستان، وهناك لقي «خيمينا»، الحسناء المسيحية التي أغرم بها. اجتاحته رغبة شديدة لممارسة الجنس أذهلت حواسه. «هناك رغبات أقوى من العهود»، تذكر ما قاله له «ابن الرميمي»، حاكم «ألمرية». في لحظة وجد نفسه غير معني بالوعد الذي كان قد وعد به زوجته، بل لم يعد يعنيه وفاؤه، ولا شرفه.

اقترب من الفتاة، ثم أمسك بها من ذراعيها، بصرامة جعلت الحسناء تطأطئ رأسها.

ـ أريدك في الداخل ـ أمرها، وهو يحرك قليلا هامته، في اتجاه الحمامات.

لم تقاوم الشابة، وأذعنت لرغبة الأمير، عملا بنصيحة والدها.

***

«برغش» Burgos. خريف 1233

ـ كيف حال الأمير؟ ـ سأل حامل راية الملك.

ـ جيدة، يا «لوپي». ولد سليما معافى، ويبكي بقوة. ـ أجاب «فرناندو الثالث» ـ إنه مع أمه بـ «طليطلة». في الواقع، هي التي تشغل بالي. لقد تعددت ولاداتها، وأرى بنيتها ضعيفة وصحتها وهنة. إن «بياتريث» عنيدة، تتظاهر بأنها في حال جيدة، لكني أعرف أن قواها تخونها. إن الرب يرسل إلينا الفَسيلاتِ دون انقطاع، وهو ما نعتبره بركة منه، غير أن ذلك بالنسبة لبنية «بياتريث» هو عقاب أكثر منه هبة ربانية.

وافق «لوپي دياث دي آرو» بإيماءة منه على كلام الملك. وكان «فرنادو الثالث» يعُدُّ هذا الرجل أحد أهم الأعمدة التي استند إليها طوال حكمه. كان الرجلان يسيران راكبين فرسيهما في اتجاه دير «لاس ويلگاس»، ويسير خلفهما حرس من عشرة فرسان. كانا في الطريق إلى زيارة قبر «ألفونسو الثامن»، الملك الظافر في معركة العقاب.

ـ و«ألفونسو»، كيف حاله؟ لم أره منذ سنوات. لا بد وأن يكون قد بلغ مبلغ الرجال.

ـ فعلا هو كذلك. بالرغم من أنه في الثانية عشرة من عمره، إلا أنه متمكن من عدد من العلوم، ونما جسمه مثلما تنمو أجسام المقاتلين. قريبا سنجبر على البحث له عن زوجة.

كان الملك في حالة نفسية جيدة. ابتسامته الدائمة وخطت حول محيط عينيه بداية تجاعيد. ومع أن الرجل كان في حدود الثلاثين من عمره، إلا أن مظهره كان مظهر رجل متقدم في السن.

ـ «فرناندو»، يا ملكي، إن جدك يرتاح هناك. ـ كان الركب يقترب من دير «لاس ويلگاس» ـ وسيكون المكان أيضا مرقدُك الأخير.

ـ لا أظن يا «لوپي» مرقدي الأخير سيكون في الجنوب، في أراضي نغنمها من «الموروس».

***

«قلعة رباح الجديدة». **Calatrava la Nueva**. خريف 1233

ـ أما زلت تصلي من أجلي؟ ـ سأل الفارس.

ـ دائما، ليحميك الرب، ويغفر لك ذنوبك.

ـ هناك آخر ينبغي أن تصلي لأجله، يا أخي. إن موتى «الموروس» هم موتى أصلا، ولم يعد أمرهم يؤرقني كثيرا. فاهدأ. ـ خاطب «مرتين» أخاه «رُويْ»، وهو يضع إحدى ذراعيه على صليب من حجر يعلم على قبر أحد الفرسان الرباحيين.

ـ كم من الوقت ستمكث معنا؟

ـ قليلا. سيرسلونني من جديد إلى الحدود. فقد استرجعت ثقة «المايسطري»، ويريد أن يعيدني

إلى «أندوجر» لتقوية الحامية.

ـ و«أُبَّدَة»، كيف تسير الأمور بها؟

ـ يعاد تعميرها من جديد، ورجال الملك يصلحون ما لحق أسوارها من تخريب. إنها قاعدة مهمة، وسنحتاجها للضغط على «جَيَّان»؟

ـ يحكمنا ملك صالح يا «مرتين»، ومن أجل ذلك يحميه الرب وينصرُه. ـ نظر «رُوْي» إلى أخيه في حنان ـ يسعدني أن أراك، غير أنه يجب علي الآن أن أنصرف. ينتظرونني في الدَّيْر.

دار «مرتين» حول القلعة وتوقف قبالة «شَلْبَطَرَّة»، تلك القاعدة التي تقاتل من أجل الاستيلاء عليها النصارى والمسلمون طويلا حتى وقعت في الأخير بيد المسيحيين. من بعيد جهة الجنوب تأمل الفارس الممر بين السلاسل الجبلية، وكيف أن قشتالة تمتد إلى غاية جهة «جيان» بفضل شجاعة وتضحيات فرسان «قلعة رباح».

«لن نتوقف حتى نسترد جميع الأراضي التي كانت ملكا لملوكنا القدماء» فكر الفارس الرباحي وهو في حالة انفعال.

***

**«قرطبة» Córdoba. شتاء 1234**

كانت القاعة الكبرى في القصر تحافظ على دفئها بفضل المِجْمَرَات التي وزعت على زوايا المكان. كان الرجال يتناولون طعامهم مستلقين على جُنُوبِهم، متكئين على الوسائد والمخدات، أو جالسين على مقاعد من خشب. كانت عشرة

من الجواري يخدمن الجميع، في حين تكلف موسيقيان بالعزف، وتنشيط السهرة. كانت الحفلة من تنظيم أسرة «عبد المولى» [الشهيرة بقرطبة].

جلس الأمير بجنب «أشقيلولة». بينما تحلق «إسماعيل» و«إبراهيم» و«عبد الله» حول طاولة قصيرة، بحضور أعيان قرطبة، بمن فيهم القواد المعزولون.

ـ انظر إليهم إنهم يتآمرون ضدك ـ همس «أشقيلولة» في أذن «ابن الأحمر».

ـ أعرف، وقد أسندت إليهم مناصب أخرى، غير أنهم لم يقنعوا بذلك. يحسون بأنهم قد جردوا من درجاتهم القديمة. وهذا أمر يقلقني لأن تأثيرهم كبير في البلد.

ـ إذن اقضِ عليهم في أقرب وقت ممكن. ـ أجاب «أشقيلولة» على الفور ـ إن النبات السيئ ينبغي استئصاله من الجذور.

ـ ذلك سيزيد من أعدائي. لا أقدر على فعل شيء آخر سوى مراقبتهم، وآمل في بقائهم أوفياء.

ـ أنت هو الأمير، والقرار هو قرارك. غير أنه إذا احترمتهم ربما يأتي يوم تندم على ذلك. ـ حرك «النصري» رأسه علامة على امتنانه لنصيحة جده ـ هل تذكر يا «محمد» ـ استطرد النبلي ـ تعهدك بخصوص أسرتي؟

ـ عينتك القائد الأعلى لقوات الإمارة، وولداك أصبحا قائدين، مثل شقيقي. لقد أصبحتم، اليوم،

يا «آل أشقيلولة» من ذوي السلطة والقوة.

ـ لكنكَ أنتَ الأمير، ولك أسرتك التي ستنتفع من هذا الوضع على الدوام.

فهم «محمد» مقصود جده. كان «النبلي» يقترح على الأمير أن يدمج خاليه «إبراهيم» و«عبد اللّٰه» في الأسرة الحاكمة. وهذا شيء لن يحصل سوى بطريق واحد.

ـ «مؤمنة» و«شمس» تكبران، غير أن الوقت لم يحن بعد. أعطني مهلةً بضع سنوات.

ـ لدي كلمتك بأن نزوج ابنتيك لوَلَدَيَّ؟

فكر «ابن الأحمر» في ابنتيه، كانتا الإرث الذي خلفته له «فرح». وفي يوم ما يجب عليه أن يزوجهما، وتزويجُهما قريبيه اختيار موفق.

ـ أمنحك وعدي. سيحصل ذلك خلال سنوات.

استمر الحفل. وسقت الجواري أثناءه الحاضرين مزيدا من الخمرة. بعد تناول العُقبة قدَّمَ مبعوثان إشبيليان الهدايا التي أرسلها «الباجي». في وسط القاعة وضع صندوق جميل دقت عليه براشيم مذهبة، لم يلبث أن فتحه أحد الخدم، وأخرج منه سيفا في غاية أناقة الصنع، يُحمل عادة في المناسبات، إضافة إلى خُوذَة من الفضة. وقد تكلف «كمال بن هادي»، الذي عُيِّنَ قائدا على الحرس الأميري بعد معركة «شنيل»، بحمل الهديتين وعرضهما أمام «محمد».

ـ أتحمل مسؤولية السلطة، لكني لست متعودا على مواضعات التشريفات. ـ اعترف «ابن الأحمر»

لـ «أشقيلولة» بعد انصراف السفراء. ـ أنا رجل بسيط.

ـ وأيضا أمير عظيم متشح بفضيلة التواضع. ـ أضاف «النبلي». ـ اقبل الهدية، لأنها بعض من منصبك الأميري.

وافق «محمد» على كلام جده، ثم طلب كأسا من الشراب، وقد قرر أن يتمتع بالسهرة.

***

غادر «محمد» القاعة الكبرى، وهي ما زالت تعج باللهو والعربدة واتجه إلى الرياض. على الإثر تبعه «كمال بن هادي» ليسهر على سلامته. كان الجو رائقا بالرغم من غياب القمر. والنجوم متلألئة في السماء الخالية من السحب، كان لمعانها في الأعالي يحدث في الأمير إحساسا غريبا بالدوار. اقترب من ناحية ووقف أمام سياج من الريحان مشذب بعناية وتنبعث منه رائحة طيبة..

ـ شربت أكثر من اللازم. ـ قال لـ «كمال» بصوت مرتفع حتى يسمعه.

لم يكن «محمد» من المدمنين على شرب الخمر، غير أنه لم يكن يحرم نفسه من تناول بعض الكؤوس في مناسبات مثل هذه. خاصة وأن المَعاصرَ القرطبية عادت إلى العمل، وإنتاج خمور ذات جودة سرعان ما يصعد تأثيرها إلى رأس شاربها.

توجه «محمد» إلى مقصورته بخطوات سريعة. كان الباب مغلقا، غير أن «عائشة» ما إن سمعت صدى خطواته حتى فتحت الباب. أحسّت المرأةُ

بالخجل، وهي ترى «كمال» بجنب زوجها. في الحين أزاح الفتى بصره، وانتظر حتى يدلف «محمد» إلى الغرفة، ليتكفل بالحراسة أمام الباب.

كانت المقصورة مضاءة بثلاث ثريات زيتية. على السرير مدت فساتين من الثياب الفاخر قماشا وشغلا.

ـ حملوها إلي من «إشبيلية». ـ قالت المرأة في ابتهاج.

«يبدو أن الإشبيلي يشعر بالضعف»، فكر «محمد».

ـ أنت تستحقينها. ـ أجابها الزوج.

ـ هذا حلم يا «محمد»! ـ قالت عائشة وهي تبسط ذراعيها. ـ نعيش في قصر، ويمطروننا باهتمامهم.

تطلع «محمد» إلى زوجته، وشعر بالرغبة في احتضانها. كانت تلبس غِلالة شفافة تسمح برؤية مفاتنها الدقيقة وصدرها الجميل، اقترب منها من الوراء، وعانقها، وهو يحل لباسها حتى يلمس جسمها الغض ويلاطفه. حاول أن يحتضنها من خلف، لكنها استدارت في أناقة ولطف.

ـ أنا زوجتك، ولست من نساء الفنادق.

زادت تلك الكلمات من رغبة «ابن الأحمر»، أزال ثيابها بالتمام، ثم وضعها على السرير، على الفساتين الرقيقة. خلع هو أيضا ثيابه ثم علاها. مارسا الحب خلال مدة طويلة... قبل أن يستغرق «محمد» في نوم عميق. تمتعت المرأة بعلاقتها

الحميمية مع زوجها لكنها لم تصل إلى نشوتها. والواقع، لم تكن المرأة تعرف إن شعرت يوما ما بالرعشة الكبرى. كان «محمد» عشيقا عنيفا ومجربا، غير أنه قليلا ما يهتم بما هي في حاجة إليه. في الجهة الأخرى من الباب، لم يكن «كمال» ليكبح ما اعتوره من رغبة، وهو يسمع تأوهات المرأة. في خفاء وضع يده تحت جلبابه، وقضى وطره واقفا أمام باب سيده. كان وهو يمارس العادة السرية، يحلم بصورة عائشة، وهي تدعوه إلى ممارسة الحب.

ـ «محمد»! ـ دخل «إسماعيل» في تسرع إلى الحمام، بينما كان أخوه يغتسل في حوض الماء الساخن. ـ إن الشعب يعلن التمرد، وخرج إلى الشارع.

طلب «محمد» توضيحات، وهو يخرج من الماء، في الحين قصد إلى الصحن بخطى سريعة يريد معرفة التفاصيل.

ـ تزعّم الثورةَ القواد القرطبيون، وقد احتشدت الجموع أمام باب القصر ذاته، كما أنهم سيطروا على فناء المسجد الجامع، ونادوا بـ «ابن هود» أميرا عليهم.

كان أعضاء المجلس ينتظرون الثوار بقاعة المشور مصاحبين بعدد من أفراد «بني عبد المولى».

ـ ماذا يريدون؟ ـ كان أول ما سأل عنه الأمير.

ـ يريدون رحيلك ـ أجاب «عبد اللّه» ـ فقد عادوا إلى طاعة «ابن هود».

ـ لماذا؟ ـ كان «محمد» ذاهلا.

ـ قالوا إنك صارم معهم، وأنك لا تعاملهم معاملتك لأهل «جيان». ـ أجاب أحد الرجال من أسرة «بني عبد المولى» ـ لكن كل ذلك كذب. ونحن نعرف مَن وراء هذا الفعل. إن القواد زرعوا بين الناس النزاع والتفرقة. فاسحقهم يا مولانا، فإنك تملك القوة الكافية لإخضاعهم، وتخليص الناس من شرهم.

ـ كنت قد نبهتك إلى ذلك ـ عقب «أشقيلولة» بنبرة اعتداد بالنفس. ـ إن العشب السيئ...

لاذ الأمير بالصمت وهو في حالة غضب.

ـ سنرحل ـ قال أخيرا.

ـ رجاء، أعد النظر في هذا القرار. إنك تملك جيشا قادرا على إعادة الأمور إلى نصابها. ـ نصح فرد آخر من أسرة «عبد المولى» كان ضد فكرة التخلي عن قرطبة.

ـ بإمكاني القضاء على التمرد، لكن، ما المصلحة في شعب لا يَكِنُّ لأميره الوفاء والإخلاص؟ سيعودون من جديد لتمردهم، وبذلك سنُضيعُ قوانا في الداخل، ونحن لنا أعداء في الخارج.

تقبل القوم قرار الأمير، وبدأت في الحين الاستعدادات للرحيل، حتى إذا جاء العصر، كان كل شيء منظما للشروع في الرحيل، والجميع متأهبون، بما في ذلك أقرباء الأمير والمخلصون له، للمغادرة، بينما أصوات المتمردين لا تزال تسمع، وهم يهتفون ضد الأمير.

خرج جند «ابن الأحمر» إلى الشارع، وتحلقوا على شكل قوس لتأمين خروج الأشخاص والأمتعة. كان «محمد» راكبا فرسه، تتبعه أسرته. في حين لم يتوقف صراخ المتمردين، بل زاد حدة، وهو ما أقلق الجند الأميري.

«عد إلى عنزاتك!»، «غادر في الحال قبل أن نقتلك!». ضج الشارع بمثل هذه الشتائم والإهانات. والأمير صابر وحزين على مغادرته قرطبة. فقد كانت المدينة حلما جميلا، لكنه حلم قصير سريع الزوال. نظر إلى جدران المسجد الجامع وشعر بقلبه يتفطَّرُ وهو يبتعد عنه. وما لبث الركب أن جاوز «باب الجسر»، وشرع في عبور القنطرة القديمة المبنية من الحجر، التي تربط ضفتي «الوادي الكبير». كان الصراخ المعادي، والهتافات البذيئة تصاحب الموكب في كل وقت. وهو ما آلم الأمير، غير أن ألم «عائشة»، زوجتِه، كان شديداً، لحد أنها لم تتوقف عن البكاء بمرارة.

«هذا حال السلطة، تأتي وتروح. اليوم أنت في الأعالي، وغدا... يعلم الله وحده أين تكون غدا»، هذه الأفكار كان آخر ما جال بخاطر «ابن الأحمر» وهو يرحل عن قرطبة، كأنه مصاب بالطاعون.

***

طريق إشبيلية. شتاء 1234

كانوا يتقدمون عبر الشمال. لأن «ابن الأحمر» كان يعول على المفاجأة، أن يأخذ «ابن هود» على حين غرة، حتى تكون الطعنة محكمةً. كانت القوات «المرسية» تتحرك عبر مناطق الجنوب في

بحث دؤوب عن السبيل السريع والآمن في اتجاه «إشبيلية».

بدا أخيرا أن أمير «مرسية» قد عزم على التصرف ضد الأميرين المتحالفين. فهاجم أولا «الباجي»، معتبرا إياه أضعفَ الاثنين. كان قد جهز جيشا ضخما ضد المتمردين، في سعي منه إلى تقديم الدرس لهما. كان «ابن هود» يعتقد أن «إشبيلية» و«قرمونة» محصنتين قويتين، غير أنهما لا يمثلان سوى مدينتين. ومن ثمة، عزم على مشروع أكبر. إذ ارتأى، حسب خطته، أنه حينما تعود «إشبيلية» إلى حظيرة حكمه بعد الظفر بالإشبيلي [الباجي] سيصبح الأمر هينا لتقديم درس آخر لصاحب «أرجونة»، الذي عاد إلى «جيان» لتوه بعد أن طرد من قرطبة. لكن «ابن هود» لم يفطن إلى أن تحرُّكه سيلفِتُ انتباه «ابن الأحمر»، وأن الزعيم الأرجوني سيُسارِعُ إلى نجدة «الباجي».

كان أمير «أرجونة» واعيا المصير الذي ينتظره إن هزمَ ابنُ هود حليفَه. ومن ثمة قَلَّبَ أمرَ خطته من جميع الوجوه. كان «ابن الأحمر» يعرف جيدا أن قواته ليست بالقوة التي تمكنها من مواجهة جيش «ابن هود»، ومن هنا ارتأى - أي الزعيم الأرجوني - أن مفتاح توفيقه في خطته، هو في الجمع بين قواته وقوات إشبيلية. وأن الوسيلة الأساس لإنجاح مخططه هي اللجوء إلى التجسس والبريد.

- ها قد حانت لحظة رؤية الوجوه - قال «ابن الأحمر» لأخيه «إسماعيل». كان الأخوان يركبان فرسيهما جنبا لجنب، دون لبس الدروع، غير أنهما

كانا مسلحين بسيفيهما المعلقين بحزاميهما القِرمزيين. كان الأمير تواقا إلى الانتقام لنفسه من هجوم «قنجيار»، وفقدانه الحديث لـ «قرطبة».

وبينما الأخوان يسيران وإذا بفارس يصل مسرعا. كان الرجل قد التقى بمبعوث من عند «الباجي»، وحصل الاتفاق على أن يقع اجتماع في الصباح الموالي في نقطة معينة، ليقيم الحليفان المعسكر في المكان ذاته.

عند فجر اليوم الموالي تحركت الآلة العسكرية لـ «الباجي»، غير أنه لم يتمكن من مفاجأة جيش «ابن هود» لأن الفرسان المرسيين كانوا يتعقبون تحركات الإشبيلي. وبذلك عندما بدأت المعركة وجد الإشبيليون أنفسهم مضطرين إلى تحمل الهجوم المرسي بمفردهم، وعلى حساب عدد كبير من الأرواح، ومع ذلك تمكنوا من المقاومة الزمن الكافي إلى أن وصلت الإمدادات النصرية.

فجأة، وعلى مرتفع من الأرض، من جهة الجناح الأيمن لجيش «ابن هود»، برزت طلائع المقاتلين النصريين، بينهم الأمير نفسه و«أشقيلولة» وذلك لاختبار الموقع، واتخاذ القرارات المناسبة وفقا لمعطيات الميدان.

ـ لنضايقهم من أعلى ـ قال «النبلي»، وهو يشير إلى الصفوف الأولى.

ـ وإذا ابتلعوا الطُّعم، سنحمل عليهم من مكاننا هذا. ـ أكمل «محمد».

ـ وإذا امتنعوا عن عض الصنارة، فسنرميهم بالسهام، حتى نجهز عليهم.

حينها تقدم إلى الميدان القواسون وحاملو الحراب النصريون. على التو سقط أوائل المرسيين.

ـ إنه الدم الأندلسي، مثل الدم الذي أريق بـ «وادي شِنيل». ـ اقشعر بدن «محمد بن الأحمر» حينما استحضر هذا الاقتتال بين المسلمين.

ـ لا تنس أن من هؤلاء الثلاثة، يجب أن يبقى واحد. لا حرب ولا تحالف. زعيم واحد ـ أجاب «أشقيلولة» حفيده بشكل قاطع.

لم تمر سوى لحظات حتى شرع المرسيون في تسلق العقبة المؤدية إلى المرتفع، بغية سحق المضايقين. كانوا قد خسروا عددا من الرجال، وبدا أن ردة الفعل من جانبهم ضرورية، وفي أسرع وقت، وإلا فإن الكفة ستترجح لصالح الجهة الأخرى. على التو، أعطيت الإشارة إلى نصريي المرتفع بالهجوم. تقدم الفرسان المدرعون نحو صفوف المهاجمين، وسرعان ما شقوا ثُلْماتٍ في جبهة الهوديين. فسقط منهم العشرات. وفي لحظات معدودات أبان المشاة الجيانيون عن علو كعبهم في ساحة الوغى، وعن مهاراتهم القتالية، وإذا بالكفة تميل بشكل لا يمكن تجنبه لصالح فريق الحليفين.

شاعت الفوضى في الجيش الغازي، وغدا الموت يدعو إلى الموت، والقتلى من الجانبين يتكدسون فوق بعضهم. وما هي سوى فترة حتى بدأ الهروب الكبير، وأطلق رجال «ابن هود» سيقانهم للريح، يسعون إلى النجاة. لحظتها شعر «محمد» بقلبه يخفق بشدة. غير أنه في هذه المرة اتبع نصيحة «أشقيلولة»، والتزم مكانه، يتأمل كيف أن

خطة جده أتت أكلها، وحققت نصرا جديدا لرجاله.

***

**«مرسية» Murcia. ربيع 1234**

حل الليل، وشرع الحراس في إشعال المشاعل لإضاءة أهم المداخل. بغتة، برز «ابن هود» في البستان، وهو يسير بخطوات طويلة وعلامات الغضب، والخيبة بادية على محياه. في الحال، سعى ابنه الأكبر الواثق بالله إلى الاقتراب منه، ليخفف عنه بعض الشجن، غير أن الشاب قبل أن ينبس بكلمة صرفه الأمير بإشارة من يده...

كان «ابن هود» قد أتى من إقامته الخاصة، حيث حاول أن يقضي بعض وقته في حضن زوجته، غير أنه لم يتمكن من مضاجعتها. حاولت المرأة أن تهدئ من روعه، بملاطفته ومداعبته بلباقة، غير أن الرجل ما لبث أن غمرته سورة غضب، ورفض زوجته بدون أن يبدي أي سبب ظاهر.

كان قد توصل في صباح اليوم ذاته ببريد من الحدود الغربية، حيث أعلمه أحد الحكام بتمرد «ابن محفوظ» الذي أعلن استقلاله بـ «لَبْلَة» **Niebla**. فزاد هذا الخبر من عذاب الأمير، الذي أثقلت كاهله المسؤوليات والأخبار السيئة، حتى بلغ به الاختناق مداه.

عبر «ابن هود» غابة صغيرة من أشجار اللوز، ثم ولج منطقة الخدمة حيث استقبلته امرأة مسنة تفوح منها رائحة الثوم والبصل.

- أين الفتاة؟ - سألها الأمير.

ـ أنهت إعداد غرفة زوجتك ـ أجابت المسنة. ستعود بعد قليل.

ـ أريدها أن تأتيني في جناح الورود. ـ أمر دون أن يضيف شيئا. حركت المرأة رأسها بالإيجاب.

كانت القاعة الكبرى، الكائنة قريبا من إحدى البرك والمحاطة بالنباتات والورود العطرة، قد بنيت للتمتع بليالي الصيف. دخلت «خيمينا» بخطوات مضطربة، وغير واثقة من نفسها، في حين ظل الأمير، الذي كان يرتعش إلى تلك اللحظة من شدة قلقه، وانشغال باله، يحدق في الفتاة بإمعان. على الإثر أحس بالدم يسري في عروقه، وبرغبة تكتسح ذاته من فرط الإثارة، فلم يمهل المسكينة، وانقض عليها دون تحفظ أو احترام، وضاجعها على التو.

ـ أنت تجعلينني أستيقظ، وتعيدين لي الحياة. ـ قال الرجل وهو يلهث حينما أنهى وطره من الفتاة.

تخلصت «خيمينا» من ابن هود، ونهضت واقفة. أحست في الحال برغبة كبيرة في التقيؤ، لكنها تمكنت من ضبط نفسها. كان والدها قد علمها ما ينبغي فعله حتى تصبح عشيقة جيدة للأمير. بعد دقائق، دعاها من جديد لتجلس بجانبه. أبان لها هذه المرة بعض الاهتمام، وهمس في أذنها كلمات حلوة.

ـ لولا أني أقسمت لزوجتي ألا أتزوج عليها، أكيد كنت سَتَغْدِينَ زوجتي الثانية.

ابتسمت الفتاة، لكنها حَمِدتْ ربها في السر.

ـ كم سنك؟

ـ عشرون سنة تقريبا ـ أجابت «خمينا»

ـ غزالة في سن الشباب. ما زال أمامك الكثير لتتعلمي ولتعيشي.

استلقى «ان هود» على قفاه، واستغرق في نوم عميق. هذبت الفتاة من هندامها، وغادرت الجناح إلى بيت والدها.

***

**جيَّان Jaén. ربيع 1234**

ـ كل هذه الأحداث تجري أمامي دون أن أتمكن من القيام بردود أفعال، سوى أن أستسلم لمجرياتها. ـ تنهد «ابن الأحمر». كان جرح «قرطبة» لم يندمل بعد، وإحساسه بأنه سجين قدره ينغس عليه حياته. ـ لا أتحكم في سير الأحداث ـ أضاف وهو يجول ببصره في زوايا الفناء.

ـ إذا أردت ألا تستسلم للأحداث، فخذ العنان، وتصرف مرة واحدة. «بُركونة»، و«أرخونية»، و«قنجاير»، و«وادي آش»، و«جُهنس»... كل هذه البلدات انضمت إليك وأيضا «جيان»، وبعدها قرطبة التي سرعان ما رمت بك عُرض الحائط، وطردتك. أما أنت فلم تستول بنفسك على أي «بلدة» أو «مدينة»، كل إمارتك إما أعطيت إليك، أو أنتزعت منك. ـ كان الأمير يصغي لكلام «أشقيلولة» في اهتمام ـ ومع ذلك انتصرت في معركتين مهمتين، وتتوفر على مهارة كبيرة في الحرب، وجسمك قوي متين، إذن فَعِّل مواهبك

وخِصَالك: سيطر على القلاع، واهجم واقتحم، واستول على الأندلس، واقض على خصومك. لقد حان زمانك.

- «ابن هود» ما زال قويا. يمكنه أن يهزمنا إذا حشد قواته.

- لا أتحدث عنه، وإنما أعني «الباجي»، افعل به ما أراد هو أن يفعل بك. اهزمه، ثم استخدم المدن التابعة له ضد المرسي.

- «أشقيلولة»، نحن حلفاء.

- هل حقا تثق في الرجل؟ كان يريد أن ينتزع منك كل شيء، ولم يسع إلى التحالف معك إلا عندما هزمته. وعساه يحمل عليك في أي وقت. فاسبق به قبل أن يسبق بك!

- غير أني إذا قصدته فإني سأترك الباقي بدون حماية.

صمت «أشقيلولة» برهة، ليزن كلماته، ثم استطرد قائلا:

- حقا يجب عليك أن تحمي مؤخرتك. إذن بايع «المرسي» - أطلق العبارة الأخيرة تاركا «محمد» في ذهول.

- تريديني أن ألتزم بمبايعة «ابن هود»؟ هل جننت؟ - وقف «ابن الأحمر» وقد جحظت عيناه.

وقف «أشقيلولة» أيضا، فأخاف وقوفه حمامة كانت ترتوي من بركة مجاورة، فطارت لا تلوي على شيء.

- السياسة يا «محمد»، إنها ضرورية مثل السيف.

النظرة البعيدة، والمهارة، بل حتى التآمر، كلها تعد أسلحة قيمة في يد كل أمير. ما زلت ضعيفا، وفي حاجة إليها.

راح «النصري» يقلب في فكره كلام جده، فشرع قلبه يخفق. حتى يومه ذاك، كان يحس بنفسه كأنه سفينة بدون دولاب قيادة تحت رحمة الرياح والأمواج. أما الآن، فيمكنه اختيار الاتجاه، والتصرف، وأكثر من ذلك، أن هذه الإمكانية بعثت فيه من جديد تلك الروح القديمة التي كانت تسكنه قديما، ودفعت به إلى أن يصبح ثغريا، وأن يتزعم قومه.

- الخضوع لـ «ابن هود» لمهاجمة «الباجي»... - ما زالت الفكرة تدور بخلده - انتصرت على «الباجي» في معركة ميدانية. السيطرة على «إشبيلية» شيء آخر. ليس في الأندلس جميعها قوة تستطيع إخضاعها.

- استعمل ذكاءك حيث لا تصل قوة ذراعك. كنت قد وعدته بتزويج إحدى ابنتيك، لكننا نعرف نحن الاثنين أن ذلك لن يقع، وأنك لن تُسَلِّم ابنتك له. استعمل ابنتك، إذن، لولوج القصر، حتى إذا تمكنت من ذلك، فما عليك في الداخل سوى أن تقطع رأسا واحدا. - نظر إلى حفيده، وابتسامة مكر مرسومة علي شفتيه. - أعرف أنك ترى في هذا السلوك خزيا... - صادق «محمد» على كلام النبلي بهزة من رأسه - في حين أنه بعيد عن أن يكون كذلك... لا تتردد، وتصرف... لن تزيد عن أنك ستسبقه لما ينوي هو أن يفعله بك. أن تحكم معناه أن تتخذ القرار في الوقت المناسب. لقد

حان الوقت لتحكم إمارتك بيد صارمة.

عدد كبير من الأمراء فشلوا بصفتهم زعماء، و«النصري» لم يكن مستعدا لأن يكون أحد هؤلاء الفاشلين.

ـ مَنْ مِن ابنتيك سنأخذها معنا إلى إشبيلية؟ ـ ضغط عليه «النِّبلي».

ـ «شمس»، لأنها ناضجة أكثر من أختها. ـ أجاب «محمد» أخيرا.

ابتسم «أشقيلولة» ابتسامة عريضة، فقد تمكن أخيرا من إقناع الأمير.

ـ وأيضا أكثر تمردا.

خلال ذلك سمعت بعض الأصوات عبر الجدران. كان أطفال «محمد» يلعبون في الصحن الداخلي بعد أن انتقلت جميع أسرة «محمد» إلى «جيان»، باستثناء «يوسف».

ـ سنستأنف الكلام في وقت آخر. ـ قال «أشقيلولة» ـ فكر في كل ما قلته لك. هي ساعة اتخاذ القرارات ـ صادق «محمد» على قوله ـ الآن سأذهب لزيارة أحفاد أحفادي. هؤلاء الصِّفاق يُهْدُونَ إلي الحياة كلما كنت معهم.

ابتعد الشيخ المسن وهو يظلع بإحدى ساقيه، ويتكئ على عصاه الذي لا يفارقه. في حين بقي الأمير وحيدا قريبا من البركة، يتأمل الماء الفوار، ويفكر في الخطوات التي سيتبعها، إذا قرر أخيرا أن يعمل بنصائح جده.

***

«طليطلة» Toledo. ربيع 1234

جلست برينجيلا و«ألفونسو دي مولينا» شقيق الملك بجانب «فرناندو الثالث». كان الليل قد شرع في نشر جناحه المعتم على المكان» وتوجه بعض الخدم لإشعال ثلاثة من المشاعل الزيتية.

- ليس عرض ملك «نابارا» بالسيء - ارتأى «ألفونسو».

بعد وفاة «سانشو السابع» دون أبناء ورثة، نودي بـ «تيوبالدو» [وهو ابن أخت سانشو] ملكا على مملكة «نابارا» في أوائل شهر ماي. واللافت أن «سانشو» لم تكن تجمعه علاقة طيبة بوارثه الوحيد [بل كان يبغضه]. وهو ما دعا «سانشو السابع» في وقت سابق، إلى إعلان نوع من التبني لـ «خايمي الأول» ملك «أراغون» ليحول دون وصول [الكونت] «تيوبالدو» إلى سُدَّةِ الحكم بعد وفاته [غير أنه حينما حدثت الوفاة لم يعمل «ملك أراغون» باتفاق التبني هذا، إذ كان مشغولا بافتتاح مملكة «بلنسية» الأندلسية، ويخشى أن يوقعه طموحه إلى عرش «نابارا» في مشاكل هو في غنى عنها] ومع ذلك، فإن نبلاء «نابارا» وحتى يسدوا الطريق على «خايمي»، عاهل «أراغون» أعلنوا الكونت المذكور ملكا على بلدهم. مقابل ذلك سعى «تيوبالدو» إلى حماية نفسه، بأن أعاد العلاقات مع «قشتالة»، وعرض عليها أن يتزوج الوريثان، ابنته «بلانكا» أميرة نابارا، بـ «ألفونسو» الأمير القشتالي، وولي العهد.

- يمكن أن يتم ذلك - أجابت «برنكيلا» - لكن ذلك رهين بالشروط، ينبغي أن تناقش جميع التفاصيل.

لـ «تيوبالدو»، الآن، ابنة، غير أنه إذا تم الزواج بين هذه الابنة، والأمير «ألفونسو»، ثم ازداد، بعد الزواج، لملك «نابارا» « تيوبالدو» ابنٌ ذكر، من يضمن عدمَ تراجُعِه عن وعوده تجاه «قشتالة»؟

ـ كلامك صحيح، أماه. ـ كان «فرناندو» يتحدث في هدوء، ويدرس جميع الاختيارات المتاحة. ـ ينبغي أن نؤمن «نابارا» للابن الذي قد تنجبه «بلانكا» من «ألفونسو».

ـ يمكننا أن نرسل إليه سفارة لنشكره، ثم لنعترف به ملكا على «نابارا» ـ أضاف «ألفونسو دي مولينا» ـ أرسل إليه هدايا، يا أخي، إن ذلك يسعد أيا كان. واقترح عليه أن تلتقيا لمناقشة تفاصيل الزفاف.

وافقت «برينجيلا» على الفكرة، وسرت بالعرض قائلة:

ـ هدايا وامتنان، لكن مفاوضات وشروط. يظهر لي أن الأمر رائع.

كان القرار قد اتخذ.

ـ أفتخر بك يا ابني ـ قالت «برنگيلا» للملك بعد أن بقيا وحيدين. ـ كل المعاناة السابقة، وما تم القيام به في الماضي، هو مبرر بوجودك يا «فرناندو». ـ قالت الملكة، إلا أن ضميرها مع ذلك لم يكن مرتاحا كل الارتياح. أمسكت بالسبحة التي كانت تصلي بها «سفر المزامير» ثم تابعت: ـ وصلتني أخبار، يا ابني، عن ذاك المسمى بـ «ابن الأحمر». يظهر أنه داهية مراوغ. لا ينبغي أن تتهاون في رصده، ورصد الجنوب، يجب أن تلقنه

درسا.

اقترب «فرناندو» من أحد المصابيح وأطفأه بنفخة من فمه.

- سنفعل ذلك قريبا، متى ننتهي من مشكل «نابارا».

***

**«غرناطة» Granada. صيف 1234**

كان ابن هود يترأس صلاة الجماعة بالمسجد الجامع، حيث تكدس المصلون صفوفا الواحد بجنب الآخر. كان الغرناطيون ينظرون بإعجاب مخلوط بريبة إلى «ابن هود»، بعد أن وصلتهم الأخبار تتحدث عن التصرف السيء الذي صدر عن «ابن هود» تجاه الحاكم السابق للمنطقة. إذ بالرغم من أن الرجل كان موحديا إلا أنه كان محبوبا من الغرناطيين، ويحظى باحترامهم.

كان الناس قد أنهوا صلاتهم، بعد أن خطب الخطيب فيهم بالدعوة لخليفة «بغداد»، حينما قام أحد السفراء العباسيين، وكان يصلي خلف «ابن هود»، [وهو أبو علي حسن بن علي الكردي الملقب بالكمال] ليقرأ على الناس نص المرسوم الخلافي [الذي أرسله الخليفة العباسي المستنصر بالله لابن هود] يقره فيه أميرا شرعيا على الأندلس [تابعا للخلافة العباسية].

كان «ابن هود» يرتدي بالمناسبة لباسا أميريا فاخرا، موشى بخيوط الفضة والذهب، بعث به الخليفة إليه من «بغداد». وكان الأمير الأندلسي قد قصد غرناطة ليستقبل السفارة البغدادية،

بصحبة رجال دولته المقربين، وممثل إمارة «أرجونة» «كمال بن هادي». وكان «ابن الأحمر» قد انتهز الفرصة ليبعث إليه برسالة خضوع لسلطته عبر ممثله المذكور الذي قبل المهمة في فخر. وكان «محمد» يهتم بأمور الشاب، ويعتني به كما وعد والدَه وهو يحتضر بين يديه، بل إن بِرَّ الأمير بـ «كمال» زاد بعد أن فقد والدته أيضا قبل شهور. وقد قابل الشاب إحسان «النصري» إليه بمزيد من بذل الجهد من أجل الترقي في حياته العسكرية.

بدا أمير «مرسية» مبتهجا غاية الابتهاج. فقد وصلته سفارة خليفة «بغداد» تقره أميرا على الأندلس، وبعث إليه أحد خصومه برسالة خضوع وطاعة. وهو ما منحه هدوء البال الكافي للتفرد بمتمرد «لَبْلَة» الذي كان حديث العهد بإعلان العصيان. وما أن انتهت قراءة المرسوم حتى شرع الناس، وقد انبهروا بوجود حاشية الأمير بينهم وحضور سفراء بغداد، بالتهليل للأمير والهتاف بحياته.

كمال همس في أذن «ابن هود» قائلا:

ـ سيدي، سأعود هذا المساء إلى «جيان». ويريد «ابن الأحمر» من الأمير، أعزه الله، أن يصادق على حكمه لإمارته، مقابل خضوعه لسلطتكم.

ـ سأعطي الأمر للكتبة لإعداد المرسوم. وقبل أن تنصرف سنمكنك من الوثيقة التي نعترف فيها بابن الأحمر سيدا على «أرجونة» و«جيان» و«بركونة». ـ طأطأ «محمد» رأسه علامة على الموافقة، وهو يضع يده على صدره امتنانا

وتشكرا. ثم أضاف «ابن هود»: ـ لقد فعل أميرك حسنا حينما خضع لنا، ولولا ذلك لكنا قد سحقناه. ـ أطلق «ابن هود» هذا الكلام، ثم تابع سيره في كبر وعجرفة.

قطع «كمال» فناء الوضوء ثم عادر المسجد. كان الجو حارا، فسعى إلى الاحتماء من الشمس بين أزقة غرناطة.

«سيدي يتجاوزك بكثير. وحينما سيحين الوقت ليصبح الأمير الأوحد في الأندلس، لن تكون أنت أكثر من ذكرى سيئة يلفها النسيان». مر بخاطر «كمال»، وهو يسمع الناس من بعيد وهم يهللون للمرسي دون اقتناع.

***

طريق إشبيلية Camino de Sevilla. خريف 1234

كانت «شمس» تركب فرسها وهي تسير بجانب والدها. ولم يكن الحجاب يسمح برؤية سوى عينيها الخضراوين الشبيهتين بعيني «ابن الأحمر». كان «أشقيلولة» يتبعهما على بعد خطوات، راكبا حصانه، وهو يراقب زمرة الجند الذين يحرسون الأمير وابنته.

ـ ينبغي أن تبدين طيعة خاضعة له. أريد أن تقومي بدورك كما يجب، بوصفك ابنةَ أمير ستتزوج أميرا. هل فهمت؟

ـ لست بليدة، يا أبي. ـ أجابت «شمس» بجفاء. ـ أعرف ما تسعى إليه. وأنا لا أعدو أن أكون قطعة شطرنج بيدك على رقعة اللعب. ستعرضني كما يعرض الفارسُ، المزهو بنفسه، فرسَه أمام

الآخرين. لكن إياك أن تتركني معه. أعرف أنك خصصت لي مصيرا آخر.

كانت «شمس» تتحدث بغضب. فقد تعرضت علاقتها بأبيها إلى هزات، أدت إلى برودة بينهما، زادت حدتها بتوالي السنين. كانت أولى هذه الهزات المسافة التي اتخذها «محمد» من ابنتيه، حينما توفيت حبيبته وزوجته الأولى «فرح». كان الأب يحمل مسؤولية وفاة الأم بشكل غير شعوري إلى «شمس»، أما الهزة الثانية فكان ما تلا ذلك من زواجه بـ «عائشة» التي اعتبرتها «شمس» دائما شخصا غريبا استحوذ على موقع أمها في الأسرة. ثم كانت القاصمة، حينما حشر الأب في العائلة تلك الجارية النصرانية، «مريم»، التي كان يعرض علاقته بها أمام الجميع، دون اعتبار أو تحفظ. ولكم حاول «ابن الأحمر» أن يتقرب بعد ذلك من ابنتيه، لكن، دون جدوى، وبعد فوات الأوان حسب «شمس».

- تفضلين أن تبقي وحيدة؟ إن أفضل الآباء هم الذين يعملون على تزويج بناتهم. ولا أظن أن أبناء «أشقيلولة» اختيار سيئ.

- ليس اختيارا سيئا بالنسبة لك. - أجابت الفتاة سريعا.

لاذ الوالد وابنته بالصمت، ولم يعودا للحديث، إلى أن وصل الموكب إلى ضواحي «إشبيلية».

***

وصل حراس «الباجي» إلى المعسكر النصري عند العصر. كان الجند قد عسكروا خارج المدينة، قريبا

من «البحيرة».

- السلام عليكم - سلم عليهم «أشقيلولة» - جئنا لنرى سيدكم، «الباجي»، لنتمم ما تعاقدنا عليه بعد معركة «وادي شِنيل». «محمد بن الأحمر» سيد «أرجونة»، و«جيان»، و«بُركونة» جاء بابنته ليسلمها زوجة لأميركم.

رحب الحراس بالقادمين، لكنهم لم يدعوهم لعبور الأسوار، بل انسحبوا ليعلموا أميرهم بالأمر. ظل «أشقيلولة» ينتظر، وهو يمتع نفسه بالنظر إلى اللوحة الرائعة التي ترسمها مئذنة المسجد الجامع وهي تحتضن بطولها الفارع المدينة.

- لماذا كل هذا الاحتراز؟ وكأننا أحضرنا جيشا لنستولي على إمارة - علق «ابن الأحمر» الذي داخلته الشكوك.

- لندخل المدينة أولا، وهناك، حينما نتمكن، سنرسل «الباجي» إلى العالم الآخر. وبدونه ستصبح إشبيلية لنا، وما دمنا مسلمين وأندلسيين، فإن أهل «إشبيلية»، لا محالة، سيقبلون بنا. - عرض «النبلي» خطته، وهو واثق من نفسه.

«إنه يملك قوة الإيمان، لكن تنقصه التجربة، والقدرة على اتخاذ القرار، لقد حان الوقت لدفعه حتى يقفز من الغصن، ويحلق في السماء». - فكر «أشقيلولة» مخاطبا نفسه.

***

- مرحبا وسهلا بأخي - رحب «الباجي» بالأمير ومن معه، وقد حضر شخصيا لاستقبال «ابن الأحمر». - اعذر رجالي فهم حذرون للغاية.

- نتفهم ذلك - أجاب النصري، ثم عانق الأمير. كان الإشبيلي، الذي يكبر ابن الأحمر بسنوات، تسبِقُهُ كرشه، وتشد جلبابه من الوسط. - جئت لتسليمك ابنتي، وأزوجها لك.

تمعن «الباجي» في عدد الخيام المنصوبة في المعسكر، مقدرا عدد الرجال الذين صاحبوا أمير «أرجونة».

- سيسعدني استقبالك في بيتي. يمكنك الإقامة في القصر مع حراسك الشخصيين. وسنعد ما يلزم لإقامة حفل الزفاف في أيام معدودات.

استقر «محمد» و«أشقيلولة» و«شمس» بمصاحبة عشرة من أفراد الحرس الأميري في أحد أجنحة القصر، في حين انتقل باقي جند «ابن الأحمر» إلى البطحاء المنفتحة على «باب شريش»، في الجهة الأخرى من نهر «تغاريث».

ساقوا رجال «النصري» عبر الطرق المعقدة بين الأسوار، والأفنية، وثكنات القصبة التي تكون متاهة دفاعية مثالية لتضليل الغرباء. غير أنهم وزعوا عليهم إقامات تناسب تراتبيتهم العسكرية، غير مقصرين في إكرام الضيوف والترحيب بمقدمهم. وعندما حان وقت صلاة الظهر، دعا «الباجي» حليفه إلى الصلاة معا، فقصدا المسجد الجامع عبر الممر الذي يربط قصر أمير «إشبيلية» بالمسجد المذكور. وهناك تمكن الإشبيليون من مشاهدة الأميرين وهما يصليان معا في موقع واحد متساويين في المرتبة.

- عشرة رجال، ليس لدينا سوى عشرة رجال.

كيف تريدنا أن نستولي على» إشبيلية»؟ ـ تصدى «محمد» لجده، بعيدا عن الأسماع التي لا تكتم سرا.

ـ كان من المنتظر ألا يسمح لنا «الباجي» بالدخول جميعا، ليس الرجل بهذا الحجم من الغباء ـ أدلى «النبلي» برأيه ـ علينا أن نقتله أولا، ثم نفتح الباب للآخرين.

ـ إن القصبات مَلْأَى بالجنود، إن هذا حُمْق. وحتى إن تمكنا من إدخال جميع الرجال، ماذا عسى أن يفعل مائتا رجلٍ ضد ساكنة مدينة بأكملها؟

ـ سنربح الرهان، ولا شك، بفضل الكلمة الحاذقة. وأنت أهل للكلام الحصيف لنفاذ بصيرتك. فعندما يصبح رجالنا داخل الحاضرة، ويكون «الباجي» قد قتل، سنعمل على إقناعهم، عِدْ رؤساء الجيش بالمكافآت، اختلق الأكاذيب ضد الباجي، تحدث عن وحدة الأندلس... قل ما بدا لك، أكيد ستحضرك أفكار وكلمات.

أخذ «محمد» في تحليل الوضع في صمت.

ـ لا أريد أن أثقل ضميري بدمه. سأقوم بما ينبغي علي فعله، والباقي، أي القتل، ستتكلف به أنت.

ـ حسنا يا مولانا ـ أجاب «أشقيلولة».

كان «الباجي»، خلال إقامة «ابن الأحمر» بـ «إشبيلية» ينظم الحفلات الليلية باستمرار في القاعات الكبرى للقصر. فاستمتع الأرجونيون بكرم ضيافته، وحُسن قِراه. أثناء ذلك كان «ابن الأحمر» و«أشقيلولة» لا يتوقفان يوميا عن زيارة القصبات

والمنطقة السكنية، حتى تسنى لهم وضع خريطة ذهنية لكل عطفة وزاوية، لكل باب وجدار يحميان النطاق.

أيضا انتهز الرجلان الفرصة للجولان عبر المدينة. زارا «مرسى الرملة»، والتَّرسانات المقببة، والبساتين، والمراعي الكائنة داخل فضاء المدينة الفسيحة. ثم طافا عبر الأرباض، وأزقتها الأنيقة، المزروعة بأشجار الفاكهة، ووصلا إلى غاية باب «قرمونة»، حيث ينتهي المجرى المائي الذي يزود إشبيلية بالماء الصالح للشرب. ثم سارا بجانب البحيرات الصغيرة التي كانت فيما مضى فروعا للوادي الكبير، ثم أصبحت جزءا من المدينة، شاهدة على ماضيها. ثم توقفا أمام «برج المئذنة العظيمة» [التي بناها المنصور الموحدي تخليدا لذكرى معركة الأرك] ليتأملا بإعجاب هندسة الصومعة، والآجر الأحمر الذي يغطي جوانبها، قبل أن ينتقلا للصلاة في المسجد القديم المعروف بـ «مسجد ابن الدَّبَّاس».

- كانت قرطبة... والآن أصبحت إشبيلية... - تفوه «أشقيلولة» بوقار وجلال في إحدى جولاته.

***

بعد أن مر على إقامة أمير «أرجونة» بـ «إشبيلية» خمسة أيام، اجتمع «الباجي» بـ «النصري» في إقامته. كان الإشبيلي قد حدد تاريخ الزفاف، بعد أن استفتى ثلاثة من المنجمين، بيومين بعد هذا الاجتماع.

- قبل ذلك علينا أن نحدد قدر الصداق، وجهاز

العروس، نحن الاثنين على حدة. ـ طلب «محمد» من الباجي.

ـ وليكن ذلك غدا في الساعة الأولى. ـ وافق «الباجي». ـ هنا، في عين المكان.

***

استقبل «ابن الأحمر» «الباجي» في القاعة الرئيسة من إقامته، بعد صلاة الفجر. ثم استراح الرجلان على مخدتين وثيرتين معدتين للجلوس:

ـ يجب احترام البند المعروف في شروط الزواج، إذا أهملت زوجتك قد تغادرك، وتنصرف عنك. ـ قال «محمد» في حزم.

تحدث الرجلان مدة ليست بالقصيرة، يقترحان، أحيانا، أمورا، أو يصغي أحدهما للآخر، في جو يسوده الوئام كأنهما صديقان حميمان يتناوبان حديثا طويلا. فجأة، اهتزت ستارة وراء الباجي، وبرز وراءها «أشقيلولة». كان الرجل حافيا حتى لا يحدث صوتا، ويحمل في يده اليمنى سكينا ضخما. حاول «ابن الأحمر» ألا يوجه نظره في اتجاه جده، وإن كان يتتبع حركاته بكل دقة. أما «الباجي» فلم يتفطن لوجود ثالث قريبا منهما إلا بعد فوات الأوان. فقد استدار الإشبيلي في اللحظة ذاتها التي مد فيها «أشقيلولة» يده اليسرى ليمسك برأسه. في لمح البصر ذبح النقيب القديم الباجي بمهارة فائقة، فسقى دمه على التو الأرضية الرخامية.

سقط الأمير الإشبيلي على ظهره أرضا، دون أن يتمكن من الصراخ، فقط، عكست نظرته الجزع

والمباغتة. سعى المسكين إلى سد الجرح بيديه، غير أن الدم كان يفور قويا من بين أصابعه. في الحين نهض «محمد» وابتعد عن المحتضر. في مدخل القاعة ميز الأمير الأرجوني شخص «شمس» التى كانت تطل برأسها لترى كيف كان أمير إشبيلية يفارق الحياة. كانت الفتاة تشد على قبضتيها دون أن تزيح نظرتها عن جسد الباجي وهو يصارع الموت.

أمام هول المنظر هزت «محمدا» قشعريرةٌ على الفور.

- ينبغي التحرك حالا - قال «أشقيلولة» دون أن يرتجف صوته.

منذ تلك اللحظة لم يعد لإشبيلية رأس. غمر «محمدا» شعور بالذنب المخلوط بالهياج والإثارة، وهو ما حثه على التصرف، والقيام بردات أفعال يتطلبها الموقف.

- حان وقت تدخلي - تلفظ «ابن الأحمر» بالعبارة، فتنهد «أشقيلولة» في ارتياح، وقد تأكد من أن حفيده سيكون في مستوى الحدث.

- اذهبوا إلى «باب شريش» في ثلاث مجموعات. - أمر الحارسَ الذي كان ينتظره أمام مدخل الإقامة. - أحدكم سيذهب إلى المعسكر ليحضر جميع الجند. ولا تفكوا الخيام، بل أسرعوا في الرجوع. أما التسعة الباقون هنا فليسيطروا على الباب، وليتركوه مشرعا.

انصرف الحراس، وكانوا من رجال «جيان»، في سرعة البرق لتنفيذ الأمر. أخذ أولهم، حين الوصول

إلى «باب شريش»، أحد الخيول من الإصطبل الملاصق للسور، وانطلق عدوا إلى المعسكر. داخلَ الإشبيليين الارتيابُ، غير أن توجسهم تحول إلى قلق، حينما لمحوا أن الجيش الصغير المعسكر في الخارج، شرع يتحرك في عجلة، ويتجه نحو السور. في الحال، سرى بينهم الشك في نوايا النصريين، فقرروا الانقضاض على من لزم منهم الباب.

احتدم القتال بين الطرفين. أخذ الجيانيون القساة مواقعهم، وتمكنوا سريعا من صد هجوم الإشبيليين، وحينما وصل الفرسان من المعسكر كان الأرجونيون قد فقدوا جنديا واحدا. في الحين، زادت الجلبة، واختلطت الأصوات، فأسرع الجند من القصبات نحو إقامة أميرهم «النصري»، للدفاع عنه، بعد أن انتظمت جماعة من الجند الإشبيليين وسعت إلى محاصرة أمير «أرجونة»، والقبض عليه. غير أن «ابن الأحمر» و«أشقيلولة» بادرا إلى حماية الباب، والدفاع عن نفسيهما، الأول بصدر عار، وهو يحمل سلاحه، وأما جدُّه، «أشقيلولة» فاستمات في دفاعه عن مدخل الإقامة بثوبه الملوث بدم «الباجي». وما إن رأى الإشبيليون وصول الجند الجيانيين حتى تبين لهم أن المقاومة غدت عقيمة، ولم يلبثوا أن استسلموا في الحال. شاع الخبر سريعا في ردهات القصبة، فسمعت في كل الأنحاء جلبة الخطى، وصياحات التحذير. على الإثر أعاد الجيانيون ترتيب صفوفهم لصد أي هجوم جديد محتمل. حينها كان الفضاء الصغير القريب من الإقامة، وكذلك الشوارع المحيطة بها

أخذ يستقبل أعدادا من الجند وهم يصيحون ضد الأرجوني.

بغتة، برزت جثة الباجي من إحدى النوافذ في الطابق الأعلى. كان ذراعا الميت يتحركان في ترهل في الهواء، وخيطان من الدم ينزفان من عنقه. وفجأة، أطل من وراء الجثة «ابن الأحمر». فسكت لظهوره المحتشدون.

ـ ها أنتم ترون أميركم وقد أصبح جثة هامدة. كنت قد انتصرت عليه في الوادي، وأنقذته من هزيمة منكرة أمام «ابن هود»! ـ أصاخ الجند السمع محافظين على صبرهم، وهم في حالة انتظار وتوقع ـ الآن أنتم أحرار. يمكنكم أن تديروا أموركم بأنفسكم، في انتظار أن يأتي «المُرسي» لإخضاعكم، أو أن تقبلوا بي أميرا عليكم، ونوحد قواتنا لنصُد أي هجوم ضدنا. ـ سمعت همسات ووشوشات بين الإشبيليين، غير أنه سرعان ما التزم القوم الصمت من جديد ـ أنتم مقاتلون وأنا، أيضا، مقاتل لم يعرف إلى حد الآن الهزيمة. باستطاعتي أن أقودكم إلى النصر، وأن أوحد الأندلس، وأحتفظ بها في أيادي إسلامية. إذا قبلتم بي، سأكافئكم بما تستحقون. تذكروا أن «محمد ابن الأحمر» واحد منكم.

أنهى خطابه، ثم توارى وراء النافذة تاركا لهم فسحة الاختيار وأخذ موقف. في الحال، شرع مئات الرجال في تداول الرأي، وطرح الأفكار.

ـ وفقت في مخاطبتهم ـ قال له «أشقيلولة» ـ إنهم يعرفون أنهم بانضمامهم إلى قضيتك سيصبحون النخبة الجديدة في البلد. هذا يدفعني

إلى الاعتقاد بأنهم سيقبلون عرضك.

دام الهرج والمرج أكثر من نصف ساعة. كثيرون من هؤلاء العسكر، وقد استنكروا عملية القتل، راحوا يدعون إلى الانتقام، غير أن الذين دعوا إلى الدخول في طاعة «ابن الأحمر» مثلوا الغالبية العظمى. في تلك الآونة، شرع المعارضون ينسحبون من منطقة القصبات.

- ابن الأحمر!

- مولانا!

- الله أكبر!

أصوات جديدة انضافت إلى الأصوات السابقة، هذه المرة مساندة للأمير الذي سيدير شؤون «إشبيلية»، العاصمة الموحدية القديمة.

***

**«جيان» Jaén. خريف 1234**

كان الوقت أصيلا حينما خرج «كمال بن هادي» من داره مستعجلا. كان الشاب مسلحا، ويقصد دار الأمير للالتحاق بالحرس الأميري. غير أنه عند وصوله إلى النطاق الأعلى من القصبة، اقترب منه حارسان وخاطباه:

- سيطر أميرنا أعزه الله وحفظه على «إشبيلية» و«قرمونة». أخبر زوجته بالأمر.

قليلون من كانوا يطلعون على مشاريع «محمد»، ومن ثم استقبل الناس الخبر في «جيان» ببالغ الانفعال والفرح. سار «كمال» نحو الإقامات الخاصة بالأمير، وطرق الباب، على التو، فتحت

«مريم» الباب. وراءها من بعيد لمح الفتى «عائشة» وهي تتأهب لتغيير لباسها، رَجَّ المشهدُ «كمال» وشعر على الإثر بعرق بارد يغمر جبينه. غير أن «مريم»، وقد ارتسم على وجهها تعبير خبيث ما لبثت أن شَرَعَتِ الباب، ومالت إلى أحد جانبيه. تظاهرت «عائشة» بالخجل، وتوقفت عن نزع ثيابها.

ـ جئت أحمل أخبارا إلى سيدتي، زوجك، سيد أرجونة وجيان، قد أضاف إلى ممتلكاته «إشبيلية» و«قرمونة». ـ شرح الشاب بلغة رسمية جافة.

تبادل «كمال» و«عائشة» النظرات دون أن ينبسا بكلمة.

ـ هل تريد الدخول؟ ـ كسرت الجارية الصمت بصوت ساخر.

احمرت وجنتا «عائشة»، في حين لاذ «كمال» بالصمت، ثم تراجع خطوات إلى الوراء. أغلقت «مريم» الباب، ثم عادت إلى جنب سيدتها.

ـ أنت قليلة الحياء ـ قالت «عائشة» للأمة دون نية الإساءة إليها. ـ كيف خطر ببالك أن تدعي الشاب إلى الدخول؟

ـ أُعِزُّكِ يا «عائشة». ـ حدقت «مريم» في المرآة ثم حدثتها بكل وضوح ـ أنت تعرفين ما يفعل زوجك. لا أعيب عليه ذلك، كل الرجال يفعلون مثله. لكني أيضا لن أنتقدك إن فعلتِ ما يفعله زوجُك. على الرجل والمرأة أن يمتثلا لنفس القواعد. ـ كانت «عائشة» تُصْغِي إلى «مريم» في تركيز. ـ أنا أتمتع بممارسة الجنس، وأنت، أيضا، من حقك

أن تتمتعي بذلك. حقا، أنت تختلفين عني، وعن زوجك. أعرف ذلك جيدا: أنت لطيفة وتسعدين بأشياء أخرى. ـ احمرت وجنتا «عائشة» من جديد ـ اعلمي بكل تأكيد، أنه يشبهك ـ لَمَّحَتْ «مريم» إلى «كمال» ـ وأنه سيجعلك تتمتعين بالجنس كما لم يسبق لك أن عرفته. ـ كانت الظروف قد جعلت من «مريم» امرأة حرة، تتحدث بكل وضوح وصراحة، دون أن تضع حدودا لذلك.

صمتت «عائشة» للحظات.

ـ أنا أيضا أعزك يا «مريم» ـ قالت أخيرا ـ صَعُبَ علَيَّ، في أول عهدك بالأسرة، تقبُّلك، لكني الآن، أحسبك جزءا من العائلة. ـ نظرت المرأة إلى الأرض ـ يبدو أنك تعرفين قراءة ما يعتري أرواح الناس، ولقد عرفت نساء بهذه الموهبة. ـ ختمت «عائشة».

رتبت «مريم» اللباس، ووضعته في الصندوق، ثم أطفأت الثريات، وخرجت من الغرفة، تاركة الباب مواربا.

ـ كن شجاعا، فإنها لك ـ همست في أذن «كمال» حينما مرت بجانبه. وسرعان ما اختفت تاركة وراءها رائحة خمر مرة.

ارتجف «كمال» من الإثارة. غير أنه ظل ملتزما مكانه، بل، لم يستدر ببصره حتى إلى الوراء. بعد قليل سمع صوت الباب وهو يغلق.

استلقت «عائشة» على فراشها. وهي تحلم بجسد الشاب المصقول، كانت تعرف أنه أصغر منها بعشر سنوات، أو أكثر قليلا، غير أن ذلك

لم يكن ليهمها. حاولت الصلاة، غير أن النار المشتعلة في صدرها كانت أقوى من كل الأحاسيس. وسرعان ما أنزلت يدها تجاه أسفل جسدها، وقضت وطرها، وهي تعيد في همس اسم الشاب الذي يحرس بابها.

***

«لوغرونيو **Logronio**. طريق «برغش» **Burgos**. خريف **1234**

أصر «فرناندو» على أن يرافقه ابنه «ألفونسو» في رحلته، بالرغم من أن ذلك لم يكن ضروريا. وكان «تيوبالدو» ملك «نابارا» قد وصل «لوغرونيو» لِيُوقِّعَ على اتفاق الزواج بين ابنته «بلانكا» وولي عهد قشتالة. وفعلا قام الملكان والأمير «ألفونسو» بالمصادقة على الاتفاق الذي حدد شهر غشت من السنة القادمة موعدا لإقامة الزفاف.

كان الاتفاق ينص على أنه «تيوبالدو» سيحتفظ لابنته «بلانكا» بوراثة عرش «نابارا»، وإن رزق مستقبلا بمولود ذكر.

وحين العودة إلى «برغش»، سار «ألفونسو» بجنب والده، وهو يمتطي جوادا صغيرا. وبالرغم من أن الفتى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، إلا أن هذا الاجتماع لم يكن أول لقاء رسمي يحضره، ومن ثم كان عارفا، رغم حداثته، بقواعد التصرف مع النبلاء ورجال البلاط.

كان ألفونسو ذكيا، يقظا، كلما وجد متسعا من الوقت يغلق عليه الأبواب ويحيط نفسه بما

لا يحصى من الكتب التي كانت في متناول يده بمكتبات الأديرة.

ـ أبي متى يمكنني رؤيتها؟ ـ سأل الأمير.

ـ حينما نحتفل بالزفاف، غير أنك لن تجامعها حتى ينزل منها الدم. تذكر أن «بلانكا» الآن في سن الثامنة.

ـ أن أجامعها... ـ ردد الفتى وقد تاهت نظرته عبر الأفق.

ـ أجل، يا بني. المجامعة هي اتحاد بين جسدين، يسمح به الرب من أجل خلق الحياة واستمرارها.

لم يشأ «فرناندو» أن يعمق في شرح المسألة.

ـ بعد الزواج، هل سنعود إلى «الأندلس»؟

قبل ذلك، يا «ألفونسو». إذ أننا سنعبر السلسة الجبلية الحدودية في الربيع المقبل، لم تشغلنا عن مشروعنا ضد «الموروس» سوى مسألة «نابارا»، والآن، وقد عالجنا هذا الأمر، فقد حانت من جديد ساعة الانقضاض على العدو.

ـ على أي ملك منهم؟

ـ «ابن الأحمر» الذي ظهر منه ما لم نتوقعه. خاصة، وأنه استولى الآن على «إشبيلية». ينبغي أن نوهنه، ولا بد.

ـ وهل سننزع منه «إشبيلية». ـ برقت عينا الفتى.

ضج «فرناندو» بالضحك.

ـ لا تكن ساذجا يا بني. إن الاستيلاء على

«إشبيلية» يحتاج إلى وقت طويل، إلى سنوات، وإلى جيش كبير أكبر من جميع الجيوش التي سبق لي أن حشدتها من أجل حصار مدينة من المدن الواقعة بالممالك النصرانية.

ـ ربما سأكون أنا من يستولي عليها. ـ عقب الفتى في حزم.

حدق «فرناندو» في عيني ابنه، ولمح النار التي تلتهب بصدره.

ـ أرجو أن يسمح الرب لي بالسيطرة عليها، وتكتفي أنت بالمحافظة عليها، وصيانتها.

ـ أبي، إذا فتحتَ لي «إشبيلية»، سأسيطر أنا على باقي الأندلس، وإذا فتحت لي كل الأندلس، فسأسيطر أنا على «أفريقيا».

صمت «فرناندو الثالث»، وهو مبتهج. كان ما سمعه، هو ما يريده من ولي عهده، «ألفونسو العاشر» في المستقبل، ملك «قشتالة» و«ليون».

تابع الموكب الملكي طريقه نحو «برغش»، يدفع به طريق إلى طريق في أمن وسلام، ويثير تقدمُّه النَّقْعَ ويفزع الطيور برجرجة عرباته...

***

«إشبيلية» **Sevilla**. خريف 1234

ـ إلى السور! أغلقوا الأبواب!

أيقظ تردد الأصوات، وهي تَطِنُّ على جدران القصر، «ابن الأحمر» من نومه.

ـ مولانا، أسرع! فقد ثارت إشبيلية. ـ صاح أحد حراس الأمير، وهو يخبط على باب غرفة الأمير

بعصا.

لبس «محمد» «الغامبسون» على عجل، ثم شد وسطه بالحزام، وتمنطق بسيفه.

ـ اِحْمُوا ابنتي! ـ صاح قبل أن يغادر غرفته.

في الخارج، بدا القصر كأنه يغلي بالمشاعل التي كانت تتحرك من جهة إلى أخرى، وهي تتحدى سواد الليل. قصد الأمير سريعا السور، ثم صعد في السلم إلى الدرب في أعلاه، من هناك تأمل العاصمة وهي مضاءة في خفوت بضياء القمر. مئات من الإشبيليين خرجوا إلى الشوارع، وزحفوا إلى أسفل السور ذاته. في الحين، وصل «أشقيلولة» وهو يغمز في مشيه متكئا على عصاه، ووقف بجانب «محمد».

ـ ضاعت منا ـ قال الأمير، قبل أن يحرك «أشقيلولة» رأسه بالموافقة.

لم تنفع الأموال التي خصصها الأمير لإنشاء مرافق عمومية بالمدينة، ولا الهدايا والمكافآت التي قدمها لرؤساء الجيش الإشبيلي. في ظرف شهر واحد من حكم «ابن الأحمر» للمدينة زاد أعداؤه بنسبة كبيرة. في كل زاوية من البلد كان الناس يتحدثون عن هذا الغريب الذي سولت له نفسه أن يقتل الأمير الشرعي لمدينتهم.

ـ علينا أن نتصرف بسرعة. ـ أمسك «أشقيلولة» بذراع «محمد» وهو يدفع به ـ إن أبواب القصر مغلقة، ومع ذلك لا أثق بمن هم في داخله، عساهم يصابون بالعدوى فيهاجموننا. سأجمع رجالنا وسنغادر حالا. أنت تكفل بـ «شمس»، واحمل

الضروري من المتاع والزاد.

كانت أصوات الاحتجاج والثورة تتجاوز الأسوار، وتزرع الشكوك في الحراس، في اللحظة ذاتها التي كان النصريون يتأهبون للمغادرة من «باب شريش»، فضل بعض الإشبيليين من أنصار «ابن الأحمر»، وآخرون من المتخوفين من تبعات تغير السلطة الالتحاق بالجيانيين المغادرين.

في الآن ذاته صاحب «محمد بن الأحمر» ابنته بنفسه إلى غاية السور.

ـ تستحق هذا. ـ فاجأت «شمس» أباها بقولها وهي في حالة غضب.

توقف الأمير، وفي سرعة، صفع ابنته صفعة تورد لها خدها. غير أن الفتاة ظلت متماسكة، ثابتة. على الفور، رأى «محمد» في قوة وصلابة ابنته نفسه، وطبعه، ذلك الطبع الذي يميز «آل نصر». في الحين، أمسك بها من ذراعها وسحبها.

ـ أنقذي حياتك أولا، ثم تشكي بعد ذلك.

حينما اجتمع القوم عند «باب شريش»، سمع صخب وضوضاء داخل نطاق القصبات. ذلك أن بعض الحراس وقفوا بجانب الشعب، وفتحوا أبواب الأسوار. وهكذا، وفي اللحظة التي كانت الدهماء الثائرة تقطع ساحاتِ القصبات وأزقتَها، كان «ابن الأحمر» ورجالُه يقطعون الفيافي، وهم يركضون على جيادهم مبتعدين عن «إشبيلية» وجْهَتُهُمُ النَّاحيةُ الشرقية، حيث «جيان»، العاصمة الحقيقة لإمارة «النصري».

***

«مرسية» **Murcia**. خريف 1234

ـ استريحوا في بيتي، وتمتعوا بضيافتنا، ولا تغادروا حتى يتوقف المطر.. ـ قال «ابن هود» للمبعوثين الإشبيليين.

كان أمير «مرسية» في غاية الانشراح. ولا غرو، فقد عادت إشبيلية إلى الحظيرة، كم لو كانت فتاة ضالة تعود إلى مهدها الأول. كان كبرياء «أمير المسلمين» يدفعه إلى معاقبة المدينة التي تخلت عن سلطته لتنادي بـ «الباجي» أميرا عليها، غير أن رأسه كان يذكره بأن «إشبيلية» درة الأندلس، وأن رجالها بإمكانهم أن يسجلوا الفرق في أي معركة. ولعل هذا الخبر السعيد جاء في وقته، ليخفف عنه ألم فراق صديقه الوفي «الغشتي» الذي توفي على إثر إصابته بورم خبيث في بطنه.

بدأت القطرات الأولى من المطر تتساقط مهددة بالمزيد، فقرر الأمير العودة مع أهل دولته إلى «برج الماء» «كراماجول» بهدف تقويم الوضعية الجديدة.

ـ إن هذه الخطوة ستمنح الشعب فسحة ليستريح. والخزينة ستنتعش ـ علق الوزير المكلف بالسكة.

ـ والمداخيل ستزداد وهو ما سيسمح لنا بتغطية نفقات اتفاق هدنة جديد.

ـ وهل سنستمر في تأدية الإتاوات للمسيحيين؟
ـ تجرأ ابنه بالسؤال.

ـ سنحتاج إلى استعادة «لَبْلَة» Niebla، ثم لا تنس أن «ابن الأحمر» على مرمى حجر منا ـ أجاب ابن هود ـ لا أثق في بيعته لنا. أما «القشتالي»، فإنه سيعود قريبا إلى «الأندلس». ولعل الظرف مناسب لتجديد الهدنات. لأن القشتالي بذلك سيتركنا ننعم ببعض الهدوء.

ـ قد تمثل لنا «إشبيلية» موارد مالية جديدة، لكن، بالرغم من ذلك، لن يحسن ذلك، من مدخرات بيت المال، لأنها ليست على ما يرام. أنصح بالتفاوض على مقابل مادي جديد لاتفاقات الهدنة. ـ تدخل أحد المستشارين.

ـ تكلف أنت بالأمر. ـ أمر «ابن هود» المستشار وقد قبل عرضه.

بعد ذلك انتقل أعضاء المجلس إلى مناقشة قضايا أخرى ذات علاقة بتسيير الإمارة، حتى إذا انقضت ساعتان انفض المجلس، وبقي الأمير وحده يصاحبه فقط ابنه. على الإثر سمع صوت الرعد، وإذا بالرذاذ يتحول إلى وابل من المطر. أطل «ابن هود» على الخارج ورأى العديد مثله يحدقون في الهمر النازل من النوافذ والبوابات. من بين الفضوليين بدت له «خيمينا»، وهي تطل من إحدى نوافذ بنايات الخدمة. خفق قلبه للتو، ولم يعد قادرا على إزاحة صورتها من مخياله، ولا غرو، فقط سقط الرجل صريع فتنتها.

ـ تذكر الوعد الذي وعدت به زوجتك، أمي، ـ سمع الأمير صوت ابنه من ورائه. قبل أن يقف بجنبه.

ـ استدار «ابن هود» في هدوء، ونصف ابتسامة

مرسومة على فمه.

- أن أتطلع إليها، بل أن أرغب فيها، لا يعني ذلك أنني أتمتع بها، مثلما أن أتصور نفسي أصفعك ليس مثلَ أن أصفعك حقيقة، بالرغم من كل رغبتي الأكيدة في أن أفعل ذلك.

***

**«جيان» Jaén . شتاء 1235**

عانق «إسماعيل» أخاه. كان «ابن الأحمر» قد قرر بعث أخيه إلى «قنجاير» باعتبار ذلك التفاتة امتنان وشكر منه تجاه أهلها، لما أبدوه من خضوع لحكم الأمير النصري.

رافق «ابن صناديد» «إسماعيل» إلى غاية سور المدينة، حيث كانت تنتظره زمرة من الحراس مكونة من عشرة رجال مسلحين بكل عتادهم الحربي. وقد كان حاكم «جيان» يشبه كثيرا سيده بخصوص موقفه من الحياة ومن الإمارة. فلم يلبث أن تحول إلى أداة مفتاح لحكم ابن الأحمر، وأصبح حضوره في المشور من الضرورات بالنسبة للأمير.

انسحب «محمد» إلى قصره، وألغى جميع مواعده. كان يشعر بنفسه متعبا وفي غاية الإرهاق. فقد كانت كل قضية من قضايا تسيير الإمارة تتطلب مصادقته وهو ما يفرض عليه الحضور فيما لا نهاية له من الاجتماعات والجلسات.

- لم يعد ينقصك سوى لبس الحرير. - سمع حين مروره بالفناء الكبير.

كان «عمر الحسون» جالسا بالقرب من البركة. ذلك أن «الولي الصالح» كان قد انتقل من «أرجونة» إلى «جيان» بطلب من «ابن الأحمر»، وتَـركَ أمر تسيير الرباط إلى «أحمد بن إسحاق».

ـ لست من الذين يرتدون الحرير ـ أجاب وهو يرفع يديه على شكل صليب ليبرز ملابسه.

ـ أعلم ذلك، أيها الصديق. ـ أجاب «الحسون» مبتسما. ـ كنت أعلم دائما أنك ستحلق بعيدا في سماء المجد. وما زال أمامك الطريق طويلا. ـ استطرد «الحسون» وهو يجلس إلى جانب«محمد».

ـ أخيرا أسير نحو الخلف. «إشبيلية»، «قرطبة»...

ـ عسى ذلك يحفز عزيمتك أكثر. ـ عقب «الولي الصالح».

ابتسم الأمير، ثم خفض من صوته قائلا:

ـ أحس بالإرهاق. ثلاث سنوات من الإمارة أتعبتني، وشِخْتُ خلالها كما لو أني عملت فلاحا في الحقول لمدة عشر سنوات. ـ صارح «محمد» «الحسون».

ـ حقا، إن المسؤولية ترهق أكثر من العمل في الشمس، انتق من ينوب عنك، عين الرؤساء والوزراء لمساعدتك، وانتق رجالا من أهل الثقة، على دراية بأصول ممارسة السلطة، وأكْثِرْ من الذُّرية، فإن الأولاد يصبحون بمرور الزمن العصي الذي نتكئ عليها.

ـ كلامك عين الصواب، يا معلمي، صحيح كله.

وقف «محمد» ثم تنهد عميقا. وبدا عليه أنه أصبح رائق المزاج بعد أن سمح لنفسه بيوم راحة وحرية، فعزم على ركوب فرسه دون حراسة، وأن يتنزه عبر الحقول، كما كان يفعل فيما مضى أيام فتوته، حينما كان يعيش الحلم في «أرجونة»، بلده الأصلي.

كانت «عائشة» تغط في نوم عميق عندما دخل الأمير إلى الغرفة، واندس، بعد أن انتزع لباسه، في الفراش بجانب زوجته. لحظة، وضع «محمد» يده على بطن «عائشة» فاستيقظت فجأة.

ـ تشاجر «يوسف» و«فرج» مرة أخرى. ـ حكت لزوجها بصوت متعب ـ غير أنهما تصالحا أخيرا وتعانقا. كان لزاما علينا، أنا، و«مريم»، أن نعيدهما إلى جادة الصواب. حقا، إنهما طفلان لطيفان ويتحابان، لكنهما ديكان في زريبة واحدة.

ـ لنترك الحديث عن ذلك لساعة أخرى.

استدار «محمد» نحو زوجته، ولاطف نهديها، على التو، استجابت عائشة لملاطفة زوجها برفع لباسها الداخلي. كان النوم يغالبها، غير أنها لم تعترض على رغبة زوجها. في الآن ذاته، طرقت سمعها خطى بعيدة، فذكرت الحارس الشاب الذي كان يتكلف بحراسة إقامات الأمير. اكتسحت مخيلة المرأة صورة «كمال، وسرعان ما زاد هياجها. ولم تمض سوى لحظات حتى أنهيا في عجلة الممارسة الزوجية، قبل أن يستلقيا على ظهريهما على الفراش، وعينا عائشة مفتوحتان في كامل اتساعهما. كانت المرأة أبعد ما تكون عن الرضى، كما أن «محمدا» نفسه أحس ببعض

القلق، غامره شعور غريب كأنه ضاجع امرأة غير زوجته. ظل لبعض الوقت في الغرفة، ثم نهض مغادرا. كان يحس ببعض الذهول، وبعدم الرضا. فقصد ناحية الخدمة في القصر، باحثا عن «مريم» في غرفتها.

***

كان القائدان [أبو «محمد»] «عبد الله» و[أبو إسحاق] «إبراهيم» يسيران على رأس الفصيلة التي أرسلها الأمير إلى «وادي آش». كانت المهمة التي كلف بها القائدان هي تقوية حامية البلدة.

ـ نحن «آل أشقيلولة» أشرف أصلا من «بني نصر». كيف يمكنك أن تساوي بيننا وبينهم.

ـ إن ما لحقه الأمير من مجد غنمه بعمله. ولا نتميز نحن عنه سوى ببعض الأصالة. ـ أجاب «إبراهيم» بصراحة.

ـ لكنه أفاد من مجدنا المؤثل من أجل أن يحصل على إمارة، واتفق مع الوالد على تقاسم الإمارة معنا. ـ ألح «عبد الله».

ـ لا تنس يا أخي، أننا أصبحنا قائدين في الجيش، وسنتزوج ابنتيه. وهذا بالنسبة لي يكفيني. ـ كان «عبد الله» سيتزوج «شمس» في السنة المقبلة، في حين سيأتي دور أخيه «إبراهيم» لتزف له «مؤمنة»، بعد ذلك.

ـ فلتكن أنت راضيا على هذا الواقع، أما أنا فلا يكفيني ذلك. ـ رد «عبد الله» في غضب.

كانت سنوات لعب الأخوين والنصريين معا في شوارع «أرجونة» قد أصبحت بعيدة، وكذلك سنوات المران العسكري التي تلتها تحت إشراف «أشقيلولة». ولت، دون رجعة، تلك الأزمنة التي طبعتها الصداقة والحميمية والاحترام المتبادل.

ـ أخي ـ قال «إبراهيم» بنبرة جادة ـ إن ما يغلي به صدرك لا يقتلك، ولكنه ينغس عليك حياتك، ويستنفدك في بطء. ولن تكون أبدا سعيدا عبر هذا الطريق.

ـ سأكون سعيدا حينما أحوز ما هو في ملكي.

وبينما الأخوان مستمران في الحديث بدت لهما في الأفق «وادي آش» **Guadix**. بعد فترة اقترب موكب القائدين إلى «باب جيان» حيث كان في انتظارهما موكب خرج لاستقبالهما. كان هذا الموكب قد قضى ساعات وهو ينتظر قدوم الجيانيين، حتى إذا برزوا من مسافة، شكل الوادي آشيون صفين على جانبي الطريق.

كان الأخوان يرتديان اللباس العسكري الذي يميزهما باعتبارهما قائدين... على تلك الصورة أراد «ابن الأحمر» أن يبرز القائدين، ومن معهما ليعرض قوة جيشه. ووفقا لتقدم الموكب الجياني واقترابه من البلدة كانت الهتافات بحياة الأمير النصري تزداد قوة. حينها رفع «عبد الله» رأسه في خيلاء.

***

جيان. **Jaén**، ربيع 1235

ـ يبغي أن نخرج ونجابهه حالا! ـ كان الأمير يصرخ

وهو يلوح بيده اليمنى ممسكا سيفه، كما لو أنه كان يضرب به عدوا متخيلا.

ـ اهدأ، ليس بمقدورنا القيام بأي شيء. ـ قال «أشقيلولة».

كان «ابن الأحمر» يدور أمام الحاضرين في مكانه كأنه يرسم حلقة وراء أخرى.

ـ لعل التعقل في أن ننتظر يا مولانا ـ أكد «ابن صناديد» ـ لقد رصده الحراس. ونحن لا نملك الرجال الكافيين لمواجهة القشتاليين. ثم إن الذي يقود الجيش النصراني هو «الملك فرناندو الثالث» نفسه

ـ وهل علينا أن نظل في أماكننا دون أن نفعل شيئا، وهم ينسفون زروعنا، ويدمرون حقولنا. ـ كان «محمد» يتحدث وهو يرتجف من شدة الغضب.

لم يتلق «ابن الأحمر» من إجابة سوى الصمت. وكان «فرناندو الثالث» قد جهز قواته لاجتياح «الأندلس»، وجعل من مرج «جيان» الهدف الأول للحملة.

ـ إذا كان قد بدأ بنا فما ذلك إلا لأننا الكبار. ـ أدلى «إسماعيل» برأيه فتجاوب معه «أشقيلولة» بالإيجاب.

ـ لو كنا حقا كبارا، لكنا قد خرجنا إليه، ودخلنا معه في معركة. ـ أجاب «محمد» على الفور.

جالت القوات القشتالية وصالت في المنطقة، تدمر الحرث، وتنسف الزروع، وتملأ عرباتها بثمار الأندلس وغلالها لمدة خمسة أيام، حتى إذا

أنهت القتل والتدمير، وشتت شمل مئات الأسر والعائلات، وأخذت ما وسعها أخذه من الزاد والأقوات والمغانم غادرت المنطقة وقد غدت خرابا يبابا.

خرج «محمد» ابن الأحمر لتفقد الناحية محاطا ببعض حرسه، فوقف على حجم الدمار الذي حل بالمنطقة: قرى أحرقت بالكامل، أشجار اجتثت من عروقها، مخازن غلال فارغة من ثمارها. بجنب أحد البساتين، وتحت ظل شجرة لوز، لقي الأمير امرأة تحضن طفلها الصغير بين ذراعيها. كان لباسها ممزقا، ويداها ملوثتين بالدم.

ـ نهبوا بيتنا... و. وقـ ـ تلوا زوجي... أما أنا... أما أنا... ـ طفقت المرأة تحكي في لجلجة وتلعثم ـ فقد... ثلاثة فرسان... برانيس بيضاء... صلبان سوداء على صدورهم... أنزل الله عليهم غضبه ـ دَعَت المرأة عليهم ـ وشرعت في البكاء يصاحبها ابنها في الشجن والحزن.

«في كل الديانات هناك رجال شياطين». فكر «محمد».

ـ خذوها إلى «جيان»، وخصصوا لها راتبا ودارا. ـ أمر «محمد»، وهو في غاية التأثر.

«إن الدم الذي يلوث يديها، هو دم الكفار. ولعمري إن موقعه الطبيعي هو صفحات سيوفنا» خاطب « النصري» نفسه.

***

«أندوجر» **Andújar**. ربيع **1235**

الوقت سحر، والندى يرسو على أوراق الأشجار، ويبلل العشب الممتد على ضفاف الوادي الكبير. قريبا من الجسر، تربص فرسان «قلعة رباح» ينتظرون وصول الإمدادات. قبل ذلك، كان «فرناندو الثالث» قد نقل قواته إلى «أندوجر» بقصد التأهب لتنظيم هجوم على منطقة «أرجونة»، الموقع الرمزي ذي الدلالات بالنسبة لـ «ابن الأحمر».

كان الاختيار قد وقع على الفرسان الرباحيين المستقرين بـ «أندوجر» للقيام باجتياح البلدة، بقيادة «مَرْتِينْ البرغشي» الذي استعاد شرفه العسكري. كان «مرتين» عارفا بتلك النواحي، ولا غرو، فقد هُزم الرجلُ بها.

كان عدد الرجال المجتمعين بالجسر حوالي ستمائة مقاتل بعد أن التحق بالرباحيين جند الملك «فرناندو الثالث»، ثلثهم من الفرسان المدرعين بالحديد. في المؤخرة، تموقع عدد من الفلاحين المسلحين يحرسون العربات.

عبرت القوات القشتالية النهر، وما لبثت أن نفذت إلى بلاد العدو. سريعا لمح المغيرون بعيدا، قرب إحدى القرى، برج حراسة «مُورِي» [أندلسي] يطل على المنطقة. على التو، نزل من البرج أحد الرجال، ثم ركب فرسه وغادر في سرعة مُيَمِّماً «أرجونةَ».

- حسنا، فلنشرع في اللعب. - أعلن «مرتين» بصوت قوي واضح حتى يسمعه رجاله.

***

استقبل «أحمد بن إسحاق»، الزعيم الجديد

للرباط، الفارس في الفناء الكبير للنطاق.

- حان وقتنا! سنغلب بإذن اللّٰه! - صرخ «أحمد» في رجاله، ثم جعل يجهر بالأوامر العسكرية، والمرابطون يتأهبون، مرة بالبحث عن السلاح، وأخرى بوضع السروج على الخيل، ومراقبة الأَعِنَّة والركابات.

في هذا الخضم انطلق كالسهم أحد الفرسان في اتجاه «أرجونة». تردد حاكم البلدة، كانت القوات المغيرة كثيفة العدد، غير أن الأرجونيين كانوا يطالبون بضرورة الرد على الغارة المسيحية، فقد اقتنعوا بأن عددهم القريب من خمسمائة مقاتل يقودهم «أحمد بن إسحاق» سيُسْعِفُهُم في التصدي للقشتاليين. غير أن الاختيار لم يكن موفقا.

- لنُكرر مَأْثُرَةَ البساتين! - صرخ الزعيم في الأرجونيين وهم في طريقهم إلى ملاقاة المعتدي، يدفع بهم الإيمان أكثر من القوة.

***

راقب «مرتين» تحرك الأرجونيين من بعيد. وسرعان ما ارتسمت على وجهه ابتسامة، على الإثر أمر رجاله بالتجمع حوله وقد تيقن من أن الكفار [المسلمين] ذاهبون إلى موت محقق. وأخيرا بدا كأن الرب سيجازيه. امتشق حسامه، ووضع كَتِفِيَّةَ الرهبنة وراءه، ثم عَدَّلَ من وضع الخُوذة فوق عَمْرَةِ الزَّرد، وأخذ في تلاوة صلاة قصيرة.

في تلك الأثناء كان الأندلسيون قد وصلوا

إلى أحد المرتفعات، هناك توقفوا، وشكلوا خطا دفاعيا من صفين، ضم الصف الأول منهما خطين من القواسين، ثم راحوا ينتظرون ردة فعل العدو.

- أيها الفرسان الرباحيون، إلى الأمام! - أصدر «مَرْتِين» الأمر، وقد صمَّمَ على سحق الكفار بضربة واحدة قاصمة.

تحرك ما يفوق المائة من الفرسان الرباحيين المدرعين كأنهم رجل واحد،ثم توقفوا على مسافة من العدو تفوق بقليل مرمى السهم. في حين تموضعت باقي القوات وراءهم.

- أغلقي يا إسبانيا! - صاح ثانية، رافعا سيفه إلى أعلى هذه المرة.

انطلق القائد الفارس على صهوة جواده في اتجاه الأندلسيين دون أن يضيف كلمة.

على التو، بدأ الرماة الأندلسيون في إمطار النصارى المتقدمين بوابل من النبال. أحد الأسهم انغرز في تُرس «مرتين»، وآخر خدش كتفه الأيسر. غير أن الرماة المسلمين لم يمهلهم الوقت سوى لشحن أقواسهم مَرَّتَيْن، إذ حمل عليهم الفرسان النصارى بقوة وسرعة، فاكتسحوا مواقعهم كالسيل الجارف الذي يأتي على كل شيء، فكانت الأحصنة تدوس الكفار وتبعثرهم، وقد أيقن هؤلاء أن الانتصار على النصارى المدرعين بالحديد مستحيل. ومع ذلك تحركت الأعلام وتداخلت في الجناحين، وإذا بالجيش الإسلامي يقسم إلى قسمين. إذ سعى الفرسان الأرجونيون وكانوا بالجناحين إلى تطويق مؤخرة النصارى، غير أن

القوات القشتالية الموضوعة في الخلف ما لبثت أن انقضت عليهم وهم يسعون إلى تنفيذ المناورة.

كانت الدماء تلوث برنوس «مرتين». في حين كان الانفعال بالقتال يكاد يقذف قلبه من صدره.

- إن الرب معنا! - هدر كالرعد وهو في حالة هيجان. كان يشعر بقوة إلهية تدفع بذراعه، فلم يكن يتوقف عن الضرب ذات اليمين وذات اليسار.

كان الأندلسيون يُقْتَلُون بشكل نسقي تحت ضربات السلاح النصراني والحميا القتالية للقشتاليين. وفي لحظات كان فرسان قلعة رباح قد تمكنوا من تجاوز قوات العدو، بل إنهم شرعوا في مهاجمة الأرجونيين من الخلف.

بغتة، لمح «مرتين» بين المسلمين أحد الرجال كان لا يتوقف عن إصدار الأوامر، «هو القائد الذي يتزعمهم». مر بخاطره. وسرعان ما أطلق صرخة:

- بالرب الحقيقي!

أخذ المحمدي حذره، لكن الرباحي كان قد أطلق العنان لفرسه، وانطلق في اتجاه المسلم، وما هي سوى هنيهة حتى كان «مرتين» قد نزل على رأس الأندلسي بضربة قوية من حسامه، سمعت لها طقطقة معدنية قوية، طارت على إثرها خُوذَةُ «أحمد بن إسحاق» في الهواء وقد تقطعت سيورها، وانزاحت لها عمرة الزرد إلى الوراء، وإذا بالقائد المسلم يسقط أرضا، وقد أصيب بجرح عميق.

كبح «مرتين» فرسه في وقت كان الأرجوني

يتنفس في قلق وجزع، وينزف دمه مدرارا من الجرح الكبير الذي شق رأسه على إثر ضربة السيف. كان الرجل يتكلم، لكن كلامه لم يكن مفهوما.

ـ سينتصر عليكم أميري. أيها الرباحيون الملعونون. ـ ردد أحمد بالرومانثية ـ سَيَظْفَرُ بكم كما فعل في «برج الحمام» وفي الجبال، وهنا. ـ أخذت قسمات وجهه تعبيرا عنيفا.

أمسك مرتين في قوة بمقبض سلاحه.

ـ هل أميرك هو من قاد تلك المعارك؟ ـ سأل وهو يشد على أسنانه.

لمح أحمد غضبه الشديد، فابتسم وهو واع بأنه يجرح كبرياء الفارس النصراني. غير أن المسلم كان وقتها قد خارت قواه ولم يعد قادرا على الإجابة، واكتفى فقط بالإيماء. كان الرجل على شفا الموت، فَسَهَّلَ عليه «مرتين» العبور، ذلك أنه ترجل، وهو يحدق في عيني المحتضر، وذبحه للتو.

ـ اللعنة عليك يا «ابن الأحمر». ـ فاه «الرباحي» بالعبارة والدموع في عينيه. ـ كنت السبب فيما لحقني من امتهان، وفي موت عمي. أقسم بدم هذا «المورو»، صاحبك، بأني، يوما ما، سأقضي عليك.

وسرعان ما أَفَاقَ «مرتين» من غَشْيَتِه، وقد تعالى ضجيج القتال، لكن في لحظة كان الحسم في المعركة قد تم لصالح النصارى. كان الأندلسيون يفرون من الميدان للنجاة بأنفسهم تاركين وراءهم جثث رفاقهم هنا وهناك، غير

أن الإفلات من الموت كان صعبا، والقشتاليون يتعقبون الفارين حتى مداخل «أرجونة».

عاد المسيحي إلى ركوب فرسه، وراح يتأمل البساتين حيث جرت آخر معركة. فصلى على روح الشهداء المسيحيين الذين سقطوا هناك قبل سنوات، ولم يتسن لهم أن يدفنوا حسب الطقوس المقدسة.

ـ لقد انتقمنا لكم. فارتاحوا في قبوركم هانئين وفي سلام ربنا.

***

**جيان، Jaén. ربيع 1235**

ـ «... ولم يظهر هؤلاء النصارى أي إحساس إنساني تجاه المهزومين، وتعقبوهم حتى البساتين. وما زلنا إلى الآن نجمع الجثث المتناثرة عبر الحقول..».

كان «محمد بن الأحمر» يُصْغِي باهتمام للمبعوث وهو يقرأ الرسالة التي أرسلها إليه والده. وقد عكس الخطاب مدى الحزن والأسى الذي اكتسح أرجونة، والدمار الذي حل بها.

ـ «... أذكر لما أراد أحمد بن إسحاق أن يواجهك، كنتما تقريبا طفلين، ثم كيف انطفأت في سرعة تلك الأحقاد التي كانت بينكما. فلتعلم أن صديقك وخادمك الوفي قد استشهد في المعركة، وهو يقاتل من أجل أن يحمي أراضينا».

أظلمت عينا «ابن الأحمر»، وتكدرت نظرته. خاصة حينما عرضت الرسالة إلى ممتلكات الأسرة التي

ألحقت بها الغارة أضرارا.

لم يرغب الأمير في سماع المزيد. فخرج من المجلس، وتوجه إلى محل إقامته.

ـ هاجم القشتاليون «أرجونة». ـ ما أن سمعت «عائشة» الخبر حتى رفعت يديها إلى رأسها ـ واستشهد عدد كبير من المسلمين، من بينهم «أحمد بن إسحاق». سأعين أخاك مسؤولا عن الرباط.

ـ شكرا على تذكرك إياه أخيرا، ـ ترددت المرأة بين الحزن لخبر الكارثة التي حلت بـ «أرجونة»، وبين الابتهاج للمنصب الذي أسند إلى أخيها. ـ إنه رجل نافع.

ـ إنه من أسرتي وعشيرتي، مثلك، ثم إنه رجل يستوفي الشروط.

ـ أجل، نحن، «بنو نصر»، الأسرة الشريفة المَحْتِد. ـ ترددت لهنيهة، ثم استطردت ـ قريبا سيكون بيننا نصري آخر، شكرا لله تعالى.

لم يتمكن «ابن الأحمر» من كبح ابتسامة. ثم رفع زوجته، وعانقها في قوة.

ـ سيكون ولدا ذكرا، أنا واثق من ذلك.

ـ حقا؟ وماذا ستختار له من الأسماء؟ ـ سألت هي والدموع في عينيها.

ـ سأسميه «محمدا» مثل والده.

***

غرناطة Granada. صيف 1235

شرع «قاسم» في صعود العقبات التي تؤدي إلى بيته. بعد فترة مر قريبا من المسجد الكبير، الذي كانت الأشغال قد انتهت به منذ أشهر معدودات. كان المسجد يباري في العظمة المسجد الجامع الكائن بوسط المدينة. «غرناطة أربعة مدن في واحدة». قالوا له حين وصوله، وهو ما تحقق منه، هو ذاته. «حي البيازين»، ويقع خارج الأسوار، و«القصبة»، وتطل على «وادي [نهر] حَدَّارُه»، و«المدينة» [البلد حسب الاستعمال الأندلسي المغربي القديم] وتقع على أبواب فحص غرناطة [La Vega]، ثم «ربض اليهود» في أسفل رابية السبيكة في الضفة الأخرى من النهر.

كان بيت «قاسم» بسيطا لا يتعدى كونه بناء من طين وجير، وسقفا بانحدارين، إضافة إلى صحن صغير في الجهة الخلفية. ومع ذلك عُدَّ الرجل محظوظا، فقد كانت أسرته من الأسر الأولى التي حصلت على مسكن قار. والحال أن بعض الأُبَّدِيين، وقد مرت سنتان على لجوئهم إلى «غرناطة»، ما زالوا يعانون من قساوة الحياة في الأكواخ، وأَخْصَاصِ الشجر أو القصب.

بحث «قاسم» عن «دنيا» في المطبخ، ثم قصدا معا «فندق الباز»، هناك، سأل الرجل عن «أمينة». كانت المرأة تدير دارا للبغاء في الطابق السفلي، حيث كانت خمس فتيات يبعن المتعة مقابل المال. وكان قد وصل إلى علم «قاسم» أن المرأة كانت في حاجة إلى فتاة جديدة.

- السلام عليك - سلم «قاسم» على المرأة

حينما برزت في الصحن الرئيس للفندق. كانت في متوسط العمر، ملامحها تذكر بجمال جذاب لم ينطفئ بعد. في حين كان شعرها المنساب وراءها مصبوغا بالحناء، وترتدي جلبابا أبيض مشوبا بالأحمر. ـ سمعت أنك تبحثين عن فتاة، وهذه ربما ستخدمك جيدا.

تراجعت «دنيا» إلى الوراء قليلا، ثم طأطأت رأسها، حتى تتمكن المرأة من تقويم «مؤهلاتها». وكانت الفتاة قد عاشت على إحسان أسرة قاسم مدة سنتين. غير أن ضيق الحال لم يعد يسمح للعائلة باحتضان الشابة مدة أطول، فقد كان الحي يكبر يوما عن يوم، والرجال يتنازعون مناصب العمل القليلة، والأسر تعيش تقريبا على الكفاف بما تملكه من موارد عيش غاية في الضعف. وهو ما كانت تقدره الفتاة، ويجعلها تشعر بالامتنان تجاه هؤلاء الناس الذين أحسنوا إليها. ومن ثم لم تكن تلوم أسرة «قاسم» وهي تبحث لها عن عمل.

ـ لقد غيرت طبيعة العمل، وباشرت أعمالا جديدة.
ـ قالت المرأة دون أن ترد حتى على السلام ـ أصبح لدي زبائن ذوو أذواق أكثر رفعة، ولهم ميولات خاصة.

ـ مع كل احتراماتي ـ بادر قاسم بالكلام ـ لم آت بالفتاة لممارسة ذلك. وإنما منصب الشغل الذي حدثوني عنه هو خادمة.

ـ إذا اشْتغلتْ معي خادمة لن يكون لزاما عليها أن تبيع جسدها للرجال، سوى إن فضلت هي ذلك بإرادتها. أوضحت القوادة. ثم حدقت بإمعان في

الفتاة. ـ أريد أحدا يعتني بالبيت والمخزن الذي استأجرتُهُ حديثا. وأيضا يتكلف ببعض احتياجات زبائني: من شراب، ـ قالت أمينة بصوت منخفض ـ وحلويات، وبعض اللباس... غرائب الأغنياء. في المقابل ستتمتع بفراش ووجبتين يوميا.

أخذ «قاسم» لنفسه بعض اللحظات للتفكير في الأمر.

ـ موافقة. ـ قاطعت «دنيا» الرجل والمرأة.

خص الرجل الفتاة بابتسامة ارتياح، كما لو أن «دنيا» بقرارها أزاحت عنه مسؤولية اتخاذ القرار.

ـ إذا كانت هي متفقة، فأنا متفق كذلك.

عند العودة فكر «قاسم» أن زوجته ستبتهج للخبر. فإضافة لقلة ذات اليد، كانت الفتاة تمثل للزوجة تهديدا، وإغراء مستمرا لزوجها، الذي قد يرغب فيها في أي لحظة.

***

ـ لا أشغل الرجال، يا «دنيا» ـ قالت صاحبة الماخور يوما للفتاة. لأنهم لا يتقبلون أن يكونوا تحت سلطة النساء. بيننا، نحن النساء، يكون التفاهم أحسن. ـ أومأت المرأة بغمزة من عينيها ـ إذا اشتغلت بعناية، ستكون علاقتنا أكثر من جيدة. هنا سَتَرَيْنَ أشياء كثيرة، لكن عليك بالتزام الصمت. لا تتحدثي عمن يأتي، ولماذا يأتي، لا تحدثي بذلك أحدا، ولو كان ظِلَّكِ. ستعرفين بعد حين أن أغلب الرجال يحتاجون إلى تسلية خارج بيوتهم. نحن الممثلات الذين نجعلهم يحسون أنهم أصحاب شأن، وأنهم أقوياء، وأنهم لم يصبحوا مسنين

بعد. وأنت ستتكفلين بوضع السيناريوهات.

فهمت «دنيا» المطلوب منها، فأومأت إلى المرأة بهزة من رأسها، دلالة على الموافقة. في تلك اللحظة خرجت امرأة من بيت الدعارة بشعر منسدل، ولكنه مشبك. هناك فقط، داخل تلك الجدران، كان يسمح بالظهور على تلك الشاكلة. اقتربت المرأة من خابية ثم شرعت في غسل نهديها دون أي خجل. كان عدد من الرجال ينظرون إليها من المخازن المحيطة.

ـ عليك بعرض البضاعة إذا أردت أن تغري الرجال. ـ همست «أمينة» في أذن «دنيا» في خُبْث، وهي تدفع بها إلى الداخل.

وبذلك تركت الشابة الأبَّدية نفسها تنجر نحو حياة جديدة.

كانت «دنيا» قد عانت من حصار مدينتها، ومن تخلي أمها عنها، ومن العيش في حماية الجيران مدة سنتين، فصارت تتحسب للفرص الجديدة وتثمنها. وتصر على شق طريقها في الحياة.

هذا هو مخزني الصغير، كنت مرغمة على اكترائه باسم أحد شياطين الحي. نحن النساء لا يسمحون لنا بتعاطي الأعمال، باستثناء الاشتغال في الدعارة. ـ كانت «أمينة» تشير إلى بويب صغير في الطابق السفلي من الفندق. ـ هناك، ستبدئين يوم عملك ـ بعد حين عاودا المسير، حيث ما فتئت الفتاة تسمع في وضوح تام تعاليق الرجال على مؤخرتها، والإحساس بنظراتهم الفاسقة مركزة على خلفها، كأنها صنارات أحد الصيادين.

***

**«برغش» Burgos. صيف 1235**

ـ أكيد هناك أخريات أجمل وأرقى. ـ قالت «برنگيلا» دون أن تفقد هدوءها، أو أن تتأثر بالغضب العارم الذي اجتاح ابنها.

ـ ألعن النابارييين، يا أمي. قبل شهر من التاريخ المحدد يلغون الالتزام. ـ لم يتمكن «فرناندو» من ضبط أعصابه.

ـ هذا مَقْصَدُ الرَّب، يا ولدي. لا بد وأن وراء ذلك سببا. إن ازدياد وليد ذكر لـ «تيوبالدو» جعله يغير رأيه. ولعله كان أمرا منتظرا. أنا لا ألوم الرجل. كان قد قَبِل بالاتفاق حينما كان أبا لطفلة فقط. أمَا وقد رُزق بوليد ذكر فالأمر مختلف. إن له الآن وليا للعهد سيخلفه.

كان ملك «نابارا» قد بعث بسفارة إلى «برغش» بمهمة إلغاء الاتفاق بينه وبين «فرناندو» بخصوص زواج ابنته «بلانكا» بـ «ألفونسو» ولي عهد «قشتالة». وكان حينها قد عاد «فرناندو» مظفرا من «الأندلس»، حيث قام بنهب فحوص «جيان»، و«أرجونة»، و«قرطبة»، وجدد اتفاق الهدنة مع «ابن هود»، فارضا عليه شروطه، ومستوليا على عدد من القلاع الكائنة بالحدود. غير أن الفرحة لم تكتمل بأخبار «نابارا» التي نغست عليه بهجته.

طرقت خادمة الباب، وأعلمت الملك وأمه بأن «بياتريث» تشعر ببعض الألم، وأنها تريد حضور زوجها.

- لن تستطيع الصبر إلى النهاية. ستضع الجنين قبل انقضاء مدة الحمل. - قالت «بريجيلا».

- أخاف عليها، أيتها الوالدة. لقد شددنا كثيرا على الحبل. أدعو الرب أن يحفظها، ويحفظ ما تحمله في أحشائها.

- كل شيء سيكون على ما يرام. فقد سبق لها أن أبانت في السابق عن قوة جسمها، وصحتها الجيدة. اذهب الآن إليها، وارفق بها، ولاطفها. إنها زوجة صالحة، أنجبت لك عددا من الأولاد الأصحاء الأقوياء.

غادر «فرناندو» القاعة، وهو منقبض النفس، مكدر النظرات. كان يحب «بياتريث»، ولا يطيق فراقها، إذ لم تكن الأميرة أما عطوفا لا تكف عن الاعتناء بأولادها فحسب، بل كانت أيضا زوجة بارة طيبة.

***

**ألمرية Almería. صيف 1235**

بحث الرجال عن ملجأ تحت ظل عريش فرارا من الحر الخانق، في حين أخذ «ابن هود» في صب الماء على وجهه وعلى شعره. فأحس ببعض البرودة المنعشة تسري في أوصاله.

- هذه الرطوبة اللعينة تقتلني.

- إن ذلك سببه الهواء. ما أن يتغير اتجاهه، ستكف عن التعرق. - أجابه «ابن الرميمي».

كان «ابن هود» قد قصد «ألمرية» بدعوى تفقد تحصيناتها. إذ بعد أن جدد اتفاقات الهدنة مع

«فرناندو الثالث» ملك «قشتالة»، ساد الهدوء منطقة الشمال. ومع ذلك، فإن ضرائب «إشبيلية» التي انضافت إلى خزينة «ابن هود» لم تكف لاستيفاء قدر الإتاوة التي تقدم لقشتالة نظير الهدنة، وهو ما حتم الزيادة في الضرائب المفروضة، وإثقال كاهل الشعب بها، مما أكسب الأمير أعداء جددا. غير أن «المرسي» بالرغم من مشاكله السياسية، فإنه لم يكن يفكر سوى في «خيمينا»، التي حملها معه إلى «ألمرية»، ليستفرد بها حسب هواه، وتلبي نزواته دون رقيب، بتواطؤ مع حاكم المدينة «ابن الرميمي».

من القصر يمتد البحر الأبيض المتوسط أمام الناظر أزرق بهيا تارة، ولامعا في لون الفضة تارة أخرى، كانت أشعة الشمس الوهاجة وهي تنعكس على صفحة الماء، ترسل بين الفينة والأخرى، بومضات ضاربة إلى البياض تسحر العيون قبل القلوب... وسط البحر، كانت عدد من مراكب الصيد تنشر شباكها في المياه القريبة، في حين، بدت بعيدا، بعض السفن التجارية وهي تغادر مرفأ المدينة في اتجاه الأفق القصي.

- هذه المدينة هي التي تستحق أن تكون عاصمة إمارتي.

في ذات اللحظة مر فوق رؤوس الناظرين طائر نورس تائه.

- هي لك. اصنع بها ما شئت. - في تلك الآونة خرجت «خيمينا» من الإقامة الرئيسية في القصر، وهي تحمل سلة من الورود. في تكتم واحتشام اقتربت الحسناء من بركة وألقت بالورود فيها،

فتناثرت الورود ألوانا زاهية فوق صفحة الماء.

- وهي أيضا لك - أومأ إليها بإشارة من رأسه - وأخيرا عملت بكلامي.

- أحبها - اعترف «ابن هود» - إنها نور أيامي.

- إنها أجمل من «ألمرية». إنها عاصمتك الحقيقية - أجاب الحاكم.

عادت الحسناء إلى الإقامة. فلم يطق «ابن هود» صبرا، واعتذر لـ «ابن الرميمي» في بلادة، وسار وراء «خيمينا». في الحال نزع «ابن الرميمي» الجلباب، وهو ينفخ ليخفف عنه الإحساس بالحر. ثم تتبع الفتاة بعينيه إلى أن اختفت داخل الإقامة، حيث استمر يتعقبها بخياله إلى غاية غرفة النوم.

***

طريق ليون Camino de León. خريف 1235

كان النفاس صعبا معقدا، غير أن «بياتريث» تمكنت أخيرا من وضع ابنتها «مارية». بقيت الأميرة بجنب ابنتها خلال كل المدة التي استطاعت خلالها التمتع بالحياة. ولدت الصغيرة ضعيفة عليلة، ومع ذلك كافحت من أجل البقاء، غير أن الرب اختارها إلى جواره باكرا. وقد اغتم والداها لفقدانها، وظلا حزينين عليها مدة. كان الملكان في الطريق إلى «پونفيرادا» حينما حصل ما لا يمكن دفعه. ومن ثم دفنت الصغيرة في دير «سان إيسيدورو دي ليون».

تابع الزوجان السفر عبر «مملكة ليون» بهدف نشر العدل بالمنطقة، وإيجاد حلول لبعض

القضايا. ومع ذلك فإن «بياتريث» لم تستعد عافيتها سريعا. وعند عودتهما توقف الملكان بـ «بيالوبوس». وهناك مرضت الملكة، فاضطر الزوجان إلى الافتراق، ذهبت الملكة إلى «تورو»، في حين سار «فرناندو الثالث» في الطريق المرسوم سلفا.

ـ اعتني بنفسك يا حياتي. وصلي من أجل ابنتنا التي هي الآن في رفقة الرب، واستعيدي عافيتك جيدا. ـ قال لها زوجها وهو يودعها.

يومان بعد ذلك فقط، وبينما كان «فرناندو الثالث» في طريقه إلى «ليون»، لحق بالركب أحد المبعوثين. أحس الملك بأن الأمر لا يبشر بالخير.

جرت دمعتان على خدي «فرناندو». وتمالك مدة ابتعاده عن الحاشية ورجال البلاط. كان الخبر فاجعة: توفيت «بياتريث»، وغادرت دون رجعة... فقد كان الوهن الذي أصابها بعد الولادة، وحزنها على موت ابنتها، قاضيين لتَفْقِدَ ما تبقى لها من طاقة، فخارت قواها، ولفظت أنفاسها الأخيرة. وبذلك ماتت الملكة، ووالدة ولي العهد، والمرأة التي جمعت بين دماء إمبراطوريتين عظيمتين، وزوجة «فرناندو الثالث» وهي في ريعان الشباب، بالكاد أكملت سن الثلاثين.

ولج الملك غابة حَوَر قريبة من مكان توقف الموكب، وهو يغالب تأثره الشديد، وسرعان ما أطلق صرخة ليخفف عن آلامه دون أن يهتم بأن يسمعه رجاله. وهناك قضى أكثر من ساعة وهو يبكي ويصلي، تحت وطأة ألم ممض سكن أعماقه ولم يفارق فؤاده خلال ما تبقى من حياته. لكن

«فرناندو» خرج من الأجمة هادئا مستكينا. كانت عيناه محمرتين، غير أنهما توقفتا عن البكاء. في الحين خف «لوپي دياث دي هارو» حامل لوائه إلى جنبه ليخفف من مصيبته، غير أن «فرناندو» منعه على الفور أن يقترب منه، بإشارة من يده.

ـ هل ما زالت بـ «تورو»؟ ـ سأل الملك وهو يكشر في شؤم غيَّرَ ملامحَ وجهِه.

ـ سيحملونها إلى «برغش»، سيدي. قالت ذلك قبل... ـ لم يكمل المبعوث عبارته.

ـ حسنا، لتدفن في «لاس ويلگاس»، وهو ما يناسب. لنعاود السير. ـ أمر «فرناندو».

ـ سيدي ـ توجه «لوپي» للملك بعيدا عن رجال البلاط. ـ ستغيب عن الجنازة؟

ـ عزيزي«لوپي» إنهم سيشرفون بحضورهم جسدا لا غير. أما هي فإنها انتقلت إلى السماء، مع الملائكة. وإني سأكون أقرب إليها حينما أغلق عيني وأصلي من أجلها، مني لو مشيت في جنازتها قريبا من نعشها. أنا ملك هذه النواحي، وهم في حاجة إلي منذ سنوات. فلنبين لهم كيف يتصرف عاهل جيد.

امتطى «فرناندو» حصانه، وتموضع على رأس الموكب ليقوده إلى الأمام. كانت النار الحية في فؤاده ما زالت متأججة شديدة، ولم يغب ذلك عن الرجال الذين شعروا بالفخر تجاه ملكهم. كان الخبر قد شاع بين الممالك والنواحي، فلقي الناس العاهل في جميع الأماكن التي نزل بها بالهتاف وعبارات الحب والوفاء بشكل عفوي.

كان «فرناندو الثالث» قد كسب حب واحترام الليونيين.

***

«أندوجر» Andújar. خريف 1235

وصل ثلاثة من الفرسان «الموروس» زعموا أنهم جاؤوا من «قرطبة» إلى نواحي «أندوجر»، في الحال تم إيقافهم واستفسارهم.

ـ جئنا باعتبارنا أصدقاء. نريد أن نكلم قائدكم. ـ قال أحد الثلاثة بلغة الرومانثي.

شك الفرسان الرباحيون في أقوالهم، فألقوا عليهم القبض، ثم اقتادوهم إلى «مرتين فرناندث البرغشي» الذي أخذ في استنطاق الثلاثة للتو.

ـ ماذا تفعلون هنا؟ ـ سأل «مرتين» مباشرة.

كان «الموروس» الثلاثة مقيدي الأيدي، ويحرسهم فارسان من فوارس «قلعة رباح».

ـ تركنا «قرطبة» لنستقر في أراضيكم. لم نعد نثق في أميرنا.

ـ أصحاب هذه الأرض مسيحيون وأنتم محمديون.

تبادل الثلاثة النظرات فيما بينهم. كانوا شبانا أقرب إلى سن الفَتاء. ثم أخذ زعيمهم الكلمة باسم الجميع:

ـ لندخل في دينكم. قدموا لنا وسائل العيش، وما يسهل حياتنا، ونبقى بينكم.

«شبان ضاقت بهم السبل: استاؤوا من ارتفاع الضرائب، وافتقروا بسبب الإجراءات التي اتخذها

أميرهم، اغتاظوا من أهاليهم، وسخطوا على زعمائهم، وهم يرغبون في بدء حياة جديدة». دار بخلد «مرتين».

- وإذا أعطيناكم بيتا وأرضا لتحيوا حياتكم العادية ما هو المقابل الذي ستقدمونه لنا؟

تردد المسلم قبل أن يجيب. لم يكن يتوقع أن يطلب منهم مقابلا. ثم، لم يكن لهم ما يقدمونه كمقابل سوى خدماتهم.

- بإمكاننا أن نرشدكم للقيام بغارات. «قرطبة» لا تتوفر على جند كثيري العدد. بإمكانكم اجتياح أراضيها دون أن يكلفكم ذلك جهدا كبيرا. - رد في الأخير.

- قرطبة غير محمية كما يجب، وضعيفة الحراسة؟
- لمعت عينا «مرتين» فجأة.

- أجل. الجنود يراقبون قطاعات من الأسوار يزداد طولها كل مرة. والحقول لا حراسة عليها. إضافة إلى أن الجند في حالة استياء، لا تصلهم أرزاقهم في الوقت المناسب، والأمير سفيه لا سمعة له.

- وإذا وصلت مفرزة إلى سور ربض الشرقية، وإلى «المحل المناسب»، يمكنها أن تحتل الربض بأكمله في سويعات - أضاف «مورو» آخر، وقد حفزته علامات الاهتمام التي بدت على وجه «مرتين».

تنهد الرباحي في قوة، وهو يحك عينيه. كان يحس بالتعب. فقد كانت مشاركته في الحملة الأخيرة التي نظمها «فرناندو» قد أرهقته كثيرا، وتركته مستنفدا منهوكا.

ـ وأنتم بإمكانكم أن تأخذونا إلى... ذلك «المكان المناسب»؟

ـ بعيون مغمضة ـ أجاب الأندلسي.

ـ حسنا. سلموا الثلاثة بيتا يقيمون به، وأقطعوهم أرضا لزراعتها. ـ ثم نظر إلى رجاله ـ قبل ذلك فاتحوا الحاكم بالأمر، وليَكُنْ على علم بكل شيء. أما أنتم ـ توجه بالكلام إلى «الموروس» ـ فإننا سنرى لاحقا كيف ستؤدون ما ستتلقونه منا.

***

جيان **Jaén**. خريف **1235**

كان «أشقيلولة» عائدا من يوم قضاه في الصيد، برفقة مربي بُزاته، وخادمَيْن من الساهرين على كلابه، حينما لقيه «ابن الأحمر» وطلب منه أن يجتمع به عند السور الذي يطل على جهة المدينة.

من الدرب في أعلى السور كان بإمكانهما تأمل البلد، وقد انتصبت وسطه بارزة بناية المسجد الجامع. كانت أسوار المدينة قوية متينة، وتخضع بعض قطاعاتها لعمليات ترميم وإصلاح. كان المشهد يمتد بعيدا في الأفق إلى غاية السلاسل الجبلية، وفحص «جيان».

ـ كيف حال الحقول؟ ـ سأل الأمير.

ـ تعود إلى حالتها الطبيعية بالتدريج. تم غرس الأشجار بالرغم من أنها ستتأخر في إعطاء ثمارها سنوات. في فصل الربيع المقبل سنضطر إلى جلب

الفاكهة من خارج المنطقة.

ـ يجب علينا القيام بعمل عسكري ما، لنفرض على هؤلاء النصارى احترامنا، وحتى لا يقع، ما وقع، مرة ثانية.

وضع الجد يده على كتف الأمير وخاطبه بصراحة:

ـ أنت أمير صالح، ذكي أريب، وثابت العزيمة، غير أنه ما زال أمامك الكثير لتتعلمه. لتعلم أن الحاكم الجيد هو الذي يستخدم القلم أكثر من السيف. انظر إلى «ابن هود»، ماذا حقق بمواجهاته للقشتاليين؟ ـ ترك السؤال معلقا في الهواء لبعض اللحظات ـ حقق سقوط قلاع مهمة في يد النصارى، وتأدية إتاوات ضخمة لـ «قشتالة». لا تتبع طريقه. «قشتالة» سور ينبغي عليك تفادي الاصطدام به. فاوضها، غير اتجاه انتباهها، بهذه الطريقة وحدها تستطيع الإفلات من قبضتها.

أخذ «محمد» يفكر في الأمر، ويُقَلِّب أوجهه. هو يكره القشتاليين، لكنه لا يملك وسائل حاسمة لمهاجمتهم، والوقوف في طريقهم. قد يتمكن من الاستيلاء على إحدى القلاع، غير أن ردة الفعل القشتالية ستكون أقوى بعشر مرات من إساءته لها. ومن ثم، لن يُفيد سوى الدمار من حرب مفتوحة ضد «قشتالة».

ـ لا نملك الأموال لتأدية الإتاوات. ـ نطق أخيرا.

ـ إذن، عليك بالصبر. واحذر ردات الفعل، والتزم الهدوء، وأقبل على صلاتك. فإن الله سيضع بين يديك الحلول، وستُحْسِنُ الإفادة منها. أنا واثق من ذلك.

حفزت كلمات «أشقيلولة» ابن الأحمر. ودون أن يشعر وضع يده على القلادة، وتحسس قطعته النقدية الرومانية. رفعها ثم تأمل صورة العسكري. فكر في أن زمان التدريبات العسكرية والغارات قد ولى وأصبح بعيدا، وأنه أصبح اليوم أميرا، وعليه أن يتخذ قرارات صعبة مريرة. وإن المعارك التي ما زالت تنتظره لن يتأتى خوضها عبر ميادين مفتوحة، بل في دواوين الكتاب والمساعدين.

ـ كم أحن إلى تلك الأيام التي كنت فيها أدافع عن «أرجونة» بالحسام والمقمعة. ـ تمتم مودعا ثم سار في اتجاه قصره، يريد اللقاء بـ «عمر الحسون» ليعطي لنفسه فسحة تفكير وإشراق. كان يرغب في أن يهديء من روعه، ويُسَكّنَ من نفسه، وهو يشعر كما لو أنه خان الروح القتالية فيه. ولا غرو، فقد أصبحت إمارته تحت وطأة سلطات أكثر قوة لا قبل له بمقاتلتها.

***

قرطبة Córdoba. شتاء 1236

غادر فرسان «قلعة رباح» يقودهم «مرتين فرناندث البرغشي» «أندوجر» في الفجر، ووصلوا «قرطبة» ليلا. وكان «الموروس» الثلاثة المتحولون عن دينهم هم من تكلفوا بإرشادهم عبر الطرق الأقل حركة، والبعيدة عن القرى والبلدات. كان البرد قارصا غير أن عزم وتصميم المفرزة كانا أقوى بكثير من البرد أو من أي عائق آخر.

كان «مرتين» قد قضى أسابيع وهو يدرس ويخطط لتلك الحملة، يسمع مرة للمرتدين الثلاثة، وأخرى يرسل بالحمام الزاجل إلى «مَرْتُش»، وقلاع أخرى تقع بالحدود. على إثر هذه المجهودات تمكن من جمع ثلاثمائة مقاتل بـ «أندوجر» وهيأهم للقيام بحملة على قرطبة. لقد كان الرجل طموحا سامي الهمة، لم يشأ أن يضيع هذه الفرصة، فإذا كان «ربض الشرقية» غير محمي بما فيه الكفاية، كما زعم المرتدون، فإنه، ربما، بمساعدة من الرب، قد يستطيع برفقة رجاله أن يتسلل إلى «قرطبة» ويحقق مغانم جديدة بملكه.

كانت الليلة صَاحِيةً، والهلال المتزايد يضيء الحقول والأرياف. بعيدا لمح الرجال سور «ربض الشرقية» أو ما يعرف بـ «الشرقية» [أحد الأرباض الخمسة التي كانت تتكون منها قرطبة في ذلك الوقت]، كان السور يبدو في عتمة الليل، وتحت لمعان الكواكب والنجوم، ضاربا إلى البياض، تتخلله من أعلى، أعمدة الدخان المتصاعد من بيوت القرطبيين.

ـ هناك، بالتحديد، تتأخر نوبات الحراسة في المرور. ـ قال أحد المنقلبين عن دينهم، وهو يشير إلى نقطة معينة في السور، بالقطاع الشمالي منه. ـ ينبغي أن تذهب قلة من الفرسان إلى المكان، والباقي يمكنهم الانتظار هناك بين أشجار الزيتون. ـ قال أحد «الموروس» وهو يشير بسبَّابته إلى حقل زيتون صغير يقع بالجنوب، قريبا من [نهر] الوادي الكبير.

رصد «مرتين» تفاصيل المكان رغم بعده عنه، ثم وافق على كلام المرتد. وقد وضحت خطة الاقتحام في ذهنه.

- لننتظر حتى ينتصف الليل.

على الإثر شرع الرجال، [وهم من أهل الحدود المغاورين المحترفين]، في تعيين مواقعهم عند الهجوم، بواسطة لعبة زَهْر النَّرد. كان كل منهم يرغب في أن يكون من السباقين إلى تسلق السور. على إثر ذلك تم تعيين زمرة من عشرين مقاتلا ليضطلعوا بهذه المهمة، على أن يلبسوا اللباس الإسلامي، عملا بنصيحة المنقلبين عن دينهم، أي ارتداء الجلابيب فوق الدروع والزرد.

بعد حوالي ساعتين من الانتظار، غابت أثناءها أعمدة دخان البيوت من فوق الأسوار، حملت الزمرة السلالم، واقتربت من سور «ربض الشرقية» الشمالي. كان الهدف بدءا هو حساب الزمن بين مرور دورية وأخرى، ومن ثم، معرفة الوقت المتيسر لهم للقيام بالهجوم. في ذات الوقت كان باقي جند السرية يتحولون إلى ناحية الجنوب عبر عملية التفاف كبيرة، نحو الباب التي أكد القرطبيون المرتدون سهولة الولوج منه لـ [عاصمة الخلافة الأندلسية القديمة].

وبقدر ما كان الفجر يقترب كان البرد يزداد حدة. وبينما الرجال يرتجفون من القر بين الأحراش، إذا بالرجل الشمالي الجلف الذي يقودهم [يعطي، في غبش الفجر، وفي غفلة السحر في ثالث شوال من سنة 633 هـ موافق 1236م] الإشارة المتفق عليها. كان وقتها قد اختفى

الحارس «المورو» وراء أول برج. وهو ما انتهزه القشتاليون العشرون، وأسرعوا إلى أسفل السور، ووضعوا السلالم على الجدار، تحميهم ظلمة الليل، ثم صعدوا إلى أعلى السور في خفة. وهناك في الدرب تدفقوا نحو الجهة التي سار بها الحارس، وسرعان ما لحقوا به بعد تخطيهم لبرجين، وفاجأوا الرجل من خلف، وذبحوه في الحال، ورموا بجثته من أعلى، خارج السور. من موقعهم تأملوا الربض، ناحية رحبة قليلة العمران، تتخللها [بيوت ريفية] وأراضي بور. كانت السكينة تعم المكان، والقرطبيون يهنؤون بنومهم، جاهلين الهجوم الذي وقع عليهم. لم يلبث المقتحمون أن دلفوا إلى أحد الأبراج حيث التزموا الصبر والهدوء، حسب الخطة المرسومة، في انتظار وصول النوبة القادمة إليهم. ولم يكن الفارس ليتأخر، فقطع إربا بضربات سيوف النصارى العشرين الذي انهالت عليه من كل جانب. وأخيرا وقد أصبح الطريق مؤمنا أمامهم، تقدم القشتاليون نحو الجزء الجنوبي من السور، ومن هناك فتحوا باب الوادي ليفسحوا أمام رفقائهم السبيل لولوج قلب الربض.

كان فرسان «قلعة رباح» أول من عبر المَقْصَبَة الواقعة بين سور «ربض الشرقية» و«الوادي الكبير». وهناك أمنوا مواقعهم. حينها، وقد تموضع النصارى جيدا في قلب الربض، بدأت تسمع أصوات محذرة من مدينة «قرطبة»، وسرعان ما تعالت الصرخات من الدور الواقعة قريبا من «باب الوادي».

ارتجل «مرتين» خطة، وبعث بزمرة من الرجال إلى الدرب في أعلى السور. كان القائد الرباحي قد تخلى عن فكرة الغارة، والاكتفاء بالسلب والنهب، وعزم على الصمود في الأبراج، ريثما تصلهم الإمدادات التي طلبها القائد.

ـ أيها الفرسان! إلى أبواب المدينة! ـ صرخ القائد بأعلى صوته من صهوة فرسه، وهو يسرع، محاطا بالجند القشتالي، نحو السور الأوسط الذي يفصل قرطبة إلى مدينتين.

اقتحم النصارى شوارع «الشرقية» وهم يصدون بعض القرطبيين ممن هبوا للدفاع عن مدينتهم كيفما اتفق. في الحال بدأ الناس يرمون النصارى بالحجارة، وحتى بعض النبال. كانت النساء والأطفال يفرون من مكان إلى آخر، وهم في حالة من الهلع لا مزيد عليه، بينما أخذ الرجال يتجمعون في زمر منفردة استعدادا للمواجهة. في الآن نفسه، ومن أحد مآذن الربض، جعل أحد المؤذنين يدعو الناس للجهاد.

في هذا الخضم، استمات الرباحيون في الدفاع عن الأبواب الرئيسية، أمام إصرار حراس المدينة على السيطرة عليها لاستئصال العناصر الرباحية التي اقتحمت «الربض الشرقي». بعد قتال قصير، تمكن النصارى من التغلب على المدافعين المسلمين، والتحكم في الأبواب وسدها. أما في الأسوار فقد واصل المشاة الرباحيون صد المهاجمين القرطبيين عن الدرب في أعلى السور الذي استولوا عليه، والذي كان يتصل بسور آخر من أسوار المدينة عبر نقطتين.

في هذا الخضم كان أغلب سكان الشرقية قد تمكنوا من الهروب من ثلمتين بالسور الأوسط، بعد أن كانت أصواتهم تسمع من بعيد، منذ الصباح الباكر. ومع ذلك تمكنت فصيلة مكونة من سكان الحي من التصدي لحملات كتائب «مرتش»، وأوقفتها عن التقدم. وكذلك فعلوا مع ثلاث اقتحامات قام بها القشتاليون، حيث تمكن الأهالي من صدهم. كان القرطبيون يحاربون بصدور عارية، ويلتحمون مع العدو التحام القانط، يساعدهم كثرة العدد، والشعور باليأس. وسرعان ما ارتجلوا مِتْراسا، مستخدمين بعض الحجارة، ومستعينين بأدوات فلاحية لخدمة الأرض. تفطن «مرتين» لصعوبة الموقف، فهب إلى المكان مع ثلاثة من فرسانه. فكانت هذه القوة الصغيرة كافية لصعق المقاومة القرطبية، وفسح المجال لقوات «مرتش» لإتمام العمل في اجتياح المتاريس، والقضاء على ما تبقى من مقاومة.

سيق بقايا القرطبيين الذين مكثوا بالربض باعتبارهم رهائن وزج بهم في مسجد. وبذلك تمكن القشتاليون من السيطرة التامة على «الشرقية»، وحانت لحظة طلب الإمدادات.

***

بنابنطي Benavente. شتاء 1236

سقطت الكأس من يد «فرناندو الثالث». فكسر صوت الارتطام المعدني السكون المخيم على الغرفة، غير أن الملك استمر في شخيره دون أن يشعر بأي شيء. فمنذ وفاة زوجته أصبح «فرناندو» مدمنا على الشراب عساه بذلك يخفف

من الألم العميق الذي يعذب روحه.

نظرت «برنكيلا» إلى ابنها بعطف. فقد كانت تعلم أن وفاة زوجته «بياتريث دي سوهابيا» كانت ضربة قاسية. فلم يكن يتوقف عن البكاء حينما ينفرد بنفسه في غرفته، ويبحث عن العزاء في صلواته المستمرة التي يؤديها في ورع وإخلاص، متقربا من ربه. وقد اعتبرت الملكة ذلك راحة لروحه ليستعيد الطمأنينة، والتوازن النفسي، خاصة وأن الخريف كان تلك السنة هادئا في مملكتهما، والشتاء بارد غزير المطر، وهو ما كان يمنع من السفر. غير أن أمرا حدث عكر سكون الخريف، واستوجب في عجالة أن يعود الملك إلى ممارسة حياته، العادية ويبين لحاشيته وشعبه أنه العاهل الذي تعودوا عليه.

- ابني، هناك أخبار - قالت «برجيلا»، ثم صمتت للحظة. - ابني! - كررت دون طائل.

خرجت الملكة من الغرفة ثم عادت بعد قليل وهي تحمل جرة ما لبثت أن صبت ما بها من ماء على رأس الملك. في الحال استيقظ فرناندو فزعا، وهو يحرك يديه في الهواء، وينفخ حتى لا يبلع الماء.

- قشتالة في حاجة إليك، أحد رجالك في أخوية السلاح التي تنتمي إليها وصل للتو من قرطبة.

فرك الملك عينيه، ونهض قائما.

- ما الشيطان الذي سكنك يا أمي؟ - قال الملك في تذمر. - هل قلت قرطبة؟

- هل سمعت جيدا؟ أجل قرطبة. اجتاح رجال

مغاوير من أهل الحدود، وفرسان من «قلعة رباح» المدينة المسورة، واستولوا على أحد الأرباض عن طريق المباغتة.. والآن ما زال الرجال داخل النطاق المسور صابرين لمضايقات المسلمين، ويطلبون منا أن ننجدهم. هل أدركت الوضع؟ إنها وضعية دقيقة. نحن مرتبطون باتفاقات مع «مورو» «مرسية»، ويؤدي عنها الإتاوات، و«قرطبة» تابعة له.

ـ نعم، فهمت، فهمت. ـ تمتم «فرناندو» ثم صمت للحظة يفكر في الأمر. في الحال شعر الملك بأن القوة أخذت تعود إليه من جديد، وأن عقله شرع في عقلنة الأمور بوضوح. ـ لن أكون أنا من خرق الاتفاقات، بل فرسان «قلعة رباح» وأهل الحدود. ـ كان أول ما نطق به «فرناندو»، واستجابت له أمه في الحال. ـ الآن، يصبح واجبي كملك هو أن أساعدهم. وقبل ذلك أعيد لـ «ابن هود» آخر إتاوة توصلت بها منه. وعليه، فإني سأغادر غدا إلى قرطبة لمساندتهم.

أثارت المبادرة التي عزم عليها «فرناندو» أمه. وداخلتها الشكوك.

ـ نحن لم نستدع الجيش.

ـ سأصحب معي قوات الكتائب «البينابِنطية»، وفي الطريق ستفد علي الوفود [من حشود «قشتالة» و«ليون»، ومن فرسان الجماعات الدينية]. هذه «قرطبة» يا أمي. باب الوادي الكبير، ولا مجال لإضاعة الوقت.

ـ هذه هي الرؤى التي كنت تراها في منامك،

ويرسلها إليك الرب... ـ كانت «برنگيلا» تبكي تأثرا ـ هيا اقصد «قرطبة»، وقُد جيشك إلى النصر، واستول على العاصمة الإسلامية لتصبح ملكا لـ «قشتالة». وأنا سأتكلف بألا ينقصك شيء خلال حصارها.

عانق الولد أمه، واختلطت دقات قلبيهما القويين، وراحت تخفق في إيقاع واحد منتظم.

***

**قرطبة، Córdoba. شتاء 1236**

ـ توقف هطول المطر لفترة قصيرة. غير أن الأرض كانت ملطخة بالوحل، وهو ما يحول دون تقدم القوات بيسر. كان «فرناندو الثالث» قد غادر «بينابنطي» في صباح اليوم الموالي لوصول الرسول، على رأس كتائب «بينابنطية» وأخرى «سمورية»، بعد أن أمر القشتاليين والليونيين والإكستريمادوريين بالالتحاق به. في الطريق انضم إليه بعض النبلاء، غير أن قواته ظلت صغيرة لا تفي بتحقيق الهدف الكبير الذي وضعه نصب عينيه، فبدا كأن الحملة ستكون صعبة، وأن الهدف معقد، والأمطار الغزيرة التي لا تتوقف تعاكس مرماه. لكن هذه التجربة العصيبة دفعت بالملك إلى مغادرة الحداد. فقد قوت هذه الظروف المعاكسة من قوته النفسية، وسرعان ما استعاد حيويته وهمته، فامتطى، وسط شدائد العاصفة وأهوالها، جواده، وسار يصارع المطر والبرد وهو يتوجه نحو الجنوب تحدوه رغبة عظيمة في تحقيق حلم قديم كان يراود المسيحيين خلال قرون، وهو الاستيلاء على عاصمة الخلافة

الأندلسية. وكان أخوه «ألفونسو» نعم الرفيق في الطريق حيث لم يقصر في دعمه طوال الرحلة.

بعد اجتماع ترأسه «فرناندو» وحضره الأشراف وقادة الجيش، قطعت القوات النصرانية الوادي الكبير عند قرية «القُلَيْعَة» **Alcolea** ومن هناك، عبر الضفة الجنوبية «للوادي الكبير» سار النصارى في اتجاه «قلعة الحرة» **Calahorra**، وهي القلعة التي تحرس الجسر الذي يؤدي إلى قرطبة. فوصلوها سريعا، حيث وجدوا جند «مَرْتُشْ» قد أقاموا معسكرهم بها، و«ربض الشرقية» لا يزال في قبضة المسيحيين، في حين لم يتبق في يد المسلمين سوى السور الذي يفصل بين «ربض الشرقية» [وما يطلق عليه «المدينة»، أي مركز الحاضرة القرطبية الذي كان يضم الأرباض الأربعة الباقية].

وبالرغم من أن الملك كان مبللا، طلب في الحال الاجتماع بفرسان «قلعة رباح». فأُحْضِر «مرتين فرناندث البرغشي» أمام الملك، باعتباره القائد الذي تمكن من قطع الوادي الكبير وانضم إلى قوات «مرتُش» لقيادة الحصار. ولما مَثُلَ الرباحي أمام ملكه انحنى، وقبل يده بتأثر.

- سيدي، أنا لا أخدم سوى الرب وملكي.

تطلع إليه «فرناندو» بلا مبالاة.

- لا بد أنك كنت تعلم أننا أمضينا اتفاقات هدنة مع ملك «مرسية». - قال «فرناندو» بنبرة لا تستوجب جوابا. - ومع ذلك أغرت على قرطبة،

واستوليت على أحد أحيائها. ـ بدأ «مرتين» يتصبب عرقا ـ وهذا القرار يخالف ما قرره الملك الذي تخدمه.

ـ أنا فقط... ـ حاول «مرتين»، وقد امتقع وجهه، أن يشرح الأسباب التي دفعت به إلى القيام بهذا العمل. غير أن «فرناندو» أوقفه بتكشيرة.

ـ لقد وضعتني في موقف حرج يستدعي قرارا صعبا. ومع ذلك فإن شجاعتك قد قدمت لي فرصة جديدة. إن «قرطبة» ستصبح نصرانية قبل نهاية السنة. وهذا ما يبرئ ساحتك. ـ أصدر الملك حكمه. ثم أمر البرغشي بالانصراف، فعاد إلى وجنتي «مرتين» لونها الطبيعي. وقبل أن يغادر الرباحي الخيمة توجه إليه «فرناندو» قائلا:

ـ لا تكرر هذا الفعل مرة أخرى، إياك أن تتصرف نيابة عن ملكك.

طلب العاهل القشتالي من أحد الحراس أن يأتيه بحساء بعد انصراف «مرتين». كانت الأمطار والبرد قد نالوا من صحته، والحصار بدا أنه سيطول. أخرج صليبه الذي يحمله معه في حروبه، وجثا على الأرض ليصلي. في أول الأمر ذكر «بياتريث»، وصلى من أجل روحها. ثم سأل الرب المساعدة في الاستيلاء على «قرطبة»... فإذا كانت آلة الحصار قد شددت على المدينة، فإن عدد الجند المسيحي لم يكن كافيا للاضطلاع بهذه المهمة الصعبة. ومع أن القشتاليين والليونيين سيرفعون من أعداد المحاربين النصارى قريبا، في الأيام القادمة، إلا أن «فرناندو» وقواته كانوا إلى غاية وصول الإمدادات معرضين لعملية عسكرية من

قبل «ابن هود». خاصة وأنه شاعت في المعسكر أخبار تقول بأن ملك «مرسية» قد غادر عاصمته على رأس جيش كبير، [قوامه خمسة وثلاثون ألف مقاتل]، وأنه عسكر في تلك الأيام بـ «إِسْتِجَة» Ecija، على بعد مسافة قصيرة من المعسكر النصراني.

ـ يا إلهي، اتركه بعيدا عنا، أما الباقي، فإني سأتكفل به ـ وبذلك ختم الملك صلاتَه ودعواتِه.

***

إستِجَّة Écija. شتاء 1236

امتد المعسكر الإسلامي على رقعة أرضية في مساحة بلدة. وانتظمت الخيام مرصوفة في مربعات محكمة، بينها شوارع تمر عبرها يوميا عربات التجار، والمكلفين بحمل المؤن والأقوات من العسكريين. كان جند «مرسية»، و«إشبيلية»، و«قرمونة» و«إستجة» ينتظرون نافذي الصبر أوامر التقدم، غير أن «ابن هود» بدا كما لو أنه يتردد في إطلاق إشارة التحرك، بالرغم من أن الرجال كانوا قد قضوا مستقرين بالمكان خمسة عشر يوما، يقاسون من الوحل والأمطار والبرد.

وبينما الناس تنتظر، إذا بأحد موظفي الإدارة الهودية، يلج المعسكر ويبلغ رؤساء الجيش تعليمات «ابن هود». ذلك أنه بعد أسبوعين من التداول والتشاور، قر قرار الأمير بعدم الذهاب إلى «قرطبة»، وأن جزءا من الجيش سيظل بـ «إِسْتِجة»، في حين سيقود هو باقي الجند إلى «إشبيلية»، في انتظار أن يتغير مجرى الأحداث

ويصبح في صالحه. وحسب الأخبار التي تناقلها الجواسيس، فإن الجيش المسيحي تلقى في الأيام الأخيرة حشودا من القشتاليين، والليونيين، وأنهم شددوا الحصار على العاصمة الإسلامية، بالرغم من أن تزود النصارى بالأقوات والمؤن ما زال دون المطلوب ولا يفي بالغرض.

جرى القرار الذي أصدره «أمير المسلمين» بين الناس، وشاع في المعسكر، فكان أول رد فعل من أفراد الجيش الأندلسي هو شعورهم بالقَلَق، وإصابتهم بالحيرة. إذ أنهم لم يحتشدوا هناك للانسحاب دون قتال، خاصة وأن المدينة المهددة كانت عاصمة الأندلس القديمة «قرطبة». ولكم طرق سمع الرسول وهو في طريق عودته إلى «إستجة» صياح الجند وهم يرددون:

ـ جبان! جبان!

دون أن يجابهوا بأي عقاب، لأنه لا يمكن أن يكون هناك عقاب. فلم تكن تتوفر «إستجة» على رجال كافيين لإلقاء القبض على هؤلاء الجند جميعا. وبذلك أظهر «ابن هود» مرة أخرى عدم أهليته، وتخاذله، وهو يترك «قرطبة» عاصمة الأندلس لمصيرها.

***

أرجونة Arjona. شتاء 1236

ـ انظر كيف تصيح «عائشة»، كأنها الوحش. ـ قالت «مريم» وهي تضع يدها على كتف «كمال».

تجاهل الفتى كلام الجارية، بينما عادت هي إلى تناول الخمرة، وقد لمعت عيناها.

كانت «عائشة» تعاني من آلام المخاض، والقابلة لا تتوقف عن حثها على الدفع. كان الصراخ يسمع عبر جدران البيت، في حين جلس «محمد» في الفناء مصاحبا بأقربائه المقربين ينتظر. كان قد دبر أموره ليرى ابنه النور في «أرجونة»، ومن ثم انتقل مع أهله إلى بلدته أياما قبل الوضع. كان الأمير قد قضى ساعات وهو ينتظر المولود. بين الفينة والأخرى كان الطبيب يخرج ليطمئن الأسرة بأن كل شيء على ما يرام، وأن الجنين في وضع طبيعي في رحم أمه، وأن الولادة ستكون سهلة.

ـ ها قد كافأك المولى تعالى بهذه الهدية. ـ قال له «أشقيلولة».

ـ هذه بركة من الله تعالى. ـ سُمع لحظتها صراخ آخر، أعقبه صوت القابلة، وهي تشجع «عائشة» على الدفع بوليدها إلى الخارج. ـ كل ما أريده أن يكون الوليد وأمه في حالة جيدة.

ـ سيكونان كذلك. ـ قال «النبلي» وهو يربت على ظهر الأمير. ـ غير أني أعني هدية أخرى من الله تعالى وهي حصار «قرطبة».

ـ لا أعتبر القرطبيين إخواني، فقد طردوني وسبوني. فليسقطوا في يد «فرناندو».

ـ سيسقطون دون شك. فـ «ابن هود» المغفل أعطى للنصارى الوقت الكافي ليتسلموا الإمدادات. ومن ثمة أصبحت قرطبة محكوما عليها. غير أنك تستطيع أن تفيد من هذا الوضع. اعرض على الملك القشتالي المساعدة، وحول انتباهه نحوك. تودد إليه، واسترضه.

ازدادت صَرْخَاتُ المرأة حدة، وبدأت القابلة تهنئها على مجهودها. كان النفاس يسير سيره الطبيعي، ولم يتبق سوى قليل لينتهي.

ـ غير أن التزام الحياد شيء، والتحالف مع المسيحيين هو شيء آخر. ـ أجاب «ابن الأحمر».

ـ إن المَرِنَ لا ينكسر يا «محمد». على السياسي أن يتصف بالمهارة الدبلوماسية. لأنك إن جابهت القشتاليين فلن تحصل على طائل. «قشتالة» أسد نائم لا ينبغي لنا أن نوقظه. يجب أن نتعلم التعايش معه. لا تنس ذلك.

توقف الصراخ، وسمع بكاء الوليد.

ـ فليحضر الأب! ـ قالت القابلة حين خروجها من الغرفة، وقد علت محياها ابتسامة عريضة.

ـ سأراجع الأمر، يا جدي، سأفكر في الموضوع. ـ عقب «محمد»، وهو يسرع نحو زوجته.

ـ ذكر ـ قالت المرأة وهي تسلم إليه الوليد ملفوفا في ثوب كثيف.

ـ مبروك يا ولدي. ـ قال يوسف لـ «محمد» وكان قد سارع إلى الجلوس بجانبه. ـ مولود ذكر آخر لنحافظ على مجد «بني نصر».

شعر «ابن الأحمر» أن الوافد الجديد ملأ فراغات لم يعد يبالي بها منذ زمان. ابتسم وقد تَخَضَّلَت عيناه رطوبة.

ـ كنت أعلم ذلك ـ تمتم وهو يتأمل وجه الوليد إعجابا.

أثناء ذلك سمحت نساء الدار بأن يقترب باقي

أبناء «محمد» لرؤية الوافد الجديد. فكانت «مؤمنة» و«شمس» أول من اقترب منه. قبل «محمد» ابنتيه بحب وعطف في الجبهة، ثم عرض عليهما أخاهما. بعد ذلك جاء دور الأبناء الصغار، «فاطمة»، و«يوسف»، و«فرج». كانوا يرفعون أذرعهم، ويطلبون من والدهم أن ينزل الوليد من ذراعيه حتى يتسنى لهم رؤيته. بعد ذلك بقليل، وبحركات طقوسية قرب «محمد» شفتيه من المولود وأذن في أذنه، ثم بعد ذلك جثا على ركبتيه.

- هذا أخوكم.

- ماذا ستسميه يا أبتِ؟ سألت «فاطمة».

- «محمد» مثل اسمي. سيكون «محمد» الثاني في الأسرة.

بعد ذلك دخل الأب في فخر إلى الغرفة، حيث كانت «عائشة» تستريح، وقد غطاها العرق والدم.

- زوجي، قد أصبحت أكبر سنا لأتحمل الحمل والنفاس. هل ستقنع بالأولاد الأربعة الذين منحتك إياهم؟

- لقد فعلت حسنا.

وضع «النصري» الطفل على صدر أمه، ثم جلس بجانبها. من الخارج كانت تصل الضحكات وعلامات الابتهاج. ثم أخذ الزوج يلاطف شعر زوجته. في تلك اللحظة كان الزوجان في غاية السعادة. وبدا كما لو أن مشاكل الإمارة أصبحت أصداء بعيدة تذروها الرياح.

***

قرطبة Córdoba. ربيع 1236

سمعت الضربات قوية وسط سكينة الليل، فخلخلت الهدوء السائد في واجهتي السور الذي يفصل «المدينة» عن «ربض الشرقية». على الإثر أنذر الحرس القشتالي بالخطر. في حين استمر الدق على البوييات الثلاث الصغيرة في السور. بعد لحظات، برز عدد من القواسين المسلمين في أعلى السور الفاصل، استمر دك الأبواب بآلة «رأس الكبش» التي تستخدم عادة في تدمير الحواجز، وتخريب الأسوار بسهولة. كان هذا الاستمرار في الدك لصالح النصارى لأنه منحهم الوقت الكافي لتنظيم الدفاع. لم يكن هذا الهجوم الأول من نوعه، لكنه بدا كأنه الأضخم.

في دقائق معدودات كان فرسان «قلعة رباح»، وكتائب المجالس على أتم استعداد، وراء المتاريس القائمة في الشوارع المؤدية إلى السور، للتعامل مع التحرش الإسلامي. كان رجال «أندوجر» المكلفون بحراسة السور، قد أعلموا بالمشاعل المعسكر المركزي، في الجانب الآخر من النهر بالحادث الجديد. وهو ما حدا بـ «فرناندو الثالث» إلى إصدار الأمر بأخذ الأهبة للدخول في المعركة في حالة ما إذا عزم القرطبيون على الخروج.

وأخيرا، انشق أحد الأبواب، وكسرته بعد ذلك بالكامل آلة «رأس الكبش» فسمع لذلك صوت قوي. حينها بدأ المقاتلون الأندلسيون يعبرون الأسوار، بينما تكلف القواسون برمي السهام

على الحواجز تغطية لهجومهم. وبعد ذلك بلحظات تم هدم البابين الآخرين، وهو ما فسح لعدد أكبر من الرجال للعبور حاملين أسلحتهم إلى «ربض الشرقية». كان الليل بهيما حالك السواد، والسماء مغلفة بالسحب، فكان من الصعب تمييز الجند عن بعضهم.

وقف «مرتين» على رأس الجند النصارى، وقد تدرع بالكامل، دون أن ينسى ارتداء برنوس الرهبانية المرسوم عليه الصليب. كان قد عبر «الوادي الكبير» منذ أكثر من شهر ليلج من جديد «ربض الشرقية» ويساعد في الدفاع عنه.

ـ من أجل الرب سيدنا! ـ صرخ بقدر ما سمحت به حنجرته.

هجم القرطبيون بحَمِيَّة اليائس، واندفاع القانط، وهم يعوون كالذئاب. ولا غرو، فقد منع الحصار عنهم دخول الإمدادات، والتزود بحاجياتهم، كما أن الأمطار الغزيرة الشتوية أفسدت الكثير من المحاصيل، والبساتين. وهو ما فسر هذا الهجوم العنيف من جانبهم، لأنه وضح لهم، أن لا نجاة من الجوع سوى بكسر الحصار.

توالت على الدفاعات المسيحية ثلاث موجات من المهاجمين، تمكنت من كسر خطوط النصارى، ثم أعقب ذلك التحام شرس بين الطرفين دام أكثر من ساعة. كان المسيحيون خلالها أقوياء بأسلحتهم المتقدمة، ومهاراتهم القتالية، لكن الأندلسيين كانوا يتفوقون عليهم بكثرة أعدادهم. وما أن انتهى القتال حتى امتلأت الشوارع بالقتلى، وسقت الدماء الربض، وأُشْرب هواؤه بروائح الدم

القوية.

بعد اللحظات الأولى، حينما بدأت قوى المقاتلين النصارى تضعف، ترجل «مرتين» وأعداد من فرسان «قلعة رباح»، ثم انتقلوا إلى الصفوف الأولى لنجدة المنهكين من رجالهم، وتعويض الشهداء منهم.

كان الأندلسيون قد تجاوزوا المتاريس النصرانية، غير أن جثث قتلى القرطبيين سرعان ما أصبحت تكون متاريس جديدة للقوات النصرانية، وإن كانت الحواجز هذه المرة من لحم وعظام المسلمين. وبذلك تمكن رجال «فرناندو الثالث» بما توفروا عليه من مهارة قتالية على وضع حد لحُمَيَّا القرطبيين، فما أن انهزمت حملتهم الثالثة، حتى أطلقوا سيقانهم للريح، لكن في اتجاه «المدينة» هذه المرة.

انتهت المعركة والوقت ما زال سحرا. والبويبات التي فتحت سابقا ظلت مفتوحة. كان التوتر لا يزال يخيم على الطرفين. وعند الصبح حضرت زمرة من القرطبيين غير مسلحين، وشرعت في غلق البويبات بإحكام يمنع الدخول أو الخروج عبرها. وقبل غلق الخوخة الأخيرة، طلب أحد النقباء المسلمين التفاوض [ولعل اسمه أبو الحسن حسب الرواية الإسبانية، أما الرواية الإسلامية فلم تزد عن القول: وبقي الناس معهم، أي النصارى، في قتال عظيم]. حيث طلب المحمدي من «مرتين» أن يعيد إلى أهل قرطبة جثث قتلاهم. وهو ما وافق عليه الرباحي. ولا غرو، حتى في الحروب هناك قواعد ينبغي أن تحترم. وأخيرا، وعند منتصف

النهار، أغلقت الأبواب بشكل نهائي. وعاد حصار قرطبة إلى ما كان عليه قبل المعركة.

ـ لنُقم خمسةَ قداسات في يومنا هذا شكرا للرب على النصر. ـ قال «مرتين» للقس الذي كان يرافق الجيش.

من أعلى السور، أشعر جند «أندوجر» إخوانهم في المعسكر المسيحي بالنصر. وفي الحال، ارتفعت أصوات الفرح إلى السماء. في الوقت ذاته، خيم على «قرطبة» الصماء سكون ثقيل، لم يكسره سوى صوت المؤذنين الحزين.

***

جيان Jaén. ربيع 1236

مَثُل «إسماعيل» في قصر الأمير. كان قد عاد لتوه من «بُركونة». حيث قضى مدة يتفقد أحوالها، ويشرف على عملية تجنيد بعض رجالها للعمل في جيش الإمارة.

استقبل «ابن الأحمر» أخاه في «المجلس» وهو يرغب في سماع تقريره.

ـ كل شيء يسير حسب المطلوب. والمعنويات ما زالت مرتفعة. ـ أخبر «إسماعيل» أخاه. ـ قضية «قرطبة» صرفت انتباه القشتاليين إلى وجهة أخرى. وهو ما خفف عن الشعب.

ـ يسعدني ذلك. ـ علق الأمير راضيا، ثم تطلع إلى أخيه وهو يحس بالفخر نحوه. كان «إسماعيل» مطيعا قديرا. ولا تساور الأمير أي شكوك من حيث وفاؤه وإخلاصه.

ـ الناس يسألون إن كنا سنتدخل.

ـ صاحب «قرطبة» هو «ابن هود»، فليتكفل هو بالدفاع عنها. أما نحن فقد طردونا طرد الكلاب. ـ كان «محمد» يتحدث بلهجة قوية صارمة دون أن يخفي مَوْجِدتَه وحِقدَه.

كانت الضربات التي تلقاها الأمير خلال حياته قد صَلَّبَت من طبعه، إضافة إلى أن نصائح «أشقيلولة» له بأن يكون شخصا صارما قوي العزيمة قد فعلت فعلها في نفسيته.

ـ أنت تعلم أن «ابن هود» لن يُنْجِدَ المدينة المحاصرة.

ـ أعرف، إنه جبان. ـ أجاب الأمير وهو يشد على قبضته. ـ «أشقيلولة» نصح بأن نقدم دعمنا للملك القشتالي.

ـ كنتَ قد أعلنتَ مبايعتك لـ «المرسي»... ـ لم يسمح «محمد» لأخيه بإتمام عبارته.

ـ هل أنت جاد؟ ـ ضحك الأمير ـ حتى هو كان عارفا بأن الأمر كان تمثيلية من أجل ربح الوقت. كل منا كان يناسبه الحفاظ على السكينة وهدوء العلاقات.

ـ وماذا قررت؟

ـ الرسول في الطريق.

لاذ «إسماعيل» بالصمت للحظات ليفكر في هذا القرار.

ـ أظن أنك فعلت حسنا. فالمدينة محكوم عليها بالسقوط، حقا أن قرطبة رمز ـ وضع يده على

صدره كما لو أن الأمر يؤلمه ـ غير أنها يمكن أن تكون العملة التي سنؤديها مقابل طرد «ابن هود»، وإنقاذ ما تبقى من «الأندلس».

ـ بمشيئته تعالى ـ ختم الأمير.

***

**«ألمرية» Almería. ربيع 1236**

تحول الطقس، وكان ينبئ بمرور عاصفة هوجاء، إلى رذاذ خفيف، دام مدة قصيرة من الزمن، غير أن السماء ظلت مكفهرة إلى غاية العصر.

قبل هبوط الليل، دخل «ابن هود» إلى مدينة «ألمرية»، تتبعه فصيلة من الفرسان والمشاة، وأقرب الناس إليه في حاشيته. إذ منذ أن وصلت «مرسيةَ» الإشاعاتُ التي تتحدث عن غضب الشعب حيال سياساته أصبح الأمير متوجسا ولا يثق سوى بأقرب المقربين إليه.

ـ جئت لأفاتحك في أمر غاية في الأهمية. ـ قال «ابن هود» لـ «ابن الرميمي» مباشرة بعد أن لقيه. ثم سلم عليه بعناق حار صادق.

أدرك الحاكم أن «ابن هود» قرر أخيرا أن يتصرف التصرف اللائق في مستوى الظروف القاسية التي كانت تجتازها «قرطبة».. فأخذه سريعا إلى إقامته الخاصة.

ـ «خيمينا» حامل ـ أطلق الأمير ما في جوفه، توقف عنها الحيض منذ أشهر.

لم يصدق الوالي ما سمعه من «ابن هود»، وراح يتأمل وجهه الذي بدا كما لو أنه يعكس حالة من

الرعب والجزع الكبيرين.

ـ رائع ـ تنحنح الحاكم ـ حقا إنها حالة دقيقة... ـ «قرطبة على شفا السقوط تحت سلاح النصارى، وهذا الرجل مشغول بفتاة أصبحت حاملا وتوقفت عنها العادة الشهرية» دار بخلد ابن الرميمي وهو محتقن.

ـ لا يمكنك تصور العواقب. فقد تعهدت لزوجتي حينما عقدت القران عليها بأن لا أتخذ امرأة أخرى غيرها ما دامت هي على قيد الحياة. ولو علمت بأني تراجعت عن التزامي نحوها... أسرتها ذات جاه كبير، ويمكنها أن تسبب لحكومتي الأذى الكبير. ـ قطب ما بين حاجبيه. في حين لم يتمكن «ابن الرميمي» من الخروج من ارتباكه. ـ أريدك أن تساعدني، أريد أن تبحث عن امرأة من هؤلاء النسوة اللاني يعرفن كيف ينهون...

بالرغم من العبارات اللطيفة التي فاه بها الوالي جوابا على كلام أميره، فقد قام الرجل بمجهود كبير ليتمالك، وليخفي عن وجهه مدى الازدراء الكبير الذي شعر به في تلك اللحظات تجاه «ابن هود»، مثلما أنه أحس بالأسى نحو «خيمينا»، هذه الفتاة التي بدأت حياتها وهي خاضعة لنزوات رجل ذي سلطة، لم يكفه ما فعله بها، بل أصبح يتحكم حتى في مصير الثمرة التي تحملها أحشاؤها.

ـ هل هذا ما تريده؟ هناك وسائل أخرى... ـ أشار «ابن هود» موافقا بإشارة من رأسه، وهو في حالة عصبية، يفضحها ارتعاش طفيف في جفنه الأيمن. ـ ستجري الأمور كما تريد.

ـ تكلف بالأمر حين رجوعي إلى «مرسية». علي بالعودة إليها حالا. و«خيمينا» ستبقى هنا لتسترجع صحتها. وسآتي لزيارتها كلما سمحت الظروف بذلك.

وافق الحاكم على كلام «ابن هود». وعزم على التكلف بكل التفاصيل حتى ينقذ شرف أميره، غير أن شيئا كان يجمعهما تمزق في تلك الآونة، ولن يعود إلى حاله السابقة مرة ثانية.

***

قرطبة Córdoba. يونيو 1236

ـ لن يوقعوا ـ قال ألفونسو مباشرة.

اندهش فرناندو الثالث للرد القرطبي. ذلك أن ممثلا قشتاليا كان قد تفاوض مع أحد القرطبيين وسط الجسر الحجري القديم الذي كان يقطع «الوادي الكبير»، وتم الاتفاق على تسليم المدينة. غير أنه في آخر لحظة تبين أن أمرا ما لم يكن على ما يرام، ومن ثم تراجع القرطبيون عن التوقيع على الاتفاق.

ـ كيف؟ لقد فاوضناهم في كل التفاصيل! يغادرون المدينة في سلام حاملين أمتعتهم، أليس ذلك ما فاوضناهم عليه، وتم الاتفاق عليه!؟ ـ قال الملك وهو في حالة غضب ـ لقد انتهى أمرهم، فماذا ينتظرون؟

ـ أخي، ـ عقب «ألفونسو» في هدوء ـ إن الوالدة تقوم بالمستحيل من أجل توفير الزاد والمؤن لنا، غير أنه بالرغم من هذا المجهود

فإن نقص الأقوات عندنا واضح، وهو ما لا يغيب عن القرطبيين، ليسوا مغفلين. ثم هناك مسألة الليونيين قريبا سيكملون ثلاثة أشهر هنا؛ بيننا، دون أن نعوضهم برجال آخرين...

ـ ملاعين، أبناء الكلب. على كل حال لا أمل لهم، لم يأت ملكهم بعد، وهل له أن يأتي في هذه اللحظة؟

ـ لن يخف «ابن هود» لنجدتهم، غير أن الذين في الداخل لا يعرفون ذلك. ربما ظهر لهم أن مغادرة الليونيين ستكون فرصة لفك الحصار عنهم.

ـ لا يمكننا أن نصبر أكثر مما كان، إن الثمرة ناضجة، وعلينا أن نضرب الضربة القاصمة. إن كل يوم هنا يكلف أموالا طائلة لـ «قشتالة». نحن في حاجة إلى من يعوض الليونيين. وأعرف من سيكونون.

ـ رجال الشمال؟ ـ سأل «ألفونسو».

نفى «فرناندو الثالث» بإيماءة من رأسه.

ـ «موروس». سأقبل بعرض «المورو» ملك جيان.

كان «ابن الأحمر» قد أرسل مبعوثين إلى الملك القشتالي يقترح عليه المساعدة. غير أن «فرناندو» وهو واثق من النصر لم يأبه للعرض، بل لم يجشم نفسه حتى عناء الإجابة. اعتقادا منه أن هذا العرض لا يعدو أن يكون علامة على ضعف الأمير المسلم. غير أنه بدا الآن أن رجال «جيان» يمكنهم أن يضطلعوا بالطعنة الأخيرة في جسد «قرطبة».

ـ «موروس» ضد «موروس» مسلمون ضد مسلمين.

ـ مرت عليهم سنوات وهم في حالة مواجهة. فلنقوض أقوى الطرفين ـ دلل «فرناندو» على صواب الفكرة.

ـ لعله قويٌّ تمَلُّكاً للأراضي، وفي عدد الرجال، دون أن يصدق ذلك على طبعه.

ضحك الأخوان مِلْءَ شِدْقيهما. فقد تحول «ابن هود» إلى زعيم جبان، وغدا هذا الصيت يلاحقه حتى خارج الحدود.

***

جيان Jaén. يونيو 1236

استغرب «مرتين» ومعه فارسان آخران من «قلعة رباح»، كيف أنه لم يعترض سبيلهم أحد حتى وصلوا إلى نواحي عاصمة الإمارة.

ـ جئنا باسم سيدنا الملك، «فرناندو الثالث»: «ملك قَشتالة»، و«طُليطلة»، و«لِيون»، و«بَيَّاسة»، و«بَطَلْيوس»، أبقاه الرب وحفظه. نريد أن يستقبلَنا أميركم، «ابنُ الأحمر» الأرجوني، بصفتنا سفراءَ إليه جوابا على السفارة التي كان قد بعث بها أميركم إلى عاهل قشتالة. ـ قال «مرتين» لحراس «جيان» الذين أحاطوا بالرباحيين الثلاثة.

اقتاد الحراس الجيانيون المبعوثين، بعد أن انتزعوا منهم السلاح، إلى غاية القصبة الكبيرة. «ذات يوم ستكون «جيان» أيضا ملكا لسيدي الملك». فكر «مرتين» وهو يتأمل القلعة الضخمة.

بعد لحظات، تم إشعار «ابن الأحمر» بوصول المبعوث القشتالي، فخرج لاستقباله، ثم أمر بأن يُتْرك وحده في المجلس مع النصراني. كان الأمير يلبس جلبابه الأبيض المعتاد، في بساطة، وبعد عن التباهي بالملبس أو المظهر.

راح «مرتين» يتأمل في دقة ملامح الأمير، فاكتشف فيها رجلا مجربا وحازما، ذا نظرة صارمة، تنم عن دهاء وقوة. كما لم يفته التمعن في جسمه النحيف وعضلاته القوية. «إنه رجل ورع، ومن أتقياء ملته، وأحد مقاتلي الثغور الذين لا تستهويهم الملذات، ولا يسرفون على أنفسهم، إنه أشبه الناس بي». مرت هذه الخواطر بخلد الفارس القشتالي وهو يتفرس في الأمير النصري. غير أن الإعجاب سرعان ما فسح للبغض والكراهية. وجد الرباحي نفسه أمام الرجل الذي مرَّغ أنفَه في حمْأة الذل في يوم المستوطنة، وفي معركة البساتين، وكيف لا، وهو الفارس الثغري الذي قتل عمه في يوم «برج الحمام».

جلس الرجلان على مخدات كبيرة حول مائدة قصيرة القوائم [«الطيفور» المغربي الأندلسي] مزينة بالتطعيم، وضعت فوقها كؤوس من عصير الفواكه، بإزائها صينية بها تمر.

- سيد «أرجونة» و«جيان» - بدأ «مرتين» حديثه، وهو يخفي أحاسيس البغض التي تعتمل في صدره - بعثني ملكي جوابا على العرض الذي وافيتم به عاهلنا بشأن الصداقة والمساعدة لمتبادلة. إن «فرناندو» عاهل «قشتالة» و«ليون»، يُعلمكم أنه قبل عرضكم بمساعدته، ويأمل في أن

تتقبلوا صداقته عربونا على ذلك.

ابتسم «محمد» ثم شمر جلبابه إلى غاية ركبتيه.

ـ إن صداقة ملك شيء ثمين، يكاد يعدل في قيمته العظيمة ما قد تتسم به طبائع الملوك من سخاء. ـ أجاب ابن الأحمر في لغة رومانثية سليمة، ثم صمت في انتظار الجواب. وهو متفطن إلى أن شيئا ما، لا يسير سيرا حسنا، بخصوص حصار «قرطبة»، وإلا لما سارع الملك القشتالي إلى طلب التحالف معه. والواقع، [إن «فرناندو» كان يعاني من نقص المؤن، وقلة الأقوات، واعتزام الليونيين مغادرة الحصار... وهذه كلها عوامل كانت وراء نُكولِ أهل قرطبة عن توقيع عهد الاستسلام، فارتأى القشتالي أن يعقد مع «النصري» حلفا، خاصة وأنه كان عالما بمنافسة «ابن هود» لـ «ابن الأحمر» في رياسة الأندلس، وأن هذا لم ينس ما فعل به أهل قرطبة حينما طردوه من مدينتهم].

في الحين، ارتأى «محمد بن الأحمر»، أيضا، أن هذه فرصته لإظهار عزة نفسه، وأخْذِ عوض مقابلَ المساعدة التي سيطلبها منه «القشتالي».

ـ «فرناندو الثالث» يعرض عليكم هدنات لمدة ستة أعوام، دون كُلْفَة، وهي مدة الهدنة ذاتها التي سيتفق عليها مع ملك «مرسية» بعد الاستيلاء على قرطبة.

ـ حسنا، إلا أن ذلك إذا كان سيترك حدودي الشمالية هادئة، فإن حدودي الجنوبية ستكون تحت رحمة «ابن هود» ـ فكر ابن الأحمر بصوت

مسموع ـ إذا ساعدتُ ملكك ينبغي أن أخرج، أنا أيضا، رابحا. أريد قسطا صغيرا من الإتاوة التي سيؤديها المرسي مقابل اتفاقه مع ملكك.

ـ سيتم ذلك. سيصل قسط صغير من الإتاوة التي سيدفعها المرسي إلى «جيان». ـ صادق «مرتين» على كلام ابن الأحمر وهو يركز على لفظة «صغير». تفاجأ «مرتين»، وإن لم يظهر ذلك، للذكاء السياسي لـ «فرناندو الثالث»، الذي كان قد توقع طلب ابن الأحمر، ورخص لمبعوثه بقبول التنازل عن حصة من الإتاوة المرسية التي طلبها النصري. فلم يكن «فرناندو» باسلا قوي الشكيمة فحسب، بل كان يتمتع، أيضا، بذكاء سياسي خارق. ـ إن الاتفاق سيختم، وسيُصادق عليه وسينفع الطرفين.

مع العصر، تهيأت السفارة القشتالية الصغيرة لمغادرة «جيان» والعودة إلى قرطبة. تعانق «محمد» و«مرتين» عناق وداع، غير أن النصراني سعى، قبل أن ينصرف، إلى النظر طويلا في وجه الأمير النصري ليخزن في ذاكرته قسمات محياه، وتعابير وجهه. «المرة القادمة التي سنتقابل فيها لن تكون من أجل السلام. سأعرف كيف أميزك من بين الجميع، وسأقضي عليك». فكر الفارس الرباحي.

لم يكن «محمد» يعرف من هو هذا الرجل، بله أن يعرف أنه كان قد أنهى حياة شقيقه «فرج» حينما أغار فرسان قلعة رباح انطلاقا من «أندوجر» على نواحي «أرجونة». هكذا كانت الحروب خارجة عن المعقول، فقد كان الرجال الذين يتصيدون

الأخطاء للتباغض فيما بينهم مدى الحياة، تجدهم، هم أنفسهم، يتعانقون من أجل إمضاء اتفاق سلام.

***

وقفت «شمس» و«مؤمنة» أمام والدهما، وهما تنظران إلى عينيه في تركيز. كانتا قد بلغتا مبلغ النساء، «مؤمنة» كانت تزداد شبها بأمها «فرح» بمرور الأيام، في حين كانت ملامح «شمس» أقرب إلى ملامح بني نصر.

ـ أرجوك يا أبتِ، أعد النظر في رأيك، ولا تسلمنا إليهما. ـ توسلت «شمس» لوالدها.

تنهد «ابن الأحمر»، ثم مسح على لحيته.

ـ لقد قضي الأمر. أنتما في حاجة إلى زوجين صالحين.

ـ لكن ليس ولدي «أشقيلولة». أنت نفسك كانت لك معهما مواجهات ومناكفات. هل تريد أن تحكم علينا بالبؤس والتعاسة. ـ عاتبت «شمس» والدها من جديد.

أثناء ذلك، لاذت «مؤمنة» بالصمت. لم تتجرأ على الكلام. غير أنها ظنت أن حضورها كاف لإبراز عدم موافقتها على الزيجتين.

ـ أنتما ابنتا أمير وعليكما واجبات. ـ أجاب الوالد بصوت بدأ نبره يتصلب.

ـ إنهما متزوجان ولهما أبناء!

لم يفقد «محمد» أعصابه. فقال، وقد وضع يده على كتف ابنته:

- لقد خسرتِ هذه المعركة، وتقبلي ذلك.

أظلمت عينا «شمس»، واغرورقتا بالدموع. ثم انتفضت، غير أن أختها سرعان ما أمسكتها من الذراع قبل انفجارها، ودفعت بها للخروج من المكان.

- أكرهك! - صرخت، وقد تركت نفسها تنقاد لأختها «مؤمنة» - ستندم على هذا الفعل! تذكر كلماتي، ستندم، قد تمر سنوات، ولكنك في يوم ما ستنظر نحو الوراء، وستعرف وقتها أنه لم يكن عليك أن تفعل ما عزمت الآن على فعله.

اختفت الأختان داخل غرف القصر، تاركتين والدهما في ذهول. مباشرة سعى الأمير إلى لقاء «عمر الحسون»، الذي كان يصلي في المصلى الصغير بالقصر. كان القرار قد اتخذ، ولا رجعة فيه، غير أن الأمير كان يريد فقط التخفيف عن نفسه.

***

**قرطبة، Córdoba يونيو 1236**

سادت المعسكرات المسيحية حالةُ ابتهاج كبير. فكان المعسكر القريب من الجسر، ومعسكر «ربض الشرقية» يحتفلان في سرور عظيم، باستسلام قرطبة بعد ستة أشهر من الحصار. فبعد أيام من وصول القوات النصرية، عاد القرطبيون إلى التفاوض حول تسليم الحاضرة. في الجولة الأولى من المفاوضات كان «فرناندو الثالث» أريحيا عطوفا. أما في هذه الجولة الثانية فكان عدد كبير من الأشراف قد نصحوا الملك بأن يكون

قاسيا. ومع ذلك فقد وافق العاهل القشتالي على إعطاء القرطبيين نفس الامتيازات التي كان قد صادق عليها في الجولة الأولى.

ـ إننا بذلك سنتسلم «قرطبة» على عهدها، كاملة سليمة، ـ احتج الملك بذلك لرأيه ـ أما إذا استعبدنا أهلها، فإنهم سيدمرون كل ما سيستطيعون تدميره حتى لا نستولي عليه. أنا أريد أن أعمرها بالنصارى، وليس تخريبها.

ظلت أبواب المدينة مشرعة حتى يتسنى للـ «موروس» مغادرتها. ومع الساعات الأولى من اليوم بدأت أفواجهم الأولى تغادر موطنها، وتتوجه إلى «إشبيلية»، و«مالقة، و«المغرب»، بل وحتى «المشرق». وبذلك امتلأت السبل بمواكب المهاجرين الحزينة الأليمة، وسمع نواح العائلات وتفجعها وهو يمزق القلوب في كل مكان. ولكم كان الجوع الذي قاساه هؤلاء الأشقياء باديا على وجوههم النحيلة وأجسامهم الهزيلة. حتى إذا توسطت الشمس النهار، أنهى المؤذنون هذا اليوم الحزين [الأحد الثالث والعشرون من شهر شوال سنة 633 هـ الموافق لـ 29 يونيو 1236 م] بدعوة الناس للصلاة.

ـ ابكوا قرطبة، جوهرة الأندلس! ـ كان يدعو أحد هؤلاء المؤذنين الناس دون توقف، كما لو أنها طلْبَة طويلة يتضرع بها صاحبها باسم قديسي الإسلام.

وعند منتصف النهار، غادرت آخر الأسر، فقرر «فرناندو الثالث» دخول المدينة. حينها خرج الحاكم الأندلسي ليسلم مفاتيح المدينة للملك

القشتالي، إذ تقدم الحاكم المسلم وقطع الجسر إلى «قلعة الحرة» وهناك سلم المفاتيح للمك القشتالي، ولا يخفى أن هذا العمل لم يكن سوى طقسا تشريفيا رمزيا ليس غير.

على الإثر، وقد تسلم «فرناندو الثالث» المفاتيح عبر القنطرة القديمة، [وتوجه إلى الضفة الشمالية من النهر].

كان «فرناندو الثالث ممتطيا جوادا مطهما يحيط به زعيم «مايسطري» رهبانية «قلعة رباح»، من جانب، وأسقف «أُوشمَا» من جانب آخر. وما لبث الموكب أن سار عبر الشارع الذي يربط بين القصر والمسجد الجامع.

ـ هذا هو الهيكل الأعظم لكل «موروس» الأندلس ـ قال الأسقف وهو في حالة انفعال عميق ـ الآن أصبح بين يديك، وتحت رحمتك.

ـ الآن بين يدي الرب ـ أجاب الملك في تواضع.

أعجب الرجال الثلاثة بجدران المسجد المتينة، وأبوابه العالية. خاصة وقد بدا القصر بجانب ضخامة الصرح الديني أقل شأنا، وأقرب إلى التواضع.

كان الشارع مُقفرا خاليا تماما من الناس، باستثناء الحراس القشتاليين الذين استولوا على المنافذ والمداخل بالمدينة. بعد قليل انعطف الثلاثة حول زاوية، وإذا بهم يجدون أنفسهم وجها لوجه مع الباب الرئيس للجامع. من هناك، تمكنوا من تأمل الصومعة العالية التي بدت لحظتها متوجة بالصليب، وشعار «فرناندو الثالث».

دخل الملك وصاحباه إلى باحة المسجد، وصحن الوضوء. هناك، تمهلوا وانتظروا وصول الأميرين الألفونسيين، ابن «فرناندو» وأخيه. بعد حين دخل الأميران يحرسهما الحراس الشخصيون.

- بُنَي، هأنذا أضيف «قرطبة» إلى ملكك. قال «فرناندو» لابنه وولي عهده.

أعجب الرجال بسحر المكان، وهما بداخل المسجد الجامع. كان الضوء خافتا، فبدت لهم السواري بجذوعها المنتظمة كما لو أنها غابة من الحجر. بعد قليل توقف «ضون ألفونسو»، أخو الملك، تحت ثريات عظيمة كانت معلقة قريبا من المحراب.

- إنها أجراس كاتدرائية «سانتياغو»، تلك التي سرقها «المورو [الحاجب المنصور بن أبي عامر]، لعنة الرب على اسمه.

- سنعيدها إلى محلها الأصلي على أكتاف «الموروس» - صاح «فرناندو» في غضب.

***

- هو مسلم، لكن دعه يقبل إبريقا من خمرتنا!

وصلت قهقهات المقاتلين القشتاليين إلى غاية خيمة «ابن الأحمر». وكأنه وهو يسمع مثل تلك التعليقات والضحكات قد ندم على ما بدر منه من قبول ضيافة هؤلاء النصارى الملغومة. اعتقد أنه برده للإبريق قد يسيء إليهم. بيد أنه الآن تفطن إلى أن الهدية القشتالية وراءها نية سيئة الغرض منها السخرية منه. كان يصاحبه بالخيمة «الولي الصالح» «عمر الحسون»، و«ابن صناديد». تناول جرعة أخيرة من الشراب ثم لحس شفتيه.

ـ حقا، إنه رائع ـ هتف «النصري» وقد تفاجأ من جودة الخمرة. ودون أن يضيف عبارة أخرى، غادر الخيمة، وامتطى فرسه حتى يكون مرئيا أكثر، ثم رفع عقيرته قائلا باللغة الرومانثية.

ـ شراب جيد صالح لتنظيف آنية مائدتي. ـ كان لا بد وأن يبرز المزاج النصري في كلماته. لحظتها صمت القشتاليون لحظة، لكنهم لم يكونوا لينساقوا مع هذا التعريض، وهم في غاية السرور.

ـ لا يمكنك أن تحيد عن طبعك ـ قال له «الحسون» حينما خرج للقائه.

ـ لا يمكن للشاة أن تزأر كالأسد، والعكس صحيح. ـ أجاب «محمد» وهو ما زال ممتطيا فرسه.

تأمل «ابن الأحمر» معسكره. كان مئات الرجال من «جيان»، و«بركونة»، و«أرجونة» يؤلفون قواته. ثم التفت إلى «قرطبة»، في الجانب الآخر من النهر. فرأى من بعيد الصليب يعلو صومعة المسجد، وبجانبه لواء فرناندو الثالث يرفرف خفاقا في الهواء ـ إن المدينة قد تم الاستيلاء عليها، وحان موعد عودتنا.

ـ أجل، سقطت ـ قال «الولي الصالح» ـ هَا أنْتَ ذَا تنتصر في المعارك دون أن تقاتل. ـ [أجل، سقطت قرطبة، في يد النصارى بعد أن ظلت راية الإسلام ترفرف بها منذ فتحها سنة 711 م ـ 92 هـ أي خمسمائة وخمسة وعشرين عاما، كانت فيها عاصمة العلوم والفنون في شبه الجزيرة الإيبيرية، وما وراء جبال البرينيه. والحاضرة

العظمى لبلاد الأندلس].

***

«ألمرية» Almería. صيف 1236

استلقى «ابن الرميمي» على أحد المقاعد الحجرية في القاعة المعتدلة الحرارة. وبين رجليه جلست «خيمينا» وهي عارية بالكامل. كان حمام القصر قد أفرغ من المرتادين ليبقى حكرا لهما. كانت الفتاة تلاطف ساقي الرجل وتتطلع إلى صدره القوي. فبالرغم من أن «ابن الرميمي» قد قارب الخمسين، إلا أنه حافظ على لياقته، ومظهره الشبابي. بعد حين انحنى الحاكم وعانق «خيمينا».

ـ أنت جميلة كزهرة البرتقال ـ غازلها قبل أن يقبلها في خدها.

كان الرجل قد اتبع تعليمات «ابن هود» وعرضها على إحدى الدجالات، فقامت بإجهاضها. تكلف «ابن الرميمي» بكل التفاصيل، ثم أواها بعد ذلك في داره، واعتنى بها شخصيا. ولم يكن حاكم «ألمرية» ليخفي إعجابه بالحسناء، كما أن هذه أيضا لم تلبث أن وقعت في حب الرجل لما أحاطها به من اهتمام ورعاية، ولجماله وذكوريته. بدا الحب بينهما بشكل خفي بالمنطقة الخاصة من القصر، ثم شرع في النمو بالتدريج إلى أن أصبح هياما متبادلا مطلق العنان.

ـ هل سيعود؟ ـ سألت «خمينا» وقد اعتورت صوتَها مسحةٌ من القلق.

ـ أجل، سيعود. لكنه لن يأخذك معه إلى

«مرسية».

ـ لا أريد أن أراه، ولو ليوم واحد.

تنهد «ابن الرميمي»، كان يكفيه أن يتصورها مع الأمير حتى يشعر بالتواء في أحشائه.

ـ لقد انتهى الرجل. ترك قرطبة لمصيرها، وتعهد بدفع إتاوات ضخمة مقابل الهدنة مع «قشتالة». إن الشعب يبغضه. ـ كانت «خيمينا» تمسح على لحية ابن الرميمي المقصوصة بعناية ـ إذا وضع أحد نهاية له، الكثيرون سيمتنون لما صنع ـ نظر في عيني الفتاة ـ وأنا ساكون أول الشاكرين.

ـ فلنقض نحن عليه، وبذلك لن يمسني.

ترددت قهقهات «ابن الرميمي» في المكان. ثم حدق في عينيها، فبدا له أن الحسناء تتحدث بجدية. توقف عن الضحك، وخاطبها بلغة أبوية:

ـ نطلب من المولى أن يعطينا الفرصة لصنع ذلك. غير أن «ابن هود» هو الأمير، وأنا لست سوى حاكم لمدينة. والعادة أن يأكل الكبار الصغار، وليس العكس.

ـ كانت فقط خطرة خطرت ببالي، أو قل رغبة. ـ قالت الفتاة وهي تحس بالخجل.

أمسك «ابن الرميمي» برأس «خيمينا» وقربه من صدره، وراح يلامس شعرها. كان الحاكم في العادة رجلا جادا حازما، غير أنه معها كانت تسقط كل الأسوار.

ـ إن شاء الله... ـ غمغم من جديد

***

جيان Jaén. صيف 1236

كانت العروس تتهيأ لتتبدى بكامل زينتها أمام الحاضرين. في الوقت ذاته كان الرجال يبحثون عن الظلال في رواق المجلس اتقاء الحرارة العالية التي كانت تلف المكان. أما العريس «عبد اللّٰه بن أشقيلولة»، فقد مكث بجنب والده وأخيه «إبراهيم». وكان «ابن الأحمر» والد العروس قد ارتدى بالمناسبة لباسا فاخرا مطرزا بخيوط الحرير. بجانبه جلس الولي الصالح «عمر الحسون»، لابسا السواد، وقد اعتمر عمامة من ذات اللون.

ـ وصلت الدفعة الأولى. ـ حكى الأمير لصديقه ومستشاره.

ـ هذه نهاية «ابن هود» ـ علق «الولي الصالح» ـ كلما حل عام جديد من أعوام الهدنة، إلا وازداد هو ضعفا وأنت ازددت قوة، يتقوى السلام بينك وبين «قشتالة»، ويصلك المال من «مرسية».

ـ ذاك ما أتمناه. ويُخبرنا حكام المناطق الجنوبية، أن الأسر النازحة هربا من الضغط الضريبي لـ «ابن هود» تصل يوميا. إن الشعب يبغضه.

في تلك اللحظة برزت العروس، كانت «شمس» مصاحبة» ببطانة زفافها. ووجهها مخفي تحت حجاب رقيق يمنع رؤية ملامحها بوضوح. كانت عيناها الخضراوان تبحثان عن والدها، وسرعان ما وقعتا عليه، فراحت تتطلع إليه في تركيز. «ستندم» كانت العبارة التي فاهت بها الفتاة ما زالت ترن في رأس «ابن الأحمر»، فلم يستطع

أن يتخلص من ارتباكه. كانت العروس تلبس ذات اللباس الذي تزينت به أمها يوم زفافها. «عاهدني أنك ستحبها دائما» كانت قد طلبت منه «فرح» قبل أن تغادر هذه الدنيا. لحظتها أحس لأول مرة ببعض الشك فيما أقدم عليه في حق ابنته. أثناء ذلك ساقت النساء العروس إلى داخل القصر، وشرعت الخادمات والجواري في إخراج صينيات الطعام والشراب.

ـ راسلني عدد من الصلحاء والأولياء ـ قال «الحسون» للأمير بعد أن عاد الهدوء. ركز ابن الأحمر من جديد انتباهه في قول الولي. قريبا منهما بدأت جوقة من ثلاثة عناصر في العزف على آلاتهم. ـ لا ينتسبون لمنطقتك، بل هم علماء من «غرناطة»، و«مالقة»، و«ألمرية». حدثوني بقلق عن الفوضى التي يدير بها «ابن هود» شؤون الناس. وأكدوا لي أن الشعب على شفا الانفجار، وأن الحكام قلقون للوضع ومتخوفون. هل تذكر ولي «جُهَنس»؟ ـ هز «ابن الأحمر» رأسه بالإيجاب. كان هذا الرجل قد وعظ الناس لصالحك، سواء في «وادي آش» أم في «كنجيار»، إن هذا «الولي الصالح» ما زال يتحدث عنك، حتى تعدت شهرتك حدود إمارتك. وإنه الآن يحدس أن تغييرات ما ستحدث قريبا.

ـ وأنا أحدس أن وراء هذا الرجل، وما يراه من تطورات قريبة، رجلا آخر هو أنت. ـ ابتسم «محمد».

اقترب «عبد الله بن أشقيلولة» من «ابن الأحمر» ليعانقه. فهاجت ذاكرة الأمير بعشرات الذكريات زمن الطفولة المشتركة، الألعاب، والتداريب

العسكرية، وتحلق الأصدقاء في عين الأنبوبين. لكن استحضر أيضا المواجهات بينهما، وشعور قريبه بالغيرة ومؤامراته.

ـ مرحبا بك إلى أسرة «بني نصر». ـ قال له في أذنه.

في الحال مسح «عبد الله» الابتسامة عن وجهه.

***

«طليطلة» Toledo. صيف 1236

ـ «بياتريث» اقتربي من السرير. لا تهربي مني.

كان «فرناندو الثالث» يحدق في نقطة غير محددة في فراغ الظلمة. كان أولاده ينظرون إليه في مزيج من الحنان والخوف. «فرناندو» صغير الأبناء الثلاثة، بحث عن أمه بنظراته.

ـ لا تبحثوا عنها، إنها الحمى التي تجعلنا نرى أحيانا الموتى. ـ قالت لهم «برنگيلا» ـ لا تقلقوا، قريبا سترد إليه عافيته. إنه بين يدي أحسن أطباء «قشتالة». ـ نظرت للحظة إلى الطبيب الذي كان يسهر على صحة الملك. رجل في سن متقدم يمسك بين يديه بصندوق خشبي مليء بالأعشاب وأدوات التطبيب.

كانت حملة «قرطبة» قد نالت من صحة الملك، فلم يلبث أن لزم الفراش جراء المرض. فقد مر فصل الشتاء باردا ممطرا أكثر من المعتاد، مثلما أن المعسكر الذي قاد منه الحصار لم يسلم من الوحل والرطوبة إلا بعد مجيء فصل الربيع بمدة. ومن ثم بدأت بوادر المرض تظهر على

«فرناندو الثالث» ولمَّا يُغادرْ قرطبة، حتى إذا وصل «طليلطة» تدهورت صحته بشكل كبير.

لم تلبث الملكة «برنكيلا» أن عمدت إلى إخراج الأمراء من الغرفة. وهناك، في الخارج، وجدت الأمير «ألفونسو» شقيق الملك ينتظرها.

ـ كثيرون قلقون على حياته. ـ قال «ألفونسو» في اضطراب.

ـ سيشفى، وسيستعيد عافيته، لدي الثقة التامة في ذلك. تَحَلَّ بِالإيمان. ـ أجابت الملكة وهي تغلق الباب على المريض. أخوك أقوى مما تظن، والرب سيحرسه حتى يُتمَّ مهمَّتَه.

ـ عرفنا فصل شتاء لعله الأسوأ منذ سنوات عديدة. فقد كان الحصار قطعة من عذاب.

ـ أعلم ذلك، يا بني، لقد عانيتم وقاسيتم، غير أنكم ربحتم «قرطبة». كما أن الأقطاب الذين ما زالوا هناك ليسوا في أحسن أحوالهم، فما زلت أرسل إليهم الأقوات والمؤن. إن تعمير المدينة بالسكان الجدد سيكون أمرا صعبا.

ـ كثيرون سيحضرون توزيع الأراضي المستولى عليها. وذلك ما نتمناه

ـ سأصلي من أجل ذلك. لأن مدينة خالية من السكان ليست مدينة بل طللا. ـ صمتت «برنكيلا» قليلا قبل أن تستطرد وهي تحك على جبينها الذي بدت عليه علامات التقدم في العمر. ـ ينتابني الألم حينما أراه على هذه الحال ـ قالت وهي تومىء برأسها ناحية الباب ـ ما زال يهذي باسم «بياتريث» في منامه ـ ليس بالجيد أن يترك

الرجل وحيدا.

ـ أمي هل بحثت له عن زوجة؟

ـ ذاك واجبي، باعتباري أما، وأيضا، بصفتي ملكة. ـ تبسمت «برنگيلا» ـ هناك أمر ما في بالي… أنتظر من فترة أخبارا من فرنسا من عمتك «بلانكا».

***

**«فحص غرناطة» Vega de Granada. خريف 1236**

انتابت «ابن هود» سَوْرَةُ غَضَب، بسبب ضياع «قرطبة» ومشاركة «ابن الأحمر» في ضياعها، وهو ما مس كبرياءه، وجعله ينتفض. وسرعان ما جمع جيشا صغيرا ـ كما كان يفعل في الزمن الماضي، حينما كان يقود قواته بنفسه ـ وتوجه إلى الحدود القريبة من «ألمرية»، وتهيأ للاستيلاء على قلعة صغيرة تقع في الحدود تابعة لـ «النصري».

في الحال جاءت ردة الفعل من «ابن الأحمر»، لبس درعه وتموضع على رأس رجال «جيان»، ثم توجه إلى «فحص غرناطة» بنية نسف الزروع وقلع الأشجار. كان قد استخدم الأموال التي وصلته من «فرناندو» في تعضيد قواته بالسلاح، وتعزيز حظيرة خيوله، عملا بنصيحة «أشقيلولة» قائد الجيش الأميري. وكان «أشقيلولة» يُصِرُّ على ضرورة تكوين وتدريب فرقة خيالة جديدة قادرة على الوصول إلى أي نقطة في الأندلس في أقل وقت… وقد كان من نتائج هذا الوضع الجديد أن نشط الاقتصاد، مثلما أن اتفاقات السلام مع

قشتالة سمحت بزراعة الأراضي البعيدة عن المدن، دون خوف من الاجتياح أو التخريب.

غادر الجيش النصري «جيَّان»، دون أن يجد في طريقه أي مقاومة تذكر، إلى أن وصل إلى أحواز «غرناطة»، حيث كان «ابن هود» قد نشر قواته لصد النصريين.

ـ يبدو أن الجواسيس المُرسيين قد قاموا بعملهم خير قيام ـ علق «ابن صناديد»، الذي ألح على مرافقة أميره.

ـ نحن، للأسف، ليس لدينا جواسيس، وسنكون مستقبلا في حاجة إليهم ـ عقب «ابن الأحمر».

ـ سأعمل على أن يكونوا لدينا، خاصة وأننا نتوفر على رجال مناسبين لمثل هذه المهام.

كانت القوات المرسية قد أخذت مواقعها أسفل سلسلة «إلبيرة»، قريبا من أطلال المدينة القديمة المهجورة التي كانت فيما مضى عاصمة للإقليم. وقد ارتأى رجال الطليعة النصريون أن أعداد القوتين متكافئة. لكن بتركيبة عسكرية مختلفة. فقد كانت الفصائل الهودية مكونة أساسا من المشاة، في حين كانت جل القوات النصرية مؤلفة من الفرسان.

ـ سيدافعون عن مواقعهم من هناك ـ قال «إسماعيل» وهو يشير نحو «إلبيرة».

ـ لا يهمني أن أكون المهاجم، فالتُّرْسُ الجيد لا تخترقه سوى الحربة الجيدة. ـ قال «ابن الأحمر». ولتوه قسم الرجال إلى ثلاثة ألوية. على رأسها «ابن صناديد» وأخوه «إسماعيل»، وهو

نفسه، ولم ينس تأليف عدد من فصائل الخيالة السريعة لتقوم بمهمة التضييق على الغريم بالحراب والقنا. وقد كانت الخطة بسيطة: سيقوم «ابن الأحمر» بالهجوم الرئيس من الوسط، في حين سيتكلف أخوه «إسماعيل» و«ابن صناديد» بالجناحين.

شرعت الفصائل تتحرك. فسار النصريون بمحاذاة أسفل سلسلة «إلْبِيرَة» إلى أن أصبح العدو على مرمى سهمين. غير أن كتيبة من القواسين المرسيين تمكنت من إيقاف تقدم النصريين في حزم، في اللحظة ذاتها أمر «النصري» بأن تتقدم الألوية الثلاثة. كان الأمير يلبس درعه كاملا»، ويعتمر خُوذَةً مَخْروطية الشكل يحيط بها شريط أحمر، ويحمل ترسا خشبيا مقوى بالجلد، إضافة إلى مِقْمَعة معدنية.

كان لواء الأمير أول الواصلين إلى مقدمة القوات الهودية. كان الفرسان النصريون يكونون كتلة واحدة متداعمة. حسب الأسلوب النصراني. وما لبثت الكتلة أن انقضت على المتطوعة الهوديين، فلم يتمكنوا من صد الهجوم، بل تقريبا لم يبادروا حتى بالوقوف في وجه خصومهم. أثناء ذلك كان جند «جيان» يحيطون بالأمير حماية له.

- دعوا عنكم حمايتي، وبادروا إلى القتال، فأنا أعرف كيف أدافع عن نفسي! - صاح «ابن الأحمر» في غضب، وهو يسعى إلى شق طريقه بين رجاله. لم يكن هناك «أشقيلولة» ليمنعه من ذلك. وما هي سوى لحظات حتى سقطت خطوط

المتطوعة المرسيين أمام خيل النصريين. على الإثر فقدت كتلة الفرسان نظامها لتخترق القوة المركزية للعدو.

في اللحظة ذاتها، انفتح الجناحان النصريان وانقضت قواتهمهما على جانبي الجيش الهودي الذي كان قد شرع في الالتفاف على رجال النصري.

في الحال انقض «ابن صناديد» وهو على رأس فرسانه على مشاة «ابن هود»، فأحدث فيهم مجزرة، ومزق صفوفهم تمزيقا. حينها شرع «إسماعيل» في البحث عن الفرسان القلائل في جيش «مرسية» فحمل عليهم كالعقاب بالحراب أولا، ثم بالقنا بعد ذلك. كانت الخطة في الجيش «المرسي» هو الحفاظ على تماسك القوات في موقف دفاع. على الإثر بدا واضحا أن عجز «ابن هود» الاستراتيجي، وقصوره عن إدارة المعارك الميدانية سيكلفه الكثير.

كان «ابن الأحمر» يلهب الأرض عدوا في اتجاه خصمه. وهو يستحضر في موقفه ذاك سنوات ممارسته للقتال حينما كان ثغريا مقاتلا من مقاتلي الحدود. اخترق في لمح البصر صفوف الرجالة الهوديين الناقصي التدريب، فراح يضرب في هؤلاء التعساء ذات اليمين وذات الشمال، يثخن فيهم بالقتل والجراح، خاصة من كان منهم يسهى عن حراسة نفسه، ولا يحمي ظهره. فقد كانت مقمعته لا تتوقف عن حصد الرؤوس، وكسر الهامات.

- مولانا! - كان رجاله يصيحون وهم يرونه يقاتل

كالأسد الهصور ـ فليحفظك الله تعالى! ـ كانوا يرددون وهم ناسون وسط المعمعة حراسة ذواتهم.

تلك هي النقطة التي تجعل من الزعيم زعيما لقومه، أي أن يكون دوما على استعداد لتقاسم المصير ذاته مع رجاله في الصفوف الأولى، جنبا إلى جنب مع هؤلاء الذين يحكمهم.

كان «ابن هود» لحظتها يعطي الأوامر وهو مُتَخَفٍّ في ساقة الجيش وفي حالة غضب لا مزيد عليه. كان رجاله يقاتلون فقط من أجل إنقاذ حيواتهم. ومن ثم كان عدد الضحايا في صفوف قواته يكبر بالتدريج دون توقف والقوات النصرية تضغط أكثر لحظة بلحظة، وبقوة أكثر بشكل تصاعدي.

بدأ «ابن الأحمر» يشعر بالإعياء، وأخذ يحس بثقل المقمعة في يده أكثر فأكثر. فلم يلبث أن انسحب ليعطي لنفسه مهلة للاستراحة واستعادة الأنفاس، وليفسح لدخول قوات المدد إلى المعركة. وبذلك، أخذ موقفا آمنا يطل على الميدان وراح يتتبع القتال. كانت المعركة مربوحة، بيد أنه كان لا بد من الطعنة الأخيرة. ومن ثم أعطى إشارة إلى فرقة الخيالة الخفيفة للقيام بدورها حسب الخطة المرسومة، غير أن «ابن هود» تمكن من إدراك الخدعة قبل وصول الفرقة إلى مقدمة جيشه، وأمر بالانسحاب فورا، ولم يكن يَسَعُهُ، حقا، سوى الانسحاب هربا مع من تبقى من رجاله نحو «غرناطة»، والجميع في حال من الهزيمة والخزي لا مزيد عليهما.

وهكذا وفي أقل من ساعة، بقيت أطلال «إلبيرة» مزروعة بجثث القتلى الهوديين.

***

غرناطة Granada. خريف 1236

دخلت «دنيا» الفندق وهي تحث الخطى. كان الليل يرخي بظلمته على المدينة، وقريبا ستبدأ نوبات الحراسة، ستسعى في الحي من شارع إلى شارع، ومن درب إلى آخر. كانت الفتاة تحمل إناء خزفيا صغيرا مختوما مُلئ بالنبيذ المالقي الحلو. وقد كان عليها أن تسير إلى مكان خفي بالفحص حتى تحصل عليه. بجانب البئر المركزي اجتمع عدد من الرجال، كانوا يتبادلون الأحاديث، ويتحاورون تزجية للوقت، في انتظار أن يرفع المؤذن الأذان للصلاة.

ـ أحسنت يا بنيتي! ـ استقبلت أمينة الفتاة في ابتهاج. ـ اعتقدت أنك لن تحصلي عليه. والحال أن الرجل الذي سأستقبله اليوم يصاب بالعجز إذا لم يشرب نصف جرة من هذا النبيذ.

كانت العلاقة بين المشغلة والخادمة تسير على أحسن وجه. كانت «دنيا» تقوم بواجباتها على الوجه المطلوب، في حين كانت «أمينة القوادة»، بالرغم من صلابتها تعامل الفتاة بحب وعطف. والحق أن «الأُبَّدِيَّة» كانت تشعر بالرضى وهي بين هؤلاء النسوة ذوات السلوك المتحرر. كلهن كن يدللنها، ويلجأن إليها لتقضي حاجاتهن، وتوفر لهن نزواتهن في سوق البيازين.

ـ يا حبيبتي الصغيرة ـ قالت «أمينة» ذات يوم لـ

«دنيا» ـ إذا قررت يوما الزواج فإنك ستجدين في يوم واحد عشرة من أغنياء الرجال، وكلهم من فاقدي عقولهم هياما فيك.

حقا كانت «دنيا» قد تعدت مرحلة الطفولة، وبرزت مفاتنها من تحت لباسها جذابة أنيقة. كانت ملامحها في منتهى الجمال، وبشرتها الداكنة في لون القرفة غاية في الرقة والنعومة.

ـ غير أنك إن عزمت على الدخول في مهنتي، فإنك ستصبحين غنية في أقل من سنة. ـ حاولت أن تجذبها للمهنة بذكاء.

في تلك اللحظة لم تكن «دنيا» مهتمة بكلا العرضين. كانت سعيدة بعملها وبسكناها في هذا المكان، معزولة عن العالم، تتقاسم السقف مع هؤلاء النسوة الخبيرات في فن الإغواء.

حل الليل، وأدى الرجال صلواتهم، فرفعت أمينة على بابها اللواء الأحمر، ولم يلبث أن توافد على المحل أوائل الزبائن، وكانوا في غالبيتهم من التجار المقيمين في الفندق.

ـ هذه الليلة ستكونين ساقيتي. ـ أمرت «أمينة» «دنيا» ـ حينما أشير عليك بالانصراف، غادري المكان، واتركيني لوحدي مع الزبون.

كانت غرفة صاحبة المحل فسيحة وأكثر الغرف مساحة. في حين كانت باقي النساء يمارسن عملهن في غرف صغيرة ضيقة بالكاد تتسع لفراش القش. هيأت «دنيا» عُدَّةَ الشراب من جرة الخمرة وما يتبعها من كؤوس وغيرها، ثم وقفت قريبا من المحبين، وقد بدأت طقوس الجلسة

بتبادل الأحاديث.

ـ صدقيني يا «پالوما»، إن جمع المال أصبح صعبا، يوما عن يوم، وباطراد. ـ كان الرجل يدعو «أمينة» «پالوما». ـ إن الأسر تعيش ظروفا حياتية صعبة بسبب الفقر والحاجة، بالكاد يجدون المال لتأمين غذائهم. و«المرسي» لا يتوقف عن تضييق الخناق على الناس. ـ كان الرجل يتكلم وهو في حالة إحباط. كانت هذه الانشغالات تعذب نفسه، وتدفع به إلى أن ينأى بنفسه عن هذا الواقع العصيب. كان الرجل يشغل منصب جابي الضرائب بحي «البيازين»، وكان شخصية مؤثرة ومحترمة من الجميع: من البياسيين، والأُبَّديين، والغرناطيين المولودين بغرناطة.

ـ إلى أن يتقطع الحبل ـ علقت أمينة ـ هون عليك يا «ابن خالد»، إنك تعمل ما في وسعك من أجل الآخرين، والناس يعرفون ذلك. حينما تطلب منهم المال، يعرفون أنك لست من يطلبه بل «المرسي».

ـ «المرسي» اللعين. ـ تمتم، غير أنه سرعان ما ندم على ما بدر منه حينما ذكر أنهم ليسوا وحيدين.

ـ لا تشغل بالك، «دنيا» جديرة بالثقة. إنها متحفظة وكتوم أكثر من الجدران التي تحيط بنا. ـ لاطفت صدر الرجل، ثم نقلت الكأس إلى شفتيه. ـ اشرب واسترح. لا أحد سيخلد على هذه البسيطة، وسيأتي يوم سيغادر فيه «ابن هود» دون عودة. ـ حينها كانت يد المرأة قد أخذت في النزول إلى خصر الرجل. شرب «ابن خالد» كأسه حتى الثمالة،

فاستدارت «أمينة» ناحية «دنيا» وأومأت لها بالانصراف.

اتجهت الفتاة نحو الغرفة المشتركة. في الطريق سمعت تأوهات الرجال والنساء وهم يمارسون الجنس في الطابق السفلي. وكما يحصل لها كل ليلة أوت الفتاة إلى فراشها وهي مرتبكة مضطربة، تغمر مخيلتَها تصوراتٌ وتمثلاتٌ تختلط بها اللذة بالأمل على نحو لذيذ وغريب.

***

**«جيان»، Jaén. خريف 1236**

حضرت «شمس» إلى قصر والدها عند العصر. فجلست في قعدة مسائية مع «مريم»، و«عائشة»، وأختها «مؤمنة» في الفناء الكبير، قريبا من البِرْكة. جلسن حول صينية مليئة بأنواع عصائر الفاكهة، وحلويات اللوز.

ـ يا بنيتي، ها قد أصبحت امرأة وزوجة ـ قالت لها «عائشة».

انفرجت أسارير «شمس» عن ابتسامة، لم تعكس ألقَ عينيها.

ـ هل يحسن معاملتك؟ ـ سألتها «مريم».

ـ أجل، إنه ودود. «عبد الله» ليس من صنف الرجال ذوي الأحاسيس الرقيقة، غير أنه لا يظهر أي جفاف في معاملته لي. ومع ذلك، فإن زوجته الأخرى ـ خفضت من صوتها ـ تبغضني... إنها شريرة شرسة.

ـ ليس من السهل أن تتحمل الزوجة وجود امرأة

أخرى في بيتها. ـ عقبت «عائشة» في هدوء ـ لا تعتبري كلامي إساءة إليك، أنت تعلمين مدى حبي لك، وأعتبرك أختا لي ـ أضافت وهي تنظر إلى «مريم».

ـ وفي الفراش؟ ـ سألت القشتالية وهو ما أثار استنكار «مؤمنة».

ـ إنه فظ ـ أجابت «مؤمنة» وهي تطأطئ رأسها ـ كنت أعتقد أن ذلك سيكون أمرا رائعا، غير أنني...

ـ ينبغي أن يكون رائعا، لكنه لا يكون دوما كذلك. ـ أظلمت عينا «مريم» وهي تتذكر السنوات السوداء ـ نحن، النساء، نعيش تحت سطوة الرجال. هم بإمكانهم أن يتمتعوا بأكثر من امرأة، بيد أننا يجب علينا أن نقنع بواحد، بالذي يفرضونه علينا. ـ نظرت حينها إلى «عائشة» التي احمرت وجنتاها في الحال ـ بالنسبة لي الرغبة الجنسية ليست أمرا سيئا، وأحسه كما يحس به أي رجل. ـ كان «كمال» يقوم بنوبة الحراسة منعزلا بعض الشيء عن مجلس النسوة، وعلى مقربة من الباب. فكان من موقعه يسمع ما يدور من حوار بينهن. ولم يرتح لكل ما سمعه، فارتجف في مكانه قلقا.

تنحنحت «مؤمنة»، في ارتباك.

ـ لم يكن لائقا أن تتحدثي عن مثل هذه الأمور أمامها ـ قالت «عائشة».

ـ قريبا ستتزوج بالـ «أشقيلولة» الآخر، ولا أريد لها أن تكون جاهلة بهذه المسائل. ـ احتجت «مريم».

ـ إن أختي مطيعة أكثر مني ـ تدخلت «شمس» ـ

ولعلها بسبب ذلك ستكون أسعد مني في بيتها. - استندت بيدها على حجرها. ثم توجهت بابتسامة سريعة إلى أختها، قبل أن تتحول بنظرة تائهة إلى البركة. فقد زوجوها برجل يكبرها مرتين، رجل عصبي طموح، كانت له عائلة مكتملة حينما جاءت هي إلى بيته. ولا عجب أن تكون لها مبرراتها وهي تحس بنفسها تعسة، وتبغض والدها.

- إن «المجلس» سيجتمع بعد قليل! - أعلم «كمال» من موقعه.

انسحبت النسوة، ثم بدأ الرجال بعد ذلك يتقاطرون على الباحة. كانوا يعنون بشؤون الإمارة المستعجلة في غياب الأمير. وكان أول من دخل «أشقيلولة»، يتبعه ولداه. بعدهما وصل كاتبان، وممثلو أشرف الأسر. فبدا «عبد الله» في حالة ابتهاج وسرور، فقد كان غياب النصريين عادة ما يكون مدعاة فرح وانشراح بالنسبة إليه.

***

**«برغش» Burgos. خريف 1236**

لم يتمكن الملك من كبح نزلة سعال قوية أصابته، وهو يستمع للكلمة الرائعة التي كان يلقيها أسقف «برغش» في حق المتوفى، «لوپي دياث دي آرو»، حامل لواء الملك «فرناندو الثالث» الذي مات أياما قبل ذلك. وستتم مواراته الثرى في بلدة «ناجِرا».

نظر الجميع في اتجاه «فرناندو الثالث». ذلك أن الملك بعد شهور من النقاهة قضاها في «طليطلة»، ألح على السفر إلى «برغش» لحضور

جنازة « دي آرو»، وهو ما رأى فيه الأشراف علامة على استرداد «فرناندو الثالث» لعافيته، وعلى قوته ومتانة صحته.

بعد حين عاود الأسقف إلقاء كلمته التأبينية في «لوپي» فذكَّر بدفاعه عن المسيحية، وركز أساسا على مساهمته الفعالة في يوم «ناباس دي طولوسا». فكان من أواخر النبلاء النصارى الذين شاركوا فيها، وقاتلوا بجانب «ألفونسو الثامن» خلال كل أطوار هذه المعركة الخالدة.

على الفور قال «فرناندو الثالث» مخاطبا نفسه وهو يستحضر ذكرى جده حينما سمع اسمه: «أنت أوقفتهم عند حدهم، وأنا سأدفع بهم إلى الخلف».

انتهى القداس، فاقترب عدد كبير من الأشراف والنبلاء من «فرناندو الثالث» ليطمئنوا على حاله، ويمجدوا قوته. وقد حاول الملك أن يستقبلهم بابتسامات مصطنعة، ثم ما لبث أن صرفهم بإحسان بعد دقائق معدودات ليتسنى له مغادرة الكنيسة سريعا صحبة أخيه «ألفونسو».

- لقد فقدنا رجلا من خيرة الرجال. - قال «فرناندو» لشقيقه. - في الظروف المهمة والصعبة كان دوما بجانبي.

- حقا كان رجلا عظيما - رد «ألفونسو» في تظاهر بالشرود. - هل تعلم أن أمنا قد اختارت لك زوجة؟

- لم أخرج قدمي بعد من القبر وهي تريدني أن أتزوج.

ـ أنت تعرفها جيدا، يا أخي. إن «برنكيلا» العظيمة، هي ملكة قبل كل شيء آخر. ـ قال «ألفونسو» بنبرة سخرية ـ علاقتها بالرب جيدة، وكانت تعرف أنك ستبرأ وستتعافى. أنا، أيضا، كنت أعرف ذلك. ـ أتم «ألفوسو» عبارته وهو يضع يده على كتف «فرناندو». ـ لا تنس أن ربنا قد كلفك بمهمة، وأنك لم تكملها بعد، لتنتهي حياتك.

ـ لم أكملها بعد، غير أنني سأحققها. أحسها قريبة مني. لقد ملكنا «قرطبة»، من كان سيعتقد ذلك فيما مضى من سنوات؟ «جَيان» أيضا ستسقط؟

ـ ليكن ذلك. ـ قال «ألفونسو» وهو يرسم الصليب على نفسه.

توجه المك إلى فرسه. ثم امتطى صهوته، فظل «ألفونسو» واقفا، يتأمل أخاه وهو يبتعد.

ـ لم تسألني عن المرأة المنتقاة ـ قال لـ «فرناندو» بصوت مرتفع.

استدار «فرناندو الثالث» نحو أخيه، ثم أجابه بنبرة متعبة:

ـ ما زلت مريضا، وما فتئت ذكرى «بياتريث» تؤلمني. ولا تهمني المرأة. أكيد أن الوالدة أحسنت الاختيار، وأنا سأكون في الموعد من أجل مصلحة «قشتالة».

***

«ألمرية» **Almería**. شتاء **1237**

بحث أمير «مرسية» عن العزاء بـ «ألمرية». كان

الرجل يحيى فترة حزينة من حياته. فقد نالت من نفسه هزيمة «إِلْبِيرَة»، وأدرك بما كان يصله من أخبار أن ثقة شعبه به تنهار يوما بعد يوم، وأن تقارير جواسيسه لا تحمل سوى تذمر الناس من حكمه، وجنوحهم إلى التمرد عليه، والخروج عن طاعته.

- لقد وجهت إلى العمال والنواب، [في الرابع والعشرين من جمادى الألى سنة 635 هـ خطابا أحثهم فيه على تقوى اللّٰه، ومراعاة حدوده، والحرص على صون الدماء، واختيار المشرفين على الأموال من ذوي العفة والتزاهة والدين، وأن تكون معاملة الناس في الحق سواء، دون تغليب قوي على ضعيف]. حقا، تفشى الجوع، وامتلأت السبل بقطاع الطرق. وقد تسنى لي أن أرى بعيني عصابات منهم وأنا في الطريق إلى هنا.
- أكمل ابن هود حديثه وهو يكشط لحيته التي وخطها الشيب.

تطلع إليه «ابن الرميمي» دون أن يكلف نفسه إخفاء احتقاره له. كان الأمير قد ظهرت عليه علامات التقدم في السن. وبدت نظرته، التي كانت فيما مضى حية متكبرة، أقرب إلى نظرات الشحاذ الذي سئم من الحياة.

- لم تصلني نسختي من الرسالة - أجاب حاكم «ألمرية» في جد.

- أنت أيها الصديق لست في حاجة إليها. إن الكامل ليس في حاجة إلى التحسن.

اقترب الرجلان إلى الموقد. كانت غرفة القصر

باردة، والجو مليء بالرطوبة.

ـ إن السلطة تعني الوحدة. ـ قال «ابن هود» وقد أخذت قسمات وجهه هيئة تأمل كالح. ـ حتى أسرتي أخذت تنأى بنفسها عني، وعن أحوالي. ابني يرتاب من علاقتي بـ «خيمينا» ويحتقرني. وزوجتي تقيم في أحد الأبراج، وتكاد لا تزورني، أو تسأل عن أحوالي. غير أني لا ألومها، ولعلي أشكرها على ذلك.

لاذ حاكم ألمرية بالصمت. ومرت لحظات على الرجلين وهما صامتان. يتأملان نار الموقد، وهي تخبو شيئا فشيئا. لحظة نهض الأمير من مجلسه وقال:

ـ حان وقت انصرافي.

نفخ ابن الرميمي في الموقد فاتقدت الجمرات، ولمعت في اضطرام، اضطرام النار التي كان يحسها في داخله، وسرعان ما غمرت نفسه سوْرَةٌ من الغضب الشديد تحول في الحين إلى توتر عصبي شامل.

ـ ليت قلبه يتوقف. ـ دعا عليه في الهواء ليتلقفها الشيطان وتتحقق. ثم أغمض عينيه، وشرع في نحيب متواصل شديد، وهو يسعى جاهدا لإزاحة صورة «خيمينا» من مخيلته، وجسدها يتعرض لاعتداء من ذلك الرجل المهزوم.

***

أرجونة Arjona. شتاء 1237

تمكن «يوسف» من تطوير ممتلكات الأسرة

والزيادة في عددها. كان قد اشترى قطعا أرضية متعددة، وتعاقد مع زُمْراتٍ من العمال للعمل في أراضيه.

وصل ذلك الصباح ممتطيا فرسه إلى البستان المروي، حيث كان أحد فتيان الخدمة يصلح من الأخاديد الممتدة في الأرض المسقية، في حين كان بغل يدور قريبا من إحدى النواعير، ليحركها وتحمل ماء الري. كان الماء ينزل من الميازيب في ضعف. بسبب أن القناة الرئيسة كانت مسدودة بفعل تراكم الأعشاب والأغصان في فتحتها. على الإثر، ودون تفكير طويل بادر «يوسف» إلى تنظيف الفتحة مشمرا عن ساعده.

- لا بد وأن تكون يقظا مع العمال. - غمغم الرجل.

فجأة، وبعد فترة وجيزة من بداية العمل، بدأ «يوسف» يتفصد عرقا، وهو يحس بوخز في صدره. ومع ذلك استمر في عمله، غير أن الألم سرعان ما عاوده أقوى مما كان، وشمل هذه المرة حتى كتفه الأيسر. صاح «يوسف» ثم سقط منهارا على الأرض، وقبل أن تظلم عيناه رأى كيف أن فتى الخدمة يسرع نحوه، لكنه لم يكن ليفعل شيئا، وقد قضى الله بذهاب والد النصريين دون عودة.

***

وصل «محمد» و«إسماعيل» إلى «أرجونة» فجرا. في حين ظل باقي أفراد الأسرة بالعاصمة بأمر أميري. ولم يجرؤ أحد على مخالفة أمر الأمير سوى

العجوز «أشقيلولة». كان يريد أن يودع صديقه الوداع الأخير.

أجهشت «كريمة» بالبكاء، رفقة الجيران وزبائن «يوسف». كان بكاؤها حارا، ومصابها صادقا، فضمها الأخوان إلى حضنيهما كأنها أمهما، وهما يخففان عنها، ويعدها «محمد» بأنه سيحرص على العناية بها، وبتلبية كل حاجاتها. وقضى الأخوان الليل ببيت الأسرة وهما يستقبلان المعزين الذين حرصوا على تقديم احتراماتهم لأسرة المتوفى.

ـ ما زلت يا «محمد» على حالك، لم يتغير فيك شيء. ـ خاطب أحد التجار القدماء، صديق للعائلة، «محمدا». وهو يتأمل لباسه البسيط ـ كنت فتى حسنا في طفولتك، وها أنت الآن أصبحت رجلا طيبا صالحا.

ولكم كان لهذا الكلام الحسن الصادر عن التاجر القديم، من وقع جميل طيب على نفس الأمير. وعند السحر انتهت زيارات الناس لتقديم واجب العزاء، وبقي الأخوان النصريان وحيدين أمام جثمان والدهما المُسَجَّى.

ـ إذا لم تشتغل بنفسك على أرضك، من يا ترى سيقوم بذلك؟ ـ قال «إسماعيل» مستحضرا أقوال الوالد.

ـ إما أن تقوم بعملك على الوجه الأفضل، وإما اتركه. ـ أضاف «محمد» بصوت أجش.

ابتسم الأخوان سويا.

ـ هو الذي ربانا وأنشأنا، وجعل منا ما نحن عليه

اليوم. واستمر الأخوان إلى الصبح يذكران وقائع فريدة لهما مع والدهما في الزمن البعيد، زمن الطفولة والفتوة. كانا أحيانا، يضحكان، وأخرى يبكيان. وهما يتساندان، كما كانا يفعلان دائما في مختلف المواقف. وعند الفجر، وصل الإمام إلى دار النصري، ومن جديد، بدأ الناس يترددون على البيت، يريدون توديع «يوسف».

ـ أنا وأنت، يا أخي، ولا آخر. ـ قال «محمد» لـ «إسماعيل»، وهما يمسكان بأطراف المحمل.

ووري «يوسف» الثرى بجنب زوجته، وولديه بمقبرة البرج. مباشرة بعد الجنازة بعث «ابن الأحمر» أخاه إلى «جيان» يحمل أمرا بإيفاد طائفة من الكتاب من العاصمة إلى «أرجونة» للاعتناء بشؤون الحكم المستعجلة. وكان «محمد» قد قرر قضاء بعض الأيام بمسقط رأسه للنظر في ممتلكات العائلة، ولينتهز فرصة وجوده في «أرجونة» لزيارة بعض الربوع التي قضى بها طفولته. كان حضوره لبلدته، ومرتع فتوته، يشدد من عزيمته، ويقوي من إرادته.

في يومه ذاك، جال وهو راكب فرسه، عبر ممتلكات أسرته، وذكر كيف سقى مرارا بعرق جبينه الأراضي الجافة منها. ثم عرج على الرباط، واطمأن لعمل ابن عمه، أخي عائشة، في تسييره الموفق، إذ جعل من المكان منطقة منتجة زاهرة. ثم عاج على البساتين والحقول، التي شهدت المعركة مع القشتاليين، دون أن ينسى البيدر حيث كان جده يمرنه مع أخيه والأخوين «أشقيلولة» على فن الحرب. وسرعان ما ذهب

إلى البلدة وشرب من ماء العين «ذات الأنبوبين»، وهو يتأمل كيف أن الفتيات مازلن يقصدن المكان لملء جرارهن بالماء تحت أنظار الشبان الجسورين... حضرته الذكريات في كل زاوية بالمكان، وبدا له أن كل شيء ما زال على حاله كما كان فيما مضى، غير أن السنوات لم تمر هباء. كان «محمد بن الأحمر» قد أكمل الأربعين، صعد في العقبة المؤدية إلى القصبة، ثم ولج أطلال المنجم الذي كان يستخدمه في لياليه القلقة للخروج من «أرجونة». فوجد المفتاح الذي كان وضعه آخر مرة في عارضة الخشب ما زال في مكانه. فلم يلبث أن سار في الممر التحتاني، حتى إذا وصل إلى منتصف الطريق، حيث لا تصل نجيمات النور، تخلى «محمد» عن تماسكه، وأجهش بالبكاء كأنه طفل صغير.

عند العصر وصل الموكب الصغير الذي بعثه «إسماعيل» من «جيان». كانت «مريم» من بين من حضر في الموكب، جاءت مع الكتاب والخدم، وحينما أراد «محمد» أن يحتج على جرأتها، قدمت المرأة له مذكرة كتبها أخوه «إسماعيل».

«لم أتمكن من منعها من الذهاب إليك» اعتذر «إسماعيل» لأخيه. ابتسم «محمد»، ونظر إلى المرأة من أعماق عينيه الخضراوين. فبادلته «مريم» النظرة بنظرة أخرى، دون أن يَطْرِفَ لها جفنٌ، وهي واقفة قبالته في رباطة جأش. وسرعان ما مدت يدها نحو الأمير، وأخذت تلاطف لحيته الكثة من منطقة أعلى العنق، بالذات في المكان حيث يخفي «محمد» الجرح الغائر

الذي كان خالها قد أحدثه في عنق «النصري» بطعنة سكين، في اليوم، عينه، الذي حررها الثغري منه. كان الليل قد شرع في نشر عتمته، فأمسك «محمد» بـ «مريم»، وسار بها إلى غرفته. ولم تكن المرأة لتنتظر المبادرة من «محمد»، إذ شرعت هي في تجريده من لباسه، وهي تلاطف جسمه القوي المفتول. تظاهرت «مريم» بأنها تريد الانحناء، غير أن «محمدا» أخذها من كتفيها، وقادها إلى السرير. كانت «مريم» قد تركت شعرها ينساب على عواهنه دون قص، كانت تجمعه فقط وراءها عبر ضفيرة، كان جسمها بالرغم من نحافته مصقولا بشكل جميل، غير أن عينيها كانتا لا تزالان مليئتين بالحزن والكآبة. وهو ما كان يضفى عليهما جاذبية كبيرة، تفتن الأمير.

مارس العشيقان الحب بمهل، يتسليان بالاحتكاك بين جسميهما. كانت المرة الأولى التي يمارسان الحب بهذا الأسلوب.

ـ آسف، ليس لدي شراب هنا. ـ قال «محمد»، وهو عريان فوق السرير.

ـ لا تقلق، لدي شيء آخر أهم. ـ من بين أمتعتها أخرجت «مريم» مِحْرَاقاً من البرونز، وعودا رقيقا مُصَمَّتا وضعته في لهب فانوس إلى أن اشتعل، ثم وضعته أخيرا في المحراق، حيث تركته ينفث دخانه.

ـ هذا هو الدخان الذي يستعمله النصارى في طقوسهم؟

ضحكت مريم.

ـ لا، بل يستخدمه المتصوفة ليساعدهم في تأملاتهم، وتدبرهم في الكون والخلق.

ـ وماذا يفعلون؟ لم أسمع أبدا عن هذا الأمر.

ـ فقط يستنشقون. افعل أنت ذلك أيضا. ـ استنشق «محمد» بدوره عميقا ـ جاء به أحد المتصوفة العرب يعظ الناس بـ «جيان». وقد ابتعته من إحدى جواريك بالقصر. ـ أضافت بنبرة خبث وشيطنة.

مضت لحظة، وإذا بشعور من الدوار يغمرهما، ويسري في جسميهما إحساس بالاسترخاء. وبذلك، وتحت تأثير من المخدر قضيا ساعات طوالا وهما مستلقيان على الفراش. تحدثا أثناءها عن «شمس»، وعن حملها. ذلك أن الفتاة سرعان ما وجدت نفسها قد حملت، ومن ثم زاد التباعد بينها وبين والدها اتساعا. كما تحدثا أيضا عن أولاد «ابن الأحمر» الذكور، خاصة البِكْرَين، «يوسف» و«فرج» اللذين بدآ يتلقيان العلم على يد أحسن المعلمين بـ «جيان».

ـ أنا لم أنشئ هذه الإمارة بالكتاب بل بالسيف، والأفضل لهما أن يتمرنا على حمل السلاح والقتال، لأن الكتب قد تُلينُ من طبعيهما.

ـ بل قد تجعل منهما حاكِمَين صالحين، عالِمين وعادِلَيْن. ـ أدلت الجارية برأيها ـ إن السيف يؤسس الإمارة، والكتاب يحافظ عليها.

انطفأ العود، لكن الغرفة تشبعت بالبخور المخدر. حينها نامت المرأة في هدوء ووداعة. نهض «ابن الأحمر» ولبس لباسه وخرج للفناء. كانت السكينة

تخيم على البيت. وفي لحظة انخطاف اتجه ناحية المدخل، ونزع حصيرة النافذة، وخرج من هناك إلى الشارع. كان الهدوء يلف القصبة. وفي حماية الظلال صعد عبر القرميد القديم وسار خفية إلى النافذة القديمة. دفعها غير أنها استعصت على الفتح هنيهة، قبل أن تفتح على مصراعيها بعد ذلك. كانت الغرفة فارغة، لكنه سرعان ما قفز إلى داخلها، وجلس على الأرضية. سارت دموعه تنهمر وهو يتمتم باسمها، وإذا بالجرح الكبير الذي اعتقد أنه قد اندمل بدأ ينزف من جديد.

ـ «فرح» ـ كان يردد وهو يشهق باكيا.

***

**«قرطبة»، Córdoba ربيع 1237**

توالى نزول المطر ثلاثة أيام متتالية، وبدت الأراضي المحيطة بقرطبة هذا الصباح مبللة بالماء. كانت الحقول مخضرة، لكن الأيادي الكافية لخدمتها لم تكن متوفرة. ذلك أن المدينة منذ أن ملكها «فرناندو الثالث»، [وغادرها سكانها المسلمون] ظلت تشكو من انعدام الساكنة، والنقص في اليد العاملة. فقد كان تعهد «قشتالة» بتوزيع الأراضي والدور السكنية على المستوطنين الجدد غير كاف لتحريك القشتاليين والليونيين لقطع السلسة الجبلية والسكن في ذلك القطاع الحدودي، الذي كانت تتكفل بحراسته حامية ضخمة يستدعي تزويدها بالأقوات والمؤن والحاجيات المال الكثير.

كان صوت المنادي قد وصل إلى القصبة منذ

الساعات الأولى من الصباح. تململ «مرتين فرناندث البرغشي» على فراشه بحركات بطيئة. كان على الدوام يستيقظ على إحساس بآلام، ولم تكن لتزول عنه آلامه إلا بعد لحظات من التقلب في سريره حتى تَسْخُنَ عضلاتهُ ويقل تشنجها. ولا غرو، فقد تأثرت صحته نتيجة مشاركاته العديدة في المعارك والقتال، وقضائه الليالي الطويلة في العراء، وتعرضه المتكرر للجراح، وحفاظه على شعيرة الصوم القاسي، كل ذلك نال من صحته، وأثر على بنيته.

لبس «مرتين» كَتِفِيَّة الرهبان [التي تسدل على الصدر والكتف] وغادر إلى الباحة المركزية في النطاق القصري. كان عدد كبير من الرباحيين القرطبيين قد تحلقوا حول السجينين إضافة إلى عدد أكبر من الحراس والجنود. أحضر المتهمان، كانا مقيدي اليدين، وهما لابسان جلبابين من القماش الكستنائي اللون. «مرتين» وهو أكثر أعضاء رهبانية «قلعة رباح» رتبة عسكرية في نطاق قرطبة كان قد ترأس المحاكمة في صباح يوم أمس. كان الأمر يخص شابين تابعين للرهبانية متهمين باللواط. حيث أقسم ثلاثة من الشهود بالصليب أنهم رأوا المتهمين يمارسان اللواط. ولم يكن أمام الشابين تحت الضغط سوى الاعتراف بجرمهما. وهو جرم يُعاقب عليه بالقتل.

- كان الشيطان هو الذي أوحى لي بذلك، وأنا الآن قد تخلصت منه، وطردته من جسمي! العفو، أطلب من المحكمة الموقرة العفو! - كان يصيح أحدهما وهو على وشك الانهيار.

لكن الجلاد قطع رأسيهما بشكل سريع ودقيق. وسرعان، ما خيم على الصحن الهدوء. وعاد الجميع إلى أعمالهم، في حين انسحب «مرتين» إلى إقامته الموجودة بأحد أبراج القصر، وأخذ يصلي، وهو في حالة ذهول، من أجل روحي الشابين اللذين أعدما، دون أن يسببا في الحقيقة أي أذى للآخرين. وحينما تمكن من استرجاع الطمأنينة لروحه، أخرج رسالة أخيه «رُوْي»، وأعاد قراءتها.

«... ولتعلم أن أخبار شجاعتك قد ذاعت ووصلت حتى إلى هذا الدير، ولَكَم أحلمُ بأن تصبح يوما ما «مايسطري» [المعلم الأول في الرهبانية]..». ـ كتب القس إلى أخيه وهو فخور به.

وفي الوقت ذاته أخذ «مرتين» عُدَّةَ الكتابة لديه وشرع في كتابة جواب على رسالة أخيه.

« صل من أجلي، يا أخي، حتى تفتح أبواب السماء حينما أسقط، فكثيرة هي الدماء التي تثقل ضميري..».

ولما أتم تحرير رسالته بقي للحظات صامتا، وهو يتأمل النقوشات الجصية الرقيقة التي كانت تزين القاعة، وفرشات الزليج التي كانت تلبس الجزء الأكبر من الجدران. من بعيد، وصلت دقات الأجراس، وهي تدعو للقداس.

***

«جيان» Jaén. ربيع 1237

ـ الآن أصبح أولادي أعضاء في أسرتك يا «محمد».

كان حفل زفاف «إبراهيم» و«مؤمنة» قد مر عليه نحو أسبوعين. انتقلت خلالها ابنة الأمير «محمد بن الأحمر» للعيش في بيت الزوجية بدار أسرة العريس. كان مزاجا الزوجين شبيهين، وهو ما دعا «ابن الأحمر» إلى التنبؤ بحياة سعيدة للزوجين. من ناحيتها كانت «شمس» قد أهدت لزوجها «عبد الله» طفلا ذكرا اختارت له من الأسماء اسم «علي».

ـ جدي ـ قال الأمير بنبرة متوددة. ـ لم أنسكم أبدا، وسأستمر وفيا للعهود التي بيننا. ـ أكد على كلامه، قبل أن يغير موضوع الحديث ـ يلح «عمر الحسون»، على أن هناك ثمارا قد نضجت، لأن الأولياء والصالحين قد أصبحوا يعظون الناس باسمي، ويدعونهم إلى مبايعتي، حصل ذلك في «غرناطة»، و«مالقة»، و«ألمرية». لقد انتهى «ابن هود» وزمنه.

ـ وانتهى أيضا «ابن مردنيش» ـ أضاف «أشقيلولة» ـ لأن ملك أراغون يوجد الآن على أبواب «بلنسية»، ولن يتأخر في الانقضاض عليها، سترى ذلك بأم عينيك.

مسح «محمد» شعره بيده، وعيناه الخضراوان قد زاد لمعانهما.

ـ ينبغي علينا أن ننتهز فرصة اتفاقات الهدنة. لا أعتقد أن «فرناندو» سيحافظ على السلام حين انتهاء أجلها.

ـ قبل أن تنتهي هذه الاتفاقات ستكون قد أصبحْت سيدَ نصف الأندلس. ـ قال النبلي في

لهجة تكهن.

ـ وهل علمت ذلك بواسطة التنجيم؟

وضع «أشقيلولة» سبابته على جبينه قائلا:

ـ بل هذا هو الذي أعلمني بذلك. عقب بابتسامة.

***

**«غرناطة» Granada. صيف 1237**

خرج «ابن خالد» من القرية، وعلامات العشي بدأت تلوح في الأفق. كان الاجتماع بمثابة المفصلة التي وحدت العزائم، وربطت الاتصال بين مختلف الطوائف الثائرة بالمدينة. كانت قد مرت أسابيع على الثائرين وهم ينشطون عبر اجتماعات سرية هنا وهناك، بل شرع بعض الغلاة منهم في الانتقال إلى تنفيذ بعض العمليات. من قبيل رفض تأدية الضرائب، أو قذف حراس الحاكم. وقد كانت السلطات المحلية قد قامت بتوقيف بعض المتمردين، لكنها كانت تعلم أيضا أن المشكل يتجاوز بكثير إمكانياتها.

سار راكبا فرسه إلى غاية «باب إلبيرة». ثم بدأ في صعود العقبة التي تؤدي إلى «حي البيازين». كان عدد من سكان المدينة يحيونه، ويعترضون سبيله توددا. كانوا يعرفون أن الرجل من المعارضين لـ «ابن هود». وما أن أدى صلاته بالمسجد الجامع حتى قصد «فندق الصقر».

ـ أكثر من أسبوع! ـ لامته أمينة ـ هيا احك لي كيف كان الاجتماع؟

ـ «پالوما»، يجب علي أن أحافظ على المظاهر

مع زوجتي. لو وصل إلى علمها ترددي على فندقك، فإنها ستأتي شخصيا لخَمْشِ وجهك. ـ قهقه «ابن خالد» ـ سارت الأمور في الاجتماع أحسن مما كنت قد اعتقدت. يبدو أنه لا يوجد في «غرناطة» من لا يتمنى طرد «الهودي». ـ قال مبالغا ـ حتى الأولياء والصالحون يعظون الناس لصالح «ابن الأحمر». بل إن الناس جميعا يتحدثون عن «النصري».

ـ ذلك أعلمه. هل تظن أن الأخبار لا تصلني بسبب حياة الانعزال التي أحياها لا؟ هذا المحل يعرف مرور الرجال باستمرار. ـ ابتسمت ما وسعتها الابتسامة، ثم سألت: متى؟

ـ لم نحدد تاريخا بعد، لكن قريبا. أن تدفع بمدينة إلى الثورة ليس بالأمر الهين. ستكونين على علم بكل الخطوات التي سنتبعها ـ أومأت «أمينة» بإشارة اتفاق. فقد كان ماخورها يعمل كنقطة إلتقاء، ونشر للمعلومات. ـ والآن ألا تروين عطشي بكأس شراب؟ أين الساقية؟

خرجت «أمينة» لتنادي على «دنيا»، وللتو، دخلت الفتاة وهي تحمل جرة مملوءة خمرا. كانت تلبس جلبابا بسيطا من الكتان يخفي مفاتنتها، إضافة إلى وضعها ثوبا ملفوفا على رأسها يسمح فقط بظهور عينيها. وقد كانت أمينة تسعى إلى أن تتزيى الفتاة بأزياء خشنة حتى تحفظها من النظرات الشهوانية.

ـ متى ستشرع في عرض خدماتها؟ ـ سأل «ابن خالد»؟

ضربت «أمينة» بكفها صدر الرجل قائلة:

- بالنسبة إليك، لن يتحقق ذلك أبدا. إنها فتاة حرة.

لم تنبس «دنيا» ولو بكلمة، وهي تسقي «ابن خالد» و«أمينة»، تصب الخمرة لهما في كأسين من الزجاج الرقيق. كان الرجل يعب من المدام عبا دون أن يزيح بنظره عن «دنيا»، فذكر صدق كلام «أمينة» حينما قالت له ذات يوم: «احفظ جيدا ما سأقوله لك: إن أقوى الرجال يستسلمون أمام الوجه الأنثوي الجميل».

***

«برغش» Burgos. خريف 1237

سمحت المدينة لنفسها أن تحيا أجواء العيد مدة فاقت أسبوعا. قبل ذلك بأيام قصد «برغش» مئات من الأشراف لحضور حفل زفاف «فرناندو الثالث» بـ «جوانا دي بونتيو». كانت الفتاة قد وصلت «قشتالة» مصحوبة بحاشية كبيرة من نبلاء فرنسا. وكانت «برنگيلا» وأختها «بلانكا»، ملكة فرنسا، وراء هذا الزواج. حيث عملتا، بتآمرهما، على الحيلولة بين الأميرة الفرنسية وبين ملك إنجلترة «هنري الثالث»، وقد كان يرغب في الاقتران بها. فتمكنتا من رد صداقه، والتأثير في «البابا» ليعلن عن إلغاء الزواج بين العاهل الإنجليزي و«جوانا» بسبب القرابة، ومنح تبريكاته لتقترن بالملك القشتالي.

زين سكان مدينة «برغش» مدينتهم على الوجه الأكمل، احتفاء بمقدم الملكة الجديدة، ولم يكن

ليتأخر لاعبو الخفة، والبهالين عن الوصول إلى المدينة لينتفعوا من هذا الحدث الكبير، بعرض ألعاب القفز والخفة أمام اندهاش الناس. وكان المطران «رودريغو خمينث دي رادا» هو من رأس قداس القِران بالكاتدرائية، التي كانت الأشغال بها تسير سيرا حسنا. حقا لم تكن قد كُرِّسَتْ بعد، غير أن رأس المبنى المقابل للمدخل، والذي يقع به المذبح، ويقام به القداس كان قد اكتمل، فضلا عن اكتمال الجزء الأكبر من الجناحين، والمُصَلَّبَة التي يتقاطع عندها الرواقان.

بعد اكتمال القداس، تكفل موكب باقتياد العروسين إلى القلعة. وخلال الطريق كانت الحشود من البرغشيين، تهتف بحياة الزوجين، وتتمنى لهما أطيب التمنيات. فقد كان العاهل القشتالي محبوبا من شعبه، لكونه الملك الفاتح، والموحد، والمدافع عن النصرانية. وقد استمر رجال الدولة والنبلاء في احتفالاتهم بهذه المناسبة السعيدة حتى بعد مغادرة «فرناندو الثالث وعروسه القلعة في اتجاه إقامتهما ليدخل بزوجته.

كان سن الملك يضاعف تقريبا سن «جوانا دي بونتيو»، ولم يكن «فرناندو» يتوقف عن إمعان النظر في زوجته منذ أن رآها لأول مرة. فقد أخذت بلبه، وأُغْرِمَ بجمالها أيّما إِغْرام. «أحسنت أمي في اختيار العروس»، كان يقول لنفسه. حقا، كان سيتقبل أي قرار أو اختيار يأتي من والدته، لكن، كما قالت هي نفسها له ذات يوم، إذا كان الاختيار حلوا لطيفا، فإن الشراب يكون سائغا

أكثر.

أغلقت أبواب الغرفة على العروسين. كانت الفتاة ترتعد، و«فرناندو» يحس بالشهوة تجتاح كيانه. وبخطى ثابتة تقدم نحوها، فكانت المرة الأولى منذ زمن بعيد التي بدت فيها ذكرى «بياتريث دي سوهابيا» باهتة ضبابية.

***

**«ألمرية» Almería. يناير 1238**

ـ الجنة تحمل اسمك يا «ألمرية».

كان «ابن هود» يتأمل المراكب الراسية بمرفأ المدينة، وهي تَتَهَدْهَدُ في مهل على جريان التيار البحري البطيء. بجانبه جلس «ابن الرميمي» لائذا بالصمت. كان ينتظر تلك الزيارة منذ شهور، بل كان يتشوق إليها، وأيضا يخافها مناصفة. في تلك اللحظة كانت «خيمينا» تنتظر زيارة الأمير لها بغرفتها.

ـ صدقني أيها الصديق أني كلما زرت غزالتي أجد صعوبة في فراقها. يلزمنى أن أنتقل إلى هنا، وأترك زوجتي بـ «إشبيلية».

شعر «ابن الرميمي» وهو يسمع تلك الكلمات بأحشائه تشتعل بنار الحقد تجاه هذا الرجل.

ـ لعلك بذلك ستدفع بكتابك إلى الانقلاب عليك، وبولدك إلى الخروج، وإعلان العصيان ضدك. ـ أجاب حاكم «ألمرية» وهو يتمالك نفسه.

ـ أعرف، أعرف، فقط كنت أسبح في الخيال مازحا. ـ ثم عاد متأملا المراكب.

- هيا بنا لتناول وجبة العشاء فقد حان الوقت. والطباخون هيأوا على شرف الأمير طبقا مما يشتهيه.

وضع «ابن هود» يده على منكبي «ابن الرميمي».

- أشك أيها الصديق في أن تشبعني طباخاتك، وأرتوي مما يهيئن، لأن الجوع الذي أحمله معي نحو غزالتي لا يَبْشَمُ بطعام.

سار الأمير نحو إقامته لا يلوي على شيء، تاركا «ابن الرميمي» غارقا في أفكاره، وهو يتنهد من الأعماق. في اللحظة ذاتها تنبه الحاكم إلى أن قبضتيه مشدودتان إلى حد أن راحتي يديه نزفتا دما.

***

- إلى أين يا غزالتي؟

بعد أن قضى ابن هود وطره من الفتاة، ظل مستلقيا على الفراش عُرْياناً.

- للحمام لأغتسل، لا أريد تلويث الشراشف يا سيدي.

غادرت «خيمينا» الغرفة وهي أيضا عريانةٌ. تتبع الأمير بعينيه جسدها الممشوق، وشعرها المنسدل من ورائها في لون حمرة الشفق، إلى أن دلفت إلى الحمام. فجأة، اكتشف ابن هود أن تعب السفر ولقاءه بحبيبته قد نالا من قوته، وأن التعب قد أخذ منه كل مأخذ، فلم يلبث أن غط في نوم عميق هنيء.

لحظتها دخل الغرفة شبحٌ أسود، وراح يقترب من «ابن هود» في خِلسة. أمسك الغريب بمخدة، ثم وضعها على وجه الأمير وانتظر هنيهة ليرى رد فعل النائم. وسرعان ما ضغط على المخدة بتصلب وقسوة، دون أن يترك للمرسي أي فرصة للمقاومة. راح الأمير يضرب الأرض برجليه، ويحرك يديه في بحث غير مجد عن مهاجمه. كان الرجل يقاوم موتا مثيرا للسخرية... والشفقة. غير أن كل محاولاته للإمساك بالجاني ذهبت سدى، كما ذهبت تأوهاته وتفجعاته تحت المخدة دون أن يسمع لها صوت.

كانت «خيمينا» تنظر من باب الغرفة كيف كان «ابن هود» يَهْمُدُ وينطفيء. وبقيت واقفة في مكانها في سكون وصمت إلى أن توقفت تشنجات المحتضر، وانتهت المعركة. حينها أراح القاتل نفسه، واقترب من «خيمينا» وقبلها.

- انتهت القصة. ولن يعود هذا القواد القذر بعد اليوم ليلمسك.

تعلقت المرأة بصدر الرجل واحتضنته، وفي العتمة، تعرفت على الرائحة القوية لحبيبها «ابن الرميمي».

شعر حاكم «ألمرية» بالانشراح لما بدر منه من قتل «ابن هود» بتلك الطريقة، فترك «خيمينا» وحدها مع جثة المرسي. وغادر في الحين، كان الرجل على بينة من ضرورة القيام بالخطوة المهمة التالية، وهي التظاهر بأن الموت كان طبيعيا. كان على الفتاة أن تقضي ليلتها بجانب القتيل.

مع الفجر، وبداية غناء العصافير، اهتز قصر «ألمرية» على صرخات «خيمينا» وهي تؤكد أنها اكتشفت «ابن هود» ميتا بجانبها مباشرة بعد استيقاظها.

***

«غرناطة» Granada. ربيع 1238

كان الليل قد أظلم حينما خرجت «دنيا» إلى باب الفندق وعلقت قطعة قماش حمراء على الباب. بعد لحظات بدأ الرجال يتقاطرون على المكان في كتمان. على التو، أخذوا السيوف التي كانت محفوظة في مخزن أمينة، ثم احتشدوا في الفناء المركزي. وعند الفجر، ومع صياح الديكة، كان أكثر من مائة متمرد قد تزاحموا داخل الفندق، وهم في غاية الاستعداد للقتال.

ـ أزفت الساعة أيها الرجال. ولنرم بالهوديين في جهنم ـ قال «ابن خالد» وقد امتشق حسامه عاليا، وهو واقف على غطاء البئر الذي يتوسط الصحن.

وصل الرجال على عجل إلى القصبة، فوجدوا الأبواب مشرعة، والحراس الذين يحرسونها في الانتظار للالتحاق بالثوار. ومع طلوع النهار بدأ الهياج والضجيج. إذ خرج سكان البيازين والقصبة من بيوتهم لتشجيع المتمردين وحثهم على الثبات، كانوا يصيحون ضد الحاكم، ويدعون عليه باللعنات. كان الأمير «ابن هود» قد مات، لكن ابنه تولى الحكم بعده، ويسعى الآن للحفاظ على هذا الاختلال الذي طبع حكم والده، وهو ما لم يكن

ليتحمله من جديد الشعب.

قاد «ابن خالد» الناس إلى قصر الحاكم، حيث أغلق مناصرو «مرسية» الأبواب بإحكام، ومع ذلك، لم يكن أي حاجز أو متراس يستطيع أن يكبح اندفاع المتمردين، وعزمهم الحديدي على التخلص من حكم المرسيين. فلم يلبثوا أن دكوا الأبواب، وخلعوا مصاريعها لتبدأ المواجهة الشاملة بينهم وبين الجنود. ولم يمض سوى حين من الوقت حتى شرع الثوار في السيطرة على القصر غرفة غرفة، وقاعة قاعة، والهوديون يصبغون الأرضية الفاخرة المفروشة بالرخام بأحمر دمائهم، ويوقظون الغرناطيين بصرخاتهم اليائسة الأليمة. وما هي إلا سويعات حتى خرج الناس في أحياء عديدة من المدينة يهاجمون أنصار الحاكم.

في هذا الخضم، تمكن «ابن خالد» من العثور على والي «ابن هود»، عثر به في الطبقة العليا من قصره. كان الرجل يشد بإحدى يديه على ختجر وهو يرتجف من الخوف بعد أن قُتل جميعُ حراسه. وراءه احتضنت زوجته أولادها الثلاثة كأنها تحميهم، وتطلب النجاة. على الإثر، ودون أي تردد، رفع ابن خالد سيفه وغرزه في صدر الرجل. وبينما الوالي يعاني من حشرجات الموت وهو في لحظة النزع، أمر زعيم المتمردين رجاله بأن يخرجوا المرأة وأولادها من القصر، ويطردوا الجميع من المدينة. فكانت صيحات المرأة وصرخات الأطفال تدوي في أنحاء المكان، ويسمع صداها من بعيد، غير أن الثوار وقتها كانوا مشغولين بنهب الإقامة الفاخرة، وسلب ما فيها من متاع.

ـ انتهت الضرائب غير الشرعية، والقرارات السيئة، والتعسفات ضد الغرناطيين! ـ صاح «ابن خالد» أمام أتباعه ـ منذ اليوم ستحكم «غرناطة» نفسها بنفسها إعلاءً لكلمة الله، وتمجيدا للأندلس. وستمنح نفسها بمحض إرادتها لأمير عادل أمين ليسهر على حمايتها.

استقبل الرجال كلام زعيم التمرد بالهتاف والتهاليل. وخلال الساعات التالية لم يتوقف الموظفون وأتباع الحاكم السابق من الفرار من «غرناطة». وقد قتل منهم عدد كبير وهم يسعون إلى النجاة بأنفسهم، قتلوا بأيدي المتمردين. ولم يفت «ابن خالد» أن أي ثورة، وإن سعت إلى أن تكون عادلة ما وسعها ذلك، لا بد وأن تخلف ضحايا، وأن تقترن بها أحداث مأساوية. كان يردد مع ذاته «إنه ثمن الحرية، وينبغي أن يؤديه أنصار الولي الجائر».

***

طريق مالقة، **Camino de Málaga**. ربيع 1238

لم يتمكن «إسماعيل» من إزاحة بصره عن هذا الامتداد الشاسع.

سار القائد الشاب عبر رمال الشاطئ منذهلا إلى أن غاصت قدماه في ماء البحر. كان المسافرون الذين يصلون «جيان» كثيرا ما يصفون له عظم البحر ولا نهايته. غير أنه، وإن سمح لمخيلته أن تحلق في الخيال ما وسعها ذلك، لتتصور مشهد البحر لم تكن لتتوفق في إدراك شساعة المنظر الذي أمامه.

كان شقيق «محمد بن الأحمر» يسير في طريق «مالقة» على رأس جيش صغير. والحال أن «ابن جنون» والي المدينة كان قد قرر إعلان الطاعة للأمير النصري. فكتب كتابا بهذا الأمر، ووجهه بواسطة بعثة مالقية إلى «محمد». فجرت الأمور بسرعة، وقرر «ابن الأحمر» أن يرسل أخاه «إسماعيل» واليا جديدا على المدينة، مكافأة له على وفائه الراسخ الذي لم ينكسر منذ بداية الدعوة النصرية.

ـ لقد تحققت تنبؤات «عمر الحسون»، يا أخي ـ قال «محمد» لأخيه ما أن توصل بالكتاب من حاكم «مالقة» وهو يكاد يطير من الفرح ـ فقد كان إعلان المدينة مبايعتها لـ «محمد بن الأحمر»، ذا مغزى كبير، بوصفها دفعة قوية لمسيرة التأسيس لحكم الإمارة في تلك الظروف التي كانت تمر بها الأندلس: انهيار إمارة «ابن هود». حقا لم يكن خبر وفاة «أمير المسلمين» قد وصل بعد إلى «جيان»، غير أن نتائج ذلك كانت قد لاحت في الأفق السياسي لشبه الجزيرة.

تقدم «إسماعيل» عبر الساحل إلى أن وافى مشارف مالقة. من بعيد كان يرى «جبل الفارو»، تتدلى منه بقايا القلعة القديمة التي تشرف على البر والبحر. ومن تحتها وقفت القصبة شامخة بأبراجها وحصونها، وفي أسفل الجبل، بالمنطقة الواطئة، بدت المدينة وأرباضُها منتشرةً في بياض ودلال، تحرسها الأسوار، وتحيط بها الحظائر.

خرج «ابن جنون» لاستقبال الوالي الجديد، وفي أعقابه سار سكان المدينة. غير أنه، فجأة،

لاحظ الجميع حركة واضطرابا غير عاديين. كان «إسماعيل» يقترب من الحشود حينما اكتشف أن المئات من المالقيين الذين خرجوا للترحاب به كانوا في حقيقة الأمر يتقاتلون مع حراسهم في معركة حامية الوطيس. في اللحظة ذاتها هرع عدد من أعيان المدينة إلى «إسماعيل» ليخبروه بالنازلة.

ـ سيدي ـ قال له أحدهم ـ نستقبلك بانشراح وفرح في هذه المدينة المبتهجة، التي سامها حاكمها في السنوات الأخيرة الخسف ومسح عنها ابتساماتها...

هكذا بدأ سرد لائحة طويلة من التعسف والظلم، ومن الإذلال والطغيان، تمكن من خلالها «إسماعيل» أن يقف على الوضع الذي كانت تشهده «مالقة» في الأعوام الأخيرة. كان «ابن جنون» قد قام بأعمال مهمة بخصوص تجهيز المدينة بالمنشآت والمرافق الكبرى، غير أن الرجل في حكمه للمدينة كان مستبدا ظالما. فكرهه المالقيون، وناصبوه البغض في سرائرهم، حتى إذا وصل الوالي الجديد، اهتبلوها فرصة للثورة على الرجل، والتشهير بجوره. لم يتسرع «إسماعيل» في البداية، وتأخر في رد الفعل. وترك نفسه على مسافة من الصراع حتى علم بأن «ابن جنون» فر من المدينة عبر طريق «غرناطة».

ـ ليتعقبه ثلاثون فارسا ـ قال لمرافقه ـ وليلقوا القبض عليه. أريده حيا آمنا حتى تتوضح الأمور.

وجد الوالي الجديد نفسه يواجه أول أزمة وهو لمَّا يدخلِ «مالقة». وكان قد نصب معسكرا جيد

الحراسة والاستحكام بضواحي المدينة، مقابل «ربض فنتنالة». من هناك كان باستطاعته أن يسمع احتفالات المالقيين، وهم يرون أنفسهم قد أصبحوا أحرارا من حكم الوالي الهودي المشؤوم. وعند العصر عاد الفرسان وهم يقتادون الأسير، ابن زنون. في الحال ألف «إسماعيل» هيئة محكمة، لتضطلع بمحاكمة الحاكم القديم لمالقة. وكان ضمن الهيئة أهم شخصيات المدينة وأعيانها.

ـ لم أفعل أكثر من تعاطفي مع السكان، وإظهار حبي لهم، وتزويد مدينتهم بالأسوار والمرافق العمومية النافعة للجميع، وهي أمور كلها تنفع المدينة وأهلها. ـ سعى «ابن جنون» إلى الدفاع عن نفسه. غير أن شهادات جميع الحاضرين أكدت على طغيان الرجل، وفساده، والأسوأ، أنهم أشاروا إلى أشياء لا يمكن سردها عن استغلاله لبراءة الأطفال، وتعسفه عليهم. وهذه التهمة كانت أفظع التهم التي هزت «إسماعيل».

ـ عشرات من الفتيات الصغيرات صعدن في العقاب المؤدية للقصبة فقط ليتسلى بهن، ويعتدي عليهن. ـ صاح أحد الشيوخ، وكان فاقدا لإحدى ذراعيه، وهو يضطرم غضبا.

ـ هذا خزي وعار ـ صرخ «ابن زنون» ـ أطالب بالعدل! هذا اللمز لا يمكن أن يبقى دون عقاب.

أمر «إسماعيل» بالهدوء، وأخذ يفكر للحظات. أول ما طرق فكره هو أن حُكم مدينة كبيرة يمكن أن يكون هدية صعبة الهضم. رثى لحال أخيه

الأمير الذي ينبغي له أن يتحمل على عاتقه هذا الكم الهائل من المسؤوليات.

ـ وهل تعرفون إحدى هؤلاء الفتيات؟ ـ سأل «إسماعيل»، وأجاب العديد من الحاضرين بالإيجاب ـ أحْضِرُوا، إذن، خمسا منهن على الأقل.

بعد مرور حوالي ساعة، ولجت الخيمةَ سبعُ طفلات من مختلف الأعمار. طلب «إسماعيل» بأن يَقْتادَ أربعة من الحراس المتهم أمام الفتيات الصغيرات:

ـ أَشِرْنَ إلى الرجل الذي كان معكن. ـ قال بصوت استجمع فيه كل ما استطاع من عذوبة النبر وحلاوته. كان منظر هؤلاء الصغيرات قد أحدث في صدره انقباضا شديدا.

أشارت الطفلات واحدة تلو الأخرى بأصابعهن إلى المتهم. لكن كبراهن وكانت تقريبا في الثانية عشرة من عمرها، لم تتمالك، وبصقت على الأرض مباشرة بعد أن أشارت بأصبعها إلى الحاكم السابق. أمر «إسماعيل» بإخراج الطفلات، ثم تطلع إلى «ابن زنون» بنظرة ملؤها الغضب الشديد.

ـ احملوا هذا الكلب اللعين إلى أحد المراكب، حفاظا على حياته، إلى أن ننظر في أمره، ونأمر في حقه بالعقاب الذي يستحقه.

ـ «إسماعيل» العادل! صاح المالقيون، ثم ساروا في أعقابه حينما دخل المدينة، وسار في شوارعها إلى أن وصل القصبة [وهي القصبة الشهيرة التي كان الحموديون المغاربة قد بنوها في القرن الخامس خلال فترة الطوائف] ـ الموت

لأنصار ابن هود! كان الجميع يصيح.

في الحال بعث الحاكم الجديد لأخيه «محمد بن الأحمر» يستشيره فيما ينبغي له أن يتخذ من قرار في حق «ابن زنون». في أقل من يوم وصل الجواب. هنأ «محمد» شقيقه على أسلوبه في معالجة الوضع، وأظهر سعادته بالتحاق مالقة بممتلكات النصريين. أما بالنسبة للمتهم فقد أجاب «ابن الأحمر» بكلمتين: «أقسى العِقاب». كان «إسماعيل» يعرف جيدا ما يعنيه ذلك. فأمر بأن يحمل المحكوم عليه من المركب، ثم ينقل إلى المُطْبَق، السجن المظلم في أسافل القصبة. وهناك، في حُلْكة المكان وظلمته، بدأت رحلة العذاب لـ «ابن زنون»، حيث جد الجلادون في عملهم، فكانت صَرَخاتُ المعذب تسمع في جميع أنحاء «مالقة» خلال يومين بليلتيهما. وأخيرا بادر أحد الحراس، وكان قد ضاق ذرعا بزعيق المعذب، بتمكين «ابن زنون» من خنجر،سرعان ما وضع به هذا الأخير حدا لحياته. وبذلك تنفس سكان «مالقة» بارتياح، وانتقموا من عدوهم.

هكذا استهل «إسماعيل» أصغر الأخوين النصرِيَيْن حكمه لـ «مالقة»، بالعدل والقسطاس، فهتف المالقيون باسمه وحياته، واعتبروه منقذا عادلا ومتزنا، ولا ينحاز سوى إلى الحق.

***

**«جيان» Jaén. ربيع 1238**

وصل الشيخان إلى «جيان» في الصباح. كان الرجلان يترأسان البعثة التي تمثل السلطات

الرئيسة في المدينة. جلس «ابن الأحمر» مقابلا لهما بحضور «ابن صناديد» على يساره، وجده «أشقيلولة» على يمينه. لحظتها مد أحد الأعيان الوثيقة التي يعلن فيها أهالي غرناطة الطاعة للأمير ابن الأحمر. على التو، تكفل «النبلي» بتسلُّمِ عقد البيعة، تفاديا لإحراج «محمد» الذي لم يكن يحسن القراءة. افتتح النص بالثناء على الأمير، وامتداح غيرته على الإسلام، وكونه أحدَ زعماء هذا الدين. ثم عرج على موضوع ثورة الغرناطيين على الحاكم الهودي، قبل أن يُختم بإعلان الخضوع لأمير «جيان» «ابن الأحمر».

- «ابن خالد» ينتظرك بـ «غرناطة» - قال أحد الشيخين - هو من قام بالثورة على والي ابن هود بالمدينة، ثم تكفل بعد ذلك بحكم المدينة وفحصها، ريثما تصل إليها بنفسك. أضاف الشيخ.

كان «ابن الأحمر» يشعر بأن الأحداث تتجاوزه. فقد مَلَكَ في بضعة أيام «مالقة» و«غرناطة»، وهو ما كان «عمر الحسون» قد تنبأ به، مادام أن «الأولياء الصالحين» كانوا قد مهدوا السبيل لقيام هذه التمردات. أدرك الأمير أهمية «مالقة» التي ستمنحه مرفأ كبيرا على البحر المتوسط، وعددا لا يستهان به من المراكب، وهو ما يعني ضمان حركة تجارية نشطة في اتجاه مراسي هذا البحر. أما «غرناطة» فستقدم له الرجال، إضافة إلى كونها قلعة محصنة طبيعيا، ويمكن الدفاع عنها بسهولة. وهو ما يؤهلها لتصبح عاصمة لمملكته.

- هذا يشرفني ويسعدني. وخلال الأيام القليلة

المقبلة سأزور المدينة. ـ كان «ابن الأحمر» يتحدث، وبالكاد يخفي ما كان يشعر به من إثارة.

على الإثر، ظهر على نظرة الشيخين بعض الفتور، غير أنهما أجابا بابتسامة.

ـ بصفتي القائد الأعلى لجيش الإمارة سأقصد غرناطة غدا، لأرتب لزيارة الأمير ـ بادر «أشقيلولة» بالقول ـ ليعلم الجميع أن الأمير أصبح جَدّاً للمرة الثانية، كريمته «شمس» وضعت البارحة مولودها الثاني ـ استطرد ليشرح سبب عدم توجه الأمير إلى غرناطة في الحال.

انتهى استقبال «محمد بن الأحمر» لموفدي «غرناطة»، فغادر القاعة في اتجاه المصلى الصغير، كان يريد أن يقدم شكره للعلي القدير على نعمه.

ـ أرجو أن أوفق في حكم المدينتين، بمساعدتك، طبعا.

كان «عمر» غارقا في تأملاته، ووجهه نحو القبلة. جلس «محمد» بجانبه، كما كان يفعل عادة حينما يدخل عليه في مصلى «أرجونة». كانت السكينة مخيمة على المكان، لولا صوت بكاء كان يصدر من طفل صغير بالجناح الخاص في القصر.

ـ بدَأْتَ تَشيخُ يا «محمد» ـ قال «الحسون» ـ «شمس» منحتك حفيدين، و«مؤمنة» على عتبة منحك الحفيد الثالث.

ـ لا تسخر مني، إذ ما زلت محافظا على قوتي بما فيه الكفاية لشَهْرِ سيفي.

ـ ستكون تلك القوة دعامتك، وستحتاج إليها. أعتقد أن «غرناطة» أصبحت بجانبك. ـ كان «عمر» قد رأى المبعوثين الغرناطيين ـ لا تتأخر في الذهاب إلى الحاضرة.

ـ غدا سيغادر إليها «أشقيلولة»، وأنا سأسير خلفه.

ـ الشيخ «أشقيلولة»... ـ نطق «عمر» وهو يمسح على لحيته ـ أنت مدين له بالكثير.

ـ كانت أسرته عونا كبيرا لي، غير أني لا أثق في «عبد اللّٰه» ـ اعترف «ابن الأحمر» ـ لا أريده قريبا مني. يتوق إلى كل ما أملك. ـ صمت «عمر»، في حين غير «محمد» الموضوع ـ معلمي، لقد رافَقْتَني مُذْ كنتُ فتىً، ورأيتَني أتدرج من طور إلى آخر، ثم شاهدْتَني أسقطُ في الجحيم، وكيف خرجتُ منه، ونفسي مثخنة بالجراح... لقد عرفتني بصفتي ثغريا، وأيضا، باعتباري أميرا. فهل تظن أنني أستحق ما أملك؟

ـ يا صغيري «محمد»، أنت لا تملك سوى ما كان مقدرا لك أن تستحقه منذ سنة ولادتك، السنة المباركة التي وقعت فيها «معركة الأرَك».

***

**«غرناطة» Granada. ربيع 1238**

أمر «النصري» رجاله بإعداد المعسكر، ونَصْبِ الخيام. كانت «غرناطة» تبدو قريبة من المكان، غير أن دُنُوَّ وقت الغروب جعل النصري يفضل دخول المدينة في الصباح الموالي. وسيرا على عادته في التقشف كان «محمد» يلبس جلبابا

متواضعا ـ أقرب إلى الاهتراء خاصة من الكتفين ـ قماشه مصنوع من الخَزّ، وبه خطوط باللونين الأحمر والأبيض. في تلك اللحظة التي كان فيها الجند مستغرقين في تهيئة إقامتهم المؤقتة، ابتعد «محمد» قليلا عن الجميع، وراح يتأمل معتزلا موقع المدينة وضواحيها. بدا له الفحص الغرناطي في لون الذهب بتأثير شمس الأصيل، ومقسما إلى آلاف الحقول المزروعة التي تشقها الجداول والقنوات، حيث تجري المياه الغزيرة. هنا وهناك وَشَّتْ أجمات صغيرة باخضرارها الفحصَ الفسيح، واقتسمت الحقولَ عشراتٌ من القرى الضاحكة الهنيئة. كان الجو حارا، لكن وراء المدينة، سدَّتِ الأفقَ سلسلةٌ جبلية عظيمة تعلوها الثلوجُ بالكامل، في حين برزت غرناطةُ للعَين ممتدة بين رابيتين، يَشقُّها نهر يجري للقاء آخر أكبر منه، وأغزر ماء.

خفق قلب «ابن الأحمر»، وعاد لركوب فرسه.

***

ـ غرناطة تنتظرنا! فلنُسرع إلى لقائها حتى لا تيأس منا أو تغضب علينا. ـ قال «ابن الأحمر النصري» لرجاله، وهم يجدون في رفع المعسكر، ليسيروا خلفه.

عبر الركب مرج غرناطة، واقترب من السور من ناحية «باب إِلْبِيرَة»، حيث امتدت مقبرة صغيرة تتخللها أشجار زيتون. استقبل الحراس «ابن الأحمر» بالسلام الذي يليق بأمير، ثم قادوه وموكبَه عبر العقبات الواقعة خارج السور، والمؤدية إلى الجزء الأعلى من القصبة. غابت

الشمس، وأصبح الضوء ضعيفا. وحينما وصل الجميع إلى قمة الربوة، أذن مؤذن الجامع الأعظم لصلاة المغرب. نظر «محمد» نحو صومعة الجامع، ثم تقدم نحوها بخطوات ثابتة. سار الجميع وراءه، في اللحظة ذاتها خرج عدد من أهل الحي لاستقباله، وهم بين مندهش، ومُسَلى إزاء مشهد أمير يلبس لباسا من الخز البالي.

«إنه رجل متقشف»، «هكذا ينبغي أن يكون الأمير»، كان يسمع في الشوارع والأزقة.

قريبا من المسجد الجامع اجتمع به «أشقيلولة» و«ابن خالد». فاحتضنه الرجلان بحب ووفاء، غير أن «محمدا» لم يشأ إرجاء الصلاة.

ـ إنك في العاصمة الجديدة لإمارتك ـ سارع «أشقيلولة» بالقول للأمير، وعيناه تعكسان الإعجاب الكبير الذي شعر به نحو «غرناطة».

ولج «النصري» جناح الصلاة بالمسجد، واتجه نحو المحراب. على الإثر امتلأ الجامع بالمصلين، ووقف «محمد»، وأخذ يتلو الفاتحة في إخلاص، وورع صادق.

ـ «... اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين» آمين ـ ختم.

خيم على المسجد صمت كامل، غير أن الغرناطيين ما لبثوا أن نهضوا للترحاب بمقدم الأمير «محمد بن الأحمر». كانت باحة المسجد حينها قد امتلأت عن آخرها بأهل «البيازين»، وهم يحملون عشرات من الفوانيس الزيتية لتنير

طريقهم. ولكم كان لهذه الخطوة التلقائية من قبل هؤلاء الغرناطيين من أثر في نفس «محمد» المبتهجة بهذا الترحاب العفوي الصادق. حينها اقترب «ابن خالد»، الذي تزعم التمرد ضد الحكم الهودي بالمدينة، ودعا الأمير إلى محل إقامته بقصر المدينة القديم، الذي كان أمراء «بني زيري» قد شيدوه [في زمن ملوك الطوائف]

ـ «غرناطة» بلدة تحبك وتناصرك، وكانت تواقة لرؤيتك بين ظهرانيها ـ قال «ابن خالد» لـ «النصري»، وهو يحثه على السير. خرج الرجلان من صحن الجامع وسارا، خلفهما الحاشية، حتى وصلا إلى الجدار الأعلى للقصبة. كان الليل قد أظلم، غير أن الغرناطيين أصروا على أن ينيروا طريق الأمير بفوانيسهم. بعد فترة دخل موكب الأمير للمُنشأة الحصينة عبر البوابة الرئيسية. وكانت القصبة تقع بالمنطقة العليا من الرابية، وتشرف على الضفة الشمالية من نهر «حَدَّارُه» Darro. ثم نزل الموكب عبر المنحدرات المؤدية إلى التوسعة الأولى التي كان النطاق قد شهدها، وحيث يقع القصر. وفي الطريق كان السكان يجرون بموازاة سير الموكب، وهم يعلمون الآخرين بوصول الأمير.

ـ مولانا ـ كان بعضهم يقولون.

ـ أمير المسلمين ـ يقول البعض الآخر.

في حين كان «محمد» يبتسم وهو تحت وقع سعادة غامرة، تاركا لأهل المدينة العنان لاقتياده بين الأزقة والدروب المشبكة. وفي مدخل القصر كان أعيان «غرناطة»، وقد أحاط بهم حراس أشداء شاهرو السلاح، ينتظرون الأمير وحاشيته للترحاب

بمقدمهم. تقدم «أشقيلولة» وشق الطريق بين الجموع ليمر الأمير. وما أن دخل «ابن الأحمر» مقر إقامته الجديد حتى أدرك أن «غرناطة» مختلفة عن جيان. كانت غرناطة تفرض رقتها الحضارية في مواجهة تقشف المدن الواقعة في الحدود. كان كل تفصيل في القصر الغرناطي يتسم بالجمال والاتقان. فكانت الجدران مزينة بالجبس المزوق بأشكال هندسية تتشابك فيما بينها، في اختلاف اللون والشكل، أما قواعد الجدران فكانت ملبسة بالزليج المتباين الألوان بما في ذلك قواعد الأعمدة الرخامية التي كانت تسند بها الأروقة الداخلية للصحن الداخلي. في كل زاوية وضع حك عطر تنبعث منه روائح زكية مختلفة عن أخرياتها في الزوايا الأخرى. بينما علقت في السقوف ثريات تضيء بأنوارها المكان كما لو أنه تحت ضوء الشمس. دَعْكَ عن البُسُط الفاخرة التي كانت تغطي الأرضية، والأخرى التي علقت بالجدران، تزيدها جمالا ألوانُها الزاهية المختلفة. وبالرغم من أن «ابن الأحمر» لم يكن ليعجب بالغنى والثراء، ومع ذلك، بقي الرجل مفتونا بسحر المكان ورقة زينته.

ـ سيدي، هذه دارك. وهي في متناول يدك، ويمكنك أن تتصرف فيها كما تشاء. ـ قال له أحد الخدم.

وسرعان ما قام ابن خالد بإرشاد الأمير داخل القصر، فقاده إلى قاعة الاجتماعات، وإلى الإقامات العديدة التي يتألف منها المُرَكَّب القصري. ثم ذهب به إلى الحدائق والبساتين

التي تحيط بالمُنشأة الأميرية قبل أن يسوقه إلى أحدِ البرجين اللذين ينتصبان فوق الطابق الثاني، ومنه بدت المدينة لـ «ابن الأحمر» ومن معه، في كامل صورتها، وهي تحلم في وداعة تحت نور خافت. كان النور ينبعث من هلال يطل في خفر من سماء غرناطة، ويضيء في فتور السطوح والأزقة المتشابكة. دل «ابن خالد» بإيماءة من يده «محمدا» إلى المدينة العتيقة وقد وقفت وسطها في جلال مئذنة الجامع الأكبر، ثم استدار نحو الخلف، وأشار هذه المرة إلى الروابي التي يقطن بها البَيَّاسِيون والأُبَّدِيون الذين لجأوا أخيرا إلى غرناطة:

- تلك هي المدينة وحي البيازين - شرح ابن خالد لـ «محمد» - أما هنا، في الوسط، فالقصبة - أشار إلى قدميه - وما بعد المدينة، يقع حي اليهود القديم، الذي يطل عليه «البرجان القرمزيان» - توقف «ابن خالد» هنيهة ثم استطرد - الواقع إن «غرناطة» هي تآلف لأربع مدن في مدينة واحدة.

أدام «محمد» النظر في كل أرجاء «غرناطة» التي أطلعه عليها «ابن خالد»، لكنه سرعان ما توجه بنظره إلى الربوة الضخمة التي كانت تقابلهما، والمطلة على مجرى نهر «حَدَّارُه» el Darro، وهو ما لم يفت «ابن خالد» فبادر بالقول:

- إنها هضبة «السبيكة». تقع عليها أطلال قلعة يعود تاريخها إلى الحروب التي جرت بين العرب والمولدين، يطلقون عليها «الحمراء»، [la Roja].

اهتم الأمير أكثر بالموضوع وهو يتبين بعض البنايات التي وقف في وسطها منتصبا أحد

الأبراج. كان يفكر في هذا الاسم الذي يحمل اللون الذي تعرف به أسرة بني نصر، وأَوَّلَ الأمرَ كما لو أنه علامةٌ قدرية.

ـ مكان جيد لمراقبة المدن الأربعة التي تكون غرناطة. ـ نطق العبارة دون أن يحول نظره عن الهضبة مفتونا بجاذبيتها.

***

«جيان» **Jaén**، صيف **1238**

تركت «عائشة» باب غرفتها مواربا حتى يجري الهواء. وتهيأت لتغيير لباسها في النور الخافت الذي كان يصدره الفانوس الزيتي. كانت بين الفينة والأخرى تلوح بيدها استجلابا للهواء البارد. بعد فترة استلقت المرأة على الفراش دون أن تطفئ المصباح، وهي نصف عريانة تلمع بشرتها من العرق. بعد لحظة قرقرت مُفَصَّلةُ الباب، وعلى إثره في الجهة الأخرى سمع صدى خطوتين، وطنين باهت. اقتربت المرأة من الباب، ونظرت من الشق المفتوح منها، فمَيَّزَتْ شخص «كمال بن هادي» وهو يقيم الحراسة بالجهة الخاصة من القصر. بدأ قلبها في الخفقان. كانت وحدها، وزوجها ما زال بغرناطة، ولا تعلم موعد عودته.

استدارت «عائشة»، وعادت أدراجها إلى سريرها،بخطوات وئيدة متمهلة، لكنها تركت الشرشف الذي كان يغطي جسمها الجميل في الضوء الخافت يسقط عنها، وقبل أن تستلقي على الفراش كان «كمال» قد دلف إلى الغرفة وسد الباب وراءه. ظل واقفا أمام المدخل، أحست

«عائشة» بضربات قلبها في فمها. ولكم كانت براءة الفتى تناقض صلابة بنيته. ففي اللحظة التي كان صدره وعضلاته في غاية القوة، كان وجهه الشبابي لا يعكس سوى الشك، عدم الثقة.

تنهدت المرأة، ولم يهمها رباط الزواج المقدس، ولا الفرق في السن بينها وبين الشاب. كانت تحس بنار هوجاء تنهش دواخلها، ولا بد من إطفائها بطريقة واحدة لا غيرها. فتحت المرأة ساقيها قليلا وهي مستلقية على السرير ثم دعت الشاب بيدها ليقترب منها. شرع كمال قائد الحرس الأميري في نزع الزرد الجلدي وهو يقترب شيئا فشيئا من سرير سيده، وأنفاسه تزداد تقطعا.

مارسا الحب في صمت، وهما واعيان بالخطيئة. كان اندفاع «كمال» تقابله عائشة بملاطفاتها وملامساتها، بعد أن وجدت في الشاب عشيقا لطيفا متوددا. بدوره لم يكن الفتى يتوقف عن مداعبتها وهو يضاجعها بحركات منتظمة، وإيقاع موزون. ارتجفت المرأة، ونَدِيَت عيناها، واهتزت ساقاها. وأخيرا ارتعشت اللذة فيها كما لم تعرف ذلك من قبل وهي تمارس الحب مع زوجها «محمد». «إنه يشبهك، وسيجعلك تتمتعين كما لا يمكن لأحد آخر أن يمتعك» تذكرت عائشة كلام «مريم». بعد ذلك بقليل وصل كمال إلى قمة رعشته... ولم يكن ذلك آخر المتعة في ذلك الليل الطويل الذي خفت ضوؤه، وكُبِتَت أحاسيس الذنب أثناءَهُ بطغيان الإثارة واللذة اللامحدودة، فكان

قمينا بأن يجرهما إلى الهاوية التي بالكاد كانا يحدسان قعرها.

***

«غرناطة» **Granada**. صيف **1238**

...نطت الغزالتان على مرأى الأسد،

وهو يأسف لكونه لا يملك سوى فم واحد،

جرى وراء الأولى، في حين ظلت الأخرى تحدق،

تنتظر أن تصل نوبتُها ليفترسها، كما افترس أختها.

أنشد الشاعر المقطع بينما كان عازف العود يوقع لحنا رقيقا حزينا. كانت القاعة غاصة بالرجال الذين كانوا يصغون في انتباه، ويبتسمون في ريبة وحذر. كانت الجواري يسقين الرجال دون توقف، وعيونهن على الفوانيس، يزودنها بين الفينة والأخرى بالزيت ليستمر ضوؤها دون انقطاع. لحظتها كان «محمد» يتثاءب، وقد اعتوره الملل والسأم. كان «أشقيلولة» قد نصحه بأن يحضر مجالس المنادمة تلك، حتى يندمج في الحياة الاجتماعية والثقافية في «غرناطة»، لكنه كان يفعل ذلك في اشمئزاز وقرف، ويوزع ابتسامات يصطنعها دون إحساس أو صدق. لم يكن يخفف عنه سوى احتسائه الخمرة التي كانت تساعده على تحمل هذه الأجواء المليئة بنوبات من العزف المنفرد البغيض إلى نفسه، والحديث عن الشعر وإنشاده. «غرناطة مختلفة، إنها حاضرة مثل بغداد» كان «أشقيلولة» يردد على مسامعه. لكن «غرناطة» فتنت حقا «محمدا»، لكن

لأسباب أخرى، منها قربها من الساحل، وفحصها الغني الذي يحيط بها من كل جانب، والأنهار التي تسقيها وتروي ربوعها، وعشرات الآبار التي تحتفظ بالمياه الغزيرة، وأسوارها المتينة المحصنة، وسلاسل الجبال التي تحميها. تلك هي فضائل غرناطة في نظر «ابن الأحمر»، والأسباب التي دفعته ليجعل منها العاصمة الجديدة لمملكته.

استمرت الحفلة إلى غاية العِشاء، حينما أخذ الأعيان وشخصيات المدينة الرئيسيون ينصرفون.

ـ لا تنس «ألمرية»، هدفك التالي. لا بد، وأن تصبح من أملاكك. ـ قال «أشقيلولة» لـ «محمد» قبل أن ينصرف.

ـ أنت الحصيف الوحيد، يا جدي، العاقل الذي يفكر فيما هو أكثر من كؤوس المُدَام وأبيات الشعر. ـ أجاب الأمير بصوت خفيض ـ سنأخذها حتما، وإن اقتضى الأمر بالقوة. غير أنه ينبغي البدء بـ «مرسية».

كانت أخبار الشرق قد نمت إلى علم «ابن الأحمر». فقد كان موت «ابن هود»، ووراثة ابنه «الواثق بالله» للإمارة، وثورة «ابن الرميمي» بألمرية، كل أولئك أسعد البلاط النصري، وأثلج قلب الأمير. خاصة وأن «ألمرية» غدت هدفا معزولا تتبارى من أجله إمارتان تسعيان معا للامتداد والاتساع. ولكم كان حاكمها، «ابنُ الرَّمِيمِي»، قاتل ابن هود، يريد أن يظل مستقلا بمدينته، لكنه لم يكن واعيا بأن قطع الشطرنج قد بدأت في التحرك ضده.

غزالتان وأسد... يا له من كلام موجٍ. ـ قالت «مريم» حالما رأت «محمدا» يدخل إلى الغرفة. كانت الأَمَةُ النصرانية قد سمعت إنشاد الشاعر وراء ستارة.

ـ ترهات الشعراء. ماذا يهمني في أبيات شعرية تتحدث عن أسد يصيد الغزلان؟ ـ أجاب الأمير.

ضحكت المرأة من الأعماق.

ـ آه يا أسدي. لعلك لا تريد أن ترى جسد غزالتك؟ ـ أدرك أخيرا ابن الأحمر الكناية وشارك «مريم» الضحك. ـ هل صِدْتَ مرة غزالتين في ليلة واحدة؟ ـ نفى «محمد» بهزة من رأسه. هل تريد أن تجرب؟ ـ تطلع إليها الرجل وأحس بالإثارة تغمر جسده. ـ بِلاطُك قد رقت حواشيه، ـ قالت ـ ومُتَعُك ينبغي أن تتطور وترتقي. يمكنني أن أتكلف بالأمر.

لم يتمالك «محمد». شمر في سرعة جلبابه، ونزع اللباس عن مريم، وهما يتبادلان نظرات الشهوة الطاغية، ثم ضاجع المرأة حينا.

ـ تكلفي بالأمر. ـ همس في أذنها، ثم تابع التطامه بها، إلى أن قضيا وطرهما في الآن ذاته.

***

انشغل «ابن خالد» بالإجابة على بعض تساؤلات الكتاب بخصوص طلب ورد من قبل «إسماعيل». وكان شقيق الأمير قد شرع في إصدار قرارات باعتباره واليا على «مالقة». مثلما أن «ابن الأحمر» كان قد بدأ في وضع الأسس الأولى لكتابة

حقيقية قمينة بالإمارة النصرية تهتم بجميع المسائل الإدارية، وبعلاقات الأمير بالمدن والقلاع التابعة له.

تنبه «ابن خالد» لمقدم «مريم»، فصرف الموظفين قبل أن تتوجه إليه:

ـ مولانا له طلب خاص، وأظن أنه بإمكاني الاعتماد على مساعدتك للوفاء بالطلب. ـ قوس الرجل حاجبيه ـ يريد امرأة.

ـ ذلك لا يعد أمرا معقدا في هذه المدينة. ـ أجاب الرجل.

ـ أعتقد أنك واع بأنه ما كل النساء يناسبن الأمير. يريد امرأة لم يمسسها أحد قبله، وأن تتصف بالفضيلة.

فكر ابن خالد للحظات. ثم نظر إلى عيني «مريم»، فرأى فيها امرأة حرة، قوية الإرادة. فشعر بعدم الراحة أمام ثقتها في نفسها.

ـ اذهبي إلى «فندق الصقر»، واسألي هناك صاحبته عن «دنيا». فإذا تمكنت من إقناع الفتاة، ستكونين قد حصلت على أحسن نساء غرناطة فضيلة وخلقا. ـ قال أخيرا.

ـ ابتسمت «مريم» سعيدة. لم يكن «محمد» قد جاء بأهله إلى غرناطة، فكانت النصرانية تتصرف في القصر كما لو أنها زوجته الشرعية.

«ما أغربها من امرأة»، فكر «ابن خالد»، «لابد وأن تكون رائعة كجارية».

***

«ألمرية» Almería. صيف 1238

انتشرت القوات النصرية في الناحية الشرقية من المدينة، قريبا من «ربض المصلى». كان «ابن الأحمر» قد استدعى للخدمة الأرجونيين الفخورين بقربهم من الأمير، ورجال الحدود من «وادي آش»، و«جيان»، إضافة إلى مقاتلي «غرناطة» المتمرسين على الحرب، وبحارة «مالقة» الذين حاصروا مرسى «ألمرية» من البحر ليمنعوا تزود «ابن الرميمي» وقواته بالإمدادات والأقوات.

كان «أشقيلولة» قائد الجيش، رغم بلوغه تقريبا سن الثمانين، محافظا على القوة الكافية ليقود الفصائل العسكرية: كان يصرخ بالأوامر دون توقف، بل يتنقل على فرسه من نقطة إلى أخرى في الميدان في كامل نشاطه، ولا يلوي على شيء.

قريبا من الشاطئ انتصبت خيمة الأمير بلونها القرمزي. من مكان ارتفاعها كان بمقدور «ابن الأحمر» أن يرى الميناء، وأسوار الربض، والصخور التي تدعم القصبة.

- ستكون القائمة الرابعة في إمارتك. - قال له «عمر الحسون» وهو يشرب منقوع أعشاب - «جيان»، و«مالقة»، و«غرناطة»، و«ألمرية».

- أنا أحيا حُلْماً، يا معلمي. كانت حياتي شديدة حادة، اعتورتها الآلام، وقلت فيها الأفراح، لكن كل ذلك أَفادَ وصلُحَ لأصِلَ إلى هُنا. لابد للأندلس من أن تبقى حية بأي ثمن.

قطع صوت آلات الحصار الحوار بين «محمد»

ومعلمه «الحسون»، فخرج الرجلان من الخيمة ليبصروا آلات المنجنيق الضخمة وهي ترمي بالحجارة الكبيرة نحو أسوار «ألمرية». كان المهندسون الغرناطيون الذين أدمجهم «أشقيلولة» في الجيش يقومون بعملهم على أحسن وجه. «إن مدينة تحيط بها الأسوار لا تُؤْخَذُ بالرجال فقط» كان «أشقيلولة» يشرح للأمير حينما كان يعد العدة لحملة «ألمرية».

مرت بضع دقائق، وفجأة فُتح «باب الفحص»، وخرجت منه مفرزة من الفرسان المِرَوِيِّين تعدو بأقصى سرعة في اتجاه المهندسين. باعتباره نقيبا، بادر «كمال بن هادي» على الفور بتنظيم الدفاع بحوالي مئة من الرجال: أمر بدءا مجموعة من المشاة الحاملين للقنا بأن يأخذوا مواقع لهم أمام آلات الحصار، في حين حمل هو والفرسان على القسم الأعظم من قوات «ألمرية». فلم تمض سوى هنيهة حتى شرعت الأجساد تتهاوى، والمِرَوِيّين، وقد تأكدوا من الهزيمة، يعودون على أعقابهم في اتجاه الباب.

همز «كمال» جواده وانطلق كالبرق يتعقب المتراجعين، وراءه جرى فرسانه يريدون اللحاق به، وما كانوا ليستطيعوا. ولم تمض سوى لحظة حتى لحق الفارس بمؤخرة المرويين وباشر القتال مع فارسين استدارا اتجاهه. انقض على أحدهما شاكي السلاح وطعنه بالحربة، حاول هذا أن يرفع تُرسه ليحمي نفسه، غير أن «ابن هادي» لم يمهله حيث تمكن من غرز الحربة في صدر الفارس مخترقة الزرد الجلدي، ليسقط الرجل في الحال

صريعا. على التو، قام «كمال» بسَلِّ سيفه من غمده في الوقت ذاته الذي كان الفارس الثاني يقترب من وراء النقيب ورمحه مسنود تحت ذراعه. لحظتها استدار الفارس النصري نحو غريمه الجديد، وتمكن في الوقت المناسب من تفادي الضربة.

حينها كان الفرسان الغرناطيون يقتربون.

ـ استمروا نحو الأمام! سيطروا على الباب! ـ صرخ فيهم النقيب، بينما كان الفارس المِرَوِيُّ يعيد الهجوم عليه.

كانت الحربة تتجه نحو «كمال»، في حين وقف هو بدم بارد ينتظرها دون أن يحيد عن طريق الفارس الغريم. في اللحظة الأخيرة انحنى النقيب نحو ناحية وهو ما زال على سرجه، ثم وجه سيفه، في لمح البصر، إلى عدوه، وضربه ضربة أسقطت الفارس المروي من على جواده وطرحته أرضا. حينها بادر «كمال» بالترجل، وأسرع نحو الجريح، وأجهز عليه بضربة أخرى من سيفه فصلت رأسه عن جسده. وقتها رفع النقيب بصره، وتطلع إلى رجاله، كانوا قد سيطروا على «باب الفحص»، بينما راح فرسان العدو يفرون عبر شوارع الربض... استدار خلفه ليرقب باقي الرجال، فلمح فصائل من «جيان»، وأخرى من «غرناطة» كانت تجري في اتجاه السور... لقد تمت السيطرة على المصلى.

***

انتقل المعسكر النصري إلى داخل الربض، إلى مصلى العيدين الكبير الذي منه اشتق اسم الربض. كان وقتها العشرات من الرجال متوزعين

قريبا من الجدران، والمداخل الرئيسية. بينما التزم الهدوء أهالي المدينة، وكانوا قد سئموا من الصراعات، واستبدال حاكم بآخر. ووفق عادة «محمد بن الأحمر» في مثل هذه الظروف قصد الجامع، وصلى لربه وشكره على نعمته. ومن هناك طلب حضور «كمال».

ـ كنت شجاعا وداهية في ساحة الوغى. بفضلك تمكنا من امتلاك «ألمرية». ـ وجه «ابن الأحمر» الخطاب لـ «كمال» ما أن رآه، ثم استطرد ـ أنت جدير بأبيك «هادي» رحمه الله. ـ تبدلت نبرة صوته وهو يستحضر الذكرى العطرة لصديقه القديم ـ وتستحق مكافأة، اصبر قليلا، وسنكرمك بها قريبا إن شاء الله.

لم ينبس الفارس المقدام ببنت شفة، واكتفى بأن طأطأ رأسه، وهو ما أوله «محمد» بعلامة تواضع وخضوع.

قبل أن يحل الظلام، فتح «ابن الرميمي» البوابة الرئيسية للقصبة، ثم بعث رسولا مكلفا بالتفاوض من أجل تسليم المدينة، فتم الاتفاق سريعا بين الطرفين: ملك «محمد» «ألمرية»، وسمح لـ «ابن الرميمي» بالخروج منها سالما شريطة أن يذهب إلى المغرب. فلم يلبث أن أعد «ابن الأحمر» سفينة لنقل الحاكم ومن معه إلى الضفة الأخرى من المتوسط؛ [حيث نزلوا بتونس].. وبذلك غادر والي «ألمرية» المتغطرس الأندلس مصحوبا بأفراد عائلته، وحاملا كنزا من المجوهرات والأموال. وحينما مر بالشط الرملي في طريقه إلى الجسر الصغير المؤدي إلى السفينة، تمكن الجميع من

رؤية فتاة من أصول مسيحية، كانت تسير بجنبه وهي ممسكة بذراعه، ويتهدهد وراءها شعر ذهبي في لون الشفق وقت الغروب.

***

غرناطة Granada. صيف 1238

تلألأت القاعة تحت أنوار عشرات الثريات المشتعلة، وهي تنعكس أضواء ذهبية خاطفة على لباس الخادمات الحريري. كان المكان يزدهي على أنغام موسيقية خفيفة جذِلة تناسب المقام. في حين بدا رجال الدولة الحاضرون في غاية السعادة، يضحكون ويتبادلون الأحاديث، منتشين بما يتناولونه من مدام معتق.

ـ اللهم احفظ «أمير غرناطة»، وفاتح «ألمرية»! ـ هتف «ابن خالد»، وهو يقدم مدينته على باقي المدن الأندلسية ويرفع من شأنها.

مثل تنظيم هذا الحفل نهاية مسار طويل من الأحداث كانت في أغلبها سعيدة. إذ بعد «مالقة» و«غرناطة»، انضمت إلى أملاك الأمير «ابن الأحمر» «ألمرية» ومعها سائر أسطولها وتجارتها الغنية، في لحظة كانت اتفاقات الهدنة التي عقدت مع «قشتالة» تحافظ على السلام في الحدود الشمالية للإمارة. أما في الشرق، فبعد موت «ابن هود» بدأت «مرسية» تنهار شيئا فشيئا، وتفلت تدريجيا من يد أميرها الغبي. وأما في الغرب فقد فضلت «إشبيلية» أن تعود إلى حماية الموحدين في سعي منها للحفاظ على استقلالها... في هذا الخضم المطبوع بالتقلبات والتحولات فضل

«محمد» ابن الأحمر أن يتخلى عن ولائه للحفصيين وأن يعلن خضوعه للخلافة العباسية بـ «بغداد».

جلس «أشقيلولة» تحت نافذة، وراح يحدث ابنيه «إبراهيم» و«عبد الله»، وكانا قد انتقلا مع أولادهما إلى «غرناطة»، العاصمة الجديدة، بعد أن أصبح الجميع يعتبرهما أعضاء في الأسرة النصرية. وكان الأمير قد وعدهما بترقيتهما إلى درجة «رئيس»، [أي أن يصبح الشقيقان ضمن أقرباء ملوك بني الأحمر حسب العرف الغرناطي الأندلسي] بما يعنيه ذلك من سلطة وجاه وحوزة للأراضي المهمة. ومن ثم كان الأخوان ينتظران على أحر من الجمر أن تحين لحظة التنصيب.

أما «ابن صناديد»، الجياني، فلم يتوقف عن الشرب على نَخْبِ صِحَّةِ هذا أو ذاك من الحاضرين، وهو مبتهج بنمط حياته الجديد. وأما «ابن خالد» فكان ينتقل، وعيناه تبرقان من أثر الخمرة، من موضع إلى آخر داخل القاعة الفسيحة، يسلم على الحاضرين، وهو يعلي من مزايا مدينته «غرناطة»، بل حتى «الولي الصالح» «عمر الحسون» كان يرشُف المدام من كأسه بين الفينة والأخرى، وإن كان في اعتدال، وقد غمره الفرح بما تحقق لصديقه من مجد وملك. وكان «الحسون» يحرص على صون علاقاته بمتصوفة الإمارة حتى يحافظ على مساندتهم للقضية. وكانت قد برزت في بعض نواحي «فحص غرناطة» بُؤَرُ مقاومة ضد سيطرة «ابن الأحمر» على الحاضرة، لكنه سرعان ما تم التغلب عليها، وإخمادُ أوارِها بمهارة السياسي الحكيم الذي يتقن تركيبة الجمع

بين القوة والموعظة الحسنة.

كان «محمد» يستمع لثناء المدعويين بطلعة بهية مبتسمة، وخدين مُوَرَّدَيْن بتأثير الشراب. إن السلطة تحتاج إلى حسن السياسة والقدرة على تمثيل الأدوار. ولم يكن قد استوعب هذا الدرس الذي تلقاه من جده إلا بعد أن ملك غرناطة: «إذا لم تُفرح حاشيتَك، ورجالَ حُكمك، فإنهم سيتآمرون ضدك، فلقاء الأعداء لا يكون دوما في ساحة المعركة».

في الهزيع الأخير من الليل، شرع المدعوون في الانصراف، بعد أن تخموا من كثرة الأكل والشرب. بدوره، كان الأمير محمد النصري [الغالب بالله] يتوق إلى الذهاب إلى غرفته، والاستكانة إلى سريره. خاصة وأنه علم أن «مريم» كانت قد هيأت له مفاجأة، ومن ثم أخذت مخيلته تحلق جامحة في خليط عجيب من التمثلات والاستهامات يجمع بين القلق والإثارة.

***

- اهدئي، إنه جميل، ولن يكلفك الأمر كثيرا. - قالت «مريم» لـ «دنيا»، وهي تَلُم شعر الفتاة، وتضع الرتوش الأخيرة على زينتها.

كانت المرأتان، صاحبة الماخور و«مريم»، قد ألحتا على الفتاة إلى أن أقنعتاها. ولا غرو، فإن المال السخي الذي سُمح لـ«مريم» بأن تعد به المرأتين كان له، أيضا، تأثيره الكبير.

- صغيرتي - قالت لها القوادة - إن ما نقترحه عليك ليس من قبيل ما تقوم به الفتيات اللائي

يعملن معي. أنت حرة في الاختيار، أما فتياتي فهن مومسات وبائعات هوى. في حين أن المرأة التي تستسلم لأمير مقابل هدية هي جارية خليقة بالاحترام. ومع قليل من الحظ يمكنك أن تظلي بالقصر على الدوام.

قَلَّبت «دنيا» الأمر لأيام. كانت وحيدة، وآفاق تزوجها بأحد هؤلاء الأغنياء الثُّخَناء الذين يزورون الفندق لم تكن ترقها بالكامل. كان «ابن الأحمر» يكبرها مَرتين، غير أن المتحدثين في حلقات الثرثارين والنمامين كانوا ينوهون بشجاعة «النصري»، وبطلعته البهية الجميلة.

ـ تذكري أنني سأكون معك، ولن أتركه يقوم تجاهك بما يؤذيك. ـ حرصت «مريم» على تأكيد ذلك حتى تقنع الفتاة ـ إنه عاشق لطيف.

وأخيرا اقتنعت «دنيا»، واستسلمت لمصيرها، فزودتها مشغلتها بنصائح حكيمة، وحُكٍّ من الدِّهان يسهل عملية الإيلاج.

أكملت «مريم» تزيين الفتاة، ثم تطلعت إليها. كانت «دنيا» زمردة تتلألأ في ضوء الفوانيس.

وصل «محمد» مع الفجر، وعلى التو، تنبهت المرأتان الناعستان واستعدتا لاستقبال الأمير. على الإثر عانقته «مريم» متجاهلة «دنيا» ثم شرعت في نزع ثيابه في تؤدة.

ـ مولانا، نحن هنا لنخدمك ـ همست «مريم».

ترك «محمد» «مريم» تقوم بعملها، لكنه قبل أن يظل عُريانا، أحس برغبة شبقية. كانت «دنيا» ترقب عن كثب ما يجري في صمت، وهي في

حيرة لا تدري ما تفعل. غير أن رؤيتها لجسم «محمد» المصقول استثار غريزتها. مدت «مريم» الرجل على السرير، ثم تحولت صوب «دنيا»، لاطفت وجنتيها، ثم نزعت عنها الثياب برقة ولطف. كانت الفتاة ترتجف، غير أنها تركت المرأة تسير بها إلى السرير، حيث وضعتها بساقيها منفرجتين فوق الرجل الذي كان يتنفس عميقا بتأثير الرغبة والكحول. حينها تعرت «مريم»، وتموضعت وراء «دنيا»، وهي تمسك بها من وَرِكَيها. كان عضو الأمير يختلجُ حينما دفعت «مريم» الفتاة بوداعة نحوه. شعر «محمد» باللذة حينما تنبه للدّهان الذي يسهل الإيلاج، ثم دفع في بطء لكن بحزم، أحست «دنيا» حينها بشيء يتمزق داخلها، فتمتمت متأوهة وهي تسقط في الآن ذاته فوق الرجل، حينها التقت عيناهما، فهتف «محمد» لتوه.

- «فرح»!

- اسمها «دنيا» - صححت «مريم» على الفور.

لم يأبه «ابن الأحمر» لجواب «مريم» واستمر تائها في عيني «دنيا» وهو يستحضر ماضيا من الأنوار والظلال، مطبوعا بالحب الخالص الذي لم يشعر بمثله منذ زواله.

- من أنت؟ متى ولدت؟ - سأل وهو في حالة من القلق.

- عمري تسعة عشر عاما - أجابت «دنيا» وقد تملكها الخوف.

قام «محمد» بحساب ذهني، ثم رفع يده إلى

فمه. ولدت في السنة التي ماتت فيها حبيبة عمره. أمسك بوجه «دنيا» بين يديه، ودون أن يزيح ببصره عن عينيها قَبَّل الفتاة.

ـ هي أنتِ، إذن.

ثم ضمها إلى صدره، وأتم مضاجعته لها بتؤدة وبحركات بطيئة من وركيه، في حين كانت «مريم» تمسك بـ «دنيا» من مؤخرتها وتصاحبها في تمايلها وتطوحها. وبعد لحظات الألم والخوف، بدأت «دنيا» تشعر بالمتعة، حتى إذا استسلمت أخيرا للأمير، تركت أحاسيسها تنفجر في حرية إلى أن انتهى بها الأمر إلى رعشة جهيرة تركتها مسترخية منهكة القوى على صدر «محمد».

ـ أخيرا عدتِ إلي يا حلوتي، يا «فرحي» ـ همس في أذن الفتاة.

***

غادر «محمد» القصر قبل الصبح ممتطيا جواده، ويصحبه أحد معلمي البناء. كان الرجل يركب بغلة، ويحمل معه صرة ملأها بأدوات القياس التي يستعملها في عمله. سار الرجلان مُتتبعَيْن مجرى «وادي حَدَّارُه» حتى وصلا إلى الجسر الأخير فوق النهر. خلال المسير، كان الحراس يفسحون لـ «ابن الأحمر» في الطريق، ويحيونه التحية اللائقة بأمير. بعد فترة ارتقيا «السبيكة»، الرابية التي تقابل حي «القصبة» وربض «البيازين». في الوقت ذاته كانت الشمس قد أخذت تطل في خجل من خلف سلسلة «شُلّير»، وتلقي بأشعتها على هامات الجبال المكللة بالثلوج. كان وقتها

المؤذنون ينادون للصلاة، وهو ما استجاب له «محمد»، وشرع في الصلاة فوق راحلته(40). ولم يمر وقت طويل بعد ذلك حتى وصل الرجلان إلى أطلال القلعة القديمة «الحمراء». من هناك راح الأمير و«العريف» يتأملان المدينة، و«حي اليهود» القديم يعلوه «البرجان القرمزيان». طاف الرجلان بالحي ومنطقة البرجين مرتين، وتبين لهما أن أحد الاثنين هو الذي حافظ على طوله الأصلي.

ـ بالتحديد، هنا، ستقام «الحمراء الجديدة». القلعة الحمراء لبني نصر ـ نطق الأمير بهذا الكلام المُلْغِز، ووافق عليه العريف ـ أريد نطاقا مغلقا يتألف من حصن يأوي الحامية، ومساكن لأهم رجال الدولة. وأريد، أيضا، أبراجا ضخمة في الأطراف، وفي أحد هذه الأبراج، بمكان خفي داخلها، ستكون إقامتي.

ـ سيدي، هل سنستغل بعض هذه البقايا؟ ـ كان المهندس المعماري يدون كل الملاحظات، ويأخذ علما بكل التفاصيل، وقد أغراه المشروع، واستحثه على العمل.

ـ ما تراه صالحا للاستغلال استعمله في البناء، وإلا فالباقي استخدمْه في وضع الأساسات.

على الإثر بدا للمهندس أن يستغل البرج السليم في تطعيم البرج الجديد الأضخم المزمع بناؤه. أما الباقي فسيتم هدمه بالكامل.

ـ مولانا، وماذا عن الأحجام؟

سار الأمير بالمهندس من طرف إلى نهاية طرف آخر من النطاق الذي عزم على إنشائه.

.... إلى هنا. بحيث يكون سور التحصينات الخارجي مدمجا في البوابة الرئيسية. أي أن تصبح القصبتان القديمة والجديدة موصولتين مرتبطتين.
- رفع ابن الأحمر بصره صوب الطريق المحصنة التي تربط القصبة بالنهر، هناك تأمل مُفَكِّراً البرج الضخم الذي ينطلق من الجدار الكبير الذي يصعد إلى حصن الحمراء القديم. ووجد أن هذا السور الذي كان «الزيريون» فيما مضى قد وصلوه بالرابيتين يمكن استغلال خط سيره وقوته في إنشاء المدينة الصغيرة التي يعتزم بناءها.

[وهؤلاء الزيريون الذين بَنَوْا غرناطة كانوا قد دخلوا الأندلس في زمن عبد الملك المظفر العامري، يرأسهم زعيمهم زاوي بن زيري، وانتظموا في جيش الأندلس، وحينما عزل «محمدٌ المهدي» الخليفةَ الشرعيَّ هشامَ المؤيدَ سنة 399 هـ/1008م، وقامت «الفتنةُ»، أساء المَهْديُّ للبربر، نكايةً في العامريين، فأثار سلوكُه بني زيري، فالتفوا مع باقي القبائل البربرية حول سُليمان المستعين، وساعدوه في مشاريعه، فلما تقلد الخلافة أقطعَهُم كُوَراً في جنوب الأندلس، فكانت منطقة «إلبيرة» من نصيب الزيريين، غير أنهم سرعان ما أدركوا صعوبة الدفاع عنها فهجروها، وتحولوا إلى الروابي القريبة منها، وأنشأوا غرناطة، وأنشأوا بها قصورَهم، وأحاطوها بسور ضخم].

- سنعمل على تحقيق ذلك. - ثم قام العريف بتسجيل عدد من القياسات - سنحتاج إلى كثير من الماء، ولكن ذلك لن يكون عائقا. سنجلب الماء من

أعلى النهر، بواسطة السواقي والقناطر المائية ـ صمت المهندس قليلا ثم أردف ـ إن هذه الأوراش يمكن إنجازها.

ـ رائع، كنت أعرف أنك الرجل المناسب لهذا العمل.

بدأت الحركة تدب في المدينة، غادر أصحاب الدكاكين الأوائل بيوتهم نحو حوانيتهم، في حين شرع المياومون يعبرون الأسوار في طريقهم إلى مرج المدينة، وحقولها القريبة.

نظر «ابن الأحمر» إلى قصره من بعيد، وشعر في الحال كما لو أن وجعا يعصر معدته. هناك، في الغرفة، كان قد ترك «دنيا»، الفتاة التي تَشِعُّ نظرتها بروح حبيبته «فرح».

ـ ابدأ منذ الآن في تحضير مستلزمات المشروع. لا أريد أوراشا أبدية. سأوفر لك كلَّ ما تحتاجه. ـ وضع العريف يده على صدره وهو يوافق على كلام الأمير. ـ هيا بنا، إنها ساعة العودة.

***

**«برغش» Burgos. خريف 1238**

ـ تفضل.

ولج «دييغو لوبث دي هارو»، ابن المتوفى «لوبي دياث دي هارو»، وحامل لواء ملك قشتالة الجديد، القاعة. كان «فرناندو الثالث» مقتعدا الفراش وهو يرتدي ثياب النوم. وكان الأطباء قد نصحوه بعد أن عاوده المرض الذي أصابه عند حصاره «قرطبة»، بأن يلتزم بالراحة، وإن كانوا

مستبشرين بقرب شفائه من مرضه. بجانبه جلس ابنه البكر، وهو يشع فضائل بالرغم من صغر سنه، في حين وقفت قبالتهما «برنكيلا» التي عادت لتوها من تفقد الأشغال بالكاتدرائية. كان الجميع في حالة تفاؤل وتيمن، بعد أن وضعت «خوانا دي بونطيو» ابنها البكر، وأُطْلِقَ عليه اسمُ والده.

ـ سيدي، زوجتك يعتني بها الجميع عناية فائقة، والوليد الجديد يبكي بقوة. والقابلات يقلن إن ذلك جيد لرئتيه. ـ أخبر حامل راية الملك.

ـ أخبار سارة يا «دييغو» ـ قال الملك بصوت متعب.

ـ ليس ذلك كل ما وصلنا من أنباء. لتعلم، سيدي، أن «بلنسية» قد سقطت، وأن [أبا جميل] «زيان بن مردنيش» أمضى، أخيرا، على وثيقة الاستسلام.

وكان «خايمي الأول» قد حاصر في الربيع الماضي «بلنسية» بالجند، وآلات الحصار. وهو ما مكن النبلاء من السيطرة على القلاع المحيطة بالحاضرة الواحدة تلو الأخرى، ووضع المدينة في موقف دقيق معقد، خاصة حينما أسبغ البابا «غريغوريو التاسع» على الحملة صفة الحرب الصليبية، وهو ما دفع بالمقاتلين من كل أرجاء أوروبا إلى أن يتوجهوا زرافات ووحدانا إلى المدينة الإسلامية للتبرك بالقتال ضد المسلمين.

ـ سنواجه، ولا شك، صعوبات في «مرسية» مع الملك «خايمي». هناك تصطدم مصالح «قشتالة» و«أراغون»ـ علق «ألفونسو».

ـ علينا بالتفاوض مع «خايمي». ـ قالت

«برينجيلا»، وهي تتطلع إلى الأمير في رضى وسرور.

ـ اللعنة على الهدنات. ـ قال الملك على التو، وهو في حالة غضب شديد. ـ واللعنة على المرض الذي أقعدني الفراش.

ـ لا تُحَمِّل نفسك أكثر من اللازم، يا ولدي، ـ خاطبت «برنگيلا» ولدها «فرناندو» ـ فقد قمت بأعمال جليلة في الأندلس. فاسترح واستعد عافيتك، قريبا سيطلب منك الرب أن تحقق تلك الرؤى التي تعاودك في المنام.

بدا «فرناندو الثالث» كما لو أنه ارتاح لكلمات أمه، وعلت محياه مسحة من الانتعاش. استلقى من جديد على فراشه، وطلب من الجميع أن يغادروا إقامته باستثناء ابنه «ألفونسو». كان العاهل قد عزم على تلقين ابنه بعض القواعد والنصائح ليشرع في الانخراط في الحياة السياسية للتاج القشتالي.

ـ قريبا يا «ألفونسو» ستكون قادرا على أن تنوب عني في الحدود... ـ بدأ «فرناندو» بالقول.

***

طريق «قلعة رباح الجديدة» Camino de Calatrava la Nueva. خريف 1238

«لَقِيَ حبيبُنا «رُويْ» ربَّه وهو على فراشه، دون ألم أو وجع. فقد توقف قلبه عن الخفقان، وغادر إلى مملكة السماء خاليا من الذنوب، ودون معاصي معلقة..».

كان «مرتين فرناندث دي برغش» قد غادر بلنسية على عجل، وهو يبكي أخاه في مرارة، ويخفف عن نفسه بالصلاة. سار أياما عدة وحيدا في الفيافي والجبال، ينام على بطانية، ويأكل من صدقات الضيعات والقرى التي يمر منها. فعبر منطقة كبيرة من الحدود دون أن يبالي بالخطر الذي يعرض له نفسه. غير أنه كان يلبس دوما درعه تحت البرنوس الأبيض، ويحمل أسلحته في حالة استعداد للطوارئ.

وذات مرة، وبينما كان يعبر إحدى الطرق، وكانت هي الأخيرة قبل الوصول إلى منطقة الجبال، سد عليه السبيل أحد الرجال. كان يلبس ثيابا رثة مهترئة، ويمسك بيده هراوة، وبالأخرى خنجرا صدئا.

- حِدْ عن طريقي، خيرٌ لك. - تنهد «مرتين» مُكَشِّرا. - لست رائِق المِزاج لمثل هذه الألاعيب.

على التو، خرج من الأحراج ثلاثة رجال، أحدهم كان يعتمر عمامة.

- ترَجَّلْ - قال له أحد قطاع الطرق، وهو يصوبُ نحوَه رمحه.

«الغبي، لا يُحسن حتى الإمساك به كما يجب»، فكر «مرتين». ترجل الفارس الرماحي ببطء، ثم رمى بكَتِفِيَّة الرَّهْبَنَة إلى قفاه، فبَرَزَ الدِّرعُ وصليبُ «قلعة رباح» أمام أنظار «المورِوس». تبادل المسلمون النظرات في قلق، وإن وثقوا في تفوقهم العددي. خمن هؤلاء أن الفرس وأسلحة الرياحي ستكون غنيمة نفيسة. وما أن

قام أحدهم بحركة هجوم خرقاء حتى بادر «مرتين» بانتضاء سيفه من غمده في لمح البصر، ثم ضرب «المورو» المغامر ضربة شقت بطنه في الحال، سقط على إثرها الرجل أرضا وهو «يَعْوي» من الألم، مباشرة انقض الثلاثة الآخرون على الرباحي، غير أن ضرباته الدقيقة والسريعة لم تمهلهم، وسقطوا أرضا لتوهم. اثنان كانا ما زالا على قيد الحياة حينما عاد الفارس لامتطاء جواده، وغادر المكان، تتبعه تأوهات المحتضرَين لمسافة ليست قليلة.

ـ هكذا سأضع حدا لحياتك، يا «ابن الأحمر»، وبذلك سأنتقم لكثير من الناس ممن كنت سببا في موتهم. ـ قال الرباحي، بينما كان ينظف صفحة سيفه بأحد أطراف كَتِفِية الرهبان التي يلبسها.

***

«جيان» Jaén. خريف 1238

ـ لا تغادر.

ـ علي أن أعود إلى الحراسة، وإلا سينتهي الأمر باكتشاف ما بيننا ـ كان «كمال» وقتها قد انتهى من لبس جزمته، وغادر الغرفة في كتمان.

بقيت عائشة حزينة لفراقها « كمال»، غير أنها كانت مُنْتَعشةً وفي غاية السرور، وهي تستعيد قبلات حبيبها، واحتكاك جسمه بها، وسرعان ما استسلمت لنوم عميق هنيء.

عاد «كمال» إلى القيام بمهمته أمام باب سيدته، محافظا على الوظيفة المنوطة به، والتي

تحتم عليه أن يظل قريبا من الباب على الدوام. غير أن العشيقين كانا يعيشان قصة حب ممنوع جارف، ويعبان منه في مأمن عتمة الفجر، دون تحفظ، أو تفكير في عواقب هذا الفعل الخطير.

في اليوم الموالي كانت استعدادات مغادرة جيان قد اكتملت، والعربات قد صُفَّتْ لتحمل أسرة «محمد» ابن الأحمر إلى «غرناطة». كانت زمرة من الفرسان، يقودهم «كمال بن هادي»، قد عينت لحراسة الموكب خلال الطريق إلى العاصمة الجديدة. لحظتها كان هؤلاء الجند ينتظرون «عائشة» وأبنائها خارج «جيان»، ليتولوا مهمة الحفاظ على أمن أسرة الأمير.. وبالطبع لم يكن لأحد أن يتفطن للنظرات المختلسة بين العشيقين، ولا إلى الابتسامات المتبادلة بينهما دون أن يحسنا إخفاءها.

سار الموكب ثلاثة أيام قبل أن تبرز له في الأفق العاصمة الجديدة لإمارة بني الأحمر. كان في استقبال الموكب بطريق «إلبيرة» مفرزة من الحراس الغرناطيين، تكلفت فيما بعد بمصاحبة الوافدين إلى غاية قصر الإمارة حيث كان «محمد بن الأحمر» ينتظر في بوابة القصر أسرته.

قام «ابن الأحمر» نفسه بتعريف أعضاء أسرته بجميع نواحي القصر وإقاماته، وحين وصول الوافدين إلى الناحية الخاصة من القصر التقت «عائشة» بـ «مريم» و«دنيا». تطلعت «عائشة» إلى «دنيا»، وتأملت ملامحها الرقيقة، وجلبابها الحريري. فافتر فمها عن ابتسامة، ثم تحولت بنظرها إلى زوجها قائلة:

ـ وهل تملك أيضا القوة الكافية لهذه؟ ـ ابتسمت «عائشة» ـ لعلك تذنب في حق نفسك وتجهدها. ـ قالت مازحة.

كان «محمد» ينتظر نوبة غيرة من «عائشة»، غير أنها ولجت محل إقامتها وهي في منتهى السرور.

ـ هذه المدينة هي جوهرة إمارتك، والعاصمة التي كنت في حاجة إليها ـ أردفت «عائشة» وهي تسير بجنب زوجها ـ أما «جيان» فلم تكن أكثر من قلعة باهتة عديمة الطلاوة. هنا سيتربى أبناؤنا كما يجب.

كانت «عائشة» تريد أن يتربى أبناؤها مثقفين ومهذبين على الذوق الرفيع. في حين كان «محمد» يرى أن الحفاظ على السلطة يستلزم السيف وليس القلم. ومع ذلك، لاذ بالصمت، ولم يقل شيئا. وترك زوجته تنصرف، وهو مشوش البال مضطرب الفكر، يشغله هذا التغيير المفاجئ الذي طرأ على زوجته منذ أن تركها وحيدة بـ «جيان».

ـ أين تقشفه؟ وأين تواضعه؟ ـ أطلقت «شمس» سؤالها في الهواء ـ إن والدي يعزم على بناء قصبة ضخمة جديرة بمقامه الجديد. وبذلك يكشف عن صورته الحقيقية التي يخفيها وراء مظهر التصوف الزائف الذي يقدمه للآخرين. ـ كانت المرأة تتحدث وهي تشير إلى ربوة «السبيكة» التي كانت تُرى من إقامتها بالقصبة.

كان عبد الله يقهقه عاليا... والواقع، إن زواجه

الثاني لم يستقبل جيدا من قبل باقي أفراد الأسرة، إذ لم تكن العلاقة على ما يرام بين «شمس» والزوجة الأخرى، وهو ما كان يلزم الرجل بأن يتدخل بين المرأتين بين الحينة والأخرى، ويسعى لترضيتهما معا. غير أن الكراهية التي كان يكنها كل من «عبد اللّه» وزوجته لـ «ابن الأحمر» تحولت إلى نقطة التقاء بينه وبين زوجته الثانية.

ـ إنه متعجرف، ومزهُوٌّ بنفسه مغتٌّر بها. ولن يكون حاكما صالحا للأندلس. ـ قال الرجل في لهجة الواثق ـ ثم إنه تنكر لوعوده. كان قد وعد باقتسام السلطة مع آل «أشقيلولة»، غير أنه اقتصر على تعيين أبي رئيس وادي آش، وقمارش، ورندة. وذلك ليس كافيا في حق والدي! حقا يستحق درسا ليصبح عبرة.

ـ زوجي ـ قالت «شمس» بصوت حازم ـ أنت من أسرة «أشقيلولة»، ووالدي من «آل نصر». غير أن وفائي وإخلاصي لك. فقم بما تراه مناسبا، وسأدعمك، وأكون بجانبك.

ـ سيدتي، لقد نام ـ قاطعت الخادمة الزوجين، وهي تدخل الغرفة تحمل بين ذراعيها رضيعا.

نهضت «شمس» من مجلسها سريعا، وبادرت إلى أخذ ابنها الثاني من الخادمة.

ـ افْعَلْ ذلك من أجلِك ومن أجلِهم ـ قالت وهي تحمل الرضيع ببطء، ثم قبلته في جبهته، إنهم سيرثونك أنت وليس جدهم.

***

«غرناطة» Granada. ربيع 1239

كان «ابن الأحمر» يتأمل مفتتنا تقدم الأشغال في قصبته الجديدة، وهو يسعى إلى الإفلات من الكاتب الأول في سكرتاريته الأميرية.

ـ سيدي، بعثني إليك الرئيس «أشقيلولة». ـ قال الرسول مبررا حضوره المباغت، وهو يقدم للأمير مظروفا ـ ألح عَلى أن أخبرك بأن المرسيين قد بايعوا «ابن مردنيش»، واتخذوه أميرا عليهم. ـ سكت الرجل لحظة، ثم استطرد ـ أيضا أحمل أخبارا عن «لوشة» ـ كان الرجل يتحدث متقطع الأنفاس بسبب تتبعه لـ«محمد» وهو يتفقد الأشغال في سرعة ـ لقد قتل المتمردون حاكمك على البلدة.

عند هذه النقطة توقف الأمير فجأة وثبت نظره في عيني الكاتب.

ـ قل للشيخ «أشقيلولة» أني سألتحق به في ظرف ساعة لننظر في الأمر.

كانت بعض القرى والبلدات القريبة من «غرناطة» قد امتنعت عن الخضوع للنصري، ولم يمهل «ابن الأحمر» المتمردين، وبعث لتوه، بتأثير من جده «أشقيلولة»، بالجند إلى أهلها، وقضى على قضيتهم في المهد. ثم انتهز الفرصة لتعيين حكام جدد، وإنشاء مركز لتدقيق الحسابات. حتى إذا وقف على بعض مؤشرات الفساد، لم يكن «ابن الأحمر» بالرجل اللين المتسامح في مثل هذه الأمور، وإنما يكون عقابه شديدا في حق المتلاعبين بأموال بيت المال. ولقد قدر لهذه السياسة غير المتسامحة في هذا الشأن،

والقائمة على إبعاد العناصر المشكوك في وفائها من أن تجعل من مالية الإمارة مؤسسة تتمتع بالقوة، وفيرة المداخيل، عظيمة المردودية.

انصرف الكاتب، واقترب «محمد» من «عائشة» التي ظلت ساكنة هادئة فوق جوادها، أمسك بيدها، وأنزلها من الدابة، ثم سار بها إلى أساسات أحد الأبراج كانت الأشغال بها تتقدم حسب المطلوب.

ـ هنا ستكون دارنا، في المنطقة العليا من البرج. ستكون دارا ذات شكل تقليدي، يتوسطها فناء، وحوله ستتوزع الغرف.

وجدت «عائشة» صعوبة في تصور شكل الإقامة، فقد كانت الجدران قد ارتفعت بعض الأشبار فقط، وأما الأسوار فكانت ما تزال خطوطا من الحبال المشدودة. وكذلك الحال بالنسبة لباقي الأبراج الأخرى، فقد ارتفعت أساساتها قليلا، في حين كان السور الطالع في التل من البرجين القرمزيين نحو «الحمراء الجديدة» قد تقدمت به الأشغال ليتصل بنطاق المنشأة العمرانية الجديدة.

ـ لم تهتم أبدا قبل اليوم بالثراء والمظاهر. ـ قالت له «عائشة» ـ لماذا زَجَجْتَ بنفسك في هذا المشروع، وُتصِرُّ على إنجازه؟

ـ إن القصر القديم لا يطل، ومن ثمة يسيطر، سوى على القصبة. إنه مبنى يشبه باقي المباني الأخرى، بل هو بناية تائهة بين باقي المنشآت الأخرى في الحي. وحينما وَصَلْتُ إلى هنا قال لي «ابن خالد» بأن غرناطة هي في الحقيقة عدد

من المدن في مدينة واحدة. ـ أكمل العبارة وهو يشير إلى حواليه بذراعيه مفتوحتين ـ إن أرضا مثل هذه هي في حاجة إلى مدينة صغيرة أخرى تهيمن على باقي المدن التي تؤلف «غرناطة»، ينبغي أن تكون بارزة للعيان، يمكن رؤيتها من أي نقطة بالمدينة، حاضرة على الدوام، وتفرض احترامها باستمرار.

نظرت «عائشة» حواليها في صمت. وقتها وقف «محمد» قبالتها قائلا:

ـ آسف للمسافة التي تفرقنا ـ اعترف الرجل صراحة ـ أنتِ أمٌّ صالحة، وزوجة جيدة لأمير. أذكر سنوات «أرجونة»، وأيضا سنوات «جيان»... ولكم سرنا على الدرب معا، إلى أن وصلنا إلى هنا.

ـ مولانا ـ أجابت المرأة بلهجة قاطعة ـ أعرف أنك تُعزني، غير أنك لا تحترمني. في المرة الأولى كانت «مريم»، والآن «دنيا»، تلك التي تَقَمَّصْتُها، في إصرار منك، شخص حبيبتك «فرح». في البدء كنت أحس بالغيرة من ذكرى «فرح»، غير أن ذلك الزمن قد وَلَّى، فلا تقلق. فقد تعلمت أن أعيش دون حضورك. وسأستمر في الالتزام بالدور المنوطِ بي، وما ينتظر مني باعتباري أما، وزوجة، وأميرة. أما أنت فاستمر في أشغالك.

سارت «عائشة» في اتجاه جوادها، ثم امتطت صهوته في أناقة. كان «ابن الأحمر» يتتبعها بنظره وهو غير مصدق، وفي شك. ولعله رأى في هذا الموقف من زوجته تأثيرا من الروح التواقة إلى الحرية التي تتمتع بها «مريم».

«إنها امرأة لا تشبه باقي النساء، وإنه، حقا، لمن المؤسف أن الله تعالى لم يكتب لي أن أحبها».

***

طريق قرطبة Camino de Córdoba. شتاء 1240

كان أول ما قام به «فرناندو الثالث» بعد أن استعاد عافيته، هو التوجه إلى «قرطبة». قصد الحاضرة الأندلسية القديمة مستعجلا، على إثر وفاة رجله الأول في الحدود الجنوبية. كان عليه أن ينهض بأعباء سلطة الفقيد في عين المكان، حتى يحافظ على النظام في ممتلكات قشتالة الجنوبية.

توقف العاهل القشتالي في «فحص البلوط» Valle de los Pedroches، هناك، وجد في انتظاره عشرات من الأندلسيين يمثلون القرى والقلعات المجاورة. كانت مهمة هؤلاء إعلانَ خضوع قراهم للملك القشتالي، وأيضا، التماسَ الحماية منه إزاء تجاوزات القرطبيين وقواتهم. وكان عدد آخر من المبعوثين ينتظرونه أيضا في المدينة ذاتها، يريدون عقد جلسة مع الملك فرناندو في بساتين القصر. كان هؤلاء يمثلون بلدات «روتي»، و«بَيَّانة» Baena، و«إِسْتِجَة» Écija، و«اللَّسَانَة» Lucena، والمُدَوَّر Almodóvar.

ـ أتيناك مبايعين سيدي، وخاضعين لحكمكم، نفعل ذلك بمحض إرادتنا، بشرط واحد: وهو الحفاظ على أملاكنا، وتقاليدنا. ـ قال ممثل «اللِّسانة» للملك.

وافق «فرناندو الثالث» على شرط المسلمين. وعين على الفور حاميات نصرانية للسيطرة على القلاع والقصبات الأندلسية المعنية، مقابل احترام سكانها وسكان القرى التابعة لها. وبذلك زاد عدد دافعي الضرائب للتاج القشتالي بنسبة مهمة.

ـ وَلَدَيَّ ـ توجه فرناندو بالكلام إلى الأميرين «ألفونسو» «وفرناندو»، وكانا يرافقانه في سفره ـ إن الحضور الملكي وحده يكفي لتحريك العزائم، وإيقاظ الهمم. لا ينبغي لملك أن يبقى حبيس قلعته، يجب عليه أن يسافر باستمرار عبر أملاكه. ـ قدم درسَه لوَلَدَيْه.

في اليوم الثالث من مُقام العاهل القشتالي بـ «قرطبة»، صعد الملك والأمير «ألفونسو» إلى صومعة مسجد قرطبة القديم الذي كان قد كُرِّسَ منذ فترة كاتدرائية. كانت المدينة هادئة، بالكاد ترى فيها حركة، في حين دقت أجراس إحدى الكنائس البعيدة قُدّاس وفاة، وسرعان ما غطى رنين الأجراس البطيء المدينة.

ـ وصل معنا إلى المدينة بعض النبلاء ليمتلكوا أراضي ودورا كانت قبل خضوع المدينة من أملاك «الموروس»، غير أن قرطبة ما زالت إلى حد الساعة فارغة من السكان. ليس الفتحُ هو كل شيء. ينبغي أن تعلم، يا بني، أنه يُفَضل أحيانا الاستيلاء على قلعة وترك أهلها في البلدة آمنين حتى يؤدوا للدولة الضرائب والمكوس. ـ حينها ألقى العاهل نظرة شاملة على السطوح والسقوف الحمراء للمدينة ثم علق: ـ سنتأخر سنوات قبل أن نملأ هذا البلد بالمسيحيين.

أتم «فرناندو» عبارته ثم ظل متأملا مفكرا للحظات.

ـ أجل يا أبي، لكن في النهاية سيعمر النصارى، دون غيرهم «قرطبة». ولعمري إن ذلك يستحق هذا الجهد.

ـ ذات يوم ستكون أنت من يصدر القرارات ـ أجاب الملك منشرحا مبتسما ـ ومهما تكن هذه القرارات فينبغي لها أن تكون من أجل عظمة الرب، وأن تساهم في رفعة شأن ممالكك. ـ نطق الملك العبارة، ثم وضع يده على إحدى كتفي ابنه البكر، قبل أن يردف ـ لقد أصبحت رجلا يا بني. سأخصص لك منذ هذه السنة دارا خاصة بك، وسأخصص لك راتبا شهريا لتقوم بشؤون نفسك.

اتقدت نظرة الأمير «ألفونسو».

ـ شكرا يا أبي. ويسعدني أني أملك نموذجا جيدا للاحتذاء به. أتمنى أن أكون في المستوى.

أنهى الأب وابنه حوارهما، ونزلا إلى الكاتدرائية لسماع القداس الأول في اليوم. كانت هناك شؤون كثيرة في انتظارهما بالقصر ينبغي الاهتمام بها، ومعالجتها، ومن ثم وجب عليهما عدم إرجائها.

***

غرناطة Granada. ربيع 1240

ـ ولدت في العام الأول من نصر حصن الأرَك العظيم، حينما أزرى الموحدون بأعداء الإسلام. وبالتالي يمنحك سيدنا أمير المؤمنين هذا الشعار

الذي تزينت به ألويتنا وبنودنا في تلك المعركة.

على الإثر مد السفير [المغربي] ذراعيه ليعرض أمام الأمير النصري علما أبيض موشاةٌ حواشِيه بلون الذهب، وطرزت عليه بالفضة كلمات: «ولا غالب إلا اللّٰه».

شعر «محمد» بأن العبارة تطابق كليا ما يعتمل في صدره من أحاسيس دينية وقومية، فاستراح لهذا الشعار، ووافق عليه سعيدا مبتهجا. قدام رجليه وُضع صندوق مملوء بهدايا ثمينة أرسل بها إليه الخليفة الموحدي، حليفه الجديد. وبذلك أصبح العَداء القديم تجاه الخلفاء الأفارقة من مخلفات الماضي التي تنوسيت، وعفا عنها الزمن، بسبب حاجة الإمارة إلى المساعدة الإفريقية. ولا غرو، فإن عباسيي بغداد، وقد التزموا بوفائهم لـ «مُرْسية»، ولقضية «ابن هود» حتى بعد مماته، لم يعضدوا أبدا إمارته الفتية، أو آزروا قضيته، في المقابل كان الموحدون أقرب إليه مسافة من غيرهم، ودون شك على استعداد دائم لمؤازرته إن اضطرت غرناطة إلى طلب مساعدتهم. على الأقل هذا ما كان يعتقده الأمير.

أمر «محمد» الأول باستضافة السفير ومن معه، ثم غادر إلى مصلاه الخاص. هناك لقي «عمر الحسون» جالسا على سجادته، ورأسه مائل بعض الشيء.

- يا شيخي، ليس هذا وقت القيلولة.

لم يتلق «محمد» جوابا من الشيخ. فعمد إلى مس كتف الحسون بلطف، وإذا بالجسد يسقط

أرضا. جفل الأمير، وأراد أن يتأكد من نبض الولي، غير أنه لم يجد سوى جمود الموت. فترك جسد «الحسون» على الأرض، وجلس بجانبه:

ـ وأخيرا غادرْتَ أيها الصديق ـ تنهد الأمير ـ تركتنا أخيرا بمحض إرادتك لتجاور العلي القدير ـ ناجى «محمد» صديقه وقد فاضت عيناه بالدمع، فجمعت مناجاته للفقيد بين البكاء واستعادة الذكريات، وإبراز الأحاسيس الصادقة تجاه هذا الرجل الذي لم يتخل أبدا عن الأخذ بيده إلى أن تولى الإمارة.

كان «النصري» متعودا على مصيبة الموت. وكثيرون هم الأشخاص الذين وسموا بفقدهم حياته، بل هناك من غيبهم الموت بضربة من مقمعته، غير أن الموت الذي كان يؤلمه ويطبع نفسه هو الذي يُغَيِّبُ على حِينِ غِرَّةٍ أحباءه وأعزَّ الناس إليه. كان غيابهم يذكره بأن لا أحد يَخْلَدُ في الدنيا، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأن البقاء لله وحده.

ـ سأشتاق إليك... ـ أنهى «ابن الأحمر» مناجاته للفقيد بهذه العبارة وهو يجهش بالبكاء، ثم نهض ليأمر رجاله بالتكفل بجنازة صديقه. ـ قريبا سنلتقي، يا معلمي، فما الحياة سوى تصعيد زفرة ـ نطق وهو يغادر المصلى.

***

ـ حدثيني عن نفسك يا «دنيا». كيف كانت حياتُك في «أُبَّدة»؟ ـ طلب منها الأمير والحزن ما زال يسكنه لفراق صديقه «عمر».

ـ اشتغلت منذ طفولتي الأولى في نَوْل الحياكة ـ شرعت الفتاة في الحديث بصوت هادئ، ثم جلست على الفراش، وأسندت رأسها إلى ركبتيها وهي تنظر إلى حبيبها بعينيها الجميلتين. هذا الوضع سمح ببروز أصابع يديها وقد تخللتها آثار ثَفَن من العمل ـ كنت أقضي أيامي حبيسة البيت، أسمع على الدوام أمي وهي تكرر مقولتها على مسامعي بضرورة أن يكسب الفرد رزقه بجهده، غير أنني كنت أكسب بعرق جبيني خُبزي وخبزها، فلا أتوقف عن إنجاز طلبيات الجيران، أو أهيئ الطعام ثم أبيعه للعمال المياومين عند أبواب المدينة...

ارتاح «محمد» لصوت «دنيا» السلس الوديع، وغمرته راحة نفسية، فاستلقى على فراشه في هدوء، وترك سرد حبيبته يأخذ بمجامع قلبه.

ـ هل تعلمين أن ابنتي «شمس» في مثل سنك؟ كلاكما ولدتما في السنة التي توفيت فيها «فرح». أخذ الله مني إحدى بناتي، غير أنه أعاد إلي أمها. ـ قال «محمد» وهو يمسح على شعر «دنيا».

ـ لا أدري إن كنتُ حبيبتَك «فرح» ـ أجابت «دنيا» ـ غير أني أحبك كما لو كنت أنا حقا «فرح» ـ كانت الفتاة قد وقعت في حب «ابن الأحمر»، فكانت مشاعرها تجاه الرجل صادقة.

اجتاحت «النصري» وهو يتطلع إلى الفتاة، ويسمع كلامها رغبة جارفة إلى مضاجعتها، وسرعان ما قربها إليه بإحدى ذراعيه. خارج الغرفة وفي حمى العتمة، كانت «مريم» تتجسس على

ما يفوه به الأمير بوجه عابس قلق. لم تكن المرأة قادرة على تفسير الشعور الذي غشيها. كان جرح قلبها أكثر عمقا وألما حتى تحس بالغيرة من أحد. بل لعل مصدر ما انتابها من شعور هو ذلك الهيام الكبير الذي تبدى أمامها بين العشيقين، وحُرمت هي منه حينما منعت على نفسها ألا تبادل أبدا رجلا مشاعر الحب. وما أن شرع الحبيبان في لعبة الحب حتى انصرفت الأمة يغشاها الحزن، وتوجهت إلى غرفة «عائشة».

فجأة، سمعت «مريم» صوت خطوات. فتحركت في احتراس. في نهاية الممر رأت «كمال» وهو يغادر غرفة سيدته محتاطا حَذِرا. خفق قلب «مريم» سريعا، غير أنها صمَّمت على متابعة سيرها.

ـ السلام عليكم ـ سلمت حينما اقتربت من نقيب الحرس الأميري. ـ آمل أن تكون قد تركت زوجة الأمير راضية. ـ بدأ كمال يتفصد عرقا وهو في حالة قلق شديد. وقبل أن يتمكن من الإجابة، خاطبته النصرانية قائلة: ـ لا أحكم عليكما. أنتما حران، وتفعلان حسنا حينما تتحابان. وماذا تظن يفعل الأمير الآن في غرفته؟ ـ ظل «كمال» واقفا في مكانه كأنه الصنم، لا قدرة له على الكلام.

على الإثر، تركت «مريم» «الفتى» غارقا في عرقه، وعاودت سيرها لتغيب بعد فترة بين ممرات القصر المعتمة وظلال متاهاته، كأنها طيف يعبث بمصائر الرجال.

***

## غرناطة Granada. خريف 1240

لم يتأخر آل «أشقيلولة» في امتلاك أراضي في «غرناطة». فبعد مغادرة بعض السكان اليهود للمدينة، انتقلت ملكية أراضيهم إلى الأمير، الذي ما لبث أن باعها لأقاربه بأثمان زهيدة. وكان «عبد اللّٰه» قد حاز إحدى أفخم هذه المُنْيَات، وكانت تتوفر على بركة، وآبار، ونظام ري خاص، مؤلف من شبكة من القنوات والسواقي التي تسقي الحقول والبساتين التابعة للمنية. كما كانت تتوفر على زريبة دجاج، وطيور، وأرانب، في حين بني فوق الطبقة العليا للمنية، حيث يقطن أهل الدار، برجُ حَمَامٍ مليء بأصناف من أسراب القَطَا.

استقبل «عبد اللّٰه» الفارس تحت العريش الذي يظلل المدخل. وكان القادم يعتمر عمامة تنتهي عقدتها تحت الذقن، حسب الأسلوب المتبع عند بعض القبائل الإفريقية. وسرعان ما جلس الرجلان في ظل العريش، دون أن يتنبها إلى أن «شمس»، التي اختفت وراء ستارة بالمدخل، كانت تتجسس عليهما.

ـ ذاك ممكن؟ ـ سأل «عبد اللّٰه».

ـ أجل ذاك ممكن، كل شيء ممكن ـ أجاب الفارس، وقد افتر ثغره عن ابتسامة فضحت أسنانه المثلومة.

ـ لا أريد عملا أخرق وغير متقن، أريد شيئا يبدو للملأ طبيعيا. فـ «ابن هود» قتلوه خنقا، غير أنهم أشاعوا أنه مات بأزمة قلبية. ـ أظهر «عبد اللّٰه» حين وصوله إلى هذه النقطة منتهى الجدية ـ لا

أقبل أن تبقى أدنى بادرة شك.

- سيدي، هناك سموم تسبب توقف القلب. أما «ابن هود» فلا شك أن الذي قتله كان أحد الهواة الذين لا يتقنون عملهم. ماذا ستنتظر من مثل هؤلاء؟ غير أن حالتك مختلفة لأنك التجأت إلى أهل الاحتراف. فكن مطمئنا.

- مدة الإنجاز، وتاريخ التنفيذ؟

- فيما يخص ذلك، لا يمكنني أن ألتزم بتاريخ معين. يمكنني أن أقول لك، كذبا، بأني سأنجز المهمة في مدة أقصاها شهر، غير أني لن أنجز عملي خلال ذلك. لأن الأمر لا يخص قتل أحد الأشقياء بسبب ديون تتعلق بألعاب القمار. إننا سنقتل أميرا - بادر «ابن أشقيلولة» في سرعة إلى إسكات الرجل - والصعوبة تكمن في ضرورة أن أزج برجالي داخل القصر. بما يعنيه ذلك من رشًى، وتقديم أموال، وقبل ذلك ينبغي أن نعرف بالتحديد من سنقوم برشوتهم. ومن ثمة يمكن أن أتأخر في تحقيق ذلك شهورا عدة.

- حسنا، كلامك معقول. - قال «عبد الله» مستسلما.

- فيما يخص المقابل المالي...

- سنتحدث عن ذلك فيما بعد. - أسكته ابن «أشقيلولة» على التو - لن يكون هناك مشكل في جمع هذا القدر. قم بعملك على أحسن وجه، وسنعاملك بكرم.

نهض الفارس ليودع «عبد الله»، لكنه سرعان ما لمح، وهو مرتعب كيف أن امرأة تفتح الستارة

وتتوجه إليهما. كانت المرأة تحجب نفسها بجلباب غليظ، وتغطي وجهها بلثام صفيق.

- وهل سيعاني؟ - سألت «شمس» وهي تثبت عينيها الخضراوين القاسيتين في الفارس؟

- ليس ضروريا، يمكن أن يتم ذلك سريعا.

- أنجز عملك كما ينبغي لك أن تنجزه، لا يهم الألم - علقت أخيرا بدم بارد.

وافق الفارس على كلام المرأة، ثم ركب فرسه، وشرع يبتعد في بطء عن المنية. تطلع الزوج إلى زوجته وهو مندهش من هذا الموقف الصادر عنها، وقد أدركت جيدا أنه والفارس كانا يتحدثان عن كيفية قتل والدها.

***

**«غرناطة» Granada. صيف 1241**

كانت المساحات داخل «قصبة الحمراء الجديدة» محدودة جدا، والدور صغيرة الحجم. وبالرغم من أن دار الأمير بَرَّزَت على غيرها، إلا أنها كانت أصغر من أن تكون إقامة ملك. في تلك اللحظة كان علو الأبراج يفوق أربعة طوابق. وكان «محمد» قد أزمع على الانتقال مع أسرته إلى أكثر الأبراج تحصينا، حالما تنتهي أشغال البناء بها. وكان العريف قد حدد البرج الذي سيخصصه للإقامة الأميرية. أما خارج القصبة فقد كانت الأكواخ الكبيرة المعدة لإقامة الجنود، وأيضا، الدور التابعة لها والمخصصة للحامية، قد انتهت الأشغال بها، وهو ما دعا عددا لا بأس به من الجند إلى الانتقال إلى هضبة «السبيكة». وكانت الساقية تزود هضبة

الحمراء بالماء الصالح للشرب بواسطة سد على نهر «حَدَّارُه» el Darro، وأيضا شبكة معقدة من القنوات المائية.

ـ هذه القصبة الجديدة هي المقر الذي يحتاجه حكمك، يا «محمد». ـ أثنى «أشقيلولة» على بناء القصبة وهو يحمل يده إلى ظهره. كان الشيخ يعاني من آلام دائمة، غير أنه كان يجهد نفسه ليظل منتصب القامة، محتفظا باعتدال الهيئة.

ـ ستكون دارك، يا جدي، بجانب داري، كما ينبغي أن يكون.

ـ لأَدْعُ المولى تعالى أن يهبني الصحة والعافية حتى أقطن بها. ـ أجاب «أشقيلولة» وقد سمح لخادمين أن يساعداه على ركوب فرسه. ـ «أرجونة»، و«جيّان»، و«مالقة»، و«ألمرية». وفي الوسط «غرناطة»، وفي وسط غرناطة حمراؤك. أحسنت يا «محمد».

ابتسم الأمير مبتهجا. فقد كان رأي جده بالنسبة إليه في غاية الأهمية. غادر الشيخ عبر حي الحامية، وهو يتجنب السير بمحاذاة السور الرابط بين المدينة والحمراء لكثرة العقبات بالمكان. كان في رفقته إلى القصبة القديمة أربعة من الحراس. لكن «أشقيلولة»، وَلَمَّا يَخرُجْ من الحي الجديد، شعر بألم قوي في ذراعه، مع تعرق وخفقان في القلب. حاول الشيخ أن يتجاهل ما ألم به، لكن بصره لم يلبث أن أظلم، وأحس كما لو أن صدره ينفجر بحرا من الدماء، فلم يمهله حاله، وسقط من جواده مصعوقا، فكان آخرَ ما سمع في دنياه، أصوات الحراس وهم يطلبون

المساعدة.

لم يكن بالإمكان فعلٌ أي شيء. على الإثر وصل «محمد»، بعد أن سمع الجلبة التي أحدثها الحراس، إلى مكان سقوط «أشقيلولة»، فبدا له أن الأمر قد قُضي، وأن جده قد غادر إلى دار البقاء. بعد حين وصل أحد الأطباء تصادف وجوده في المكان، وأكد وفاة الشيخ. تأمل الأمير التعبير الذي رسم على وجه الميت، والسكينة التي وسمت محياه، فما لبث أن مد إحدى يديه وأغلق عيني جده وتمتم ببعض الأدعية، وهو يتماسك أمام الرجال حتى لا يجهش أمامهم.

ـ اللهم ارفق به، واجعله من المقربين إليك ـ غمغم «محمد» وهو يذكر كيف كان جده نعم المقربين إليه، والناصحين له، في كل مشواره.

***

ـ تعرفت عليك منذ سنوات يا «مولانا». ـ قال «ابن صناديد» وهو يحدق في البركة التي توسطت فناء الدار الجديدة. كان الأمير حينها قد انتقل إلى مكان إقامته الجديد في هضبة «السبيكة». ـ وإن رجلا مثلك ليس في حاجة إلى المشورة والنصيحة.

ـ يا صديقي لستُ الرجلَ الذي تراه أمامك الآن سوى بفضل نصائح «أشقيلولة» ـ أجاب ابن الأحمر ـ هو الذي علمني أن أمسك بالسيف، وأن أركب الخيل، وأن أرمي بالمزاريق، وأن أتصرف بحصافة وألتزم الحكمة. سأذكر دائما مساعدته، وسأفتقد مشورته.

خيم صمت ثقيل إلى أن غير «ابن صناديد» الموضوع.

ـ يذكر جواسيسنا في «مرسية» أن أحد أعمام «ابن هود» ثار ضد «ابن مردنيش»، وأنه أعاد الحكم لـ «آل هود».

ـ أيام «مرسية» أصبحت معدودة ـ علق الأمير ـ لقد تحولت إلى زريبة كثيرة الديكة.

ضحك الرجلان. في الحين ذاته دخل أحد الحراس وهو يخْفُرُ «إبراهيم»، الابن الأصغر للراحل «أشقيلولة». فهم «ابن صناديد» أن ساعة انصرافه قد حانت.

ـ بارك الله فيكم، يا «إبراهيم»، وأرجو أن تكونوا قد وجدتم بعض العزاء. ـ قال «محمد» وهو يحتضن بقوة «ابن أشقيلولة» ـ حقا لقد كانت خسارة جسيمة لكم، ولي، وللإمارة.

شكر «إبراهيم» الأمير على كلامه الطيب بإشارة من رأسه. كان عينا الزائر تحيط بهما هالتان مزرقتان، وبدا وجهه كما لو شاخ عَقدا من السنين.

ـ أنت يا «إبراهيم» رجل صالح طيب، تتمتع بالكفاءة والذكاء ـ تابع «محمد» ـ والآن أصبحت رأس أسرتك، وبهذه الصفات الفاضلة التي تتمتع بها، قررتُ أن تخلف والدك، وأن أُبَوِّئك منصب رئيس. ومن اليوم، قلدتك حكم بلدتي «وادي آشْ» Guadix، و«رُنْدة» Ronda، كما أن حصن «قُمارشْ» Comares منوط بك، وتابع لأوامرك.

ـ وأخي «عبد الله»؟

ـ سيستمر في منصبه قائدا، أريده أن يظل في الجيش.

ـ هل تعلم أنه سيغضب ـ قال «إبراهيم» ثم تنهد.

ـ ممكن، لكن لم يعد يهمني ما يفكر فيه. ـ أصدر الأمير حكمه. ـ وليفعل ما يشاء، على كل حال، سينتهي به الأمر ممعودا ـ ضحك الرجلان ثم استطرد «ابن الأحمر» ـ إن المنصب هو لك، لأنك الابن البكر، وأيضا لكونك أفضل من شقيقك ـ اقترب «ابن الأحمر» من الرجل، وأمسكه من منكبيه في إشارة منه لما يكنه لـ«إبراهيم» من حب وعطف. ـ ما حال ابنتي وأحفادي؟

ـ «مؤمنة» في حال جيدة، تحس أحيانا ببعض التعب، لا يترك لها الولدان الوقت الكافي لاسترجاع النفس والراحة. إنها امرأة صالحة، بسيطة ومحترمة.

ابتهج «ابن الأحمر» لتلك الكلمات الصادقة التي فاه بها صهره.

ـ سأزوركم قريبا، وواصل اهتمامك بها.

توادع الرجلان بعناق حار، ثم رافق «محمد» «إبراهيم» إلى الباب الذي منه يولج إلى السور الرابط بين المدينة وقصبة الحمراء الجديدة، ومن هناك توجه «إبراهيم» إلى القصبة القديمة.

***

«غرناطة» Granada. خريف 1241

ـ حدثيني يا «مريم»، هل تذكرين بلدك؟ ـ سألت

«عائشة» الأمةَ باهتمام صادق.

ـ الحقيقة أن الذكريات القليلة التي أحملها عن بلدي تؤلمني. ولكم أتمنى أن أنساها ألبة. ـ في الحين علت نظرتها مسحةٌ من الحزن الذي عادة ما يغمرها في لحظات وحدتها.

كانت المرأتان تقضيان بعض الوقت منشغلتين بالنّوْل الموجود في إحدى إقامات الدار. لم تشأ «عائشة» أن تعمق من جراح المرأة بالنبش أكثر في ماضيها.

ـ ما رأيك في الصديقة الجديدة لزوجي؟

ـ لقد شُغف بها الرجل. ـ ابتسمت «مريم» ـ «دنيا» فتاة بسيطة، ولا تملك تطلعات كبرى. وأعتقد صراحة أنها قد أغرمت به.

ـ وأنت يا «مريم» هل وقعت مرة في حبه؟

ـ لقد أنقذني من الشيطان، وسأظل دائما مدينة له. أما بخصوص قدرتي على الوقوع في حب رجل، فذاك أمر سلبوه مني منذ سنوات طفولتي البعيدة.

ـ أنت جزء من البلاط، ويمكننا أن ننتقي لك زوجا صالحا. ـ عرضت «عائشة» على «مريم».

ـ أشكرك، لكني لست في حاجة إلى رجل. أن أرتبط لن يزيدني إلا معاناة. أريد أن أكون حرة.

ـ وهل تقبلين بعلاقات أخرى؟ ـ ابتسمت «عائشة» في خبث.

شخصت «مريم» ببصرها إلى «عائشة»، ثم أمسكت بيدها قبل أن تجيب:

ـ لا، غير أني لست ضد ذلك. ولا أعيب عليك علاقتك بعشيقك، أيتها الصديقة، بل أفرح لكونك تجدين سعادتك في ذلك. ـ أضافت «مريم».

أطلقت «عائشة» يدها من يد «مريم»، وقد احمرت وجنتاها، ثم عادت لشغلها وهي عاجزة عن الجواب. «ألهذا الحد انفضحت علاقتي به؟» تساءلت المرأة.

بدا لـ «عائشة» أن «مريم» غدت حاضرة في كل جنبات الإقامة الأميرية، كما لو أنها شبح ينساب بين الزوايا ليسبر الأغوار، ويطلع على كل الخبايا والأسرار. «لن أتخلى عن «كمال»، لن أفارق الحب، أفضل الموت على أن ابتعد عنه». دار بخَلَدِ عائشة، كأنها تُوجِبُ على نفسها نَذْراً يخص علاقة أَنْفَس لها من الروابط المقدسة للزواج.

***

**بُرْغُشْ Burgos. ربيع 1242**

ـ أبتاه! ـ كان الأمير «ألفونسو» يصرخ وهو يسرع الخطو إلى إقامة والده الخاصة بالقصر. كان الشاب الأنيق والمحترم قد بلغ سن الرشد، ويقوم بوظائف مهمة في حكومة التاج القشتالي. فبعد إقامة الأمير في قرطبة، التي بدأ تعميرها بالنصارى يقطع أشواطا، أهَّلَ الحاضرةَ لتتمتع بميثاق «فُويِرُو» [امتياز خاص بها]، أكرم «فرناندو الثالث» ابنه بوظيف **alférez real** الفارس حامل لواء الملك [وهو وظيف سام في «قشتالة» أخذه الإسبان عن العرب، ولا يسبغه الملوك الإسبان سوى على رجال الدولة الكبار].

خرج «فرناندو الثالث» من غرفته للقاء ولده، وهو يستفسره عن سبب كل هذا الصخب.

ـ وأخيرا أذعن للصواب! أجل، «ضون دييغو» انقاد أخيرا للعقل.

أغمض «فرناندو» عينيه، ثم تلا مغمغما صلاة قصيرة شكرا للرب. ذلك أن حامل لوائه، ورجل ثقته، «دييغو لوبث دي هارو»، كان قد أعلن العصيان على الملك، بسبب أن «فرناندو» لم يعترف له ببعض الأراضي التابعة لممتلكاته. إضافة إلى أنه اعتبر فقد وظيفته باعتباره حامل لواء الملك لصالح «ألفونسو» ولي عهد قشتالة إهانة لحقت بشرفه. وقد كان هذا العامل النقطة التي أفاضت الكأس. وبعد شهور من المفاوضات والمناوشات، اختار النبيل، أخيرا، أن يخضع من جديد لسلطة عاهله.

ـ سيعم السلام من جديد بين المسيحيين، يا «ألفونسو». هل تدري ماذا يعنيه ذلك؟ لا تنس أن اتفاقات الهدنة قد انتهت ـ نظر «فرناندو» إلى ابنه بعينين براقتين.

ـ الحرب ضد الكفرة المسلمين! ـ صرخت «برنكيلا» من نهاية الممر، وهي بالكاد تتعقب خطوات حفيدها.

على الإثر أمسكت الأم ولدها من ذراعه، وهذا بدوره أخذ بذراع حفيدها، وقد استبد بالجميع الانفعال والتأثر.

ـ لن أوافق على تجديد الهدنات ـ أصدر «فرناندو» حكمه في الحال. ـ هذه السنة فات

الأوان، لكننا سنهاجم «المورو» بعد انتهاء الشتاء القادم.

ـ وأيُّهم؟ ـ سأل «ألفونسو».

ـ أكثرهم خطرا، «ابن الأحمر»، أمير غرناطة. ـ تطلع «فرناندو» إلى «برنگيلا» ـ كنت على صواب، يا أماه: فالرجل مراوغ داهية، وعنيد. وينبغي أن نذل ناصيته، ونوقفه عند حده.

وافقت الملكة في سرور على كلام ابنها، ونَفَسُها ما زال متقطعا جراء ملاحقتها لحفيدها.

كانت «مرسية» لا تزال تتأرجح بين طائفة وأخرى، دون اتجاه معين. ومن ثمة، لم تعد تمثل أي تهديد لـ «قشتالة». في حين غدا «ابن الأحمر» الخطر الذي يتهدد نصارى الشمال.

سارت الملكة «برنگيلا» نحو الكاتدرائية، وهي تنوي أن تطلب من الأسقف تنظيم خمسة قداسات لشكر الرب على السلام الذي عم المسيحيين، وأيضا التماس العناية الربانية للحملة المقبلة ضد الكفار المسلمين. وقتها بقي «فرناندو» وحده مع ابنه البكر.

ـ أنا فخور بك يا بني. فقد أصبحت رجلا عالما وحازما. ويبدو أن أساتذتك قد قاموا بعملهم على الوجه الأكمل. إن الملك الجيد ينبغي له أن يعرف عن الآداب أكثر مما يعرف عن الأسلحة. فقد عهدت إليك بمسؤوليات، فقمت بها خير قيام. وقريبا سأكلفك بالمزيد منها.

أنا رهن إشارتك، يا أبي، وفي خدمة الرب والعرش.

ـ أنت في سن تحضر فيه النزوات والاندفاعات بقوة. ـ سار «فرناندو» بالحديث نحو الميدان الذي أراد معالجته مع ابنه. ـ أنا لم أكن أروح عن نفسي خارج الزواج، غير أني لن ألومك إن اتبعت أسلوبا آخر في التنفيس عن ذاتك. ـ كان الملك يشير إلى ما عرف عن ابنه من علاقات غرامية خارج مؤسسة الزواج، وما نتج عنها من أبناء غير شرعيين. ـ فقط أريدك أن تحترم التعهد الذي ألزمت نفسك به مع الملك «خايمي الأراغوني». ستتزوج ابنته «بيولانتي» حينما تُكمل الفتاة عشرَ سنوات. وأنا على ثقة من أنك ستظفر بنفس الحظ الذي ظفرتُ به أنا مع أمك.

ـ بخصوص التزاماتي نحو العرش، فإنني سأضطلع بمهامي، كما يمليه الواجب، على أحسن وجه، باعتباري وليا للعهد، وسأجعل مصالحي الشخصية في مرتبة ثانوية. ـ أجاب الأمير بشكل قاطع بات.

ربت «فرناندو» على ذراع الشاب، وسمح له بالانصراف.:»سبحان الرب كيف تتغير الأحوال والأزمنة»، فكر العاهل. «لو كنتُ فعلتُ ما فعلَه ابني لكانت أُمّي قد خَصَتْني كما يُخصى الفحل».

***

«أندوجر» **Andújar**. صيف 1242

خرج «مرتين فرناندث البرغشي» من غرفته بخطى سريعة، وهو لابس الدرع «اللوريغون»، وفوقه البرنوس الأبيض المرسوم عليه الصليب الأسود الموشى بصور السوسن.

كانت الحرارة خانقة.

ـ من هنا، أشار عليه أصغر القساوسة.

سار «مرتين» في أعقاب القس، وهو يسعى جاهدا إلى مسايرته في خفته، إلى أن وصلا إلى بناء ذي عمارة إسلامية، كان فرسان قلعة رباح بـ «أندوجر» يستعملونه سجنا.

ـ ألقوا القبض عليه هذا الصباح حينما كان يستعد لعبور الجسر. ـ شرح الشاب لـ «مرتين» ـ. إذ منذ أن انتهت الهدنة لم يسمح لأحد من التجار بالتوجه إلى الجنوب. وهو يؤكدُ أنه كان في طريقه إلى «مَرْتُشْ»، غير أن خُرْجَهُ خال من أي زاد.

ـ وهل استنطقوه؟ ـ سأل «مرتين».

أجاب الشاب بالموافقة وهو يفتح باب الزنزانة.

ـ اعترف أنه أحد جواسيس «ابن الأحمر».

كانت الزنزانة مضيئة من الداخل عبر طاقة صغيرة في أعلى الجدار تتخللها عيدان من الحديد. أول ما لقي الفارس الرباحي هو رائحة قوية للدم ممزوجة برائحة الغائط. أغلق الباب وراءه. كان الشقي جالسا في هدوء على مقعد من حجر، وهو مقيد إلى الحائط. لاحظ الرباحي في العتمة وجهَ المسلم المنفوخ، وخيوطَ الدم التي تنزل من خديه وذقنه. كان الرجل يشُدُّ بيده اليمنى على بطنه، وبيسراه يَكبِس على رجله الممتدة.

ـ كفى ـ لجلج السجين.

أخرج «مرتين» سيفه من غمده ثم خاطب

الشقي:

- إذا أجبت بطريقة مناسبة، لن يكون هناك ضرب آخر.

- لقد اعترفت. أنا جاسوس لـ «ابن الأحمر». يريد أن يعرف إن كان الملك «فرناندو» يريد تجديد الهدنة، حتى يستعد للأمر.

«جبان وعديم خبرة» فكر الفارس الرباحي.

- إنه لسهل أن تختلق الأكاذيب فرارا من المعاناة. من أين أنت؟

- ولدت في «أرجونة». وأعرف الأمير مذ كان طفلا - سارع الرجل إلى الإجابة والخوف مرتسم على نظرته.

- حدثني عنه. كيف أصبح أميرا؟ - قال «مرتين» بصوت جاف وهو يضغط بشدة على مقبض سيفه.

شرع الأرجوني يسرد كل ما يذكره عن طفولة «ابن الأحمر» إلى أن أصبح أميرا: الغارات الحدودية التي قام بها، المران العسكري على يد جده «أشقيلولة»، دعم الولي «عمر الحسون» لقضيته، ثورته ضد الموحدين، ثم بعد ذلك ضد «ابن هود». كان الفارس يصغي للمقبوض عليه باهتمام وفي ذهول، دون أن يتمكن من إخفاء إعجابه بمسيرة عدوه البغيض إلى قلبه. وكان من بين الأحداث التي ذكرها الأسير الغارة على «برج الحمام»، وهو المكان الذي قتل فيه عم «مرتين»، والغارة على المستوطنة التابعة لـ «قلعة رباح» بالجبل، ومعركة البساتين، التي نجا منها «مرتين» ذاته بشق الأنفس.

ـ وهل له أسرة؟

ـ له أولاد، لا أذكر عددهم الآن. أنجبهم من زوجتين. ماتت زوجته الأولى بالنفاس. والثانية ما زالت على قيد الحياة. ـ كان الجاسوس يتحدث متلعثما، دون أن يزيح ببصره عن السيف.

ـ والإخوة؟

ـ أخوه «إسماعيل» هو حاكم «مالقة». وكان قد فقد بالحمى أحد إخوته، وأيضا أمه. كما فقد آخر حينما أغار رباحيو «أندوخر» على «أرجونة».

ـ وكيف حصل ذلك؟ ـ كان «مرتين» يريد أن يعرف أكثر عن هذه الغارة الأخيرة التي جعلته يستحضر ذكريات عن حقبة بعيدة.

ـ حصل ذلك منذ أكثر من عشرين سنة... ـ شد بيده على بطنه أكثر، متشكيا من ألم حاد.

ـ كان الفتى في حقل زيتون تملكه الأسرة، حينما جاء فرسان «قلعة رباح» ـ تنحنح الرجل في انزعاج ـ وشرعوا في إتلاف شجر الزيتون، فواجههم الفتى، فقتله أحد الفرسان. هذا ما حكي لي.

ذهل «مرتين» لما سمعه من حكي. وإنه ليذكر ذلك الفتى «المورو» بوضوح حينما أفزع بسلوكه فرسه، فغرز «مرتين» حربته في جسم الفتى.

ـ وماذا كان يسمى؟

ـ «فرج» ـ أجاب الأرجوني.

ـ «فرج» ـ ردد الفارس الرباحي، كما لو أنه يريد أن يحفظ هذا الاسم جيدا.

أعاد «مرتين» السيف إلى غمده، ثم خرج من الزنزانة، في حين لم يعد يسمع داخلها سوى النحيب الشاكي للجاسوس.

ـ ماذا ستفعلون بي؟ ماذا ستفعلون بي؟

«يبدو أن كلانا يملك ما يكفي من أسباب ليكره غريمه. وأطلب من الرب أن يهيئ لنا فرصة لتصفية الحساب» قال الفارس الرباحي مخاطبا نفسه في سرور.

***

**غرناطة Granada. شتاء 1243**

استندت «دنيا» إلى عتبة النافذة، وراحت تتأمل الحي الذي يمتد خلف الحمراء. كانت الدور السكنية والثُّكُناتُ تتكدس حول الشارع الرئيسي الذي يفصل المنطقة العسكرية عن منطقة الحرف والصنائع. وكان جندُ الحامية قد استقروا حَوَالَي المُرَكَّبِ الجديد، إضافة إلى أعداد من الحرفيين، وعمال الخدمات، وخاصة الكتاب والموظفين السامين التابعين للكتابة الأميرية. وكان الحي يتوفر على مسجد صغير، وحمامات ذاتية، وعين يأتيها الماء من ساقية الأمير، التي تنتهي في داخل القصبة.

كان «ابن الأحمر» وقتها قد استقر بإقامته الجديدة التي تحد بالثكنات.

احتضن «ابن الأحمر» «دنيا» من ظهرها، وهو ما لم تكن تنتظره الفتاة، فلما انتبهت إلى أن حبيبها يحتضنها من خلف، أمسكت بيديه القويتين

وقالت:

ـ أأَعيشُ حلما؟

ـ وما الحياة الدنيا سوى ليلة طويلة تطَّرِدُ فيها مُتتابعةً مرة الكوابيسُ، وأخرى الأحلام الحلوة ـ أجاب «محمد» بنبرة شاعرية ـ وأنتِ هي الحلم الأمتع والألذ الذي وصل بعد أسوأ كابوس. ـ أتم عبارته، ثم قبلها في عنقها.

ـ أحبك يا «محمد». طوال حياتي عشت الوحدة والإهمال. الآن أعرف أن كل ذلك كان يقودني إليك، وأن النصارى كان عليهم أن يستولوا على «أُبَّدَة»، وأن تغادر أمي مع حبيبها، وتتركني وحيدة، حتى آتي إلى «غرناطة» لألتقي بك. ـ استدارت «دنيا» نحو حبيبها وهو ما زال يحتضنها، ثم نظرت في عينيه ـ هناك أقاويل تُتَناقَلُ عبر الممرات، غير أنه ليكن في علمك أن لا شيء ماديا له قيمة في نظري، ولو هذا الحرير الذي ألبسه. ـ أكملت العبارة ثم تركت الجلباب يسقط عن جسدها في حركة سريعة، لتبق عريانة بالكامل ـ. على التو استبدت بـ «محمد» رغبة ملحة في مضاجعة جاريته، فقادها نحو الفراش، وهناك مارسا الحب كمراهقين مستسلمين للهوى دون حصار.

ـ أعدت النور إلى عيني، يا «دنيا». ـ قال لها لما قضى وطره، وهو يمسح على جلدها في لطف.

كان قد مضى عليه حين طويل من الدهر لم يشعر خلاله بالسعادة. وها هو الآن في «غرناطة» يحس أنه في مكانه، لأن «غرناطة»

أعادت إليه «فرح». هناك، سيؤسس لأسرته من أجل أن تحكم الأراضي الشاسعة لإمارته.

***

كانت «شمس» تراقب أولادها، وهم يمرحون ويسرحون قريبا منها، في الإقامة الصغيرة - غير أنها كافية - التي عينها والدها لهم في القصبة. ولا غرو، فقد كان الفضاء ضيقا مضغوطا، وعدد الموظفين الكبار، الذين ينبغي إكرامُهم بإقامات في قلب الحمراء، كبير.

فجأة، سمعت «شمس» طرقا على الباب، فذهبت لفتحه، فوجدت نفسها إزاء عجوز شمطاء لا أسنان لها، تحمل كيسا على ظهرها.

- سيدتي، أرسلني زوجُك الأمير لأعرض عليك بعض أثواب الحرير الصالحة لخياطة الملابس.

سمحت «شمس» للعجوز بالدخول، وسرعان ما وضعت الكيس على الأرض، وشرعت في إخراج القطع الحريرية منه، الواحدة تلو الأخرى.

- لقد أصبحت لنا مواطئ قدم بالداخل - قالت العجوز لـ «شمس» بصوت خفيض - تعمل معنا في هذه اللحظة خادمة تعمل في المطابخ، وأحد الحراس. قريبا سننتقل إلى الفعل. - قالت العجوز لـ «شمس»، ثم أمسكت ذراعها بأصابعها الجافة وأردفت - يجب عليك أن تُعْلِمي زوجك بالأمر. وبهذه الطريقة سنتواصل من الآن فصاعدا. أما الآن فانتقي ثوبا، وقولي بصوت مرتفع أنه أعجبك، ثم رافقيني وأنا خارجة إلى الباب.

كان قلب «شمس» يخفق بشدة. وأحست كما

لو أن بصيصا من الشك سيتمكن منها، غير أن صراخ أبنائها، وهم يلعبون، أخرجها من أفكارها. «أنا مدينة لهم، وهم أولى من كل شيء». قالت لنفسها في حزم.

***

«طليطلة» **Toledo**. مارس 1243

حدق الأمير «ألفونسو» طويلا بإعجاب في الجوادين العربيين الأصيلين. وكان مما استظرفه فيهما الطَّقْمُ والعُدَّةُ اللذان أُسْرِجَا بهما، والدقة والإتقان اللذان صنع بهما السرجان الجلديان، وزينة الدابتين المُوَشَّاتَيْنِ بالفضة والذهب، إضافة إلى ما حُشِيَ به عِدْلا الفرسين من دنانير ذهبية هودية. في تلك اللحظة كان أعضاء [السفارة الهودية برئاسة أحمد بن محمد بن هود يتنظرون إجابة ولي عهد مملكة قشتالة الإنْفَانْتِي ألفونسو]. وكانت السفارة العربية قد وصلت في صباح ذلك اليوم إلى «طليلطلة» باسم أمير «مرسية» [محمد بهاء الدولة بن هود خليفة الراحل ابن هود المتوكل]. وكان الوضع في «مرسية» يائسا قانطا بفعل الضغوطات التي كانت تمارسها المملكتان النصرانيتان «قشتالة» و«أراغون» على الإمارة المسلمة عبر الحدود المشتركة بين المملكة الإسلامية والمملكتين المسيحيتين. ولم يكن الوضع الداخلي في «مرْسِيَةَ» بأحسن حال من وضعها الخارجي البائس إزاء النصارى. وذلك بسبب إعلان بعض البلدات والقرى العصيان والخروج على حكم «بهاء الدولة بن هود»، فاضطر هذا بعد مشورة شيوخ المدينة

إلى أن يرسل سفارته هذه إلى «قشتالة» يطلب الحماية مقابل الانضواء تحت لواء «فرناندو الثالث»، والاعتراف بطاعته، وتقديم الجزية له. (41)

ـ من الضروري أن نستشير الملك. ـ قال أخيرا «ألفونسو» ـ وليكن لقاؤنا في الحدود بعد ثلاثة أسابيع. وسأحضر شخصيا حاملا جواب سيدي ووالدي.

عاود المرضُ «فرناندو الثالثَ» وهو بـ «برغش»، فأقعدة مرة أخرى الفراش، وألزمه غرفته، وهو ما حال بينه وبين ترأس الحملة الأولى على الأندلس بعد انتهاء الهدنات بين «قشتالة» ومسلمي الأندلس. وبذلك تكفل «ألفونسو» بالهجوم على «غرناطة» وقد عزم على الحد من غطرسة «ابن الأحمر»، وإرغام أنفه وإذلاله. وهكذا، ومع بداية السنة، انتقل ولي العهد «الإنفانتي» القشتالي إلى «طليطلة» ليتفقد بنفسه وفرة المؤونة، وحال العُدّة. وقد أوقف وصول المبعوثين الأندلسيين الاستعدادات الحربية، غير أن ذلك كان ينبئ بضربة حظ سيفيد منها التاج القشتالي. لأن إخضاع «مرسية» قد يعني مزيدا من الإتاوات والمداخيل، فضلا عن أن الإمارة الإسلامية قد تتحول إلى متراس قُبالةَ «غرناطة» و«أراغون».

بعد أسبوع بقليل عاد رسل «ألفونسو» يحملون تعليمات الملك. وبدا واضحا من التعليمات التي وصلت أن «فرناندو الثالث» يتمتع بنشاط وحيوية كبيرين، وقدرة على الحسم في الأمور. فقد فرض العاهل القشتالي على أمير «مرسية» جزية

سنوية، ومُساعدةً «قشتالة» عسكرياً عند الحاجة، إضافة إلى سيطرة القوات النصرانية على جميع قصبات الإمارة، بما في ذلك قصبة «مرسية»، باعتبار أن هذه القوات هي التي ستضطلع بأمن وسلامة السكان. ولم يكتف «فرناندو» بذلك بل حتم على المرسيين أن يستقبلوا دون أي عرقلة المستوطنين القشتاليين الراغبين في الإقامة بالأراضي التابعة للإمارة الهودية.

كانت هذه جملة الشروط التي أرسل بها العاهل القشتالي «فرناندو الثالث» لابنه «ألفونسو» ليفرضها على المرسيين حينما يلتقي بهم في بلدة «الكرز» الواقعة على الحدود.

في هذا الخضم ارتأى العاهل القشتالي تأخير موعد الحملة على الأندلس حتى تتوضح الأمور بشأن المسألة المرسية. وهكذا، وفي التاريخ المتفق عليه قصد «ألفونسو» البلدة المذكورة.

أصغى مبعوثو الأمير «بهاء الدين بن هود» لشروط قشتالة في سكينة واحترام، ثم بعد انتهاء عرض التكاليف التي على «مرسية» أن تتحملها تبادل الرجال النظرات، ثم خولوا للمتحدث باسمهم أن يضطلع بالجواب.

ـ نقبل جميع هذه الشروط، ـ قال الرجل ـ شريطة أن يحافظ أميرنا، حبيب الله، على وظيفته، وأن يتمتع شعبنا بحرية ممارسة شعائره الدينية، وتقاليده المتوارثة.

ـ فليكن ذلك ـ أجاب الأمير «ألفونسو» على التو.

وبذلك تحولت «مرسية» إلى مملكة تابعة لـ

«قشتالة». وتهيأ «ألفونسو» في الحال للتوجه إلى عاصمة الإمارة الإسلامية على رأس جيشه، ليوطن الجيش، حسب الاتفاق، في القلاع والقصور.

ومنذ ذلك التاريخ توجهت جميع العيون إلى «محمد بن الأحمر»، أهم ملوك الأندلس، الذي لم يكن يتوفر على أي اتفاقية هدنة مع «قشتالة» أو غيرها من الممالك النصرانية، قد تحميه عند الحاجة.

***

**غرناطة Granada. خريف 1243**

كانت «عائشة» لا تزال تحس بحركات عشيقها في أحشائها، وما أعقب ذلك من رعشة كبرى اجتاحتها خلال المضاجعة. كانت الغرفة مضاءة بفانوس زيتي واحد، يرسل نوره الضعيف، فيشحذ ظليهما مرة، ويؤشر على ملامحهما مرة أخرى. انحنى «كمال» على بطن «عائشة» ثم قبله في لطف.

ـ أكيد أنك تنظر إلي باعتباري عجوزا، غير أني ما زلت قادرة على الإنجاب ـ تمتمت، وهي تفكر من جديد في الفارق العمري بينهما ـ ازرع في داخلي بذرتك، وسأمنحك طفلا قويا سليما.

ـ لقد فقدت التفكير السليم يا «عائشة» ـ علق، ثم عاد لتقبيلها ثانية ـ أحبك، لكن صاحب هذا البطن هو الأمير. أجاب عشيقته وقد استوى واقفا.

ـ لا أحد بالخارج، تمهل قليلا. ـ رجته المرأة.

ـ أن يصبح هذا البرج مكانا للقاءاتنا شأن في غاية الخطورة خاصة إذا كان أمرنا يترك لتقلبات الحظ. ـ تطلع إليها، ثم تنهد من جديد.

ـ أنت نقيب الحرس الأميري. وإذا حصل أن حضر أحد سأقول له بأني أدخلتك غرفتي لأني سمعت صوتا أخافني.

ـ طبعا، وأنا سأؤكد له ذلك بينما أكون ألبس ملابسي. ـ أضاف «كمال» في تهكم .. نخاطر كثيرا، ولنترك الأمر الآن هكذا، علي بالعودة إلى مكان حراستي.

ـ اكتفت «عائشة» بالتحديق في عشيقها وهو يرتب الدرع الجليدي الذي ارتداه فوق الجلباب.

ـ متى ستغادرون؟

ـ خلال يومين ـ أجاب النقيب. وكان «محمد بن الأحمر» قد خطط لهجوم على فحوص «أندوجر»، و«مرتش»، ليخفف الضغط الذي كان يمارسه القشتاليون على «أرجونة». وكان الجواسيس المنبثون في أراضي العدو قد أكدوا أن «فرناندو الثالث» يستعد لشن حملة على المملكة النصرية. غير أن «ابن الأحمر» قرر بذكائه أن يسبق القشتالي في حركته.

ـ أحبك ـ قالت المرأة وعيناها تلمعان من التأثر .. واحترس، وعد إلي كاملا.

تعانق الحبيبان في لطف، قبل أن يطبع «كمال» على شفتي «عائشة» قبلة، وهو يداعب شعرها.

ـ ينبغي أن يحضر أكثر من جيش بكامله حتى

أفارقك .. نطق هذه العبارة قبل أن يخرج من الغرفة.

***

عسكر معظم الجيش في «فحص غرناطة»، قريبا من الطرف الجنوبي من سور المدينة. وكانت فصيلة الفرسان الصغيرة التي ترافق «النصري» قد أسرجت خيولها المطهمة بأحسن زينتها، وازدهى رجالها بألوان أحزمتهم الملونة، ولباسهم الموشى. كان «ابن الأحمر» يلبس درعه بالكامل، ويعتمر خُوذةً مخروطية الشكل أمر أن ينقش عليها شعار «ولا غالب إلا الله». كان يشعر أن هذا الشعار يعكس في صدق روحه، بالرغم من أنه بعد وفاة الخليفة الموحدي «الرشيد»، قرر الأمير أن يخضع من جديد للحفصيين.

خرج مئات من الغرناطيين وهم يهللون لأميرهم، ويهتفون باسمه. كان «النصري» وقتها قد مر على وجوده بـ «غرناطة» أكثرُ من خمسة أعوام، أنشأ خلالها أعمالا جليلة ليُناسبَ المدينةَ مع دورها الجديد كعاصمة للأمارة النصرية. فكان أن أمر بإدخال تحسينات على الطرق التي كانت تشق «فحص غرناطة»، وشق ترعا وسواقي جديدة تحمل الماء إلى أراضي بعيدة عن المدينة. في نفس الآن، كانت الأسوار الخارجية محط عناية من الأمير من حيث الصيانة والتجديد، إضافة إلى أن المير كان قد أنشأ ثلاثة أبراج جديدة ليؤمن القرى والفلاحين من المغيرين. وبذلك كانت الإمارة تحيا، حقا، مرحلة غير مسبوقة من الازدهار والأمن.

- أحسنت صنعا بأن أتيت به معك. لا أثق كثيرا

في الإشاعات، غير أنه من الأحسن أن تبعده عن دارك حين غيابك. ـ قال «ابن صناديد» لـ «محمد»، وهو يومئ برأسه ناحية «كمال بن هادي»، وكان مستدبرا الرجلين.

تطلع الأمير مستغربا إلى «ابن صناديد». على التو، عرف الجياني أنه تحدث أكثر من اللازم.

ـ وما هي هذه الإشاعات التي تومئ إليها؟

ـ ليس الأمر مهما أيها الأمير؟ ـ صعق «محمد» «ابن صناديد» بنظرة قاسية ـ حسنا... حديث يدور حول «كمال» وزوجتك، أنت تعرف أن الخادمات يعجبهن الحديث عن أشياء لا أساس لها من الصحة.

امتقع محيا الأمير.

ـ أيها الصديق، كن معي صريحا. هل تظن أن للحديث أساسا صحيحا.

ـ سأكون يا «محمد» ـ قال «ابن صناديد» للأمير في ثقة ـ فاقدا لرشدي إن أكدت ذلك، أو نفيت المسألة بالمرة. لا أملك دلائل على ذلك. كل ما في الأمر إشاعات وأقاويل.

ـ نعم. ـ وضع «ابن الأحمر» يده على كتف صديقه ثم أردف ـ غير أنه إذا سمِعتَ الماءَ يَجري، فاعْلَمْ أنه بالقرب يوجد نهر.

منذ تلك اللحظة لم يعد الأمير يهتم بتهاليل شعبه، وهتافاته باسمه، وثبت نظره فقط في ظهر كمال، الذي كان يتقدم الموكب بقامته المديدة، ومظهره المتعالي، وهو راكب فرسه

الكستنائي اللون.

وبعد نهاية العرض، ترأس «محمد» الجيش، وتموضع في المقدمة على رأس الرجال ليقودهم. وهكذا انطلقت السرية من «فحص غرناطة» وقد يَمَّمَت شَطْرَ «أرجونة»، التي سيحولها الأمير إلى قاعدة لعملياته ضد النصراني.

وجد الأمير النصري مدينته التي ولد وترعرع بها كما يذكرها، لم يطرأ عليها أي تغيير. دار «آل نصر» في القصبة لم يعد يسكنها اليوم سوى «كريمة» التي حافظت عليها في حالة ممتازة. وقد استقبلت المرأة، التي ما زالت تبكي وفاة «يوسف»، الأمير استقبال الأم لابنها.

استغل ابن الأحمر إقامته القصيرة بالبلدة ليزور المقبرة. وهناك دعا بالمغفرة والثواب لأحبابه الذين غيبهم الموت، فشعر ببعض القوة والعزم وهو واقف إزاء قبورهم، يذكرهم ويحس بقربهم.

«لقد أَوْفَيْتُ بالنَّذْر الذي نذرتُه على نفسي. وأصبح الآن «آل نصر» على رأس قائمة الأسر في الأندلس» قال «محمد» وهو واقف على قبر والده. وبعد حين ودع الجميع، غير أنه خصص لـ «فرح» وداعا خاص حينما خاطبها في همس قائلا: «إلى لقاء قريب في «غرناطة»».

في الرباط جند عددا من الشباب ليعزز بهم قواته عند القيام بالغارة الأولى ضد «قشتالة». وهكذا غادر «أرجونة» في فجر اليوم الثالث ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان، وخمسمائة من المشاة، توجهوا جميعا ناحية الشمال. وقد عبر

هؤلاء الرجال الجسر الحجري المقيم على «الوادي الكبير» دون أن يَلْقُوا أي مقاومة. ذلك أن فرسان «أندوجر» وقد أدركوا قلة عددهم مقارنة بقوات النصري فضلوا الاحتماء بجدران مدينتهم وأسوارها، في انتظار أن ينتهي الأندلسيون من نسف الزروع وتدمير الحقول، ويعودون أدراجهم. وهو ما لم يُقَصِّر فيه «محمد بن الأحمر»، حيث قاد جيشَه إلى نواحي البلدة، وأطلقَ العنانَ لرجاله ليمارسوا السرقة، والحرق، وسلب الحقول ونهبها.

ـ لو كان الشيخ «أشقيلولة» حيا لقال: الآن نحن أصحاب الامتياز، لأننا أول من بادر إلى القيام بالضربة الأولى. ـ علق الأمير مخاطبا «ابن صناديد».

سمع القائد الجياني تعليق «ابن الأحمر»، دون أن يفته، وقد رأى نظرة النصري وهو ينطق بعبارته، أن الجرح الذي سببته وفاة «أشقيلولة» في نفس الأمير ما زال ينزف.

***

**«أندوجر Andujar». خريف 1243**

ـ أيها «الموروس» الملاعين. قريبا سنعيد إليكم الضرية. ـ غمغم من بين أسنانه «مرتين فرناندث البرغشي» وهو يتأمل من فوق الأسوار كيف أن قوات العدو تنهب الحقول القريبة من النهر.

ـ أتوا مع ملكهم. ـ أخبره أحد الشبان الرَّباحيين.

ـ «ابن الأحمر»؟

ـ أجل.

ما إن سمع الجواب بالإيجاب، حتى استدار «مرتين»، وتوجه توا إلى الاصطبلات. كان قد مر عليه وقت طويل وهو ينتظر هذه اللحظة. كان هاجس لقائه بـ «ابن الأحمر» يلاحقه منذ زمن طويل وبشكل دائم، لحد أنه أصبح وسواسا يسكنه ليل نهار، بوصف هذا الأمير سبب الويلات التي لحقت به وبأسرته. والآن وقد أصبح هذا العدو قريبا منه غمرته رغبة شديدة لمنازلته.

كان هذا التوق الشديد للثأر من «ابن الأحمر»، الذي سكن الفارس النصراني ليثأر لمقتل عمه على يد الأمير المسلم، ولما سببه الفارس المسلم «لمرتين» ذاته من هزائم، وراء ما قام به «البرغشي» من عمل غريب وصفه الجميع في «أندوجر» بالأرعن، وعلامة على جنون الرجل. ذلك أن الفارس الراهب تقدم إلى باب النهر وطلب من الحراس فتحه. أمام ما أصاب الحراس من ارتياب أرسلوا في طلب النقيب.

ـ أمام معركة لا شك في أنها ستكون خاسرة، لن أخاطر برجالي بالزج بهم في أتونها، ـ قال «مرتين» بصوت حازم قاطع ـ غير أن لدي مسألة شخصية أريد تصفيتها مع «المورو». لدي الحق في أن أطلبه للمبارزة. ولا أحد سيمنعني من ذلك.

حدق النقيب في «مرتين»، ثم قال:

ـ هل أنت حر، وتتحمل مسؤولية ما تقوم به من أفعال؟ ـ سأل النقيب «مرتين».

ـ أجل.

ـ أنتم شهود على أني أنفذ أمرا. ـ قال الرجل لحراسه، ثم أردف:

ـ افتحوا الباب!

في الحال قصد الفارس، وهو يعدو عدوا خفيفا، النصريين الذين كانوا قد انتهوا من تخريب الحقول والبساتين. اقترب منهم ويده عالية في الهواء، وهو يطلب التفاوض، فسمحوا له في الوصول إلى مسافة بضع خطوات منهم. أثناء ذلك، كانت أسوار بلدة «أندوجر» قد أخذت تمتلئ بالفضوليين.

ـ أريد أن أتحدث مع «ابن الأحمر» الغرناطي! ـ صرخ «مرتين».

تقدم «ابن الأحمر» وقال:

ـ أنا أمير «غرناطة»، و«جيان»، و«أرجونة»، و«مالقة»، و«ألمرية». ـ قدم نفسه باللغة الرومانثية.

على الإثر تعرف الفاس الرباحي على صوت «ابن الأحمر»، وعينيه الخضراوين كالزمرد.

ـ أتحداك في مبارزة بالسيف. ـ قال «مرتين» دون أن ينزل يده.

على الإثر سمعت حول الفارس النصراني الضحكات وعبارات السخرية. كانت العادة أن كل مقاتل له الحق في أن يتحدى عدوا ويطلب منه المبارزة. غير أن المطلوب للمبارزة لم يكن مجبرا على قبول التحدي. في تلك الظروف لم يكن ليقبل بذلك إلا مجنون.

ـ عد إلى مكانك خلف الأسوار ـ أجاب الأمير، ثم أَدْبَر، وجعل «مرتين» وراءه.

ـ قتلت عمي في «برج الحمة» Baños de la Encina! وغلبتني عند أسوار «أرجونة»!

استدار «محمد» نحو فارس قلعة رباح في اهتمام. فقد ذكر كلا الواقعتين بوضوح تام.

ـ أيها الفارس الرباحي لن يكون هذا يومك للأخذ بالثأر. ـ كان الأمير يعرف أنه لن ينزل إلى مستوى مبارزة فارس بسيط، لأن ذلك سيمتعض منه رجاله، وسيسيء إليهم.

ـ إذن انتقم أنت لأخيك «فرج»، وخذ بثأره، فأنا من قتله!

شعر النصري بوَخْزَةِ ألم في صدره. فامتقع لونه، واحتقن وجهه من شدة الغضب. سعى «ابن صناديد» إلى التوسط، غير أنه علم بعدم جدوى ذلك. فقد عرف عن النصريين الطبع الحاد، والغضب السريع إذا استُفزوا ومُست كرامتُهم، واستعدادهم للمخاطرة بكل شيء في قضايا الشرف.

ترجل «محمد»، ثم سار في هدوء وتؤدة نحو الفارس النصراني، في ذات الوقت كان ينتضي سيفه، ويشهره في وجه غريمه وهو ينتفض من بغضه.

ـ ها أنا أمامك، فتمتع بالمبارزة. ـ تحركت الصفوف داخل الجيش النصري لما أصابها من قلق ـ لا أريد تدخل أحَدٍ! فقد قبلت التحدي.

وقف الأندلسيون جامدين كالصخر، وقد بلغت قلوبهم الحناجر، خشية الأسوأ. تنهد «ابن صناديد»، وأخذ يتلو بعض الأدعية في صمت، يلتمس من اللّٰه تعالى أن يحمي الأمير من حُمَيَّا النِّزال وسَوْراتِه.

في الآن نفسه ترجل «مرتين»، ثم أخرج سيفه من غمده، ووقف قبالة الأمير، راح الرجلان كلاهما ينظر إلى صاحبه في صمت. حولهما تحلق خلق كثير من الرجال. فوق الدرع وواقيتي الساعدين المعدنيتين، تزين فارس «قلعة رباح» ببرنوسه المعتاد، في حين وضع تحت خُوَذتِه عَمْرَةً من زَرَد لحماية رأسه، مرر عليها نطاقا على مستوى الجبهة تعزيزا للوقاية. أما «محمد» فاكتفى بشد وسطه بحزامه القِرمزي المميز، وضعه كعادته على «اللوريغون». وكان سيفا الفارسين متشابهين، خفيفين وبمقبضين صغيرين. ولم يستخدم كلا الرجلين التُّرْس.

- ستلقى الموت الذي تستحقه - قال الأمير وهو يشد على أسنانه.

لم يغير «مرتين» من تعبيره السابق المحمل بغضا وحنقا، واكتفى بترديده:

- لنصف الحساب اليوم، وهنا.

كان الرباحي أول من خطا الخطوة الأولى في المبارزة بضربة من سيفه نحو بطن غريمه الذي قفز بمهارة نحو الوراء، فتمكن من تفادي ضربة الحسام. عاد كل من المقاتلين إلى وضعه الأول، وأخذا يتبادلان النظرات، ويلاحظ الواحد منهما

الطرف الآخر بإمعان، وهما يُقوِّمان الوضع، والخيارات المتاحة. كانت عينا «محمد» محمرتين، وهو يحس بعروق عنقه تنبض بقوة، ذكر أخاه القتيل، وجسده الممزق بسلاح عدوه، ووجهه الساكن، وسيلان الدم على مَقْرِنِ شفتيه، فاجتاحته سورة من الغضب الشديد، وحمل على الرباحي في اندفاع كما لو كان به مَسٌّ.

- فرج! - صاح بصوت عال وهو يوجه أول ضربة لرأس «مرتين».

غير أن الرباحي قَدِرَ على صد الضربة بسيفه الذي ارْتَجَّ في يده من وقع الصدمة. ولم يكن النصراني ليتهيأ للقيام بهجوم مضاد حتى كان قد استقبل الضربة الثانية، موجهة من جديد إلى رأسه. لكنه تمكن ثانية من صدها. هذه المرة اختلجت يد الرباحي إلى حد الوهن بفعل قسوة الضربة التي وجهها الأمير إليه. فما كان من «مرتين» سوى أن يتقهقر إلى الوراء سريعا، ويأخذ وضع الدفاع.

حينها أرسل «محمد» ضربة ثالثة بحسامه، هذه المرة نحو خاصرة غريمه، عاجله بها على حين غرة، فلحق السيف هدفه. سُمع صوتُ تَكسُّرِ أحدِ العظام في جسم النصراني، ورنينُ بعضِ الحلقات الحديدية المكونة للدِّرْع وهي تتقطع بفعل قوة الضربة. على التو اصطبغ البرنوس بلون الدم الأحمر من الجهة المصابة. أطلق «مرتين» صيحة ألم، لكنه حافظ على توازنه وظل واقفا، وقتها حمل عليه «ابن الأحمر» من جديد، فاستطاع الفارس الرباحي من صد اندفاع العدو، غير أنه أمام قوة «النصري» سقط السلاح من يده.

ـ ولا غالب إلا الله ـ قال أحد الجنود المسلمين.

ـ أجْهِزْ علي بسرعة ـ طلب فارس «قلعة رباح» من عدوه، بعد أن فقد سلاحه، وزادت معاناته من جرحه.

لم يَنْبِسْ «محمد» بِبِنتِ شَفَة، فقط رفع سيفه إلى أعلى ثم نزل به على رأس الجريح المحمي بغَفْرةِ الزّرَد، فسمعت على الإثر طقطقةٌ، سقط على إثرها الفارس النصراني أرضا وهو يقاسي من تشنجات الاحتضار.

ـ «رُويْ» ـ بدا للأمير كأنه سمع المحتضر ينطق بهذا الاسم... بعد ذلك لم يتبق من كل هذا النزال بين الفارسين سوى صمت ثقيل مسح النصري خلاله الدم من سيفه، وأرجعه إلى غمده.

وقتها ضج المكان بصياح الجند وهم يهتفون «مولانا»، «مولانا»، كأنهم يجددون البيعة لـ «ابن الأحمر» أميرا على الأندلس باسم الشعب الأندلسي.

استمر إتلاف الحقول ونسف الزروع بضواحي «أندوجر» لعدة أيام أخرى. ثم جاءت النوبة لـ «مرتُش» حيث تمكن «محمد بن الأحمر» من الانتصار على المسيحيين في معركة ميدانية شهدتها إحدى النواحي بها.

وبذلك وفي أقل من أسبوعين عاد الأمير الغرناطي إلى عاصمته يحفه النصر والظفر، ويحمل معه الغنائم العظيمة. غير أن أكبر مكافأة حازها الأمير كانت هي أخذه بثأر أحب إخوانه إليه المغدور «فرج».

***

أرجونة **Arjona**. ربيع **1244**

ـ ليبارك الرب في ملكنا! ـ هتف الناس في «أندوجر» مهللين لـ «فرناندو الثالث».

لم يكن أمام العاهل القشتالي أمام حركة «النصري» وشدة شكيمته، سوى النهوض سريعا لتدارك الموقف، فقد كان للغارات التي قام بها «ابن الأحمر» في «أندوجر» وفي «مرتش» وقع شديد على «قشتالة»، وهو ما تطلب جوابا حاسما من الجانب القشتالي، لاسيما حينما هَزَمَ الأمير الأندلسي أخا غير شرعي لـ «فرناندو الثالث»، هو «ضون ردريجو ألونسو»، في معركة قرب «مَرْتُشْ»، وقَتَلَ عددا كبيرا من القشتاليين [وممن كان معهم من فرسان رهبانية «شنت ياقب» **Caballeros de la Orden de Santiago**]. إضافة إلى مصرع رئيس «رهبانية قلعة رباح» بالمدينة ذاتها،ومقتل زعيم رباحي آخر هو «مرتين فرناندث دي برغش» في مبارزة قرب «أندوجر». أمام كل هذه الأحداث الخطيرة التي كان لها أعمق وقع في قشتالة، عزم «فرناندو الثالث»، وهو تحت تأثير انفعال شديد أن يخترق حدود الأندلس، ليلقن المسلمين الدروس. فكان أول ما قام به هو اجتياح حقول «أرجونة»، فنسف زروعها، وخرب حقولها. بعد ذلك توجه إلى الأراضي التابعة إلى «جيان» و«القبذاق» **Alcaudete**، ومن هناك، بعث بالْأَنْدُوجَريين مرة ثانية لحصار «أرجونة».

وكانت أَرْجونةُ ذاتَ مغزى خاص بالنسبة للإمارة النصرية، باعتبارها مثوى أسرة بني نصر، والبلدة

التي رأى فيها الأمير «محمد بن الأحمر النصري» النور لأول مرة. ومن ثمة، لم يتوان الأندُوجَريون عن القيام بالمهمة خير قيام، حيث بدأوا بقطع جميع الطرق المؤدية للمدينة، حتى إذا وصل العاهل القشتالي، بعد يومين فقط، تقوى الحصار، وبلغ مداه.

وكانت «مرسية» قد خضعت لسيادة «قشتالة»، غير أنها، مع ذلك، كانت في حاجة إلى المتابعة والرقابة. وحتى لا يترك الملك «فرناندو الثالث» تلك الجبهة مهملة، أرسل ابنَه «ألفونسو» إليها، وهو مصاحبٌ بقوة من الجيش. وكان الأمير قد كُلِّف من قِبلِ أبيه بمهمة التفاوض مع «خايمي الأول»، ملك «أراغون»، حول الحدود التي تفصل بين المملكتين. وقد توصل الطرفان إلى اتفاق جعل من منطقة «البِئَار» [Biar بـ «لقنت»]، الحد الفاصل بينهما. وعملا بنصيحة من أبيه، مكث «ألفونسو» بـ «مُرْسيَة» فترة يتأهب لقيادة حملته الأولى في إطار حرب «الاسترداد». وقد وُجِّهت تلك الحملة ضد بلديتي «مُولَة» Mula و«لورقة» التابعتين لمملكة «مرسية»، وذلك بعد أن رفضتا الخضوع لسلطة «قشتالة». أثناء ذلك كان «فرناندو الثالث» يهيء نفسه، ويحشد كل قواه لمعاقبة «ابن الأحمر» لجراءته.

في هذا الخضم نصبت خيمة الملك وسط معسكر الأندوجَريين، في منطقة محفوفة بالبساتين والحقول التي تمتد قريبا من أسوار «أرجونة». وكان العاهل القشتالي قد أخذ قراره الأول، بعد اجتماعه بمجلس مستشاريه، بمهاجمة

حصن كان يستعمله الأهالي مركزا للتدريب العسكري خارج البلدة. وقد أبدى الأندلسيون المرابطون بالرباط مقاومة كبيرة ضد هجوم قوات «قشتالة»، وانتهى الأمر، بعد مذبحة فظيعة، بسقوط الحصن وإحراقه. وكان هذا الحصن يعرف عند أندلسيي المنطقة بـ «الرباط».

ـ لن ينعمَ المحمديون بالسلام إلا بعد استسلامهم أو قتلهم. ـ قال «فرناندو الثالث» للمقربين إليه من رجال حاشيته.

أحاطت القوات النصرانية بـ «أرجونة» من ثلاث جهات، في كل منها أقيمُ معسكر قائم بذاته، كما لو أن هذه المعسكرات صقورٌ ثلاثةٌ تتأهَّبُ للانقضاضِ على فريستها بعد أن أحاطت بها من كل جانب. في المعسكر الرئيس، وأمام أنظار الأرجونيين، شرع المهندسون في بناء آلات الحصار. وبدا أن سقوط المدينة أصبح مسألة وقت، لأن الآلات ستفتح، حتما، ثلمات في الأسوار، ومن ثمة، سيفرض النصارى أنفسهم على الوضع، نظرا لتفوقهم العددي الكبير.

وجد حاكمَ «أرجونة» نفسه مجبرا على مفاوضة القشتاليين لتسليم المدينة قبل أن يستولي عليها «فرناندو الثالث» بالقوة. [وهكذا سلم الأهالي بالأمان مدينتهم في اليوم الثالث من الحصار بعد أن أيقنوا أن لا أمل لهم في الصمود، وغادروها حاملين أمتعتهم وأغراضهم]، وإذا بالطرق الأندلسية تشهد مرة أخرى القوافل الحزينة من المهاجرين وهم يبحثون عن مواطن جديدة صديقة يقطنون بها. فكان أن عَمَرَ أغلب

الأرجونيين مدينة «جيان»، حتى اضطر حاكمها إلى نصب معسكر مؤقت خارج الأسوار، لاستقبال النازحين الجدد.

أثناء ذلك استولى «فرناندو الثالث» على القصبة، ثم رفع الجند لواءه المظفر على أعلى برج بها، ليرفرف عاليا منصورا.

ـ سيدي ـ قال نقيب للعاهل القشتالي ـ يؤكد أحد «الموروس» قَبَضْنَا عليه في الرباط، بأن هذه الإقامة كانت دار «ابن الأحمر».

ـ وهل كان بالدار أحد، حين اقتحامكم لها؟

ـ وجدنا امرأة متقدمة في السن. لكنها كانت ميتة. ذكر الأطباء أنها ماتت بسبب أزمة في القلب.

ـ تأمل «فرناندو» الدار الكبيرة ثم ابتسم.

ـ هذا سيؤلم الملك «المورو»، ويرغم أنفه حتى يعرف حق المعرفة من هو سيده الحقيقي.

وكان الملك القشتالي، بعد أن تعافى، وشفي تماما من مرضه، قد أصر في عناد على مواصلة الحرب ضد الكفار المسلمين. وكانت رؤيته لـ «جيان» في منامه ما زالت تعاوده في لياليه، والآن وقد ملك «أرجونة»، أخذ يشعر بأن الرب سيمهد له السبيل مرة أخرى لتحقيق هذه المأثرة العظيمة المتمثلة في فتح «جيان» لـ «قشتالة».

***

غرناطة Granada. ربيع 1244

فتح الحراس باب «إلبيرة» لتفسح المجال للناجين من بقايا القوات النصرية. وكان «النصري» قد خاض على رأس هذه القوات معركة في «فحص غرناطة» ضد المسيحيين بنية طردهم منه.

- اللعنة على الطاغية النصراني! - صرخ «محمد» حين وصوله القصبة.

صعد النصري إلى الطابق الأعلى من البرج الكبير في مُرَكَّبِ الحمراء، فتبدت أمام ناظريه [الغوطة الغرناطية بكل تفاصيلها، بسيطا شاسعا أخضر] وأخذ يتطلع إلى آثار المعركة التي دارت رحاها بهذا المكان الواطئ الفسيح.

شعر محمد بن الأحمر بفورة غضب شديدة تسري في عروقه، وهو يشاهد أعمدة الدخان السوداء تتصاعد من هنا وهناك متراقصة في السماء، كأنها تشي بالدمار الذي حل بمرج العاصمة. وكان الأمير قد أضاع، قبل ذلك، المدينة التي شهدت مَسْقِط رأسه «أرجونة»، وثلاث قلاع أخرى قريبة منها، وها هو الآن يرى القوات القشتالية تحت إمرة الأمير «ألفونسو» تلح في مطاردته بمرج عاصمته.

وكان الملك «فرناندو الثالث» قد جمع قواته وبعث بها إلى المرج المذكور، وجعل يخرب البساتين، وينسف الزروع، قبل أن يقبل على هدم الأبراج، وحرق القُرى، حتى تمكن أخيرا من جر «النصري» إلى معركة ميدانية.

لكن الأمير ورجاله ما لبثوا أن عادوا إلى العاصمة متألمين مهيضي الجناح، وقد هزمتهم الألوية

القشتالية، فلم يعد لديهم من خيار آخر، أمام عجزهم عن مواصلة القتال ضد المسيحيين، سوى الصعود إلى أبراج «غرناطة» وأسوارها ومشاهدة القشتاليين، وهم يعيثون فسادا في أراضي المسلمين، ينهبون ويسلبون على هواهم.

بدا واضحا لـ «ابن الأحمر» أن ترك الأمور على هذه الحال، تحت رحمة القشتاليين سَيُودِي لا محالة باقتصاد إمارته، ففكر في حيلة ماهرة للخروج من الورطة. كان الأمير قد عقد صفقة مع المرتزقة الأفارقة(42) في الشهور الأخيرة، فارتأى بنظره الذكي أن الوضع الذي أصبح يتخبط فيه جراء الاستقواء القشتالي، هو فرصته لاستخدام تلك القوات لإنقاذ إمارته. فأسرع في عصر اليوم ذاته، إلى الاجتماع بوزيره «ابن صناديد».

- نحن بحاجة إلى انصراف هؤلاء، ومغادرتهم لأراضينا، غير أننا عاجزون عن طردهم - بدأ حديثه مع وزيره - لذلك فكرت في خدعة سأخرجهم بها من أراضينا سريعا. استدع «الجزوليين»، وقل لهم بأن يزحفوا نحو قلعة «مرتش».

- مولانا، لكننا لا نملك القوات الكافية لنسيطر على البلدة.

- ليس من الضروري الاستيلاء عليها، يكفي أن نقيم معسكرا قبالة أبوابها. اُحْشُدْ أكبرَ عدد من الرجال، وادْفَعْ بهم إلى القلعة، كما لو أنهم جاؤوا للسيطرة عليها، وسترى الطاغية يترك مرج غرناطة ويُغادر إلى هناك سريعا، وهو ما سيُخَفف

عنا، فنجد فسحة نستَرجِعُ خلالها الأنفاس.

- يبدو لي أنها خطة جيدة. سأقوم بتنفيذها حالا بعونه تعالى. - على الإثر انصرف «ابن صناديد» ليجتمع بمن يثق فيهم من رجاله.

انسحب الأمير إلى برجه ليأخذ قسطا من الراحة. في حين كانت «عائشة» و«مريم» تلهيان الصغير «محمد» بالصحن الكبير... وبينما كان «كمال» يؤدي واجبه في الحراسة واقفا في مكانه المعتاد أمام المرأتين، مر الأمير، وكان قد غادر مخدعه وهم بزيارة «دنيا»، فلمح «كمال» يتطلع إلى «عائشة».

تذكر «محمد» الشائعات التي راجت بالقصر. وكان قد تناساها لأنه لم يصدقها، وإن كان الشك قد أُزرع في قلبه. لم يتوقف «محمد»، وإنما واصل سيره إلى الغرفة التي كانت قد عينت لـ «دنيا»، وهناك، وقف قبالة حبيبته والحزن مرسوم على محياه.

- ما زالوا بالفحص. لقد هزمونا. - قال الأمير لـ «دنيا».

كان «ابن الأحمر» لا يزال يرتدي درعه. فقامت «دنيا» وأخذت تنزعه عنه، بينما مد هو ذراعيه تاركا إياها تقوم بعملها. كانت العَمرة و«الغامبزون» ما زالا مبللين بالعرق. أخذت المرأة خرقة مبللة بالماء، وجعلت تنظف أطراف الأمير المنهكة.

- لا أستطيع التوقف عن التفكير في «أرجونة»، لم أصدق بعد أنهم أخذوها مني. - واصل «محمد» بنبرة أسى، في حين تابعت «دنيا»

عملها في تنظيف جسم حبيبها الذي بدأت تظهر عليه علامات التقدم في السن. ـ قريبا ستوضع الأجراس في مئذنة المسجد الجامع، وسيستخدمون شواهد القبور في بناء الكنائس والأديرة. هناك بقي والِدَي، وأخويَّ، وبعضَ أصدقائي الأوفياء... و«فرح» بجسمها الكامل وهو يتحلل تحت الكفن.

ظنت المرأة أن «محمدا» سينفجر باكيا. فألقت الخرقة من يدها، وتعرت أمامه مُبدية مفاتنها المصقولة، وبشرتها الرطبة الرقيقة.

ـ ها هو جسم «فرح» أمامك، فافعل به ما تشاء. ـ استلقت «دنيا» على الفراش وفتحت ساقيها، في دعوة للاقتراب منها.

لم يتمكن الأمير من المقاومة، واستجاب للدعوة مبادرا ودودا. فقد غدت «دنيا»، بالنسبة إليه، الشمعةَ التي تنير لحظاته المعتمة، ودفَّةَ السفينة التي يشد عليها بقوة حتى لا يَفْقِدَ التحكم في سيرها، إنها البحيرة ذات المياه الساكنة الوديعة التي يغوص في غَمْرِهَا كلما أراد نسيان همومه.

***

كان «ابن الأحمر» في منتهى السعادة وصفاء المزاج، حينما غادر مجلسه الجديد، وهو يعزم على استدعاء «كمال». كان قبيل ذلك بقليل قد صرف رسولا يحمل النبأ السعيد بأن «فرناندو الثالث» عاد إلى «قرطبة». وكان الملك القشتالي قد غادر لينجد «مرتش» بعد أن حاصرها الجزوليون. غير أنه

حين وصوله إلى البلدة وجد الأفارقة المرتزقة قد انصرفوا عن المدينة، وتركوا حصارها. فلم يفت العاهل النصراني أن القضية لم تعْدُ أن تكون مناورة إلهاء، حيكت بمهارة في «غرناطة». لكنه، مع ذلك، اعتبر الحملة قد أنهت مهماتها، وحققت المرجو منها، مكتفيا بتملك «أرجونة» ونهب «مرج غرناطة».

غير أن «ابن الأحمر» كانت له دواعي أخرى ليكون راضيا مسرورا. ذلك أنه في صباح أمس وصلت إلى «غرناطة» سفارة من الحفصيين، جوابا على دعاء «النصري» لهم في منابر إمارته، واختياره أن يستظل بدعوتهم. وقد حملت السفارة بعض الهدايا والأموال لمساعدة الإمارة الغرناطية في حربها ضد المسيحيين. وقد بدا لـ «النصري» أن يخصص قسطا مهما من تلك الأموال لتوسعة المسجد الأعظم بـ «غرناطة»، بعد أن أصبح لا يفي بحاجات العاصمة المأهولة.

مثُلَ «كمال» بين يدي الأمير يرتدي جلبابا بسيطا من الكتّان أخضر اللون. أمسك «ابن الأحمر» الشاب من ذراعه ودعاه إلى التمشي برفقته عبر الحمراء. صعد الرجلان إلى البرج الغربي وقد انتصب ضخما هائلا وهو يطل على المدينة. كانت الأشغال به قد أوشكت على النهاية، وإن كان بعض العمال الواقفين على إحدى السِّقالات ما زالوا منهمكين في تلبيس البناية الضخمة. من هناك انتقل الأمير والنقيب إلى السطح، المكان المفضل لـ «النصري»، ومن هناك أخذا يتمتعان بالمناظر البهيجة لفحص المدينة، [بسيطها الفسيح الكثير

الخصب].

ـ «كمال»، لا يَمُرُّ عليَّ يومٌ دون أن أَذْكرَ والدَك، صديقي الوفي. ـ بدأ «محمد» حديثه ـ لو قيد له أن يعيش أكثر لكان من أعظم وزراء الإمارة. ـ أنهى العبارة وهو ينظر إلى السماء في حنين ـ هناك، في الجنة، لا بد وأن يكون مزهوا بابنه.

ـ شكرا، يا مولانا، ذاك ما أرتجيه. ـ أجاب الشاب دون أن يرفع نظره عن شبكة الأزقة والشوارع التي تشق المدينة.

ـ وكنت قد وعدت المرحوم والدك برعايتك، والسهر على تربيتك، غير أنك وصلت إلى ما وصلت إليه بما تتوفر عليه من مؤهلات. والآن حان الوقت لمكافأتك.

ـ ليس ضروريا أن تجازيني على وفائي، يا سيدي ـ أجاب «كمال» بصدق.

ـ قليلة هي الأشياء الضرورية في هذه الحياة، يا فتى. لكن هذه المجازاة مناسبة. سأعَيِّنُك قائد قصبة «جيان». بعد يومين ستغادر صحبة فصيلة من الجند، وعدد من الكتاب الذين ستحتاج إليهم في حكمك.

ذُهِلَ كمال، وعجز للحظة عن الجواب، قبل أن يستعيد ثباته.

ـ سيكون شرفا لي. أشكر الأمير على ثقته في شخصي، وأرجو أن أكون عند حسن الظن، وفي مستوى المسؤولية. ـ أجاب النقيب وهو يصارع من أجل أن يخفي الألم عن صوته، وقد مر بفكره أنه سيبتعد عن حبيبته «عائشة».

***

**«قرطبة» Córdoba. خريف 1244**

كان اليوم عاصفا ممطرا، غير أنه بالرغم من الأمطار والرياح، وقفت عند باب المدينة زمرة من الأعيان والأشراف في انتظار الأمير «ألفونسو» شقيق الملك.

وما أن وصل الأمير حتى حف به المستقبلون وسار موكب الجميع إلى قصر الملك.

ـ حدثني عن «برغش»، يا أخي. ـ طلب «فرناندو» من أخيه بعد السلام عليه.

ـ كل شيء يسير على ما يرام، وحسب المطلوب، وقد مارست القضاء باسمك. وقد كان عدد من القضايا التي عرضت علي وقمت بالبَتِّ فيها تهُمُّ شخصياتٍ قشتاليةً نافذةً جاهاً وثَراء. وقد وُفقت في معالجتها على أحسن وجه.

ـ والوالدة تركتك تقوم بعملك دون تدخل منها؟ ـ سأل الملك مظهرا مفاجأته.

ـ الوالدة بدأت تذبل، يا «فرناندو». ـ أجاب وابتسامة صغيرة مرسومة على وجهه. ـ لم تعد ما كانته في الماضي، لا تمر السنوات سُدًى. بالكاد غدت تخرج من «لاس ويلگاس»، وتقضي أيامها تصلي أمام قبور الأسرة.

بدا القلق على الملك. ومرت في خاطره سريعا شريط من ذكريات الطفولة وهو محمي بحب أمه اللامحدود، وسنوات الشباب حينما جاهدا معا من أجل المملكة.

- لِيَنشَرحْ وجهك، وابتهج - قال «ألفونسو» بصوت رهيف لأخيه محمسا إياه. - طلبت مني أن أُذكِّرك برسالتك المقدسة، وبتلك الرؤى التي يُريكَهَا الرب في نومك، لتنير طريقك، وترشدك إلى أحسن السبل.

- الوحدة بين المسيحيين. - نطق «فرناندو» وقد علت محياه ابتسامة.

- والموت للكفار المسلمين! - أكمل «ألفونسو» - هل ما زالت تلك الأحلام تنتابك في منامك؟

- منذ ليلتين رأيت في منامي «جيان» مضاءة بصليب وهاج من نار. ورأيت أسوارها تذوب و«الموروس» يفرون عبر الحقول تائهين وهم يتضورون جوعا.

- ماذا تنوي فعله العام القادم؟

نظر «فرناندو» ناحية أخيه بعينين متسعتين غاية الاتساع.

- ألم يتضح الأمر لك بعد؟ سنبدأ بتخريب الحقول وتدمير الغلات مرة أخرى ببسائط «جيان». بعد ذلك... تكون مشيئة الرب.

***

**غرناطة Granada. شتاء 1245**

كان رجال البلاط الغرناطي يتطلعون إلى النساء بوقاحة. وكان بالإمكان قراءة الازدراء في كثير من الوجوه، لكن لم يكن ليجرأ أحد على مناقشة الأمير في قراره. ذلك أن «محمدا الأول» كان قد نظم حفلا بمناسبة نهاية شهر رمضان المقدس.

فأضيئت القاعة بعشرات الثريات المعلقة بكل النواحي. وعلى غير العادة، وفي تعارض مع التقاليد، دعا «ابن الأحمر» للحفل زوجته «عائشة»، وجاريتيه «مريم» و«دنيا».

بدت «عائشة»، وهي منعزلة في ركن، كوردة ذابلة جف عودها. إذ منذ أن غادر عشيقها إلى «جيان»، تغير طبع المرأة، فرأى الكثيرون في ذلك تأكيدا للشكوك التي حامت في «الحمراء» حول علاقتها بـ «كمال». أما «دنيا»، فإنها أبدت عبر حركاتها وإيماءاتها بعض التعالي، ولا غرو، فإن هيئتها ومسلكها، كل أولئك، كان يوحي بأنها المفضلة لدى الأمير. خاصة وأنه لم يكن يفارقها في المجلس. وأما «مريم» فقد قدمت الصورة التقليدية لأحد أعضاء البلاط بما يتسمون به من حذر وقدرة على تدبير الدسائس، فكانت محط احترام الجميع، وملجأ الكثيرين لحل مشاكلهم. فكانت تنظم اللقاءات كما لو أنها قوادة محترفة، وتوفر المواد التي يصعب إيجادها في الأسواق، إضافة إلى أنها كانت على علم بكل ما يقع في البلاط.

- يسعدني أن أراك الليلة - همس «محمد» في أذن «مريم».

تنحت المرأة، ونظرت إليه في احتقار.

- أمازِلْتَ تذكُرني؟ - قالت وقد هدأت - يسعدني ذلك. لا تنْسَ أني من سَلَمَّك لحبيبتك «دنيا». - أمسكت بكأس الخمرة وعَبَّتْ منه عبا طويلا - لعلك تريد لعبة ثلاثية أخرى؟ - أضافت.

ـ لا يا «مريم»، هذه الليلة أريدك أنت وحدك فقط. ـ أجاب وهو يسند يده إلى ذراعها. ـ كم اشتقت إلى ألاعيبك في الفراش.

ـ وهي؟ ألن تشعر بالغيرة؟ ـ أومأت بإشارة من رأسها في اتجاه «دنيا».

ـ لا أظن. إنني أحبها، لكنها تعرف مكانها. ـ مال «محمد» نحو الجارية مقتربا منها. ـ سني حوالي خمسين سنة، ومنذ أن وصلت إلى هذه السن لم أعد أكترث لبعض الأشياء... تلقيت ما يكفي من الضربات حتى أتعلمَ أن لا خير في التعلق بالأشياء أكثر من اللازم.

نظرت «مريم» في عيني «محمد»، فانبثق من جديد ذلك التواصل القديم بين ذينك الروحين اللذين أضناهما الألم.

ـ كنت أظنكَ أكثرَ غفلة.

ـ علمتني السنون بعض الشيء. ـ رشف «محمد» رشفة من الكأس، فعاد به المذاق القوي للشراب إلى سنوات المعاناة في الماضي، وسقوطه في الهاوية.

استمرت الحفلة إلى الفجر. كان خلالها موسيقيان ينشطان المجلس بما يوقعانه من ألحان، في حين كانت إحدى الراقصات تحرك، على إيقاعات الأنغام، ما بمعصميها وكاحليها من خرز، فيزيد ذلك من قوة الإيقاع. وبالرغم من أن الأمير لم يكن قد تخلى عن التقشف الذي طبع حياته طوال سنين عديدة، إلا أنه أصبح يسمح لنفسه، بين الفينة والأخرى، أن يأخذ ببعض مظاهر التحضر

والترف المتبعة في الطبقة المخملية بعاصمته الجديدة.

بغتة، صمتت الموسيقى، ودخل القاعة «يوسف» و«فرج»، أكبرُ أبناء «ابن الأحمر» الذكور، بقامتيهما الطويلة، وبنيتيهما الرشيقة، وشرعا ينشدان قصائد من نظمهما. اضطرب «محمد» في مجلسه. فقد كان يزدري الثقافة والتربية عليها، ويفضل التربية على الدهاء والحيلة، ومبادئ الحرب. كان يعرف ذلك عن تجربة... فجأة، قطع عليه أفكارَه سماعُ بعض الأصوات المحذرة. استنفرت القاعة بأكملها. على الإثر سقطت كأس خمرة على الأرض، وبعدها انهار صاحبها. في الآن ذاته، خَرَّ أرضا رجل آخر وقد أريق حوله ما كان بكأسه من شراب.

- توقفوا عن الشرب! صاح أحد الحاضرين.

عم الارتباك المكان. في الحال هب الحراس من أطراف القاعة وأحاطوا بالأمير وأولاده، وخف الأطباء الحاضرون بالحفل إلى العناية بالساقطين، لكنهم وجدوا أنفسهم عاجزين عن تقديم أي إسعاف، فقد مات الرجلان وهما يقيئان الدم في تشنج واختلاج، والعرق يتصبب منهما.

في خضم ذلك، تمكن بعض الحراس من تعيين موضع الساقية التي كانت تقدم الخمرة للمدعوين. وشرعوا في استنطاقها، وبين فُواق وبكاء، ذكرت بأن إحدى الطباخات سلمتها جرة لتَصُبَّ منها للأمير. لكنها عند ولوجها القاعة، أمرتها المكلفة بأن تسقي، قبل ذلك، الضحيتين اللذين فرغ كأساهما منذ فترة. ومن حسن حظ

الجارية أن المكلفة بالساقيات أكدت قولها. بعد ذلك بقليل، برز حارسان وهما يقودان في سرعة طباخة عجوزا، ألقيا القبض عليها، وهي تحاول الإفلات من الباب المؤدي إلى بيت المؤونة.

ـ إنها هي ـ أشارت الجارية بأصبعها المرتعش نحو العجوز.

***

تتابعت الاستنطاقات حتى السحَر، فألقي القبض على خمسة أشخاص، من بينهم أحد الجند العاملين بالقصبة، ورجل من «لوشة» **Loja** كان مورطا في مؤامرة سابقة ضد الأمير. وسرعان ما أنشأ الأظناء، تحت التعذيب الذي مورس عليهم، يشي الواحد منهم بالآخر، معترفين بالمنسوب إليهم، غير أنهم جميعا أحجموا عن ذكر اسم الرأس المدبر للمؤامرة.

لم تتوقف أصوات المعذين وصَرَخاتُهم طوال الليل، وهو ما عكر صفو النوم على قاطني الحمراء. وفي الساعات الأولى من الصباح استمع الأمير إلى نتائج الاستنطاقات وهو ما زال في غرفته. غير أنه ما لبث أن صرف الكاتب في هدوء ورباطة جأش، وعاد إلى فراشه بجنب «مريم»، وهي تتمطى في بطء.

ـ أصبحت الآن ملكا حقيقيا، يا «محمد». ـ قالت له الجارية ـ ليس هناك أمير لا يتعرض للدسائس والمؤامرات، إن لم أقل الاغتيال. ـ ضحك الرجل ملء شدقيه. كانت هالتان مزرقتان تحيطان بعينيه ـ لو كنت مكانَكِ لراقبت عائلتك. يحدث أن الابنة إذا

كانت نزقة حادة الطبع قد تتآمر على أبيها. تعرف من أعني.

كانت «مريم» تتحدث و«ابن الأحمر» يحدق فيها في صمت. كان يعرف أنها على علم تام بما يجري، غير أنه مع ذلك كان يصعب عليه تصديق ما تقوله. مرت بخلده صورتا «شمس» و«عبد اللّه»، هذا الثنائي الذي يجمع معارضيه الرئيسيين. غير أن الأمير سرعان ما سعى إلى صرف الفكرة عن رأسه.

***

ـ ثلاثة من عيوننا يتفقون على أن العجوز ترددت على دار ابنتك أكثر من مرة. ليس ضرورة أن يعني ذلك شيئا ما، يمكن أن يكون مصادفة، أو، وهو محتمل، أن العجوز كانت تبحث عن معلومات تخصك. ـ أخبر «ابن صناديد» الأمير بهذه التحقيقات بعد مرور ثلاثة أيام على الحادثة.

تنهد «محمد». كان الرجل في صراع بين الغضب والحزن. فأراد أن يتصرف بذكاء، دون أن يثير البلبلة. لم يكن بقادر على استنطاق ابنته أو «عبد اللّه»، غير أنه كان باستطاعته إبعادهما عن البلاط بالبحث عن سبب وجيه.

ـ أريدك في «رُنْدَة» ـ قال الأمير لـ «عبد اللّه» حينما اجتمع به ـ أخوك في «وادي آش» Guadix، بعيد بما يكفي عن «رندة» و«قُمارِشْ». إن أراضي آل «أشقيلولة» في حاجة إلى رئيسين. اذهب بعائلتك إلى هناك، واحكم بالحكمة والعقل. إن المنطقة غنية ومأهولة.

ـ شكرا. ـ كانت الكلمة الوحيدة التي أجاب بها «عبد اللّه».

كان «محمد بن الأحمر» يشعر بالحزن. كان ينتظر من «عبد اللّه» كل شيء، غير أنه لم يتصور ان ابنته، التي هي من صلبه، ورطت نفسها في قضية مثلِ هذه. حقا حينما كانت طفلة لم يعتن بها كما يجب. والحال أنه في تلك السنوات الخالية كان قد أهمل الاعتناء بأولاده كما ينبغي. كان شغله الشاغل وقتها أن يظل عائما فوق الماء وسط العاصفة.

ـ إلهي، هل هذا هو ثمن السلطة؟ الوحدة، والحقد، والموت، والابتعاد عن أقرب الناس إليك... هل أستحق هذا العقاب؟ ربما؟ ـ قال بصوت عال وهو يتطلع إلى السماء. لكنه عاد إلى رشده بعد حين، وطلب العفو من ربه على ما بدر منه من ملامة. وختم قائلا: فلتكن مشيئتك يا رب.

انعزل في مصلاه، وهو يفتقد صحبة «عمر الحسون»، وحضورَه المُسَكِّن، وكونه أحد العديدين الذين ذهبوا.

***

**«قرطبة» Córdoba. ربيع 1245**

تحقق «فرناندو الثالث» مما كان أخوه قد حكاه له عن والدتهما ما إن التقى بها في «پوثويلو دي ضون خيل»، غير أن «برنگيلا»، مع ذلك، كانت ما زالت محافظة على صفاء ذهنها، ونفاذ بصيرتها، وهي تقدم النصح كعادتها لابنها بخصوص الحملة الجديدة.

حينما استقر المقام بالملك مرة أخرى بـ «قرطبة»، شرع في استعداداته لبدء حملته على «الأندلس». كان مجتمعا بولديه «فادريكي» و«إنريكي» لما وصل ابنه البكر «ألفونسو» إلى القصر عائدا مظفرا من حصاره لـ «قرطاجة» التي كانت رفضت الانصياع لحكم «قشتالة» بعد الاتفاق الذي حصل بين أمير «مرسية» والعاهل القشتالي.

كان «ألفونسو» قد تلقى تعليمه منذ الصغر على يد أحسن المعلمين في المملكة، والآن أخذ يتعلم أصول الدبلوماسية وقوانين الحكم في جنوب شرق الجزيرة. كان الأشراف وأعيان «قشتالة» يقولون للملك بشأن الأمير ألفونسو: «سيكون ملكا عظيما». وقريبا سيتزوج بـ «ڤيولاَنْتِي»، ابنة ملك «أراغون» «خايمي الأول»، وبذلك ستتقوى الصلات بين المملكتين القشتالية والأراغونية. لكن الأمير، وحتى يحين وقت الزواج، لم يكن ليتوقف عن مغامراته الغرامية التي أثمرت في السنة الماضية ازدياد طفلة.

ـ لا تتوقف «جيان» عن معاقبة أراضي «مَرْتُشْ» و«بَيَّاسَة». افتتح «فرناندو» حديثه مع أولاده وهم يصغون إليه باهتمام ـ وقد نقل إلينا جواسيسنا أن المدينة تعاني من مجاعة جراء عمليات التخريب التي قمنا بها في حقولهم السنة الماضية. إنهم في حالة يأس، ولا يتوقفون عن مهاجمة قلاعنا، حتى يتزودوا بالمؤن والأقوات. وقد عملت على تقوية الحاميات، وأمرت ببناء أبراج مراقبة في أماكن عدة، لكن ذلك لا يكفي. فإذا كانت «جيان» تعاني حاليا من الجوع، فإنها ستعاني مزيدا من

الجوع مستقبلا. إذ سأقوم من جديد بتدمير باقي الحقول والبساتين، سأنسف الزرع، وأقتلع الشجر.

- أصاحبك في حملتك، يا أبي. - تدخل الأمير «إنريكي».

- في الوقت الحاضر، انتظروني هنا - قاطعه الملك في حزم. أريدكم في قرطبة مع جنودكم، لعلي أحتاجكم لتكونوا بجانبي، أو في أي مكان آخر.

لم يعلق أحد من الأمراء.

- والدي، لا تجتني الفاكهة إلا في أوان نضجها.

وجه «فرناندو» ابتسامة لوارثه قبل أن يجيب:

- يا ولدي، قبل أن تجني الزيتون عليك أن تخبط الشجرة أولا.

أدرك الشبان الثلاثة أن هذه الحملة لن تكون مجرد بعثة للنهب والسب. كان هدف الملك إضعاف «جيان» قبل أن يشرع في افتتاحها.

***

«غرناطة» Granada. صيف 1245

- تجمعوا! - كان يصيح أحد النقباء القشتاليين في يأس، وهو يرى رجاله يتفرقون شَذَرَ مَذَر، فأصبحوا أهدافا سهلة أمام فرقة الفرسان النصريين.

تشتت قوات المؤخرة بقيادة «فرناندو الثالث»، بعد أن داهمهم فرسان «ابن الأحمر». كان وقتها معظم الجيش القشتالي قد ابتعد عن الساقة، وهو في طريقه نحو الشمال، ولم يعد باستطاعته

المناورة لنجدة بني جلدته. وكان الغرناطيون قد تمكنوا من اصطياد هؤلاء التعساء بعد أن أسقطوهم في فخهم، وجعلوهم محط ثأرهم للهزائم التي منوا بها على يد جيش «قشتالة»، فقضوا عليهم، ولم يأخذوا منهم أسرى... كان «ابن الأحمر» يتقدم فرسانه، ويضرب يمينا وشمالا بمِقْمِعتِه، السلاح الذي جعل منه فارسا مهابا في بلدته ومَسقِط رأسه «أرجونة»، فلم يتوقف عن الضرب والطعن حتى ارتوى بدماء النصارى.

وكان الملك القشتالي قد اخترق إمارة «النصري» أسبوعين قبل ذلك، [أواخر سنة 642 هـ ـ عام 1245م] من منطقة «جيان»، فعاث فسادا في بسائطها الخضراء اليانعة، وخرب أغراسها المثمرة. ومع ذلك لقي «فرناندو» بعض المقاومة من أندلسيي المنطقة يتزعمهم «كمال» الذي بَرَّزَ في المعارك ضد القشتاليين، خاصة في حملاته على القلاع النصرانية القريبة من «جيان»، وبدا للجميع أن هذا النقيب الشاب طاقة واعدة لمقدرته الكبيرة على إدارة الحرب والقتال.

من «جيان» وجه «فرناندو الثالث» قواته ضد قلعة بني سعيد [Alcalá de Benzaide، وتعرف أيضا بـ «قلعة يَحْصُب»] فخربت كل ما وجدته في طريقها، ونهبت عددا من القرى الأندلسية. ثم وصل القشتاليون في اجتياحاتهم إلى «إِلْورَة». فاستولوا على الربض، وحملوا على البلدة، فأحرقوا العشرات من الدور السكنية، وقتلوا أعدادا كبيرة من سكانها، وأسروا أعدادا أخرى منهم. فلم يغادروها إلا بعد أن تركوها قاعا

صفصفا لا شيء يتحرك فيها سوى دخان النيران، ورماد الحرائق. ومنها اتجه العاهل القشتالي إلى «فحص غرناطة». وخلال المدة التي قضاها النصراني على رأس قواته يدمر ويخرب، وينهب ويسلب، كان موقف الغرناطيين من كل ذلك موقف المتفرج العاجز، حتى إذا أنهى النصارى نسف الأراضي، وغصْبَ الممتلكات، وأدبروا، حانت لحظة «محمد بن الأحمر» ففاجأ القوات النصرانية المنسحبة من الخلف بهجوم كاسح سريع.

ـ ولا غالب إلا الله! ـ صاح «النصري» وهو يفتت رأس أحد المشاة القشتاليين بمقمعته.

ولكم حاول رجاله أن يدركوه في عدوه نحو العدو، والإحاطة به لتأمين سلامته، لكنه وهو متشوق للمعركة والثأر، كان يتملص من مراقبتهم المرة تلو الأخرى ليقاتل في الصفوف الأولى.

وكانت الهدنات مع «قشتالة» قد مر على انتهائها فترة من الزمن، وهي هدنات عاشت خلالها الإمارة سنوات من السكينة، عرف «ابن الأحمر» كيف يغتنمها لصالح مملكته الفتية. غير أن الحرب اكتسحت الآن أراضيه، تتلف، وتدمر، وتخرب، وهو ما أصبح معه جليا أن «فرناندو الثالث» وجه نظراته نحو النصري، وأصبح شغله الشاغل هو إركاع الأمير، وإرغام أنفه في التراب.

يذكر الأمير أن جده «أشقيلولة» قال له ذات مرة « قشتالة أسد ليس في صالحنا إيقاظه من سباته، إن ابن هود وهو يسعى إلى مقارعة جدار قشتالة لا يفعل أكثر من إضاعة الجهد، لأنه

لن يتغلب عليها أبدا في ميدان المعركة. ينبغي على الأمير أن يكون ماهرا أريبا، وعارفا بأصول التفاوض». وبالرغم من طول العهد على هذه الكلمات فإنها ما فتئت ترن باستمرار في خلد النصري.

- إنهم يقتربون بأعداد كبيرة، جاؤوا لنجدة إخوانهم! - صرخ أحد الفرسان الغرناطيين، وهو يشير إلى عمود من الغبار بدا في الأفق. على الإثر تجمَّع الفرسان النصريون، وخلوا بينهم وبين الفارين من جند المؤخرة في الجيش القشتالي. بعد حين دخل الفرسان الغرناطيون إلى العاصمة دون أن يلقاهم بالترحيب أحد. فقد انتهت الغارة المفاجئة على ساقة النصارى بانتصار جزئي لم يشف غليل الغراطيين، وإن خَفَّف قليلا من الآلام التي انتابت النفوس على إثر الكارثة التي ألحقها القشتاليون بـ «جيَّان» و«قلعة بني سعيد» و«إِلُورا». ومع ذلك سمح هذا العرض القتالي النصري من إيجاد سبيل لإنجاد «جيان» بموكب مؤونة ومِيرة، تمكن من مغادرة «غرناطة» ذلك الصباح إلى «جيان» دون أحداث.

استقبلت «مريم» و«دنيا» الأميرَ بوجهين كَالِحَيْن. كان الرجلُ يَحمل مِقْمَعتَه الملوثة بالدم بإحدى يديه، بينما كانت حُبَيْبَات من العرق تلمع على وجهه جراء معاناة القتال.

- لقد رحلت. ذهبت مع القافلة التي توجهت إلى «جيَّان». - قالت «مريم» بصوت وئيد.

عرف «ابن الأحمر» للتو بأن الجاريتين تحدثانه عن «عائشة». سرت في جسمه قشعريرة، في حين

ثبتت «مريم» نظرتها في عينيه بشراسة، وهي تتحداه أن يتحدث. اقتربت «دنيا» من «محمد» في وُدٍّ، ثم أمسكت بيده الأخرى.

ـ ما زال أمامك الوقت لترسل في طلبها، وتعيدها إلى رشدها. ـ قالت «دنيا». في الحال نظرت إليها «مريم» في احتقار.

ـ لا، ـ أجاب الأمير بصوت قاطع ـ هل اطلع غيركما على الأمر؟

ـ أظن لا أحد غيرنا. ـ قالت «دنيا» ـ وقد تركت رسالة وداع لنا، نحن الاثنتين، فقط.

ـ حسنا، ليستمر الحال هكذا. أقفلا الباب عليكما، واعتزلا الناس لأيام ـ أمسك قبضة المقمعة ثم هزها بعنف لينظفها من الدم. ـ سأذهب أنا شخصيا لإعادتها إلى دارها، عندما يأتي الوقت المناسب.

***

**جيَّان Jaén. صيف 1245**

ـ هذه المرأة تقول إنها هدية للحاكم من الأمير. وقد انضمت إلينا في «غرناطة». وهي تحمل وثيقة مختومة بخاتم «مولانا» أعزه الله. ـ شرح المكلف بالقافلة لأحد النقباء بـ «جيان».

صاحب النقيبُ المرأةَ إلى غاية دار الحاكم. وهي بناية متواضعة ذات أبعاد صغيرة، تقع قريبا من القصر الذي كان يقيم به «ابن الأحمر». كان «كمال بن هادي» في حديث مع الكاتب عند المدخل. استطاع «كمال» التعرف على «عائشة»

من عينيها اللتين كانتا تتطلعان إليه وراء حجاب خفيف. في الحال صرف الحاكمُ مرؤوسَه. كانت المرأة تلبس جلبابا أحمر، يليق بامرأة بسيطة من الشعب، وليس بمن هي في مستوى قَدْرها.

- سيدي، أميرنا، نصره الله، يرسل إليكم هذه الجارية، مكافأة لكم على ما أبديتموه من حسن تبصر، وإقدام خلال الغارات الماضية. - أخبر النقيب رئيسه وهو يقدم له الوثيقة التي تحمل الختم الأميري.

نظر «كمال» ناحية «عائشة»، وسرعان ما تفادت عينيه، وقد طأطأت رأسها علامة استكانة وخضوع. أدت المرأة دورها بإتقان.

أعطى حاكم «جيان» لنفسه مهلة تفكير، بعد أن وجد نفسه في مأزق: هو يحب «عائشة» حبا يفوق كل شيء، لكن استقبالها في بيته يمثل تحديا مفتوحا للأمير. حقا، بإمكانه أن يتصور الأخطار التي عرضت حبيبته نفسها لها، حينما أقدمت على الهروب من «غرناطة»، لتصل إليه في تلك الظروف الصعبة، غير أنه أدرك أيضا حجم المخاطر التي قد يجابهها الاثنان معا، لو أنه تابع «عائشة» في لعبتها.

- ادخلي - قال «كمال» أخيرا للمرأة بصوت محايد.

صرف «النقيبَ»، ثم دخل وراءها. هناك في داخل الدار، عانقت «عائشة» حبيبها، والدموع تنزل من عينيها.

- أحبك يا كمال، أحبك. لا يمكنني أن أحيا بدونك،

هل ستسامحني؟

احتضن كمال حبيبته بحرارة، وضمها إلى صدره، ثم أزال عنها لثامها وقبل شفتيها.

ـ أنا، أيضا، أحبك، ليس هناك ما يدعو لطلب الصفح. ـ تغيرت ملامح «كمال» وأصبحت نظرته محملة بالقلق ـ لنتحمل معا تبعات تصرفاتنا.

كانت «عائشة» زوجة الأمير الذي يدين له «كمال» بالطاعة والوفاء. لكن الحب فوق الكرامة والشرف، بل أغلى من الحياة ذاتها. عاد الشاب إلى احتضان حبيبته وهو يحدث نفسه «لو فُرض علي أن أموت بسبب هذا الغرام، فإنني سأفعل ذلك بكل سرور. لن تُنْقذَنا سوى معجزة، وهأنذا أسلم أمري للقدر، وَأقْبلُ بمصيري».

***

**«مرتُشْ» Martos. صيف 1245**

وُضع الكنز الضخم، الذي غنمته القوات القشتالية خلال حملة «فرناندو الثالث» على الأندلس، في قلعة «مرتش» الضخمة. كان لعاب الجند يسيل وهم يفكرون فيما سيصيب كل واحد منهم من أقساط، لاسيما وقد بدا أن الهجوم الذي قام به الغرناطيون ضدهم بـ «مرج غرناطة» لم يتعد كونه نكتة بسيطة لم تعكر شيئا من الظفر الكبير الذي حازه القشتاليون ضد قوات «ابن الأحمر».

وقبل أن يسرح «فرناندو الثالث» قواته نظم اجتماعا لمجلس [قشتالة النيابي]، حضره الأشراف ورجال الدولة وممثلو الممالك التابعة لـ «قشتالة»، وأيضا «مايسطري» [رئيس] رهبانية

«سانتياغو»، و«كوماندادور» [رئيس] رهبانية «قلعة رباح» في «مرتش»، إضافة إلى أبناء العاهل القشتالي: «ألفونسو»، و«إِنْريكي»، و«فَدْرِيكِي».

ـ لقد راكمنا غنائم عظيمة ـ قال الملك ـ غير أن الصيف ما زال طويلا، وأريد أن أعرف رأيكم: هل تنصحون بالعودة إلى دخول أرض «الموروس»، أم أنكم ترون أنه من الحذر وحسن التبصر أن نعود إلى الشمال وننتظر حتى يأتي فصل الربيع؟

ـ لم يزل أمام المليشيات ثلاثة أشهر لتنتهي خدمتهم ـ أدلى «ألفونسو» الابن البكر لـ «فرناندو» برأيه ـ لماذا العودة إلى الشمال؟ ما زالت هناك عديد من المدن مرشحة للعقاب، وحقول تنتظرنا لننسف زروعها، ونخرب محاصيلها.

ـ عقب «بيالي بيريث كوريا» على كلام الأمير. وهو «مايسطري» أخوية «فرسان سانتياغو» الرهبانية الذي لمع نجمه أخيرا، وأصبح الملك ميالا إلى جماعته الدينية، ثم استطرد: ـ علينا باقتحام أراضي «الموروس» من جديد.

أعقبت تعليق «المايسطري» ضجة صماء بالموافقة، لكن دون أن يتدخل أحد بعد ذلك.

ـ إذا عدنا، ما المناطق التي سنهاجمها؟ ـ سأل الملك.

ـ «إلورا» ـ اقترح الأمير «فدريكي». ـ إن البلدة الآن مدمرة، ولم يتبق منها إلا القصر. يمكن أن تكون هدفا جيدا للاستيلاء عليه.

ـ إنها بعيدة عنا، وقريبة من غرناطة. ـ أجاب

«ألفونسو»، تزويدها بما تحتاج إليه من عُدة وأقوات سيكون أمرا معقدا. لعله من المناسب لنا أن نقوم بالتخريب والتدمير في أماكن أخرى.

بدا «فرناندو الثالث» موافقا على كلام ولي عهده.

- «جَيَّان» تعاني من المَسْغَبة - أخذ الكلمة مرة أخرى «مايسطري سانتياغو» - هذا هو أوان محاصرتها - قال الفارس الراهب بصوت قاطع حاسم ودون أدنى شك فيما يقول، كما لو أنه يتحدث عن قرية أو حصن صغير ضائع بين الجبال.

سرت في المجلس وشوشة وحركة. «هذا تطلع مبالغ فيه» - قالت جماعة - «سيتطلب إخضاعها سنوات طويلة» - قال آخرون وهم يرفعون أصواتهم - في حين ظل الملك صامتا، وقد لمعت عيناه ببريق غريب.

- يا «ﭘيلاي ﭘيرث» ماذا تقترح علينا للقيام بذلك؟ - تدخل «فرناندو» أخيرا، فتوقفت النمنمة، وصمت الحاضرون.

- تجويع السكان أكثر، بالتشديد عليهم. - قال «المايسطري» للتو - نطوِّق المدينة، ونخرب جميع الحقول حولها، وننسف المحاصيل، ثم نسد جميع الطرق المؤدية إليها بشكل تام يمنع الناس من دخول المدينة أو الخروج منها... ثم ننتظر استسلامهم.

- أو خروجهم للمعركة. - أضاف «مايسطري» فرسان «قلعة رباح» بـ «مرتُش».

- لا تكونوا فاقدين لرشدكم. - قاطع «ﭘيلاي»

ـ إن ما لدينا من قوات هنا كافية لهزم ثلاث حاميات كاملة من جيش «جيان». وسنضع طلائع في الطرق الرئيسية لنستبق بذلك أي إمداد قد يرسله ابن الأحمر لنجدة «جيان».

لاذ الجميع بالصمت، وتوجهوا بنظراتهم إلى الملك الذي استغرقه تفكير عميق وقد أسند ذقنه إلى كفه. كان قلب الملك يخفق بشدة، وبريق عينيه يزداد لمعانا. ابتسم «پيلاي»، كان يعرف ملكه، فأدرك أن القرار قد اتخذ.

ـ أريد أن يَرحلَ حالاً إلى «جَيَّان» جيشٌ من قوات مختارة ـ أمر الملك مصادقا على كلام «المايسطري» ـ أما أنا فسَأظَلُّ هنا مع باقي الجُند. وسنُغادر متى دعتِ الضرورةُ. أثناء ذلك سنُدبِّر أمر اجتماعات المجالس والإمدادات. ـ ما أن أتم الملك عبارته حتى ضرب أقطاب الدولة المجتمعون كعبا بكعب، وقد أثارتهم عظمة الفكرة وحجمها. ـ وإننا لمنصورون بمساعدة الرب والحواري «سانتياغو».

***

غرناطة Granada. صيف 1245

كعادته كل جمعة، حضر «محمد الأول» ملك غرناطة صلاة الجمعة في المسجد الجامع بالمدينة. كانت قاعة الصلاة مملوءة عن آخرها بالمصلين، وتسودها رائحة عرق قوية. وبعد انتهاء الصلاة اقترب «ابن خالد» من الأمير ليسأله عن حصار «جيان».

ـ لقد أخذوا مني «أرجونة»، أيها الصديق العزيز،

والآن يريدون «جيان». ـ قال له النصري بنبرة وُدّ. ـ وإني لأعول على متانة أسوارها، وصلابة الرجال في قصبتها. ـ وأرجو من الله تعالى أن يبقيها في أيدينا، إلى أن يحين الشتاء، وينصرف عنها النصارى.

خرج «ابن خالد»، وكان أكثر تفاؤلا، من الصحن مبتسما. غير أن الأمير لم يكن ليصدق حتى ما فاه به للرجل. كان يعرف جيدا عناد القشتاليين، وقوتهم القادرة على تقليم أي مقاومة. اقترب منه عدد من أعيان المدينة بنية مُداهَنة الأمير ومُمَالقته، لكن مزاج «ابن الأحمر» لم يكن وقتها مهيئا لمثل تلك المصانعات. طلب فرسه، «برميجو الثالث» ثم غادر عدوا في أعقابه حراسه إلى غابة «باب إلبيرة».

ـ لا أريد أن يتبعني أحد. ـ صرف الأمير حراسه.

في الحين همز فرسه وانطلق عدوا. عَبَرَ المقبرة الممتدة مقابل «باب إلبيرة»، وبمحاذاة الطريق المؤدي إلى «الفحص» وأطلال مدينة «إلبيرة». بعد لحظة نزع عن رأسه العمامة الرقيقة المصنوعة من الحرير الأحمر، وكانت هي علامة التقدير الوحيدة التي تميزه بين الناس باعتباره أميرا. وما لبث أن ترك شعره الطويل، الذي بدأت تقل كثافته، يتماوج وراءه مع الهواء. كانت شمس الصيف الحارقة تؤذيه، لكنه مع ذلك استمر في عدوه، وبعد لحظات خفف من السرعة، ودس يده من عنق الجلباب، ثم أخرج القطعة النقدية الرومانية التي تحولت بالنسبة إليه إلى صندوق ذخائر مقدسة. شرع ينظر في القطعة، وسار في

رحلة عبر الماضي استعاد خلالها سنواتِ «أرجونة» وذكرياتِه بها، وصداقاتِه القديمة، وأقرباءه الذين غيبهم الردى، وجولاتِه على جواده عبر الرباط، والغارات الأولى على الحدود، دون أن ينسى دار أسرته بحي القصبة، استحضر كل ذلك، ثم انغمس في نوبة بكاء حار من وحي الذكرى.

بعد ذلك تواترت آلام أخرى حديثة:...خيانة ابنته «شمس» وزوجها، وفرار «عائشة» إلى «جيَّان». عند هذه النقطة أوقف جواده، وترجل بجنب بقايا «منية» كانت قوات «فرناندو الثالث» قد نهبتها وخربتها في الحملة الأخيرة. كان الأمير يشعر بالعجز والحنق: فالحصار منعه من الذهاب إلى «جيان» لتحقيق العدل. ومشاعره الذاتية تتصارع في صدره. والوعد الذي ألزم به نفسه أمام صديقه هادي وهو يحتضر بخصوص العناية بابنه «كمال»، والسهر على مصلحته يقيده، وإن ارتأى أن الشاب لن يفلت من تبعات ما قام به من فعل، في حين كانت «عائشة» زوجته، وخيانتها تجرح كبرياءه، وربما قد تسيء إلى سلطته. كان عليه أن يبت في الأمر ويعيد الأمور إلى نصابها قبل أن تنطلق الإشاعات تُتَناقل من باب إلى آخر.

كان «ابن الأحمر» يتنفس بصعوبة. وسرعان ما أسند جسمه إلى جدار في «المنية» المهجورة، وصرخ بكل ما أوتي من قوة، ليخفف عنه غمه وخَيْبَتَه. بعد لحظة كفكف دمعه، وفي طريق العودة بدأ يسترد هيئته المعتادة، وحاله الطبيعية رويدا رويدا.

كانت «جيان» تعاني من الجوع، محاصرةً من

قوات «فرناندو الثالث». كانت تنتظره أمور مهمة في حاجة إلى أن يعالجها.

في «باب إلبيرة» كان حراسه، الذين لم يجرُؤوا على تعقبه، في انتظاره.

ـ أسْرِعْ إلى «الحمراء»، وأشْعِرْ الوزراءَ والكتابَ بانعقاد المجلس بالمشور. ـ أمر الأمير أحد الفرسان.

***

**«جيان» Jaén. صيف 1245**

سار «كمال بن هادي» بتأن على درب السور الذي تسند إليه قصبة «جيّان» العظيمة. كان لأول وهلة يتأمل المدينة، وهي تمتد من أسفل السفح، ثم تتشعب أرباضها عبر السهول الأولى. كانت قِبب الحمامات العمومية تبرز واضحة من بين باقي البنايات، والساحات. وكانت هذه تخصص عادة لإقامة الأسواق، وتبضع الناس، في حين سيطرت على المنظر بناية المسجد الجامع منتصبة في عنفوان لا تضاهيها فيه باقي المساجد والمصليات الأخرى المنتشرة بالمدينة. حول عيون الماء والسقايات التي تزود «جيان» بالماء العذب كانت طوائف من النساء يَتوارَدْنَ حاملات على أكتافهن الجرار. وحول هذا المشهد الحضري النشيط دار سور ضخم شاهق كان يقنع القشتاليين المحاصرين للمدينة بعبث كل محاولة لاختراقه.

لم تكن الوضعية على ما يرام، لكن القافلة التي كان الأمير قد أرسلها ببعض الإمدادات

للمدينة، أنعشت النفوس، وخففت عن الناس ضيق المعيشة قليلا.

كان بعض الرعاة ممن يعرفون جيدا الطرق الجبلية، يروحون ويجيئون عبر المسالك البرية حاملين بعض الزاد والأقوات للمدينة. لكن، بالرغم من ذلك، لم تكن مساهماتهم، تلك، كافية لتأمين مقاومة طويلة المدى للحصار الذي ضربه المسيحيون حول «جيّان». وقد أرغم هذا الواقع حاكم القصبة، منذ الوهلة الأولى، على فرض تقنين بخصوص توزيع الحصص الغذائية على الناس.

لاحظ «كمال»، فيما وراء الأسوار، المعسكرات القشتالية، وهي تترصد المدينة كأنها قطيع من الذئاب الشرهة. كانت تدخلها كل يوم أرتال من العربات والدواب، وتخرج منها يوميا عصائب من المغاورين لنهب ضواحي المدينة الإسلامية، والتزود من حقول مَرْجِها. وقد كان جيش العدو من الكثرة والقوة بحيث غدا معه كل سعي لإنجاد «جيان» من «غرناطة» أمرا صعبا للغاية. ومن ثمةَ لم يعد بالوُسع سوى انتظار حلول فصل الشتاء، والدعاء بأن يقرر «فرناندو الثالث» التخلي عن مشروعه.

تأمل الحاكم توزعَ المعسكرات وتنظيمَها، وهو يقوم بعملية تقويم لاختيار إحداها واقتحامها. كانت التجمعات العسكرية قريبة من بعضها لحد أن قيام إحداها بنجدة الأخريات عملية لا تستغرق إلا لحظات يسيرة. أمام هذا التنسيق المحكم لنصب المعسكرات النصرانية، لم ينفع «كمال»

سوى العودة إلى إقامته وهو في حالة من الإحباط.

عند المدخل وجد كاتبان في انتظاره.

ـ في وقت لاحق. ـ قال لهما «كمال»، وهو يرفع يده حتى لا يقدم لهما فرصة تبرير ذلك. ـ أنا في حاجة إلى الراحة.

عند مدخل إقامته جلس الرجل ونزع جزمتيه، ثم انتعل صندلا خفيفا ذا نعل من الفلين. ولكم كان الحاكم يشبه أميره في عاداته التقشفية مما أكسبه تعاطف الناس في «جيَّان» وحبهم.

كان «كمال» متواضعا في ملبسه ومظهره، يلبس في العادة جلبابا بسيطا باهتا نصل لونهُ الأخضر، وفي شبابه حينما جاء القلعة شك عديدون في قدراته، ومؤهلاته العسكرية. غير أنه مع مرور الوقت تمكن من إبراز مواهبه، وصلاحيته للوظيفة التي تحملها.

في وسط الصحن الرئيس التقى بـ «عائشة». كانت المرأة تلاعب رجليها في ماء البركة. ولم يكن أحد بالدار غيرهما. انتهز «كمال» فرصة حضورها ليصرف الخدم عن المكان ويبقى وحيدا مع عشيقته. وسرعان ما خلع الرجل الصندل من قدميه، ودس رجليه في البركة، وراح يقلد عائشة في لعبها بالماء.

ـ إلى حد الساعة بإمكاننا أن نقاوم. ما دام أنهم لا يستطيعون اختراق الأسوار، وما زلنا، نحن، نتوفر على بعض الأقوات، بفضل ما أرسله إلينا الأمير. ـ أحس ببعض الإحراج وهو يذكر الأمير ـ غير أنه

ليس أمامنا سوى الانتظار ـ قال وهو يحرك الماء بقدميه ـ عائشة، ألا تَريْنَ أن هذا الحصار عقاب من عند الله تعالى؟

نظرت إليه المرأة في تركيز.

ـ حبيبي، هذا الحصار هو مجازاة من الله على اجتماعنا. ألم تدرك ذلك؟ لولا حصار النصارى وقطعهم للسبل لكان زوجي قد تعقبنا إلى هنا. ـ تفاجأ «كمال» بمنطق المرأة ـ لا أدري ما سيحدث غدا إذا سقطت جيَّان بيد «قشتالة»، أو تمكنت من المقاومة ووصل «محمد»، غير أن الواضح عندي أن ما وقع أهدانا الوقت، وهو ما ينبغي أن نقدم بسببه الشكر. فلْنَعِشْ حُبَّنا مادام ذلك ممكنا.

رد «كمال» النظرة إلى «عائشة»، وهو مفتون بما صدر عنها من كلام. وفي حركة ماكرة منها، تراجعت قليلا إلى الوراء ثم فتحت ساقيها، تاركة لنظرات عشيقها ما كان يخفيه رداؤها. أحس الرجل للتو بالرغبة تسري في عروقه، فما لبث أن وقف، وأمسكها من يدها، واقتادها لغرفته، حيث لم يعد للشعور بالذنب، والخوف، والشك أي معنى.

***

«غرناطة» Granada. خريف 1245

كان ماء النافورة ينبجس دون توقف، فيمتلئ صحنها ويفيض باستمرار. ولكم كان صوت الماء الرتيب يريح ذهن الأمير، ويروح عن نفسه وهو مستلق يَتَفَيأُ ظلا وثيرا تحت عَريش كَرْمٍ، شُدت

أغصانه بأسلاك.

كانت القرية خارج غرناطة، على إحدى ضفتي «وادي شِنِيل». وكان الأمير النصري قد انتقل إلى هناك بنصيحة من طبيبه الذي كان قلقا على صحته بسبب ما اعتوره في الفترة الأخيرة من نرفزة واكتئاب. وقد كان لمفعول السكون الذي يعم البادية، وخرجاته الصباحية على متن فرسه، إضافة إلى ابتعاده عن كتاب الدواوين ورجال دولته، كان لكل ذلك، أثر في تهدئة نفسية النصري، والترويح عن ذاته، واستعادة بعض توازنه النفسي. كان «محمد» يرغب في أن يحل فصل الأمطار والبرد، ظانا منه أن ذلك سيساعد على رفع الحصار النصراني المضروب على «جيان». «لن يتمكنوا من الاستيلاء عليها بالقوة» كان يقول لنفسه. في الوقت عينه كانت ذكرى «عائشة» وخيانتها قد جرحت كيانه عميقا، كما كان يقلقه أن رجال حاشيته سيشرعون قريبا في طرح الأسئلة، ولا سيما وأن المهزلة ليس بالإمكان تغطيتها مدة طويلة.

كان اللجوء إلى الطبيعة قد خفف عن الأمير وطأة ظروفه القاسية، خاصة وأنه كان بصحبة جاريته «دنيا»، دون «مريم» التي أصبحت تفضل الانعزال.

أطلت الشمس من بين جبال «شُلّيرْ» المغطاة برداء أبيض من الثلج، في حين أخذ الضباب المخيم على «فحص غرناطة» ينقشع في تؤدة، ليخلي السبيل لبروز الاخضرار الغالب على مرج الحاضرة. كان «محمد» حينها قد انتهى من صلاته

الصباحية بصحن الدار.

ـ صباح الخير، يا «فرح» ـ حيا ابن الأحمر «دنيا» وهي في طريقها إليه.

ـ السلام عليكم، يا حبيبي. أرى فتورا في نظرتك. ـ قالت المرأة، وأثر النوم ما زال باديا في عينيها.

ـ تركت كثيرا من الأشياء في الحمراء، غير أن المشاكل تسافر معي حيثما انتقلت. لم أشعر أبدا، قبل اليوم، كما لو أن كُلَّابةً تضغط على صدري، وتمنعني من التنفس.

ـ إن الله تعالى قدر وقضى، وليس لنا، نحن، إلا أن نتقبَّل مَشيئَتهُ، وسترى كيف أن الأمور لها ما يفسرها، ولها منطقها. ـ استراح «محمد» إلى طريقة تفكير حبيبته، هو الذي كان يريد أن يكون حصار «جَيان» قدرا ربانيا من عند الله لا مَردَّ له. جلست «دنيا» على الجدار القصير المبني من الحجر الذي كان يحاذي مدخل القرية. ـ لدي خبر سار سأزفه إليك ـ قالت بابتسامة ـ اليوم سأكمل شهرين دون الدورة الشهرية.

نهض «محمد» سريعا حتى كاد يعثر في النافورة.

ـ بنتا، ستعطيني بنتا! ـ صاح «ابن الأحمر» منفعلا، وقد استعادت عيناه بريق الأمل.

ـ انتظر حتى تولد لتعرف ذلك! ـ ردت «دنيا».

أمسك بخديها وأخذ يتطلع إلى عينيها اللتين راحتا تتحدثان عن حياة سابقة، عن زمن عاش فيه

السعادة حتى الثمالة.

ـ لا أحتاج إلى الانتظار، يا «فرح». أنت تملكين مِئَّةَ مَنْجِي البنات فقط.

***

«جَيَّان» نهايات خريف 1245

... كان جسمه النحيل يتحرك بصعوبة. ولم يكن يرتدي سوى سروال مخطط، ويعتمر عمامة ملوثة بأثر الدخان. وكان الرجل يحمل بين ذراعيه شيئا طويلا، مغطى بثوب أبيض. اقترب الأندلسي من «فرناندو» وهو يترنح حتى وضع الحِمل في يديه. ثم جَثَا على ركبتيه في وضع المتوسل. لم يكن هناك بعد هذا المشهد شيء آخر. فقد كانت الظلمة كثيفة تحجب الرؤيا على بُعْدِ خطوات. أزاح الملك الثوب الأبيض عن الشيء ليكتشف تمثالا متعدد الأصباغ للسيدة العذراء المقدسة. كان وجه العذراء يشع ابتسامة، في حين كانت عيناها تسطع بنور خفيف، غير أن درجة ضياء هذا النور أخذت تزداد رويدا رويدا. ثم سرعان ما رَفَعَ التمثال، ووضعه على رأسه، وإذا بالعينين تضيئان النواحي، وتلقيان بالنور على مدينةَ «جيَّان» حيث كانت مواكب من مئات «الموروس» تغادر المدينة...

ـ سانتياغو! ـ سمع خارج الخيمة الملكية.

ـ إلى السلاح! ـ صرخ النقباء.

استيقظ «فرناندو الثالث» مذهولا. لحظات بعد استيقاظه أعلمه حراسه الشخصيون بالهجوم الذي شنه أندلسيو «جيان» على أضعف معسكرات الحصار.

ـ ادفعوا بالجنود إلى المعركة، لكن لا تتركوا باقي المعسكرين دون حماية ـ أمر الملك، وهو يسرع إلى لبس درعه، والخروج من الخيمة.

كان خيط الفجر قد رسم وراء الجبال المحيطة، غير أن حلكة الليل كانت لا تزال مهيمنة. جعل «فرناندو الثالث» يتأمل حركة الرجال وهم يذهبون ويجيؤون، يلبسون الدروع، ويتمنطقون بالأسلحة، بينما الفتيان المكلفون بالجياد، منشغلون بتسريجها وتهيئتها للمعركة قبل تسليمها للتَّرَّاسِينَ والوُصَفَاء. وكان هؤلاء يأخذونها من أعنتها، ليسلموها بدورهم لأصحابها. لم يكن يسمع إلا صهيل الخيل، وطنطنة الحديد، وأصوات المقاتلين، كان كل ذلك يمتزج مع نسائم الفجر، ونفحات الصباح.

طلب الملك فرسه، وكان، أي الملك، قد وصل منذ أسابيع للانضمام إلى المحاصِرين وقيادتهم بنفسه، وليبين بذلك عزمه الأكيد على الاستيلاء على المدينة الأندلسية. ولم يكن يعنيه في شيء قرب حلول الشتاء، أو اعتبار هذا الفصل عائقا أمام الاستمرار في الحصار. لقد كان الهدف واضحا، وهو سقوط «جيَّان» بواسطة تجويع أهلها. وقد كان هذا التفكير عند العاهل القشتالي وراء ما أقدم عليه الجيانيون من هجوم، بعد أن ضاقت بهم السبل، وطوقوا من كل ناحية، فداخلهم اليأس، وأقدموا على اختراق الصفوف القشتالية وتدميرها.

فتحت أبواب المدينة بغتة، واندفعت فصيلة الفرسان كالسهم في اتجاه المعسكر القشتالي،

هدفها الانقضاض عليه على حين غرة، حتى لا تترك للقشتاليين أي فرصة لأخذ أهبتهم. كان «كمال» على رأس الفصيلة، يعدو على متن فرسه، وهو لا يلوي على شيء، كما لو كان نسرا يسعى إلى مباغتة الفريسة. كان رجاله خيرة الفرسان الجيانيين، وخيولهم أسرع الدواب بالقلعة. وكان «كمال» قد أصر على السير في المقدمة، بالرغم من تحذيرات مرؤوسيه. «سيدي، هذه ليست مهمتك»، ـ قال له رجاله. «إذا كنت لا أصلح للإمساك بالسيف، فأنا غير صالح لممارسة الحكم». أجابهم. ومن ثمة، لم يتردد في لبس درع اللوريگون **lorigón** الذي يحمي الجذع، ودرعي الساعدين، والخُوذَة المخروطية ثم تسلح بسيفه وحربته وانطلق نحو القتال على رأس الصفوف الأولى.

في منتصف الطريق نحو المعسكر القشتالي سمع الفرسان الجيانيون صياح الرؤساء النصارى، وهم يحذرون من الهجوم المفاجئ للجيانيين. «لقد استجابوا مبكرا» ـ فكر «كمال» غاضبا وهو يهمز فرسه.

ـ الله أكبر! ـ صاح الفرسان الأندلسيون، وهم ملتزمون في انضباط عسكري بترك مسافة فيما بينهم، تسمح برمي القنا والسهام ضد أعدائهم قبل مرحلة الالتحام.

كان المعسكر محميا بخندق وسياج حاجز، في تلك اللحظة كان أوائل المدافعين النصارى يقتربون من السياج للتصدي للهجوم الأندلسي، بحيث أن مقاتلي «كمال» رموا الحزمة الأولى

من الحراب فأصابت الأوتاد والقضبان التي تدعم السياج، ومن اقترب منه من النصارى. على الإثر سقط العشرات منهم وقد اخترقتهم القنا الأندلسية وباقي الأسلحة القَذَفِيّة، غير أن فصيلا من الفرسان المسيحيين من ذوي الدروع والأسلحة الثقيلة تمكنوا من شق الطريق نحو الأندلسيين الذين انسحبوا سريعا، وفي مهارة، تاركين وراءهم مسافة حذرة تفصل بينهم وبين القشتاليين.

على الإثر أمر «كمال» بهجوم ثان، وقد شَدَّ انتبَاهَه أحدُ الفرسان النصارى، فأسرع الأندلسيُّ وقذَفَ بقناته الفارسَ القشْتالي، فأصابه في صدره، وسرعان ما خَرَّ الرجل من جواده ليعانق الأرض.

- النصر! - صرخ «كمال» في غبطة. وفي الحال قلده رجاله صارخين مثله.

كانت الشمس حينها قد تجاوزت قمم الجبال، وبعلوها في الأفق بدأت الدروع تَحْمَى، ووطيس المعركة يزداد اضطراما. غير أن خطة الكَرِّ والفَرّ التي يستخدمها الأندلسيون سرعان ما تركتهم دون حراب. كان على «كمال» حينها أن يُعيدَ قِراءةَ الوَضْع، ويقرر خطة أخرى تناسب المعطى الجديد. تطلع القائد من جديد إلى المعسكر القشتالي، وبدا له أن عديدا من الرجالة كانوا يغادرونه جريا، ثم درس بعد ذلك السهل الذي يفصل هؤلاء الرجال عن باقي المُعَسْكَرَيْن فلمح ثلاث فصائل من الفرسان كانوا يَعْدُون في اتجاه هؤلاء المشاة. سريعا تمكن من تمييز لواء «فرناندو

الثالث» الذي يحمل الشارات الملكية، وبجانبه علم رهبانية فرسان «سانتياغو». أدرك القائد في الحال أن لا أمل لهم أمام هؤلاء الفرسان المدربين والمدججين بالأدرع والسلاح.

ـ أغلقوا الدائرة، ثم عودوا... دون شفقة! ـ صاح القائد في رجاله وهو يعدو للانقضاض على خصومه.

لم يكن الجيانيون يتوفرون على متسع من الوقت للقيام بالهجوم على الوجه الأكمل، مادام أن فصائل الفرسان القشتاليين كانت تجري، وقتها، في اتجاههم. حقا، كان الأندلسيون يتفوقون من حيث العدد على المسيحيين، غير أن هؤلاء كانوا يبزون المسلمين من حيث العُدَّةُ والتجهيز، خاصة فرسان بلدية «آبلا»؟، وفرسان «قلعة رباح» بـ «مَرْتُش»، و«أندوجر».

انتضى «كمال» سيفه، وتقدم رجالَه قاصدا رأسا الآبليين الذين كانوا يقتربون إليه وجيادهم تنهب الأرض نهبا. في لحظة اللقاء ضرب «كمال» أحدهم في رأسه بسيفه، على التو، تعالت أولا خُوذةُ الضحية في الهواء وقد امتلأت دما، ثم سقط الفارس بعد ذلك صريعا. استمر «كمال» عدوه وإن أصاب فرسه بعض الفتور، غير أنه، فجأة، أحس بألم قوي في كتفه. كان الألم نتيجة ضربة من فارس نصراني تمكن من إصابته. وقتها، والمعركة على أشدها، استدار نحو إحدى الجهات، فرأى كيف أن رجاله تمكنوا، لكن على حساب عدد كبير من الإصابات والضحايا في صفوفهم، من القضاء على الفرسان النصارى، ثم نظر إلى

جهة أخرى، فبرز له فرسان «فرناندو الثالث» وهم ينهبون الأرض متجهين نحو «كمال» ورجاله.

- إلى الأبواب! - صاح «كمال» آمرا.

وقتها كان بعض الفرسان المسلمين ما زالوا منهمكين في القتال، يضعون حدا لآخر مظاهر المقاومة القشتالية. لم يكن القائد ليعود أدراجه دون أن يساعد رجاله للقضاء على خصومهم. إذ تمكن من جمع عدد من الفرسان الأندلسيين وهاجم العدو من المؤخرة. بعد حين وقد مُزِّقت قوات الخصوم بادر النصريون بالانسحاب ودخول النطاق المسور من «جيان «في أمان. لحظتها وصل من كانوا يتعقبون الأندلسيين إلى مقربة من السور، ثم توقفوا على مرمى قوسٍ قذوُفٍ [بِرْقِيل] حيث أخذ الفرسان القشتاليون يستفزون المسلمين للخروج للقتال، والاستمرار في المعركة. لم يصدر عن الجيانيين أية ردة فعل. ولا غرو، فلم يكن «كمال» مغفلا!

وصل «كمال» إلى المدينة، وهو يتصبب عرقا. ترجل، ثم توجه نحو المسجد الجامع. كان الرجل، وقد سار خلفه بعض الفرسان، ما زال مرتديا عُدة القتال، الدرع الحديدي «اللوريغون» الذي انتثر عليه الدم من أثر المعركة. شق القائد طريقه بين الناس وهم يهتفون باسمه باعتباره بطلا مقداما، بينما حافظ هو على سمته الرصين الوقور، لائذا بالصمت طوال المدة التي استغرقها ذهابه للمسجد. كان ما يلفت النظرَ هو نحولُ الجيانيين وضعفُ بنياتهم جراء المعاناة مع الجوع، بسبب الحصار ونقص الأقوات. توضأ «كمال» في صحن

الوضوء قبل دخوله قاعة الصلاة. كان يرغب في تقديم الشكر للعلي القدير الذي حافظ على سلامته خلال القتال، وأبقاه حيا، ثم مناجاة ربه ليرشده إلى سبيل للتخلص من هذا الحصار القاسي الذي لا مخرج من قبضته.

«ربي القدير، إذا لم تَجُدْ علينا بمساعدتك فإننا، لا محالة، ساقطون..». ـ هكذا بدأ «كمال» دعاءه.

***

**«غرناطة» Granada. شتاء 1246**

اجتمع رجال الدولة والمستشارون بقاعة المشور في القصبة القديمة. كان «ابن الأحمر» يترأس الاجتماع جالسا على كرسي العرش، القائم على مصطبة صغيرة من الخشب. وكان من أبرز الحاضرين «إسماعيل»، والأخوان «أشقيلولة»، والوزير الجياني «ابن صناديد»، والغرناطي «ابن خالد».

كانت سحنات الجميع تعكس قلقا كبيرا بسبب الأنباء الأخيرة التي وصلت من «جيان». فقد وصل «فرناندو الثالث» وأولاده إلى المعسكرات، وشرع يبني بها أكواخا بسيطة من الخشب وقوالب الطوب، تستطيع تحمل برودة الشتاء وأمطاره. في الأوان ذاته، شحت الأقوات، وقلت المؤن بالمدينة، فشدد الجوع قبضته على الناس بـ «جيان»...

كان الأهالي قد أخذوا في ذبح الخيول وأكل الكلاب، في حين كانت أسواق المدينة تبيع لحم الفئران بثمن أغلى بكثير من أطيب لحوم الضأن.

ـ كانت قشتالة أسدا نائما، فعملنا على إيقاظه من نومه ـ قال «محمد» وهو يفتتح الجلسة ـ ومن ثم، لا يمكننا مواجهة القشتاليين. ولو أننا سرنا إلى نجدة «جيان»، فإن «قشتالة» ستسحقنا في أي معركة ميدانية دون شك... ما العمل؟

ـ الصبر والانتظار، والثقة في الحكمة الربانية. ـ أجاب «ابن خالد».

ـ إذا طال انتظارنا فإن «جيان» ستسقط بسبب الجوع ـ أجاب معلقا «ابن صناديد».

ـ وإذا سقطت بالجوع فإن شروط الاستسلام ستكون قاسية علينا. ـ أضاف «إسماعيل».

أشار الأمير بإيماءة دلت على موافقته على كلام أخيه.

ـ هكذا أرى الأمر. أكيد أن «جيان» لن تتحمل الحصار أكثر. لقد كابدت المسغبة خلال شهور طويلة، وهي الآن على شفا الإنهاك التام، لكننا إذا بادرنا بتسليمها عسانا نتمكن من كسب بعض الربح.

ـ تسليم «جيان» دون قتال؟ هل فقدتم رشدكم يا «آل نصر»؟ ـ انفجر «عبد الله» بوجه محتقن من شدة الاستنكار.

تنحنح «محمد»، وهو يسعى جاهدا ليَمْلِكَ نفسَه، ثم أجاب وهو يصطنع الهدوء.

ـ كان والدك، يا «إبراهيم بن أشقيلولة»، هو ذاته من نصحني بمحاولة تفادي أي اصطدام بـ «قشتالة». ألا ترى أن عناد «ابن هود» اتجاهها

لم يجلب له سوى الدمار، واستنزاف إمارته حتى أنهكت؟

نهض «عبد الله» من مكانه وهو يرتجف غضبا وقال للأمير:

ـ لا تذكر اسم والدي، رحمه الله، لم يعرف عنه أبدا أنه فر من القتال، أو استسلم خانعا ضعيفا.

زاد الاحتقان في القاعة. لكن «ابن الأحمر» كان يُغلِّبُ العقلَ على عاطفته. كان يعرف أن القرار الذي سيتخذه يتطلب اتفاقا جماعيا، وموافقة عامة، وإلا فإنه سيرى سلطته تُنْتَقَصُ ببروز تيارات معارضة لحكومته.

ـ عرفنا جميعا والدك ـ تدخل «ابن صناديد»، وقد تعلم الدروس جيدا من الأمير ـ كان رجلا حكيما حصيفا. ولكم حدثني كثيرا عن الممالك المسيحية وعن رأيه فيها. كان رحمه الله ميالا إلى العمل السياسي، ويرى أن العمل من أجل إنقاذ الأندلس فوق كل مكابرة أو عناد. ـ كان الجميع ساكتين يُصغون لكلام الوزير الجياني، وهم يدركون أن كلامه أصاب عين الصواب. ـ وأنا أيضا أرى نفس الرأي ومقتنع بحكمته وصوابه.

ـ أنتم على صواب. ـ علا صوت أحد القواد المِرويين ـ إذا أخذ النصارى «جيان» بالقوة، لن يكون هناك سلام. وسيستمر القشتاليون في حملاتهم دون توقف، ووقتها سنسير في ذات السبيل الذي سارت فيه «مُرسية»، وسننتهي إلى ما انتهت إليه. أرى من الواجب علينا أن نسلم «جيان» من أجل السلام والاستقرار.

شيئا فشيئا شرع الحاضرون يظهرون ميلهم إلى التفاوض مع العاهل القشتالي. وبدا أن كلمات «ابن صناديد» كان لها الوقع الذي كان منتظرا منها. وحينما تناول الكلمة عدد من الأشراف بالترتيب، ليظهروا مساندتهم للقرار، لم يبق أمام «عبد اللّٰه» سوى الانسحاب من المجلس دون أن ينبس بكلمة.

ـ أرجو أن تعذروا أخي، فإنكم تعرفونه ـ قال «إبراهيم» ـ وأنا بصفتي رأس أسرة «أشقيلولة»، أعلن لكم عن مساندتي ودعمي، لأني أعرف أن لا بديل لنا سوى التفاوض.

ـ حسنا ـ قال الأمير ـ حصل الاتفاق، إذن. سأرسل قريبا مبعوثين للتفاوض من أجل تسليم «جيان» مقابل سلام دائم يسمح لنا بالتقدم واكتساب القوة.

ـ إن شاء اللّٰه وببركته! ـ هتف «ابن خالد» بانفعال وقوة.

ـ ولا غالب إلا اللّٰه! ـ أضاف «إسماعيل» وهو يرفع صوته بشعار المملكة.

***

امتطى الأخوان فرسيهما، وسارا معا إلى غاية ربوة «السبيكة». كانا قد اشتاقا لبعضهما، وفي حاجة إلى تبادل الرأي والمشورة.

ـ أرى عمنا «عبد اللّٰه» ما زال على سلوكه كعادته، إن لم يكن أسوأ مما كان. ـ علق «إسماعيل»، والأخوان يعبران «وادي حَدَّارُه» من أحد جسوره.

ـ أظن، يا «إسماعيل» ـ قال «ابن الأحمر» لأخيه ـ أنه وابنتي «شمس» وراء محاولة اغتيالي ـ أنهى العبارة وقد اغرورقت عيناه بالدموع.

ـ لعلك ستجد نفسك ذات يوم مضطرا لمجابهة آل «أشقيلولة» بالسلاح.

بعد ذلك انساقا مع ذكريات أيام زمان، ثم تحولا للكلام عن المشاكل التي تعترض الإمارة. فكان الحديث بين الأخوين ذا شجون، لا سيما وأن الأمير قد ارتاح لزيارة أخيه.

ـ لكم أتمنى أن تكون بجانبي، يا «إسماعيل»، لكني أعرف أنك الحاكم الذي تحتاجه «مالقة». جميع التقارير التي تصلني تُثني على أسلوب حكمِك.

وحينما وصل الأخوان إلى السبيكة، أخذ «ابن الأحمر» يشرح لأخيه الخط الذي تسير فيه القناة التي كانت تحمل الماء إلى «الحمراء»، والأرباض الواقعة خارج الأسوار. ثم تجولا بعد ذلك في الشارع الرئيسي في البلدة الصغيرة.

ـ هناك، سماط الكتاب ـ جعل «محمد» يشرح لأخيه ـ وهناك، يقطن عدد كبير من جند الحامية. وفي ذاك الركن يقع سوق لبيع المنتوجات الحِرفية، خاصة الخزف، والزجاج، والحرير.

أعجب «إسماعيل» بالتقدم الذي وصلته الأشغال في القصبة. كانت الأبراج الضخمة قد اكتمل بناؤها وأحاطت بها طوائف من الحرفيين والعمال وهم يسهرون على تزيينها وتنسيق عمرانها من الداخل والخارج. فكان النجارون يزخرفون

السقوف الخشبية بتجويفها و[توريقها]، في حين كان الجباصون يُلَبِّسُون الجدران بأشكال هندسية ونباتية، بينما انشغل الصباغون بوضع أصباغهم على الأشكال الجبصية المنقوشة على الجدران، وفي القِبَاب، وعلى الخشب.

ـ هنا يسكن القواد السامون في الجيش، وكبار الكتاب والإداريين. ـ قال الأمير لأخيه حينما وصلا إلى الساحة الكبيرة التي يستعرض بها الجند. ـ وهناك، توجد داري ومكان إقامتي التي هي أيضا دارك ومكان إقامتك. ـ أشار إلى البرج وقد وضع يده على صدره.

في هذه اللحظة، وقد تواصل الحديث بين الأخوين، أطلع «محمد» أخاه على خيانة زوجته «عائشة» مع «كمال». وهو ما كان له وقع الصدمة على «إسماعيل». حيث قضى دقائق صامتا وهو في حالة دهشة. كان الرجل يتصور غيظ أخيه وقد دَنَّسَ العشيقان عرضه.

ـ أخي ـ قال أخيرا حاكم «مالقة» ـ حينما تفاوض «فرناندو» على تسليم «جيان» اطلب منه على صفة الاستعجال أن يسلمك حاكم المدينة. لا تمنحه فرصة اللجوء إلى «قشتالة»، وحاول أن تعالج القضية بتحفظ وفطنة. ثم حَكِّم العَدل لتستعيد شرفك، وتسترد كرامتك.

ـ فكرت كثيرا في هذه المسألة، لكنني أجد نفسي مكبلا بالوعد الذي قطعته على نفسي للمرحوم «هادي».

ـ هناك ظروف تبرر عدم الوفاء بالوعود. ـ أجاب

«إسماعيل» بجد، وهو يحس أن كرامته النصرية هي، أيضا، قد أهينت.

حث «محمد» أخاه على الاستمرار في السير قائلا:

ـ أسرع يا «إسماعيل»، لا تشغل بالك، سأجد الوقت الكافي لتصفية ذلك الحساب. أريد، الآن، أن أعَرِّفَكَ على داري، وأن أقدم إليك «دنيا»، بهجتي الوحيدة في هذه الأيام العصيبة.

معا دخل الأخوان إلى البرج. وقبل أن يلجا الطابق حيث توجد إقامة الأمير، همس «محمد» في أذن أخيه:

ـ انظر إلى عينيها، ربما ستعرفها...

***

«جيَّان» **Jaén**. شتاء 1246

تحولت المعسكرات إلى قاعات كبيرة تقام بها الاحتفالات. كان «فرناندو الثالث» قد أمر بقتل قطيع من الخنازير ليقيم عسكره مأدبة احتفالا بقبول المسلمين تسليم مدينتهم. ذلك أنه في عصر أمس كان الملك قد استقبل المبعوثين الأندلسيين الذين وصلوا للتفاوض في شروط تسليم «جيان». ومن ثمة، وقع الحسمُ في أهم بنود الاتفاق، أما بخصوص التسليم الكامل فقد اتفق العاهلان على التفاوض رأسا لرأس بمعسكر الملك القشتالي خلال الأيام المقبلة.

كانت الخيمة تفوح برائحة الرطوبة. وكانت الألواح، التي لبست بها الأرضية الخشبية، مبللة

بالماء جراء الأمطار الغزيرة التي تساقطت خلال ذلك الشتاء القاسي، في حين كان البرد القارس يندس عبر كل الجنبات، فتتيبس له الأجسام والأطراف. وكان «فرناندو الثالث» قد رفض في إصرار أن تقام له بناية قارة، ذلك أنه كان يفضل أن يعاني ما يعانيه رجاله، ويعيش في ذات الشروط التي يحيا فيها جنده. غير أن ذلك القرار الذي ارتضاه لنفسه، إذا كان قد غنم به احترام الجيش، فإنه نال من صحته، وجعل المرض يعاوده من جديد.

... كانت صينيات الفضة التي وضعت على الطاولة تبرز بقايا الحفل.

- لقد أنهينا مهمتنا - قال الملك وهو يرفع كأسه، في الحال، قام أولاده، وقد احمرت عيونهم بتأثير الخمرة، بتقليده.

- ما الشروط التي سنشترطها على «الموروس» يا أبي؟ - سأل «ألفونسو» بعد شرب نَخْبِ النصر.

- سيصبح الملك «المورو» تابعا لنا، وسيكون عليه أن يؤدي الجزيات السنوية ليحافظ على السلام.

- لكننا حينذاك لن يكون بوسعنا مهاجمته. - ارتأى الأمير.

- لا تنس، يابني، أن الحرب تكلف الكثير من الأموال لممالكنا، والربح الذي سنجنيه من الاستمرار في الحرب سيكون أقل من الربح الذي سنحققه من تبعية غرناطة لنا. - ارتشف طويلا من كأسه ثم واصل - تَذَكَّرْ أن هناك أراضي أخرى

لـ «موروس»... ـ أضاف وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

رد «ألفونسو» الابتسامة لأبيه، وبدا كأنه قد ارتاح. فقد كان ضد فكرة إيقاف الحرب ضد المحمديين.

ـ «جيان»، أخيرا، من أملاك قشتالة. ـ هتف العاهل وهو في حالة انفعال يستحضر تلك الرسائل التي كان الرب يبعث بها إليه في مناماته حتى لا ينسى واجبه.

***

غادر أمير «غرناطة» معسكره الصغير، وكان قريبا من المعسكر القشتالي، وذهب للقاء «فرناندو الثالث» في مدخل خيمته، حسب الاتفاق الذي تم بين الطرفين. في الممر نحو خيمة العاهل القشتالي احتشد مئات من الجنود لمشاهدة الأمير الأندلسي وهو في الطريق للقاء «فرناندو»، مشيا على الأقدام.

ـ ينبغي ألا نشعر بالخزي، ما دام أننا قد نجونا، وبقينا على قيد الحياة. ـ قال الأمير بصوت خفيض لـ «ابن صناديد» الذي كان يسير بجانبه. على التو شعر «الجياني» بأن تلك الكلمات كانت موجهة إليه.

كان «محمد» الأول يرتدي جلبابا متواضعا أبيض اللون، شُد من الوسط بحزام بني نصر القرمزي. في حين تُوِّجَت العمامة البيضاء التي غطت رأسه، وكانت من نفس لون الحزام، بياقوتة فصها من الفضة. لم يكن الأمير يحمل سلاحا، ولا درعا.

استقبل «فرناندو الثالث» مرفوقا بأولاده الأمير الغرناطي وتركه يمسك بيده ويقبلها، أمام أشراف «قشتالة» و«ليون» وباقي النبلاء. وبهذا الفعل البسيط، تم الإعلان عن تبعية غرناطة لـ «قشتالة».

***

بالإضافة إلى تسليم «جيان» للمملكة النصرانية، وإفراغها من أهلها المسلمين، تعهد ابن الأحمر بدفع مئة وخمسين ألف قطعة نقدية مرابطية لـ «قشتالة» سنويا، ومساعدة المملكة المسيحية في حروبها إذا تطلب الأمر ذلك، ثم حضور مجلس «الكورطيس» حينما يدعو الملك القشتالي إلى التئامه. في المقابل ستتمتع الإمارة النصرية بعشرين سنة من السلام، وحماية قشتالية عسكرية، وحدود معترف بها محددة. وبذلك اعترفت «قشتالة» بأراضي الإمارة وحدودها. مثلما أن هذا الاتفاق أكد على وجود دولة متماسكة لها هويتها الخاصة، حقا خاضعة لـ «قشتالة»، لكنها أيضا محميةٌ من قِبلها.

وضع «فرناندو الثالث» يده على كتف الأمير، وحثه على الانخراط في الوضع الجديد. تطلع كل من العاهلين لصاحبه، وكأن كلا منهما يعترف لغريمه بأنه إزاء خصم كبير، وإرادة حديدية، وعزم قوي. على الإثر أقسم «محمد» باللغة الرومانثية للملك القشتالي بالوفاء والإخلاص. فعل ذلك دون أن يتلجلج صوته، لأنه كان مقتنعا بما كان يفعله.

وقعت «غرناطة» تحت الهيمنة القشتالية، غير أنه سمح لها بأن تستمر إسلامية، تحت الحكم

النصري.

دعا الملك القشتالي «ابن الأحمر» إلى مائدته. فتناولا الغَداء في العراء، وعلى مرأى الجنود القشتاليين. حتى إذا انتهى العاهلان من تناول الطعام، ضم «فرناندو الثالث» الأمير إلى صدره علامة تحية ووداع، ثم عاد «محمد» بعد ذلك مباشرة إلى معسكره.

أمر الزعيم النصراني على التو بالسيطرة على أبواب المدينة. وفي الساحات والأسواق التابعة لها جلس العشرات من الموثقين أمام بَسْطاتِهم ليوثقوا عمليات البيع التي سينجزها الأندلسيون لأملاكهم مع النصارى. ولكم استغل النبلاء المسيحيون الفرصة، فاقتنوا ما وسعهم الاقتناء من أملاك الجيانيين بأثمان زهيدة.

***

وفي الساعة الأولى عصرا، وقبل أن تغيب الشمس، بدأ إفراغ المدينة من سكانها الأصليين.

وكان أول من رحل عن «جيان» سكان القصبة. وامتثالا لطلب ابن الأحمر، قاد حراس نصارى حاكم المدينة وجاريته إلى غاية الخيمة الأميرية. هناك دخل «كمال» و«عائشة» على الأمير يمسك كل منهما بيد الآخر. كانت المرأة ترتدي ثوبا غليظا غطاها بالكامل، ولم يترك ظاهرا منها سوى عينيها، في حين كان هو يلبس جلبابا ولا يحمل أي سلاح. لم يركع أحد من العشيقين أمام «الأمير» أو التمس منه العفو. وإنما ظلا واقفين في هدوء.

ـ هل علم أحد في «جيَّان» من أنت؟ ـ سأل «محمد» بصوت محايد.

نفت عائشة برأسها.

ـ يعتقدون أنها جارية، هدية منك. ـ قال «كمال». كان الشاب قد شرع في التعرق، غير أنه كان يصارع ليبدو متماسكا.

اقترب الأمير من العشيقين، ثم نَحَّى «عائشة» جانبا. على الإثر أجهشت الزوجة بالبكاء.

ـ أنا آسفة ـ هَمَسَتْ.

أخذ «ابن الأحمر» خنجرا كان يخفيه بين طيات حزامه، ثم أخرجه من غمده. لم يتحرك «كمال»، رفع رأسه وفتح ذراعيه ليُبْقِي صدره معروضا أمام النصري.

ـ لا! ـ صرخت «عائشة» في يأس.

ضغط «محمد» على الخنجر، وقد اغرورقت عيناه بالدموع. كان الرجل يرتجف من شدة الغضب. وسرعان ما توسل ربه: «إلهي افْتَحْ عَلَيّ». كان واقفا في مكانه في جمود، والسكين لا يزال بيده. كان صدره يعلو مع كل زفرة وشهيق، وقد تَخَشَّبَ جسمُه، وشُدَّتْ عضلاتُه من فرط الانفعال.

وأخيرا... تكلم دون أن يُلقي بالسلاح من يده.

ـ قُتِلْتَ في هجوم على النصارى، لكسر الحصار، خمسةَ أيام قبلَ وُصولي. ـ قال لـ «كمال» ـ أما أنتِ... فقد رافقتني في سفري من غرناطة، وحضرتكِ الوفاة في المعسكر بأزمة قلبية. وقمنا بدفنك بـ «وادي آش»، حيث سنهيء لك غرفة

تسجية صغيرة. ـ قال الأمير لـ «عائشة» ثم واصل: ـ خُذها، إنها لك. ـ خاطب «كمال» من جديد ـ لم تكن أبدا في عصمتي. يمكنكم أن تبدأوا حياة جديدة بالأندلس، أو أن تلجأوا إلى «قشتالة» ـ لا يهمني الأمر إلا قليلا. من اليوم، بالنسبة إلي، قدْ مُتُّمَا.

ـ وماذا قررت في حق أبنائنا؟ ـ سألت «عائشة» وهي ما زالت تبكي بمرارة.

ـ لقد ماتت أمُّهُم... وأنت حافظتِ على شرفِك إلى آخر يوم في حياتك، وإنهم سيحترمون ذكراك، غير أنك لن تعودي لرؤيتهم أبدا.

تفاقم نحيب المرأة.

ـ أَحِبَّهُمْ، واعتن بهم، واتْرُكْهُم يطلبون العلم. ـ قالت وهي تشهق من البكاء.

لم يتكلم «محمد» بعد ذلك، فقط أشار بسبابته نحو مخرج الخيمة، وأمر العشيقين بالمغادرة، دون أن يهتم حتى بالاتجاه الذي أخذاه. ثم ظل وحيدا في خيمته، فبكى بكاء مرا شديدا جراء هذه الضربة الجديدة التي كتبها عليه القدر. كان يحس في أعماقه بالجرح الذي أصاب كبرياءه بسبب خيانة زوجته له، غير أنه، مع ذلك، كان يشعر بأن ضميره مرتاح نظيف نظافة الخنجر الذي كان يمسك به في قوة.

***

«جيان» jaén. شتاء 1246

وقف «فرناندو» يتأمل المدينة من أعلى سور

القصبة. كان الأندلسيون وقتها قد غادروا «جيان» ولم يعد يسمع بها سوى حركات الجند وهم يذرعونها جيئة وإيابا بحثا عن الغنيمة. وكان حينها قد شرع في توزيع الغنائم، غير أن مسألة إعادة إعمار المدينة بالسكان بدت أنها ستكون عملا صعبا وبطيئا، مثلما حصل مع «قرطبة».

«يجب على رعاياك أن يقلدوك. وبذلك سيكون عدد الرجال كافيا لتعمير كل الأندلس» كان يقول الأمير «ألفونسو» لأخيه، وهو يعني بقوله كثرة ذرية الملك القشتالي. فإضافة إلى ما أعقب مِنْ وَلَدٍ مع الزوجة الأولى «بياتريث دي سوهابيا» أردف أربعة آخرين من زوجته الثانية.

وضع فوق مئذنة المسجد الكبير، الذي تحول إلى كنيسة «سانتا ماريا»، صليب خشبي غاية في الضخامة. وبالرغم من أن الأجراس لم توضع بعد في مكانها من البرج، إلا أن الصلوات والقداس كانت تقام بانتظام. كان «فرناندو الثالث» قد حقق في الواقع حلما قديما كان يراوده باستمرار في منامه، لكن الرجل أحس بانقباض، وبنوع من القلق يسكن صدره.

نزل من الممر في أعلى السور، ثم سار في اتجاه قصر الحاكم الذي أصبح مأواه خلال شهور إقامته بـ «جيان». دخل إلى القاعة الرئيسية بالقصر، وكانت غايةً في جمال النقش على الجدران والجبس. ثم أخذ عُدة الكتابة، وشرع في كتابة رسالة إلى أمه، الملكة «برنگيلا».

والدتي العزيزة، حفظك الرب، ومتعك بالصحة والعافية. أكتب إليك من «جيَّان»، التي أصبحت،

أخيرا، نصرانية. كان ربنا معنا خلال مدة الحصار، وسمح بأن ينتصر الدين الحق. إنها أيام بهجة وسعادة بالنسبة لممالكنا، لكنها أيام تدعو إلى التأمل والتفكير. في كل الطرق تتبع الخطوة أختها، وقد أبان لي الرب في هذه الليلة الخطوة التالية التي سأقوم بها.

لقد رأيت في منامي برجا ضخما شبيها في طوله بجبل، وهو يطل في شموخ وكبرياء على نهر عظيم. وفي أسفل هذا البرج كان «الموروس» يصلون حسب شعائرهم الوثنية، إلى أن اقترب منهم موكب طويل من الرهبان حاملين الصلبان، ففزع القوم وفروا مطرودين.

إن الرسالة واضحة، يا أماه. لقد ملكنا «قرطبة» وجيان»، وغدت «غرناطة» و«مالقة» و«ألمرية» تابعة لنا، غير أنه ما زالت أمامنا «إشبيلية» لم نستول عليها بعد. إليها سأخصص كل جهدي ومثابرتي، وبمساعدة الرب، قريبا سأضمها لـ «قشتالة»...

وقف «فرناندو الثالث» مشدوها أمام براعة الحرفيين الأندلسيين الذين زينوا القصر، وقدرتهم الكبيرة على التحكم في فنهم. بعد ذلك بقليل أرسل في طلب ابنه البكر. كان لا بد وأن يسعد «ألفونسو» حينما سيطلع على خطط والده. إذ لم يكن الشاب يشعر بأنه وريث ممالك أبيه فقط، بل، أيضا، المكلف بمواصلة مهمته الربانية في إخضاع المحمديين وإذلالهم.

***

## غرناطة Granada. شتاء 1246

كان «محمد الأول» قد أقام عرشه المؤقت بقاعة فسيحة ذات عقود، وتقع بأكبر أبراج قصبة الحمراء. هناك قرر أن يجتمع بأولاده الذكور ليحدثهم باعتباره أبا، وأميرا، ورأس «بني نصر».

وبالرغم من تثبته بالتقشف، استند في هذه المناسبة في تأطير المكان على رموز الإمارة. كان يلبس جلبابا من الحرير القِرمِزي المُوَشَّى بالذهب، شُد في وسطه بالحزام النصري القديم، وقد تدلى منه سيف احتفالي ذو مقبض من الذهب والعاج. كان وجهُهُ متوهِّجاً، ولحيتُه مُخَضَّبَةً بالحِنَّاء، في حين اعتمر عمامة حمراء، وُضِعَ، في جهة الجَبْهَةِ منها، مِشْبَكٌ مرصَّع بأحجار الزُّمرد.

ظل أبناؤه واقفين قبالته، وهم صموت احتراما للمقام.

ـ لقد بلغتم السن الكافي كي يحدثكم والدكم عن بعض الأشياء ـ افتتح حديثه ـ والدتكم قد توفيت ـ أطلق العبارة دون مقدمات وبصوت حازم. بدأ الطفل «محمد» يبكي ـ يمكنكم أن تبكوها، لكن لا تفعلوا ذلك أبدا أمام أي كان، سوى إذا كان عضوا من الأسرة. ـ اغرورقت عيون الأبناء الثلاثة، لكن لم يجرؤ أي منهم على الكلام ـ اذكروها بحب وعطف، فقد كانت زوجة صالحة، وأما حنونا، ومسلمة غيورا على دينها. ـ في هذه اللحظة، وفي التفاتة إنسانية من جهته، أعطى ابن الأحمر الفرصة لأولاده ليخففوا عن أنفسهم

ـ لقد اقترب الوقت ـ واصل الأمير الوالد ـ الذي ستتحملون فيه مسؤولياتكم في الإمارة. ومن

ثمة، ينبغي عليكم أن تعرفوا أكثر عن مَحْتِدِ بني نصر. نحن ننتسب للأنصار أهل المدينة، وناصري الرسول. خلال مدة طويلة كنا أشراف «أرجونة»، وهي مهد أسرتنا، غير أننا مع الزمن فقدنا جاهنا القديم. لكنني تمكنت ـ واصل وهو يبرز صدره ـ من إعادة مجدنا الأثيل، فأصبحنا نحكم من غرناطة أراضي شاسعة. بي بدأت سلالة ملوك ستعملون أنتم على تخليدها عبر الأزمنة، وهي سلالة سيُقَيَّضُ لها أن تحكم خلال قرون، بعون اللّٰه وبركته. سأترك لكم إمارة غنية يعمها السلام، وعليكم أنتم أن تحافظوا عليها، وتزيدوا من عظمتها.

لمعت عيون الشباب ببريق الزهو والكبرياء.

ـ أبتاه! ـ قاطع «محمد» الصغير أباه ـ سأقاتل من أجل أن أجعل «آل نصر» أكثر قوة وعظمة. ثم وضع يده اليمنى على صدره الذي ما زال يتلجلج من البكاء.

كبت ابن الأحمر ابتسامة، وأومأ بالموافقة وهو سعيد. فقد ذَكَّرَ الصغيرُ ابنَ الأحمر في طفولته حينما وعد أباه «يوسَف» بوعد شبيه.

ـ كما علمتم، لقد فقدنا «جيان» ـ واصل الأمير ـ وإنها لخسارة كبرى، غير أنها مهدت لنا الطريق لتأمين السلام، وإنقاذ النفس خلال أجيال عديدة. وكما تفعلون في لعب الشطرنج، أحيانا ينبغي أن تخسر قطعة من أجل أن تؤمن النصر في النهاية. ـ ثم أضاف ـ الآن نعيش في ظل هدنة، ونملك حدودا معترفا بها، ومحترمة من قبل النصارى.

ـ مرحبا، إذن، أن نفقد «جيان» ـ علق «يوسف» بلهجته العربية الأصيلة التي لم تخالطها أي نبرة مشوشة.

تطلع إليه أبوه قبل أن يستمر في كلامه.

ـ بالكاد أستطيع أن أقرأ ثلاثة أبيات متواصلة ـ اعترف دون خجل ـ لكن هأنذا جالس أمامكم أميرا يحكم غرناطة بأمييها وعلمائها. لن أمانع في أن تطلبوا العلم، فقد كانت ذلك رغبة أمكم، مادام أنكم لن تَعْرِضُوا عن فن الحرب. ـ أتم العبارة وهو يضع يده على السيف دون شعور منه ـ إن الحرب هي التي أوصلتنا إلى هنا.

ـ كذلك سنفعل يا أبي. ـ قال «فرج» بارتياح حينما علم أنه سيستمر في أخذ العلم.

ـ إن هذه المدينة جنة صغيرة. ـ واصل الأمير بنبرة تعليمية ـ غرناطة غنية، وخصبة، ومحمية جيدا، ويسكنها رجال أشداء هم عماد قواتنا. احرصوا عليها، واعتنوا بها، واستثمروا فيها لتكسبوا قلوب أهلها ـ توقف للحظة حتى يستعيد أنفاسه، ثم مد ذراعيه ليلفت انتباه أولاده إلى القاعة التي يوجدون بها ـ إن هذه القصبة الحمراء، وربضها، هما بيتنا. على أنه، أيضا، من مهامكم أن تعملوا على الاعتناء بهما، وتزيينهما إلى أن يصبحا المركز الذي يستحقه النصريون بالأندلس، أرض الأجداد المقدسة ـ نهض الأمير من مجلسه ثم نزل من المصطبة ـ أعلم أنكم ستعرفون كيف تعملوا لتكونوا جديرين على الدوام باللقب الذي تحملونه. ـ اقترب منهم وجعل يقبل كل واحد منهم على خده ـ أعتذر لكم إن

كنت أبا غائبا في الأغلب. يوما ما حينما تصبحون أنتم أيضا آباء، ستدركون قولي جيدا ـ ختم، وقد نسي نبرة الحاكم في صوته.

بإيماءة من يده، وابتسامة عريضة تنير وجهه دعاهم إلى الانصراف. من الخارج وصله صوت بكاء لم يفلحوا في كبته. كانوا قد سمعوا من والدهم معلوماتٍ كثيرةً، غير أنه في تلك اللحظة كان موت أمهم قد غطى على كل شيء.

تركهم ابن الأحمر يخففون عن أنفسهم بالشجى. ومن برجه، وقد انصرف أولاده، راح يتأمل القصبة القديمة، والأسوار، والبيوت المصبوغة بالأبيض [بالجير]، و«ربض البيازين» حيث استقر لاجئو «بَيَّاسة» و«أُبَّدة»، ثم ركز بصره في المدينة يشقها «وادي حَدَّارُه» el Darro، وحي اليهود القديم، والمروج التي تحيط بالحاضرة، وتخترقها أعداد لا تحصى من السواقي والقنوات، وقد تناثرت بين تضاريسها المُنْياتُ والقرى هنا وهناك. أخذ «محمد بن الأحمر النصري» نفسا عميقا وشم الرائحة القوية للتراب المبلل وهي تصعد من سفوح «السبيكة»، ثم تساءل في حزن أين تكون «عائشة» الآن، وقد طوحت بها طوائح الزمن، ورمت بها حوادث الأقدار، رفقة عشيقها الشاب. «ربما ـ مر بخاطره ـ يكونان يقاسيان العيش كقرويين، هناك، في فحص غرناطة». بعد ذلك، ذكر «دنيا»، وبطنها الناتئ، تذكر حملَ حبيبته، فأحس كما لو أن السحب المكفهرة التي كانت تغشاه قد انقشعت. كان حملها نتيجة ثمرة حب قوي قادر على هدم حياة، ثم إعادة بنائها.

كان يشعر، كما لو أن تلك الفتاة قد جمعت أشلاء نفسه، ثم أعادت تركيبها من جديد. كان قد راكم عددا من الجروح، ومن نكبات الدهر، حتى لم يعد يرى في حياته سوى متسع زمني طُبع على الدوام بضربات لم يتعاف بالكامل من بعضها حتى اللحظة. غير أنه كان، أيضا، قد ذاق من عسل الظفر والسلطة، واعتراف شعبه به، واحترام خصومه له... لقد أسس إمارة، وكان ماهرا في سياساته إلى حد أنه هدأ من غضب «قشتالة» بعد أن أيقظها من نومها. كان «أشقيلولة» سيكون فخورا به. هنا توقف في خطراته، ودعا لجده بعض الدعاء امتنانا واعترافا بالجميل له ولجميع من رافقوه في الدرب ولم يعودوا بجانبه الآن.

حل الأصيل، ولمعت في الأفق النجمة الأولى تؤذن بحلول الليل بعد قليل. بدأت العتمة تزحف على «غرناطة»، فتصاعدت من البيوت خطوط رقيقة من أعمدة الدخان. مرت لحظات وإذا بأصوات المؤذنين الحلوة تصدع في الأفق تدعو إلى صلاة المغرب. تهيأ «محمد» للذهاب إلى مصلاه الخاص ليقيم صلاته. غير أنه قبل ذلك، ألقى نظرة أخيرة على المدينة، وقد لفها هدوء المساء، وغمرتها وداعة الغروب..

مرت بخاطره بعضُ الشكوك حول ما يخبئه له القدر في السنوات القادمة. غير أن حقيقة واحدة فرضت نفسها عليه وعلى الجميع.

- إن قدر النصريين مرتبط بهذه المدينة. لن نغادر غرناطة أبدا..

[ثغر تطوان، 25 يناير، 2023، الساعة السادسة وعشر دقائق. المترجم].

# معجم

## [من وضع كاتب الرواية](43)

العباسيون Abbasíes

خلفاء ينتمون للأسرة العباسية التي كانت تحكم من بغداد. وقد انتقلت الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد بعد سقوط الأمويين.

الصداق Acidaque

المال المنقول أو الثابت الذي يقدمه الرجل، طبقا للشريعة الإسلامية، للمرأة بنية الزواج.

الأغزاز Agzaz

فرسان من أصول تركية يعتمدون السرعة والرمي بالأقواس في قتالهم. وكانوا يُعَدُّون من صفوة المقاتلين.

الغرامة[؟] Almogana

ضريبة إضافية كانت تجبى من الرعايا، حينما تقصر الضرائب الشرعية عن الإيفاء بحاجيات الدولة من المال.

الله أكبر Allahu Akbar

عبارة يرددها المسلمون بكثرة تعبيرا عن إيمانهم. كما يكررها المؤذنون للصلاة في الأذان.

الأنصار ayudante¨ Ansar¨

أطلقت اللفظة على صحابة نبي الإسلام، خاصة صحابته الأوفياء الذين هاجروا معه إلى يثرب (المدينة).

**العقيقة Aquiqah**

شعيرة إسلامية تقام احتفالا بازدياد مولود. وتقام عادة في اليوم السابع من الميلاد، بهدف اختيار اسم للمولود، وقص شعره، ونحر ذبيحة.

**بنو ¨Banu ¨los hijos¨¨los descendientes¨**

تستخدم هذه اللفظة لتعيين أصول الأسر، أو القبائل، بالإحالة على جد أعلى أو جد مشترك.

**البيعة Bay´a**

هي معاقدة وفاء وإخلاص بين المسلمين وولي أمرهم. وتكون بكتابة نص باسم شعب أو جماعة من الناس.

**الزكري Cegrí**

اسم كان يطلق على مقاتلي الحدود في البلاد الإسلامية. وكانوا خبيرين في حرب العصابات داخل أراضي العدو.

**التوابون الرباحيون Conversos calatravos**

كانوا يمثلون اليد العاملة الضرورية للقيام بأغلب أعمال الخدمة والأشغال التي تتطلب جهدا بدنيا في رهبانية قلعة رباح. وبالرغم من اعتبارهم قساوسة إلا أنهم كانوا يعيشون بعيدا عن الرهبان، ولا يشاركون في مجالس الكهنة.

**الكُورَةُ Cora**

ترسيم حدودي لمقاطعات قد يقابل اليوم ما يعرف بالأقاليم.

**«إكستريمادورا» Extremadura**

كانت اللفظة تعني، خلال القرون الوسطى بإسبانيا، وفي الممالك المسيحية، آخر المواقع التي تُؤخذ عَنوة من المسلمين في أقصى الجنوب، وتصبح حدودا فاصلة بين الممالك المذكورة وأرض الأندلس. وبذلك ظلت منطقة «صوريا»، مثلا، مدة تمثل «إكستريمادورا» «برغش». في حين كانت منطقة «إكستريمادومرا» الحالية بإسبانيا في الأصل «الاكستريمادورا الليونية».

الفقيه Faquí

عالم ومتضلع في الشريعة الإسلامية.

الفاتحة Fatiha

هي السورة الأولى في القرآن.

الغِلالة Ghilala

لباس داخلي للنساء.

الحُبُس Habiz

هي الأموال الثابتة أو المنقولة التي كان توقف بشروط معينة، وخلال زمن معين، للقيام بأعمال الخير، أو لتستفيد منها مؤسسة ما. وعادة ما كانت الأوقاف الإسلامية تخصص للعناية بالمساجد. وإن كانت هذه الأموال الجارية قد تخصص لأهداف أخرى، مثل بناء الأسوار لحماية البلدات والمدن.

الحفصي Hafsí

الحفصيون أسرة بربرية مصمودية حكمت في البداية «إفريقية» (تونس الحالية) باسم

الموحدين. غير أنها أعلنت استقلالها عنهم ابتداء من سنة 1229.

الحمام Hammam

مُنشأة الاستحمام. ورثها المسلمون عن الرومان. وعادة ما يقصدها المسلمون للاغتسال، وحلق الذقون والرؤوس، وتدليك الأجسام. وقد اعتبرت في القديم مكان لقاء وعلاقات اجتماعية. وكان الرجال والنساء يتقاسمون فضاء الحمامات حسب أوقات مخصوصة تارة بالرجال، وأخرى بالنساء.

الإِلْشِي Helche

المرتزق النصراني الذي يعمل في أرض الإسلام.

هنتاتة Hintata

قبيلة بربرية مصمودية فيها انتشرت الدعوة الموحدية وتقوت.

الخطيب Jatib

الرجل الذي يخطب في الناس بالموعظة إبان صلاة الجمعة. وفي العادة يتكلف بهذه المهمة الإمام. غير أنه بالإمكان تعيين من ينوب عنه.

الخُطبة Jutba

وهي الموعظة التي يخطب بها الخطيب في صلاة الجمعة. وهي أهم صلاة عند المسلمين.

الكاتب Katib

السكرتير. الموظف الذي يعمل في الإدارة.

المجلس Madjlis

القاعة الكبرى في الدار، والمكان الذي يستقبل فيه صاحب الدار ضيوفه.

المهدي Mahdi

شخصية ذات طابع مسيحاني ستأتي إلى الأرض لتخلص البشرية من الشرور قبل نهاية العالم.

المقبرة Maqbara

تقع المقابر الإسلامية في العادة خارج أسوار المدن، قريبة من أحد أبوابها، وتحاط في الأغلب بسور.

مصمودة Masmuda

مجموعة قبائل بربرية، تقطن أشرفها بجبال الأطلس. وكانت هذه القبائل عماد الحركة الموحدية في بداياتها.

مولانا Mawlana

لقب تشريفي يخصص لمناداة الشخصيات البارزة في المجتمع. وقد كان مقصورا في المملكة النصرية على مناداة الأمراء.

المشور Mexuar

مجلس المستشارين الذي يساعد الأمير على اتخاذ القرارات. وكان يضم الوزراء.

المحراب Mihrab

تجويف في جدار المساجد، يرشد المصلين إلى الاتجاه الذي ينبغي الالتزام به في الصلاة.

المنبر Mimbar

المكان الذي يلقي منه الإمام أو الخطيب

مواعظه.

المُنية Munia

دار في الريف محاطة بالبساتين والأراضي الزراعية، كانت تقصدها الطبقة الأرستقراطية للتنزه والاستراحة.

المصلى Musalla

مكان في الهواء الطلق يستخدمه المسلمون لإقامة صلاة الجماعة أو الصلوات التوسلية.

النقيب Naqib

قائد مفرزة من الجند. ويقابل تقريبا رتبة «قبطان».

قبطيل Qabtil

الاسم العربي الذي كان يطلق على ما يعرف اليوم بـ «إيسلا مينور» في إقليم إشبيلية. وقد تعرض هذا الموقع في سنة 844 م إلى غارة سلب ونهب من قبل الفيكينغ ضمن حملتهم على إشبيلية ومنطقتها.

القائد Qaid

رتبة عسكرية سامية في الجيوش الإسلامية. ومعناها غير دقيق، ويمكن أن يساوي رتبة جنرال.

قَيْنة Qayna

الجارية المغنية أو الراقصة. وكانت القيان عادة ما يتلقين تكوينا فنيا وعلميا راقيا.

القبلة Quibla

وهو الاتجاه الذي ينبغي على المسلم أن يتوجه

إليه في صلاته. وهو يشير إلى الكعبة بمكة.

الرباط **Rábita**

مُنشأة محصنة ذات طابع عسكري، عادة ما كانت تؤسس في مواقع حدودية أو استراتيجية مهددة من العدو. وكانت وظيفتها الأساس هي الحرص على إقامة شعائر الدين والجهاد. وكان يطلق على قاطني الرباط اسم «مرابطين» باعتبارهم يجمعون بين الوظيفتين العسكرية والدينية.

الوادي الأبيض **Río Blanco**

وهو الاسم العربي للوادي المعروف اليوم باسم نهر شقورة.(44)

الشيطان **Saitan**

وهو الاسم الذي يطلق على إبليس في الإسلام.

شيخ **Sayj**

لقب تشريفي كان ينادى به على الزعماء القدوة في لمجتمع. ويحمل اللقب شحنة دينية قوية، ومن ثمة لم يكن يطلق سوى على الأشخاص المتصفين بالفضائل والصفات الكريمة.

سيد **Sayyid**

وهو لقب تفخيم يُنادى به الأشخاص البارزون في المجتمع.

طبيب **Tabib**

ويعني الطبيب الذي يعالج المرضى.

الطريقة **Tariqa**

نهج روحاني في التصوف الإسلامي. وتجمع الطريقة في تصور أصحابها طائفة من القواعد والمفاهيم حول الصلاة، والحياة، والذات الإلهية. وعادة ما تتمحور حول شخصية معلم روحاني.

الكر والفر Tornafuye

تكتيك تقوم به الخيالة الإسلامية الخفيفة. وأساسها القيام بهجوم على العدو ثم العودة سريعا على الأعقاب، والتظاهر بالهرب قبل أن يقع الالتحام مع العدو، حتى إذا بادر هذا إلى تعقب المتظاهرين بالفرار من المعركة، يعود الفرسان من جديد إلى الكر مستخدمين الأسلحة القاذفة، دون أن يصل القتال إلى الالتحام المباشر.

الوالي Wali

حاكم منطقة، عادة ما تكون مساوية لإقليم.

الوليمة Walima

المأدبة التي تقام في العادة بعد حفل الزواج.

شرق الأندلس Xarq al _ Ándalus

الجهة الشرقية من الأندلس.

الجهاد Yihad

لفظ مختلف في معناه، وله معان عدة. ويمكن فهمه بأنه صراع داخلي من أجل الحفاظ على الإيمان، وعلى حياة مستقيمة داخل الإيمان ذاته، غير أنه في أغلب الأحيان يعني «الحرب المقدسة» أي القتال من أجل الدفاع عن الإسلام، إن لم يكن العمل على نشره بالقوة كما يؤكد

العلامة المسلم ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي.

الجن Yin

يعترف الإسلام بالجن باعتبارهم مخلوقات غير مرئية ذات قدرات خارقة يمكن أن تؤثر في البشر.

الزكاة Zakat

وهي ركن من أركان الإسلام الخمسة، وتعني وجوب التصدق بجزء من المال الخاص لمن يحتاجون إليه من الفقراء والمساكين.

الزاوية Zawiya

مدرسة دينية أو دار للصلاة عند المسلمين.

الزناتيون Zenetes

نسبة إلى قبيلة بربرية كانت تسكن بصفة رئيسية فيما يعرف اليوم بالجزائر.

الزيريون Ziríes

قبيلة بربرية تنحدر من شمال الجزائر. وكان زاوي بن زيري قد انتقل إلى الأندلس للقتال تحت إمرة المنصور العامري. وهو مؤسس مملكة غرناطة الزيرية سنة 1013 بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة.

# شكر وامتنان

أتوجه بشكري إلى زوجتي وابني، سَندي المطلقين اللذين يحليان حياتي ويعطيان لها معنى. بجانبهما كل شيء هين سهل، يفهماني، ويلهماني، ويخففان عني كلما غدا الحكي صعبا مريرا.

إلى والدَيَّ اللذين عَلَّمَا لي الطريق، ودفعا بي إلى أن أبدأ المشوار. ولكم أفتقد والدي الذي عرف كيف يزرع في مهجتي حب أرضي. أما أمي، فما زالت تدعمني يوما عن يوم في كل مشاريعي، فشكرا لها على ما تقدمه لي من مثال، وعلى حبها المطلق.

جزيل شكري لعائلتي ولأصدقائي لأنكم تملؤون بنوركم عتمات حياتي.

إلى «إيبا مرتين» التي وثقت في شخصي منذ سنوات طويلة، ولم يزد مرور الزمان على أواصر الصداقة التي تجمعنا سوى صلابة وقوة.

والشكر موصول لـ «پنلوپي»، ناشرة كتبي، لأنها آمنت بمشروعي، وأعادت بعملها المتواصل، واحتفائها بمخطوطة روايتي ألق مهنة النشر بعد أن فقدت وهجها. وإنها لمقاتلة حقيقية، لا تني ولا تهن، وأحترم فيها بالتساوي إصرارها وصبرها.

كما أنني ممتن لـ «فرنان» و«إيميليو»، اللذين أنتجا شريط الفيديو الذي أشهر بعملي.

جزيل شكري، أيضا، للكاتبين «بلاس مالو» و«كارولينا مُلينا» رفيقي في مهنة الكتابة،

الذين تقاسمت معهما تجارب عظيمة خلال «أيام الرواية التاريخية» بغرناطة.

إلى قراء النص وهو ما زال مخطوطا، فجودوه بملاحظاتهم: «ماري آنخليس»، «فيكتور ألكنترا»، «خانا»، «خوانما»، «آلكس»، «پابلو نحوم»، «ماري آنحليس پوليدي»، «إنريكي خورادو»، «پكي گوتييرث»، «خوان پيرث»..

والشكر أيضا موجه لـ «ماريا خيسوس بيگيرا»، التي وضعت رهن إشارتي أعمالها التاريخية الرائعة، ولـ «باربرا بولويش،» التي كانت أعمالها عن أسرة بني نصر المفاتيح لكتابة هذه الرواية.

ولا أنسى امتناني لهؤلاء الأحبة الذين ساعدوني في هذه الأعوام الأخيرة على ممارسة مهنة الكتابة، أذكر منهم خاصة «ماري أنخليس بوكندو» و«خانا» صديقتي الأثيرتين والقارئتين النهمتين، كما أني ممتن لـ «پاكو مورينو»، و«پاكو پرطيلا»، «خيسوس پيريدا»، و«فرناندو سانتثروميرو»، و«بلانكا ميوشي» .

# معجم تاريخي حضاري من وضع المترجم

ابن الأحمر (بطل الرواية)

هو أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي الأنصاري أول سلاطين بني الأحمر. يلقب بالغالب بالله «نشأ بأرجونة أوفر البلاد غِلَّةً» ـ يقول مؤرخ النصريين ذو الوزارتين ابن الخطيب في اللمحة البدرية ـ ، ثم يصفه بأنه «آية من آيات الله في السذاجة والسلامة والجَوْهَرِيَّةِ (قوة الصوت وحضور الشخصية)، جُنديا ثغْرِيا شهْما (...) رافضا للدعة والراحة، مؤثرا للقَشْفِ (للتقشف)، والاجْتِزاءِ باليسير، مُتَبَلِّغاً بالقليل (يقنع بقليل الطعام)، مصطنعا لأهل بيته (...)، حاميا لقرابته وأقرانه وجيرانه (...) يلبس الخشن، ويُؤْثِرُ التَّبَدِّي (يفضل حياة البادية)» إلى أن يقول: ولما تملك «الحضرة (أي غرناطة) اضطر إلى المال، فَعَظُمَ على العمَّالِ ضغطُه، وابْتَنَى حصْنَ الحَمراء، وجلبَ له الماء وسَكَّنه، وباشر بنفسه الحِسْبَانَاتِ (مراقبة مالية الدولة) فتوَفَّرَ مالُه، وغَصَّت بالصامت (الدنانير الذهبية وغيرها) خزائنهُ، وعقد السلمَ الكبيرة (خضوعه لفرناندو الثالث، وعقد اتفاق السلم معه لمدة عشرين سنة) وتهنَّأَ أمره (...) وملأ بطنَ الجبل المتصل بمعقِله حُبوبا مختلفة، وخزائنَ دورِه مالا وسِلاحا (...) فوجد فائدة استعداده...» ثم يذكر ابن الخطيب أنه افتتح عهده بالدعاء للمُسِتَنْصِر العباسي، ثم تظاهر بعد ذلك بطاعة الملوك بالعُدوة وإفريقية فـ «توصل

بسبب ذلك إلى إمداد منهم بمال وإعانة».

وكان يَعْقِدُ للناس مَجْلساً عاما يومين في كل أسبوع، يحضره أرباب النصائح «قضاة الجماعة، وأولو الرُّتَبِ النبيهة» فيشافه خلاله طلاب الحاجات...

وقد أعقب ثلاثة من الذكور: محمدا، وَليَّ عهدِه، والأميرين فرجاً ويوسفَ، توفيا على حياته. وَوَزَرَ له جماعةٌ من الأَجِلَّة: منهم الوزيرُ أبو مروان عبد الملك بنُ يوسف بنِ صَناديد، زعيمُ جيان... وكان من كتابه علماء منهم أبو الحسن الرُّعَيْني، والكاتبُ الشهير أبو بكر بن الخطاب؛ وَوَلِيَ له قضاء الجماعة القاضي النظار أبو عامر، والقاضي أبو عبد الله محمد به عياض، حفيد عالم المغرب القاضي عياض اليحصبي السبتي.

وكان قد قام بدعوته إلى غرناطة ابنُ خالد جَدُّ بني خالد الغرناطيين وهو بجيان فبادر إليها في أخريات رمضان سنة 635 هـ/أبريل 1238 بعد أن بعث إليه ببيعة الناس بها مع رجلين من مَشْيَخَتِهِمْ هما أبوبكر بن الكاتب وأبو جعفر التِّيُرولِي.

يقول ابن عِذاري في بيانه يصف وصول ابن الأحمر إلى غرناطة: «أقبل وما زِيُّهُ بفاخر، ونزل عَشِيَّ اليوم الذي وصل فيه بخارج غرناطة على أن يدخلها من الغد، ثم بدا له، فدخلها غروبَ الشمس، آخذا بالحزم». وحدَّثَ البَسْطِيُّ قال: «عاينته يوم دخوله، عليه شاشيةٌ (وتعني القبعة في اللسان الأندلسي والمغربي) مِلْفٍ (تعني عند الأندلسيين والمغاربة الجوخ، وقماش الصوف)

مُضلعةٌ، أكتافها مُمَزَّقةٌ. وعندما نزل بباب جامع القصبة كان مؤذنُ المغرب في الحَيْعَلَة (يقول حي على الصلاة) (...) والإمام لم يحضر، فدفع الأشياخ السلطان إلى المحراب»، فصلى بالناس «على هيئته تلك» في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة النصر، وفي الثانية بسورة الإخلاص. ثم دخل قصر باديس، والشمع بين يديه.

وكان مولد ابن الأحمر عام الأرك 591 هـ/1212 م، ووفاته في منتصف جمادى الثانية من عام 671 هـ/13 يناير 1273 م. على إثر سقوطه من حصانه وهو يكر عائدا إلى قصره بعد أن أخمد تمردا ضده.

وقد وقف ابن الخطيب على قبره وسجل لنا ما نقش عليه، ومن جملته: هذا قبر السلطان الأعلى، عز الإسلام (...)، غياث الأمة (...) قطب الملة، نور الشريعة، حامي السنة (...)، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قامع الطغاة، قاهر الكفرة والبغاة (...)، المجاهد في سبيل الله أبو عبد الله محمد بن يوسف (...) وُلد ...

هذا مَحَلُّ العُلا والمَجْدِ والكرمِ

قبرُ الإمامِ الهُمامِ الطَّاهِرِ العَلَمِ

لِلَّهِ ما ضَمَّ هذا اللحْدُ من شرفٍ

جَمٍّ ومن شِيمٍ عُلْوية الهِمَمِ

فالبأسُ والجودُ ما تحوي صفائِحُهُ

لا بأسُ عنترةَ ولا ندى هَرِمِ

كأنَّهُ لم يَسر في جَحْفَلٍ لجبِ

تضيقُ عنهُ بلاد العُرْبِ والعَجمِ

## الأرك وأسطورة اليهودية راكيل

أورد ألفونسو العاشر في تاريخه أسطورة عن هزيمة ألفونسو الثامن في معركة الأرك، يذكر فيها أن اندحار الملك القشتالي أمام الجيش الموحدي بقيادة الخليفة المنصور كانت عقابا ربانيا، سببه قصة حب عاشها ألفونسو مع يهودية رآها تستحم مرة بنهر «التاجه» فهام بها حبا، وهجر زوجته الشرعية ليونور دي پلانطاجيت مدة طويلة، حتى إذا تشكت المرأة لرجال البلاط، وتم قتل اليهودية راكيل، وندم الملك على فعلته، عفا الرب عنه، وكلل حياته بكثير من الانتصارات على رأسها انتصار معركة العقاب. وكانت العقوبات الربانية التي قاسى منها ألفونسو الثامن جراء هذا الذنب - حسب الأسطورة - هزيمته، كما أشرنا، في معركة العقاب، وموت ابنه ووارثه الملك الصغير إنريكي في حادث غامض.

## ابن هود المتوكل

كان ابن عِذاري المراكشي من أصدق المؤرخين في وصف شخصية ابن هود المتوكل رحمه الله حينما ذكره بقوله: «كان من أسلم الملوك صدرا» إلا أنه كان بطبعه «ملولا عجولا». ويقول فيه ابن الخطيب: «كان شجاعا، كريما، حَيِّيا وفيّا، (...) سليم الصدر، قليل المبالاة بالأمور، محدودا، لم يُنصر له جيش، ولا وفق له رأي لغلبة الخفة عليه، واستعجالِه الحركات ونشاطِه إلى لقاء الأعداء من غيرِ كمالِ استعداد. وهو ما يفسر فشل «ابن هود» في إحياء الحكم الأندلسي بالجزيرة.

فبالرغم مما اتصف به المتوكل من شجاعة وكرم، وإيمان ديني راسخ، وسعي صادق إلى توطيد العدل بين الرعية والرفق بها، إلا أنه فشل في مساعيه فشلا ذريعا، علما أن صعوده كان في فترة تطاحن داخل البيت الموحدي الذي كان في طريقه إلى الانهيار التام في المغرب والأندلس، وهذه كلها عوامل كان بالإمكان لو استغلها الأمير الهودي لقوت من دعوته، غير أنه كان ينقصه دهاء الساسة الكبار، وروية المخططين العسكريين المحنكين، إضافة إلى غلبة الخفة عليه لطبعه الملول العجول، وتسرعه في خططه التي لم يكن يأخذ لها الحيطة والحذر اللازمين. وما هزيمته، مثلا، في معركة «حصن الحنش»، التي كانت أول معركة ميدانية كبرى يخوضها، سوى مثال على ضعف رأيه، ونقص قدراته التخطيطية، حيث حشر منذ البداية ساقة الجيش في المعركة... وقل الكلام نفسه بشأن الجيش الضخم (35.000 مقاتل) الذي قاده لإنجاد قرطبة، العاصمة التاريخية للأندلس، وهي محاصرة من قبل «فرناندو الثالث»، وفرسان الجمعيات الدينية (الرهبانيات)، إذ لما وصل إلى أحوازها نكل عن إنجادها، وأحجم عن مقاتلة القشتاليين الذين كان من المحتمل أن يظفر بهم لقلة أعدادهم، إلا أنه ترك «قرطبة» وأهلها لمصيرهم، وغادر دون أن يبدي أي سبب، فسقطت الحاضرة في يد المسيحيين بعد أكثر من خمسة قرون من الحكم العربي الإسلامي، وَحُوِّلَ مسجدُها الأعظم في نفس يوم دخول النصارى (الأحد 23 شوال 633هـ/ 29 يونيو 1236) إلى كنيسة. وبذلك لم يتمكن ابن

هود من تجنب المثالب القديمة التي كان يسقط فيها عادة الزعماء الأندلسيون في الغالب، والتي تلخص في التناحر فيما بينهم (شهدت هذه الفترة التقاتل بين ابن هود، وابن الأحمر، وأبي جميل زيان ابن مردنيش، والرميلي حاكم ألمرية وقاتل ابن هود...)، والأخطر مصانعة النصارى، والاحتماء بهم، والانقياد لسياساتهم المدمرة للأندلس. ومن ثمة فشل أميرُ المسلمين ابن هود المتوكل في سعيه، وانتهى مشروعه بعد تسع سنوات من الحكم المضطرب، إلى الزوال.

أفريقيا

يستخدم المؤلف للدلالة على المغرب وبَر العدوة لفظ «أفريقيا». وإذا كان الشائع عند العرب إطلاق «إفريقية» على المغرب الأدنى، أي تونس، دون المغربين الأوسط والأقصى، وكان الإسبان يتعمدون إطلاق «أفريقيا» على المغرب لأسباب إيديولوجية ذات علاقة بالصراع التاريخي بين الشعبين العريقين أهمها نفي الوجود المغربي وأهميته... فقد عمدت - في الغالب حينما يقصد الكاتب بأفريقيا الدولة المغربية إلى استخدام بر العدوة أو المغرب عوض مصطلح أفريقيا، تجاوزا، أولا، لهذا الموقف العنصري، وثانيا، ليستقيم فهم السياق للقارئ العربي... والحال أن مصطلح المغرب هو الاسم التاريخي الذي وضعه العرب للمنطقة منذ الفتح الإسلامي.

أراضي الإنفنطاثگو

يقصد بـ Infantazgo الأراضي الحدودية - وما تشمله من أديرة - التي كان ملوك النصارى

يقدمونها لبناتهم العزباوات للسهر على إدارتها، والقيام بشؤونها. وكانت هذه الممتلكات تعود إلى المملكة الأصل عند وفاة المستفيدة.

أبو يعقوب يوسف الموحدي

أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن الموحدي هو ثاني الخلفاء الموحدين. كان حاملا للقرآن الكريم، وراوية للحديث، وحافظا لصحيح البخاري. عرف بفصاحته وبلاغة لسانه، فكان أعلم الناس في عصره بعلوم اللغة، فاجتمع في بلاطه شعراء العصر وأدباؤه. من بينهم العالمة حفصة الركونية الغرناطية، التي كانت معلمة بناته. وقد عرف عن الخليفة أبي يعقوب يوسف شغفه بالجهاد في الأندلس. توفي سنة 570 هـ (29 يوليو 1184) على إثر إصابته بجراح خطيرة في معركة «شنترين»، في البرتغال اليوم، لم تنفع معها جهود طبيبَيْه ابن زهر وابن طفيل لإنقاذه.

أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي

يعد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي (1160م ـ 1199م) قاهر الصليبيين في معركة «الأرك» من أعظم ملوك الإسلام، وقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان «نجم بني عبد المومن»، بويع بالخلافة بعد وفاة والده أبي يعقوب يوسف. وجعل من الدولة الموحدية أكبر إمبراطورية حكمت الغرب الإسلامي على الإطلاق، بعد أن امتدت حدودها من أقصى الشمال الشرقي للجزيرة الإيبيرية إلى حدود مصر. وقد اجتمع في بلاطه أعظم فلاسفة العصر وأدبائه في الغرب الإسلامي. وكان المنصور هو من أوحى لابن رشد، بواسطة وزيره الفيلسوف

ابن طفيل، بشرح كتاب أرسطو. كما عرف عنه ولعه بالمشاريع العمرانية الكبرى: فهو باني الرباط عاصمة المغرب الحالية، ومئذنة «لاخيرالدا» الشهيرة بإشبيلية... وكان قد عزم قبل وفاته على بناء أكبر مسجد في العالم [جامع حسان بالرباط] لولا أن الموت عاجله قبل إتمامه. وكان صلاح الدين الأيوبي قد راسله بعد استرداده لبيت المقدس برسالة طويلة...

أبو الحجاج يوسف بن قادس

وهو من أنجاد الفرسان والقادة الأندلسيين. وكان النصارى قد ضيقوا عليه بقلعة رباح وهو على رأس سبعين فارسا فقط. فاضطر بعد حصار شديد إلى تسليم القلعة لألفونسو الثامن. وقد قَدِمَ ابن قادس مع صهره وجماعة من الفرسان إلى معسكر الناصر الموحدي ليقدم تقريره عن ظروف استسلامه، فمنعه الوزير أبو سعيد بن جامع من لقاء الخليفة، بعد أن أوغر صدره عليه، واتهمه بالخيانة، فأمر الناصر بإعدامه دون أن يستمع إلى عذره، فأعدم طعنا بالرماح هو وصهره. فكان ذلك نذير شؤم، خاصة حينما هدد هذا الوزير العاجز القواد الأندلسيين بطردهم من الجيش.

أقوال المؤرخين المسلمين في معركة العقاب

كانت معركة العقاب ضربة قاضية بالنسبة للمغرب والأندلس حيث أبيدت فيها الحشود من القبائل البربرية والعربية. وسأورد بعض ما قاله المؤرخون المسلمون عن المعركة: فيذكر المراكشي في بيانه أنها كانت سببا في «هلاك

الأندلس»، ويصفها صاحب الحلل الموشية بأنها الهزيمة العظمى «التي فني فيها أهل المغرب والأندلس»، ويصفها المقري بأنها الوقعة المشؤومة التي «خلا بسببها أكثر المغرب [..]. ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد». ويقول عنها ابن أبي زرع الفاسي في الذخيرة السنية: «إن المغرب قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته وأبطاله، وقتلت قبائله وأقياله، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب». ويلخص نتائجها ابن الأبار في قوله: «أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها، وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها، حتى استولت عليها». ويلخص صاحب الروض المعطار أثر النكبة بقوله: «وكانت هذه الوقيعة أول وهن دخل على الموحدين، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة».

البابا هونريوس

كان البابا «إينوسان الثالث» قد ألغى زواج «برنگيلا» من «ألفونسو التاسع» ملك «ليون». وهو ما نتج عنه عدم اعتراف الكنيسة بأبناء «برنگيلا»، ومنهم «فرناندو الثالث»، من «ألفونسو التاسع». غير أن البابا الجديد، «هونريوس» حفاظا منه على قوة قشتالة في مواجهة المسلمين، وإبقاء على رباط الوحدة بين المسيحيين الذي ميز هذه الفترة، اعتبر أن «فرناندو» ابن بالتبني من «ألفونسو»، أي أنه أصبح ابنا شرعيا يحق له أن يرث أباه ملك «ليون».

البابا وزواج الأقارب الملوك

يمنع القانون الكنسي، خاصة الكاثوليكي، زواج الأقارب، إلا أن البابا في القرون الوسطى كانت لديه سلطة إعلان الحرمان الكنسي في حق بعض الشخصيات البارزة، أو منح الإعفاءات منه، حسب مصالح الكنيسة، خاصة في حالات الزيجات الملكية. ونمثل في هذا الصدد بالتهديد بالحرمان الكنسي الذي مارسه البابا إينوسان الثالث في حق ألفونسو التاسع ملك ليون، إن لم يطلق زوجته برنگيلا والدة فرناندو القديس (الثالث). ذلك أن الكنيسة كان لها حساب قديم ضد هذا الملك بسبب ارتباطه بحلف مع الموحدين المسلمين قصد مؤازرته في الدفاع عن مملكته ضد مملكتي قشتالة وأراجون النصرانيتين، وهو ما لم تغفره الكنيسة للعاهل الليوني. والواقع، كان الاستنصار بالموحدين من قبل الملوك النصارى أمرا جاريا. ونمثل بملك «نافار» سانشو القوي الذي جاز المضيق إلى مراكش سنة 1199 م مستنجدا بالخليفة الناصر الموحدي الذي أكرم وفادته واحتفى بمقدمه. وقد قضى ملك نافار سانشو القوي بمراكش زهاء سنتين قبل عودته إلى بلده.

برج الحمام أو الحمة

يعد بُرج الحَمَّام أو كما كان ينطقه الإسبان قديما **Burgalimar**، وهو المعروف اليوم بـ **Baños de la Encina** أحد أكثر الحصون الإسلامية في إسبانا حفاظا على هندسته الأصلية. ويقع في مقاطعة جيان. وكان الخليفة الحكم المستنصر قد أمر بإنشائه. وانتهت الأشغال به سنة968 م. وتُرى هذه القلعة الجليلة على بعد عشرات

الكيلومترات على ممر الموردال الذي كان يربط في القديم بين الأندلس وقشتالة قبل أن يصبح ممر «ديسبينيابيروس» الممر الرئيس بين المقاطعتين في القرن الثامن عشر.

برج كاراماجول (في القصر الكبير)

استقر ابن هود المتوكل في «القصر الكبير» بـ «مرسية» حيث «برج كارماجول». وقد حوله النصارى فيما بعد إلى كنيسة. وكان هذا القصر جزءا من «القصبة» (مركب يجمع بين القصور الملكية والتحصينات العسكرية) وقد عثر أخيرا على بقايا من هذه المُنْشأة الكبرى، منها أجزاء من القصر الكبير، والروضة، والمصلى. واللافت أن محراب المصلى وصلنا كاملا بنقوشه الإسلامية الزاهية، ذلك أن الموحدين كانوا قد غطوا نقوشه بالجبس تمسكا بما عرف في هندستهم المعمارية من تقشف في الزخارف، وبقي قرونا مغطى حتى عثر عليه حديثا.

البياسي

هو السيد أبو محمد عبد الله، وحين خروج أبي العلاء إدريس لمواجهته غادر جيان ولجأ إلى بياسة وامتنع بها فأطلق عليه من ذلك التاريخ «البياسي». وكان قد بعث رسله إلى فرناندو يستنصر به. فكان ذلك مصيبة أخرى على الأندلس تذكر باستنصار ملوك الطوائف بالنصارى. وتذكر الرواية الإسلامية أن هذا اللقاء بين البياسي وفرناندو كان سنة 625 هـ/1225 م. وفيه تعهد السيد لفرناندو بتسليم حصون مرتُشْ، وأندُوجَر وجيان متى خلصت في يده، مقابل تعهد ملك

قشتالة تقديم المعونة العسكرية للأمير المسلم.

التَّجْفَافُ

ما يُجلَّلُ به الفرس من سلاح وآلة يقيانه الجراح في الحرب.

توزيع الغنيمة

حكم توزيع الغنيمة في الإسلام كالتالي: تقسم إلى خمسة أخماس، الخمس الأول يصرف لبيت مال المسلمين، وللنبي، ولذوي القربى، ولليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل، أما الأخماس الأربعة الباقية فتوزع على من شهد القتال. وهذه الأحكام لا تطبق على الفيء الذي هو ما جلا عنه الغريم خوفا، فغنمه المسلمون.

تراجع الخليفة المنصور الموحدي

بقي الطريق مفتوحا أمام المسلمين بعد انتصار معركة الأرك، نتيجة هزيمة التحالف المسيحي، فوصلت طلائع الموحدين إلى أسوار العاصمة طليطلة. غير أن الخليفة المنصور اضطر إلى التراجع، بعد أن وصلت الأخبار من بر العدوة متحدثة عن وقوع قلاقل. وبذلك لم يتيسر للمنصور استغلال ظرف هزيمة النصارى في الأرك لصالح الأندلس، وهو ما اعتبره المؤرخون هفوة استراتيجية جسيمة.

الثَّغرِي

عند الأندلسيين والمغاربة من يلزم الثغور للدفاع عنها. من قولهم: «ثاغَر الجند»، أي لزموا الحدود للدفاع عنها. والفعل من اشتقاقات المولدين، إذ

لم يرد في المعاجم العربية. و«الثَّغْرُ» هو الموضع الفاصل بين أراضي المسلمين وأراضي غيرهم، ويخاف أن يأتي منه العدو. ومنه أخذ اللقب الأندلسي «الثغري» وهو معروف اليوم بالمغرب، وخاصة بمدينة «تطوان». وينطق «زِكري» **Zekri**.

ثورة ابن مردنيش

عندما تأججت الثورة ببلنسية، وغادر السيد أبو زيان مع أهله الحاضرة الشرقية، نادى البلنسيون برياسة أبي جميل زيان بن مردنيش الجذامي. فقدم من حصنه بأبدة إلى بلنسية، وعقد البيعة لنفسه (626هـ/1229) ودعا للخليفة المستنصر ببغداد. فدخلت في طاعته عدة من الحصون، غير أنه سرعان ما اضطرمت الفتنة بينه وبين ابن هود، فوقعت بينهما معركة هزم فيها أبو جميل الذي سارع إلى الامتناع ببلنسية. وبذلك عمت الفتنة شرقي الأندلس، وتكالبت قوى النصرانية من كل جانب: في الشرق مملكة أراغون، وفي الوسط مملكة قشالة، وفي الغرب مملكة «ليون»، والمسلمون في صراع مرير فيما بينهم. وبذلك بدت معالم فترة جديدة من فترات ملوك الطوائف المعهودة في الأندلس. الأولى بعد تفتت الخلافة الأموية، والثانية بعد سقوط الدولة المرابطية، والثالثة هي هذه التي تحياها الأندلس بانهيار الخلافة الموحدية على إثر معركة العقاب المشؤومة. وقد كتب الفقيه أبو بكر عزيز بن خطاب البلنسي كتابا يدعو فيه أبا جميل بالدخول في طاعة ابن هود قبل فوات الأوان بانقطاع رياسة المسلمين بالجزيرة نتيجة هذه

التفرقة، لأن المستفيد الوحيد من هذه النعرات والتفرقة، كما جاء في الرسالة، هو عدو الدين الذي سيستولي على البلاد والعباد.

ثورة الغرناطيين بزعامة ابن خالد

كان ابن هود قد ولى عتبة بن يحيى المغيلي واليا على غرناطة. فأظهر غلظة في معاملته للغرناطيين وميلا إلى إيذاء الناس. فلم يسلم من فظاظته كثيرون، بمن فيهم ابن الأحمر الذي كان هذا الوالي يسبه على المنابر. فثارت جماعة من أهل الحاضرة بزعامة ابن خالد على المغيلي هذا، واقتحموا عليه القصبة والقصر وقتلوه. فبعثوا إلى محمد بن الأحمر النصري يعلنون طاعتهم له، ويدعونه إلى موافاتهم لتولى الرياسة عليهم. فبادر االأمير بالذهاب إلى غرناطة، ودخلها في متم رمضان سنة 635 هـ موافق أبريل 1238م. وهو يرتدي المرقعات وثوبا خشنا، وقصد مسجد القصبة، وأم الناس لصلاة المغرب. وبذلك أصبحت الحاضرة الغرناطية عاصمة إمارته النصرية، وتخلى عن جيان لقربها من الحدود مع النصارى، وتهديدهم الدائم لها.

ثورة السيد أبي العلاء على أخيه الخليفة العادل

بتاريخ الثاني من شوال سنة 624 هـ/15 سبتمبر1227 م. وكان السيد أبو العُلى (أبو العلاء) والي إشبيلية وقرطبة قد خلع طاعة أخيه بعد تفكير مسبق، ومشاورات لجس النبض، جرت بينه وبين بعض شيوخ الموحدين بإشبيلية. وكان من جملة من دعوا إلى خروج السيد أبي العلاء قاضي الحضرة أبو الوليد بن أبي الأصبغ بن

الحجاج. فقد أوعز السيد أبو العلاء للقاضي بأن يخطب في الناس في رمضان من سنة 624هـ خطبة بليغة يشير فيها من طرف خفي إلى ما يدور بخلد السيد أبي العلاء من القيام بأمر الخلافة، وما يتصف به من جميل الصفات التي تؤهله لذلك. فكان لأبي العلاء ما أراد، إذ اجتمع أشياخ الموحدين بمجلسه في اليوم التالي، وقاموا بمبايعته، فسمى نفسه بالمأمون. فبايعه على أثر ذلك بعض ولاة الأندلس على رأسهم والي بلنسية السيد أبو زيد. ثم تبعتهم بعد ذلك من العدوة (المغرب) طنجة وسبتة. ويذكر المراكشي في بيانه أن القاضي أبا الوليد حينما خطب في الناس بأمر أبي العلاء كان «في غاية من الخوف والحذر إذ لم يكن يعلم أحد بذلك غيرهما، ولا دبر ذلك الأمر أحد معهما. ولقد عرفني ـ يقول المراكشي ـ من أثق به أنه شاهد رِعدة في الخطيب في وقوفه بحيث أنه كان قريبا من السقوط إلى الأرض، وكل ذلك من شدة الخوف من عاقبة الأمر».

جبال الشارات Sierra Morena

وتمتد لمسافة 450 كلم من الشرق إلى الغرب. وقد شهدت هذه السلسلة الجبلية (وتعرف أيضا بجبل المعدن) عبر التاريخ الأندلسي أحداثا خطيرة باعتبارها كانت تمثل لفترة ليست بالقصيرة الحدود الفاصلة بين قشتالة والأندلس. من أهم هذه الأحداث معركة العقاب المشؤومة، التي كان من جملة نتائجها سيطرة قشتالة على جميع المعابر الجبلية بالسلسلة المؤدية إلى الأندلس، ومن ثمة

انفتاح الباب على مصراعيه للانتشار في أراضي المسلمين في الجنوب.

الجامبزان

«الجامبزان» بذلة من الكتان المحشو قطنا أو غيره يستخدمها المقاتلون فاصلا بين أجسامهم والدروع منعا للاحتكاك.

الحرب الصليبية في الغرب الإسلامي

كثف ألفونسو الثامن من جهوده داخل قشتالة والممالك النصرانية المتحالفة معها، ثم عمل على التنسيق مع باقي أمم أوروبا ما وراء جبال البيرينيه، وذلك استعدادا للمعركة المرتقبة ضد مسلمي المغرب والأندلس. فبعث بمطران طليطلة «خمينث دي رادا» إلى البابا يطلب منه أن يسبغ الصفة الصليبية على المعركة القادمة، وهو ما استجاب له البابا، وكتب إلى الأساقفة بدعوة مسيحيي أوروبا إلى التطوع لمقاتلة المسلمين الغربيين انتقاما للنصرانية التي هزمت في معركة الأرك على يد الخليفة المنصور الموحدي، وما كان قبلها من انكسار للمسيحية في الشرق على يد صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين 1187م، إضافة إلى سقوط شَلْبَطَرَّة مركز رهبانية «قلعة رباح» في يد الناصر الموحدي. وهكذا تقاطرت على طليطلة منذ سنة 1211 م، وكانت قد اختيرت مركزا لاجتماع القوات المسيحية، وفود المتطوعة النصارى من مختلف أنحاء أوروبا. إضافة إلى فرسان الولايات القشتالية، وفرسان رهبانيات: قلعة رباح Calatrava، وشنت ياقب Santiago، والإسبتارية

وفرسان الهيكل Templarios، Hospitalarios وسائر القوامس Condes في مقدمتهم رؤساء أسرة «لارا» والكونت «دييغو لوپث»، و«لوپي دياث دي آرو» والفرسان التابعين لهم، بجانب عدد من الأحبار الفرنسيين على رأسهم مطران أربونة، وأسقف بوردو، ونانت، وغيرهم. ولم يحل شهر ماي من سنة 1212 ـ يقول المؤرخ الألماني يوسف أشباخ ـ حتى بلغ عدد المقاتلين الذين حلوا بمملكة قشتالة زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم، وعشرة آلاف من الفرسان والمقاتلة وخمسين الفا من الرجالة، أصبحوا في متم شهر يونيو مائة ألف، عدا ما توصل به ألفونسو الثامن من مقادير ضخمة من الأموال والسلاح والمؤن. وأمر البابا إينوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام التماسا لانتصار المسيحيين على المسلمين في الأندلس، فأقيمت الصلوات، ولبس الرهبان السواد...

الحسون

الحَسُّون طائر صغير حسن الصوت ذو ألوان جميلة.

الحركة القومية بالأندلس

يقول عبد الله عنان بصدد الثورات القومية الأندلسية خلال نهاية الحكم الموحدي: اضطرمت الأندلس بسلسلة جديدة من الفورات القومية «على غرار ما حدث في أواخر العهد المرابطي. بيد أن هذه الفورات كانت، مع الأسف، حركات متناثرة متنافسة متخاصمة، تفرق بينها الأطماع الخاصة، وإن كانت تجمع بينها رابطة الغرض

المشترك، وهو تحرير الأندلس [..]. وحمايتها من عدوان النصارى. [وقد] قامت هذه الحركات التحريرية في شرقي الجزيرة وفي وسطها، في وقت واحد، وكانت بالرغم من طابعها الشخصي، وهو ما يتفق مع روح العصر، حركات قومية أندلسية محضة. وكان قيامها في غمار المحن التي نزلت بالأندلس من جراء تخاذل السادة والحكام الموحدين عن تأدية واجبهم الأول في شبه الجزيرة، وهو الدفاع عن الأندلس وحمايتها من عدوان النصارى، وتحول نشاطهم إلى معارك داخلية شخصية، بل وإلى مصانعة وتسليم للنصارى. ولم تكن حال الموحدين، وتضعضع قواهم، وانهيار مواردهم بالمغرب، خافية على الأمة الأندلسية، وعلى زعمائها الذين نهضوا في تلك الآونة العصيبة، يحاولون إنقاذ الموقف، بكل ما تسمح به الظروف والأحوال». وعادة ما يعتبر المؤرخون الإسبان المحافظون (ومن سار على منوالهم من منظري المدرسة الاستعرابية المحافظة الذين سعوا في موقف مفعم بالتناقض إلى سرقة التراث الأندلسي ونسبته إلى إسبانيا أمثال خوليان ريبيرا في القرن التاسع عشر، وإيميليو غرثيا غومث في القرن العشرين، والمؤرخ المتعصب سانتث ألبورنوس...) أن هذه الحركات القومية الأندلسية كانت حركات تحررية من نير من يسمونهم بالغزاة، أو الجراد الإفريقي، أي المغاربة، سيرا على توجه إيديولوجي معين يسود الفكر التاريخي الإسباني يجعل من المغاربة غزاة متوحشين، ومن الأندلسيين إسبانا يتماهون مع ثقافة الممالك النصرانية الشمالية لعلاقة

الدم والإحساس حسب منظور عرقي مغرق في التناقض. والواقع لم يكن الأندلسيون إسبانا أبدا، وإنما أمة تتكون من عناصر عربية وبربرية وإيبيرية وصقلبية متصاهرة في بوتقة واحدة أندلسية لغتها العربية، وثقافتها عربية إسلامية، ومشروعها الحضاري عربي إسلامي حتى النخاع. وقد اعتبر مسلمو الجزيرة المغرب على مر تاريخهم الطويل امتدادا لبلدهم، وعمقا استراتيجيا لهم، وأن المنافسة التي كانت بين العُدوتين الأندلسية والمغربية لم تعد أن تكون ما سماه العالم المغربي ابن شريفة بمنافرات العدوتين، مثلما يشاهد مثلا بين مدينتين قريبتين في قطر واحد، وإن كنا لا ننكر خصوصية كل من العدوتين وتميز الأندلس على ما عداها في الغرب الإسلامي تطورا وعلما وحضارة... وأما الخصم التاريخي للمشروع العربي والإسلامي في الجزيرة الإيبيرية وللحضارة العربية بالأندلس وفي امتداداتها المغربية فلم يكن، للأسف، سوى إسبانيا الكاثوليكية.

الحيازات

يفهم بالحيازات في القرون الوسطى الممتلكات التي كان يحوزها النبلاء، ويتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه دون التوفر على سند قانوني يثبت الملكية: وثائق، وراثة، غنيمة حرب...

الخليفة الورع

المقصود بالخليفة الورع في تاريخ الموحدين السيد الأجل أبو محمد عبد الواحد، وكان الناس قد اتفقوا على تقديمه في اليوم الموالي لوفاة

الخليفة المستنصر (620 هـ) وذلك احترازا لنشوب خلاف. وكان هذا السيد الورع شيخا في الستين يقضي سحابة يومه في أخذ العلم وقراءة القرآن. ومن ثم لم يكن راغبا في الخلافة، فقبلها على كره منه. فلما وردت الأنباء بأخذ البيعة للسيد عبد الواحد، تحايل الوزير ابن يوجان، وكان داهية، على والي مرسية السيد أبي محمد عبد الله، وحذره من مبايعة الخليفة الجديد، وزين له العصيان، وأنه سيجد في إخوته الثلاثة ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة أكبر سند. فاستدعى أبو محمد عبد الله أشياخ الموحدين والعلماء والأشراف بمرسية وأحوازها ودعاهم لبيعته فتم له الأمر. ولم تلبث أن أتته بيعة مراكش وأهل المغرب حين قدومه إلى إشبيلة. وسمى نفسه بـ «العادل في أحكام الله تعالى» (13 صفر سنة 621) وسرعان ما بايعه أبو محمد عبد الله والي جيان وهو الذي سيعرف فيما بعد بالبياسي. وتلك قصة أخرى.

الخيالة الخفيفة عند المسلمين

كانت فرقة الفرسان الخفيفة تعتمد عادة، عند العرب والمغاربة، على تكتيك الكر والفر، وبالرغم من أن هذا التكتيك لم يكن يحسم في المعارك، إلا أنه كان يرهق العدو ويضايقه. وقد استخدم المغاربة هذه الخطة إلى غاية القرن التاسع عشر في حرب تطوان ضد إسبانيا (1859 _ 1860) حيث أبانت حينها عن عدم مسايرتها لنظريات التكتيك العسكري في الحرب الحديثة، ونوعية السلاح المستعمل فيها... بالرغم من أن طريقة الكر والفر في الحرب المذكورة ألحقت خسائر بشرية جسيمة

بالإسبان، خاصة حينما كان الفرسان يستفزون الغريم ليتعقبهم، فيُسْقطونه في مكائد وخدع حربية. أشهرها الإيقاع بالخصوم في حُفَرٍ مهيأة سلفا، أو في تطويقهم بالرماة الذين ينهالون عليهم بالرصاص.

الراهب رودريغو دي رادا وجهوده الصليبة للإعداد لمعركة العقاب

كان الراهب والمؤرخ **Rodrigo Jiménez de Rada** أسقف طليطلة هو الذي تكلف بالجانب الدبلوماسي، والعلاقة مع البابا، واستجلاب المتطوعة والمرتزقة المسيحيين من جميع أنحاء أوروبا للتهييء لمعركة العقاب المشؤومة. وكان قد ذهب إلى روما هو وأسقف شقويية «جرهارد» ليلتمسا من البابا «إنوسان الثالث» الدعم والمساندة لتنظيم حملة صليبة ضد المسلمين في الأندلس. وقد استجاب البابا المذكور الذي كان يضطرم بروح صليبية عميقة لطلب قشتالة، فأعلن الحرب الصليبة، ودعا إليها جميع النصارى، ثم أفتى بالغفران (العفو التام عن سيئات المقاتلين) وهو ما فتح الباب للتطوع في أرجاء واسعة من أوروبا خاصة في فرنسا، وقد عبر الخليفة المهزوم الناصر عن ذلك في رسالته للأمة بعد المعركة: «فبث (أي ألفونسو) القسيسين والرهبان من برتقال (أي البرتغال) إلى القسطنطينية العظمى فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق». وقد خصص الراهب «دي رادا» هذا فصلا في كتابه الضخم «تاريخ إسبانيا» **De Rebus Hispaniae** للحديث عن

معركة العقاب. وقد شهدها بنفسه باعتباره قائدا لعدد من صفوف المقاتلين النصارى في القلب من الجيش المسيحي.

الرهبانيات الدينية العسكرية

الرهبانيات العسكرية تجمع بين حياة الأديرة والانضباط العسكري، ومن ثمة اعتبر رجالها رهبانا مقاتلين. تأثرت في بداياتها بحياة التقشف لدى المجاهدين المسلمين (المرابطين)، قبل أن تتحول إلى الغنى الفاحش. وقد أسست رهبانية «قلعة رباح» **Calatrava** سنة **1158** للدفاع عن القلعة المذكورة باعتبارها النقطة الاستراتيجية للدفاع عن طليلطة قلب النصرانية في شبه الجزيرة. وهي إحدى الجمعيات الدينية الأربع الكبرى في شبه الجزيرة الإيبيرية: سانتياغو، قلعة رباح، مُنْطيسا، والقنطرة.

الرومانثي (لغات)

يطلق على اللهجات ذات الأصل اللاتيني التي كانت مستخدمة في الأندلس وفي شبه الجزيرة لغات «الرومانثي»، **[lenguas Románicas]** نسبة إلى متحدثيها الأوائل الرومان القدماء. (لا علاقة لهذا الاسم بالمذهب الفني الرومانسي). ومن أشهر اللغات الرومانثية في شبه الجزيرة الأيبيرية في زمن الأندلس: القشتالية، والقطلانية، والجليقية، والبرتغالية.

الزاوية والطريقة

شهدت الفترة الموحدية ظهور عدد من أعلام التصوف الإسلامي منهم عبد السلام بن مشيش

العلمي المولود بشمال المغرب، ومعلم أبي الحسن الشاذلي. غير أن الزوايا باعتبارها مؤطرة للمجتمع لم تعرف ازدهارها إلا في القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي أي بعد سقوط الأندلس وانكفاء الناس على أنفسهم وهم يرون غلبة المسيحية على الإسلام، وعجز الدولة المغربية عن الدفاع عن الأندلس، بل وامتداد الأطماع المسيحية إلى المغرب نفسه. وقد قامت الزوايا بدور مهم في توعية الناس وتعهدهم، وفي حثهم على الدفاع عن أراضي الإسلام.

السيسترسية

يُعد الرهبان السِّيسْتِرْسِية من حيث الانتماء بيندِكتيين، بالرغم من أن لباسهم كان هو الأبيض، في حين كان لِبس البينديكتيين هو الأسود. وقد كان للسيسترسيين حضور في القرن الثاني عشر وما بعده إلى غاية الثورة الفرنسية. المعروف عنهم أنهم اهتموا كثيرا بالأشغال اليدوية.

الشَّاشِية

في لغة أهل الأندلس والمغرب تعني القبعة. وردت عند البسطي وهو يصف زي ابن الأحمر يوم دخوله غرناطة، وكذلك عند الرحالة ابن بطوطة الطنجي حينما قال: «وبرأسي شاشية مِلْفٍ حمراء». وغيرهما. مازالت مستعملة إلى اليوم.

شرط الكتمان

يعني المبدأ الكاثوليكي الذي يحتم على الرهبان، تحت طائل الحرمان الكنسي في حال المخالفة، أن يحتفظوا بأسرار المعترفين، وعدم

الكشف عنها لأية جهة كانت ولو لبابا الفاتيكان نفسه.

صَفِيَّةُ بنتُ سعْد بنتِ مَرْدَنِّيشْ

والدة الخليفة الموحدي «أبي العلاء» الملقب بـ «المأمون» وهي ابنة أمير الشرق ابن مردنيش الجذامي (يرجع الإسبان نسبه إليهم ويحتجون بكون لقبه مشتقاً من اللقب الإسباني Martínez). وقد حازت هذه الأميرة الشرف من ناحيتين، من أبيها ابن مردنيش التي تسعى الكتابات المحافظة الإسبانية إلى تصويره باعتباره إسبانيا روحا وقالبا، وميالا للمشروع النصراني بشبه الجزيرة، في حين كان الرجل من أبطال الإسلام في الجزيرة، لحد أنه حينما تقدم به السن أوصى أولاده بالدفاع عن الإسلام بالأندلس، وتعضيد جبهة إخوانهم الموحدين رغم أن هؤلاء مثلوا له في الغالب الخصم والغريم، من ناحية أخرى شرُفَت هذه الأميرة بابنها الخليفة الموحدي «المأمون»، وكان من أعظم الخلفاء الموحدين زمن الضعف بعد العقاب. إذ كان كاتبا بليغا وشاعرا محسنا، ومن أعلم الملوك باللغة، وأوسعهم معرفة بأصول الدين وعلوم عصره. وهو صاحب الرسالة الشهيرة إلى العلماء والطلبة يتبرأ فيها من عقيدة المهدي التي كان ابن تومرت قد جعل منها أساسا لفكره الديني ومذهبه السياسي في كتابه «أعز ما يطلب». ومما جاء في الرسائل: « اللهم اشهد أنا قد تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار، ونعوذ بك ياجبارُ من فِعْلِهم الرَّثِيثِ، ولأَمِرهم الخبيث». وقليل من الناس يعرفون أن

«المأمون» هو الذي أنشأ برج الذهب الشهير بإشبيلية، على غرار والده الخليفة المنصور باني مئذنة «لاخيرالدا» بالمدينة ذاتها.

## عبور الخليفة أبي العلاء «المأمون» إلى المغرب

حينما بلغ نبأُ عبور المأمون إلى المغرب، أخذ الخليفة الفتى يحيى بن الناصر وشيوخ الموحدين أهبتهم للقائه. فقاد يحي قواته من العرب والموحدين، للتصدي للمأمون، فالتقى الجمعان عند جبل جليز من أحواز مراكش (627هـ/يناير 1229م) فدارت الدائرة على جموع ابن الناصر، وانقضت الفرقة القشتالية على قبة الخليفة الكبرى، لكن يحيى تمكن من النجاة بنفسه، والتجأ إلى جبل هنتاتة. فبادر الأشياخ إلى مبايعة المأمون، الذي دخل الحضرة المراكشية وجلس على كرسي الخلافة. فكان أول ما قام به هو الانتقام من شيوخ الموحدين الذين قتلوا أخاه العادل وبايعوا الفتى يحي، استنادا إلى فتوى من فقيه إشبيلية المكيدي بوجوب قتلهم أجمعين، وكانوا نحو مائة شيخ. فدبر لهم مكيدة، ودعاهم إليه، معلنا لهم الأمان، حتى إذا اجتمع القوم عنده، قتلهم جميعا، ثم دفنهم في حفرة واحدة. وبذلك انتهت تقريبا مشيخة الموحدين التي لطالما كان لها الباع الطويل في كل الأحداث التي شهدتها الدولة الموحدية. والجدير بالذكر أن ما شجع أبا العلاء على العبور إلى العدوة (المغرب)، وهي فكرة كانت تشغل باله منذ أن تولى العرش الفتى يحيى بن الناصر، إعلان ولاة سبتة وفاس وتلمسان وبجاية، مبايعتهم له

إضافة إلى بيعة أمير عرب الخُلط مقدم بن هلال ودعوته لأبي العلاء بالقدوم.

الغشتي

تذهب الرواية العربية إلى أن الغُشتي، الذي ساعد ابن هود على القيام ضد الموحدين، كان من رؤساء العصابات و«المغاورين» الذين حاربوا النصارى، وأحيانا قطعوا الطرق على المسلمين. وقد استوحى ملوك أراغون وقشتالة وغيرهم فيما بعد من نظام هذه العصابات ما يعرف في التاريخ الإيبيري بفرق **Almogávares** الشرسة إلى حد الهمجية. وقد استعملتهم الممالك النصرانية في حروب ما يسمى «بالاسترداد» ضد المسلمين في الأندلس، وفي حرب الريف في العصر الحديث بالمغرب. كما استخدمتهم مملكة أراغون ضد نصارى إيطاليا واليونان وببيزنطة وفي الحروب الصليبية.

وقد عاون المقدم الغُشتي ابن هود في مشروعه للقيام بالأمر في الأندلس خير معاونة. ويقال في خبر يغلب عليه هذيان المنجمين؛ ذكره ابن عذاري المراكشي وابن الخطيب، أن محمد بن يوسف ابن هود لقي يوما شخصا من منتحلي علومِ الحَدَثان، فقال له: «أنت سلطان الأندلس! فانظر لنفسك، وأنا أدُلُّك على من يقوم بأمرك، فانهض إلى المقدم الغشتي!» وكان الغُشْتِيُّ - يقول ابن الخطيب في «أعمال الأعلام» - رجلا صعلوكا، ذاعرا، يقطع الطريق على الناس بما جمع حوله من أنجاد الرجال، وسِباع البِراز، فنهض ابن هود إليه، وباح له بسره، فسُر الغشتي بذلك

سرورا عظيما، فعاهده ابن هود إن ملك البلاد أن يوليه أسطول إشبيلية والأندلس. فلما ملك ابن هود المتوكل القواعد وقامت دولته، وَفَّى للغُشتي بعهده، ووَلاَّه أسطول إشبيلية، ثم أسطول سبتة بالعُدوة [المغرب] بعد ذلك. والظاهر أن الغشتي وفق أكثر من مرة في إلحاق الأذى بالأسطول المسيحي. ولما نزع ابن هود الجذامي الجزيرة الخضراء، وجبل الفتح من يد الموحدين سنة 629 هـ/1232م، أجاز البحر إلى سبتة فأطاعته، وتملك رباط الفتح بسلا بالعُدوة أياما، فوَلَّى الغُشتيَّ على سبتة، وعوض واليها القديم السيد أبي عمران الموحدي بولاية ألمرية، فلبث الغشتي بسبتة بضعة أشهر إلى أن أخرجه أهلها، وخلعوا طاعة ابن هود سنة 630 هـ/1233م، ففر المُقَدَّمُ في زورق صغير، وخَفِيَ أثرُه، غير أن النصارى تمكنوا من أسره، وأخذوه أسيرا مدة سنوات طويلة دون أن يعرفوا هويته الحقيقية «ولو علموا ـ يقول ابن عذاري ـ أنه الغشتي لقتلوه أو طلبوا منه مالا كثيرا، لأنه كان قد ضربهم في البحر، وله فيهم جملة غزوات قتلهم فيها واستأصلهم وشاع ذكره في الآفاق حتى ضرب المثل لزعامته وشهامته» وقد خرج الغُشتي في شيخوخته إلى بر العُدوة [المغرب] وهناك مات برباط آسفي.

## الفرسان القشتاليون في جيش الموحدين

كان «جمع من فرسان الروم» كما يصفهم ابن الخطيب، أي جمع من الفرسان القشتاليين يحاربون مع أبي العلاء (الخليفة المأمون) تفعيلا للعقد

الذي تم مع أبي العلاء وملك قشتالة. ذلك أن فرناندو الثالث حينما عبر الحدود في خريف 1228م يريد الوثوب على الأندلس في خضم الاقتتال بين المسلمين، عرض عليه أبو العلاء عقد اتفاق يكفيه شر الملك القشتالي، ويسمح له بمواجهة ثورة ابن هود، ثم التكفل أخيرا بابن أخيه الخليفة الفتى يحيى ابن الناصر الملقب بالمعتصم وشيوخ الموحدين. وقد اشترط فرناندو الثالث لقبول عقد الاتفاق شروطا منها: تقديم إتاوة من ثلاثمائة ألف قطعة مرابطية فضية، وتسليمه عشرة من الحصون الإسلامية في منطقة الحدود القشتالية الأندلسية، يختارها القشتالي بنفسه. وأن تبنى بمراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائرهم. كل ذلك مقابل عقد الهدنة وتقديم عون عسكري من خمسمائة فارس قشتالي.

الفروسية القروسطية بين المسلمين والنصارى

إن مشاهدة المنمنمات المسيحية التي تعود إلى زمن الموحدين وهي كثيرة، تعكس عبر رسومها بوضوح العقيدة القتالية عند الطرفين الإسلامي والنصراني. فخفة العُدة عند المغاربة والأندلسيين: عمامة، غياب الدروع، وإن كانت فمن الجلد، التروس الخفيفة الجلدية، اعتماد الحربات الموحدية الشهيرة، تثبيت الفارس لنفسه بإلصاق الركبتين بجسم الفرس وهما مطويتان قليلا فوق الركاب، وهو ما يوفر للفارس رشاقة أكبر، وقدرة على المناورة، وخطورة أقل في حالة إصابة الجواد، حيث يحميه ذلك من أن يجر من قبل فرسه... كل ذلك يقابله عند فرسان

قشتالة والنصارى عموما ارتداء الدروع المعدنية الثقيلة، من خوذات حديدية تحتها العمرات، و«غامبيسونات»، دروع للجسد وأخرى للساعدين، واستخدام الحربات الثقيلة المسنودة إلى الدرع الحديدي... وقد جعل هذا التدريع الثقيل طريقة ركوبهم مختلفة، كما تبين ذلك بجلاء رسومات المنمنمات التي تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي في شبه الجزيرة الإيبيرية. فاللافت أن الفرسان النصارى يثبتون أجسامهم على الخيول عبر إطلاق الساقين، والضغط بهما على الركابين حتى يحافظوا على توازنهم، وهو ما يجعل من الخيالة المسيحية ثقيلة مدرعة في مقابل خفة ورشاقة الفروسية الإسلامية العربية وقدرتها على المناورة.

فرناندو القديس (الثالث)

في سنة 1671 أعلن بابا روما «كليمنتي العاشر» «فرناندو الثالث» قديسا، وذلك لما ظهر عليه ـ حسب الكنيسة ـ من علامات روحية خارقة، وما اتسم به من طهر، ولنجاحه في سحق مسلمي الأندلس. ومن ثمة، لا يعرف «فرناندو الثالث» ملك قشتالة هذا في التاريخ الإسباني في الأغلب سوى باسم «فرناندو القديس».

قَبَالَة

ـ قبالة **Capilla** وهو أحد الحصون الثلاثة: شلبطرة، وقبالة، وبرج الحمة التي كان البياسي قد وعد بتسليمها لفرناندو الثالث (القديس) كفالة بتنفيذ وعده. وقبالة من حصون الحدود الواقعة في شمالي قرطبة وجبل الشارات **Sierra**

Morena.

الفويرو

التشريعات والقوانين الخاصة التي كانت تُمنح عبر التاريخ للمدن والبلدات في شبه الجزيرة الإيبيرية (وهي قوانين أصلها روماني). وعادة ما كانت هذه الأعراف تأخذ شكل امتيازات تسير عليها مجالس المدن وتلتزم بها عبر الأزمنة.

القنطرة (مدينة)

انتزع ألفونسو التاسع هذه البلدة الإسلامية من الموحدين سنة 1213. وفي سنة 1214 سلم حمايتها لرهبانية قلعة رباح. غير أنه نظرا لبعد القنطرة عن قلعة رباح تخلى الرباحيون، بعد أربع سنوات، عن المهمة التي أسندت إليهم لصالح رهبانية فرسان بِرِيْرُو الحديثة النشأة (اعترف بها البابا إسكندر الثالث سنة 1176 ثم أصبح اسمها سنة 1253 رهبانية فرسان القنطرة. ويرأس هذه الجمعية اليوم ملك إسبانيا الحالي فيليبي السادس) على أساس تبعية فرسانها لقلعة رباح. ومن هنا لباسهم الأبيض السِّيسْتِرْسِي، واعتبار رهبانيتهم فرعا من رهبانية قلعة رباح. ويعد هذا التنظيم من جمعيات الفرسان الدينية التي ناضلت ضد الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية. وهي: سانتياغو، قلعة رباح، مُنْطيسا، والقنطرة.

قبطيل

كان النورمان Los Vikingos حين إغارتهم الأولى على إشبيلية (محرم 230 هـ/سبتمبر 843 م) قد جعلوا من «جزيرة قبطيل»، قرب الوادي الكبير،

وهي المعروفة اليوم عند الإسبان بـ «إيسلا مينور»، قاعدة لعملياتهم ضد الحاضرة الأندلسية التي عاثوا فيها فسادا وتخريبا. غير أن قوات الأمير عبد الرحمن بن الحكم تمكنت في الأخير من هزمهم، وقتلت منهم عددا كبيرا من بينهم زعيمهم نفسه. وقد علقت رؤوس المهزومين على أشجار النخيل قبالة من تبقى منهم على قيد الحياة في الجزيرة المذكورة ردعا لهم. وبالرغم من أن الفيكينج تمكنوا من الانسحاب بسلام، فإن بقية منهم تخلفت، وبقيت بالمنطقة، فدخلت في الإسلام، وتعاطت لحرفة صناعة الأجبان. فكان هؤلاء الفيكينج المسلمون المزودين الرئيسيين لقرطبة وإشبيلية بهذه المادة لفترة طويلة.

اقتحام الملوك النصارى الثلاثة لقلب الجيش الموحدي

كان اقتحام الملوك النصارى الثلاثة: سانشو السابع ملك ناڤار، وألفونسو الثامن عاهل قشتالة، وبيدرو الثاني ملك أراغون لقلب الجيش الموحدي بسرعة لم تكن لتخطر ببال الخليفة الناصر الموحدي، مفاجأة هائلة، ومصيبة عظمى، تركت الناصر جامدا في مكانه بالخيمة الخليفية ينتظر نهايته، بعد أن رأى اندحار جيشه الكبير، ومقتل ابنه، وأكابر دولته. ولم يستجب لنداءات رجاله بالنجاة إلا بعد إصرار طويل منهم. والظاهر أن الرجل غادر خيمته وهو تقريبا ميت من هول الصدمة، إذ لم يعش بعد وصوله مراكش سوى بضعة أشهر قبل أن يلقى ربه. وإذا كانت بعض المصادر النصرانية ترى أن السماء (ظهور صليب

كبير متوهج في الفضاء) والحواري شنت ياقب قد حاربا بجانب التجمع الصليبي المسيحي، فإن بعض المصادر الإسلامية رأت في كارثة العقاب عقوبة من الله على ما أبداه الناصر من عُجْب واعتزاز بكثرة جموعه، خاصة أن الرواية الإسلامية لا تشير إلى وقوع ما وقع ليلة معركة الأرك زمن والد الناصر المنصور الموحدي من مناظر مؤثرة، مثل تبادل الخليفة المنصور والناس الاستغفار وهم يبكون، وقيام الفقهاء بوعظ المقاتلين وحثهم على الصبر في الميدان...

القصبة

تعني إلى اليوم في الاصطلاح المغربي الأندلسي القلعة والحصن. وكانت المدن والقرى الأندلسية عادة ما تتوفر على قلعة. وما زال الحال كذلك في أغلب بلدان المغرب، وخاصة المغرب الأقصى، حيث لا تعدم أحياء بهذا الاسم مثل أحياء القصبة بتطوان، وطنجة، والرباط، والجزائر...

قيجاطة (مأساة)

يقول المؤرخ عنان عن مأساة «قيجاطة»: « كانت قيجاطة تزخر بالأموال والثروات (...) اقتحمها القشتاليون وهدموا معظم أسوارها، وقتلوا من أهلها الألوف، وقتلوا وأسروا كذلك معظم حاميتها الموحدية (سبتمبر 1224)» ويذكر المراكشي في بيانه عن هذه الواقعة، أن البياسي خلع دعوة العادل، واستعان بالنصارى على الموحدين، و«دلهم على عورات تلك البلاد [أي بلاد الأندلس]، وأدخلهم «قيجاطة» وغيرها

من بلاد المسلمين فتملكوا [أي القشتاليون] الأموال، وقتلوا الرجال، وسبوا الحريم والأولاد». ثم يقول: «وذكر عن هذا البياسي أمور شنيعة، منها أنه دخل في دين النصرانية، وكان شيخا مسنا، فنسأل الله العافية وحسن الختام». (المترجم) ومع ذلك، يستبعد بعض المؤرخين دخوله في النصرانية لأن المصادر القشتالية لا تشير إلى ذلك ألبتة.

الكهرمان **Mayordomo**

تعني كبير الخدم، وقد عمل «غونثالو رويث خيرون» كهرمانا لألفونسو الثامن من سنة **1198** م إلى غاية وفاة الملك سنة **1214**م وحينما حرم «ألبارو نونييث دي لارا» «برينكيلا» من الوصاية على أخيها الملك الطفل إنريكي، ساند «غونثالو» الأميرة ضد «ألبارو».

كونجوسطو

«كونجوسطو» هي منطقة وليس بلدة أو مدينة كانت تمثل، قبل انهيار الإمبراطورية الموحدية، مع موقع الأرك الحدود الجنوبية لمملكة قشتالة. وقد شهدت هذه المنطقة معركة حصن الأرك الشهيرة بين المنصور الموحدي وألفونسو الثامن ملك قشتالة. وكان هذا الأخير يفضل أن تقع المعركة خارج «كونجسطو» أي في بلاد المسلمين. وهي عادة سار عليها غالبا الملوك النصارى.

الكاثارية

أو الألبية، بدعة مسيحية أولت العهد الجديد

تأويلا يقوم على ازدواجية الألوهية. أي أن العالم قائم على مبدأين هما مبدأي الخير والشر وهو ما يتنافي مع فكرة الإله الواحد خالقِ العالم. كما اعتبرت الكاثارية الأسرة نواة أساسية فدعت إلى العفة والتعدد. وقد انتشرت هذه البدعة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بين مسيحيي مملكة أراغون وجنوب فرنسا وبعض المناطق بشمال إيطاليا.

اعتبرتها الكنيسة هرطقة ينبغي محاربتها، فأعلن البابا الحرب الصليبة ضد هذه العقيدة، وتم القضاء نهائيا عليها وعلى معتنقيها.

لينور دي پلانطاجنيت

والدة برنگيلا، وجدة فرناندو الثالث (القديس)، وزوجة ألفونسو الثامن. وهي ابنة هنري الثاني ملك إنجلترة ولينور دي أكتين. وقد رزقت من زوجها أحد عشر ولدا. امتدت وصايتها على عرش قشتالة إبان حكم الصبي إنريكي مدة أربع وعشرين يوما فقط قبل أن تلتحق بزوجها ألفونسو الثامن، وتدفن بجانبه.

مرسية عاصمة ابن هود

أسندت ولاية مرسية منذ أن غادرها العادل لابن عمه السيد أبي العباس. وحينما أعلن ابن هود التمرد خشي السادة الولاة من الوضع الجديد لضعف الحاميات الضئيلة التي بقيت تحت إمرتهم. ولم يفت ابن هود ذلك، فما أن أحس القوة حتى زحف على مرسية. فتصدى له واليها أبو العباس، فهزمه ابن هود بحشوده الكثيرة

وأسره. (رجب 625هـ/يونيو 1228). مباشرة سعى السيد أبو زيد والي بلنسية إلى قطع الطريق على ابن هود غير أن هذا سرعان ما ظفر بالسيد، واستولى على محلته، لكنه لم يقتحم بلنسية، بل عاد إلى مرسية ودخلها وهو يحمل العلم الأسود، علم الخلافة العباسية. فبويع ابن هود بالحاضرة المذكورة، (رمضان 625هـ/1228م) ودعا للخليفة العباسي أبي جعفر المنتصر ببغداد وتسمى بأمير المسلمين، وسيف أمير المؤمنين عبد الله المتوكل، جاعلا شعاره «توكلت على الله الواحد القهار». ويذكر صاحب الروض المعطار أن دخول ابن هود مرسية لم يكن نتيجة معركة ضد واليها السيد أبي العباس، بل بحيلة رتبها القائد الأندلسي مع قاضيها أبي الحسن القسطلي (سيقتله ابن هود فيما بعد) الذي أوهم أبا العباس أن الثائر الأندلسي سينضوي تحت لوائه، فلما فتحت له أبواب مرسية غدر ابن هود بالسيد أبي العباس...

المُنْيَة

وهي في عرف الأندلسيين الحديقة الواسعة، أو الدار بها. وربما تعني عند المولدين [المنزل الأنيق يتخذ في الريف بخاصة، ويعرف بـ «الفيلا»].

المصرية

و«المصرية» في عرف الأندلسيين والمغاربة هي الغرفة في الطابق الأعلى من الدار. وعادة ما يكون لها مدخل خاص.

المورو (ج. موروس)

كان مسيحيو الجزيرة يطلقون على مسلمي المغرب والأندلس لفظة «مورو» **Moro**، يستخدمونها في الأغلب بمعنى قدحي، وإذا كانت بعض النصوص الأدبية الإسبانية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد قدمت صورة مثالية عن «المورو» الشهم الشجاع، فإن انتقال حروب «الاسترداد» بين إسبانيا والمغرب إلى السواحل المغربية أعادت للفظة معناها المحقر. وقد وصل الحال إلى أن بعض الأسر الإسبانية كانت إلى عهد قريب تخيف أطفالها بـ «المورو موسى»، وكما لا يخفى، أن المقصود بـ «المورو موسى» موسى بن نصير مولى طارق بن زياد فاتح الأندلس.

ملاحقة المقاتلين المسلمين

استمرت ملاحقة فلول الهاربين من معركة العقاب إلى غاية هبوط الليل، أمعن خلالها النصارى قتلا وفتكا في الهاربين من الجند المسلمين، فأفنوا آلافا منهم. وإن وجب أخذ بعض الحيطة من الأعداد التي توردها المصادر النصرانية (الراهب المتعصب خيمينث دي رادا، والكتابات الإسبانية المحدثة...)، بل وحتى بعض المصادر الإسلامية (المقري، عبد الله عنان...) إذ تقدر أكثر هذه المراجع اعتدالا عدد قتلى المسلمين بأكثر من مائة ألف قتيل. في حين تخمن الدراسات الحديثة أن قوام الجيش الموحدي بكل عناصره لم يتجاوز الـ 20.000 مقاتل بين فارس وماش. على كل حال كان عدد القتلى كبيرا بينهم عدة من أكابر العلماء والحفاظ. منهم

أحمد بن هارون النفزي، ومحمد بن حسن الأنصاري المعروف بابن صاحب الصلاة، ومحمد بن أحمد الحضرمي، وأيوب بن عبد الله الفهري، والشاعر الزاهد تاشفين بن محمد المكتب وغيرهم. وخلال المطاردة كانت طائفة أخرى من جند النصارى قد أمعنت في المحلة الموحدية نهبا وسلبا وقتلا واستولت على مقادير عظيمة من العدة والسلاح والذهب والفضة والبسط والثياب الفخمة، وعلى الألوف المؤلفة من دواب الحمل. وكان من جملة الغنائم علمٌ موحدي ضخم زخرف بنقوش عربية بديعة ونقشت عليه آيات قرآنية بخط أزرق. ولايزال هذا العلم محفوظا إلى اليوم بمدينة «برغش». وكان الملوك النصارى قد استقروا بخيمة الخليفة الناصر قبيل مغيب الشمس، وهي خيمة حمراء من الحرير الموشى بالذهب. وقد أرسلت فيما بعد مع نفيس الهدايا إلى البابا. وبذلك... «أضحى ـ يقول عبد الله عنان ـ الجيش الموحدي العظيم الذي كان بـ [بالمحلة] منذ ساعات قلائل فقط، أثرا بعد عين».

المِغفَر

ج. مَغَافر، زرَد ينسج على قدر الرأس، يلبس تحت الخوذة. ويقابلها في الإسبانية لفظة Almófar. والكلمة، كما هو واضح، من أصل عربي. وكانت تنطق في الدارجة الأندلسية «المَغْفار».

المِلْفُ

المِلْفُ في عرف الأندلسيين والمغاربة الجُوخُ، وقماش الصوف... ما زال مستعملا في اللهجة المغربية.

## ندم المنصور الموحدي الظافر في معركة الأرك

يقول عبد الله عنان، نقلا عن صاحب روض القرطاس: «إن المنصور لما اشتد به المرض، وشعر بدنو أجله، قال لمن حوله من الأشياخ: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث، وددت أني لم أفعلها: أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأني أعلم أنهم أهل فساد، والثانية بناء رباط الفتح، أنفقت فيه من بيت المال وهو بعد لا يعمر، والثالثة إطلاق أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم». ولعل من أعاجيب التاريخ أن إدخال عرب بني هلال وبني سليم للمغرب أنهى سلوكهم الشرس وجعل منهم جزءا من الهوية المغربية، أما الرباط التي بنيت لتكون رباطا للجيوش الموحدية قبل إبحارها المتتالي إلى الأندلس، فقد عمرت وأصبحت بعد ذلك بقرون عاصمة المغرب، وأما أسرى الأرك الذين أطلق سراحهم الخليفة المنصور فسنرى كيف ثأروا لأنفسهم في معركة العقاب، بمباركة البابا ومساعدة القوات الأوروبية التي جاءت من كل الأصقاع.

## نهاية البياسي

كان البياسي قد استولى على قرطبة بمساعدة فرناندو القديس. غير أن نفسَه تاقت إلى إضافة إشبيلية لممتلكاته، فسار في قواته نحوها للمرة الثانية، وقد عزم على ضرب الحصار حولها، غير أن السيد أبا العلاء إدريس كان قد أعد العدة للقائه، فنشبت بين الفريقين معركة حامية انهزم على إثرها البياسي شر هزيمة (623 هـ/

1226 م)، فارتد على أعقابه صوب قرطبة في حالة يرثى لها. فلما وصلها مهزوما، انتهز أهل الحاضرة الفرصةَ فيه، وكانت قلوبهم عامرة عليه لـ «إفراطه في محالفة النصارى، وإسرافه في تسليم الحصون الإسلامية إليهم»، فثاروا عليه، فلم يجد أمامه من خيار سوى الالتجاء إلى حصن المدور Almodóvar غربي قرطبة، فتعقبه الثوار، وحاصروه هناك، ثم تمكنوا أخيرا من اقتحام الحصن وقتله. فحزوا رأسه وأرسلوه إلى أبي العلاء (السيد أبي العُلى) بإشبيلية، فقام بدوره بإرسال رأس البياسي مع رسالة إلى العادل بمراكش. وبذلك انتهت قصة هذا الرجل الذي اعتبر في التاريخ الأندلسي نموذجا للخائن الذي لم يردعه لا الإيمان الديني ولا الوازع الأخلاقي عن ارتكاب ما ارتكب في حق أمته وملته.

الوادي [الواد]

لفظة «وادي» الواد في عرف المغاربة والأندلسيين تعني النهر.

وادي الرقوط

Valle de Ricote وهو الوادي الذي انطلق منه ابن هود في ثورته ضد الموحدين. ويعد آخر المناطق التي سكنها المسلمون قبل طردهم إلى المغرب وغيره في القرن السابع عشر الميلادي (1609 ـ 1615). وهي منطقة شبه صحراوية (الوحيدة في أوروبا) حولها المسلمون إلى واحة غناء بفضل إتقانهم الفلاحة القائمة على نظام الري بالقنوات والنواعير. وما زال الإسبان إلى اليوم محافظين على هذا النظام.

وقد تغنى الأديب الإسباني الكبير ثربانطس في رائعته «ضون كيخوطي» كثيرا بهذه الواحة.

## اليتيمة

جاء في مصادر التاريخ الأندلسي: قال الخليفة المنصور الموحدي للحضور وهو على فراش الموت، وعيناه تذرفان الدمع: أوصيكم بتقوى الله تعالى، وبالأيتام واليتيمة. فسأله الشيخ أبو محمد عبد الواحد، يا سيدنا، يا أمير المؤمنين، ومن الأيتام واليتيمة؟ قال: اليتيمة جزيرة الأندلس، والأيتام سكانها المسلمون.

---

(1) لعل هذا الإهداء مستوحى من القول الشعبي المغربي: كل مولود يأتي إلى هذه الدنيا وإلا ويحمل تحت ذراعه خبزة... (المترجم).

(2) لفظة أندلسية تعني المرابط في الثغور. ومنها لقب أسرة الثغري الشهيرة في تاريخ غرناطة. وينطق عند الأندلسيين والمغاربة «زكري»، وهذا اللقب ما زال شائعا إلى حد اليوم في شمال المغرب. (المترجم)

(3) يمنع القانون الكنسي، خاصة الكاثوليكي، زواج الأقارب، إلا أن البابا في القرون الوسطى كانت لديه القدرة على منح الإعفاءات، خاصة في حالات الزيجات الملكية. (المترجم)

(4) يقول صاحب روض القرطاس إن هؤلاء المتطوعة لبثوا يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم. «وعساكر الموحدين والعرب وقواد الأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك منهم أحد». (المترجم)

(5) هذا كلام لا يستقيم مع الشعائر المتبعة في صلاة العيد. ولكنا نقلناه كما كتبه المؤلف الإسباني حفاظا

على الأصل. (المترجم)

(6) (التوبة، 86 ـ 87 ـ 88) هذا اجتهاد من المترجم في أن يجد مقابلا لما أورده المؤلف بالإسبانية باعتباره آية كريمة. (المترجم)

(7) شبه المؤلف لون عيني الفتاة بجلد ثور أسود. وهي صورة ربما لا تستقيم في العربية، فاستبدلنا المشبه به بـ «غابتا نخيل ساعة السحر» للشاعر العراقي بدر شاكر السياب حتى تستقيم الصورة عربيا. (المترجم)

(8) وهو الطبق المعروف اليوم في المغرب بـ «البسطيلة». (المترجم)

(9) السلسلة المقصودة هي جبل الشارات Sierra Morena. (المترجم)

(10) اللون القِرمزي، الأحمر الشديد الحمرة.

(11) الخَبَبُ: الجريُ الوَئيد.

(12) هذه العبارة: نريد سقفا أو كراء سقفٍ... هذا التعبير ما زال دارجا على الألسن في المدن الأندلسية بالمغرب مثل تطوان. (المترجم)

(13) Guy de Lusignan (المترجم)

(14) يُعد الرهبان السِّيسْتِرْسِية من حيث الانتماء بيندِكتيين، بالرغم من أن لباسهم كان هو الأبيض، في حين كان لِبس البينديكتيين هو الأسود. وقد كان للسيسترسيين حضور في القرن الثاني عشر وما بعده إلى غاية الثورة الفرنسية. المعروف عنهم أنهم كانوا يهتمون كثيرا بالأشغال اليدوية. (المترجم)

(15) التَّجْفَافُ: ما يُجَلَّلُ به الفرسُ من سلاح وآلة يَقِيانه الجِراحَ في الحرب.

(16) الجَامْبِزان: لباس محشو بالقطن أو غيره، يلبس تحت الدرع، ويغطي الجذع واليدين وجزءا من القسم السفلي

للجسم، بغرض حماية المقاتل من احتكاك جسمه بحديد الدروع.

(17) الكتفية: ثوب يلبسه الرهبان على الكتفين والصدر. (المترجم)

(18) الجذامات ما يتبقى في الأرض من أصول الزرع بعد الحصاد. (المترجم)

(19) نذكر بأن الآيات التي نضعها بين معقوفتين هي اجتهاد منا في ترجمة ما يرد في النص الإسباني من كلام منسوب إلى الدين الإسلامي أو إلى الله تعالى. إذ نتوخى نقل أقرب الآيات إلى روح النص الأصلي. (المترجم)

(20) الإحضار: عدو الفرس.

(21) هكذا ورد الاسم العربي لهذا الوادي في «المسالك والممالك» للبكري. (المترجم).

(22) يقصد المغرب على عادة الإسبان في نعت المغرب بأفريقيا، والمغاربة بـ «الموروس».

(23) المقصود بالخليفة الجديد السيد الأجل، والخليفة الورع أبو محمد عبد الواحد. (المترجم)

(24) كان لقب الأمراء الموحدين هو «السيد/السادة». وإلى عهد قريب كانت بشرق إسبانيا سلسلة فندقية شهيرة تحمل اسم **SIDI hoteles** وهو اسم مستوحى من هذا اللقب العربي.

(25) «الوادي الكبير» **Guadalquebir** النهر الذي يشق إشبيلية، وعليه يقع مرفأها. ويطلق الأندلسيون والمغاربة لفظة «وادي» على النهر.

(26) في سنة 1671 أعلن بابا روما «كليمنتي العاشر» «فرناندو الثالث» قديسا، وذلك لما ظهر عليه - حسب الكنيسة - من علامات روحية خارقة، وما اتسم به من طهر، ولنجاحه في سحق مسلمي الأندلس. ومن ثمة، لا يعرف «فرناندو الثالث» ملك قشتالة هذا في التاريخ

الإسباني سوى باسم «فرناندو القديس». (المترجم)

(27) ارتحل أبو العلاء عن «بَيَّاسة» دون قتال نظرا لشدة البرد، وغزارة الأمطار، ومد النهر، وأيضا، خوفا من أن يدعو البياسي أنصاره من القشتاليين. فقوبل في إشبيلية بمنتهى الاستهجان، ورُمي بالجبن والتقاعس. (المترجم)

(28) لايشترط المالكية (مذهب الأندلسيين والمغاربة) في الوقف التأبيد، وأجازوا الوقف لمدة معينة ثم يرجع ملكا للواقف. توسعة على أهل الخير. (المترجم)

(29) المَحْرِزُ reducto حصن فرعي داخل حصن يلجأ إليه المدافعون عندما يستحيل عليهم الدفاع عن المركز الرئيسي. (المترجم)

(30) حكم الموحدون الأندلس زهاء ثمانين سنة، كانت من أزهى فترات الحكم الإسلامي بالأندلس قوة ومنعة، وتطورا علميا وفلسفيا وعمرانيا، قبل أن يدب الضعف والانقسام في الدولة. (المترجم)

(31) مُزرَّقٌ: ذو لون رمادي أو ضارب إلى الأرجواني.

(32) الاتفاق الذي أشرنا إليه بين الخليفة أبي العلاء المأمون وبين فرناندو الثالث. (المترجم)

(33) المقصود «الوادي الكبير» (المترجم)

(34) «الضبلة» dobla عملة من ذهب كانت تسك في قشتالة خلال القرون الوسطى. (المترجم)

(35) الاسم الأندلسي القديم لقلعة Alange. (المترجم)

(36) أي يطلبون بركة حامي الممالك الشمالية النصرانية في القرون الوسطى، وحامي إسبانيا اليوم، القديس «شنت ياقب». (المترجم)

(37) هكذا ورد اسمها العربي في إحدى الرسائل الموحدية. (المترجم)

(38) هكذا ورد اسمها العربي في إحدى الرسائل الموحدية. (المترجم)

(39) الصابورة: ما يوضع في بطن السفينة من الثِّقْل لئلا تميد.

(40) الراحلة: الصالح للسفر والحمل من الإبل ونحوه.

(41) اضطررنا إلى إعادة ضبط الأسماء التاريخية والأحداث الواردة في هذه الفقرة، لاختلاط الأمر على المؤلف. (المترجم)

(42) المقصود المتطوعة المغاربة الذين كانوا يعبرون المضيق إلى الأندلس بقصد الجهاد.

(43) لقد قمنا بترجمة هذا المعجم الذي وضعه المؤلف الإسباني في نهاية روايته دون أن نغير منه شيئا، ملتزمين بالأمانة العلمية.

(44) في الواقع، عرف هذا النهر في العصر الإسلامي بـ «الوادي الأبيض»، وأيضا، وهو المشهور بـ «وادي شقورة». (المترجم).